



الأدب العربي في تاريخه

في

العصر العباسي

الجزء الثاني

تأليف الأستاذ

محمود مصطفى

مدرس الأدب بتخصص المادة من الجامعة الأزهرية

الطبعة الثانية

[بها زيادات كثيرة مع شرح جميع النصوص شرحا لغويا بلاغيا]

طبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بصرة

١٣٥٦ هـ / ١٩٣٧ م / ٧٣٥

جميع حقوق الطبع والنقل محفوظة

مقدمة الطبعة الأولى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على محمد المبعوث بالمعجزة الكبرى لهذا
الناس إلى أقوم سبيل .

وبعد : فإني أستعين الله ؛ وأستهديه فيما أنا بسببه من الإلمام بتاريخ الأدب
العربي ؛ في عهد الدولة العباسية لطلاب السنة الثالثة من كلية اللغة العربية ؛ من
كليات الأزهر الشريف ؛ وإني أرجوه تعالى أن ينفع بهذا العمل الذي لم أرد به
إلا وجهه الكريم . اللهم فأعني واهدني وأحسن تدبيرى . إنك على كل شيء قدير .
محمود مصطفى

٣٠ - جادى الأولى سنة ١٣٥٢
٢٠ - سبتمبر سنة ١٩٣٣



الطبعة الثانية

وفي هذه الطبعة وشينا الكتاب بشروح وافية لنصوصه من نثر وشعر ، وزدنا من
الموضوعات والتراجم ما رأينا في التوسع به فائدة لقارئ الكتاب ، إذ لم يكن هنا فيه
أن نجعله مثل « مذكرات » المدارس التي يدمج فيها القول فينبوت على طالب الثقافة
العامة الانتفاع بها ، وإنما نعول في كل حال على توفيق الله وهدايته .

محمود مصطفى

٥ - من صفر سنة ١٣٥٦ هـ
١٦ - من إبريل سنة ١٩٣٧ م

العصر العباسي

هو أزهى عصور اللغة العربية . بلغت فيه ذروة الكمال رصانة واتساعا وجعلها تفرق من محاسن اللغات . فقد صارت فيه لغة الدين والعلم والأدب . وترجمت إليها علوم الدنيا من الطب ، والنجوم ، والكيمياء ، والحيل ، (وهو ما يسمى الآن علم الميكانيكا) ، والفلسفة ، والمنطق ، والسياسة ، وتدير المنزل ، حتى أصبحت العلوم في ذلك العصر تتجاوز ثلثمائة في الشرع واللغة . والتاريخ والأدب . والشعر وغيرها .

وما زال هذا العصر هو المثل الأعلى الذي يؤمل اليوم كل محب لغة أن يدور بها الفلك دورته . فتعود إلى ما كان لها فيه من سلطان ومكانة سامية ، وتكون لغة الأدب والعلم والفلسفة لا يعيها مصطلح ، ولا يتكادها معنى .

قيام الدولة العباسية

كان من شأن الدولة الأموية أنها حكمت الناس بالسيف للسلول ، والمال المبدول ، فكانت سيفها مصلاً على أعدائها ، ومالها مكيلاً لأنصارها ، واستمرت في حكمها زهاء قرن لم تعتمد السيف يوماً ؛ فكان من أعدائها آل على الذين يرون أنفسهم ويزام الناس أحق بهذا الأمر . وقد جهروا بالعداوة فلم ينفعهم الجهر ، ومرتهم سيوف الدولة شرمزق وكان أولاد عمهم العباسيون لا ينازعون العلويين ولا يرون مزاحمتهم على الخلافة كما لم يكن العباس ينازع علياً ولا يرى نفسه أحق بالأمر منه . ولكن قد حدث ما جعل الأمر ينتقل إلى العباسيين بعد أن سالت فيه دماء العلويين دهرًا طويلاً . ذلك أن على بن عبد الله بن عباس كان يقيم بقرية الحميمة

بالشَّراء^(١) ، (وهي صقع بالشام على طريق المدينة من دمشق) أقامه بها عبد الملك بن مروان ، فنزل عليه أبو هاشم بن محمد بن علي بن أبي طالب وهو الذي تنصره الشيعة المسماة بالكيسانية . فحين دنت وفاة أبي هاشم أدلى بنصيبه من الخلافة إلى علي وأولاده وأوصى أوليائه به فصارت الكيسانية إلى جانب علي بن عبد الله بن عباس . وقد أعدَّ العباسيون للأمر عدته ، فعمدوا إلى التستر حتى لا يصيبهم ما أصاب العلويين من القتل والتشريد .

انتقل الأمر بعد علي بن عبد الله إلى محمد ابنه ، وكان داهية ، فرأى أن انتقال الملك من بيت إلى بيت يحتاج إلى تدبير وحزم ؛ فأقام الدعاة ، وجعل عليهم التقباء وأوصاهم بالتكتم ، وجعل مقر الدعوة بلاد خراسان ، وكان من قوله لدعاته حين وجههم إلى الأنصار : أما الكوفة وسوادها فشيعة علي وولده ؛ وأما البصرة وسوادها فعتانية تدين بالكف ، وتقول كن عبد الله المقتول ، ولا تكن عبد الله القاتل ؛ وأما الجزيرة غرورية^(٢) ما رقة وأعراب كأعلاج ، ومسلمون في أخلاق النصارى ؛ وأما أهل الشام فليس يعرفون إلا آل أبي سفيان ، وطاعة بني مروان . عداوة راسخة ، وجهل متراكم ؛ وأما مكة والمدينة فقد غلب عليهما أبو بكر وعمر . ولكن عليكم بخراسان ، فإن هناك العدد الكثير ، والجلد الظاهر ، وهناك صدور سليمة ، وقلوب فارغة لم تنقسمها الأهواء ولم يتوزعها البغل ، وهم جند لهم أبدان وأجسام ، ومناكب وكواهل ، وهامات ولحى وشوارب وأصوات هائلة ، ولغات نغمة تخرج من أجواف مُنْكَرَة ، وبعد فاني أتفاد إلى المشرق ، وإلى مطلع سراج الدنيا ومصباح الخلق .

وقد ساعد على زوال دولة بني أمية ما يضر لها الموالى من حقد لسكرة ماولات عليهم من تحقير ، وابتزاز للأموال ومخالفة للعهود المعقودة لهم من أيام النبي صلى الله عليه وسلم ، والخلفاء الراشدين . فلم يسوهم بالمسلمين وإن أسلموا ، ومنعوا زواج المسلم

(١) الصراة : واد بين كبك وحصان .

(٢) حرورية : خوارج . سموا بذلك لأنهم أول ما خرجوا على علي رضي الله عنه اتخذوا حروراء مقاما لهم . وهي قرية قرب الكوفة .

منهم بالعربية ، وطلقوا عليه وزجه وجلوده ، قد روى الأغاني أن رجلا من الموالى
خطب بنتاً من أعراب بنى سليم وتزوجها ، فركب محمد بن بشير الخارجي إلى المدينة
ووالها يومئذ إبراهيم بن هشام بن إسماعيل فشكا إليه ، فأرسل الولى إلى المولى ففرق
بينه وبين زوجته ، وضربه مائتي سوط ، وحلق رأسه وحليته وحاجبيه ، فقال ابن بشير :

وَفِي الْمَائَتَيْنِ لِلْمَوَلَى نَكَالٌ وَفِي سَلْبِ الْخَوَاصِرِ وَالْخُدُودِ

وكان الحجاج يأمر أن لا يؤم بالكوفة إلا عربى ، وكان العربى إذا أقبل من السوق
ومعه شيء فرأى مولى دفعه إليه ليحمله عنه ، فلا يمتنع ، ولا السلطان يغير عليه . وإذا
أراد أحد أن يتزوج مولاة خطبها إلى مولاها دون أبيها أو جدّها .

هذا إلى أن الفرس كانوا يطمعون فى استعادة ملكهم ، فلم يستطيعوا ذلك
لأنفسهم لتقام الإسلام من نفوس القوم ، فحاولوه على يد غيرهم ممن لا تنكر مطالبته
بإلخافة ، فكان ذلك على يد العباسيين .

وإن العصبية التى كانت تفت فى عضد الأمويين طول أيام دولتهم ، وهى التى
كانت بين البينية والزارية ، وبين بعض هذين الحزبين وبعض هى التى قضت على
دولتهم أخيراً . فإن أبا مسلم الخراسانى نصير دولة بنى العباس لم يسهل عليه التغلب على
عرب خراسان إلا حين استخدم الحيلة ، واستعان بالشقاق القائم بين قبائلهم هناك .
فقد كان الولى نصر بن سيار مضرئاً يسيطر على المضريين ، وكان إلى جانبه شيبان
ابن سلمة الحزورى يسيطر على أغلب ربيعة ، ومعهم جندب بن شبيب الكرمانى له
طاعة البائية .

فما زال أبو مسلم يؤرث العداوة بين هؤلاء حتى وقموا جميعاً فى يده وطلب منه
كل النصر على قرنه ، فجمعهم فى مجلس ، وجعل الرأى لأصحابه ، وكان قد أوعز إليهم
أن يختاروا وفد ربيعة واليمن لأن الملك فى مضر ، وهم يريدون إذلالهم ، فاستعان ببعض
على بعض ، ثم قضت سياسته القضاء عليهم جميعاً .

سياسة الدولة العباسية

قامت هذه الدولة على أسس : هما تعظيم أمر الدين والاعتزاز بالموالي ؛ فأما الدين فإنه أول ما تقموا من الأمور ، وهاجوا به الناس عليهم ، وللادين المكان الأول من نفوس الناس ، خصوصا هؤلاء الشذج الأطهار الذين لا يطعمون في ولاية ولا يؤملون جاهها عند أحد ، وهم صامة الشعوب وسوادها .

وقد رأينا أن خطب بنى العباس في أول خلافتهم امتلأت بالنيل من بنى أمية لإهالمهم أمر الدين ، واستهاتهم بشأنه ، كما رأينا أن أبا مسلم الخراساني حين حضرته صلاة عيد الفطر عام ١٢٩ هـ ببلدة إسنيدنجة من مرو أمر سليمان بن كثير أن يصلى بالقوم قبل الخطبة بلا أذان ولا إقامة ، وكان بنو أمية يبدعون بالخطبة ثم بالأذان ثم بالصلاة بالإقامة كصلاة الجمعة ، وأمره أن يكبرست تكبيرات تباعا ، وكان بنو أمية يكبرون في الأولى أربعا وفي الثانية ثلاثا .

ومن رغبتهم في أن يكون الدين هو مظهر دولتهم كثر من خطباتهم الأولين الاقتباس لآيات القرآن كما جعلوه شارة الدولة ، فكتبوه على أعلام جيوشهم ، وملابس جنودهم ؛ وفي سيكتهم وجميع ما يصدر عنهم ، كما عظموا شماء الله وبيته المحرم ، فكان لا يخلو عام من حج خليفة أو ولي عهد ، وساقوا إلى الكعبة وقبر الرسول الكسى من ثمين الحرير ، وعملوا على راحة الحاج بما حفروا من آبار وجروا إلى مكة من ماء العميون . وقد ذكر التاريخ أن المهدي ركب إلى الحج في كثير من عظماء دولته وأبدى من الأنفة ما لم يسبق له مثيل ، حتى لقد أقام لأهل الحرمين المآذب التي أفرغ الوسع في تنقيها ، وسقام الماء المبرد بالتلج المحمول من الشام ، وفرق فيهم المال ، وكسا الكعبة ، وطلّى جدرانها بالمسك والعنبر ، وأنشأ رواقات المسجد الحرام ، وجلب لها الرخام من البحر ، وبلغ ما أنفق على ذلك وعلى القصور بطريق مكة واتخاذ المصانع^(١)

(١) المصانع : جمع مصنعة أو مصنع وهو الخوض يتخذ ليتجمع فيه ماء الطر .

في كل منهل منها ، نحواً من ستة آلاف ألف دينار . وهكذا كان يفعل غيره فقد كان الرشيد يحج عاماً ويفرز عاماً . وقد لبس بنو العباس السواد نعيّاً على بنى أمية لقتلهم آل البيت واعتدائهم على حرّامات الله .

وأما الاعتزاز بالموالي ، فذلك لأنّ الأمويين كانوا قد أفسدوا قلوب العرب فليست تصلح لغيرهم ، على أنّ أهواء أولئك العرب كانت قد تشعبت فلم يصيروا قوّة يعتدّ بها . ولكن أهل خراسان كما وصفهم محمد بن عليّ كانت لهم صدور سليمة ، وقلوب فارغة لم تنقسمها الأهواء ، ولم يتوزعها الدغّل ... الخ ما وصفهم به من الجلد والقوّة ، وقد أحسن العباسيون مثوبة الفرس ، فكانت منهم جبهة الجيش والولة في الأمصار والعمال في الدواوين ، وكان منهم الوزراء بل منهم أول من تسمى بالسلطان ، وهو جعفر بن يحيى البرمكي في زمن الرشيد . ويصحّ أن نقول : إن الفرس داخلوا العرب مداخله شديدة في عظيم الأمور وحقيرتها ، حتى كان منهم الوزير وساق الماء بالجرّة .

اعتمد العباسيون على الفرس ذلك الاعتداد ، وأقصوا العرب عن مراكزهم حتى لقد حاربهم واضطروهم إلى العودة إلى جزيّرتهم لثلاث فسدوا عليهم أمرهم ، وإنك تترى هذه الروح متمثلة في قول إبراهيم بن محمد صاحب الأمر في الدعوة في وصاته لأبي مسلم الخراساني :

« وإن استطعت ألا تدع بخراسان لساناً عربياً فافعل » ، ثم في قول المنصور في وصاته لابنه المهديّ : « وانظر مواليك فأحسن إليهم وقربهم واستكثر منهم ، فإنهم مادتك لشدتك إن نزلت بك . وأوصيك بأهل خراسان خيراً ، فإنهم أنصارك وشيعتك الذين بذلوا أموالهم ودماءهم في دولتك ، ومن لا تخرج محبتك من قلوبهم ، أن تحسن إليهم وتتجاوز عن سيئتهم ، ونكافئهم على ما كان منهم ، وتخلف من مات منهم في أهله وولده » ، ثم في قول المأمون وقد تعرض له رجل بالشام مراراً وقال : يا أمير المؤمنين ، انظر إلى عرب الشام كما نظرت إلى عجم خراسان ، فقال له المأمون : « أكثرت علىّ يا أخا الشام ، والله ما أنزلت قبساً عن ظهور خيولها إلا وأنا

أرى أنه لم يبق في بيت مالى درهم واحد ، وأما الذين فوالله ما أحببتها ولا أحبتي قط ،
وأما قضاة فسادتها تنتظر السفينى حتى تكون من أشياعه ، وأما ربيعة فساخطة على
ربها منذ بعث نبيه من مضر ، أعرفت ذلك ؟ اعزب عنى فعل الله بك » .

ولما فسد أمر الفرس ويطروا نعمتهم ، ودلوا بمكائهم تغيرت عليهم قلوب الخلفاء
فكتب الرشيد أعرانه منهم وهم البرامكة ، ثم رأى المعتصم أن يستعين بالأتراك فإن
فيهم من الشجاعة وقوة الأجسام ما يقاوم به الفرس والعرب جميعاً ، فاستكثر منهم
حتى كان عنده منهم سبعون ألفاً ، فصاروا يؤذون الناس بطرق بغداد ، ويدوسون
شيونهم وأطفالهم بسنابك خيلهم ، فاضطر أن يسكنهم « سُرَّ مَنْ رَأَى » فصار
قاعدة الدولة من سنة ٢٢١ هـ إلى أيام المعتد حين عاد إلى بغداد سنة ٢٧٩ هـ
ولكن الأتراك أيضاً استبدوا بالخلفاء استبداداً شديداً ، فصاروا يولون ويعزلون ويقتلون ،
وما يحكى من استبدادهم أنه لما تولى المعتز قد خواجه وأحضروا للنجسين وقالوا لهم :
انظروا كم يعيش الخليفة ، كم يبقى في الخلافة ؟ وكان في الجالسين ظريف ؟ قال
لهم : أنا أعرف من هؤلاء بمقدار عمره وخلافته ، فقالوا له : فكم تقول إنه يعيش ، كم
يملك ؟ قال : يعيش ما أراد الأتراك . فكان قوله فكاهة تنطق بالحق ، وتمثل الواقع .
وصارت الدولة للأتراك بعد أن كانت للفرس ثم صارت للفرس على يد البويهيين ،
ثم للأتراك على يد السلجوقيين ، وما زالت هذه العناصر تفت في عضد الدولة ، وتقرع
صفاتها حتى قضت عليها

نتائج مداخلة العرب للموالى

ولقد كان لهذه المداخلة التي جرت بين العرب وتلك العناصر خصوصاً الفرس ،
أثرها الفعال في صيرورة الأمة العربية ، ولعتها إلى ما كانت عليه في هذا العصر ، وقد
ظهرت آثار هذه المداخلة في الأجسام والمقول ، والعادات وسائر
شئون الاجتماع .

أما أثرها في البنى والأجسام ، فقد كان بالمصاهرة والتزاوج ، وقد أقبل عليه العرب ، وأكثروا منه في هذا العصر لزوال النعرة التي كانت تملكهم قديماً ، قسروا وتزوجوا من الأعجميات لما كان لمن من جمال وافر ، ولما رأى الناس من نجابة نسلهم . فقد ذكروا أن أهل المدينة كانوا زاهدين في التسرى حتى نشأ فيهم على ابن الحسين ، ومحمد بن القاسم ، وسالم بن عبد الله ، ففاقوا أهل المدينة علماً وورعاً . كذلك رغب الناس في التسرى خلفه مثوثته ، حتى قالوا : الأمة تشتري بالعين وترد بالميب ، وقالوا : عجبت لمن عرف الإمام كيف يقدم على الحرائر ؟ .

كثر التسرى في هذا العصر . وفي هذه الكثرة يقول الشاعر :

إِنَّ أَوْلَادَ السَّرَارَى . كَثُرَتْ يَارَبِّ فِينَا .

رَبِّ أَدْخَلْنِي بِلَادًا لَا أَرَى فِيهَا هَيِّعِنَا

وكثر أيضاً أن يتزوج غير العربي من العربية بعد أن عرفت ما كان من شأنه في العهد الأموي . وليس أدل على مقدار ما كان من هذا التسرى من أن تنظر إلى خلفاء بني العباس منذ المهدي إلى آخرهم فإنك تراهم جميعاً أبناء سراري ما عدا الأمين ، فقد كانت أمه عربية هاشمية وهي زبيدة بنت جعفر بن المنصور ، فوسى المهدي وهارون الرشيد ابناً الخيزران ، وهي أم ولد من حُرَشَنَة من بلاد الروم ، والمأمون تسمى أمه مَرَّاجِل ، وأم المعتصم تسمى مَارِد ؛ والواثق أمه رومية تسمى قَرَاطِيس ، والمتوكل أمه خَوَارِزْمِيَّة تسمى شُبَّاج ، وهكذا .

وقد كتب محمد بن عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب إلى المنصور في كتاب لاحاه فيه يقول : « ولا أعرفت في الإمام ولا حضنتي أمهات الأولاد » ، فكان من رد المنصور عليه : « وأما ما ذكرت أنه لم تعرق فيك الإمام فقد فخرت على بني هاشم طراً . أولهم إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم علي بن الحسين الذي لم يولد فيكم بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم مولود مثله » .

ولقد بلغ عدد جوارى الرشيد ألفين ، وجوارى للتوكل أربعة آلاف ، وشأن غير الخلفاء من كبار رجال الدولة وأغنيائها شأن الخلفاء في ذلك .

وليس ينكر ما للاختلاط بين الأم بالتزواج والتوالد ، من أثر في فراة الأجسام وقوتها ، والحديث يقول : « اغتربوا لا تَصُورُوا »^(١) ، ويقول الشاعر :

أُنْذِرْ مَنْ كَانَ بِعِيدِ الْمَهْمِ تَرْوِيحَ أَوْلَادِ بَنَاتِ الْعَمِّ
* فَلَيْسَ يَنْجُو مِنْ ضَوْئِ وَسْوَءٍ *
* فَلَيْسَ يَنْجُو مِنْ ضَوْئِ وَسْوَءٍ *
* فَلَيْسَ يَنْجُو مِنْ ضَوْئِ وَسْوَءٍ *

لذلك رأينا في العصر العباسي من المجناء من ضرب بهم المثل في الشجاعة حتى قال الأصمعي : ما ضرب رهوس الأبطال كابن الأعجمية ، وكان عمر رضى الله عنه يقول : ليس قوم أكيس من أولاد السراى لأنهم يجمعون عن العرب ودعاء العجم .

أما أثر هذا الاختلاط في العقول فهو أثر ظاهر ليس أقل منه في الأجسام فإن هذه الأم التي عاشرها العرب لها مدنيات سابقة ، ومزايا خصها الله بها ، فقد ذكرنا أن السند معروفة بالصيرفة ، وتركيب العقاقير ؛ والصين تذكر بالصناعة : من الخمر والنحت ، والتصوير والنسيج والصباغة ؛ واليونان عرفوا بالحكمة وقوة الفكر ؛ والفرس عرفوا بالسياسة والتدبير ؛ والهند اشتهرت بالحساب والتنجم والطب . ولا شك أن هذه المزايا تمثلت في النسل الناتج بين العرب وهؤلاء الأقوام ، كما انتقلت بالمعاشرة والتلقين ، فحصل للعربى وراثته في قواه العقلية لم تكن له ، وفهم بالمدارس والمناقشة ما لم يكن قبل يتقبله . وكان من أثر استيلاء العرب على بلاد هذه اللدنيات أن استولوا على كتب علومهم وحكمتهم ؛ فأقبلوا عليها يترجمونها ويدرسونها ، فنشأ فيهم جيل جديد يمتاز بصفات موروثه ، وعلوم مكتسبة لم تكن له لولا هذه المعاشرة والمداخلة .

أما ما كان من شأن العادات والأخلاق ، فذلك أيضاً لازمة لا تنفك ، ونتيجة لا تتخلف لهذا الاشتباك الذى تم في هذا العصر ، فالإنسان قد ركب فيه حب التقليد .

(١) في النهاية لابن الأثير « ولا تصوروا » بالواو .

فلما رأى العربى ما يأتیه هؤلاء العشاء من عاداتهم فى طعامهم وشرابهم ، وأعيادهم ومواسمهم . انتقل إليه كل ذلك بالعدوى وليس شىء أعدى من الأخلاق والعادات ، لذلك رأينا العربى وقد طرح أفقته الجاهلية وعصبيته الأموية ، فأقبل على عادات جيرانه يأتیها مثلهم ، ويكون فى الاستمساك بها كأحدهم . فهذا عيد النيرُوز قد صار العرب فى عهد العباسيين يحتفلون به كما يحتفلون بعيد الفطر أو الأضحى ، ويتهادون فيه ويتزاورون ، ويلبسون الجديد ، ويخرجون إلى الرياض كما يفعل أصحابه القدماء . كذلك تزام قد قلدوهم فى ملابسهم فآخذوا القلائس والأقبية ، وضروب الملابس الفارسية ، ولم يقتصرُوا فى اتخاذ ألوان طعامهم ، وأنواع أشربتهم والقناء على طريقهم ، وبما رأوا فى أيديهم من أدوات موسيقاهم .

ولا ننس أن لهذه المدينة القديمة عيوباً كان العرب ناجين منها قبل هذه المخالطة فوقعوا فى أمرها ، وجرها عليهم نزولهم إلى هذا المترك الذى كانوا يتحاطونه سابقاً . ومن تلك العيوب ما استأزمه المال الكثير للتداول بينهم من ترف بالقوا فيه حتى كانت مواعيدهم تتحد فيها ألوان الأطعمة حسداً . فتبلغ على مائدة الرشيد ثلاثين لونا ، وينفق عليها فى كل يوم عشرة آلاف درهم ، وحين بنى بريدة بنت جعفر اتخذ وليمة لم يسبق مثلها فى الإسلام . وجعل الهبات فيها غير محصورة ، فكان يهب أوانى الذهب مملوءة فضة ، وأوانى الفضة مملوءة ذهباً ، وقد فعل المأمون أكثر من ذلك حين بنى ببوران بنت الحسن بن سهل سنة ٢١٠ هـ ، فإنه أعطاه فى مهرها ليلة زفافها ألف حصاة من الياقوت ، وقد أوقد الشموع من المنبر فى كل واحدة مائة من . وليس أقل من هذا ما فعله الحسن بن سهل فإنه نثر على الهاشميين والقواد والكتاب والوجوه بنادق مسك فيها رقاق بأسماء ضياع وجوار وصفات دواب وغير ذلك ، فكانت البندقة إذا وقعت فى يد الرجل فتحها وقرأ ما فيها ، ثم يمضى إلى الوكيل للرصد لذلك فيتسلم ما فيها .

كذلك فشا فى القوم إلى جانب هذه اللذمة ما يتبعها غالباً من حرص على المادة . وما يدعو إلى ذلك من غش وخداع ورشوة لمن بيده سبب إلى منفعة . فالعامل يرشو

من يستطيع مساعدته في الولاية لعمل من أعمال الدولة ، والوزير يأخذ من كل هؤلاء ، ويقتني المال الكثير والضياع العامرة والجواهر الثينة ، والخليفة ربما سقطت همته إلى استصفاء مال الوزير ليشمع نهمته من هذه الثروة الطائلة ، ولقد بلغ أن صار استصفاء أموال الوزراء وسيلة لشد النفقات التي يكون بيت المال قد عجز عنها ، وذلك للاعتقاد السائد بل للحقيقة الواضحة ، وهي أن هذه الأموال جمعت من غير حلها وأن بيت المال أولى بها .

أما الاستهتار بالشهوات وإشباع الرغبة من الموبات ، فقد كان سببه أن العرب أدركوا هذه الأمم وهي على أبواب الفناء فلم تكن المدنية قد تركت لهم طريقاً ينفذون منه إلى شهوة إلا عبثته لهم ، وقد ساعد الشعر العربي على رواج المفاصد بين الناس حتى لقد ضج أهل البصرة من إغراء بشار للفتيان والفتيات بشعره وتحريضه لهم على الفجور وهو الذي جعل للفتيات يومين في الأسبوع يتلقين فيهما ما يكون قد أخذته من من شعر يصلح للفناء . وفيه مافيه من دعارة ، ولقد أصاح المهدي لشكوى الناس فأناذر بشاراً إن تغزل ، ولكنه كان يخال على ذلك ، فيقول مثلاً :

يا منظرًا حسنًا رأيته من وجه جارية فديته
بعثت إلى نسومي برّد الشباب وقد طويته
والله ربّ محمد ما إن عذرت ولا نويته
أمسكت عنه ورّبما عرض البلاء وما ابتغيته
إن الخليفة قد أبى وإذا أبى شيئاً أكبته
وهكأني لللكُ الهما م عن النساء فاعصيته
بل قد وقيت ولم أضيع صهدا ولا وأيا وأيته^(١)
ويشوقني بيت الحبيب إذا غدوت وأين بيته ؟

حال الخليفة دونه فصيرت عنه وما قليته

ومن هذه المفاقد قديماً ما أخذه الله على آل لوط فأهلكهم بسببه فإن العرب لم يكونوا يعرفون هذه النقيصة ، ولا ورد لها ذكر في كلامهم ، ولا عرفت بين عاداتهم في جاهلية ولا إسلام ، حتى عاشروا القرس وهي فيهم متأصلة ، فهان عليهم أمرها ، وتورطوا فيها ، وجهر شاعر من الشعراء بالرضا عنها ، وهو أبو نواس ، فصارت سنة في الشعراء كما كانت عملاً من مخازي القساق ، وأصبحنا لا نكاد نرى غزلاً إلا في المذكر ، وتلك وصمة للأدب العربي والخلق العربي قد سجل علينا في الكتب عارها .

ومن قول شيخ هذه الوصمة أبي نواس :

أما والله لا أشراً خلّفتُ به ولا بطراً^(١)
لو أن مرّقتاً حتى تعلّق قلبه ذكر^(٢)
كأنّ ثيابَهُ أطلّفن من أذراره قرأ
ومرّ به يديوان الخراج مُصنّعاً عطراً^(٣)
بوجه سابري لو تصوّب ماؤمّ قطراً^(٤)
وقد خطّ حواضنه له من عنبر طرّاً^(٥)
بعين خالط التفتيش في أجفانه حوراً
يريدك وجهه حسناً إذا ما زدته نظراً

(١) الأشر : المرح . البطر : فلة احتمال النعمة ، والطفان بها ، وكراهة العلم من غير أن يستحق الكرامة .

(٢) المرقتش : شاعران كان كلامهما عاشقاً وقد ذكروا سبب تغليب الأول وهو قوله :

الدار قهر والرسوم كما رقت في ظهر الأديم قلم

ولم يذكروا سبباً لتغليب الثاني ولعله لما كان أمّا الأول سرى إليه لقبه وكلا الشاعرين جاهل .

(٣) الضمخ : طلع الجسد بالطيب .

(٤) وجه سابري ، رقيق ، من قولهم : ثوب سابري ، يريدون رقيقاً جداً .

(٥) الطرة : مقدم شعر الرأس .

لَا يَقْنُ أَنْ حُبَّ لُزٍّ دِيْلَقِي سَهْلُهُ وَعَرَا^(١)
خُصُوصًا أَنْ بَقْصَهُمْ إِذَا أَحْبَبْتَهُ اتَهَرَا

أقسام العصر العباسي

سنة ١٣٢ - سنة ٦٥٦ هـ

طالت مدة هذا العصر حتى زادت على خمسة قرون ، وقد جرت فيها الأحداث العظيمة حتى صار العصر عصوراً يختلف ما بينها وتباين أحوالها ، واللغة في كل ذلك تتقلب بها الأحوال لأنها هي النتيجة المحتومة ، والأثر الذي لا يتخلف لما يمر بالأمّة من أطوار أو يعتريها من انقلاب .

وإذا قلنا : إن العصر العباسي بدأ في عام ١٣٢ من الهجرة فليس معنى ذلك أن نتائج الانتقال من حكم بني أمية ظهرت بين يوم وليلة ، فإن ذلك لا يكون ، لأن المؤثرات التي تعترى الأمم لا بد لها من زمن تبذر فيه بذورها ، ثم تستوى على سوقها وتجيئ ثمرتها . فكثير مما جرى في العصر العباسي كانت له مقدمات في أواخر العصر الأموي . فهذه العلوم التي أدركت ثمرتها ، وتلك المذاهب الدينية والفلسفية التي ذاعت وشاعت ، بل هذه الحضارة التي رأيتها في العصر العباسي تتناول جميع مظاهره ، كل هذه الأمور كانت لها مقدمات في العصر الأموي ظهرت فيه ضعيفة وأنية ، ثم صارت قوية ناشطة . فالخمر مثلاً قد شربت في العصر الأموي واستهتر بها شراؤها ووصفوها في شعرهم . ولكن هذا كان إذ ذاك بدعة منكرة ، وشئمة ما يقدم عليها إلا مثل الوليد بن يزيد وندمانه . أما في العصر العباسي فقد تكاثرت عشاقها فجري وصفها على كل لسان وقالوه في غير حشمة ولا وقار ، وافتنوا في معانيها ، والتزموا الحديث عنها في شعرهم ،

(١) الرد : جمع أرد . وهو الذي طرّ (نبت) شاربهُ ولم يخرج له لحيه بعد . الوعر (بالفتح) بالسكون (أو بفتح فكسر) : ضد السهل . وفتحت العين للشر .

حتى كان في موضع النسيب من شعر السابقين لا يفعل ذلك واحد أو اثنان ، ولكنه
ديدن الشعراء جميعا . والعلم الذي زخرت بحوره في العصر العباسي كانت جداوله قد
بدأت تتكون أيام العصر الأموي ، فالتحق وضعه أبو الأسود ، وزاد فيه تلاميذه ؛ ثم
اشتغل به أهل البصرة والكوفة في العصر الأموي ، ثم اشتدت حركته ووضع أهم كتبه
في العصر العباسي . والترجمة ليست فكرة ناشئة ابتدأها وابتدعها المنصور ، ونماها
الرشد ثم أشعل جذوتها المأمون ، بل إن العصر الأموي على سذاجته كان له نصيب
من العلوم المترجمة فكُنَّاش أَهْرُون في الطب ترجمة مَاسَرْجَوِيَّة من السريانية إلى
العربية زمن مروان بن الحكم ، ونشره للناس عمر بن عبد العزيز . وخالد بن يزيد الملقب
بحكيم بن مروان ترجمت له كتب في الكيمياء وأقبل عليها يدرسها ويحقق مسائلها .
والمنصور لابد تتداخل ويسرى على سابقتها بعض أحكام لاحقها ، ولكن التمييز الظاهر
بين عصرين لا يكون إلا بعد انتهاء زمن اللدخاله بينهما . وإذا اعتبرنا الحوادث العظمى
التي جرت في العصر العباسي أمكننا أن نجعله ثلاث مدد :

١ - فالمدّة الأولى من قيام الدولة إلى استيلاء بني بُؤَيَّة على بغداد : أي من
سنة ١٣٢ إلى سنة ٣٣٤ هـ وهي قرنان من الزمان لم يدر الفلك بمثلهما ، فقد زهت اللغة
وزادت ثروتها من الألفاظ بما شملته من العلوم . يشد أزرها خلفاء وأمرأ لا يدخرون
وسعا ولا مالا في سبيل إحيائها لأنها لغة الدين الذي قامت عليه دولتهم ولسان الحق
الذي تنطق به حجتهم ، فأعطوا الشعراء بسطاء لم يهد في تاريخ الملوك حتى وهبوا على
كل بيت ألف دينار ، وأتقوا على نقل العلوم ما لم يعرف مثله في هم الملوك والأمراء
حتى كان البرامكة يعطون أجر الكتاب المترجم وزنه ذهباً . قَمَّ للغة في هذا العصر
ما لم يجتمع لها مثله في زمن ما ، إذ نشأت أغلب العلوم الإسلامية ، ونقلت العلوم
الدخيلة ، وازدهت أيامه بالأئمة المجتهدين والأعلام المحدثين . ومشهورى الرواة ، وجلة
العلماء ، وناقبى الشعراء ، وغول الكتاب ؛ ولعل أهم مظاهر هذا العصر أن الدرجة

التي وصلت إليها اللغة فيه نظماً وثرًا لم يحز فضيلتها عصر سابق ، ولا طمع في مساهمتها لاحق

وكان تمام الكمال في هذا العصر إلى أوّل خلافة التوكل ، ثم بدا من شأن الأتراك الذين استكثر منهم المعتصم (كما ذكرنا) استبداد بالخلفاء وسيطرة على شئون الدولة لم يبق معها ما كان للخلفاء من جلال وهيبة شاملة ، وإتفاق في سبيل العلم والأدب . لأنهم شغلوا بأنفسهم بين حذر من الأتراك ، واستسلام إلى الملاحى ، وعكوف على الشهوات ، وخضوع لحكم النساء اللاتي صرن يشاركن في سياسة الدولة حاجتهن إلى المال . وأكثر ما كان استبدادهن بأمور الدولة أيام القندر التوفى سنة ٣٢٠ هـ .

٣ — والمدة الثانية من استيلاء بنى بويه — وهم من الفرس — على بغداد ، إلى اتزاع السلاجقة (وهم من الأتراك) للحكم من أيديهم ، وذلك من سنة ٣٣٤ إلى ٤٤٧ هـ . وجدّ آل بويه الذي أسس هذه الدولة اسمه بويه . ولقبه أبو شجاع ، وكان له ثلاثة أولاد ، هم : على ، ولقب عماد الدولة وحسن ، ولقب ركن الدولة . وأحمد ، ولقب معز الدولة ؛ وقد انتظم هؤلاء الأولاد في سلك الجندية ، ثم ما زال الحال يرتقى بهم حتى تولى عماد الدولة خراسان على مال يدفعه للخليفة ، وتملك أخوه ركن الدولة خوارزم ، ومعز الدولة شيراز ، ثم دخل الثلاثة بغداد في أيام المستكفي سنة ٣٣٤ هـ ، فرحب بهم ، وخلع عليهم ، ولقبهم الألقاب السابقة ، فاستبدّ بنو بويه بالدولة ، وعزلوا الخلفاء وولهم ، ورفضوا منار الشيعة ، وأحيوا معالمها ، ولما أفضت إمارة الأمراء إلى عضد الدولة اتعب بالملك ، وهو أوّل من خوطب بهذا اللقب في الإسلام .

وفي مدة بنى بويه ، وهي قرن ونيف تَضَيَّعتْ العلوم على اختلاف أنواعها ، وظهرت فيها الكتب الوافية خصوصاً في اللغة وعلومها والتاريخ والأدب والطب والفلسفة . وإذا كان العصر الأوّل عصر ازدهار البلاغة ، وورق الشعر والكتابة

الأدبية ، فإن هذا العصر هو العصر الذهبي للعلوم والتأليف . وقد عاصرت الدولة البويهية دول أخرى فارسية مشتقة من الدولة العباسية استقل بها ولائها لما شعروا بضعف الخلفاء . ومنها الدولة السامانية ^(١) بتركستان حكمت من سنة ٢٦١ هـ إلى سنة ٣٨٩ هـ ، والدولة الزيارية ^(٢) ببلخستان حكمت من سنة ٣١٦ هـ إلى سنة ٤٣٤ هـ . كذلك عاصرها غيرها من الدول التركية كالإخشيدية بمصر من سنة ٣٢٣ هـ إلى سنة ٣٥٨ هـ والفرزونية ^(٣) بأفغانستان والهند من سنة ٢٩٣ هـ إلى سنة ٣٨٠ هـ ، ودول عربية كالفاطمية بمصر من سنة ٣٥٧ هـ إلى سنة ٥٦٧ هـ والحمدانية بالشام من سنة ٣١٧ هـ إلى سنة ٣٩٤ هـ .

وقد تنافست هذه الدول في إكرام العلماء ، وترغيبهم في التأليف خدمة للدين ، وإعزازاً لشأنه ، فكانوا يؤلفون الكتب برسم هؤلاء الأمراء . كذلك كثرت المكاتب التي تحوى مئات الآلاف من الكتب ، ومنها ما كان عاماً لطلاب العلم ، كمكتبة المزيديين التي كانت تحوى ألف ألف كتاب في الفقه والنحو والحديث والتاريخ والنجامة والروحانيات ، ومكتبة الحاكم بأمر الله التي كانت تسمى دار الحكمة أو دار العلم ، وقس على ذلك مكتبة سابور بن أردشيسير وزير بهاء الدولة بن بويه في بغداد جعل فيها أكثر من عشرة آلاف مجلد كلها مخطوط بخطوط الأئمة ، وكان المؤلفون يقفون عليها نسخاً من مؤلفاتهم وقد احترقت فيما احترق من محال الكرخ ^(٤) ببغداد عند دخول أول ملوك السلاجقة طغرل بك إلى بغداد سنة ٤٤٧ هـ . وفيما وراء النهر يبخاري كان لنوح بن منصور سلطانها مكتبة اشتهرت باقتباس ابن سينا علومه منها .

٣ - والمدة الثالثة كان ابتداءها من استيلاء السلاجقة على بغداد سنة ٤٤٧ هـ

(١) نسبة إلى جدم سامان . (٢) نسبة إلى مؤسسها مرداوخ بن زيار .

(٣) نسبة إلى مدينة غزنة التي نشأ منها مؤسس الدولة .

(٤) الكرخ من بغداد : سوق الباعة جعله المنصور خارج أسوارها حتى لا يتسرب جواسيس

الأعداء إلى المدينة باسم البيع والتمراء (ياقوت) .

إلى دخول المُغلّ وتلّهم لعرش الدولة العباسية من العراق سنة ٦٥٦ هـ . ولهذا الدولة شأن غير الدول التي تفرعت من الدول العباسية . فإن ملوك هذه الدول كانوا فرساً أو تركاً نشأوا في حجر الدولة ثم تولوا جزءاً منها فاستقلوا به . أما هذه الدولة فقد ظهرت فجأة ببلاد تُركِستان ، فاكسحت الإمارات الصغيرة حتى وصلت إلى بغداد ، فاستولت عليها .

وجدّها وهو سلجُوق أمير تركي كان في خدمة بعض خانات تُركِستان ، وعظم شأنه بين جنوده ، وأطاعوه أعظم طاعة ، ثم علم باختلال أحوال الدولة العباسية ، فقطع فيها ، ولكنه رأى أنه لا يبلغ إداه منها إلا بالإسلام فأسلم هو وقبيلته ، ثم أقبل يغزو ويفتح حتى دانت له البلاد من أفغانستان إلى بحر الروم . ودخل مُغزُلُ بك بغداد أيام القائم بأمر الله فرحب به ، وتقدّم إلى الخطباء أن يحضبوا له ببوامع بغداد . ومن مزايا هذا العهد اتعاش السنة بعد أن تضعفت على يد الدولة البويهية بالعراق وفارس ، والدولة الفاطمية بمصر . وكلتا الدولتين شيعة تنعصب لآل علي . كذلك من مزاياه انتشار المدارس في العالم الإسلامي ، وأشهر مدارس هذا العصر للمدرسة النظامية ببغداد أنشأها نظام الملك وزير ملك شاه السلجوقي ، وجعل التعليم فيها بالجمان ، وفرض لطلابها الأرزاق ، وكان لها شأن كبير في العالم الإسلامي . فقد كان من أساتذتها : أبو اسحاق الشيرازي ، والإمام أبو نصر الصبّاغ ، وحجة الإسلام الغزالي ، والسهروردي الشاعر ، وكمال الدين الأنباري ، وأبو زكريا التبريزي . ومن نابهي طلابها عماد الدين الأصفهاني ، وكال الدين الأنباري الذي صار أستاذاً بها .

وقد اقتدى بالوزير نظام الملك غيره من الأمراء ، فأنشئوا للدارس الجانية في أنحاء المملكة الإسلامية . واشتهر نور الدين زَنْكِي صاحب دمشق المتوفى سنة ٥٧٧ هـ ببناء المدارس في دِمَشْق وحلب وحماة وبَيْلَبَك وَمَنْبِج ، ثم السلطان صلاح الدين المتوفى سنة ٥٨٩ هـ ببناء المدارس في مصر والإسكندرية ، وجاء في رحلة ابن جُبَيْر ، وقد طاف بلاد الإسلام الشرقية في القرن السادس أنه شاهد عشرين مدرسة في دمشق ، وثلاثين في بغداد .

كذلك يمتاز هذا العصر بالكتب الجامعة التي تحوى حقائق كثيرة محذوفة
الأسانيد ، وذلك لأنهم رأوا الفتن التي مرت بالمسلمين تقضى على الكتب وتذهب
بمجهود العلماء ، فعمدوا إلى التلخيص والجمع ليكون الكتاب الواحد حاوياً لعشرات
من الكتب ، وقد أحسنوا تبويب ذلك وترتيبه ليسهل الاستفاح به ، ومن أهم ما بين
أيدينا من هذه الكتب معجم البلدان لياقوت الحموى ، وهو معجم كبير بأسماء البلاد
ويعدّ خزانة علم وأدب لأنه إذا ذكر بلداً أورد تاريخه ومن اشتهر من رجاله ، وقد
طبع هذا الكتاب جميعه بمصر فى أربعة أجزاء ومجلدين للفهارس ، وله كذلك معجم
الأدباء ، وهو أكبر وأوسع من معجم البلدان ترجم فيه للنحويين والكتاب والنسائين
والشعراء والأخباريين والمؤرخين ، ولكن الكتاب لم يعثر على جميع أجزائه ،
وقد طبع بمصر ما ظهر منها وهو ستة ، وكذلك من كتب هذا العصر الجامعة شرح
نهج البلاغة لابن أبى الحديد . فقد أخرجه صاحبه فى عشرين مجلداً ، وطبع بمصر فى
أربعة مجلدات كبيرة تقع فى نحو أثنى صفحة ، وفيه فوائد تاريخية ودينية كثيرة ،
وأظهر ما فيه تاريخ الخوارج ، فإنه لم يجتمع فى كتاب ما اجتمع منه فى هذا الكتاب ،
ومنها كتاب الأنساب للسماعى المتوفى سنة ٥٦٢ هـ وهو ليس فى الأنساب بمعنى
تسلسل الآباء ، وإنما المراد به الانتساب إلى بلد أو قبيلة أو أب أو صناعة أو تجارة
كما تقول الرازى نسبة إلى الرقى ، والبركاز نسبة إلى صناعة البرّ وهكذا ، وطريقة
السماعى أن رتب كتابه على حروف المعجم ، فإذا عرض للكلمة ضبطها ، ثم عرف
النسب إليه بأن يذكر تاريخه بلداً أو قبيلة ، وترجم للنسب ، وربما اشترك فى
اللقب الواحد أربعة فأكثر فترجمهم ، وقد تبلغ تراجمه كلها أربعة آلاف .
هذه هى مدد هذا العصر كان تكوينها بأسباب قوية أثرت فى الأمة العربية
تأثيراً ظاهراً حتى اتعلت اللغة والعلوم تبعاً لذلك ، وكان من آثار ذلك هذا الذى
ذكرناه مجملاً ، وسنعود إلى تفصيله فى الأبواب التالية .

تأثير اللغة الفارسية في اللغة العربية

إنما نخصّ اللغة الفارسية بالتأثير في اللغة العربية وآدابها ، لأنّ الفرس هم تلك الأمة العظيمة القدر ، الراسخة القدم في العلم ، القديمة المدنية ، الواسعة الرقعة ، وقد نزل العرب بلادهم منذ الفتح ، فكان حتماً من الحتم أن يتشربّ العرب علومهم ويستشعروا عاداتهم ، وأن تظهر آثار ذلك في لغتهم التي شاء الله أن تقهر لغة الفرس ، لأنها لسان الحاكم ذي السلطان ، كما أنها لغة الدين الذي لا يقبل أهل فيه هوادة ، ولا يرضون بقمط . أما الترك فهم وإن حكموا العرب حيناً ، واستولوا على رقعة مملكتهم الشرقية منذ قيام الدولة السلجوقية ، لم يكونوا مستطيعين أن يحدّثوا مثل ما أحدثته الفرس في نفس العربي ولغته . ذلك بأنهم قوم طارئون من جهات سحيقة احتلوا البلاد ، وحكموا أهلها بالسيف ، فلم تكن لهم تلك الكثرة التي يظهر فيها أثر المخالطة ، ثم هم أميون لا عهد لهم بالعلم ، ولا سابقة لهم فيه . نعم قد أحدثوا من الأثر ما ناسب قلتهم ، أحدثوا هذه الألفاظ التي رأيناها تظهر في آخر أيام الدولة ، مثل سنجقدار ، ومعناها : حامل الراية خلف السلطان ، وسنجق معناها بالتركية : رمح ودار معناها بمسك ، ومثل دودار بمعنى : متولى أمر الأحكام وتنفيذها ، ومهندار : أى متولى الضيافة لمن يرد على السلطان من رسل وغيرهم ، وسردار : أى رئيس الجيش ، وفارسيته : إسمه الآر .

على أن الذي جعل التركية لا تخلف أثراً عظيماً أنها لم تأت إلا بعد أن استوفت العربية ما تحتاج إليه من مصطلح في العلم ، ومستعمل في الأدوات فلم يكن ثمة محل لألفاظ تلك اللغة .

يضاف إلى ذلك تأثير في لغة التخاطب جر إليه اختلاطهم بالناس ، فمرت بعض

أفناظهم إلى الألسنة ، ولكن هذا التأثير لا يمتد شيئاً مذكوراً إلى جانب ما أحدثته الفارسية .

كان الفرس أهل فصاحة في لغتهم يعنون فيها باللفظ الموثق ، والوقع الحسن ، فعندهم ازدواج وسجع ، وعندهم جناس وأنواع كثيرة من البديع ، وهم يحكون نوعي الكلام من طويل ضافي الذيل ، وقصير متناهي القصر ، ولهم غرام بالتوقيع كان يقوم به الكتاب أمام رؤسائهم والوزراء في حضرة ملوكهم ، وكانت في لغة العرب كل هذه الخصائص ولكنهم لم يلتفتوا إليها لأنها من الزينة ، وقد كانوا إلى حين مداخلتهم للفرس جفاة سذجاً لم تصقلهم المدنية ، ولم ترهف ألسنتهم وأذواقهم مناظرها ومحاسنها ، ولكنهم حين عاشروا الفرس رقت طباعهم ، فبدؤوا يتجهون اتجاههم ، وحقق العربية من الفرس كثيرون ، فلم يحجموا عن نقل محاسن لغتهم ، وأنيق أساليبها إلى العربية التي طردوا عليها ، ورأوا في حذقها رزقاً واسعاً ، وسمواً كبيراً يدينهم من مجالس الملوك ، ويفرغهم بالفنى الواسع ، ذلك هو كرمى الوزارة الذى كان وثقاً على كلّ بارع من الكتاب .

كذلك تعلم كثير من العرب لغة الفرس التماساً للذة ، واستمتاعاً بقراءة آثار هؤلاء القوم والاطلاع على تاريخهم ومقدار عقولهم . فكان لأسلوب اللغة الجديدة عدوى صارت إلى لغتهم الأولى . فكنت ترى فارسياً حذق العربية ، وعربياً أجاد الفارسية ، وكلاهما يزيد في العربية لغة الدولة والدين والخطاب والتأليف كل ما يراه من محاسن الفارسية .

وقد بلغ أن قومًا حذقوا اللغتين حذقاً تاماً ، وكان لهم في الأدب العربى آثار جليلة ، كابن المقفع ، والفضل بن سهل ، وسهل بن هرون ، وموسى بن سيار ، وبدیع الزمان الهمداني ، والفخر الرازى ؛ ويحكى الجاحظ أن ابن سيار هذا كان من أعاجيب الدنيا ، كانت فصاحته في العربية كفاء فصاحته في الفارسية ، وكان يجلس مجلسه للوعظ والقصص ، فيقرأ الآية من القرآن ويفسرهما للعرب بالعربية وللفرس بالفارسية ،

فما يعرف الناس بأى لسان هو أين . كذلك كان بديع الزمان تلقى عليه الأبيات الفارسية فيترجمها للوقت والساعة إلى أبيات عربية ، وكذلك كان القمخر الرازى واعظاً بليغاً يعط بالعربية والفارسية .

وإذا أضفنا إلى تعلم الفارسية بالنشأة مرة ، وبالرغبة أخرى ، ما كان من بذل الخلقاء في سبيل الترجمة ونقل العلوم ، علمنا كيف كانت العربية تستفيد من كتابة هذه العلوم بها . وأدركنا مقدار الثروة الحاصلة من توفيق الترجمة بين المعانى العلمية العويصة والألفاظ العربية التى لا عهد لها بالخضوع لمثل هذه المعانى .

كذلك كان من نتائج هذه الترجمة وضع المصطلحات لمسائل هذه العلوم والأسماء لما يدرى فيها من آلة أو نبات أو حيوان أو كوكب ، وقد دل العرب في علمهم هذا على أنهم كانوا جديرين حقاً بهذه المدنية ، فإنهم لم يقفوا جامدين ، ولم يقبلوا كل ما جاءهم من اللغات الأخرى على حاله ، ولكنهم عرفوا أن في الجود حرماناً من الفائدة ، وفي الإباحة الماطقة جناية على اللغة . فسا كان في لغتهم له لفظ آخروه في الغالب على اللفظ الأجنبى ، ولم يحدوه في لغتهم أخذوه فهدبوا حواشيه وأخضعوه في الغالب لأوزان لغتهم ، وغيروا من حروفه ما لا يستطيعون النطق به ، فيخرج اللفظ بعد ذلك سائماً سهلاً ، وتستفيد اللغة غنى بهذا الجديد عليها ، وذلك العمل هو الذى يسمى التعريب أو الإعراب .

التعريب

كانوا يعرضون للباء الفارسية ، وهى بين الباء والقاء ، فيجعلونها باء أو قاء عربية فيغيرون بنتجه إلى قَنْزَج^(١) ، وفى بَرَد بَرَد أو فَرَد . وكذلك الجيم الفارسية ، وهى بين الجيم والكاف كانوا يجعلونها جيماً أو كافاً أو قافاً ، فيقولون فى كرداب ، وهو وسط البحر جرداباً ، وفى لكاهم لجاماً ، وكهرمان صيرهو إلى قَهْرمان^(٢) ، وكردان إلى كرد . وربما أبدلوا الحرف ، وهو فى لغتهم كما فعلوا بالشين يبدلون سينا

(١) القَنْزَج : الرقنس . قال فى شفاء الغليل : هو لعب للمجوس يأخذ بعضهم بيد بعض ويرقصون .

(٢) القهرمان : من يصير إليه أمر البيت وتديره .

مثل : دَسْت^(١) في دشت ، وإسماعيل في إثمایل ، ويمجلون مكان الحرف الأخير الذي لا يثبت في كلامهم جيًّا كما قالوا في كوسه كَوَسَجًا^(٢) ، ونموده نمودجًا ، وبنفسه بَنَسَجًا وهم في الغالب يلحقون الأعجمي بوزن عربي كما ألحقوا درهماً بِجَرَج^(٣) ، و بهرجا بجهر وديناراً بدیماس^(٤) ، وإسحاق بإعصار ، ويعقوب بِزُبُوع ، وجوزياً بكوكب ، وقد لا يلحقون كراسان ، وليس في كلامهم فعالان وكَاهِلِيلِج^(٥) ، وليس في كلامهم إفعِيلَل وقد ذكروا أن مما يعرف به العرب اجتاع الجيم والقاف ، كمنجنیق وجَلَنَبَلَق (لصوت الباب) ، واجتاع الصاد والجيم ، وكَصَنَجَة^(٦) وصَوَلجان ، وكذلك وجود نون بعدها راء مثل تَرَجِس ، وتَوَرَج^(٧) ؛ وكذلك الدال بعدها زای كهَنَدَز .

وقد عرب العرب ما احتاجوا إليه مما ليس في لغتهم من ألفاظ الأطعمة ، وأسماء الأدوات والنبات والأدوية ، والحق أنهم لم يقفوا عند الأخذ من الفارسية بل أخذوا من غيرها كاللبنانية ، وإن كان مأخوذ من الفارسية أكثر .

فما أخذوه من الفارسية أسماء الأطعمة ، ومنها : الطَبَّاهِجَة^(٨) طعام من بيض وبصل ولحم وأصلها تبايه ، والسَّكْبَاج لمرق يعمل من اللحم والخل أصله سكبسا وسك بمعنى خل وبا بمعنى طعام ، والنَّيْمِرِشْتُ للبيض الذي يشوى بعض الشيء ، ونيم معناها نصف ورشت معناها مشوى ، والسَّنْبُوسَج لرفاق ثقلی ، (وأهل مصر يقولون

(١) الدست : صدر البيت .

(٢) الكوسج : ناقص الشعر ، وقيل ناقص الأسنان ، والأول هو المعنى المعروف للكلمة .

(٣) المجرع : الأحمق ، والطويل للمشوق ، والكلب السلوقي الخفيف .

(٤) الديماس : الكن والسرب والحمام .

(٥) الاهليلج (وتكسر اللام الثانية) : ثمر منه أسود وأصفر .

(٦) الصنج : شيء يتخذ من الصفر يضرب بهضه بيض ، وآلة بأوتار يضرب بها .

(٧) التورج : سكة الحراث (آلة الحرث) .

(٨) الطباهجة : اللحم المشرح . (كما في الفاموس) ، وفي شفاء الغليل هو الكباب (كما في

كتاب تاج الأسماء) .

عنها سنبوسك) ، والقالوذق^(١) لما نسميه « بالوذه » ، واللوز ينج والجوز ينج لنوع من الفطائر يحشى باللوز أو الجوز . والزماؤد^(٢) وهو الرقاق الملقوف باللحم ، والكأمخ وجمعه كوامخ ، وهو مشه للطعام يتخذ من دقيق لبن وملح ويخفف ، وكذلك أسماء الأشربة ، ومنها : السكتنجين ، وهو شراب ينفع في تسكين العطش مركب من سك ، وهو خل وأنجيين بمعنى عسل ، والدوشاب وهو نبيذ التمر ، والأقسما وهو قميع الزبيب ، والجلاب لماء الورد ، وأصله كلاب ورد ، والمسطار حجر حلوة .

ومن أسماء النبات والأزهار : الدارصيني ، ومعناه شجر الصين ، والسذاب لبقول ، والخرشف لنوع من الخس البري ، والثوت ، وأصله توث ، أو توذ ، والسكرؤيا ، والخولنجان ، والأزروبون لنور أصفر ، مغرب آخركون : أى لون النار ، والفرس كانت تغافل به وتجعله خلف آذانها تيمناً . وأصل ذلك أن أرذشير بن بابل كان يطل من قصر ، فرآه في حديثه فأعجبه فنزل لجنيه ، فسقط القصر فتيمن ، والجلنار وهو زهر الرمان ، والبستان ، وهو مغرس الزهر أصله بوستان ، وبو : معناها رائحة ، وستان : معناها موضع .

ومن أسماء الحيوان : السمور^(٣) ، والسنجاب ، والقاقم ، والفنك^(٤) ، والخنشار لطير الماء .

ومن مصطلحات العلوم والصناعات : الأسطرلاب^(٥) وهو اسم يجمع الآلات التي

(١) فالوذ أو فالوذق معربه بالوذه . قال يعقوب ولاهل فالوذج (قاله الجوهري) .

(٢) الزماورد (بفتح الزاى) الرقاق الملقوف باللحم (كذا فى حواشى الكشاف) وفى القاموس المحيط : هو طعام من اللحم والبيض .

(٣) السمور (كتنور) : دابة يتخذ من جلدها غراء مشنة (غالبية الثمن) .

(٤) الفنك : دابة فروتها أطيب الفراء وأشرفها وأعدلها .

(٥) الاسطرلاب : آلة يقيس بها الفلكيون ارتفاع الكواكب (كذا فى شرح التروميات) . وفى القاموس المحيط : اللاب رجل سطر أسطرا وبى عليها حسابا فقبل أسطرلاب ثم مزيا وترعت الإضافة فقبل الأسطرلاب معرفة .

يعرف بها الوقت ، فإن كانت مائية ، فهي الطَّرْجَارة ، وإن كانت رملية ، فهي البَنَّكَم ، والزَّبَّيج لخيطة البناء ، والمهندز ، والدَّرْيَاب ، وهوماء الذهب ، والزَّبَّيق ، وهو مركب كيميائي معروف ، والإكسير ، ويسمى الحجر المُكْرَم ، والمُفْتَطِيس ^(١) ، والزَّرْنِيخ ^(٢) .

ومنها البربط للعود ، ومعناه صدر البط لأنه يشبه وبر بمعنى صدر . والبرم والزرير ، وهما من أوتار العود . ومنها غير ذلك كالليمارستان ، ومعناه موضع المرضى لأن يمار معناه مريض واستان موضع ، والسفْتَجَة بمعنى الوثيقة « كميالة » ، وأصلها أن يكون لرجل متاع عند رجل أمين ، فيحفظه عنده ويسافر ، فيأخذ من آخر عوض ذلك ، ويعطيه ورقة به ليسلمه من الأمين ، ومثلها صكّ معرب جكّ ، والدَّهْلِيز وهو ما بين الباب والدار ، والدَّهْقَان : معرب ده خان أى رئيس القرية ، والدَّسْكَرة القرية ، أو محل الحز ، والدَّسْوَرُ الدرع ، والدَّرْفَس العلم الكبير والعسكر وأصله لشكر ، والتخت لما توضع فيه الثياب ، والطَّيْلَسَان لما يلبس فوق الكتف ، والدَّوْرَج للخفّ ، والدَّوْرَق لمكيال الشراب ^(٣) .

ومن غير الفارسية ، أخذوا من اليونانية إيساغوجى بمعنى المدخل ، وسموا به مقدّمات للنطق ، وهى الكليات الخمس : الجنس ، والنوع ، والفصل ، والخاصة ، والعرض العام . والسفسطة وأصلها : سوفسطيقا ، بمعنى التحكم ، وعرفت السفسطة بأنها قياس مركب من وهيمات الفرض منها تغليب الخصم ؛ والفلسفة وهى علم حقائق الأشياء ، والعمل بما هو أصلح ، وأصلها من صوفيا بمعنى الحكمة ، ومنها فيلاسوف ، ومعناها محبّ الحكمة ، والهيبولى بمعنى الأصل ؛ والموسيقا : بمعنى تأليف الألحان ؛

(١) لفات المغنطيس ، هى : بفتح الميم أو كسرهما وسكون الفين وفتح النون أو كسرهما وسكون الياء أو كسر الليم مع زيادة ألف بعد النون . وهو حجر يجذب الحديد .

(٢) الزرنيخ : حجر منه أبيض وأحمر وأصفر .

(٣) كما فى شفاء الليل هلا عن المعجم . والذى فى القاموس المحيط : الدورق الجرة ذات العروة .

والقانون لآلة اخترعها أبو نصر تماري ؛ وللايخوليا لضرب من الجنون ، وهو أن يحدث للمرء أفكار رديئة ، ويغلبه الخوف والحزن ، وربما خلط في كلامه ، والدوسنطاريا ، بمعنى إسهال الدم ؛ والسقمونيا : وهو لبن شجر ينفع من الصفراء وما تولد منها ، كالحمكة ، والجذام ؛ والنقرس وهو ورم ووجع في مفاصل الكعبين وأصابع الرجلين ، والقولنج : وهو مرض معوي مؤلم يصبر معه خروج التل والريح ؛ والكيتياء : بمعنى الحنق ، والقيطون المنزل الشتوى .

وهذا العرب لا يدخل تحت حصر ، وقد ألف فيه أبو منصور الجواليقي المتوفى سنة ٥٣٩ هـ كتابه المسمى : « العرب » ، وكذلك للخفاجي من أدباء القرن الحادى عشر المتوفى سنة ١٠٦٩ هـ كتابه المسمى : « شفاء الغليل ، فيما فى كلام العرب من الدخيل » .

ولم يكن العرب محتاجين إلى كل الذى عربوه ، فقد تكون عندهم الكلمة العربية الفصيحة ، ولكنه للتوسع فى الاستعمال ؛ ولأثر التعصب عند القرس ، وجهم لرواج لغتهم رأينا كثيرا من الألفاظ قد عرب ، وعربيه فصيح مستعمل لا غبار عليه ، ومن ذلك التامورة للابريق ، والثقوة للسكرجة ، والناطس للجاسوس ، والسمور للألماس ، والباطل للبهرج ، والخفارة للبذرة ، والقحا للتابل^(١) ، والامام للتر أو الزيج ، وهو خيط البناء ، والصقر للشاهين ، وجوهر السيف لفرندة ، والخدع للقيطون ، والمنى للسكرد ، والصفيف أو الشواء للطباهج ، والشمع للموم ، وغير ذلك .

معانى اللغة وأغراضها

لم يقف تأثير الفارسية فى العربية عند الأسلوب واللفظ ، بل تعداها إلى المعنى والفرض ، ذلك بأن الأمة الفارسية قبل أن تخالط العرب علما تشعبت أصوله ودينا تعددت الآراء فيه ، ومذاهب فلسفية نشأت عن كل ذلك ، وخيالا شعريا استفادوه من طبيعة بلادهم ، وما زخرت به من أنواع الأشجار والياحين وعامة الغروس ، وما جعل الله فيها من سهول فيحاء ، وجبال شماء ، وأنهار متدفقة ،

(١) التابل (كصاحب وهاجر) : أبرز الطعام .

أوليس من هذه البلاد ثلاثة بقاع من أربع ، هي منزعات الدنيا ، وهي : صُنْدُ سَمَرْقَنْدَ ، وشُعْبُ بَوَّانَ ، ونهر الأُبُلَّةِ . أما الرابعة فهي غُوطَةُ دِمَشْقَ .

والصغد : نهر تحف به قصور وبساتين ترى مشبكة العماثر بمقدار اثني عشر فرسخاً في مثلها ، والشعب بقعة في نواحي كورة سابور مقدارها فرسخان قد احتفتها الأشجار بظلالها ، وجاست الأنهار خلالها ، وفيه يقول المتنبي :

مَغَانِي الشَّعْبِ طَيْباً فِي الْمَغَانِي بِمَنْزِلَةِ الرَّبِيعِ مِنَ الزَّمَانِ

وأما نهر الأُبُلَّةِ ، فهو من أعمال البصرة ، وطوله أربعة فراسخ ، وعلى جانبيه بساتين كأنها بستان واحد قد وضع على خط مستقيم ، وكأن أشجاره غرست في يوم واحد .

كان كل ما سبق من علم ودين وخيال يملأ أدمغة الفرس ، ويجول بخواطرم ، فلما تكلموا بالعربية ، (واللغة أداة التعبير ووسيلة الإيابة) حكوا كل هذه المعاني في شعر امتلأت به دواوين الشعراء منهم ، وحكمة ومثل هما نتيجة تجربتهم في أجيالهم السابقة ، وما خلقه لهم تاريخهم الحافل . كذلك تجلت آثارهم في كتب مؤلفة أو مترجمة أخرجوها للناس ، ففاضت العربية بعلم غزير ، وخيال واسع ، ومعان جديدة ، وصار الفارسي يحكي قديمه ، والعربي يتعلم ما لا عهد له به ، حتى أتت العربية على كل ما كان للفارسية من فضل وفائدة ووسعت كل ذلك لما فيها من ميزة القبول ومرونة الصوغ والاشتقاق .

وأظهر ما يتجلى في الأدب العربي في هذا العصر أشياء :

١ - اتساع الخيال ، وإبداع التصوير ، كقول ابن الرومي ^(١) في أحذب :

قَصُرَتْ أَخَادِعُهُ وَغَاصَ قَدَّالُهُ فَكَأَنَّهُ مَرَبُّصٌ أَنْ يُصَفَّعاً ^(٢)

(١) هي في القاموس المحيط بالين

(٢) في معاهد التنصيص أن البين لبيد الله بن النطاح .

(٣) الأخاديع : جمع أخدع وهو عرق في المحجبتين (مؤخر الرأس) .

وَكَاثِمًا صَفِيتَ قَنَاءَ مَرَّةٍ وَأَحْسَنَ ثَانِيَةً لَمَّا فَتَجَعَمَا

وقول أبي إسحق إبراهيم بن موسى :

غَزَتْنِي بِجَيْشٍ مِنْ تَحْسِينٍ وَجِهَهَا قَتَبِي لَمَّا طَرَفِي لِيَدْفَعَنَّ عَنْ قَلْبِي
قَلَمَا التَّقَى الْجِيْشَانِ أَقْبَلَ طَرَفَهَا يُرِيدُ اغْتِصَابَ الْقَلْبِ قَسْرًا عَلَى الْحَرْبِ
وَلَمَّا تَجَارَحْنَا بِأَسْـيَافٍ لَحْظَانَا جَعَلْتُ فَوَادِي فِي يَدَيْهَا عَلَى الْمَضْبِ
وَنَادَيْتُ مِنْ وَقْعِ الْأَسِنَّةِ وَالْقَنَاءِ عَلَى كَيْدِي يَا صَاحِبَ مَالِي وَلِلْجُبِّ
فَصِرْتُ صَرِيحًا لِلْهَوَى وَسَطًا عَسْكَرٍ قَتِيلَ عُيُوبِ الْفَانِيَاتِ بِلَا ذَنْبِ

ومنه قول ابن الرومي في وصف المغنيات يحملن آلات الفناء :

وَقِيَانُ كَأَنَّهَا أَتَمَّتْ عَاطِفَاتٌ عَلَى بَنِيهَا حَوَانِي
مُطْفَلَاتٌ وَمَا تَحْمِلْنَ جَنِينًا مُرْضِعَاتٌ وَلَسْنَ ذَاتَ لِبَاقِ
مُنْقِمَاتٌ أَطْفَالَهُنَّ تُدِيَا نَاهِدَاتٍ كَأَخْتِنِ الرَّهْمَانِ
مُنْعَمَاتٌ كَأَنَّهَا حَافِلَاتٌ وَهِيَ صِفْرٌ مِنْ دِرَّةِ الْأَلْبَابِ
كُلُّ طِفْلِ يُدْعَى بِأَسْمَاءِ شَقِيٍّ بَيْنَ حُودٍ وَبِزَهْرٍ وَكِرَامِ^(١)
أُمُّهُ دَهْرَهَا تُتَرَجِّمُ عَنْهُ وَهُوَ بَادِي الْغِنَى عَنِ التَّرْمِيمَانِ

ومنه قول صفي الدين الحلي في الخمر ومزاجها :

شَهْرًا عَلَيْنَا بِالْمِرَاجِ صَوَارِمَا إِذَا أُعْمِلَتْ مَا لِلْجِرَاحِ بِهَا أَرْشُ^(٢)
شُعَاعُ غَدَا طَرَفُ الْمَسْرَةِ شَاخِصًا إِلَيْهِ وَأَخَذَاقُ الْهُلُومِ بِهَا عَمَشُ
شَهْدًا زَوَاجِ الرَّاحِ بِالْمَاءِ فَالْتَدَى عَلَيْنَا نَارُ وَالرَّيَاضُ لَمَّا فَرَشُ

ومن الخيال البديع قول القاضي الفاضل في مملوكه :

(١) العود : آلة من المازف . الزهرى : العود يضرب به (لعله يريد عصا صغيرة يضرب بها الطبل)

الكران : الصنج .

(٢) الأرض : دية العصور .

تَرَأَى وَرَأَاهُ السَّمَاءُ صَفِيَّةً فَأَثَرٌ فِيهَا وَجْهُهُ صُورَةُ الْبَدْرِ

وقال بعضهم فتغلغل في الخيال وأغرب فيه ما شاء (١) :

رَأَتْ قَرَّ السَّمَاءِ فَأَذْكَرَتْنِي لِيَالِي وَصَلَّيَا بِالرَّفَّتَيْنِ
كَلَّانَا نَاطِرٌ قَرًّا وَلَكِنْ رَأَيْتُ بَيْنَهُمَا وَرَأْتُ بَيْنِي

٣ — المبالغة الشديدة ، والتهويل الزائد ، وهذا شيء من طباع القوس ولوازم تفكيرهم ، وقد ظهر ذلك في عصرنا هذا في الشعر والكتابة والألقاب فأما في الشعر ، فن ذلك قول منصور النيرى في الرشيد :

خَلِيفَةُ اللَّهِ إِنَّ الْجُودَ أَوْدِيَةٌ أَحَلَّكَ اللَّهُ مِنْهَا حَيْثُ تَجْتَمِعُ
مَنْ لَمْ يَكُنْ يَبْنِي الْقَبَاسِ مُعْتَصِمًا فَلَيْسَ بِالصَّوَاتِ الْخُلُوسِ يَنْتَفِعُ
إِنَّا خَلَفَ الْقَطْرُ لَمْ تُخْلَفْ عَمَالُهُ أَوْصَاقُ أُمُوزْكَرَنَاهُ فَيَتَسَّعُ (٢)

وقول محمد بن وهيب في المعتصم :

ثَلَاثَةٌ تُشْرِقُ الدُّنْيَا بِبَهْجَتِهَا تَشْمُسُ الضَّحَى وَأَبُو إِسْحَاقَ وَالْقَمَرُ
فَالشَّمْسُ تُحْكِيهِ فِي الْإِشْرَاقِ طَالِعَةً إِذَا تَقَطَّعَ عَنْ إِدْرَاكِهَا النَّظَرُ
وَالْبَدْرُ يُحْكِيهِ فِي الظُّلُمَاءِ مُنْبَلِّجًا إِذَا اسْتَنَارَتْ لِيَالِيهِ بِهِ الْفُرُزُ

إلى أن يقول :

فَالْخُلُقُ جِسْمٌ لَهُ رَأْسٌ يُدَبِّرُهُ وَأَنْتَ جَارِحَتَاهُ السَّمْعُ وَالْبَصَرُ

وقد تنتهي المبالغة إلى الكفر أو قريب منه ، كقول أبي نواس في الرشيد :

(١) وفي هذا المعنى قول الشاعر :

وقد نظرت بدر الدجى ورأيتها فكان كلانا ناظر واحد بدرا

وقول المتنبي :

واسجبت قر السماء بوجهها فأرتني القمر في وقت معا

(٢) الحنايل : جمع بخيلة ، وهي ما يتخيل في المرء من خير.

وَأَخَفْتُ أَهْلَ الشِّرْكِ حَتَّى إِنَّهُ لَتَخَافُكَ النَّظْفُ الَّتِي لَمْ تُخْلَقِ

وأمثلة ذلك في الشعر والنثر كثيرة سنستوفينا في الكلام على كل منها خاصة .

أما التهويل في الألقاب فهو شيء لم يكن العرب يعرفونه بهذه المثابة قبل هذا العصر ، فإنما لم تر أحداً من الخلفاء ألصق به لقب حادث عند توليته الخلافة ، ولا رأينا ذلك فيمن خدمهم من الوزراء أو القواد أو غيرهم ، بل إن أحدهم إنما كان يخاطب باسمه أو كنيته ، أو لقبه القديم الذي عرف به منذ حداثة ، أو جعل عليه لداع غير ارتقائه إلى الخلافة وتقليده الوزارة . وأول عهدهم بالتلقيب في هذه الدولة تلقيب أبي العباس أول خلفائهم لنفسه بالسفاح في قوله : أنا الثائر المنيع ، والسفاح البليح^(١) . ثم تسميتهم من يعين الخليفة ، ويساعده في سياسة الدولة وزيراً ، وكان أول من لقب بذلك أبو سلمة الخلال وزير أبي العباس السفاح ، ثم لقب جعفر البرمكي في أيام الرشيد بالسلطان ، ثم لقب طاهر بن الحسين ذا اليمينين وصاحب جبل الدين لما انتصر على الأميين ، ولقب الفضل بن سهل ذا الرياستين لجمعه بين رئاسة السيف والقلم . ولقب صاعد بن خالد وزير المعتمد ذا الوزارتين ، ثم قيل رئيس الرؤساء لعلى بن الحسين وزير القائم ، وعييد الله محمد بن محمد وزير المقتدى .

ولما وافق الدولة البويهية جعلت ألقاب ملوكها بالإضافة إلى الدولة ، فقيل لعلى ابن أبي شجاع عماد الدولة ، ولأخيه الحسن ركن الدولة ولأخيها أحمد معز الدولة .

ثم لقب بالإضافة إلى الدين ، فأول ما كان من ذلك سنة ٣٧٦ هـ حين ولي الوزارة أبو شجاع محمد بن الحسين ، ولقب ظهير الدين ، ثم قيل بعده عز الدين ، وعضد الدين ومؤيد الدين .

ثم زادت الضراعة في الناس والنفطسة من الرؤساء حتى صار الناس إذا خاطبهم نزهوا ألقابهم أن يوجه إليها القول ، فخطبوا الجناب والحضرة ، فيقولون للخليفة : إلى

(١) المنيع : أي الذي أجبل الناس ينوحون على قتالهم . البليح : أي للدهاء .

الحضرة المقدسة ، أو الشدة النبوية ، وللوزراء : (إلى الحضرة الوزيرية) ، وأول من سنّ ذلك أبو الحسن عليّ بن حاجب النعمان الكاتب ، ثم شاعت هذه الطريقة . وقد استمرت هذه الألقاب توضع على الخلفاء والوزراء حين كانت الدولة في أضعف حالاتها . وقد قال ابن شرف لما رأى مثل ذلك في ملوك الأندلس :

يَمَا يَزْهَدُنِي فِي أَرْضِ أَنْدَلُسٍ أَلْقَابُ مُعْتَدٍ فِيهَا وَمُعْتَصِدٍ
أَلْقَابُ مَمْلُوكَةٍ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ كَالِهَرِّ يَحْكِي انْتِفَاحَ صُورَةِ الْأَسَدِ

٣- الإكثار من الحكمة والمثل والبراهين الفلسفية ، وتناول المعاني الدقيقة التي تدلّ على حصافة وطول دراسة ، والأولان ظاهران في شعر صالح بن عبد القدوس ، وبشار وأبي تمام ، والمتنبي ؛ وأبي العلاء ، والأخيران في عام شعر الشعراء . وذلك لأن دراسة الفلسفة والعلوم العقلية كانت أذهان الناطقين بالعربية هذا التكوين المنظم الذي لا يرتاح إلا إلى الاستدلال والاحتجاج كما أنه لا يتكاده معنى ولا يفوته غرض .

فمن الحكمة قول بشار :

إِذَا بَلَغَ الرَّأْيُ لِلشُّورَةِ فَاسْتَعَيْنَ بِرَأْيِ نَصِيحٍ أَوْ نَصِيحَةِ حَازِمٍ
وَلَا يَجْعَلُ الشُّورَى عَلَيْكَ غَضَابَةً فَإِنَّ الْخَوَافِي قُوَّةٌ لِلْفَوَادِمِ
وَمَا خَيْرُ كَفَرٍ أَمْسَكَ الْفُلَّ أَخْتَهَا وَمَا خَيْرُ سَافِرٍ لَمْ يُؤَيِّدْ بِقَائِمٍ^(١)
وَحَلَّ الْهُوَيْنَا لِلضَّعِيفِ وَلَا تُكُنْ نَعُومًا فَإِنَّ الْحُرَّ لَيْسَ بِنَائِمٍ

وقول صالح بن عبد القدوس :

لَا يَبْلُغُ الْأَعْدَاءُ مِنْ جَاهِلٍ مَا يَبْلُغُ الْجَاهِلُ مِنْ نَفْسِهِ
وَالشَّيْخُ لَا يَتْرُكُ أَخْلَاقَهُ حَتَّى يُؤَارَى فِي تَرَى رَمِيهِ
إِذَا أُرْعَوِيَ عَادَ إِلَى جَهْلِهِ كَذِي الضَّنَى عَادَ إِلَى سُقْمِهِ^(٢)

(١) الفل : القيد . القائم : مقبض السيف .

(٢) ارعوى : نزع عن جهله . الضنى : المرض الخمار الذي كلما ظن البرء منه عاد المرض فانتكس

وَأَنَّ مَنْ أَكْبَتَهُ فِي الصَّبَا كَالْهُدَى يُشْقَى لِلْبَاءِ فِي عَرْمِهِ
حَتَّى تَرَاهُ مُورِقًا نَاصِرًا بَعْدَ الَّذِي أَبْصَرْتَ مِنْ يَبْسِهِ

وقول المتنبي :

وَالْهَمُّ يَحْتَرِمُ الْجَسِمَ نَحَافَةً وَيُشِيبُ نَاصِيَةَ الْعِلَامِ وَيُهْرِمُ^(١)
ذُو الْعَقْلِ يُشْقَى فِي النِّعَمِ بِمَقْلِهِ وَأَخُو الْجَهَالَةِ فِي الشَّقَاوَةِ يَنْعَمُ
لَا يَسْلُمُ الشَّرَفُ الرَّفِيعُ مِنَ الْأَذَى حَتَّى يُرَاقَ عَلَى جَوَانِبِهِ الِهْمُ^(٢)
وَالظُّلْمُ مِنَ شَيْمِ النَّفُوسِ فَإِنْ نَجِدَ ذَا عَفْءٍ فَلِمْلَةٍ لَا يَظْلُمُ
وَمِنَ الْبَلِيَّةِ عَذْلٌ مَنْ لَا يَرْعَى عَنْ جَهْلِهِ وَخِطَابُ مَنْ لَا يَنْهَمُ
وَالذُّلُّ يَظْهَرُ فِي الدَّلِيلِ مَوَدَّةً وَأَوْدٌ مِنْهُ لَنْ يَوْدَ الْأَرْقَمُ^(٣)
وَمِنَ الْعَدَاوَةِ مَا يَنْالُكَ نَفْعُهُ وَمِنَ الصَّدَاقَةِ مَا يَصُرُّ وَيُؤْلَمُ^(٤)

وقوله :

وَمَا قَتَلَ الْأَخْرَازَ كَالْعَفْوِ عَنْهُمْ وَمَنْ لَكَ بِالْحُرِّ النَّبَى يَحْفَظُ الْيَدَا
إِذَا أَنْتَ أَكْرَمْتَ الْكَرِيمَ مَلَكَتُهُ وَإِنْ أَنْتَ أَكْرَمْتَ اللَّئِيمَ تَمَرَّدَا
وَوَضِعَ النَّدَى فِي مَوْضِعِ السَّيْفِ بِالْهَلَا مُفِرٌّ كَوْضِعِ السَّيْفِ فِي مَوْضِعِ النَّدَى

(١) اخترته النية أهلكته . الناصية : مقدم الرأس . والمعنى أن الهم يقتل الجسم من توالي النحافة عليه

(٢) أى لا يسلم للفرح شرفه من أذى أعدائه حتى يقتلهم فإسراهم أو يغيث غيرهم .

(٣) الأرقم : ضرب من الحيات فيه سواد وبياض ، أى أن الأرقم على ما يعرف عنه من التعرض لأذى من لا يؤذيه خير وأسلم عاقبة من هذا التردد للناس وهو يضرهم السوء .

(٤) فهمه ابن جني هكذا : إن عداوة الساقط تدل على مبانة طبعه فتتفع ، وصدافته تدل على مناسبتها

فخصر ، وكذلك قل الواحدى هذا المعنى ، وإنما المعنى من قول صالح بن عبد القدوس :

عدوك ذو العقل خير من الصبيد لك الوامق الجاهل

أى عدو عاقل خير من صديق جاهل .

وقوله :

وَإِذَا لَمْ تَحْجِدْ مِنَ النَّاسِ كُفْنًا ذَاتُ خِذْرِ تَمُتَ لَوْتٌ بَعْلًا
وَإِذَا الشَّيْخُ قَالَ أَفٍّ فَا مَلَسَ حَيَاةً وَإِنَّمَا الشَّيْبُ مَلَأَ
آلَهُ الْعَيْشِ صَحَّةً وَشَبَابٌ فَإِذَا وَلِيًّا عَنِ الرُّءُ وَلَى

وقول أبي العلاء المرعى :

تَوَاصَلَ حَبْلُ النَّسْلِ مَا يَبِينُ آدَمُ . وَيَبْنِي وَلَمْ يُوَصَّلْ بِلَايَةٍ بِلَهٍ (١)
تَتَكَبَّرُ عَمْرُو إِذْ تَتَكَبَّرُ خَالِدٌ . يَبْدُو قَبْلَ أَغْدَتِنِي الشُّوْبَاءُ
وَزَهَّدَنِي فِي الْخَلْقِ مَعْرِفَتِي بِهِمْ . وَعَلِمِي أَنَّ الْعَالَمِينَ هَبَاءُ (٢)
وَكَيْفَ تَلَاقَ الَّذِي قَاتَ بَعْدَ مَا . تَلْفَعُ نِيرَانَ الْحَرِيقِ أَهْلَاهُ (٣)
إِذَا نَزَلَ لِلْقَدَارِ لَمْ يَكُ لِلْقَطَا . يُهْوِضُ وَلَا تُخْذِرَاتِ إِبَاهُ (٤)

وقوله :

لَقَلَّ أَنْاسٌ فِي الْحَارِبِ خَوْفُوا . بَأَى كَنَاسٍ فِي الْمَشَارِبِ أَطْرَبُوا
إِذَا رَامَ كَيْدًا بِالصَّلَاةِ مُتِمِّمَهَا . فَتَارِكُهَا عَمْدًا إِلَى اللَّهِ أَقْرَبُ
فَلَا يُمَسِّ فَخَّارًا مِنَ الْفَخْرِ عَائِدُ . إِلَى غُنْصُرِ الْفَخَّارِ لِلنَّفْعِ يُصْرَبُ (٥)

وقوله :

الَّذِينَ إِنْصَافُكَ الْأَقْوَامُ كُلُّهُمْ . وَأَيُّ دِينٍ لَأَيِّ الْحَقِّ إِنْ وَجَبَا

(١) اللام : الشخص . الباء : النكاح ، وأصله باه .

(٢) الهباء : القليل المقول من الناس ، والغيار .

(٣) تلاقى التقي : تزاكره . تلفع الشيء : اشتغل عليه . الإباء : الغضب . الواحدة إباءة . والذى أن الفر إذا استعصى والأمر إذا عظم تمطر تلافيه .

(٤) الخدر : أجرة الأسد . والحادر والحدر : الأسد .

(٥) المعنى لا يحسن بالإسناد وأصله من الطين أن يفتخر بنفسه .

وَالْمَرْءُ يُعِيهِ قَوْذُ النَّفْسِ مُضْعَبَةٌ
لِخَيْرٍ وَهُوَ يَقُودُ الْجَحْفَلَ اللَّجْبَا^(١)
وقوله :

يَا رَبِّ أَخْرِجْنِي إِلَى دَارِ الرِّضَا
ظَلُّوا كَذَاتِرَةً تَحُولُ بَعْضُهَا
عِجَالًا فَهَذَا عَالَمٌ مَنكُوسُ
عَنْ بَعْضِهَا تَجْمِيمُهَا مَنكُوسُ
وقوله :

إِذَا أُلِفَ الشَّيْءُ اسْتَهَانَ بِهِ الْفَتَى
فَلَمْ يَرَهُ يُؤَسَّى تُعَدُّ وَلَا نُمَى
كَإِنْفَاقِهِ مِنْ غَمَرِهِ وَمَسَافِهِ
مِنْ الرِّيقِ عَذْبًا لَا يُحْسُّ لَهُ طُعْمًا^(٢)
وَمَا أَرْتَابَ فِي لُقْيَا الرَّذَى وَكَأَنَّهُ
حَدِيثٌ أَتَى مِنْ كَاذِبٍ يُبْطِلُ الرَّعْمَا^(٣)
ومن الاستدلال والبرهنة قول أبي تمام :

لَا تُنْكِرُوا صَرِي لَهْ مِنْ دُونِهِ
فَاللَّهُ قَدْ صَرَبَ الْأَقْلَ لِنُورِهِ
مَثَلًا مَرُودًا فِي النَّدَى وَالْبَاسِ^(٤)
مَثَلًا مِنَ الشُّكَاةِ وَالْإِبْرَاسِ
وقوله :

لَا تُنْكِرِي عَطْلَ الْكَرِيمِ مِنَ الْفَتَى
فَالسَّيْلُ حَرْبٌ لِلتَّكَاثُرِ الْعَالِي^(٥)
لَيْسَ الْحِجَابُ بِمُقْصٍ عَنْكَ لِي أَمَلًا
إِنَّ السَّمَاءَ تُرَجَّبِي حِينَ تَحْتَجِبُ
وقول ابن الرومي :

وَإِذَا امْرُؤٌ مَدَحَ امْرَأً لِنَوَالِهِ
لَوْ لَمْ يَقْدَرْ فِيهِ بَعْدُ الْمُسْتَقَى
وَأَطَالَ فِيهِ فَقَدْ أَرَادَ هِجَاؤَهُ
عِنْدَ الْوُرُودِ لَمَا أَطَالَ رِشَاؤَهُ^(٦)

(١) يقال أحسبته الشيء إذا جعلته يصحبه .

(٢) مساع : سوغ . وساغ الشراب : سهل دخوله في الحلق .

(٣) أبطل الرجل : أتى بالباطل ، فمن يبطل الزعم يأتي بزعم باطل .

(٤) مثل شرود : شائع في البلاد .

(٥) العطل (بالتحريك) : التبريد من الحلى . يقال رجل حرب أى عدو وإن لم يكن محاربا ، وهو

المذكر والمؤنث والواحد والجمع بلفظ واحد لأن أصله مصدر . (٦) الرشاء : جبل البئر

وقال الطُّفْرَانِيُّ :

عِدَائِي لَكُمْ فَضْلٌ عَلَىَّ وَمِنَّةٌ فَلَا أَذْهَبَ الرَّحْمَنُ عَنِّي الْأَعَادِيَا
هُمْ يَحْتَمُونَا عَنْ زَلَّتِي فَأَجْتَنَّبَتْهَا وَهُمْ نَاقِسُونِي فَأَكْتَسَبْتُ الْمَعَالِيَا

ومن المعاني الدقيقة قول إسحاق بن إبراهيم الموصلي :

أَخَافُ عَلَيْهَا الْعَيْنَ مِنْ طُولِ وَصْلِهَا فَأَهْجُرُهَا الشَّهْرَيْنِ خَوْفًا مِنَ الْهَجْرِ
وَمَا كَانَ هِجْرَانِي لَهَا عَنْ مِلَامَةٍ وَلَكِنِّي أَثَلْتُ عَاقِبَةَ الصَّبْرِ (١)
أَفَكَّرُ فِي قَلْبِي بِأَيِّ عُقُوبَةٍ أَتَأْقِبُهُ فَيَكُمُّ لِرَتَصُّوَا مَا أَذْرَى (٢)
سِوَى هِجْرِكُمْ وَالْهَجْرُ فِيهِ دِمَارُهُ فَعَاقِبَتُهُ فَيَكُمُّ مِنَ الْهَجْرِ بِالْهَجْرِ
فَكُنْتُ كَمَنْ خَافَ النَّدَى أَنْ يُبْلَهُ فَعَادَ مِنَ الْمِيزَابِ وَالْفَطْرِ بِالْبَجْرِ

وقول خالد الكاتب :

أَعَانَ طَرَفِي عَلَى جِسْمِي وَأَخْشَانِي بِنَظَرَةٍ وَقَفْتُ جِسْمِي عَلَى دَائِي (٣)
وَكُنْتُ غِرًّا بِمَا يَجْنِي عَلَى بَدَنِي لَا عَلِمَ لِي أَنْ بَعْضُ بَعْضُ أَدَوَائِي (٤)



هذه محاسن ما أفادت العربية من الفارسية . وقد كان إلى جانبها مساوئ جرّها
على العربية الإمبراف في الإخلال إلى صديقتها ، وطول الاستئمام لها والركون إليها :

(١) يريد عاقبة الصبر على الفراق، وهي اللقاء كما قال الشاعر:

سَأَطْلُبُ بِدِ الْبَارِ عَنْكُمْ لَهْرِيَا وَتَسْكُبُ عَيْنَايَ الْبُغْمُوعَ لِتَجِدَا

(٢) التفكير في عقاب قلبه لأنه هو الذي أوحى إليه فكرة الهجران لإدانة الوصل .

(٣) يقول ان طرفه (عينه) هو الذي ساعد المرض على التمسك من جسمه بتلك النظرة التي جعلت
جسمه موقوفًا على الماء لا يزياله .

(٤) يقول وكنت جاهلاً بما يجنيه ويجلبه نظري على بدني من المضار ولم أكن أعلم أن عضوا من
أعضائي يكون داء في يسبب لي اللعاب .

وتلك المساوي هي الضعف الذي دخل على الأسلوب العربي ؛ فإنه بعد أن كان جزلاً رصيناً قبل هذه الدولة وفي أوائلها ، دخله القصور لضعف الملكات يبعد العربي عن المهد الذي كان يتلقى فيه اللغة بالسماع ، ويحذفها بالنشأة بين أهلها ، ولكثرة من طرأ على اللغة من غير أهلها ، وليسوا جميعاً بمثابة واحدة من حسن الأخذ ، وتتمام الملكة ، ولأن الناطق بلغتين يبنى بأحدهما على الأخرى ، ويزيد في واحدة ما ينقص من أختها ، ثم ان الأمور التي ولع بها القوم ، وقلدوا فيها الفارسية ، وهي العناية بالسجع ، والحسن البديعي ، والجناس والطباق وغيرهما ، حسن موقعها في أقلام الكتاب الأوائل ، ثم ما زالوا يبالغون فيها ، ويدعمون التزامها مع ما صاحب ذلك من ضعف الآلة ، وتقصان الملكة ، حتى أصبح السجع يجلب اجتلاباً ، وإن أخل بالمعنى ، وأضر بموقع الكلمة ، وجنى على الصواب ؛ كما كانت المحسنات البديعية تفرض من محاسن الكلام . وتجنى عليه بالتعقيد والعسر ، وصارت يزين بها القول ، وإن لم يستكمل شروط البلاغة من الإفصاح ؛ والمطابقة لمتقضى الحال ، فكانت كالحلى على الميت ، وكالدسم في جوف المعود .

وهناك جناية أخرى على لغة التخاطب صيرتها إلى عامية مردولة ما زالت تتباعد من الفصحى حتى صارت لغة مستقلة .

وكان من جراء هذا الضعف في الأساليب ؛ والنقص في الملكات ، والمهاجمة من العامية ، أن منع العلماء الاستشهاد بكلام أهل هذا العصر لصيرورة الشك إلى ملكاتهم ، وحلول الوهن على ألسنتهم ، وبعض من يرى الاحتجاج برجال هذا العصر لا يتمدى بشاراً من الشعراء ، أما غير الشعراء فلا سبيل إلى الاحتجاج بقوله من هؤلاء بته .

لغة التخاطب

جاءت الدولة العباسية ، والعرب قد فتحوا معظم المملكة الإسلامية ، فلم يكن عمل العباسيين في الغالب إلا المحافظة على الثغور ، والاستعادة لما يكون الأعداء قد غلبوا عليه من الأطراف التي تلي بلادهم ، فكانت هذه البلاد في حكم العرب منذ قديم : ولكن مذهب الأمويين في الحكم كان يقضى بالترفع عن الأعاجم ، والتصون عن الابتذال معهم ، فنشأ عن ذلك استمسك في اختهم لم ينته بها إلى المسخ الذي صارت إليه في عهد الدولة العباسية ، كما أن شدة الأمويين على الموالي كانت تجعلهم يتقربون إليهم بمحذق لغتهم ، وكان العرب لا يزالون فريبي عهد بجاهليتهم ، وتماهم ملكاتهم فضمن ذلك لغة العربية هذا التماسك في أسنة المتخاطبين ، أما في العصر العباسي فقد صارت لغة التخاطب مصيرا منكرا هو باسم المسخ أحق .

ذلك بأن اللغة تتأثر بالخالطة ، وعلى قدرها يكون شيوع الفساد أو ضيق دائرته . نعم قد حصل اختلاط في العصر الأموي ، وجرى على لغة التخاطب فساد ، ولكن الأمويين استطاعوا أن يحصروا خطره بما كان لهم من وسائل لم ينوا في اتخاذها . كوضع النحو ، وتربية أبناء الخلفاء ومن في طبقتهم بالبادية ، والزراية بن يقع منه اللحن ، وإقصائه عن مجالس الخاصة . كالذي ذكروا أن عبد الملك كان يجلس مجالس عامة إلى قبائل العرب ، فكان يستسقط من يلحن فأفاد كل ذلك في نهضة هذا التيار ، حتى انتهى الأمر أن كان عدد اللحنين محصورا ، وكانت العامية التي شنوا عليها الغارة هي اللحن مع سلامة التركيب وفصاحة المفردات .

أما في العصر العباسي ، فقد كانت المداخلة التي ذكرنا وصفها تقضى على كل مجهود يبذل في سبيل حماية الألسنة ؛ فإن الخلفاء وإن لم يرسلوا أولادهم إلى البادية كما فعل الأمويون قد ألزمهم الرتين من أفاضل الراوة ، وأشياخ العربية ، فقد كان

الشرق القطامي يؤدب المهدي ، والأحر النحوي ثم الكسائي يؤدبان الأمين والبنيدى
يؤدب المأمون ، والقراء أدب ولقي المأمون ، وللفضل الضبي أدب الوراق ،
وبعقوب بن السكيت أدب المعتز ، وشلب وللبرد تخرج عليهما ابن المعتز ، ولكن لم
يكن لفضل هؤلاء المؤدين أثره المرجو ، لأن نشأة هؤلاء الأمراء بين الأمهات
والخواضن والخدم ، وكلهم من الأعاجم جعل العامية تطفئ على ألسنتهم : حتى حكم
المتصم على نفسه بأنه خليفة أمي ، وذلك حين ورد كتاب من بعض العمال ، قرأه
عليه وزيره أحمد بن عمار ، (ولم تكن فيه كفاية كتابية) ، فإذا في الكتاب ذكر
للكلا ، فقال المتصم للوزير : ما الكلا ؟ فقال الوزير : لأدري ؛ فقال المتصم خائفة
أمي وزير عامي ، ثم قال : انظروا من الباب من الكتاب ؟ فوجدوا محمد بن عبد الملك
الزيات ، فأدخل عليه ، فسأله عن الكلا ، فقال : هو العشب عامة ، فإن كان رطباً
فهو الخلا ، وإذا يبس فهو الحشيش^(١) ، فحرف المتصم فضله واستوزره .

وقد ضعفت الملكات في العصر العباسي حتى رأينا الخلفاء والعلماء متورطين في اللحن
والخطأ ، فقد ذكروا أن أبا جعفر النصور لحن في مجلس به أعرابي فمر الأعرابي أذنيه ،
ثم لحن مرة أخرى ، فقال : (أف لهذا) ، ثم لحن ثالثة ، فقال الأعرابي : أشهد لقد وليت
هذا الأمر بقضاء وقدر . ودخل سعيد بن سلم على الرشيد فلكنه هيئته ، فلما تكلم
الرشيد لحن خف في عين سعيد ، وكان المأمون يقول : أتكلم مع الناس كلمهم على
سجتي إلا مع ابن الهيثم فإني أنحفظ إذا كلمته لأنه يعرف الإعراب .

وكان أبو عبيدة عمرو بن المثنى الذي أحاط بلم العرب وأخبارهم وأنسابهم ، وهو
الذي روى جميع أيامهم التي يتناقلها المؤرخون إلى اليوم ، كان على سعة علمه بالغة ، إذا
أشد بيتاً لم يغم إعرابه .

وذلك يدلنا على أن اللحن قد صار لازمة العربي من سكان الحضر . هذا إن

(١) وفي رواية الغزري « وأول النبات يسمى بقلا ، فإذا نما قليلاً فهو الكلا ، فإذا يبس وجف
فهو الحشيش » .

كان من الخاصة والمتأدين . لذلك رأينا كثيرين من النحويين بالغوا في التعمير والتشديد والتشبه بالأعراب ؛ وغالبوا الطبع والتزموا الأعراب ، واتسموا بذلك الشهرة بين الناس ؛ فاتخذهم الناس هزأة وضحكة لخروجهم عن مألوف هذا الزمن ، وهو العامية التي لا تصون فيها ولا تخرج . ومن هؤلاء : عيسى بن عمر الثقفي المتوفى سنة ١٤٣ هـ ، وهو القائل ليوسف بن عمر بن هبيرة ضربه في ثياب كان قد استودعها : **إِنْ كَانَتْ إِلَّا أَنْيَابًا فِي أَسْـَـيْفَاطٍ قَبَضَهَا عَشَارُوكُ** ^(١) . ومنهم أيضاً أبو علقمة النحوى الذى مرَّ ببعض طرق البصرة ، فهاجت به مِرَّةً ، فوثب عليه قوم يَمْعُضُونَ إِبْهَامَهُ ، وَيُؤْذَنُونَ فِي أَذُنِهِ ، فَأَقْلَت مِنْ أَيْدِيهِمْ ، وقال : **مَا لَكُمْ تَكُنَّ كَأَنْتُمْ عَلَى كَتْكَا كَتْكُم عَلَى ذِي جِنَّةٍ ، افْرَقْتُمَا .** وهو الذى هاج به الدم ، فأتى بحجام ، فقال له : **« أَشَدُّ قَسَبَ الْمَلَارِمِ »** ^(٢) ، وَأَرْهَفَ طُبَاتِ اللَّسَارِطِ ، وَأَسْرَعَ الْوَضْعِ ، وَجَلَّ النَّزْعِ ، وَلَيْكِنْ شَرُّطُكَ وَخَرَا ، وَمَصْلُكَ تَهَرَّا ، وَلَا تُسْكِرْهُنَّ أَيْيَا ، وَلَا تَرُدَّنَّ أَنْيَا » ، فوضع الحجام محاجه في جَوْفَتِهِ وانصرف .

وقد كثر هؤلاء حتى ألف فيهم أبو الفرج النحوى المتوفى سنة ٤٩٩ هـ كتاباً جمع فيه أخبار المتعمرين ونواديرهم .

وكذلك لم يأل خلفاء العباسيين خصوصاً الأولين منهم فى مدافعة العامية ، وضعف الملكات لأنهم يعلمون أن اللغة هى لغة الدين الذى تقوم عليه دولتهم ، وتعظم به سطوتهم ، فتقرزوا كل التقرز من فشو اللحن فى الألسنة ، ودافوا ذلك بمنصرة العربية ، والإحسان إلى علمائها ، واحتشائهم على ضبطها ، وإغراء الرواة بجمعها ، وبذلوا فى سبيل ذلك مالهم وعنايتهم حتى كانت المناظرات تقام بمجالسهم ، ومجالس وزراءهم تنشيطاً

(١) أنياب : جمع ثوب أصله أبواب ثم صغر . وكنفك أسفاط : جمع سفاط (بالتريك) وهو الجوايق

(٢) الملازم : جمع ملازم (كثير) وهما خفيطان تشد أوساطهما بحديدة . أرهف : رقق . غليات : جمع غلبة وحي حد السيف أو نحوه . المشارط : جمع مشرط (كثير) وهو البضع .

العلم وإثارة الهمم فيه . ولقد بلغ من عناية الرشيد بالفصاحة والسلامة من الخطأ أن حاول تصحيح اللغة في أفواه الملاحين بدجلة لأنه كان إذا أطل عليهم من قصره سمعهم يغنون فيعجبه غناؤهم ويؤله لحنهم . فقال يوما : قولوا لمن معنا من الشعراء يعملوا لهؤلاء شعرا يغنون فيه ، فقيل له : ليس أحد أقدر على هذا من أبي التماهية وهو في الحبس فوجه إليه الرشيد يأمره بعمل الشعر ، ولم يأمر بإطلاقه ، ففاظه ذلك ، وعمل شعرا في الوعظ والتذكير بتقلب الأيام ، لينقص على الرشيد سروره إذا سمعه . وكان الرشيد سريع التأثر يبكى وينتحب إذا مرّت للوعظة بإذنه . فكان إذا سمع الملاحين يتغنون بما صنمه أبو التماهية لهم يبكى . وهذا هو الشعر :

خَانَكَ الطَّرْفُ الطُّلُوحُ أَيُّهَا الْقَلْبُ ائْجُوحُ
لِدَوَاعِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ دُؤُودُ وَتُرُوحُ
هَلْ لِمَطْلُوبٍ يَذْنِبُ تَوْبَةً مِنْهُ تَصُوحُ
كَيْفَ إِصْلَاحُ قُلُوبٍ إِنَّمَا هُنَّ قُرُوحُ
أَحْسَنَ اللَّهُ بِنَا أَنْ الْخَطَايَا لَا تَقُوحُ
سَيَصِيرُ الْمَرْءُ يَوْمًا جَسَدًا مَا فِيهِ رُوحُ
يَبْنِي عَيْفَى كُلَّ حَيٍّ عِلْمُ الْمَوْتِ يَلُوحُ
كُلُّنَا فِي غَفَلَةٍ وَالْمَوْتُ يَغْدُو وَبَرُوحُ
لَبَنِي الدُّنْيَا مِنَ الدُّنْيَا غَبُوقٌ وَصَبُوحُ^(١)
نُحْ عَلَى نَفْسِكَ يَا مِسْكِينَ إِنْ كُنْتَ تَنُوحُ
لِتَوْنٍ وَإِنْ عُمِرْتَ مَا عُمَرَ نُوحُ

ودخل عليه الفراء يوما ، فتكلم بكلام لحن فيه . فقال له : أتلحن يا فراء ؟ قال

(١) التَّبُوق : شراب الممى . والصَّبُوح : شراب الصبح . والمعنى أن بنى الدنيا منغمسون في تعبهم لا همون به غير مفكرين في عاقبتها .

يا أمير المؤمنين : إن طباع أهل الحضرة الحسن ، فإذا تحفظت لم ألحن ، وإذا رجعت إلى الطباع لحنت ، فقبل الرشيد قوله . وسمع المأمون بعض ولده يلحن ، فقال : ما على أحدكم أن يتعلم العربية ، فيقيم بها أوده ، ويزين بها مشهده ، ويفلح حجة خصمه بمسكتات حكمه ، ويملك مجلس سلطانه بظاهر بيانه . أيسر أحدكم أن يكون لسانه كلسان عبده أو أمته ، فلا يزال النهر أسير كلمته .

وعلى هذا جرى أعوان الخلفاء من وزراء وغيرهم يعظمون أمر الخطأ ، ويشندون في المأخذة به . وقد أنف العلماء في إصلاح العامية كما فعل ثعلب في فصيحته ، وكما فعل ابن خالويه النحوي المتوفى سنة ٣٧٠ هـ في كتابه ليس في كلام العرب ، وكما فعل الصفدي في تصحيح التصحيف ، وتحريف التحريف ، ومع ذلك لم يستطيعوا بهذه الوسائل كلها ردّ هذا الغرب حتى طمّ سيل العامية ، وشمل الناس كلهم ، وما زالت العامية تخبيا وتمتو حتى تميزت من العربية ، بل ظهرت لها سطوة إذ قُبلت بها المواليا والموشحات ، وبقية ماجدّ في العربية من أوزان ، وكثير قول الناس لهذه الأنواع ، وإنشادهم إياها في مجتمعات العامة ، حتى كان للعامية أدب كما كان للفصحى أدب .

ولقد كان من محاربة القوم للعامية أنهم أبوا تدوينها ، وبسط القول فيها ، ونقل ما ظهر منها في مختلف عصورها ، وذلك لخوفهم أن يكون في ذلك التدوين حياة لها ، فعملوا على إماتتها بإحلالها ، والزراية عليها ، وأفلتت منهم تلك الأمثلة من الأوزان التي ذكرناها ، ولسكننا تتساءل : هل كان من الخير للتاريخ أن يدون العلماء هذه اللغة ؟ لنستطيع منها درس الأخلاق الشائنة في هذه العصور على حقيقتها ، فإن العامة هم جمهور الشعوب ، وأخلاقهم وتصوراتهم هي التي ينبغي أن يكون بها الحكم عليها لا ما يبدو من هذه الفئة الضئيلة فئة المتعلمين الذين يفلب عليهم الخلداع ، وكتمان الحقيقة عن الناقد ، على أن فيما ورد من الأنواع المتقدمة بعض الدلالة على شيء من هذا ؛ وعلى مقدار ما دخل على الفصحى من تغيير ، وهاك بعض هذه الروايات :

يقال إن جارية للبرامكة ، وهي أول من نطق بالمواليا كانت تقول في رثائهم :

يا دار أين الملوك أين القرس أين الذين رعوها بالقنا والتُّرس
 قالت تراهم رَمَمَ تحت الأراضى الدُّرس سكوتٌ بعد الفصاحة أَسْتَهْمُ خُرس
 ومن المواليا أيضاً قول بعضهم في الوعط :
 يا عبدُ إِبكي على فقل المعاصى وتُوحْ ثُمَّ فِينْ جُدُودُكَ أبوكَ آدمَ وبعْدُه نُوحْ
 دنيا غُرُورَةٌ تَجِي لَكَ فِي صِفَةٍ مَرَكِبْ ترى مُحُولُها على شَطِّ البحارِ وتُروِحْ
 وفي دار الكتب للملكية أوراقٌ عثر عليها من كثانة العامة في العصر العباسي فيها عقود
 زواج ، ومشارطات ومبايعات ، وقد حاولت قراءتها ، فاستعصت عليّ لنصول خطها ؛
 وجريه على قاعدة قديمة ؛ وكان يحسن بدار الكتب أن تضع إلى جانب كل أثر من
 هذه صورته بالخط الذي نألفه .

اختلاف العامية في الأقاليم

لم تكن العامية لهجة واحدة في جميع أقاليم الدولة الإسلامية ، فهي في مصر غيرها
 في الشام ؛ وفي الشام غيرها في العراق ، وهكذا ؛ كذلك لم يكن قربها من العربية ؛
 أو بُعدها عنها بمثابة واحدة ، فهي في أوائل عهد الدولة قريية من القصصى بعض
 القرب ؛ وفي أواخر العصر مبيانة لها كل المبيانة ، وسبب ذلك : أن العامية إنما
 تتكون من اللغتين أو اللغات التي اختلط أهلها ، فالعامية في العراق تكثر فيها الألفاظ
 الفارسية ؛ وأساليب التعبير فيها ؛ وهي في الشام تخالطها الرومية ، وفي مصر تمتدنى عليها
 القبطية ؛ وهكذا في كل صُقع تجدل للعرب الذين خالطوا أهل لغة تجتمع فيها خصائص
 اللغتين ، وكلما زاد الاختلاط زادت مداخلة اللغتين ، فلا تزال العامية تبعذ من أصلها
 حتى تصير أصلاً في نفسها تنقطع صاته بالعربية في الظاهر تمام الانقطاع ؛ ولا بد من
 مراعاة نسبة الشعبين المتعاشرين ، فإذا قلّ الأجنبي وكثر العربي كان بعد العامية دون
 بعدها إذا طغى الأجنبي على العربي . لذلك نرى اللغة العامية في العراق ومصر والشام

حيث يغلب النصر العربي كان قوامها الألفاظ العربية محرفة مصحفة مضافاً إليها كثير من الألفاظ في لغة الأمة المخالطة متبعاً فيها أسلوب تلك اللغة في نقيها وإثباتها واستفهامها وتمجيبها ، وغير ذلك من طرق الأداء .

وكانت البلاد كلها نأت شرقاً وغرباً ، وشمالاً وجنوباً ، وقلّ النصر العربي بها سادت الأعجمية فيها كما في السند ، وخراسان ، والدّهلم والكرج : وبلاد الثوبة ، وجنوب بلاد البربر ؛ فقد كانت لغة التخاطب فيها بين أهلها هي اللغة الوطنية لأن العرب كانوا في هذه النواحي قليلين ، وربما لم يكن بها منهم إلا الحامية والوالي ورجاله ؛ فلهذا هؤلاء فيما بينهم هي الفصحى إن لم يكن اعتدى على لسانهم اختلاط سابق ، أو هي لغة الإقليم الذي حضروا منه .

ذكروا أن الرشيد كان إذا خرج إلى خراسان وما وراءها ليتمرّف أحوال الناس اصطحب معه الترجمة حيث لا يعرف اللسان العربي .

وباستيلاء بني بويه على شرق المملكة الإسلامية تقلص ظلّ العرب من هناك ، ونزحوا إلى العراق . فسادت الأعجمية بتلك النواحي لعلبة أهلها ومن بقي من العرب بها اندمجوا في أهلها ، ونسوا لغتهم ، وقد جرى هذا الحال سريعاً حتى تغير وجه البلاد بما أبداه ملوك الفرس والترك من النشاط في إحياء لغتهم ، ولولا أنها كانت قد ماتت بطول إهمالها أيام سطوة العرب لأعادوا إليها حياتها ، فقد حاولوا ذلك بنظم الأشعار فيها كما حدث من نظم الشاهنامة التي بدأها الدقيق شاعر منصور بن نوح من ملوك الدولة السامانية ، ثم أمّها الفردوسي بعده بإشارة السلطان محمود الغزنوي . وقد مرّ المتنبي ببلاد فارس في طريقه إلى عضد الدولة فراعه ما سمعه من عجمة أهلها ، وذكر ذلك في قوله :

مَعَانِي الشَّعْبِ طَيْبًا فِي الْمَعَانِي تَمَثَّلَ الرَّبِيعُ مِنَ الزَّمَانِ
وَلَكِنَّ الْفَقَّ الْقَرْنِيَّ فِيهَا غَرِيبُ الْفِكَرِ وَالْيَدِ وَاللَّسَانِ

وفي البلاد التي بقيت فيها العربية تضاءلت الفصحى ، وطلعت عليها العامية طغياناً

كبيراً حتى لم يبق خاصى أو عامى إلا وقد ارتضح^(١) لسانه لُكنة ، وتعدى خطر
العامة من التخاطب إلى الكتابة ؛ فظهر فى كتب العلم ، وفى رسائل الكتاب أثرها
ولم تعد تفيدهم كتب النحو المستوعبة لجميع مسائله ، ولا كتب البلاغة التى كشفت
عن أسرار اللغة أتمّ كشف ؛ ذلك بأن اللغة سليقة توهب ، قبل أن تكون علماً يدرس .
وباستيلاء المثل ، (وهم لا دين لهم) على بلاد المسلمين ذهبت العربية من بلاد
المشرق ، ولم يبق لها أثر ولا عين ، حتى إن كتب العلم كانت تكتب بالأصمعية .

أما مصر والشام فلم يبق فيها من العربية إلا ذماء لمكان الدين داعياً إلى
الاستمساك بالعربية وعلومها ، وهكذا زالت العربية من الأوج إلى الخسوف :

تغيرت البلادُ ومن عليها فوجه الأرض مغيرٌ قبيح

أما فى البادية فإن الفصحى دامت طويلاً ، وكانت مستمدّة الرواة ؛ وعلماء اللغة ومراجع
النحويين فى أحكام علمهم ، فمن أهل البادية : استمدّ سيبويه والكسائى ،
عول الأصمعى فى غريب اللغة ، حتى إنه قضى بين العرب سنين طويلة ، يقيد
وأشعارهم . وعندهم أخذ أبو عمرو بن الملاء عامة أخباره .

وإنما كان يأخذ هؤلاء العلماء عن عرب سلت لغتهم ، وهم الذين يسكنون
أواسط بلادهم ، ولا يدانون الأعاجم ، فأخذوا أكثر ما أخذوا عن قيس وقيم وأسد ،
واتكلموا عليهم فى الغريب والأعراب والتصريف ، ثم من هذيل ، وبعض كنانة ، وبعض
طى . ولم يأخذوا من نحم وجذام لمجاورتهم أهل مصر من القبط ، ولا من قضاة وغسان
وإياد لمجاورتهم أهل الشام وأكثرهم نصارى يقرءون بالعبرية ، ولا من تغلب والتر لأنهم
كانوا بجزيرة قور أو أقور بين دجلة والفرات مجاورين لليونان ، ولا من بكر لمجاورتهم
النبط والفرس ، ولا من عبد القيس وأزد عمان ، لأنهم كانوا بالبحرين مخالطين للهند

(١) يقال هو يرتضح لسانه لكنة أصمعية إذا نفأ مع المعجم ثم صار إلى العرب فهو ينزع إلى المعجم
بألفاظ ولو اجتهد والمراد أن لسانه تخالطه الصمجة .

والفرس ، ولا من أهل اليمن لخالفهم تجار اليمن المقيمين عندهم ، ولا من حاضرة الحجاز لأن الذين تناولوا اللغة صادفهم ، وقد اختلطوا بغيرهم من الأمم التي فسدت ألسنتهم .

وما زال أهل البادية ينجح إلى أواخر القرن الرابع الهجري . فقد حكى ابن جني التوفى سنة ٣٩٢ هـ عنهم كثيراً . ولكن لسانهم كان قد بدا يضطرب ، فكان يأخذ من بعض وي طرح لغة بعض .

كان العلماء يختبرون الأعراب الطارئين عليهم بالحضر ، فإذا رأوهم فهموا اللحن وعلل الأعراب بهرجوم . فقد ذكروا أن أبا عمرو بن العلاء استضعف فصاحة أبي خيرة الأعرابي ، فسأله يوماً : كيف تقول ؟ حفرت الإران ، فقال : حفرت إرانا ، فقال له أبو عمرو : الآن لان جلدك . ذلك لأن الإرة الحفرة ، وتجمع على إرين ، فيقال : حفرت إرين .

وروى عن الأصمعي أنه قال : ارتبت بفصاحة أعرابي ، فأردت أن أمتحنه ، فصنعت بيتاً وألقيته عليه ، وهو :

كم رأينا من مسح مسح
صاد لحم النسور والعقبان
فأفكر فيه ، ثم قال : رد على المسحوب ، ولم يطاوعه لسانه بقول مسح ، فعلم أبو عمرو أنه لم يان جلده .

وقال ابن جني : سألت الشجري ، وهو أعرابي من عقيل ، ومعه ابن عم له يقال له غصن : كيف تفرقان حمراء ، فقالا حمراء ، وواليت من ذلك أحرف ، وهما يجيبان بالصواب حتى قلت علباء ، فقال غصن : عليباء وتبعمه الشجري ، فلما هم بفتح الباء تراجع كل منهما وقال عليبي .

قال وسأله يوماً : كيف تجمع دكانا ؟ فقال دكاكين . قلت : فسرحانا ؟ قال : سراحين . قلت : ففئانا ؟ قال : عثمانون . قلت : فهلا . قلت عثمانين . قال : فأى شيء عثمانين ؟ أرايت إنسانا يتكلم بشير لفته .

وقتل عن أبي حاتم السجستاني قال : قرأ على أعرابي بالحرم (طبي لهم وحسن مأب)

قلت : طوبى ، فقال : طيبى ، قلت : طوبى ، فقال : طيبى ، قلت : طوبى ، فقال : طوبى . ونبا طبعه أن ينطق بغير لحن قومه وإن كان غيره أفصح .

وقد قال إسماعيل بن حماد الجوهري في خطبة الصباح : (قد أودعت هذا الكتاب ما صحّ عندي من هذه اللغة بعد تحصيلها بالمرأى رواية ، وإتقانها دراية ، ومشافهتي بها العرب العرباء من ديارهم بالبادية ، وقد توفي الجوهري سنة ٣٩٣ هـ) .

ومن ذلك الحين بدأت لغة البادية تقسد بالسبب الذي فسد به لسان الحضّر ، وهو مداخلته أهلها للأعاجم بالفتن الحادثة ، كفتنة القرامطة^(١) ، وصاحب الزنج^(٢) ، فإن أصحاب هذه الفتن سبق أن جاسوا خلال البادية وخالفوا أهلها ، كذلك كان اختلاط الحاج بالعرب ، واقطاع حاجة العلماء إلى الرواية عنهم ، واستعجام الدولة ، وغلبة العامية ؛ من أسباب الوهن الذي صار إليه أهل البادية . ولم يثبت أن بقي محافظاً على سلامة لسانه من أهل البادية إلا أهل عكاد ، وهما جبلان فوق مدينة الزرائب ، فقد ذكر باقوت الحموي المتوفى سنة ٦٢٦ هـ أنهم باقون على اللغة العربية من الجاهلية إلى اليوم لم تتغير لغتهم بحكم أنهم لم يختلطوا بغيرهم من الحاضرة في منأحة أو غيرها ، وهم أهل قرار لا يظعنون عنه ، ولا يخرجون منه . وبعد الحموي ذكر الفيروز آبادي المتوفى سنة ٨١٧ هـ ، في قاموسه المحيط في مادة (ع ك د) ، وكسحاب (عكاد) جبل قرب زبيد أهلها باقية « كذا » على اللغة الفصيحة ، وقد زاد شارحه مرتضى الزبيدي المتوفى ١٢٠٥ هـ قوله

(١) القرامطة : ظهر في آخر دولة المتمدن رجل بسواد الكوفة كان يظهر الورع ويدعو إلى إمام من أهل البيت فكثر الناس حوله واتفق أن مرض فضمه إليه رجل من أهل القرية يسمى « كرمته » ومنعها بالقراسية أحر العين وكان الرجل كذلك . ومزال يستغل هذا الداي وأخذ من كل من انضم إليه ديناراً يقول أنه للامام حتى عظم أمره وكان من أتباعه من م بالمرأى والبحرين والشام وقد هددوا الكوفة وسلبوا الحاج وقضوا عليهم في بعض السنين .

(٢) صاحب الزنج : هو رجل ادعى نسي من العباس . ودعا الناس بهجر إلى طاعته فأنبئه قوم ثم انتقل إلى البحرين وأحله أهلها محل النبي وجبوا له الخراج ثم تحول بقومه إلى البادية ثم قصد بندگان وجعل يدعو سرا ثم خطرت له فكرة خبئة وهي أن يستعين بالبيد وهم عدد كثير ومنأم الحرية فتركوا ضياع أسياهم وانضموا إليه فغطم أمره .

(إلى الآن) ، ثم قال : ولا يقيم الغريب عندهم أكثر من ثلاث ليال خوفاً على لسانهم .
ويمكن الحكم بأن أهل الجنوب من بلاد العرب - وإن فسد لسانهم كما فسد
لسان أهل الشمال - كانوا أقرب إلى الفصاحة ، وأتقى عامية من أهل الشمال لأن الخلاط
فيهم أقل .

ويمحس أن فنقل هنا ملخصاً لما ورد في كتاب البشارى المعروف بأحسن التقاسيم
في معرفة الأقاليم ، فقد وصف فيه السنة أقاليم الدولة أيام استيلاء العباسيين عليها ،
فقال : عن جزيرة العرب : إن لسان أهلها العربية الفصحى إلا بصحارٍ ، فإن نداءهم
وكلامهم بالفارسية ، والذين نزلوا بها من العرب أكثر من نزلوا بأى إقليم آخر ، وكذلك
قال عن الشام : أما مصر فقد ذكر أن الفاتحين أقاموا بالمدن الكبرى ، وكان أكثر
الفاحين بالقرى أقباطاً ، وفى أواخر العصر الأموى انتقل إليها كثير من قبائل العرب
قتل منهم هشام بن عبد الملك كثيراً من قيس ، وأقامهم بالحوف الشرقى (مديرية
الشرقية والدقهلية الآن) ، فتغلب على الناس الإسلام واللسان العربى .

وبلاد المغرب لم يكثر بها العنصر العربى ، فكان اللسان البربرى هو الغالب ،
أما إقليم المشرق وهو خراسان وما وراء النهر وكذلك ما بعد شمالاً كالديلم ، أو جنوباً
كفارس وبلاد الثوبة ، فلم يتغلب اللسان العربى على أهلها : وإن كان الإسلام
قد شملهم .

ألفاظ من العامى والمولد

ونستطيع أن ننقل إليك بعض ألفاظ من العامية وردت في ثنايا الكتب التى
حاربت العامية ، وأعادت الحرف والمصحف إلى أصله ، وبينت الأصل فيما نقل عن
معناه . ودلت على خطأ القياس والصوغ فيما صيغ خطأ ، فمن ذلك اشترت الدابة ،

وأصله اجترت ، وجواز محرف زواج ، وحرار بمعنى بائع الحرير ، ورد الباب بمعنى أغلقه ،
والطار بمعنى الدف ، وفشار بمعنى الهديان ، وزبون بمعنى حريف ، والزهرة بمعنى
التحسين ، وأصله من قول الفرس زه زه ، والزغرة أو الزغلطة ، وهى التصويت باللسان
بغير حروف ، وعريتها زغردة ، والمسطول لآكل الخلد ، والسلمنى السيدة ،
وسكينة فى موضع سكنين بمعنى مديّة ، وشوش بمعنى خلط وهوش ، وهى محرفة عن
الأخيرة ، وشحات ، وصوابه شحاذ من شحذ السيف ، إذا صقله شبه به الملح ،
وفسقية بمعنى فوارة ، وفلّ لتويع من النور لم يذكره أهل اللغة ، وسماه ابن البيطار
الناقق وشاية لثوب قصير ، ومنجد وعرييه نجاد ، ووصول بمعنى بطاقة تعطى لربّ
الدين ، وكأنها مصدر وصل ، والمعنى أن الورقة دالة على وصول المال إلى من أخذت
عليه ، والدخان والقوهة ، والصواب التخفيف فى الأوّل والتشديد فى الثانى .

ومن فعل المولدين زيادة ياء فى خطاب المؤنثة بعد تأنها ، فيقولون : إنتى ضربتبه ،
وقيل هى لغة لريبعة ، ولكنها رديئة ، وكذلك زيادة الباء قبل حرف المضارعة
مثل : يياكل ويشرب .

ومن المولد ولكنه يترفع بعض الترفع عن العامية . باس بمعنى قبل . قال الشاعر
وقد تلتطف :

وقال لما بست راحاته من ذا قفلت المعلم البأس

وقولهم شخصه بمعنى عين شخصه ، وجرمه بمعنى شهر به ، والمأهية والسكية والكيفية
والمنصب ، والحجون ، والتقصف ؛ وقولهم : مرقوق ، وممولك ، الأول بمعنى رقيق ، والثانى
مخصوص بالريق غير الحبشى أو الزنجى .

الخطابة

قد عرفت شأن الخطابة في عهد الدولة الأموية ، وأنه قد انحطّ بقعود الخلفاء عنها ، وعدم احتفالهم بموقفها ، ولكن ينبغي أن تعلم أن ذلك ليس مرجعه إلى قصص الملكة ، وحسبة اللسان ، وكلال الخاطر ، فإن ذلك لا يصحّ في الدهن عن عرب خلص أحاطوا أنفسهم بأسباب الكمال ، وربّوا بها عن مصير أصحاب المكاسب وأهل الأسواق ، وإن كان عبد الملك بن مروان قد قال شيئين ارتقاء للناظر ، وتوقع للحن ، فما ذلك إلا لأنه كان يطلب الكمال ، أو يرجو التزاهة المطلقة ، وما كان يشكو تقصّة أو إرتاجاً ، وأستعصاء معنى ، أو شرود فكر ، وإعسا كان يتألم وهو العربيّ الصميم ، والبدويّ في شمته أن يندّ عن حرصه سقطه ، أو تشوب بلاغته لحنة . وما خطب الوليد جالساً إلا لانصراف عرض له عن هذا المظهر بعد أن رأى من مظاهر الأبهة ، ومجالس العظمة ما هو فوق ذاك .

لذلك أظنّ العصر دولة بني العباس ، وملكة البيان لا تزال موفورة ، وأسلات الألسنة لم يصبها الوهن ، خصوصاً في الخاصة الذين لا يتدنون إلى منازل السوق ، ولا ينحطون إلى مخالطتهم ، والعربية لم تكن اضطربت بها الألسنة إلا في الأسواق ، وأفواه أصحاب المن من يشغله طلب العيش عن نظري أدب ، أو استماع لرواية ، أو معاشرته لثابه ، أو نشأة عربية خالصة ، وكان أمثال أولئك كثيرين في بيوت بني العباس ، وبني هاشم ، وبني عبد المطلب ، وعظماء القوادم من العرب ، ونابغى الناشئين من الفرس ، والأدباء من أهل الرواية للشعر والأخبار ، والشعراء والكتاب ؛ أما البداية فقد كانت معدن الفصاحة ومجئى البيان ، ينزّل على ألسنة أهلها سحر البلاغة ، ويؤاتيههم سلطانتها ، وهم (غير مدافعين) خير من أسلافهم في الجاهلية لما استفادوا من تهذيب الإسلام ، ولما ألانت من ألسنتهم عنوبة القرآن ، وقد كثر من أهل البدو الوفود على

الخلفاء في استمناع أو شكاية ، فانت ترى أن أداة الخطابة وملاكمها ، وهو القدرة على تصريف القول والاستطاعة للملك الاستماع والقلوب قد استحوذ عليهما رجال هذه الدولة وأعونهم في أول أمرها ، فلاغرو إذا صارت الخطابة في ميدان هذا العصر في عشرين من الفصاحة ، ولاغرو إذا رأيناها تكون في الخلفاء وذوى قرباهم ، وفي أنصارهم من القواد والولاة ، وفي منافسهم من آل على ، وفي أعدائهم من الخوارج . ولاغرو إذا امتلأ صدر هذا العصر بالخطب ، وكانت الثروة بها ، والعدد فيها فوق ما عرف للعصر الجاهلي والأموي مجتمعين ، وإن كان لقرب العهد والعناية بالتدوين أثر في هذه السكثرة ، أما بلاغتها وقوة تأثيرها ، وجزالة لفظها ، فسترى من الأمثلة التي نوردتها عليك أنها ليست دون ماعدّ على الأصابع من خطب العهد الأموي ، وأن معين العصرين واحد ، وأن مرجع البيانين إلى سلفية سليمة ، وطبع مطاوع .

وقد عظمت دواعيها في أوائل هذا العصر وكثرت أسبابها ، فاطرد أتبها وتتابع وابها ، إذ الدولة في أول عهدها تحتاج إلى تأييد وثبيت ، وتتطلب تنقيحاً من الحكومة السابقة ونعياً عليها ، وشناً للقارة على مساوئها ، وإثارة للدين شناعاتها ، فإذا أدمت النظر في خطب الخلفاء وولاتهم ، رأيت تمثيلاً مؤلماً وتصويراً منكرًا ، لاجتراء بني أمية على حرمان الدين ، واستهانتهم بحرية الناس باتخاذهم عبيداً ، وقد خلقهم الله أحراراً ، ورأيت بكاء على حال الشعوب التي حكمها الأمويون ، وإشفاقاً على ما كانوا فيه ، ثم رأيت فتحاً لأبواب الأمل في أن يعوض هؤلاء الباسون من شغلهم نعيًا ، ومن ظلمهم عدلاً ، ومن الاستهانة بهم اعتداداً وإكرامًا ، وسمعت أن أهل البلاد صاروا إلى من قلت مضاجعهم من أجلهم ، وأوذيت نفوسهم لما لحقهم ، وأنهم ما نالوا إلا إشفاقاً عليهم ، ولا طلبوا الخلافة إلا ليردوا الحقوق إلى أصحابها ، وأنهم ما خرجوا ليضربوا نهرًا . ولا يلقنوا جوهرًا ، وإنما أخرجهم الغضب للظلم ، والرأاء للمتكورين .

يردّد هذه المعاني الخلفاء وعما لهم ، حتى يطمئن القوم إلى عدالتهم ، ولا يتعلق قلب بمن دالت دولتهم ، فيكون ذلك ثباتاً للدولة ، وتوطيداً لدعائها .

كذلك تسمع ردًا على المنافسين ، وإدحاضاً لحججهم ، وتسفيهاً لرأيهم ، ثم تسمع تهديداً ووعداً للخارجين على الدولة الناقضين ليعتدوا على سلطانها ، كما تسمع في هذه الخطب شكرًا للأعوان ، واعترافاً بمجميل ما أتوا واستعداداً لمكافأتهم ، وأنهم الإخوان الذين لا تنحل مودتهم ، ولا تنسى مكاتبتهم ، وذلك ليطمئن أنصار الدولة ، ومن ساعدوها بالسيف وأعانوها على الملك ، وليعرفوا أنهم غير محجود حقهم ، ولا منسى فضلهم ، وفي ذلك أمن لا تقاض أمرهم والشعب منهم . يكسو كل هذه الخطب تواضع لله وذلل لوجهه ، والتماس لرضاه ، وعمل على طاعته ، وحمد لنعمته ، وتحذير من سطوته ، وتأميل لحنته ، وذلك ليكون لامة الشعب اطمئنان إلى هؤلاء الورعين المتقين لربه بعد أولئك الفجرة المستهترين بدينهم وشعبهم .

ومن أجل المحافظة على أن يكون شعار الدولة الدين والعمل لإعرازه حرص الخلفاء من هذه الدولة أن يؤموا الناس في الصلوات الجامعة كالجمعة والعيد ، فكانوا يخرجون في أبهتهم ، وعليهم بردة النبي ، ويخطبون فيهم بين هيبة وخشوع ، فيترك ذلك المنظر في النفوس آثاراً جمة جماعها الحب لهؤلاء الخلفاء والثقة بدينهم ، والهيبة لسلطانهم ، وقد وصف البحترى خروج المتوكل للصلاة يوم الفطر ، فأبدع في التصوير ما شاء له طبعه العربي السليم :

بالبر صمت وأنت أفضل صائم	وبسنة الله الرضية تظفر
فأنتم بيوم الفطر حيناً إنه	يوم أغر من الزمان مشهر
أظهرت عز الملك فيه بجفلي	لحب يحاط الدين فيه وينصر
خلفنا الجبال سير فيه وقد عدت	عدداً يسير بها القديد الأكر
فالخيل تتهل والقوارس تدعى	والبيض تلع والأسنة تره ^(١)
والأرض خاشعة تميد بنقلها	والجو مغسك الجوانب أغبر
والشمس مائة توقد في الضحى	طوراً ويظفها العجاج الأكر

(١) زهر (كنع) : السراج والقمر والوجه زهوراً : تلاًلاً .

حَقَّ طَلَعَتْ بِصَوْنٍ وَجْهَكَ فَأَنْجَلْتَ
وَأَفَنَّا فِيكَ النَّاظِرُونَ فِإِصْبَحُ
يَجِدُونَ رُؤْيَاكَ الَّتِي فَازُوا بِهَا
ذَكَرُوا بِطَلْعَتِكَ النَّبَى فَهَلَّوْا
حَتَّى اتَّهَيْتَ إِلَى الْمُصَلَّى لَا بَسًا
وَمَشَيْتَ مَشْيَةً خَاشِعَةً مُتَوَاضِعَةً
فَلَوْ أَنَّ مُشْتَقًا تَكَلَّفَ فَوْقَ مَا
أَيَّدَتْ مِنْ فَضْلِ الْخِطَابِ بِحِكْمَةٍ
وَوَقَّفَتْ فِي بُرْدِ النَّبِيِّ مَذَكَّرًا
وَمَوَاعِظَ شَفَّتِ الصُّدُورَ مِنَ اللَّيْلِ
حَقَّ لَقَدْ عَلِمَ الْجَهْلُ وَأَخْلَصَتْ
صَلُّوًا وَرَاءَكَ آخِذِينَ بِعِصْمَةٍ
تِلْكَ الشَّجَى وَالْجَبَابَ ذَلِكَ الْعِثْرُ
يُومًا إِلَيْكَ بِهَا وَعَيْنٌ تَنْتَظِرُ
مِنْ أَنْعَمِ اللَّهِ الَّتِي لَا تُكْفَرُ
لَمَّا طَلَعْتَ مِنَ الصُّفُوفِ وَكَبَّرُوا (١)
نُورَ الْهَدْيِ يَبْدُو عَلَيْكَ وَيُظْهِرُ
لِلَّهِ لَا يُرْهَى وَلَا يَكْبَرُ (٢)
فِي وَصْفِهِ لَسَعَى إِلَيْكَ اللَّيْلُ
تُنْبِئُ عَنِ الْحَقِّ الْمُنِيرِ وَتُخَيِّرُ
بِاللَّهِ تُنْذِرُ نَارًا وَتُبَشِّرُ
يَسْتَأْذِنُهَا وَشَفَاؤُهَا مُتَعَدِّ
نَفْسُ الْمُرُوءَى وَاهْتَدَى الْمُخَيَّرُ (٣)
مِنْ رَبِّهِمْ وَبِدِيمَةٍ لَا تُخْفَرُ (٤)

وقد شاع في هذا العصر القصص والوعظ والتذكير بالآخرة والتخويف من عقابها ، وذلك لما دعت إليه ضرورة الاجتماع من إفراط في مطاوعة النفس وإطراح لأوامر الدين ، وارتكاب للموبقات ، فاحتاج الاجتماع إلى تذكير بالدين ، وإرشاد لسبله ، وحث على التمسك بأهدابه ، وقد كثر الوعظ والوعاظ ، وامتألت المساجد بهم ،

(١) حال : قال لا إله إلا الله .

(٢) زهى (بالبناء للمفعول) : تكبر وتاه ونفر . وقد استعمل الفعل قليلا (كدما) مبنيا للمعلوم .
(٣) المروى : صاحب الرواية والفكر ، وفي هذا البيت قسم حسن استوفى أقسام الناس بأزاء ما عوم فيه الشبهة فهم إما جاهل يحتاج إلى علم وإما مفكر يحتاج إلى برهان يتم به يقينه ، فتخاص نفسه في اعتقاده ، وإما متحير ليس بجاهل مطلق ولا مروء تام الروية ، فهو بالإرشاد يستقيم على الطريقة .

(٤) خفر الهدى (كضرب وقصد) خفارة : حفظه ، وكفعد فقط خفورا : قطنه .

واحتاج إليهم الخلفاء في قصورهم ، فبكوا من أقوالهم . وأخبار هذا الوعظ مستفيضة في كتب الأدب حتى لقد أفرد لها الجاحظ كتاباً في كتابه : البيان والتبيين سماه : (كتاب الزهد) ، وأبوها أخرى للنسك وأقوالهم .

ولاشك أن الوعظ من مواقف الخطابة له كل مظاهرها من الارتجال والمشافة ، وقوة التأثير والحرص على سلامة التعبير ، فهو نوع طغى على كل أنواع الخطابة ، واستمر بعد زوال كثير منها .

قال الجاحظ : ومن القصص موسى بن سيار الأسواري (وقد مرّ بك في المذكرة شيء عنه عند الكلام على من حدّق اللغتين العربية والفارسية) وأبو علي الأسواري . وقد ذكر الجاحظ أنه ربما كان يفسر الآية من القرآن في عدة أسابيع ، وكان يقص في فنون كثيرة من القصص ، ويجعل للقرآن نصيباً من ذلك . قال : وكان يونس بن حبيب يسمع منه كلام العرب ويحتجّ به . ثم قصّ بعده أبو العباس الصّيري ولم يذكّر في القصص مثله ، وصالح المرّي ، ويكنى أبا بشر ، كان صحيح الكلام رقيق المجلس ، وقد قال فيه سفيان بن حبيب حين رأى بياناً لم يحسبه ومذهباً لم يكن يدانيه قال (هذا ليس قاصاً هذا نذير) .



ثم قلت السواعي إلى الخطابة فضعف شأنها بعد المائة الأولى من عمر هذه الدولة ، وذلك لأن الدولة كانت قد توطدت دعائمها ، فاستغنت عن الترهيب والترغيب . وبطلت الخطابة في الجيوش ، « وأكثرت ما تكون فيهم » لأن الجند صاروا أعاجم لا يفقهون العربية ، ولا يتأثرون ببلاغتها . على أن نظام الجيش وحسن ضبطه انتفت معه الحاجة إلى الإثارة والتهيينج ، وصار العمل للعميلة والمكيدة بعد أن كان شتّ الغارات أكثر عمل الماضين ، وإذا عرفت ما صارت إليه الأمة تحت حكم البويهيين ثم السلجوقيين : من قهر ، وذللّ وحكم بالسيف ، وقتل بالحرية ، علمت أن الخطابة فقدت أهمّ آلاتها وهي حرية القول ، كذلك صار في الكتابة ، وقد

تَوَعَّتْ أَسَالِيهَا وَتَعَدَّتْ أَغْرَاضَهَا غَيًّا عَنِ الْخُطَابَةِ ، فَإِنَّ الدَّوَابَّ كَانَ يَصْدُرُ مِنْهَا الْإِنْذَارُ الْفَصْصَةُ ، وَالْإِرْهَابُ لِلْمُتَرَدِّينَ ، وَالشُّكْرُ لِلْأَعْوَانِ ، وَالتَّأْمِيلُ لِلْمَسَالِينِ ، كَمَا كَانَتْ تَصْدُرُ مِنْهَا الْمُنْشُورَاتُ فِي تَبْلِيغِ بَفْتَحٍ أَوْ حَثٍّ عَلَى قِتَالٍ ، فَلَمْ يَبْقَ مَوْضِعٌ لِلْسَّانِ إِلَّا نَابٌ فِيهِ الْقَلَمُ وَأَحْسَنُ الْبَلَاءِ ، وَقَدْ ذَكَرَ الثَّعَالِبِيُّ أَنَّ بُلْكَكَ الدَّيْلَمِيِّ عَصَى رُكْنَ الدَّوْلَةِ ابْنُ بُوَيْهٍ فَكُتِبَ إِلَيْهِ ابْنُ الْعَمِيدِ كِتَابًا « سَنَذْكُرُهُ فِي نَمَازِجِ الْكِتَابَةِ » فَضَادَ إِلَى الطَّاعَةِ وَقَالَ : وَاللَّهِ لَقَدْ كُتِبَ إِلَى كِتَابِهَا نَابٌ عَنِ الْكِتَابِ فِي اسْتِصْلَاحِي وَعَرَّكَ أَدِيمِي وَرَدِّي إِلَى طَاعَةِ صَاحِبِي .

بَطَلَتْ كُلُّ هَذِهِ الدَّوَابِّ لِلْخُطَابَةِ ، وَبَطَلَ مَعَهَا أَكْثَرُ مَا عَلَيْهَا وَهُوَ قُوَّةُ الْبَيَانِ حِينَ صَارَتْ اللَّفْظَةُ إِلَى الضَّعْفِ فَاجْتَمَعَ عَلَى الْخُطَابَةِ كُلِّ أَسْبَابِ الْمَوْتِ فَاتَتْ ؛ وَكَانَ قَدْ بَقِيَ لَهَا مَظْهَرُهَا الدِّينِيُّ ؛ وَهُوَ خُرُوجُ الْخُلَفَاءِ لِلصَّلَاةِ الْجَامِعَةِ ، فَرَأَى الْحُكَّامُ الْمُسْتَبِدُّونَ بِالدَّوْلَةِ أَنَّ هَذَا الْمَظْهَرَ يَشُدُّ أَرْزَ الْخُلَيفَةِ ؛ وَيَذْكُرُ النَّاسَ بِهِ ، وَفِي ذَلِكَ إِضْوَافٌ لَهُمْ وَاعْتِدَاءٌ عَلَى سَيِّطَرَتِهِمْ ، فَتَعَمَّقُوا الْخُلَفَاءُ مِنَ الْخُرُوجِ إِلَى هَذِهِ الصَّلَاةِ ، وَوَكَّلُوا ذَلِكَ إِلَى غَيْرِهِمْ مِنْ أَدْبَاءِ الْعُلَمَاءِ ، وَكَانَ آخِرُ خُلَيفَةِ خُطْبٍ عَلَى مَنْبَرِهِ الرَّاضِي التَّنُوفِي سَنَةَ ٣٢٩ هـ كَمَا كَانَ آخِرَ خُلَيفَةٍ لَهُ شَعْرُ مَدُونٍ ، وَآخِرَ خُلَيفَةٍ جَالِسِ الْعُلَمَاءِ ، وَآخِرَ خُلَيفَةٍ كَانَ نِظَامُ مَلِكِهِ وَبَيْتُهُ عَلَى نِظَامِ الْخُلَفَاءِ السَّابِقِينَ .

وَلَمَّا كَانَتْ الْخُطَابَةُ قَدْ مَانَتْ عَلَى مَنْابِرِ السَّاجِدِ وَوَسَطَ الْجُمُوعَ الْحَاشِدَةَ . وَعَلَى أَلْسِنَةِ الْخُلَفَاءِ وَالْقَوَادِ وَالْوَلَاةِ ، لَقَدْ حَيَّيْتُ فِي مَجَالِسِ الْمُنَازَعَةِ وَالْجَدَلِ عَلَى أَلْسِنَةِ عُلَمَاءِ الْمُتَكَلِّمِينَ وَالْفُقَهَاءِ ، وَبَقِيَ لِهَذَا الْمَوْقِفِ خَطَرُهُ مِنْ اِهْتِمَامٍ بِهِ وَحِرْصٍ عَلَى بَلَاغَةِ الْقَوْلِ فِيهِ إِلَى آخِرِ أَيَّامِ الْبُيُوتِ .

أَمَّا الْخُطَابَةُ وَقَدْ قَصُرَتْ عَلَى مَوَاقِفِهَا الدِّينِيَّةِ فَقَدْ وَكَلَتْ إِلَى الْعُلَمَاءِ يَقُومُونَ بِهَا فِي الْمَسَاجِدِ الْجَامِعَةِ فِي بَغْدَادٍ وَدِمَشْقٍ وَحَلَبٍ وَالْقَاهِرَةِ ، وَصَارَتْ إِلَى مَنْ دُونِهِمْ فِي غَيْرِهَا . وَكَانَ الْخُلَيبُ مِنْ هَؤُلَاءِ الْأَجْلَاءِ يَخْطُبُ لَا مُبْتَدَأَ لِقَوْلٍ ، وَلَا مُسْتَأْنَأَ لَهُ بَلْ يَلْقِيهِ بَعْدَ أَنْ حَبَرَهُ وَأَعْمَلَ فِيهِ رُويته ، وَإِنْ كَانَ يَأْتِي أَنْ يَلْقِيَهُ مِنْ وَرَقَةٍ فَقَدْ جُمِعَ

أطرافه وأعد عباراته . ثم صاروا إلى العجز عن ذلك والاضطرار إلى النظر في الورقة ولكنها بعد من إنشائهم وما جرت به أقلامهم ، ثم صاروا إلى الضعف وسقوط الهمة فلم يأقوا أن يخطبوا بكلام غيرهم المهيأ لهذه الأيام من السنة فصار الناس يسمعون في رجب وشعبان ورمضان وأيام الحج خطباً معينة تناسب هذه الأزمنة . ولما فات الخطباء التأثير بقوة البلاغة حمدوا إلى التهويل ، والتجثوا إلى الأحاديث الموضوعة في فضائل الأيام وثواب الأعمال ، وجزاء العصيان .

وقد شاع في خطب الجمعة والعيد ذلك السجع الذي شمل كل قول بعد المدة الأولى من عصور هذه الدولة حتى لقد روى عن بعض رجال المالكية أنه يرى اشتراط كون خطبة الجمعة مسجوعة . ولا أدري من أين جاء هذا ! وخطب رسول الله وجميع الخلفاء بريئة من السجع إلا ما جاء عفواً ، ولعل شيوع السجع في أيامه جعله يرى هذا الرأي .

وفي أواخر عهد الدولة نشأ للخطابة رواجٌ وجدَّت لها مواقف فانتشرت فيها على قدر ما يسمح به الزمن ، وتُساعد عليه المقدرة وذلك أن إغارة الصليبيين على مصر والشام دعت إلى جمع الجيوش لمقاومتهم ، وإلى التحريض على لقاءهم ، والحذر من فتنهم ، والعمل على رد كيدهم للدين ، فكثرت الخطباء ، ورددوا هذه المعاني ، ولكن لغة هذه الخطابة تمثل فيها جهْدُ البُقل ، لمصير الأدب واللغة إلى الوهن والاضمحلال .

خطباء العصر العباسي

من خطباء هذا العصر خلفاؤه كأبي العباس السَّفَّاح والمنصور ، والمهدي والرشيد والأمين والمأمون وآل بيتهم ، ومنهم داود بن علي وأخوه عبد الله وصالح وأبناؤه عبد الملك وإسماعيل وعبد الله ، ثم أخو داود بن علي وهو سليمان وابنه جعفر وبنوه

سليمان وداود وأيوب ، وقد قال الجاحظ في شأن خطباء بني العباس^(١) : « وجماعة من ولد العباس في عصر واحد لم يكن لهم نظراء في أصالة الرأي وفي السكال والجلالة وفي العلم بقريش والدولة وبرجال الدعوة مع البيان المجيب والغور البعيد والنفوس الشريفة والأقدار الرفيعة ؛ وكانوا فوق الخطباء وفوق أصحاب الأخبار وكانوا يجالون عن هذه الأسماء إلا أن يصف الواصف بعضهم ببعض ذلك » .

ومن خطباء بني هاشم من العلويين عبد الله بن الحسن بن حسن بن علي وأبناؤه محمد الملقب بالنفس الزكية وإبراهيم ، وقد خرجا على المنصور وأخوها موسى . ابن عبد الله ، ثم جعفر الصادق بن محمد بن علي بن الحسين ، والعباس بن الحسين ابن عبد الله بن عباس بن علي بن أبي طالب .

ومن خطباء الطالبين : عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ؛ ومن الخطباء من غير بيت الخلافة : جعفر البرمكي ، والفضل بن سهل ، والجنس أخوه ، وطاهر بن الحسين وابنه عبد الله ، وسهل بن هارون (خازن بيت الحكمة للمأمون) ، وبشار الشاعر وخالد بن صفوان وشبيب بن شيبان ، ومحمد الأحول بن خافان خطيب بني تميم . قال الجاحظ : لقد رأيتهم وسمعت كلامه .

ومن خطباء المساجد بعد المهدي الأول : الخطيب أبو يحيى بن نبأة الحنظلي^(٢) خطيب سيف الدولة بحلب وهو صاحب ديوان الخطب المشهور للطبوع ببغروت ، وتوفي سنة ٣٧٤ هـ ، والخطيب البغدادي صاحب كتاب (تاريخ بغداد) توفي سنة ٤٦٣ هـ ، وزكي الدين النمشي خطيب أول جمعة صليت ببيت المقدس بعد استعادته من الصليبيين سنة ٥٦٤ هـ ، وخطيب جامع القسطنطينية إبراهيم بن منصور المعروف بالعراق المتوفى سنة ٦١٣ هـ ، وخطيب الرى ، وهو والد الفخر الرازي المتوفى سنة ٥١٢ هـ .

(١) البيان والتبيين ج ١ باب أسماء الخطباء والبلغاء ... الخ ،

(٢) كان خطيب حلب اجتمع فيها مع النبي في خدمة سيف الدولة ، وهو من أهل ميافارقين . ومن هنا جاءت نسبته (الفارق) ، والحنظلي نسبة إلى حنظلة ، وهي بطن من قضاة . ونبأة بضم النون كما ضبطه ابن خلكان ، ومات أبو يحيى هذا سنة ٣٧٤ هـ ببلدة ميافارقين ودفن بها ، وهي بلدة من ديار بكر .

نماذج من خطب الخلفاء والولاة

« ١ »

صعد أبو العباس السفاح منبر الكوفة يوم الجمعة حين يبيع له بالخلافة في أعلاه وصعد داود بن علي فقام دونه . ثم خطب أبو العباس فقال :

الحمد لله الذي اصطفى الإسلام لنفسه وكرمه وشرّفه وعظمه ، واختاره لنا فأئده بنا . وجعلنا أهله وكهفه وحِصْنَه والقَوَامَ به والنّابِين عنه والناصرين له ، فأزمتنا كلمة التقوى وجعلنا أحقّ بها وأهلها ، وخصّنا برحِم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرابته وأنشأنا من آياته وأنبئنا من شجرته ، واشتقنا من نبّته ، جعله من أحسننا ، عزيزا عليه ما عتبتنا^(١) ، حريصا علينا بالمؤمنين رهوفا رحيا ، ووضعنا من الإسلام وأهله بالموضع الرفيع ، وأنزل بذلك على أهل الإسلام كتابا يتلى عليهم ، فقال تبارك وتعالى فيما أنزل من مُحْكَم آياته : « إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا » ، وقال تعالى : « قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى » ، وقال : « وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ » ، وقال : « مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِلَّذِي الْقُرْبَى » ، وقال : « وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِلَّذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ^(٢) » ،

(١) الفت : دخول المشقة على الإنسان ، وعنته أَعْتته : شدّد عليه وألزمه ما يكره .

(٢) كان خمس الغنمية على أيام رسول الله يقسم خمسة أقسام : قسم لله ورسوله ، وقسم لذوي القربى ، وثلاثة لليتامى والمساكين وأبناء السبيل . فلما مات رسول الله أسقط أبو بكر وعمر وعثمان سهم رسول الله وذوي القربى ، وقسموا على ثلاثة فقط . وانفقوا على جعل سهم رسول الله في السلاح والكراع . وعن ابن عباس : أن عمر عرض على ذوي القربى أن يزوّج من سهمهم =

فأعلمهم جلّ ثناءه فضلنا ، وأوجب عليهم حقنا ومودتنا ، وأجزل من أنثى والغنمية نصيبنا تكرمنا لنا وفضلا علينا ، والله ذو الفضل العظيم .

وزعت الشاميّة الضلال أن غيرنا أحقّ بالرياسة والخلافة منا ، فشأهت^(١)

وجوههم ، ولم أيها الناس ؟ وبنا هدى الله الناس بمسد ضلالتهم ، وبصرهم بعد جهالتهم ، وأتقدم بعد هلكتهم ، وأظهر بنا الحق ، وأدحض الباطل ، وأصلح بنا منهم ما كان فاسداً ، ورفع بنا الحسيّة^(٢) ، وتمم بنا النقيصة ، وجمع الفرق حتى عاد الناس بعد العداوة أهل التعاطف والبرّ والمواساة في دُنياهم ، وإخواناً على سرر متقابلين في آخرتهم ، فتح الله ذلك منّة ومنحة لحمد صلى الله عليه وسلم ، فلما قبضه الله إليه وقام إليه بالأسر من بعده أصحابه ، وأمرهم شورى بينهم ، حووا موارث الأمم ، فعدلوا فيها ووضعوها مواضعها ، وأعطوها أهلها ، وخرجوا إخصاصاً^(٣) منها ، ثم وثب بنو حرب وبنو مروان فابتزوها^(٤) وتداولوها بينهم ، فجاروا فيها واستأثروا بها وظلموا أهلها ، فأملى الله لهم حيناً حتى آسفوه^(٥) ، فلما آسفوه انتقم منهم بأيدينا ، ورد علينا حقنا ، وتدارك بنا أممتنا ، وولى نصرتنا والقيام بأمرنا ليمُن بنا على الذين استضعفوا في

- أئمتهم ، ويقضى عن غريمهم ، فأبوا إلا أن يسلمه إليهم فلم يفعل ، وجرى على عمله سلفه ، وإن كان رأيه أن هؤلاء يستحقون سهمهم . وروى عن عمر بن عبد العزيز أنه بعث سهم رسول الله وذوى قرباه إلى بنى هاشم . وأبو حنيفة يرى أن سهم رسول الله يصرف فيما صرفه الخلفاء الراشدون . والثاني يرى أن سهم رسول الله يصرف في مصالح المسلمين ، وسهم ذوى القربى يعطى لبنى هاشم وعبد المطلب .

(١) شاه يشوه شوها وشوكة : قبح .

(٢) يقال رفع فلان من خسيّة فلان : إذا فعل به فعلاً يكون فيه رفته .

(٣) خصمه (كخصر) الجوع ، وخصم (مثلاً) بطنه . والرجل خصمان بالتحريك ، والراة .

خصامة يضم فسكون ، والرجال خصاص ، والنساء خائص .

(٤) الابتزاز كالبز : أخذ الشيء بجفاء وقهر .

(٥) الأسف : أشدّ الحزن والغضب . ومنه قوله عليه الصلاة والسلام وقد سئل عن موت القباة :

قال : راحة للمؤمن وأخذة لأسف للكافر : أى غضب .

الأرض ، وخنم بنا كما افتتح بنا ، وإنى لأرجو ألا يأتكم الجور من حيث جاءكم الخير ، ولا الفساد من حيث جاءكم الصلاح ، وما توفيقنا أهل البيت إلا بالله . ي أهل الكوفة أتم محل محبتنا ، ومنزل مودتنا ، أتم الذين لم تتغيروا عن ذلك ولم يبتكم عنه تحامل أهل الجور عليكم حتى أدركتم زماننا ، وأتاكم الله بدولتنا ، فأتم أسعد الناس بنا ، وأكرمهم علينا ، وقد زدناكم في أعطياتكم مائة درهم ، فاستعدوا فأنا السفاح المبيح ، والتائر المبير ^(١) .

« ٢ »

وكان موعوداً ، فاشتد عليه الوعث ^(٢) ، فجلس على المنبر وقام معه داود على مراقب المنبر ، فخطب فقال :

الحمد لله شكراً شكراً . الذي أهلك عدونا . وأصار إلينا ميراثنا من نبينا محمد صلى الله عليه وسلم . أيها الناس : الآن أقشعت ^(٣) حناديس الدنيا ، وانكشفت غطاؤها ، وأشرقت أرضها وسماؤها ، وطلعت الشمس من مظلمها ، وبرز القمر من مبرزعه ، وأخذ القوس باربها ، وعاد السهم إلى النزعة ^(٤) ، ورجع الحق إلى نصابه في أهل بيت نبيكم أهل الرأفة ، والرحمة بكم ، والعطف عليكم . أيها الناس : إنا والله ما خرجنا في طلب هذا الأمر لنكثير جيناً ولا عقيناً ^(٥) ، ولا نحفر نهراً ، ولا نبني

(١) المبير : المهلك . وفي رواية المتبيح ، أى الذى يجعل الناس ينوحون على قتلاهم .

(٢) الوعث : أذى الجنى ، وألم من شدة التعب .

(٣) قشعت الرخ السحاب : فرقته فاقشع وقشع وأقشع . الحنيس : الليل المظلم أو الظلمة ، وتحدثس الليل : أظلم .

(٤) صار الأمر إلى النزعة : أى قام بالأمر أهله كما يقال أيضاً عاد السهم إلى النزعة . والنزعة : جمع نازع وهو الرأى . ويقال عاد الأمر على النزعة أى عادت عاقبة الظلم على الظالم .

(٥) البجين الفضة . المعيان الذهب الخالص . قيل هو مما ينبت نباتا وليس مما يحمل من الصخر والمراد من بانه أنه يوجد كتلا غير مختلط بالصخر ، قال الشاعر :

كل قوم صيفة من فضة وبنو الباس عقيان الذهب

قصراً ، وإنما أخرجنا الأنفة من ابتزازهم حقنا ، والغضب لبني عَمْنَا ، وما كَرَّنا^(١) من أموركم ، وبَهْظنا^(٢) من شئونكم ، ولقد كانت أموركم تُرْمِضُنَا^(٣) ونحن على قُرُوننا ، ويشد علينا سوء سيرة بني أمية فيكم ، وخُرْفَتُهُمْ بِكُمْ ، واستذلّاهم لكم ، واستشارهم بِفَيْتِكُمْ وصدقاتكم ومغانمكم عليكم . لكم ذمة الله تبارك وتعالى ، وذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذمة العباس رحمة الله ، أن تحكم فيكم بما أنزل الله ، وتعمل فيكم بكتاب الله ونسير في العامة منكم والخاصة بسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم . تَبَّنا لبني حرب ابن أمية وبني مروان ، آثروا في ملتهم وعصرهم الماجلة على الآجلة ، والدار الفانية على الدار الباقية ؛ فركبوا الآثام ، وظلّوا الأنام ، واتهكوا المحارم ، وغشوا الجرائم ، وجاروا في سيرتهم في العباد ، وسنتهم في البلاد التي بها استلذوا تسرُّبُ الأوزار ، وتجلبَّب الأصار ، وَمَرَحُوا^(٤) في أعنة المعاصي ، ورَكَّضُوا في ميادين الفتن جهلا باستدراج الله ، وأثنا لمكر الله . فأنهم بأس^(٥) الله بياتاً وهم نائمون ، فأصبحوا أحاديث^(٦) ، ومزقوا كلَّ مُزْمَرٍ . فبُعِدَ للقوم الظالمين ، وأدالنا^(٧) الله من مروان ، وقد غرّه بالله الفروُر . ما أُرْسِلَ لعدو الله في عِنايته حتى عَثَرَ في فَضْلِ خِطَامِهِ^(٨) ، ففلنَّ عدو الله أن لن نقدر عليه ، فنادى حِزْبَهُ ، وجمع مكَايِدَهُ ، ورمى بكتائبه ، فوجد أمامه ووراءه ، وعن يمينه

(١) كرهه المم (كنصر وضرب) : اشتد عليه كآثرته .

(٢) بهظه الأسر (كنع) : ثقل عليه .

(٣) أرمضه الأسر : أوجعه ، والرمض (بالضريك) : شدة وقع الشمس .

(٤) مرح (كفرح) : بطرو لسط واحتال ويتختر .

(٥) البأس : المذاب .

(٦) الحديث : الخبر قايله وكثيره ، وجمعه على أحاديث شاذ كقطع وأطاميع . قال الفراء : أرى أن جمع الأحذوتة أحاديث ثم جعلوه جمعا لحديث .

(٧) الدولة — (بالضم) : اهلاب الزمان ، والجمع دول منقطة ، ودالت عليهم ولم : ضد . وأدال الله لنا عليهم ومنهم : جعل الفوز لنا عليهم .

(٨) الخطام (ككتاب) : كل ماوضع في أنف البعير ليقناده .

وشماله من مكر الله وبأسه ونقمته ما أمات باطله ، وتحقق ضلّاله ، وجعل دائرة السوء به ، وأحيا شرفنا وعزّنا ، وردّ علينا حقنا وإزّتنا . أيها الناس : إن أمير المؤمنين نصره الله نصرًا عزيزًا ، إنما عاد إلى المنبر بعد الصلاة أنه كره أن يخلط بكلام الجمعة غيره ، وأدهو الله لأمر المؤمنين بالعافية ، فقد أبدلكم الله بمرّوان عدوّ الرحمن ، وخليفة الشيطان . المُتَّبِعُ السَّفَلَةُ^(١) الذين أفسدوا في الأرض بعد إصلاحها بإبدال الدين ، واتهالك حريم المسلمين : انشأ السكّهل المُتَمَهِّلُ ، المُتَدَيِّ بِسَلَفِهِ الأبرار الأخيار الذين أصلحو في الأرض بعد فسادها بمالم الهدى ومناهج التنوُّي . (فتحّ الناس له بالدعاء) .

ثم قال : يا أهل الكوفة ، إننا والله مازلنا مظلومين مهوَّرين على حقنا حتى أتاه الله لنا شيعتنا أهل خراسان فأحيا بهم حقنا ، وأفلح بهم^(٢) حبّتنا ، وأظهر بهم دولتنا ، وأراكم الله بهم ما لستم تنتظرون . وإليه تشوّقون ، فأظهر فيكم الخليفة من هاشم ، وبيّض به وجوهكم ، وأدّلكم على أهل الشام ، ونقل إليكم السلطان ، وعزّ الإسلام ، ومنّ عليكم بإمام منّته العدالة ، وأعطاه حُسن الإيالة^(٣) ، فخذوا ما آتاكم الله بشكرٍ والزمو طاعتنا ، ولا تتحدّعن أنفسكم ، فإنّ الأمر أمرٌكم ، فإن لكلّ أهل بيتٍ مضرًا وإنكم مضرنا ، ألا وإنّه ما صعد منبركم هذا خليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ، وأمير المؤمنين عبد الله بن محمد ، (وأشار بيده إلى أبي العباس) ، فاعلموا أن هذا الأمر فينا ليس بخارج منا حتى نسله إلى عيسى ابن مريم صلى الله عليه وسلم ، والحدّث لله رب العالمين على ما أبلانا^(٤) وأولانا .

ثم نزل أبو العباس ، وداود بن عليّ أمانته حتى دخل القصر .

(١) السفلة (بالكسر وكفرحة) : غوغاء الناس .

(٢) الفلح : الظفر وفتح (كنصر) على خصمه : فاز وأفلهج الله .

(٣) آل الملك رعيته إيلا : ساسهم . وآل على القوم أولا ولإيالة : تولى عليهم .

(٤) أبلاه : صنع به حسنا أو سيئا ، والكلام هنا صالح للعنين .

« ٣ »

وخطب أبو العباس بالشام بعد مقتل مروان بن محمد فقال :

« ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً^(١) ، وأحلوا قومهم دار البوار جهنم يصلونها
وبئس القرار » ، تسكص^(٢) بكم ياهل الشام آل حرب وآل مروان يتسكعون^(٣) بكم
في الظلم ، ويتهورون بكم في مداحض الزلق ، يطئون به حرمة الله وحرمة رسوله . ماذا
يقول زعماؤكم غدا ؟ يقولون : ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار^(٤) . إذا
يقول الله عز وجل : « لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ » .

أما أمير المؤمنين فقد انتف بكم التوبة ، واغفر لكم الزلة ، وبسط لكم الإقالة^(٥)
وعاد فضله على تنصيحكم ، وبجله على جهلكم . فليُرخ روعكم^(٦) ، ولتطمئن بكم
داركم ، ولتعتظكم مصارع أولئكم ، فتلك بيوتهم خالية بما ظلموا » .

« ٤ »

وخطب سليمان^(٧) بن علي عم أبي العباس ، فقال :

(١) أي بدلوا شكر نعمته بكفرا . والاشارة إلى كفار قريش . وعن عمر أنهم الأفران من قريش
بنو النيرة ، وبنو أمية . فأما بنو النيرة فقد لقيتموهم يوم بدر ، وأما بنو أمية فتموا إلى حين .

(٢) تكس على عقيه : رجح عن الخير ، أو علم (بابه نصر وضرب) .

(٣) التسكع والتكتم : المني على غير هدى والتماهى في الباطل .

(٤) عذاباً ضعفاً : أي مضاعفاً ، والضعف : الثلث في الأصل ، ثم استعمل في الثلث وما زاد عليه ،
والزيادة لا حد لها .

(٥) الإقالة : الإعفاء . ويقال استقالة المتر : أي طلب أن يمله منها ويغنيه .

(٦) يقال أفرخ روعه : أي خلا قلبه من الهم كما تفرخ البيضة بأن يخرج منها فرخها فتخلو . وعلى
هذا يكون معنى أفرخ خلا ، ومعنى الروع القلب . أما قولهم : أفرخ روعه بفتح الراء من روع
فالروع هنا الخوف فوجهه أن يبه الروع بالبيضة وما يتوقع منه بالفرخ داخلها فإذا أفرخ
الروع فقد خلا مما كان يتوقع منه وزال ما فيه من ضرر .

(٧) ولاة السباح البصرة وكور دجلة والبحرين وعمان سنة ١٣٣ هـ ومات سليمان سنة ١٤٢ في
خلافة المنصور .

«وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ ^(١) مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ .
 إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ » فضائه مُبَرِّمٌ ، وقولُ فَصْلٌ ، وما هو بالهزل . الحمد لله
 الذى صدق عبده ، وأنجز وعده ، وبعثنا للقوم الظالمين ، الذين اتخذوا الكعبةَ غَرَضًا ^(٢) ،
 وَالْفَيْءَ إِزْنًا ، والَّذِينَ هَرُّوْا ، وجعلوا القرآنَ عِصِينَ ^(٣) ، ولقد حاق بهم ما كانوا به
 يستهزئون ، فكأَيُّ تَرَى من بئرٍ مُعْطَلَةٍ وَقَصْرِ مَشِيدٍ ^(٤) ، ذلك بما قَدِمْتَ أَيْدِيَكُمْ ،
 وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ ، أَمْهَلُوا وَاللَّهُ حَتَّى نَبْذُوا الْكِتَابَ ، واضطهدوا الْعِثْرَةَ ،
 وَنَبَذُوا السُّنَّةَ ، واعتدوا واستكبروا ، وخاب كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ، ثم أخذهم ذُرٌّ هَلْ تَحْسِبُ
 منهم من أحدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا .

« ٥ »

وخطب أبو جعفر المنصور يوم الجمعة فقال :
 « أحمد الله حمده وأستعينه ، وأتوكلُ عليه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده
 لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله .
 أيها الناس : اتقوا الله - فقام إليه رجل . قال : أَذْكَرُكَ من ذَكَرْتَنَّا به وأنت

(١) الزبور : كتاب داود عليه السلام . والذكر : التوراة .

(٢) إشارة إلى ما نال الكعبة من بئى أمية فقد وجه عبد الملك في سنة ٧٢ هـ جيشا لمحاربة ابن الزبير
 بمكة وجعل عليه الحجاج بن يوسف غاصر مكة ورمى الكعبة بالمنجنيق حتى قتل الزبير سنة ٧٣
 وفى سنة ٧٤ هـ هدم الحجاج الكعبة وأعاد بناءها .

(٣) المصنعة : الفرة ، وجهها عضون والعصه (بالهاء) : الكذب وجمعه عضون أيضا ، فعنى جعلوا
 القرآنَ مصنيعين : جعلوه أجزاء فقال بعضهم إنه شس ، وقال آخرون حوسر وقال غيرهم كهانة
 وقيل جعلوه كذبا ، وهذا على أن عضنين جمع عضه (بالهاء) .

(٤) المشيد : المظى بالشيد وهو الجص ، والمشيد (كسكرم) : اللطول . وفى تفسير النسفى المشيد أيضا
 اللطلى وليس فى كتب اللغة ما يؤيده . وفى اللسان شاد البناء : رفعه (فى بعض كلام العرب) ومنه
 قول الشاعر :

شاده مرمرًا وكلله كلسًا فلطير فى ذراه وكور

في ذكره يا أمير المؤمنين . قال أبو جعفر : سمعا وطاعة لمن سَمِعَ عن الله وذكر به وأعوذ بالله أن أذكر به وأنساه ، فتأخذني العزة بالإثم^(١) لقد صَلَّتْ إِذَا وما أنا من المهتدين . ثم التفت إلى الرجل وقال : وأما أنت يا قائلها فوالله ما الله أَرَدَتْ بها ، ولكن يقال قام فلان فقال فموجب فصبر ، وأهون بها لو كانت العقوبة . وأنا أُنذِرُكُمْ أيها الناس أختها ، فإن الموعظة الحسنة علينا تَزَكَّتْ وفيها ثَبَّتَتْ . ثم رجع إلى موضعه من الخطبة فقال : رحم الله امرأ نظر في دنياه لآخرته فمضى القصد ، وقال القصد ، وجانب الهجر . ثم أخذ بقاءهم سيفه وقال : إن بكم داء هذا شفاؤه وأنا زعيم لكم بشفاؤه . فليعتبر عبداً قَبْلَ أن يُعْتَبَرَ به . فسا بعد الوعيد إلا الإيحاء . وإنما يُفْتَرَى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله .

« ٦ »

وخطب أبو عبد الله المهدي فقال .

« الحمد لله الذي ارْتَضَى الحمد لنفسه ، وَرَضِيَ به من خَلَقِهِ . أَحْمَدُهُ على آلائه^(٢) ، وَأُجِدُّهُ لِبلائه وأُستَعِينُهُ وأُؤْمِنُ به ، وَأَتَوَكَّلُ عليه تَوَكَّلَ راضٍ بقضائه وصابِرٍ لِبلائه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده المصطفى ونبيه المجتبي ، ورسوله إلى خَلْقِهِ ، وأمينُهُ على وحيه . أرسله بعد انقطاع الرجاء وطُمُوس^(٣) العلم

(١) أخذته العزة بالإثم: احتوت عليه وأحاطت به وصار كالأخوذ بها، والعزة في الأصل: خلاف النذل وأريد بها هنا الأثرة والحمية مجازاً ، و (بالإثم) أي مصحوباً بالإثم أو مصحوبة بالإثم أو بسبب إثمه . ويعوز أن يكون أخذ بمعنى أسر ، ومنه الأخيذ بمعنى الأسير: أي جماعته العزة وحمية الجماعة أسيراً بقيد الإثم لا يتخلص منه .

(٢) الآلاء : النعم واحدها ألوكدلو وألى كسى وإلى كثر وإلى كرنا .
(٣) الطُمُوس : الفروس والإعفاء ، طمس الطريق (كدخل وضرب) وطمس (كضرب) وقوله تعالى (ربنا اطمس على أموالهم) أي غيرها ، وكذلك (من قبل أن تطمس وجوهاً) .

واقتراب من الساعة ، إلى أمة جاهلية ، مختلفة ، أمية ، أهل عداوة وتضامن وفُرقة وتباين . قد استهوهم شياطينهم ، وغلب عليهم قرأؤهم^(١) ، فاستشعروا^(٢) الردى ، وسلكوا المعى يبشّر من أطاعه بالجنة وكرّم ثوابها ، ويُنذِر من عصاه بالنار وأليم عقابها . لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ . أوصيكم عباد الله بتقوى الله ، فإن الاقتصار عليها سلامة ، والترك لها ندامة . وأحسّكم على إجلال عظمته ، وتوقير كبريائه وقُدْرَتِهِ ، والالتناء إلى ما يقرب من رَحْمَتِهِ وَيُنَجِّي من سُخْطِهِ ، ويُنَال به ماله من كرم الثواب وجزيل المآب . فاجتنبوا ما خوّفكم الله من شديد العقاب وأليم العذاب ووعيد الحساب ، يوم تُوقَفون بين يدي الجبار وتُعْرَضون فيه على النار . يوم لا تَكَلّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمَنْ شَقِيَ وَسَمِعَ . يوم يَفْرُ المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبه وبنيه لكلّ امرئ منهم يومئذ شأن يُغْنِيه . يوم لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ^(٣) ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون . يوم لا يَجْزِي والدٌ عن ولده ولا مولود هو جازٍ عن والده شيئا . إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ اللَّهُ الْغُرُورُ . فَإِنَّ الدُّنْيَا دَارُ غُرُورٍ وَبَلَاءٍ وَشُرُورٍ وَاضْمَحَلَالٍ ، وزوالٍ وتقلبٍ وانتقالٍ ، قد أَفْنَتْ من كان قبلكم وهي عائدة عليكم وعلى مَنْ بَعْدَكُمْ . وَمَنْ رَكَّنْ إِلَيْهَا صَرَغَتْ ، ومن وَثِقَ بِهَا خَانَتْهُ ، ومن أَتَمَّلَهَا كَذَّبَتْهُ ، ومن رَجَاها خَدَلَتْهُ . عَزَّهَا ذُلٌّ ، وغناها قُفْرٌ ، والسعيدُ من تركها ، والشقيُّ فيها من آثرها ، والمغبون فيها من باع حظه من دار آخرته بها . فَاللَّهُ اللَّهُ يَا عِبَادَ اللَّهِ ، التَّوْبَةُ مُقْبُولَةٌ ، والرحمةُ مبسوطةٌ . بادروا بالأعمالَ الرَّكِيَّةَ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ

(١) القرناء : جمع قرين وهو الفانن والصاحب والشيطان الذي لا يارق الإنسان .

(٢) استشعر الشيء : لبسه على الجسد ، والملبوس يسمى شعرا ، والمعنى لزموا الردى واتصل بهم تمام الانتماء .

(٣) العدل : الفريضة . والصرف : التوبة أو النافلة أو العكس ، أو العدل الكيل ، والصرف : الوزن

أو الصرف الحيلة ، ومنه (لا يستطيعون صرفا ولا نصرا) .

قبل أن يؤخذ بالكظم^(١) ، وتندموا فلا تتألون التدم في يوم حسرة وتأسف ، وكآبة وتلهف . يوم ليس كالأيام وموقف صنك^(٢) المقام ، إن أحسن الحديث وأبلغ الموعظة كتاب الله . يقول الله تبارك وتعالى « وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » .

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . بسم الله الرحمن الرحيم « أَلَمْ أَكُمُ التَّكَاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ . كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ . ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ . كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ . لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ثُمَّ لَتَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ^(٣) » أوصيكم عباد الله بما أوصاكم الله به وأنها لكم عما بهاكم الله عنه . وأرضى لكم طاعة الله وأستغفر الله لي ولكم .

« ٧ »

وخطب الرشيد فقال :

الحمد لله على نعمه ونستعينه على طاعته . ونستنصره على أعدائه ونؤمن به حقا وننوّكل عليه ، مفعّضين إليه . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله بعثه على قترّة من الرسل ، ودُرّوس من العلم ، وإدبار

(١) الكظم (بالتحريك) : الخلق أو القم .

(٢) صنك : منيق ، والفعل ككرم .

(٣) حتى زرت المقابر : أى حتى تمّ ودفنت فيها ، أو عديم الموت تكاثرا . لترون الجحيم : جواب قسم محذوف والتقدير والله لترون الجحيم ولا يصح جعله جواب لولأن جوابها ممتنع لامتناع شرطها . وجواب لو تعلمون محذوف لتفخيم أى لا تردعتم أو لكان منكم ما لا يوصف . والمطف بش في ثم كلا سوف تعلمون إشارة إلى أن العلم الأول في الدنيا أو عند الموت والآخر يوم النسر . وفي ثم لترونها لأن الرؤية الأولى رؤية علم والثانية رؤية بصر وهي أقوى وأكثر وتكون بعد الثانية أى يوم القيامة .

عن الدنيا ، وإقبال من الآخرة . بشيراً بالنعيم المقيم ، ونذيراً بين يدي عذاب أليم ، فبلغ الرسالة ، ونصَحَ الأئمة ، وجاهد في الله . فأدى عن الله وعده ووعيده حتى أتاه اليقين فلي التبي من الله صلاة ورحمة وسلام .

أوصيكم عباد الله بتقوى الله ، فإن في التقوى تكفير السيئات ، وتضعيف الحسنات ، وفوزاً بالجنة ، ونجاةً من النار ، وأحذركم يوماً تشخص فيه الأبصار ، وتُبلى فيه الأسرار ، يومَ البعثِ ويومَ التَّعَابُنِ ^(١) ويوم التلاقى ويوم التَّنَادِي ^(٢) . يوم لا يُسْتَعْتَب من سيئة ولا يُزَاد في حسنة يوم الآزفة ^(٣) إذ القلوبُ لدى الحناجر كاطمين ^(٤) ، ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاق . يعلم خائنة ^(٥) الأعين وما تخفي الصدور . واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كَسَبَتْ وهم لا يظلمون .

عباد الله إنكم لم تخلقوا عبثاً . ولن تتركوا سُدىً ^(٦) . حَصِّنُوا إيمانكم بالأمانة وديفكم بالورع ؛ وصلاتكم بالزكاة فقد جاء في الخبر أن النبي صَلَّى الله عليه وسلم قال : « لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له ، ولا صلاة لمن لا زكاة له » إنكم ستُفَرِّقُونَ ^(٧) مجتازون . وأتم عن قريب تنتقلون من دار فناء إلى دار بقاء فسارعوا إلى المغفرة بالتوبة ، وإلى الرحمة بالتقوى ، وإلى الهدى بالأمانة ، فإن الله تعالى ذِكْرُهُ أوجب رحمته

(١) التَّعَابُنُ : فاعل من التَّعَبَّى أى أن المؤمنين يفتنون الكفار منازلهم في الجنة لو كانوا آمنوا . أو من غبن عقله إذا لبس إلى النفس ، وأهل الجنة يفسون أهل النار إلى ضيف العقل .

(٢) التَّنَادِي : أن ينادى أهل الجنة أهل النار وبالعكس ، أو النداء لأهل السعادة بها ولأهل الشقاء كذلك

(٣) سميت القيامة آزفة ، من أزف الرجل : إذا قرب .

(٤) كاطمين : مطمئنين عما . حال من القلوب وعوملت معاملة أصحابها ، أو حال من أصحابها .

(٥) خائنة : الأعين : الأعين الخائنة بمسارقة النظر .

(٦) السدى (بالفتح أو الضم وهو الأكثر) : المهلة من الأبل للواحد والجمع كالسدى ، وأسدها أهمله

(٧) رجل سفر وقوم سفر (كلاهما بالفتح) وقوم سافرة وأسفار وسفار : ذوو سفر . والسافر : المسافر لافعل له ، وفي المصباح : سفر الرجل (كضرب) فهو سافر والجمع سفر (كراكب وركب)

المتقين، ومغفرته للتائبين، وهذه للمنيبين . قال الله عن وجل وقوله الحق: «وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ»، وقال: «وَأِنِّي لَنَفَارٍ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى»، وإياكم والأمانى فقد غرَّت وأوردت^(١) وأوقعت^(٢) كثيرا حتى أكذبهم منايهم فتناوشوا^(٣) التوبة من مكان بعيد، وحيل بينهم وبين ما يشتهون فأخبركم ربكم عن المثلاث^(٤) فيهم وصرف^(٥) الآيات وضرب الأمثال. فرغب بالوعد، وقدم إليكم الوعيد. وقد رأيتم وقائعه بالقرن الخوالى جيلا تلو جيل، وعهدتكم الآباء والأبناء والأحبة والعشائر باختلاف الموت إليهم من بيوتكم، ومن بين أظهركم لا تدفون عنهم ولا تحولون دونهم، فرأت عنهم الدنيا، واقطعت بهم الأسباب فأسلمتهم إلى أعمالهم عند المواقف والحساب والعقاب . ليحزى الذين أساءوا بما عملوا ويحزى الذين أحسنوا بالحسنى .

إن أحسن الحديث وأبلغ للموعظة كتاب الله، يقول الله عز وجل: «وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ»، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ : قل هو الله أحد . الله الصمد^(٦) لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد .

أمركم بما أمركم الله به . وأنها كم عانها كم الله عنه . وأستغفر الله لى ولكم .

(١) المفعول محذوف : أى موارد الهلاك .

(٢) أوقعت : أهلكت من وبقى كوعد بمعنى هلك . وللوقيات : العامى .

(٣) التناوش : التناول، وقوله تعالى : وأنى لهم التناوش من مكان بعيد : أى كيف لهم تناول الإيمان بعد فترات وقته وهم لم يتناولوه في إيمانه .

(٤) المثلاث : القوبات جمع مثلة (بفتح فضم) وفيها أيضا مثلة (بالتحريك) والفعل مثل به : نكل كئل (بالتضعيف) .

(٥) تصريف الآيات : تبينها .

(٦) الصمد : السيد المطاع الذى لا يقضى دونه أمر . وقيل هو الذى يصمد إليه فى الحاجات : أى يقصده ، والصمد أيضا الدائم والرفيع . ومن معانيه التى لا تناسب مقام الآية المصمت الذى لا جوف له ، والذى لا يبطش ولا يجوع فى الحرب ، والقوم لاحرفة لهم ولا شيء يصيرون منه .

وخطب المؤمنون خطبة الجمعة فقال :

« الحمد لله مستخلص الحمد لنفسه ، ومُسْتَوْجِبُه على خلقه . أحده وأستعينه وأؤمن به وأتوكل عليه . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون . أوصيكم عباد الله ونفسي بتقوى الله وحده ، والعمل لما عنده والتَّجَنُّزُ لوعده ، والخوف ليعيده . فإنه لا يسلم إلا مَنْ اتقاه ورجاه وعمل له وأرضاه ، فاتقوا الله عباد الله ، وبادروا آجالكم بأعمالكم ، وابتاعوا ما يبقى بما يزول عنكم ويفنى ، وترحلوا عن الدنيا ، فقد جُدَّ بِكُمْ^(١) ، واستعدوا للموت فقد أظْلَمَكُمْ ، وكونوا كقوم أصبح فيهم فاتبهوا ، وأعلموا أن الدنيا ليست لهم بدار فاستدُّوا . فإن الله عزَّ وجلَّ لم يَخْلُقْكُمْ عَبَثًا ، ولم يترككم سُدىً ، وما بين أحدكم وبين الجنة والنار إلا الموت أن ينزل به . وإن غاية تنقصها اللحظة وتهدمها الساعة الواحدة لجديرة بِقَصْرِ الْمُدَّةِ ، وإن غائباً يحلوه الجديدان الليل والنهار لجدير بسرعة الأوبة ، وإن قادمًا يحلُّ بالفوز أو الشقوة لمستحقٍّ لأفضل المُدَّةِ ، فاتق عبدُ ربِّه ، ونصح نفسه ، وقدم توبته ، وغلب شهوته ، فإن أجله مستورٌ عنه ، وأمله خادعٌ له ، والشيطان مُوَكَّلٌ به ، يُزَيِّنُ له المصيبة ليركبها ، ويُمَنِّيه التوبة ليسوقها ، حتى تَهْتُمُّ عليه مَنَنِتُهُ أغفل ما يكون عنها ، فيألفها حسرةً على كل ذى غفلة أن يكون عمره عليه حجةً ، وتؤديه مَنَنِتُهُ إلى شقوةٍ ، نال الله أن يجعلنا وإياكم من لا تُبْطِرُهُ^(٢) نعمة ، ولا تُقْصِرُ

(١) الجد في الأمر : الاجتهاد وضد الهزل، وقولهم «أجدك لاتفعل» بكسر الجيم استعلاف بالحقيقة وبالفتح استعلاف بالباطل، وإذا قيل «وجدك لاتفعل» فتح لاغير.

(٢) أبطرته النعمة : جعلته يظلي .

به عن طاعة ربّه غفلةً ، ولا يحُلُّ به بعد الموت فِرْعَةٌ إِنْهُ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ، بيده الخير وهو على كل شيء قدير ، فَعَالَ لِمَا يَرِيد .

خطب طاهر بن الحسين حين فتح بغداد فقال :

« الحمد لله مالك الملك ، يؤتي الملك من يشاء ، وَيَنْزِعُ الملك من يشاء ، وَيُعِزُّ من يشاء ، ويذلّ من يشاء ، ولا يُضْلِحُ عمل الفاسدين ، ولا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ^(١) إِنْ ظَهَرَ غَلْبَتُنَا لم تكن عن أيدينا ولا كَيْدِنَا ^(٢) بل اختار الله لخلافته ، إِذْ جعلها عموداً لدينه ، وقواماً لعباده ، من يستقل ^(٣) بأعبائها ويضطلع ^(٤) بحملها

« ١٠ »

وخطب الناس عبد الله ^(٥) بن طاهر وقد تجهز لقتال الخوارج فقال :

« إِنْكُمْ فِتَّةُ اللَّهِ الْمُجَاهِدُونَ عَنْ حَقِّهِ ، النَّائِبُونَ عَنْ دِينِهِ ، الَّذِينَ عَنْ مَحَارِمِهِ ، الدَّاعُونَ إِلَى مَا أَمَرَ بِهِ مِنَ الْإِعْتِمَادِ بِحَبْلِهِ ، وَالطَّاعَةُ لَوْلَاةِ الْأُمُورِ ، الَّذِينَ جعلهم رُعَاةَ الدِّينِ ، وَنِظَامَ الْمُسْلِمِينَ ؛ فَاسْتَنْجِرُوا مَوْعُودَ اللَّهِ وَنَصْرَهُ ، بِمُجَاهَدَةِ عَدُوِّهِ وَأَهْلِ مَعْصِيَتِهِ

(١) أَيْ لَا يَنْفَعُهُ وَلَا يَسُدُّهُ ، أَوْ لَا يَهْدِي الْخَائِنِينَ بِكَيْدِهِمْ .

(٢) كَيْدُنَا : حِيَاتِنَا .

(٣) اسْتَغْنَى بِالْقُوَى : رَمَعَهُ ، وَمَنْ الْحَاجُ أَنْ يَكُونَ مُسْتَقِلَّ بِنَفْسِهِ إِذَا كَانَ ضَابطاً لَأَمْرِهِ ، وَهُوَ لَا يَسْتَغْنَى بِكَذَا : لَا يَنْهَضُ بِهِ وَلَا يَطْبِقُهُ .

(٤) يَضْطَلِعُ ، يَقْوَى . وَالضَّلَاعَةُ : الْقُوَّةُ ، وَالْفِعْلُ كَكُفِّهِمْ .

(٥) فِي سَنَةِ ٢٠٦ هـ وَلى المأمون عبد الله بن طاهر حرب نصر بن شُبَّانَ فِي سَنَةِ ٢١٠ أَرْسَلَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ طَاهِرٍ نَصْرًا إِلَى بَغْدَادَ وَكَانَتْ مَدَّةَ حِمَارِهِ وَقَتْلَهُ خَمْسَ سِنِينَ . وَكَانَ يَقُولُ : هَوَايَ مَعَ الْعَبَّاسِيِّينَ وَلِئَامِ حَارِثِهِمْ مَحَامَاةً عَنِ الْعَرَبِ لِأَنَّهُمْ يَقْتُلُونَ عَلَيْهِمُ الْعَجَمَ .

الذين شَدُّوا وَتَمَرَّدُوا وَشَقَّوْا الْعَصَا . وفارقوا الجماعة وَمَرَقُوا مِنَ الدِّينِ ، وسعوا في الأرض فسادا ، فإنه يقول تبارك وتعالى : «إِنَّ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ» فليكن الصبر مَقْلَكُكُمْ الذي إليه تلجئون ، وَعُدَّتْكُمْ التي بها تستظهرون ، فإنه الْوَزَرُ الْمُنِيعُ الذي دَلَّكُمْ اللَّهُ عليه ، وَالْجَنَّةُ الْحَصِينَةُ التي أَمَرَكُمْ اللَّهُ بلباسها ، غُصُّوا أَبْصَارَكُمْ ، وَأَخْفِتُوا^(١) أَصْوَاتَكُمْ فِي مَصَافِّكُمْ . وَاْمْضُوا قُدَمَا عَلَى بَصَائِرِكُمْ ، فارغين إلى ذِكْرِ اللَّهِ والاستعانة كما أَمَرَكم اللَّهُ فإنه يقول : «إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» ، أَيْدِكم اللَّهُ بِعِزِّ الصَّبْرِ وَوَلِيَّتْكُمْ بِالْحَيَاةِ وَالنَّصْرِ .

نموذج من خطب أئمة المساجد

خطبة لابن نباتة خطيب حلب في ذكر فضل الجهاد :

الحمد لله ملبس من أطاعه أنوار القبول . ومُرَّس من عصاه في مضال الجول ، الذي خاطب بمراده أهل العقول ، وجعلهم الأمانة والحكام على كل جهول . أحمد حمد من علم أن حمده فريضة . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له . كلمة تَنْفَعُ بها الأئمة للريضة ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . أرسله مُصَلِّيًا بِالْحَسَامِ ، وَخُجَّتًا فِي الظَّلَامِ . مشتتا للطفام ، مُشِيداً لَشُعَائِرِ الْإِسْلَامِ ، مُؤَيِّداً بِالْمَلَائِكَةِ الْكَرَامِ حتى أذل عبدة الأصنام ، وألف القلوب بتشذيب الهام . صلى الله عليه وعلى آله الهداة الأعلام صلاة دائمة بدوام الأيام وسلم تسليماً .

أيها الناس : اقطعوا بتقوى الله أودية الأعمار ، وارفعوا في جهاد عدو الله

(١) خفت خفوتاً ، سكنت وسكنت .

ألوية الأبرار ، واصدعوا بكتاب الله قلوب المناقذين والفتجار . وانزعوا باذكار
 للرد إلى الله عن موبات الأوزار ، واتمسوا كنوز القرآن بأمثاله وقصصه . ولا تطلّعوا
 عن حمل عزائم طلبا لرخصه . وأمرؤجوا سائح الحياة بذكر غلزال الموت وعُصصه ، وبادروا
 غفلات الزمان باتهاز فُرصه ، فإن الصحة يمتريها للرض ، والأطهار تنوبها الحيض .
 وجوهب الآخرة لا يفي به من الدنيا عَرْض . فابدؤوا في الجهاد النفوس قد عظم عنها
 العوض ، واصبروا واصبروا وربطوا ، وإن مسككم المضض ، وأغريقوا في النزغ قد
 استهدف من عدوكم الفرض . وتمسكوا بحبل جهاده قد استحصدت لكم مرره .
 وريشوا السهام لمقاتلته فقد أمكنتكم ثغرّه . واغتنموا صفاء وقت غمّ العدو كدره ،
 واحتموا منه بشاكي السلاح ، فإن حامى النحل إبره . وتحصنوا من كيد العدو
 بمعاقل الصبر ، وثقوا مع الثبات بعاجل النصر ، وأكثروا من ذكر الله تعالى عند
 اللقاء في السرّ والجهر ، ولا تجعلوا لكم ملجأ سواه عند تضايق الأمر . واستشعروا
 السكينة إذا كشفت الحرب نقابها ، وأطار الإقدام عُقابها ، وأخرّ اللطام ضرايبها .
 وأمرّ الحمايم شرايبها . وتذكرت العرب العرايا أنسابها . ومثلت العلماء مرجعها ومآبها .
 ونزلتم للجهاد منزلا قد أشرعت إليه الجنة أبوابها ، وطالعت الحور الحسان منه أحبابها ،
 وأشرعت الولدان لمصطفى الله فيه أكوأبها ، وقيل هذه عروس دار الآمال ، فكونوا
 الآن خطابها . وصرخ الشيطان بطقام أعوانه ، وأرعد وأبرق بأباطيل بُهائنه ، وهول
 باحتشاد عبدة ضلّابنه ، وصنن لهم ما هو مخفر في ضمائه ، وجاء الحق وبطل النفاق
 وانسدت بمجيش العدو الجهات والآفاق . فأخذوا هنالك بصواعق العزمات رهبه ،
 وأبطالوا بصادق الحلات حججه . واربأوا بصمّ الزماح فُرجه . واضربوا ببيض
 الصفايح تبجّه ، واركبوا ببذل الأرواح لججه ، وانهبوا بالموت الضراح مهجه .

نماذج من أقوال الوعاظ

حكى أن الأوزاعي قال : بعث إلى المنصور ، فقال : لم تبطناء عنا ؟ قلت :
وما تريد منا ؟ قال : آخذ عنكم وأقتبس منكم ، فقلت له : مهلا فإن عروة بن رُوَيْم
أخبرني أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال : من جاءته موعظة من ربه قبلها شكر
الله له ذلك ، ومن جاءته فلم يقبلها كانت حجة عليه يوم القيامة ، مهلا فإن مثلك
لا ينبغي له أن ينام ، إنما جعلت الأنبياء رعاةً لعلمهم بالبيعة : يجربون الكبير ،
ويُسَمِّنُونَ الهزيلة ، ويرثون الضالة ، فكيف من يسفك دماء المسلمين ويأخذ
أموالهم ؟ أعيذك بالله أن تقول إن قرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم تدعوك
إلى الجنة ، إن رسول الله كانت في يده جريدة يستاك بها ، فضرب قرن أعرابي ،
فنزله عليه جبريل عليه السلام ، فقال : يا محمد ، إن الله تبارك وتعالى لم يبعثك جباراً
مؤيساً مُقْنِطاً تكسر قرون أمتك . ألقى الجريدة من يده ، فدعا الأعرابي إلى
القصاص من نفسه ، فكيف بمن يسفك دماء المسلمين ؟ إن الله عز وجل أوحى
إلى من هو خير منك ، إلى داود عليه السلام : (يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي
الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ) ، وأوحى إليه : يا داود إذا أتاك الحصان ، فلا
يكونن لأحدهما على صاحبه الفضل فأنحرك من ديوان نبوتى ، وأعلم أن ثوباً من ثياب
أهل النار لو علق بين السماء والأرض لمات أهل الأرض من تنن ريمه ، فكيف بمن
تقمسه ؟ ولو أن حلقة من سلاسل جهنم وضعت على جبال الدنيا لذابت كما يذوب
الرمصاص حتى تنتهى إلى الأرض السابعة ، فكيف بمن تقلدها ؟ .

ودخل ابن السكك على الرشيد ، فقال له الرشيد : عظمى . قال : يا أمير المؤمنين ،
اتق الله وحده لا شريك له ، واعلم أنك غدا بين يدي الله ربك ، ثم مصروف إلى

إحدى منزلتين لا ثالث لهما : جنة أنوار ، فبكى الرشيد حتى اخضلت^(١) لحيته ، فأقبل الفضل بن الربيع على ابن السمّاك ، فقال : سبحان الله ! وهل يحتاج^(٢) أحداً شكاً في أن أمير المؤمنين مصروف إلى الجنة إن شاء الله ، فأقبل ابن السمّاك على الرشيد ، وقال : إن هذا ليس والله معك ولا عندك في ذلك اليوم ، فاتق الله وانظر لنفسك ، فبكى الرشيد حتى أشفق عليه الحاضرون .

ودخل عليه مرة ، فبينا هو عنده إذ استسقى الرشيد فأقْبَلَ بِقَلَّةٍ ماء ، فقال ابن السمّاك : على رِسْلِكَ^(٣) يا أمير المؤمنين : بقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم لو مُنِعَتْ هذه الشربة بكم كنت تشتريها ؟ قال : بنصف ملكي . قال : اشرب ههناك الله ، فلما شربها قال : أسألك بقرابتك من رسول الله لو منعت خروجها من بدنك بماذا كنت تشتريها ؟ قال : بجميع ملكي . قال ابن السمّاك : إن ملكاً قيمته شربة ماء لجدير ألا يُنَافَسَ فيه .

وكان المنصور يهيج ، فسمع رجلاً يطوف ، وهو يقول : اللهم إني أشكو إليك ظهور الجور ، والبنى ، والفساد في الأرض ، وما يحول بين المرء وقلبه من الطمع ، فاستدعاه المنصور ، فكان من عظة الرجل له : عَمَدَتْ إِلَى الطين ، فَأَوْقَدَتْ عَلَيْهِ فَصِيرَتْ مِنْهُ لَاجِرٌ . ثُمَّ مَحَدَّتْ إِلَى الرمل ، فَأَوْقَدَتْ عَلَيْهِ ، فَصِيرَتْ مِنْهُ الحِصَ ، وصيرت بعضه فوق بعض ، فبنيت لك منها الحصون المشيدة ، والقصور العالية ، ثم غلّقت عليها أبواب الحديد ، فاحتجبت عن الناس أجمعين ، ثم أقعدت على الأبواب أقواماً عبدوك من دون الله ، فلما قال له ذلك استوى المنصور جالساً وقال : أنا ؟ قال : نعم ، أما سمعت الله يقول : (اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُحْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ) ما صلوا

(١) اخضلت كاخضوضت ، ابتلت .

(٢) تخالجه الشك ، تردد في نفسه .

(٣) الرسل : المهل .

ولا صاموا ، ولكنهم أمروهم فأعطوا في كل ما أرادوا ولم يخالفهم ، فكانت تلك ربه بيتهم ، ثم اتخذت بطانة يسيرة وقلت : لا يدخل على إلا فلان ، فرفع أولئك إليك من أمور المسلمين ما هان عليهم وخف عليك ، فإذا جاء المظلوم إلى الباب لم يصل إليك ، فصار إلى بعض من يصل إليك ، فقال : ارفع قصتي هذه إلى أمير المؤمنين . قال نعم ، فدفعها إليه ، فإذا هو يتظلم من بعض من يصل إليك ، فأرسل إليه الظالم الذي ظلم صاحب القصة ، والله لئن رفعت قصة فلان لأرفن قصة فلان الذي ظلمته ، فأمسك القصة ولم يرفعها ، فعند ذلك انقطعت حقوق الناس دونك ، وأنت محصور في قصرك تظن أنك في شيء أو على شيء ، والناس وراء بابك يقتلون ويؤكلون ، والله لقد دفعت إلى جزيرة من جزر البحر ، وإذا ملك تلك البلد مشرك وصنمه في كفه وتسمى البلاد الصين ، فرأيت ذات يوم وهو يبكي في مجلسه ، فقام إليه وجوه مملكته ، فقالوا : ما يبكيك أدام الله ملكك وأعزك أيها الملك ؟ أليس قد مكن الله لك ؟ أليس قد مهد لك ؟ قال : أبكي لصمم قد اعتراني أخاف ألا أسمع صوت مظلوم وصارخ بالباب ؛ ألا وقد آليت عليكم ألا يركب منكم القليل ، ولا يلبس ثوبا أحر إلا مظلوم حتى أعرفه . قال : فقد والله رأيته يركب الفدأة ، والعشي يتصفح الوجوه . هل يرى مظلوما فينصفه ؟ . فهذا لا يعرف الله جل وعلا ، ولا يريد بذلك رفعة عند الله ، ولا زلفى لديه ، ولا رجاء ثواب ، ولا مخافة عقاب ، ولكن شفقة على ملكه ، وخوفا منه أن ينتشر عليه أمره ، فيخاف أن يذهب ملكه ، وهو مشرك بفعل هذا ، ويتفقد من نفسه ورعيته . وأنت ابن عم رسول الله ، وكنت أولى بهذا الفعل من ذلك للمشرك . قال : صدقت ، قد عرفت الذي قلت ، وفهمت ما وصفت ، والأمر على ما ذكرت ، ولكن كيف أصنع وقد بليت بأمر الأمة ، ودعوت الفقهاء فلانا وفلانا أستمعين بهم على ما أنا فيه فهربوا . قال : إنهم لم يهربوا منك ، ولكن لم يعملوا أنك تريد لهم للعمل بالحق ، وكان العمل معك ومعوتك أوجب عليهم من الصلاة والصيام والحج والنوافل ، ولكنهم هربوا خوفا على أبدانهم من عذاب الله .

كتب الرشيد إلى سفيان الثوري يشترق إليه ويدعوه لزيارته ، ويذكر أن العلماء

أقسام العلوم

وهذه العلوم تنقسم في مجلتها قسمين : العلوم الإسلامية ، والعلوم الدخيلة ، ويراد بالعلوم الإسلامية كل علم نشأ لخدمة الإسلام والقرآن الكريم ، وهي التي اخترعها المسلمون واشتغلوا بها ابتداء لم ينقلوها عن غيرهم ولم يستعينوا فيها بالنقل عن أمم سابقة . ويراد بالدخيلة تلك العلوم التي صارت إلى المسلمين من طريق النقل عن الأمم الأخرى ، فلم يكن لهم فيها أولاً إلا أثر الهمة في النقل واختيار اللفظ العربي لما ورد بها من مصطلحات ، أو تمريب لألفاظها في تلك اللغات وصقلها حتى تخضع لأحكام العربية . ولا بد لنا من أن نذكر ما كان للعلوم في هذا العصر من نشأة وتدرج وما انتهى إليه أمرها حتى نهاية العصر العباسي .

ونحن بادئون بالعلوم الإسلامية ، وهي تنقسم قسمين : علوماً لسانية ، وأخرى شرعية ، ولما كانت اللسانية إنما أحدثت لخدمة الدين والقرآن ، وكانت في مجلتها سابقة للعلوم الشرعية في الوجود ناسب أن نبدأ بها أولاً .

وهي أنواع : النحو ، والصرف ، واللغة ، والبلاغة ، والعروض ، والأدب ، (وهو يشمل التاريخ والنوادر والأنساب ورواية الشعر ونقده) .

العلوم اللسانية

النحو

نشأ النحو بصرياً ، لأن أبا الأسود الدؤلي واضعه نزل البصرة ، فالتفت حوله من

ويداك مغولتان إلى عنقك لا يفكهما إلا عدلاك وإنصافك، والظالمون حولك وأنت لهم سابق وإمام إلى النار . كأنى بك يا هرون ، وقد أخذت بضيق الخناق ووردت المساق ، وأنت ترى حسناتك في ميزان غيرك ، وسيئات غيرك في ميزانك زيادة في سيئاتك ، بلاء على بلاء ، وظلمة فوق ظلمة ، فاحتفظ بوصيتي ، واتعظ بموعظتي التي وعظتك بها ، واعلم أنى قد نصحتك وما أقيت لك في النصح غاية ، فاتق الله يا هرون في رعيتك ، واحفظ محمدًا صلى الله عليه وسلم في أمته وأحسن الخلافة عليهم . واعلم أن هذا الأمر لو بقى لغيرك لم يصل إليك وهو صائر إلى غيرك . وكذا الدنيا تنتقل بأهلها واحداً بعد واحد فمنهم من تزود زاد الله ، ومنهم من خسر دنياه وآخرته . وإنى أحسبك يا هرون من خسر دنياه وآخرته . فإياك إياك أن تكتب لى كتابا بعد هذا فلا أجيبك عنه والسلام .

فلما صدر الرسول بالرد جعل هرون يقرؤه ، ودموعه تتحدر من عينيه ، و يقرؤه ويشقى ، فقال بعض الحاضرين : قد اجترأ عليك يا أمير المؤمنين سفيان ، فلو أثلثته بالحديد ، وضيق عليه السجن قال : هرون اتركونا ياعبيد الدنيا ، للغرور من غرغموه ، والشقى من أهلكتموه ، إن سفيان أمة وحده . ثم لم يزل كتاب سفيان إلى جنب هرون يقرؤه عند كل صلاة حتى توفى رحمه الله .

الكتابة

إن من يتبع حال الكتابة في العصر الأموى يجد أنها صارت في آخره صناعة لها قواعد ورسوم تجرى عليها بما أدخله فيها سالم بن هشام ، وعبد الحميد بن يحيى وأضرابهما من كل من حلق إلى العربية لغة أخرى كالفارسية أو اليونانية أو السريانية ، وإذ ذاك وجدنا للكتابة تنوعاً بين الإيجاز والإطالة على حسب المقامات ، واختلافاً في البدء والختام مراعى فيهما موضوع الرسالة وحال المکتوب إليه .

وقد كانت الكتابة في العهد الأموي نوعاً واحداً هو كتابة الرسائل إذ لم تكن في ذلك المصطلح تستحق أن تنفرد بنوع من الأسلوب، على أن علوم هذا العصر إنما كانت جملة روايات ضم بعضها إلى بعض لا أثر لقلم المؤلف فيها . فكتب الحديث هي أسانيد تنتهي بنص الحديث وكتب الأخبار والسير ، كذلك لا تمثل عصر كتابتها ، ولا تنبئ بمقدرته ومبلغ بلاغته ، لأنه إنما يحكي كلام غيره ، ويروي ما انتهى إليه عن أهل الأخبار .

أما في العصر العباسي فقد تنوعت الكتابة ، وتعددت أساليبها ، واختلقت خصائصها ، وانقسمت إلى جذمين عظيمين هما كتابة الإنشاء وكتابة التأليف ، وما زال هذان النوعان يتمايزان ، وتختلف مظاهرها حتى كان لكل نوع أسلوب خاص به ، وحتى صارت أساليب التأليف في علم غيرها في علم آخر .

كتابة الدواوين

أسمت المدنية في العصر العباسي وكثرت مقتضياتها ، فكان منها تعدد الدواوين التي تقوم بشئون الدولة بعد أن كان منها في العصر الأموي ما يناسب حال المدنية التي صار إليها العرب فيه ، ولما داخل الفرس العرب هذه المداخلة الشديدة ، وصارت إليهم سياسة الدولة زادوا في أنواع الدواوين ، وخصوصاً كلاً بعمل ، وما زالوا يجرّبون النظم حتى انتهت بهم التجربة إلى نظام كان أدقّ وضاعاً وأتمّ ضبطاً جرى على أيدي البرامكة يحيى وولديه الفضل وجعفر ، وما زال هذا النظام متبعاً في جلته حتى حل محله النظام السلجوقي .

تعددت الدواوين في عهد الدولة العباسية ، فكان منها ديوان المشرق ، وديوان المغرب ، وديوان الخراج ، وديوان النفقات ، وديوان الجيش ، وديوان العاؤون ، وديوان

القضاء ، وديوان المظالم ، وديوان الحسبة ، وديوان الشرطة ، وديوان البريد ، وديوان الضياع ، وديوان الإقطاع ، وديوان الخواص ، وديوان الرسائل بنوعيه : ديوان الخاتم ، وديوان التوقيع

وقد كانت رئاسة ديوان الجيش منفصلة عن بقية الدواوين ، فالوزير الذى يتقلد الوزارة إنما تصير إليه أعمال عامة الدواوين (ماعدا الجيش) ، فالأمر فيه لسكار القواد ، وللخليفة يتصرف فيه بنفسه وأمنائه ، فإذا أبدى الوزير حسن تدبير وكل إليه الخليفة كل أموره ، فصار يتصرف فى رئاسة التدبير ، ورئاسة الحرب كما فعل المأمون ، فإنه لما انتصر طاهر بن الحسين على عيسى بن ماهان بتدبير الفضل بن سهل ، رضى المأمون عن الفضل ، ولقبه ذا الرياستين ، وجعل له علماً على سنان ذى شعبتين ، وكتب على سيفه من جانب رئاسة الحرب ومن آخر رئاسة التدبير .

وكانت الكتابة فى جميع الدواوين ماعدا ديوانى الرسائل (الخاتم والتوقيع) لا تتعدى التسجيل فى الدفاتر ، وضبط الجباية ، وحساب الدخل والخرج ، وتفتات الخليفة ، ووظائف الجند ، وعمل الديوان ، ومحاسبة الولاة ، وليس فى ذلك مجال للبحث الأدبى المتعلق بالأسلوب والجمال الفنى للتعبير ، لذلك تقتصر من بحث كتابة الدواوين على كتابة الرسائل والتوقيعات ، فإنها لما كانت متعلقة بالوجدان ، ممثلة للعواطف ، حاكية للمشاعر ، منبعثة عن النفس ظهر فيها صور العصور ، واختلفت باختلاف الأحوال .

ولما كان الوزير^(١) يتولى من أمور الدولة ما عرفت وكان إليه مصير الأمور كلها ،

(١) كلمة وزير معروفة من قديم فحى فى القرآن قال تعالى (واجعل لى وزيرا من أهلى هرون أخى) وقال الطبرى : كان زياد وزير معاوية ، ولكن الكلمة فى كل ذلك بمعنى اللعين والمساعد . واختلفوا فى اشتقاقها هل هى من الوزير بمعنى الحمل : أى إن الوزير يحمل من السلطان الثقل ، أو هى من الوزر (بالتحريك) بمعنى الملجأ لأن السلطان يلجأ إليه فى المهمات . وقد أخطأ بعض المستشرقين فى قوله : إن الكلمة فارسية وإن أصلها فيثيرا ومنها الأمر أو التقرير .

فهو الذى يرجع إليه رأى فى تدبير المملكة الواسعة الأطراف ، ويتصرف فى شؤ
تلك الرعية المتباينة المشارب ، ويحكم البلاد من شرق إلى غرب ، ومن شمال إلى
جنوب ، وكان الخلفاء خصوصاً بعد العهد الأول من هذه الدولة يريدون ألا يحملوا
أنفسهم ثقل هذه التكاليف ، اشتروا فى الذى ينوء بهذه الأعمال أن يكون رجلاً
ألمعياً ، عظيم الهمة ، بليغ القول ، ملئاً بأنواع العلوم ، خبيراً بأحوال الشعوب دارساً
للتاريخ ، مستنبطاً منه العبر ليجزى فى هذه المهمة الشاقة ، وليحسن تصريف الأمور حتى
لا يضطرب الحبل ولا يسوء التدبير .

ولقد ألف العلماء السابقون فيما يشترط فى الوزير وعمله من الكتاب ، وما يحتاجون
إليه من علوم ، وما يلزمهم من صفات ومزايا ، حتى بحثوا فى ثيابهم ، وظاهر هيئتهم ليم
لهم الكمال ويجمعوا الفضل من أقطاره . وفى كتاب (أدب الكاتب) لابن قتيبة ،
و (أدب الكتاب) لأبى بكر الصولى ، وكتاب : (الكتاب) لابن درستويه ،
وكتاب (صبح الأعشى ، فى صناعة الإنشا) للقلقشندي ، ما يدل على مقدار عناية
القوم بمن يتولى الكتابة ، فما بالك برئيس هؤلاء المشرف عليهم وهو الوزير ؟

ولقد تحقق هذا الاختيار فى أول وزير للدولة العباسية ، وهو أبو سلمة بن الخلال وزير
أبى العباس السفاح ، فإنه كان فصيحاً عالماً بالأخبار والشعر والسير والجدل ، وكذلك
البرامكة يحىي وولده ، فقد كانوا معجزة الدنيا علماء وفضلاً وأدباً وشعراً ، وما زال الحال
يجرى على ذلك حتى انحطت الأمور جيعاً ، فانحط معها شأن الوزراء ، ولكنهم كانوا
على علائهم خير رجال عصورهم فهماً وأدباً .

ونستطيع أن نفهم رأى أهل هذا العصر فيمن يتصل بالخلفاء أو الأمراء ، ويتولى
خدمتهم ، من القصيدة التى قدمها أبان بن عبد الحميد اللاحقى إلى البرامكة مستمعيها
بها عطفهم راعياً الانضمام إلى زمريتهم ، والاتصال بخدومتهم قال :

أنا من بغيّة الأمير وكنت من كنوز الأمير ذو أرباح
كاتب حاسب خطيب أديب ناصح زائد على الناصح

شاعرٌ مُفلقٌ أخف من الريشة مما يكون تحت الجناح^(١)
 لى فى النحو فطنةً واتقاداً أنا فيه قلادةٌ بوشاح^(٢)
 ثم أرقى من ابن سيرين للعلم بقولٍ مُنَوَّرٍ الإفصاح
 وظريف الحديث فى كل فنٍ وبصيرٌ بترهات الملاح
 كمَ وكَمَ قد خَبَّتْ عندى حديثاً هو عند الملوك كالتفاح
 فبملى تحسُّوا الملوك وتكُفُّوا وتُنَاجَى فى الشُكْلِ الفداح
 أَيْمَنُ الناس طائراً يوم صَيِّدٍ لِفَسْدٍ دُعِيَتْ أو لِرَوَّاح
 أبصرُ الناس بالجواهر والخيل وبالرُودِ الحسانِ الصَّبَاح^(٣)
 كلٌّ ذا قد جَمَعْتُ والحمد لله على أننى ظريفُ اللِّزَاح^(٤)
 لست بالناسك المُشَمَّرُ ثوبيه ولا المَاجِنِ الخَلِيعِ الوقاح
 لو رعى بى الأميرُ أصلحه الله رِمَاحاً تَلَسَّتْ حَدَّ الرِّمَاح
 ما أنا واهنٌ ولا مستكينٌ لسوى أمرِ سيِّدى ذى السَّباح
 لست بالضَّخَمِ يا أميرى ولا القَزَّ مِ ولا بالجَعْدِ الشَّخَذِاح^(٥)
 لحيةٌ جَعْدَةٌ ووجهٌ صَبِيحٌ واتقادٌ كَشَعْلَةِ المَصْبَاح

(١) شاعر مفلق: بأتى بالعجيب، وذكر فى الكامل أنه من الفلق أو الفلق (وكلاماً بالكسر) وهى الداهية .

(٢) الوشاح : كرسان من لؤلؤ وجواهر منظومان يخالف بينهما وهنما أحدهما على الآخر . والكسر (بالكسر) أحد فروع القلادة إذا تكونت من جملة عقود .

والوشاح أيضاً : أديم عريض يرصع بالجواهر تشده المرأة بين طائحتها وكشحتها .

(٣) الحرد : جمع خريدة أو خريد ، وهى البكر لم تمس ، أو الطويلة السكون الخافتة الصوت المنتشرة .

وتجمع أيضاً على خرائد . الصباح : جمع صبيح بمعنى جبل .

(٤) مزح (كنع) مزحاً ومزاحة ومزاحاً (بينهما) ومزحه بمزاحة ومزاحاً (بالكسر) .

(٥) يقال رجل زرم (بالتحريك) وصفا بالمصدر ، وعلى ذلك لا يثنى ولا يؤنث ، وقيل يجوز فيه ذلك وزرم بالفتح . وهو الصنبر الجلة . المجدر والدحناح : القصير .

إِنِّ دَعَانِي الْأَمِيرُ عَيْنَ مَنِي شَمَرِيَا كَالْبُلْبُلِ الصَّدَّاحِ^(١)

آثار العصر في الكتابة

بيننا في فصول سابقة أن اختلاط العرب في هذا العصر بالأمم التي عاشوها وخاصة الفرس قد أحدث في جميع شؤونهم تغييراً ظاهراً . ومن هذا ما جرى على الكتابة . فأما تفصيل ذلك فإن اللغة الفارسية تشتمل على خواص ومزايا ، تجلت جميعاً في العربية على يد الفرس والعرب الذين حذقوا اللغتين ، وأهم هذه المزايا والخواص هي :

١ - التحويل في الخطاب وتعذد الألقاب ، وقد مر تفصيل القول فيه .

٢ - الإفراط في استعمال نوعي الإيجاز والاطناب ، وهما من صفات الكتاب عند الفرس ، يعملون لكل من النوعين مقامات يوجبون فيها استعماله ، وذلك من الأمور التي أحدثها عبد الحميد في الدولة السابقة وجرى العمل عليها في هذه الدولة ، ولكنهم بالغوا في الطرفين ، فطاولوا حتى أملأوا ، واخضروا حتى أدخلوا ، ولكن سلم لبلغاتهم أمثلة من التوقيعات بلغت الغاية في الفصاحة حتى كان الناس يتنافسون في اقتنائها ، ويبيعها عمال الديوان بالدرهم الكثيرة ، وتلك هي التوقيعات التي سنفرد لها فصلاً تأتي فيه على ما نستطيع حصره منها في عامة هذا العصر .

وكان من مقامات الإطناب تلك الكتب التي تقرأ على العامة ، ومن أنواعها :

١ - المنشورات . وهي الكتب التي تقرأ على العامة في الولايات وفيها شرح لمذهب سياسي أو أمر ديني .

٢ - البيعات : ولم تكن تكتب قبل العصر العباسي ، ولا في أوائله ، بل كان

(١) الشمرى بفتح الشين وكسرهما ، أو ضمها مع ضم الميم : الماشى في الأمور .

الخليفة يقف في جمهور من أهل الرأي والقواد والأمراء فيعلمهم بموت الخليفة السابق ، وأنه صار إليه الأمر بولاية العهد أو برضا أهل الحل والعقد فيقرّ الحاضرون قوله وتتم البيعة له ويسلم عليه بالخلافة . ثمّ لما صار الأمر إلى من لا يقدر على ارتجال القول ، وكثر من الناس الرجوع في بيعتهم ، وجهل العامة شروط الخلافة صار الوزراء يكتبون صورة البيعة ، وتلى على الناس ، ويشهد عليها أهل الحل والعقد ، ثم تحفظ في الدواوين تسجيلاً لهذا المقام حتى لا يثب وائب ويدعى أنه صاحب الحق .

٣ — تفصيل انتصار على العدو : وكانوا يكتبون فيه من حمد الله على توفيقه ، بأن ما لقيه العدو إنما هو نكال من الله جزاء لما جنت يده من خروج على الطاعة وخلاف للجماعة ، ثم يذكرون أن ما تمّ من النصر كان بعناية أمير المؤمنين ، وحسن قيامه على رعيته وتصريفه لأمر جنوده ، ثم يختمون بالحمد لله والثناء عليه .

٤ — ولاية العهد : وكانوا قبل ذلك يكتبونها كما فعل أبو بكر في عهده إلى عمر ، ولكنّها ظلت مختصرة إلى أيام بني العباس ، فأطالوا فيها بتمداد مناقب وليّ العهد وما يؤمل فيه من عمل لخير الأمة ، وشحنوها بالآيمان والمواثيق حتى لقد أحدثوا تبين الطلاق من الزوجات الحاضرة والمستقبل ، وكذلك فعلوا بالرقيق ، ولم يكتبوها بإشهاد القواد والكبراء ، بل علّقوها في الكعبة وتقدموا إلى سديتها بحفظها تأكيداً للعمل بها كما فعل الرشيد في عهده إلى أولاده .

٥ — العهد إلى القضاة ، ويبدأ ببيان أن الذي حل على اختيار القاضي هو ما عرف عنه من فضل وأمانة وعلم ونزاهة ، ثم يثنى بأمره بتقوى الله والرعاية لحقوقه والعمل بسنة نبيه ، ثم يعدّد له ما وكل إليه من الأعمال كالخلف لأموال اليتامى ، وحسن القيام على الأحباس والوقوف ، وتوزيع الموارث ، ويصف له الكتب الذين يختارهم لعمله من الأذكياء المشهورين بالصلاح ، ثم يأمره باختيار المدول

وامتحان الشهود ، والاجتهاد في استخلاص الحقيقة ، وأن يتجنب الهوى وقد يتناول الاطناب ذكر كل ما يقوم به القاضي من عمل .

٦ — عهد بإمرة : وفي هذا العهد يذكر للمهود إليه بأنه إنما ارتضاه الخليفة لما عهد فيه من صلاح نية وحسن طوية ، وما عرف به من استمسك بالدين ورعاية لمصالح المسلمين ، ولما جمع من فضل وأناة ، وحسن صحة ، ونزاهة طمعة ؛ ثم يعدد البلاد التي ولاء عليها وكل ما وكل إليه من أمور الناس من فصل في قضاياهم ، وإقامة مصالحهم ، وردة لحقوقهم ورفق بهم في الجباية إلى غير ذلك مما ينبغي توافره في الوالي ، ثم يختم الكتاب بتوكيد المواثيق عليه بأن يحسن القيام على مولاه عليه ، وأن يكون عند ظن خليفته به .

٧ — كذلك كان الإطناب فيما يصدر عن الولاة في تفصيل لحادث وقع ، أو بيان سياسة اتبعت ، أو تهمة لحقت .

أما مواطن الإيجاز فهي توقيع من الوزير أو الخليفة في قصة رفعت إليه يدل به على اطلاعه عليها ويبدى رأيه فيها ، وكذلك يكون في رسائل الخلفاء والساطين في أمر أو نهى ، وإخبار بهزيمة ، أو تحذير من عدو . والذي دعا إلى الإيجاز كثرة أعمال الدولة وتوالي الكتب من الخلفاء إلى الولاة : ومن هؤلاء إلى رؤسائهم . فإذا التزم الإطناب في كل ذلك كثر العمل ، وشق على متوليه ، ولذلك يقول جعفر بن يحيى في إشار الإيجاز على الإطناب : إن قدرتم أن تجعلوا كتبكم كلها توقيعات فافعلوا .

٣ — تعدد أنواع البدء وانحتام على حسب تنوع الرسائل ، وأهم ما حدث في البدء هو ما يأتي .

كانت الصورة الأولى لأوّل عهد الدولة هي التي كانت تفتح بها كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والخلفاء الراشدين وخلفاء بني أمية مع زيادة لفظ عبد الله قبل الاسم ولفظ الإمام بعده ، وهي هكذا :

(بسم الله الرحمن الرحيم)

من عبد الله فلان الإمام أمير المؤمنين إلى فلان . أما بعد فإني أحمّد إليك الله
(أو فإن أمير المؤمنين يحمد إليك الله) الذي لا إله إلا هو . وإن الأمر كذا .

ثم زاد الرشيد بعد التحميد الصلاة والسلام على النبيّ فجري العمل على ذلك ،
وعند هذا من مناقبه ، ثم لما صارت الخلافة إلى الأمين اكتفى ، وكانت كنيته
أباموسى) ، فاتبع ذلك بعده . وكانوا ربما قدموا التحميد والصلاة على النبيّ قبل
البعدية ثم عقبوها بالفرض ، وتلك من اختراع عبد الحميد . وربما اختصروا الصورة
فتركوا التحميد والصلاة على النبيّ ، ولم تكن هذه من اختراع العباسيين ، ولكنهم
أكثرها منها في الإخوانيات ورسائل السلطان لاختصارها ، ثم تركوا في الإخوانيات
الحمد والصلاة وبدعوا كتبهم بالدعاء المكتوب إليه ، ويقال إن الزنادقة هم الذين اخترعوا
هذه الصورة . ثم أخذوا في منتصف العصر البدء بقولهم : كتابي إليك مردفين
ذلك بالدعاء المكتوب إليه أو وصف حال الكاتب أو بهما معا . مثل قول البديع
الهمداني : كتابي أطال الله بقاء الشيخ من نيسابور ، وقد تمطت عليّ ببلها ، وضافت
عليّ برحبها . وقوله كتابي عن سلامة ونعمة ، وأحوال على النظام جارية ، وشوق إليك
وتواجد عليك ، واعتداد بك .

وفي البيعة كانوا يبدعون بعد البسملة بقولهم : تبايعون عبد الله فلانا . . . بيعة
طوع واتيقاد ورضا . . . ثم يكتثون من الأيمان المخرجة توكيداً للوفاء وضماناً
لعدم الخييس والغش .

وفي العهد بالخلافة أو بولاية عمل ، (وقد كان يكتب منذ قديم مختصراً مبتدأ
بقولهم : هذا ما عهد به فلان في ولاية الأعمال والقضاء ، أو بقولهم : هذا ما كتبه عبد الله
فلان إلى خاصة المسلمين وعامتهم . إني قد وليت عليكم فلانا) صار في العصر
العباسي يبدأ بالتحميد والصلاة والسلام ، ومقدمة طويلة في فضائل وليّ العهد أو القاضي
أو والي إلى آخر ما ذكرناه سابقاً وهكذا فعل بالمشورات ، فبعد أن كانت صورتها :

(هذا كتاب من فلان إلى عامل ولاية كذا وإلى من قبله من خاصة المسلمين وعامتهم
صارت تبدأ بالتحميد والصلاة والسلام ومقدمة في بيان سبب المنشور :
أما الختام فكان غالباً بلفظ (والسلام) أو (والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته)
ثم كتبوا إن شاء الله بعد الأمور المستقبلية ، فيقولون فإن رأيت أن تفعل كذا فعلت
موفقاً إن شاء الله أو فأريك في ذلك موفقاً إن شاء الله تعالى) ، ويكون ختام
المنشورات والمشارطات بقولهم : (وحسبنا الله ونعم الوكيل) ، أو : (وهو حسبي ونعم
الوكيل) ، ويختم المهد بقولهم : (وكفى بالله شهيداً) .

هذه هي الخواص الظاهرة التي شاعت في كتابة الرسائل في هذا العصر . ويضاف
إليها قوة النقد عند هؤلاء القوم ، فقد وزنوا بها الألفاظ ، وفرقوا بين أسلوب وآخر بما
يكن العربي الجاهل أو الاسلامي إلى زمانهم يدركه ، ولا يستطيع أن يلاحظ هذه
الإشارات الخفية في التعابير مثلهم ، ولكنهم وضعوا هذه القروق ، وطلبوا بها الكتاب ،
وعابوا من خالفها وآخذوه إن كان لهم عليه سلطان كما حكى أن عاملاً السيدة زبيدة
على بعض ضياعها كتب إليها في رسالة . . وأدام كرامتك ، فوقعت على ظهر الكتاب
(أصلح خطأك وإلا صرفناك عن عملك) ، فأعاد النظر في كتابه ، فلم يهتم إلى موضع
للخطأ ، فعرضه على ذى دراية بالكتابة ، فقال : إنما كرهت قولك في صدر الكتاب
« وأدام كرامتك » لأن كرامة النساء دفنهن ، فغير ذلك الدعاء ، وأعاد إليها الكتاب ،
فوقعت على ظهره « أحسنت ولا تعد » ، كذلك جعلوا « أهلك الله ، وأمتع بك » لانتقال
إلا لمثل الابن أو الخادم المنقطع إلى كاتب الرسالة ، وقد حدث أن محمد بن عبد الملك
الزيات كتب إلى عبد الله بن طاهر ، فوردت في كتابه كلمة وأمتع بك . فكتب
إليه عبد الله :

أحدث عما عهدت من أدبك أم نلت ملكا قهت في كتبك
أم قد ترى أن في ملاطفة الإخوان قصاً عليك في أدبك
أكان حقاً كتاب ذى مقسة يكون في صدره وأمتع بك
أنعتب كفيك في مكاتبتى حسبك ما قد لقيت من تعبك

فكتب إليه ابن الزيات :

كيف أخون الإخاء يا أملى وكل شيء أنال من سبيلك
أنكرت شيئاً فقلت فاعله ولن تراه يخط في كتبك
إن يك جل أذاك من قبلي فعد بفضل علي من حسبك
فأعف فذلك النفوس عن رجل يعيش حتى الممات في أدبك

كذلك تشاءوا من قولهم : جعلت فداك ؛ لاحتمال أن يكون فداء في الخير كما يحتمل أن يكون في الشر ، كذلك جعلوا قولهم : أطال الله بقاءك أرجح وزناً من قولهم : أطال الله عمرك .

وفي كتاب شفاء الغليل : أن الربيع قال : دخلت على الشافعي وهو مريض ، فقلت له : (قوى الله ضعفك) ، فقال : لو قوى ضعفي قتلتني . قلت : والله ما أردت إلا الخير . قال : أعلم أنك لو شئتني ما أردت إلا الخير . قل : قوى الله قوتك ، وضعف الله ضعفك . ونحوه ما روى البيهقي عن الشافعي أنه قال : أكره أن تقول أعظم الله أجرك في المصائب ، لأن معناه أكثر الله مصائبك ليعظم أجرك .

وتبع ذلك النقد للألفاظ والترجيح بين معانيها أن جعلوا لكل طبقة من رجال الدولة نفوتا تفتتح بها رسائلهم وعبارات تعنون بها كتبهم ، كقولهم في مخاطبة أولاد الخلفاء في زمن المتندر : « أطال الله بقاء الأمير » ، ولؤنس المظفر وزيره . « أطال الله بقاءك » ، وأعزك وأكرمك ، وأتم نعمته ، وإحسانه إليك » ، وفي العنوان إليه : لأبي الحسن « أطال الله بقاءه » ، وللولاة : (أكرمك الله ، ومد في عمرك ، وأتم نعمته عليك ، وأدام لك) وهكذا .

اختلاف أساليب الرسائل

« ١ »

فى المدة الأولى ، وهى من ابتداء الدولة إلى إستيلاء بنى بويه على بغداد بلغت
كتابة الرسائل الحدّ الأعلى التى لم تصل إليه فى سابق عهدها على يد الجاهليين أو
الإسلاميين أو الأمويين ، وهو أيضاً الحدّ الذى لاتزال الأعناق من أهل زماننا تشرّب
إليه ، وتتطاول لإدراكه ، فإن استطنعنا بمواصلة الجهد والخدمة هذه اللغة الشريفة أن
ندركه ، فذلك شرف لايدانيه شرف ، وهو أمل نرجو الله أن يتحقق ، لنعيد للعربية
مجدها ، ونلبسها فاخر ثوبها . ذلك هو العصر الذى يحمل راية الكتاب فيه أمثال :
ابن المقفع ، والقاسم بن صبيح ، ويعقوب بن داود ، ويحيى البرمكي ، وابنه جعفر ،
والفضل بن سهل ، وأخيه الحسن ، وأحمد بن يوسف ، وسهل بن هرون ، والجاحظ ،
وعمر بن مسمدة ، وغيرهم ممن اتقادت لهم البلاغة بغير زمام ، وكان لكلامهم جرى الماء
ووقع السهام . أولئك الذين لم يتكأدهم معنى ، ولم يتوعر عليهم غرض ، ولم يعترضهم
لفظ . أولئك الذين أطالوا ، فلم يكن فى إطالتهم موضع نقص ، وأجزوا فلم يكن فى
إيجازهم موضع زيادة . هؤلاء الذين جمعوا الفضل من أقطاره ، فكانت كتابة تأليفهم
ككتابة ترسلهم ، ونثرهم كشعرهم . فضل ظاهر ، ومملكة مطاوعة . أولئك الذين
تركوا أنفسهم على سجيّتها ، فأدوا معانيهم بعبارات كأنما لم تخلق لغيرها ، فلم يكرهوا
لفظاً ، ولا عاقلوا فى أسلوب ، ولا حاليوا زينة مما يلجأ إليه المقصر العاجز ، فسالت
أودية الصحائف بأساليبهم المطلقة من كل قيد ، الخارجة مع النفس الآتية عنو الخاطر ،
فهى مرسلّة غالباً مع الازدواج الذى يحسن به وقع الكلام ، ويتمّ تقسيمه . وتارة
تكون مسجوعة سجع الملكة الذى يعرف موضعه القارى قبل الكاتب ، ويدركه
الناقد قبل القائل .

هذه هي صفة كلامهم مع شرف المعاني التي تناولوها ، لأن السرى لا يعرف إلا السرى ،
والفاحش لا يألف إلا الفاحش ، ولا يستطيع أن يدلك على مقدار بلاغتهم إلا قلم من
أقلامهم الفارعة ، وحكمة من حكمهم البارة ، وجهد الواصف أن يقول : معان تترأى في
ألفاظها ، لا يحجبها غموض ولا استكراه ، وأسلوب مرسل لا يعوقه السجع المتكاف ،
فهو في غالب أمره مطلق إطلاقاً ، وقد يقيد بازدواج أو سجع إن جاء به الخطاظر السمج .

« ٢ »

وفي اللدة الثانية ، وهي مدّة حكم البويهيين من سنة ٣٣٤ إلى سنة ٤٤٧ هـ ،
كانت الحضارة قد بلغت منتهاها ، فهي في المعيشة ترف ونعيم ، وفي العقول ثروة طائلة
بما أثمرته العلوم المترجمة والعلوم الموضوعة ، وما نمته المدنية من خيال وذوق ، ولكن قد
شاب هذه الحضارة الفكرية والثروة الخيالية قص في ملكة اللغة التي بعد عهد أهلها
بالبدارة ، وطال أمدغم في العاشرة للمعجمة والنشوء فيها . فكان من آثار ذلك كله مجتمعاً :
صفاء الفكرة ، وقوة الحجة ، وتلاحق المعاني ، وحسن تسلسلها ، مع سموها وارتفاع
الخيال فيها . كذلك زانت عباراتهم تلك الطلاوة اللفظية التي حاكوا بها ما كان في
معيشتهم من إنافة ، وما تراءى في نفوسهم من رقة وظرف ، فسجعوا كسجع الحائم ،
سججاً قصير الفقرات حسن الموقع ، ونثروا على كتابتهم تلك الحلى اللفظية من جناس
لائق وطباق مطابق ، وأظهروا موهبة الله فيهم من العلم الواسع المدى ، فضمنوا كلامهم
من الملح والإشارات التاريخية ، والمصطلحات العلمية ، والأمثال النادرة ، الحكم
الحكيمة ، والشعر المشهور ، وترسموا في أغراض الكتابة ، فلم تعد مقصورة على
رسائل السلطان والشوق والعتاب والاستمناح ، بل تعدوا ذلك إلى موضوعات الشعر .
فاستعاروها وكتبوا فيها فناقضاً وتلاحوا وعابوا . وكان الخوارزمي وبداع الزمان في هذا
المقام نجى سماء وفرسى رهان .

وقد زادت في هذه الأيام عبارات التفتخيم للملوك والأمراء لأن سلطان هؤلاء قد
زاد في هذه الأيام وسطوتهم قد ظهرت ، فقتلت الحرية في الناس ، فلبثوا إلى الملق ،

خصوصاً وهو من أخلاق الفرس الذين هذه دولتهم وتلك أيامهم ، فزاد العدول عن اسم الخليفة أو الأمير أو الرئيس إلى الكناية عن ذلك بالحضرة أو السدة وكانوا يخاطبون الديوان الشريف يريدون ديوان الإنشاء .

وقد كان ولهم بالسجع كثيراً حتى التزموه في كل ما يكتبون من رسائلهم ، وقد تعداها بعضهم إلى كتب التأليف كما فعل أبو نصر المتني في تاريخه اليميني^(١) ، فقد جعله كله سجعاً ، فأظهر مقدرة فائقة ، ودل على بلاغة متأصلة ، ولكنه خرج بالكتاب عن أن يكون كتاب تاريخ فجعله نماذج للإنشاء وقطعاً لقطع الرياض كسين زهراً .

وأغلب كتاب هذا العصر مع التزامهم السجع ، وعكوفهم على التحسين اللفظي قد سلحت لهم كتاباتهم من العيب لأنها كانت تمان بطبع سليم ، وبصيرة نقادة ، وعلم غزير ، وقد جمع أغلبهم بين فضيلتي النثر والشعر ككشاجم والمتني والبديع . ومن مشهورى هؤلاء الكتاب : ابن العميد المتوفى سنة ٣٩٠ هـ ، وهو وزير ركن الدولة الحسن بن بويه ، وأبو بكر الخوارزمي المتوفى سنة ٣٨٣ هـ ، وقرنه بديع الزمان الهمداني المتوفى سنة ٣٨٩ هـ ، وأبو إسحاق الصائبي المتوفى سنة ٣٨٤ هـ ، والصاحب بن عباد المتوفى سنة ٣٨٥ هـ ، وأبو الفتح البُستَني المتوفى سنة ٤٠٠ هـ ، والحضري صاحب زهر ، الآداب المتوفى سنة ٤١٣ هـ ، والمتني المتوفى سنة ٤٢٧ هـ ، وأبو منصور الثعالبي المتوفى سنة ٤٢٩ هـ ، وأبو الفضل البليكالي المتوفى سنة ٤٣٦ هـ .

« ٣ »

وفي المدة الثالثة وهي المدة من استيلاء السلاجقة على بغداد سنة ٤٤٧ هـ إلى انقضاء الدولة وزوال الخلافة من العراق سنة ٦٥٦ هـ ، تقلص من العربية جلّ ظلمها بالمشرق ، وطفئت العجوة على القصص ، وماتت النعرة العربية إلا قليلاً ، فتوات

(١) بسط المتني في هذا الكتاب حياة السلطان محمود وشرح حياة عيين الدولة في آخر أيامه ومنه نسخة خطية بدار الكتب المصرية وقد شرح كثيراً ومن شروحه كتاب (الفتح الوهمي على تاريخ الغني) وقد طبعته جمعية المعارف سنة ١٢٨٦ هـ بمصر في مجلدين كبيرين .

المهم ، وقترت الزانم ، وقلت الرغبة في الأدب خاصة ، وقصت الملكات قصصاً فاحشاً ، فتورط أهل مصر في أنواع التحسين اللفظي وللعنوى يجمعونها على العبارة الواحدة حتى تنوء بحملها ، والتزموا السجع التزاماً ملحاً ، ولم يقدروا عليه قصيراً بحكم الفقرات ، فجاءوا به طويلاً مهلهلاً ، وساقوه متعزراً مختبلاً ، وصار القارئ لكلامهم تتوزع نفسه بين معنى غامض لم يسفر عنه اللفظ ، ولم يؤده الطبع السليم ، وبين زينة هي باسم التشويه أولى . فكدوا بذلك أنفسهم ، وأتعبوا قارئهم ، ودلوا على قلة بضاعتهم وسوء اتجاههم .

ويقال : إن الوزير الخاقاني كان مغرماً بالسجع فوقع مرةً إلى بعض عماله : (الزم وفكك الله المنهاج ، واحذر عواقب الاعوجاج ، واحمل ما أمكن من الدجاج) ، فحمل العامل دجاجاً كثيراً على سبيل الهدية ، فقال الوزير : هذا الدجاج وفرت به بركة السجعة . ووقع آخر مرةً إلى قاضي قم : يا قاضي قم ، قد عزلناك قم . فقال القاضي : ما عزاني إلا السجعة .

والذي ينبغي ملاحظته أن هذا العصر قد ضمَّ بينه كتاباً أفضل كانوا في الكتابة نجومًا ساطعة لم يثقلوا عصرهم ، ولا شابهوا إخوانهم ، وإنما مرجع ذلك إلى النهضة الخاصة لتلك النابغة بين هؤلاء السُّقَّاط ، وذلك أن الطبع السليم إذا اجتمع إلى تحصيل لبليغ الكلام ، وحرص على طريقة السابقين خرج صاحبه عن طبيعة عصره ، وأمثال ذلك في التاريخ كثيرة ، كابن خلدون بين أهل المغرب على عهده فإنهم كانوا لا يكادون يبينون ، وكان عبد ربّه الذي يحاكي ابن المقفع ويقع قريباً منه ، وكالشرif الرضى الذي استطاع أن ينحل كلامه سيدنا عليّاً فلا تكاد تفرق بين الأصل والمنحول ، ومثل هؤلاء في المدة الأخيرة من عصرنا هذا القاضي الفاضل عبد الرحيم البيسانى المتوفى سنة ٥٩٦ هـ ، وهو كاتب الديار المصرية وزعيم الطريقة الإنشائية المنسوبة إليه ، وطريقته هي طريقة أهل المدة السابقة عليه إلا أنه غالى في التورية والجناس ، وبقية أنواع البديع ، فتمّ له ذلك تمام ملكته ، واستكمال عدته ، ولكن أهل زمانه لما قلده ، وليس لهم مثل استعدادده سقطوا وتورطوا ، واتفوا إلى التكلف الزائد .

ومن مشهورى الكتاب فى هذه المدّة : القاضى الفاضل ، وعماد الدين الأصفهاني المتوفى سنة ٥٩٧ هـ ، وقد بالغ فى التألق وأولع به ، وأخرج كتاباً سماه : (الفتح القسّى) ، فى الفتح القدسى^(١) ، أرخ فيه فتح صلاح الدين الأيوبي لبيت المقدس ، وقد تكلف فيه ماشاء ، وعول على دقيق السكنايات ، وغريب لاستعارات ، فكأنما القارى لكتابيه يحاول حلّ رموز أو فكّ طلاسم ، ومع ذلك فهو خير من كثير من أهل زمانه . وكتابيه هذا على أسلوب كتاب العتي ، ولكن الفرق بينهما هو الفرق بين عصريهما . ومنهم رشيد الدين الطوطا المتوفى سنة ٥٧٣ هـ ، والحريرى المتوفى سنة ٥١٦ هـ ، وابن الأثير صاحب كتاب المثل السائر انتهى راعه خطب الكتابة فانتصر لدولة المعاني على الالفاظ وألف كتابه هذا ؛ وأبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزى المتوفى سنة ٤٩٧ هـ ، وله كتاب (رموس القوارير ، فى الخطب والمحاضرات والمواعظ والتذكير) ، ومؤيد الدين أبو طالب الطقمى (وزير المستعصم آخر خلفاء بنى المباس ببغداد) وقد توفى سنة ٦٥٦ هـ ، فوافق موته اقضاء عهد الدولة بالمراق .

التوقيعات

للتوقيع فى اللغة معان كثيرة كلها يمتّ بسبب إلى المعنى الاصطلاحي ، وهو تلك الكلمات الموجزة التى يكتبها خليفة أو وزير أو رئيس ديوان فى غرض من الأغراض ، (وكانت تكتب فى أسفل الكتب الواردة من الولايات بإبداء الرأى فيما يجرى عليها من حكم ، أو فى تلك الظّالّامات التى يقدمها أصحابها يطلبون فيها النصفه من حيف وقع عليهم) فمن معانيه اللغوية : التأثير القليل يقال جنب هذه الناقه موقّع ، أى أن فيه تأثيراً

(١) ويقال له أيضاً الفتح القدسى فى الفتح القدسى أو القدر القدسى فى الفتح القدسى . وقد أشار عليه القاضى الفاضل أن يسميه الفتح القدسى فى الفتح القدسى . قال فى مقدمة الكتاب : وقد عرضته على القاضى الفاضل ، وهو الذى فى سوقه تعرض بفتاوى الفضائل فقال لى سمه : الفتح القدسى . فقد فتح الله عليك فيه بفضاحة قس .

خفيًا من الحبال التي تشدّ عليها . والمناسبة بين المعنيين أن التوقيع في أسفل الكتاب تأثير خفيف إلى جانب ما كتب فيه من عبارات مسبهة .

ومن معانيه أيضاً : إيقاع شيء صغير على آخر مع تخالف في لونهما ، ويقال بعيد موقع إذا دبر ظهره ثم برى فيرى بموضعه شامة بيضاء ، ولعلّ التوقيع كان يكتب بمداد أحمر ، والقصص تكتب عادة بالسواد ، فمن هنا تكون المناسبة في التسمية ظاهرة أتمّ ظهور .

ومنها : أنه الرمي القريب لا تباعده كأنك تريد أن توقعه على شيء والموقع في حاشية القصة يحاول بكلامه الموجز أن يصل إلى كبد المراد .

ومنها : إقبال الصيقل على السيف بمقبعته يشحذه ويجلوه ، والتوقيع في القصة يكشف ما حوته ، ثم هي به تصوير نافذة ماضية فيها أشار به الموقع .

ومنها التريس : وهو النزول آخر الليل ، والموقع إنما ينتهي بتوقيعه جانباً من آخر الورقة التي كتبت فيها القصة . وقيل هو من وقع الأمر إذا لزم ووجب ، أو من وقعت الإبل بمعنى بركت ، أو هو من توقيع المطر : أي إصابته بعض الأرض ومجاورته بعضها ، والأسباب في التسمية ظاهرة فلا نطيل بشرحها .

وليست التوقيعات حدثاً من أحداث النولة العباسية ، فقد روى التاريخ كثيراً منها للخلفاء الراشدين وبنى مروان ، ولكن كثيراً جداً روى لخلفاء بنى العباس ووزراء دولتهم . وقد تباروا في إجادتها وتعمدوا إدماجها ، وبلغ غاية الإيجاز فيها . وكانت كما قلنا موضع عناية أهل العصر ، فكانوا يترقبون صدورها بمن عرفوا بإجادتها ويبدلون فيها من الدرامم إلى عشرين درهماً للتوقيع الواحد .

ولما كان ملاك التوقيع هو الإيجاز المعجز قلّ شأنها بعد العصر الأول لعدم استطاعة أهل العصور المتأخرة ذلك الإيجاز ، وإن كان قد سلم لبعضهم توقيعات عدت مع توقيعات السابقين كما هو الشأن في صاحب بن عباد وقليل من أمثاله .

أمثلة التوقيعات

للسفاح : كتب إليه جماعة من أهل الأنبار^(١) يشكون أن منازلهم أخذت في بناء أمر به ولم يعطوا أمانها فوقع « هذا بناء أسس على غير تقوى » ، ووقع في كتاب جماعة اشتكوا إليه احتباس أرزاقهم « من صبر في الشدة شورك في النعمة » ووقع في قصة عامل ظلم الناس : « وما كنت متخذ المضلين عضداً^(٢) » .

للمنصور : وقع إلى عمه عبد الله بن عليّ « لا تجعل للأيام فيّ وفيك نصيباً من حوادثها » ووقع لعامل ظلم الناس « لا ينال عهدى الظالمين » ولأهل الكوفة في عاملهم « كما تكونون يؤمر عليكم » وفي قصة فقير : « سل الله من رزقه » ووقع إلى عامله بمصر وقد كتب إليه بنقصان النيل : « طهر عسكرك من الفساد ، يملك النيل القيادة » ، ووقع لعامل فارس وقد شكى إليه : « إن آثرت العدل صحبتك السلامة » .
للمهدي : إلى عامل أرمينية^(٣) يشكو إليه سوء طاعة الرعية : « خذِ الْعَقْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ » وإلى شاعر أسرف في مديحه : « أسرفت في مديحك قهصرنا في جبابك » ، وقع في قصة رجل حبس في دم : « ولكم في القصص حياة يا أولى الأبواب » .

للرشيد : وقع إلى عامله بخراسان : « داوِ جرحك لا يتسع » ، ووقع في قصة

(١) الأنبار : بلد بالعراق على نهر الفرات على شاطئه الشرقي وتحتهما الحيرة على الشاطئ الغربي .

(٢) العضد (مثناة) وكشف وندس (بضم ففتح) وعنى : ما بين الكتفين والذراع . والمعين ، والناصر

(٣) يفتح الهزمة وكسرهما وتخفيف الياء الأخيرة وشدها فقها أرمينية لغات : وهي اسم لصقع في شمال جزيرة العرب وجنوبي أذربيجان والنسبة إليها أرميني يفتح الهزمة ويكون الراء وكسر الهمزة . ويقول السيوطي في لب اللباب أرمي كأحرى نسبة إلى بلاد الأرمن وهم خائفة من الروم (إمام الأعلام) .

البرامكة : « أنبتته الطاعة وحصدته المصيبة » . وفي قصة محبوبس : « من لجأ إلى الله نجا » ، ولنتظلم « لا يجوز بك العدل ، ولا يقصر بك الإنصاف » ؛ ووقع ليحيى ابن خالد وقد استطفه من السجن : « عظيم ذنبك أمانت خواطر العفو عنك » .

للمأمون : وقع في قصة متظلم من عمرو بن مسعدة : « يا عمرو عمر نعمتك بالعدل فإن الجور يهدمها » ، ووقع في كتاب متظلم من أحمد بن هشام : « اكفني أمر هذا الرجل وإلا كفنيته أمرك » ، قال عمرو بن مسعدة كتبت إلى عامل كتاباً أطلتته فأخذه للمأمون من بين يديّ وكتب : « قد كثر شاكوك ، وقلّ شاكروك ، فإما اعتدلت ، وإما اعتزلت » ، ووقع في قصة رجل يتظلم من الرستمى ، ولعله مطله بدين : « ليس من البر أن تكون آمنتك ذهباً ، وقدرك فضة وجارك يطوى ، وغريمك يعوى » .

لأبى مسلم الخراساني : إلى عامل بلخ « لا تؤخر عمل اليوم إلى غد » ، وإلى سلمة بن الخلال حين أنكرك^(١) نيته : « وإذا لقوا الذين آمنوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شِيَاعِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ » .

ليحيى بن خالد البرمكي : وقع في قصة محبوبس : « العدل أوثقه ، والتوبة تطلقه » ، وفي قصة مستمنح كان قد وصله مراراً : « دِع الضَّرْعَ يَدِرْ لِفِرْكِكَ كَمَا دَرَّ لَكَ » ، وإلى بعض العمال : « اجعل وسيلتك إلينا ما يزيدك عندنا » ، ووقع لمظلم : « طب هساً فكفني بالله للمظلوم ناصراً » .

للفضل بن سهل : وقع في قصة متظلم « كَفَى يَا إِلَهَ الْمَظْلُومِ نَاصِراً » ، وإلى صاحب الشرطة^(٢) « تَرَفَّقْ تَوَقَّقْ » . وفي شفاعته في قاتل وجب عليه الحد : « كتاب الله أحق أن يتبع » .

(١) أنكرك : عده منكراً . ونكر الأمر (كفرج) وأنكره واستكره وتناكره جهله .

(٢) الشرطة (بالضم) واحد الشرطة (كبيرة وجبر) وم أول كتيبة تمهد الحرب والطائفة من أعوان السلطان والواحد شرطى (بضم فسكون) وشرطى (بضم ففتح) الأول كتركى والثانى كجهى .

لظاهر بن الحسين : وقع في قصة مستمنح : « سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين » ، ووقع في بعض الكتب : « الأعمال بخواتمها ، والصنعية باستدامتها ، وإلى الناية ما جرى الجياد فحمد السابق وذم الساقط » .

للصاحب بن عباد : كتب إليه بعضهم رقعة سرق فيها كثيراً من تمايره ، فوقع فيها : « هذه بضاعتنا ردت إلينا » ، ووقع في قصة استحسناها : « أفسر هذا أم أنتم لا تبصرون » ، ووقع لبعض مخالفيه : « فويل لهم عما كتبت أيديهم وويل لهم عما يكسبون » ، وكتب إليه بعضهم : أن رجلاً من أعدائه يدخل داره في جلة الناس ، فوقع إليه : (دارنا هذه خان^(١) ، يدخلها من وقى ومن خان) .

المقامات

وهي نوع من كتابة الرسائل كثرت بعد العصر الأول من عصور اللغة في مدة السولة العباسية .

وأصل كلمة مقامة اسم مكان من قام بمعنى أقام ، والمعنى أنها موضع للإقامة ، ثم انتقل من هذا المعنى إلى الكلام الذي يلا به مجلس من المجالس ، فتكون من إطلاق المحل على الحال . ولم يعرف استعمالها بهذا المعنى قبل العصر العباسي ، كما أطلقوا كلمة مجلس على مقدار ما يتلى فيه من حديث أو تفسير أو أدب . فصارت المقامة تطلق ويراد بها تلك الجملة من القول المروية على لسان امرئ خيالي يحكي قصة وقعت لإنسان أو أكثر يتخيلهم الكاتب ، ويضع على ألسنتهم عبارات يتفصح فيها ماشاء ، ويلتزم فيها السجع غالباً ، ويحاول أن يأتي فيها بنصيب وافر من الألفاظ ، ويزينها بما

(١) الخان : محل التجار .

استطاع من الحكم والأمثال والشعر . وما ورد إلينا من هذه القصص غالباً ضئيل المفزى ، تافه الغرض ، ليس القصد منه إلا تعليم الناشئ في الأدب كيف يستعمل هذه الألفاظ ويحكم الاستشهاد بتلك الأمثال والحكم . ففى في الواقع محف لفوية لم تحي ألفاظها مسرودة سرداً بل استعملت ليسهل على الناشئ معرفة مواقعها من الكلام ، وليستفيد العلم بها في سياق الفكاهة .

وقد ذكروا أن أول من عرف له مقامات من هذا النوع هو أبو بكر محمد بن الحسن ابن دريد الأزدي المتوفى سنة ٣٢١ هـ ، وهو صاحب القصيدة المشهورة ، والجمهرة في اللغة ، وقد ذكر في مقدمتها أنه صاغها أربعين مقامة استنبطها من يتابع صدره ، واستخرجها من معادن فكره ، وأبداهها للأبصار والبصائر ، وأهداها للأفكار والضائر ، ولكن الذي يؤخذ عليه فيها أنه حشاها بالألفاظ الوحشية الغريبة ، ويظهر أن عذره قدم عهده وكونه أحد علماء اللغة ، فظهر أثر ذلك في مقاماته فجاءت غريبة نائية .

وقد وليه أبو الحسين أحمد بن فارس الرازي صاحب كتاب الجمل في اللغة للمتوفى سنة ٣٩٠ هـ ، فعمل أيضاً مقامات لم تصل إلينا كسابقها ، ثم جاء بديع الزمان الهمداني ، فأمل بهمدان أربعمئة مقامة لم يثر منها إلا على خمسين ، وقد اقتفى في عملها أثر أستاذه ابن فارس ، وقد سمي راويها عيسى بن هشام ، وسمى رجلها الذي وقعت منه حوادثها (بطلها) أبا الفتح الإسكندري ، وهي صورة صادقة بلإغة البديع ، وحسن ذوقه ، ولائق سبجه ، وقد طبعت بمصر والشام ، ومن شراحها : الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، والزميل الفاضل محمد محي الدين عبد الحميد المدرس بكلية اللغة العربية بالأزهر .

ثم جاء بعد البديع ابن نباتة السعدي^(١) المتوفى سنة ٤٠٥ هـ ، فعمل مقامات ولكنه

(١) ابن نباتة السعدي من سمد من تميم ، بنداى طائف البلاد ومدح الرؤساء ومنهم سيف الدولة وابن العميد وعضد الدولة وهو غير ابن نباتة (يفتح النون) المصرى المتوفى سنة ٧٦٨ هـ ، وقد ضبطه لسان العرب بالفتح . كما ضبط ابن خلكان اسم السعدي والفارقي بالضم . وعليه تكون أسماء ابن نباتة المعروفة في التاريخ بالضم ماعدا المصرى صاحب الديوان ومؤلف سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون (ملخص من كتابنا إجماع الأعلام) .

لم يبلغ شأو البديع ، ولم تشتهر مقاماته .

ثم وضع بعده أبو القاسم بن نايقا البغدادي المتوفى سنة ٥٤٨٥ هـ ، مقامات اشتهرت في أيامه ، ولكنها لم تصل إلينا .

ثم وضع أبو محمد القاسم بن علي الحريري المتوفى سنة ٥١٦ هـ مقامات بلغت خمسين مقامة ، وقيل : إن أول ماضله منها المقامة الحرامية ، وهي الثامنة والأربعون ؛ وقد اتفق أن قدم البصرة أعرابي فصيح يسمى أبا زيد ، فنحله الحريري وقائع مقاماته ، وجعل راويها الحارث بن همام يقصد نفسه إشارة إلى الحديث القائل : كلكم حارث ، وكلكم همام ، وقد وضعها الحريري برسم الوزير جمال الدين وزير المسترشد ، ولما شاعت مقامات الحريري ببغداد ، واشتهرت حسده عليها كثير من الأدباء حتى قالوا : إنها كانت للحريري قدم البصرة ومات بها فوقعت للحريري في تركته .

وجاء بعد الحريري جارا لله الزمخشري المتوفى سنة ٥٣٧ هـ ، فعمل مقامات ومقالات بلغ عدد المقالات مائة ، وسماها : أطواق الذهب ، وعدد المقامات خمسين ، وكلتاها مواعظ وحكم ، ولكنها ليست في طول المقامات التي عرفت للبديع أو الحريري ، بل إن المقالة أو المقامة لا تزيد غالباً على عشرة أسطر ، ولم يجعل للمقامات راوياً ولا صوراً في شكل قصة بل كان يبدوها بقوله يا أبا القاسم .
ثم جاء بعده شرف الدين عبد المؤمن الأصفهاني ، فعارضه بكتاب سماه : أطباق الذهب ، وكلا الكتابين مطبوع في مصر متداول .

الكتابة العلمية

كان لكتابة العلوم أسلوب خاص امتازت به عن كتابة الرسائل ، ولم تتأثر بما تأثرت به تلك الكتابة في عصورها المختلفة . وربما كان ذلك راجعاً في الغالب إلى أن العبارة العلمية لا يقصد منها إلا إفهام المراد ، وإيصال المعنى إلى ذهن القارئ ، فلم تكن مجالاً للتأنق والزينة التي استدعت التكلف في أواخر العصر ، ثم إن المعاني العلمية

المحدودة لاحتتمل التهويل ولا المضي مع الخيال ولا يقبل فيها الجاز ، وإذا برئت من ذلك فهي غالباً عبارة تؤدي المعنى من أقرب طرقه وتستعمل فيها الألفاظ فيما وضعت له لغة أو اصطلاحاً لا تعدى ذلك . كذلك ربما رجع الأمر إلى أنه لا يتناول التأليف عادة إلا كل عالم وهم في الغالب ذوو ملكات سليمة واطلاع يشحذ أذهانهم ، وللعلم مقام يصونه غالباً عن الادعاء ، أما الكتابة فقد يدعيها من لا يملك من آلتها شيئاً ، وقد قال الشاعر في ذم الزمان وتناول الناس إلى مناصب الكتابة بشير حق :

تعي الزمان لقد أتى بمجباب وعما فنون الفضل والآداب
وأنى بكتاب لو انبسطت يدي فيهم رددتهم إلى الكتاب

ولولا أن أحوالاً خاصة عرضت لبعض العلوم لبقيت عباراتها كلها بمثابة واحدة تتأثر جميعها بالمصر الذي تصير إليه ، ولكننا رأينا بعضها يفيض أو يرك على حين يكون الآخر متاسكاً لا وهن فيه ؛ فالأدب كتب أو ترجم في أوائل العصر بعبارات هي أسمى ما وصل إليه الأسلوب العربي في حياة اللغة العربية : (حاشا القرآن وحديث رسول الله) ، ثم مازال يكتب بعبارة لا تفتقر بارة طول مدة العصر خصوصاً حين أهملوا ذكر السند وكتبوا بأقلامهم الفصول الممتعة في النقد والموازنة كما فعل الآمدي المتوفى سنة ٣٧٢ هـ ، في كتاب : « الموازنة بين أبي تمام والبحتري » ، وكافمل أبو هلال العسكري المتوفى سنة ٣٩٠ هـ في الصناعتين ، وأبو منصور الثعالبي المتوفى سنة ٤٣٩ هـ في كتابه « يتيمة الدهر » .

أما الحديث والتفسير ، فقد ظلا طويلا لا أثر فيهما لأهل العصر لأن العمل فيها لا يكون غير نقل الأحاديث والآيات وشرحها بما ورد غالباً عن الصحابة والتابعين .

وكتب الفقه بدأت طرقها تختلف بعد القرن الأول من العصر العباسي إذ أصبح للمصنفين أثر في الاستنباط والتفريع والتعليل حتى انتهوا من ذلك إلى علم الأصول الذي يرجع الفضل في اختراعه إلى الإمام الشافعي رضي الله عنه ، وما زالت عبارة الفقهاء لاغبار عليها في جميع المذاهب حتى اشتغل بفقه الخفية كثير من القرس والأثراك فركت

عبارته ودخلها كثير من التراكيب الفارسية والتركية .

وأما العلوم البخيلة ، فقد كانت ترجمتها الأولى في أيام المنصور والرشيد غير صالحة ، فلما عني المأمون بهذه العلوم وبذل فيها النصار نشط الناس في الترجمة ، ورحل كثير من أبناء السريان وغيرهم إلى اليونان فخذقوا اليونانية وترجموا ما لم يكن ترجم وصححوا ما ترجم أولاً ، ثم انتهى الحال بأن برع العرب في هذه العلوم ، واستطاعوا أن يستقلوا بالتأليف فيها ، وكانت عبارتها أولاً واضحة ، ثم تعدد أصحابها تعميتها على من يتعدى لهم من الخنابلة ، فصارت إشارات ورموزاً وبقيت كذلك إلى الآن .

أما كتب علم الكلام (التوحيد) الذي وضع للرد على الزنادقة ، فقد كان للمعلم فيه مطلق الحرية في التعبير لا يتقيدون بعبارات غيرهم ، بل يقولون على تأثير حججهم ، وبلاغة ألسنتهم إلا في نص ينقل أو شاهد يورد ، ثم لما ترجمت علوم الفلسفة والمنطق استعاروا أساليبها ، وأخضعوا علمهم لقواعدها . ولما كان المشتغلون به عادة هم في الغالب الذين يدرسون هذه العلوم ، وكان ينصبهم الخنابلة المشددون في دينهم ، والذين طالما أثاروا الفتن ببغداد على مخالفيهم في الرأي ، رأى أصحاب هذه العلوم أن يعموها على غيرهم كما ذكرنا ، ولكن ذلك حرك إنكار قوم لا يرون أن يكون العلم طلامس لا يحلها غير أصحابها ، فقام جماعة سمو أنفسهم إخوان الصفا وأخفوا أسماءهم ، وألفوا في كل هذه العلوم خمسين مقالة بكلام سهل واضح ، فأقبل الناس على كتابهم (رسائل إخوان الصفا) ، وأدمنوا قراءته ، ونقلوه إلى كل بلاد الإسلام ، وانتفوا بما فيه وهو متداول بمصر ومطبوع بها وبأهند وغيرهما .

وعلوم البلاغة ما زال التأليف فيها مساوفاً للطبع ، سائراً مع السليقة يؤلف فيها الأدباء فتأني عباراتهم ناصعة واضحة ، كما فعل صاحب الصناعتين ، ثم عبد القاهر الجرجاني المتوفى سنة ٤٧١ هـ في كتابيه : « دلائل الإعجاز » ، و « أسرار البلاغة » حتى تناول هذه العلوم قوم من الأعاجم ، فخلطوا مباحثها بالفلسفة ، وأجروا على قواعد تلك العلوم أحكام هذه الفلسفة وتقاسيمها واقتراضاتها ، فعمدت مسائلها وركت عباراتها ،

وتعسفت تعاريفها ، وما كان أحق أن يبق علماءها مثالا للإفصاح والإبانة حتى تكون
القوس في يد باريها .
هذا هو أهم ما يقال فيما تقلبت فيه لغة التأليف ، وسنذكر في المنشور أمثلة منها
بقدر الاستطاعة .

نماذج من كتابة البلاغ

في المدة الأولى من العصر العباسي

« ١ »

لما انتصر أبو مسلم الخراساني على عبد الله بن علي أرسل أبو جعفر المنصور
رسولا من قبله ليحصى المغنم التي غنمت من عبد الله ، فلما ورد الرسول غضب أبو مسلم
وكاد يقتله لولا أن علم أنه مأمور بذلك فلا ذنب له ، ولكنه لم يمكنه من العمل
الذي جاء له ، وقال : أكون أمينا على الدماء غير أمين على الأموال . وبعد ذلك
كتب المنصور إلى أبي مسلم :

إني قد وليتك مصر والشام فهي خير لك من خراسان ، فوجه إلى مصر من
أحببت وأقم بالشام حتى تكون بقرب أمير المؤمنين ، فإن أحب لقاءك أنيته من قريب .
فكتب إليه أبو مسلم : إنه لم يبق لأمر المؤمنين أكرمه الله علواً إلا أمكنه منه
وقد كنا نروى عن ملوك آل ساسان^(١) أن أخوف ما يكون الوزراء إذا سكنت الدهماء ،
فنحن نأفرون من قربك ، حريصون على الوفاء لك بمهذك ما وفيت ، حريون^(٢)

(١) آل ساسان : هم الطبقة الرابعة من ملوك الفرس وهم الأكاسرة الذين ينسبون إلى أجدد « ساسان »
وأولهم أردشير بن بابك وآخرهم يزدجرد الذي قتل أيام عثمان رضي الله عنه سنة ٣١ هـ .

(٢) الحري (كفتي) والحري (كفتي) والحري (بكسر الراء مع تخفيف الياء) : الجدير .
والأول لا يثنى ولا يجمع ولا يؤنث . قال ابن منظور في لسان العرب : فمن قال حري لم يغيره عن

بالسمع والطاعة، غير أنها من بعيد حيث تقارنها السلامة. فإن أرضاك ذلك كنا كأحسن عبيدك، وإن أبيت إلا أن تعطى نفسك إرادتها نقضت ما أبرمت من عهدك ضناً^(١) بنفسى .

« ٢ »

فكتب إليه المنصور: قد فهمت كتابك وليست صفتك صفة أولئك الوزراء الغشقة ملوكهم الذين يمتنون اضطراب حبل الدولة لكثرة جرائمهم، فإن راحتهم في اتثار نظام الجماعة فلم سويت نفسك بهم؟ فأنت في طاعتك ومناجحتك واضطلاعك بما حملت من أعباء هذا الأمر على ما أنت به، وقد حمل إليك أمير المؤمنين عيسى ابن موسى رسالته لتسكن إليها إن أضفيت إليها، وأسأل الله أن يحول بين الشيطان ونزغاته^(٢) وبينك، فإنه لم يجد باباً يفسد به نيتك أوكد وأقرب من طبه من الباب الذى فتحه عليك .

و بتأثير كتب المنصور أتى إليه أبو مسلم القياد وقدم إليه فلقى حتفه .

« ٣ »

قال الرشيد يوما ليحيى بن خالد البرمكى: قد أحببت أن أتل ديوان الخاتم من الفضل إلى جعفر، وقد استحيت من مكاتبتك فى هذا المعنى فاكذب أنت إليه، فكتب يحيى إلى الفضل: (أمر أمير المؤمنين أعلى الله أمره أن تحول الخاتم من يمينك

لفظه فيما زاد على الواحد وسوى بين الجنسين لأنه مصدر. ومن قال حر وحرى نعى وجمع وأنت
فيقال حريان وحررون وحرية وحرثان وحرثات ويقال هم أحرأء بكنا ومن حرايا وأتم أحرأء
جميع حر .

(١) ضن يضن (يفتح المضاد فى المضارع) ضنا (بالكسر) وقال الفراء يضن (بالكسر) ضنا
(بالفتح) لنة، ويقال هو علق مضنة يفتح الميم والمضاد أو يفتح الميم وكسر المضاد: أى يضن به
والتركيب إضافي .

(٢) يقال نزغه (كنه) طعن فيه واغتابه، وبينهم أفسد وأغرى ووسوس .

إلى شمالك) ، فأجابه الفضل (قد سمعت ما أمر به أمير المؤمنين في أخى ، وما انتقلت عنى نعمة صارت إليه ، ولا غربت عنى رتبة طلعت عليه) .

« ٤ »

لما انتصر طاهر بن الحسين على علي بن عيسى وقتله ، كتب إلى الفضل بن سهل : (أطال الله بقاءك ، وكَبَّتْ ^(١) أعداءك ، وجعل من يَشْنُوكَ ^(٢) فِدَاكَ . كُتِبَتْ إليك ورأس علي بن عيسى في حجرى ، وخاتمه في يدى ، والحمد لله رب العالمين) ، فلما وصل الكتاب إلى الفضل نهض ، فسلم على المأمون بإمارة المؤمنين ، وأمدّ طاهراً بالرجال والقواد ، وسماه ذا اليمينين ، وصاحب جبل الدين .

« ٥ »

وكتب عبد الله بن المقفع يصف الصديق : كان لى أنح أعظمُ الناس في عيني . وكان رأس ما عظمه في عيني صغر الدنيا في عينه . كان خارجاً من سلطان بطنه فلا يشتهى ما لا يبعد ، ولا يكثر إذا وجد ، وكان خارجاً من سلطان فرجه فلا يدعوهُ إلى مثونة ولا يستخف له رأياً ولا بدناً ، وكان خارجاً من سلطان لسانه فلا يتكلم بما لا يعلم ، ولا يمارى ^(٣) فيما علم ، وكان خارجاً من سلطان الجهالة فلا يتقدم أبداً إلا على ثقة بمنفعة ، وكان لا يَبْطُرُ عند نعمة ، ولا يستكين عند محبة . وكان أكثر دهره صامتاً فإذا قال بَرَّ الفائزين ، وكان ضعيفاً مستضعفاً ، فإذا جدَّ الجِدَّ فهو الليث عادياً ، وكان لا يدخل في مراء ، ولا يدلى بحجة حتى يرى قاضياً فهُما وشهوداً عُدولاً ، وكان لا يلوم

(١) كَبَّتْ (كضرب) : صدعه ورده بفيظه وأذله .

(٢) شَنَأَهُ (كَتَمَ) : أقبضه والمصدر شَنَأَ (مثلاً) وشَنَأْنَا وشَنَأْنَا (بفتح النون وإسكانها) . وأزْدَ شَنُوءَةً سميت بذلك لشأن كان بينها .

(٣) للمباراة : الجدل والحاجة . قيل هي من المرة بمعنى الشك لأن الانسان لا يحتاج في أمر إلا إذا شك فيه . وفي الأساس أن المباراة من المرى بمعنى الحلب لأن كل مجادل يجلب ماعدته مجادله .

أحداً فيما يكون العذر في مثله حتى يعلم ما عُذُّهُ ، وكان لا يشكو وجهه إلا عند من يرجو عنده البرء ، ولا يستشير صاحباً إلا أن يرجو منه النصيحة وكان لا يتبرم ولا يتسخط ولا يتشكى ولا يتشهى^(١) ولا ينتقم من العدو ، ولا يفُـل^(٢) عن المولى ، ولا يخص نفسه بشيء دون إخوانه من اهتمامه وحيثه وقوته ، فعليك بهذه الأخلاق إن أطقها ولن تطيق . ولكن أخذ القليل خير من ترك الجميع .

« ٦ »

وكتب يطلب من أحد إخوانه قضاء حاجة : إن الناس لم يعدموا أن يطلبوا الخواص إلى الخواص من الإخوان ، وأن يتواصلوا بالحقوق ، ويرغبوا إلى أهل المقامات ، ويتوسلوا إلى الأكفاء ، وأنت بحمد الله ونعمته من أهل الخير ومن أعان عليه ، وبذل لأهل ثقته المصافين ، وإن بذل النفس ، وإعطاء الرغيب ليس منك ببيكر^(٣) ولا طريف بل هو تليد أتليه أولكم لآخركم ، وأورثه أكابركم أصاغركم ، ومن حاجتي كذا ، وأنت أحق من طلبت إليه ، واستعنت على حوادث الدهر وأنزلت به أمرى ، لقرب نسبك وكريم حسبك ، ونباهتك وعلو منزلتك ، وجسم صناعتك ، وعوام أياديك إلى عشيرتك وغيرها . فليكن رأيك ما حتمت منك حاجتي على قدر ما قسم الله لك حق فضله ، وما عودك من منته ، ووسع غيرى من نعمك وإحسانك .

« ٧ »

وكتب محمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم والواثق :

(١) شبه (كفرح) وشهاه واشتهاه وتمصاه : رغب فيه فهو شهي وشهوان (يكون الهاء) وشهوانى (يكون الهاء أيضا) .

(٢) فغل (كدخل) عن الشيء تركه على ذكره ، والتناقل : تعمد النقلة ، والتفعل : اتهازها .

(٣) البكر (هنا) : كل فلة لم يقدمها مثلها . والضربة البكر : القاطعة القاضية .

« إن حقّ الأولياء ^(١) على السلطان تنفيذُ أمورهم وتقويمُ أودم ^(٢) ، ورياضةُ أخلاقهم ، وأن يميز بينهم فيقدّم محسنهم ويؤخّر مسيئهم . ليزداد هؤلاء في إحسانهم ، ويزدجر هؤلاء عن إساءتهم » .

« ٨ »

وكتب محمد بن عبد الملك الزيات أيضاً :
« إن الله أوجب لخلقائه على عباده حقّ الطاعة والنصيحة ، ولعباده على خلقائه بَسْطَ العدل والرافة . وإحياء الشئِنِ الصالحة ، فإذا أدّى كلٌّ إلى كلٍّ حقه كان ذلك سبباً لتسام المعونة ، واتصال الزيادة ، واتساق الكلمة ، ودوام الألفة » .

« ٩ »

وكتب الحسن بن وهب ^(٣) في الشكر :
« من شكرك على درجة رفعتك إليها ، أو ثروة أفدته إياها فإن شكري لك على حجة ^(٤) أخيتيها ، وحُشاشة أبقيتها . ورمق أسكت به ، وقت بين التلف وبينه ، فلكلّ نعمة من نعم الدنيا حدٌّ تنتهي إليه . وممدى يُوقِف عنده . وغايةٌ من الشكر يسمو إليها الطَّرف خلا هذه النعمة التي قد فاقت الوصف ، وأطالت الشكرَ وتجاوزت قدره ، وأنت من وراء كلّ غاية : ركدت عنا كيّد العدو ، وأرغمت أنف الحسود ،

(١) الأولياء : جمع ولي ، وهو هنا بمعنى التابع .

(٢) الأود : الأعوجاج من أود (كفرج) والوصف منه آود والمؤنثة أوداء .

(٣) الحسن هو وأخوه سليمان ابنا وهب بن سعيد ويتهم في الكتابة قدم منذ عهد معاوية ، وكانوا نصارى من أهل واسط فأسلموا وخدموا في النواوين . خدم جدم سعيد آل بركم وكذلك أبوم وهب خدم جعفر بن يحيى ثم الفضل بن سهل وهو القاتل فيه : عجبت لمن معه وهب كيف تهمة نفسه ، وكتب سليمان للأُمون وعمره أربعة عشرة سنة وولي الوزارة للهندي والمعتمد . والحسن كتب لابن الزيات .

(٤) المهجة : ألم ، أو دم القلب ، أو الروح .

فنحن نلجأ منك إلى ظلٍ ظليلٍ ، وكَنَفٍ كريمٍ . فكيف يشكر الشاكرُ ، وأين يبلغُ مُجْدُ الجُهدِ ! » .

« ١٠ »

من محاسن الإيجاز ما كتب جعفر بن محمد بن الأشعث إلى يحيى بن خالد يستعفيه .
من العمل : شكرى لك على ما أريد الخروج منه شكرُ من نال الدخول فيه .

« ١١ »

وكتب على بن هشام إلى إسحق بن إبراهيم الموصلي في الشوق : ما أدرى ! !
أغيبُ فأشتاق ، وألتقى فلا أشتى . ثم يُحدث لى اللقاء نوعاً من الحُرقة للوعدة القرقة .

« ١٢ »

وكتب العتّابي^(١) في الذم :
تأنيباً^(٢) إفاقتك من سكرتك ، ورتقبتنا انتباهك من رقدتك ، وصبرنا على تجمّع
الغيظ فيك حتى بان لنا اليأس من خيرك ، وكشف لنا الصبر عن وجه الغلظ فيك .
فها أنا^(٣) قد عرفتك حق معرفتك في تعديك لطورك^(٤) واطراحك حق من غلط
في اختيارك » .

(١) العتّابي : هو كلثوم بن عمرو الداهلي ويكنى أبا عمرو . وكان صاحب بديهة في التنوير والمنظوم
حسن العقل والتمييز . قال الجاحظ : العتّابي اجتمع له الخطابة والبيان والفصاحة الجيدة والرسائل
النافعة ، وعلى ألفاظه وحذوه يقول في البديع كل من تسكف ذلك من الشراء للولدين كصور
النرى ومسلم وغيرها .

(٢) تأنيب الرجل : تأخر في أمره ولم يسجل . وتأناه : انتظره .

(٣) الشائع قولهم هاأنا . قال في لسان العرب : وقالوا هاأنت تفعل .

(٤) الطور : القدر والتارة وما كان على حد الشيء وبازائه .

كتب طاهر إلى ابنه عبد الله حين ولى ديار ريعة هذ الكتاب :

عليك بتقوى الله وحده لا شريك له ، وخشيته ومراقبته ، ومزايله سُخْطه ، وحفظ رعيته . والزم ما ألبسك الله من العاقية بالذكر لمعادك ، وما أنت سائرٌ إليه ، وموقوفٌ عليه ، ومستولٌ عنه ، والعمل في ذلك كله بما يعصمك من الله ، وينجيك يوم القيامة من عذابه ، وأليم عقابه . فإن الله قد أحسن إليك ، وأوجب عليك الرأفة بمن استرعاك أمرهم من عباده ، وأزملك المدل عليهم ، والقيام بحقه ، وحدوده فيهم ، والنبغ عنهم ، والدفع عن حريمهم وتبصيرهم ، والحقن لدمائهم ، والأمن لسبيلهم ، وإدخال الراحة عليهم في معاشهم ، ومؤاخذك بما فرض عليك من ذلك ، وموقفك عليه ، ومُسائلتك عنه ، ومُتيبك عليه ، بما^(١) قدمت وأخرت . فترغ لذلك فكرك وعقلك وبصرك ورويتك ، ولا يُذهلك عنه ذاهل ، ولا يشغلك عنه شاغل ؛ فإنه رأسُ أمرك ، وملاكُ شأنك ، وأول ما يوقك الله به لرشدك ، وليكن أولُ ما تلزم به نفسك وتنسب إليه فعالك ، المواظبة على ما اقترض الله عليك من الصلوات الخمس والجماعة عليها بالناس قبلك في مواقيتها ، على سننها في إسباغ الوضوء لها ، وافتتاح ذكر الله فيها ، وترتل^(٢) في قراءتك ، وتمكّن في ركوعك وسجودك وتشهدك ، ولتصدق فيها لربك نيتك ، واحضض عليها جماعة من معك وتحت يدك ، وادأب عليها فإنها كما قال الله تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر . ثم أتبع ذلك الأخذ بالسنة سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم والمثابرة على خلائقه ، واقتفاء آثار السلف الصالح من بعده ، وإذا ورد عليك أمر فاستعن عليه باستخارة الله وتقواه ، ولزوم ما أنزل الله في

(١) الباء هنا للبدل : أى متييك بدل ما قدمت وأخرت .

(٢) ترتل في الصلوة : ترسل وأحسن تنسيقه .

كتابيه من أمره ونهيه ، وحلاله وحرامه ، وإتمام ما جاءت به الآثار عن النبي صلى الله عليه وسلم . ثم قم فيه بما يُحَقُّ لله عليك ، ولا تَمَلْ عن العدل فيما أحببت أو كرهت لتقريب من الناس ، أو بعيد ، وآثر الفقه في دين الله ، والطلب له والحث عليه والمعرفة بما يتقرب فيه منه إلى الله ، فإنه الدليل على الخير كله ، والقائد له ، والأمر به ، والنهى عن المعاصي والموبقات كلها ، وبها مع توفيق الله تزداد العباد معرفة بالله عز وجل وإجلالا له ، ودَرَكَ^(١) للدرجات العلى في المعاد . مع ما في ظهوره للناس من التوقير لأمره ، والهيبه لسلطانك ، والأنسة بك ، والثقة بذلك .

ومنه في سياسة الرعية واختيار الولاة : واعلم أنك جُمِلْتَ بولايته خازنا وحافظا وراعيا . وإنما سمي أهلُ عَمَلِك رعيته لك لأنك راعيهم وقيهم . تأخذ منهم ما أعطوك من غَنَوم ومقدريتهم ، وتنفقه في قِوَام أمرهم وصلاحهم وتقويم أودهم . فاستعمل عليهم في كُور^(٢) عَمَلِك ذوى التدبير ، والتجربة والخبرة بالعمل ، والعلم بالسياسة والعفاف . ووسع عليهم في الرزق ، فإن ذلك من الحقوق اللازمة فيما تقلدت ، وأُسْنِدَ إليك . ولا يَشْغَلَنَّكَ عنه شاغل ، ولا يَصْرِفَنَّكَ عنه صارف ، فإنك متى آثرته وقت فيه بالواجب استدعيت به زيادة النعمة من ربك ، وحسن الأحوال في عَمَلِك ، واحترزت النصح من رعيته ، وأعنت على الصلاح ، فدرت خيرا ببلدك ، وفشت العمارة بناحيته ، وظهر الخصب في كُورك ، فكثرت خراجك ، وتوفرت أموالك ، وقويت لذلك على ارتباط^(٣) جُنْدِكَ وإرضاء العامة ، وكنت محمود السياسة مَرْضَى العدل في ذلك عند عدوك ، وكنت في أمورك كلها ذا عدل وقوة وعُدّة فنافس في هذا ، ولا

(١) المِرْك (بالتحريك) : الحلق وبه أو بالفتح التهمة (يقال ملكتك من درك هذا أى تجته) وقهر الشئ .

(٢) الكور : جمع كورة ، وهى المدينة أو الصقع .

(٣) الارتباط : إعداد الجند وجعلهم يلازمون الثور . والرباط : ملازمة الثور ، والحيل ، أو الخس منها فسا فوقها .

تَقَدَّمَ عَلَيْهِ شَيْئًا تَحْمَدُ مَتَّبِعَةً أَمْرُكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ . وَاجْعَلْ فِي كُلِّ كَوْرَةٍ مِنْ عَمَلِكَ أَمِينًا يُخْبِرُكَ أَخْبَارَ عَمَلِكَ ، وَيَكْتُبُ لَكَ بِسِرِّتِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ ، حَتَّى كَأَنَّكَ مَعَ كُلِّ عَامِلٍ فِي عَمَلِهِ ، مُعَايِنٌ لَأَمْرِهِ كُلِّهِ . وَإِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَأْمُرَ بِأَمْرٍ فَانْظُرْ فِي عَوَاقِبِ مَا أَرَدْتَ مِنْ ذَلِكَ ، فَإِنْ رَأَيْتَ السَّلَامَةَ فِيهِ وَالْعَاقِبَةَ وَوَجَدْتَ فِيهِ حُسْنَ الدَّفَاعِ وَالنَّصِيحِ وَالصَّنْعِ فَأَمُضِهِ وَإِلَّا فَتَوَقَّفْ عَنْهُ ، وَرَاجِعْ أَهْلَ الْبَصَرِ وَالْعِلْمِ ، ثُمَّ خُذْ فِيهِ عُدَّتَهُ فَإِنَّهُ رُبَّمَا نَظَرَ الرَّجُلُ فِي أَثَرٍ مِنْ أَثَرِهِ قَدْ وَاتَاهُ عَلَى مَا يَهْوَى قَهْوَاهُ ذَلِكَ وَأَعْجَبَهُ ، وَإِنْ لَمْ يَنْظُرْ فِي عَوَاقِبِهِ أَهْلَكَهُ ، وَتَقَصَّ عَلَيْهِ أَمْرُهُ . فَاسْتَعْمَلِ الْحَزْمَ فِي كُلِّ مَا أَرَدْتَ وَبَاشِرْ بَعْدَ عَوْنِ اللَّهِ بِالْقُوَّةِ وَأَكْثِرِ اسْتِخَارَةَ رَبِّكَ فِي جَمِيعِ أُمُورِكَ .

ثُمَّ قَالَ : وَأَكْثِرِ الْإِذْنَ لِلنَّاسِ عَلَيْكَ ، وَأَبْرِزْ لَهُمْ وَجْهَكَ ، وَسَكُنْ لَهُمْ حَرَمَكَ ، وَاخْتِصِّصْ لَهُمْ جَنَاحَكَ ، وَأَظْهَرْ لَهُمْ بِشْرَكَ ، وَلِزِنْ لَهُمْ فِي الْمَسْأَلَةِ وَالنُّطْقِ ، وَاعْطِفْ عَلَيْهِمْ بِجُودِكَ وَفَضْلِكَ ، وَإِذَا أُعْطِيتَ فَأَعْطِ بِسَاحَةِ وَطِيبِ نَفْسٍ ، وَاتَّقِ الصَّنِيعَةَ وَالْأَجْرَ غَيْرَ مَكْدَرٍ ، وَلَا مَتَّانٍ ، فَإِنَّ الْعَطِيَّةَ عَلَى ذَلِكَ تِجَارَةٌ مَرْجُوحَةٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

ثُمَّ خَتَمَهَا بِقَوْلِهِ : وَأَنَا أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُحْسِنَ عَوْنَكَ وَتُوفِيقَكَ وَرُشْدَكَ وَكِلَالَكَ ، ^(١) وَأَنْ يَنْزِلَ عَلَيْكَ فَضْلُهُ وَرَحْمَتُهُ بِتَمَامِ فَضْلِهِ ^(٢) عَلَيْكَ وَكَرَامَتِهِ لَكَ ، حَتَّى يَجْعَلَكَ أَفْضَلَ أَهْلِكَ نَصِيبًا ، وَأَوْفَرَهُمْ حَقًّا ، وَأَسْنَاهُمْ ذِكْرًا وَأَمْرًا ، وَأَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكَ ، وَمَنْ نَاوَأَكَ ، وَبَقِيَ عَلَيْكَ ، وَبَرَزَكَ مِنْ رَعِيَّتِكَ الْعَافِيَةَ ، وَيُخْجِزَ الشَّيْطَانَ عَنْكَ وَوَسْوَاسَهُ ، حَتَّى يَسْتَعْمَلَ أَمْرُكَ بِالْعَزِّ ، وَالْقُوَّةِ ، وَالتَّوْفِيقِ ، إِنَّهُ قَرِيبٌ مَجِيبٌ .

وَذَكَرُوا أَنَّ طَاهِرًا لَمَّا عَهِدَ إِلَى ابْنِهِ عَبْدِ اللَّهِ هَذَا الْعَهْدَ تَنَازَعَهُ النَّاسُ ، وَكَتَبُوهُ : وَتَدَارَسُوهُ ، وَشَاعَ أَمْرُهُ حَتَّى بَلَغَ الْمَأْمُونُ فِدَايَهُ ، وَقُرِئَ عَلَيْهِ ، فَقَالَ : مَا بَقِيَ

(١) كَلَّاهُ (كَجَم) كَلَّمَا (بِالْفَتْحِ) وَكَلَّاهُ وَكَلَّاهُ (بِكَسْرِ الْكَافِ فِيهِمَا) : حَفِظَهُ وَرَعَاهُ .

(٢) لَمِنْ فَضْلِ الْأَوَّلَى بِمَعْنَى لِلنَّزْلِ الرَّيْعَةِ وَالثَّانِيَةِ بِمَعْنَى الْإِحْسَانِ .

أبو الطَّيِّبِ شَيْخًا مِنْ أَمْرِ الدِّينِ ، وَالدُّنْيَا ، وَالتَّدْبِيرِ ، وَالرَّأْيِ ، وَالسِّيَاسَةِ ، وَاصْلَاحِ الْمَلِكِ ، وَالرَّعِيَّةِ ، وَحِفْظِ الْبَيْضَةِ ، وَطَاعَةِ الْخُلَفَاءِ ، وَتَقْوِيمِ الْخُلَافَةِ ، إِلَّا وَقَدْ أَحْكَمَهُ وَأَوْحَى بِهِ وَتَقَدَّمَ . وَأَمْرٌ أَنْ يَكْتُبَ بِذَلِكَ إِلَى جَمِيعِ الْعَمَالِ فِي النُّوَاحِي وَالْأَعْمَالِ .

« ١٤ »

وَكُتِبَ طَاهِرٌ^(١) بِنِ الْحُسَيْنِ حِينَ أَخَذَ بَغْدَادَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْمُهْدِي :
« أَمَا بَعْدَ فَإِنَّهُ عَزِيزٌ عَلَيَّ أَنْ أَكْتُبَ إِلَى أَحَدٍ مِنْ بَيْتِ الْخُلَافَةِ بِغَيْرِ كَلَامِ الْأَمْرَةِ وَسَلَامِهَا . غَيْرَ أَنَّهُ بَلْفَنِي عَنْكَ أَنْكَ مَائِلُ الْهَوَى وَالرَّأْيِ لِلنَّاكِثِ الْخُلُوعِ ، فَإِنْ كَانَ كَمَا بَلْفَنِي قَلِيلٌ مَا كُتِبْتُ بِهِ كَثِيرٌ لَكَ ، وَإِنْ يَكُنْ غَيْرَ ذَلِكَ فَالسَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا الْأَمِيرُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ

وَقَدْ كُتِبَتْ فِي أَسْفَلِ كِتَابِي هَذَا آيَاتًا قَدْ بَرَّرَهَا :

رُكُوبُكَ الْهَوَى مَالِمَ تَلْقَ قُرُصَتَهُ جَهْلٌ وَرَأْيُكَ بِالْتَّغْيِيرِ تَغْيِيرٌ
أَهْوَنُ بِدُنْيَا يُصِيبُ الْخَطِئُونَ بِهَا حَظُّ الْمَصِيبِينَ وَالْمَغْرُورِ مَغْرُورٌ
فَازْرَعْ صَوَابًا وَخُذْ بِالْحَزْمِ حَيْطَتَهُ فَلَنْ يُدَمَّ لِأَهْلِ الْحَزْمِ تَدْبِيرٌ^(٢)
وَإِنْ ظَفِرَتْ مَصِيبًا أَوْ هَلَكَتْ بِهِ فَأَنْتَ عِنْدَ ذَوِي الْأَلْبَابِ مَعْدُورٌ
وَإِنْ ظَفِرَتْ عَلَى جَهْلٍ فَفُزْتَ بِهِ فَالْوَا جَهْلٌ أَعَاتَهُ الْمَقَادِيرُ

« ١٥ »

أَحْمَدُ بْنُ يَوْسُفَ مِنْ بَيْتِ عَرِيقٍ فِي الْكِتَابَةِ ، وَقَدْ تَوَلَّى دِيْوَانَ الرِّسَائِلِ فِي عَهْدِ الْمَأْمُونِ وَتَوَفَّى سَنَةَ ٢١٣ هـ .

(١) طاهر هو قائد جيش المأمون الذي قتل الأمين وهو ذو النبين وكان شجاعاً أديباً ، كان بين واحدة . وأبوه مصعب بن زريق كان كاتباً لسليل بن كثير صاحب دعوة بني العباس . توفى سنة ٢٠٧ هـ مرو .

(٢) المصدر حطة وحياطة (كلاهما بالكسر) والاسم الحوطة والحطة (بالفتح وكسر) .

وكان أول ما ارتفع به قدره وعرف اسمه أن الخلويع محمد بن الرشيد لما قتل أمر طاهر بن الحسين الكتاب أن يكتبوا إلى المأمون فأطالوا ، فقال طاهر : أريد أخصر من هذا ، فوصف له أحمد بن يوسف وموضعه من البلاغة فأحضره لذلك ، وكتب : « أما بعد ، فإن كان الخلويع قسم أمير المؤمنين في النسب واللحمة ، فقد فرق بينها حُكْم الكتاب في الولاية والخدمة ، بفارقة عصمة الدين ، وخروجه من الأمر الجامع للمسلمين . لقول الله عز وجل فيا اقتصّ علينا من نبيّ نوح وابنه : (إِنَّهُ لَيَسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ) ، ولا طاعة لأحد في معصية الله ، ولا قطيعة ما كانت القطيعة في ذات الله ، وكتابى إلى أمير المؤمنين ، وقد أنجز الله له ما كان ينتظر من سابق وَعْده ، والحمد لله الراجع إلى أمير المؤمنين معلوم حَقّه . الكائِد (١) له فيمن خَتَرَ (٢) عَهْدَهُ وَتَقَضَّ عَهْدَهُ ، حتى رَدَّ به الألفة بعد فُرْقَتِهَا . وجمع به الأمة بعد شتاتها وأضاء به أعلام الدين بعد دروسها .

وقد بعثت إليك بالدنيا وهى رأس الخلويع ، وبالأخرة وهى البرّة والقصيب . والحمد لله الآخذ لأمير المؤمنين حَقّه ، الراجع إليه تراث آبائه الراشدين

« ١٦ »

وكتب يستجديه لزوار على بابه :

(إن داعى نذاك ، ومُنَادِى جَدُّوَاك ، جما ببابك الوفود . يرجون نائلك العتيد^(٣)

(١) الكيد : المكر والحيلة والحرب . وقوله تعالى « كدنا ليوسف » أى علمناه الحيلة فى أخذ أخيه

(٢) الختر : شبيه الغدر والحديعة ، وقيل هو أسوأ الغدر . وفى الحديث : ما ختر قوم بالمعهد الاسلط عليهم العدو . والفعل كضرب ونصر .

(٣) العتيد : الميأى .

فمنهم من يَمُتُّ بِجُرْمَةٍ^(١) ، ومنهم من يُذَلِّي بِسَافِ خِلْمَةٍ . وقد أَجْجَفَ^(٢) بِهِ الْقَتَامُ ،
فَإِنْ رَأَى أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَنْعَشَهُمْ بِسَبِيهِ ، وَيَحْقُقَ ظَنَّهُمْ بِطَوْلِهِ^(٣) فَقَلَّ .

« ١٧ »

فوقع المأمون في غرض كتابه :

الخير مُتَّبِعٌ ، وأموال الملوك مَطْلَبٌ لَطْلَابِ الْحَاجَاتِ ، فأكتب أسماءهم ، وبين
مرتبة كل واحد منهم ليصير إليه على قدر استحقاقه ، ولا تُكَلِّدَنَّ معروفنا بِالْمَطْلِ
والحجاب . فقد قال الشاعر :

فَإِنَّكَ لَنْ تَرَى طَرْدًا لِحُرٍّ كَالِإِصَاقٍ بِهِ طَرَفِ الْهَوَانِ
وَلَمْ تُجَلِّبْ مَوَدَّةَ ذِي وَفَاءٍ بِمِثْلِ الْوُدِّ أَوْ بَذْلِ اللِّسَانِ

« ١٨ »

وكتب إلى إبراهيم بن المهدي مع هدية أهداها إليه :

« الثقة بك قد سهَّلتِ السبيلَ إليك ، فأهديتُ هَدِيَّةً مِنْ لَا يَحْتَسِمُ إِلَى مَنْ
لَا يَقْتَسِمُ » .

« ١٩ »

وكتب إلى عليل :

« قد أذهب الله وَصَبَ الْعِلَّةِ وَنَصَّهَا ، وَوَفَّرَ أَجْرَهَا وَثَوَابَهَا ، وجعل فيها من إِرْتَامِ
الْعُدُوِّ بِعُقْبَاكَا ، أضعافَ مَا كَانَ عِنْدَهُ مِنَ السَّرُورِ بِفَتْحِ أُولَاهَا » .

(١) المِتُّ : التوسل بهرباية . الحرمة (هنا) : النعمة ، ومن ممانيتها : ما لا يحل انتهاكه والهاية والنصيب

(٢) من قولهم أَجْجَفَ بِهِ الْفَرَسُ : أى ضربه وآذاه .

(٣) الطول والطائل والطائلة : الفضل والقدرة والفنى والمنة .

« ٢٠ »

وكتب في الذم :

« أما بعد فإني لا أعرف للمعروف طريقاً أو عزّاً من طريقه إليك . فالمعروف لديك ضائع . والشكرُ عندك مهجورٌ . وإنما غابتك في المعروف أن تحفّره ، وفي وليّهِ أن تكفّره »

« ٢١ »

لما قويت شوكة نصر بن شبث ، وهزّم جيوش المأمون كتب إليه عمرو بن مسعدة على لسان المأمون :

أما بعد فإنك يا نصرُ بنَ شبثٍ قد عرّفت الطاعة وعزّها وبرّد ظلّها ، وطيب مرثعها ، وما في خلافتها من التّدم والخسارة ، وإن طالّت مدّة الله بك ، فإنه إنما يُملى لمن يلتمس مظاهره الحجة عليه لتقع عبره بأهلها على قدر إصرارهم واستحقاقهم . وقد رأيتُ إذ كارك وتبصيرك لما رجوتُ أن يكون لما أكتب به إليك موقعٌ منك . فإن الصدق صدق ، والباطل باطل ، وإنما القول بمخارجِه وأهلِه الذين يُعنون به ، ولم يعاملك من عمال أمير المؤمنين أحد أفعُ لك في مالك ، ودينك ، ونفسك ، ولا أحرص على إقناذك ، والانتياش لك من خطئك مني . فبأيّ أول ، أو آخر ، أو سلطة ، أو إمرة ، إقدامك يا نصرُ على أمير المؤمنين ، تأخذ أمواله وتتولّى دونه ما ولاه الله ، وتريد أن تبيّت أمنّا مطمئناً ، أو وادعاً ساكناً ، أو هادئاً . فوعالم السرّ والجهر ، لئن لم تكن للطاعة مُراجِعاً ، وبها خانفاً ، لتستويبن وخم العاقبة . ثم لا بدّ أن بك قبل كل عمل . فإن قرون الشيطان إذا لم تقطع كانت فتنة في الأرض ، وفساداً كبيراً ، أما لأطنان بن معى من أنصار الدولة كواهل رعا أصحابك ، ومن تأشّب

إليك من أذاني البلدان ، وأقاصيها ، وأوباشها ، ومن أنضوى إلى حوزتك من حُرَاب
الناس ، ومن لفظه بلده ونفثه عشيرته ، لسوء موضعه فيهم . وقد أعذر من أنذر والسلام .

« ٢٢ »

ومن أبلغ ما كتبه وتلطف فيه بتوصيل شكوى الجند الذين تأخرت أرزاقهم إلى
المأمون من غير أن يكون منه إيلاام للخليفة ولا اعتداء على سامى مقامه وعظيم مكانته ،
وكان هو الذى أخرج أعطياتهم :

كتابى إلى أمير المؤمنين ، ومن قبلى من قواده وسائر أجناده فى الاقياد والطاعة ،
على أحسن ما تكون عليه طاعته جند تأخرت أرزاقهم ، واتقياد كفاة تراخت
أعطياتهم ، واختلّت لذلك أحوالهم والتأثت معه أمورهم .

« ٢٣ »

ولإبراهيم بن العباس الصّولى الذى كان يلقب بكتاب العراق ، وتقاب فى أعمال
النواحي والساووين ولسكنه لم يقلد الوزارة لما اشتهر عنه من اللهو والاستهتار فيه . يشكو
إلى بعض إخوانه :

لا أزال أبقاك الله ، أسأل الكتاب إليك ؛ فرة أتوقف توقّف المحفف عنك
من المؤونة ، ومرة أكتب كتاب الراجع منك إلى الثقة ، والمعتمد منك على القليل^(١)
لا أعذمتك الله دوام عزك ، ولا سلب الدنيا بهجتك بك ولا أخلانا من الصنع^(٢) لك .

(١) القليل : يراد به الملجأ ، وهو من القائلة وهى نصف النهار يبدأ فيه الناس ويستكونون من حرا الماجرة

(٢) الصنع : العمل الجليل ، ومعنى من الصنع لك أى الصنع المنسوب إليك ، وكانت العبارة تؤدى بقولك
صنعتك لولا أنه أراد أن يزواج بين هذه الفقرة وبين قوله بهجتك بك .

فإننا لا نعرف إلا نعمتك ، ولا نجد للحياة طمأناً إلا في ظلك ، ولئن كانت الرغبة إلى بشر^(١) من الناس خماسةً ودلاً ، لقد جعل الله الرغبة إليك كرامة وعزاً ؛ لأنك لاتعرف حُرّاً قعد به دهره إلا سبقت مساوئته بالمطية ، وضئت وجهه عن الطلب والذلة .

« ٢٤ »

وخرج أهل حمص على الخليفة المتوكل داعين إلى العصية^(٢) ، فكتب إبراهيم هذا إليهم على لسان المتوكل : أما بعد : فإن أمير المؤمنين يرى من حق الله عليه مما قوم به من أود ؛ وعدل به من زيف ، ولم به من منتشر ، استعمال ثلاث يقدم بعضهن على بعض : أولاهن ما يتقدم به من تنبيه وتوقيف ، ثم ما يستظهر^(٣) به من تحذير وتخويف ، ثم التي لا يقع بحسم الداء غيرها^(٤) :

أَنَاةٌ فَإِنْ لَمْ تُغْنِ عَقَبَ بَعْدَهَا وَعَيْدٌ فَإِنْ لَمْ يُغْنِ أَغْنَتْ كِتَابَتُهُ

نماذج من كتابة البلاغ

في المدة الثانية من العصر العباسي

[ابن العميد] ، وهو فارسي الأصل ، ارتقت به همته وبلاغته ، حتى صار وزير ركن الدولة ابن بويه سنة ٣٢٩ هـ ، وهو الذي قيل في شأنه : بدئت الكتابة بعبد الحميد ، وختمت بابن العميد ، توفي سنة ٣٦٠ هـ .

-
- (١) الرغبة إلى بشر : أى الطلب منه ، يقال رغبت إلى فلان في كذا : أى طلبته منه .
 (٢) وفي رواية صبح الأعشى أن أهل حمص وثبوا بامال المتوكل عليها ثم بأخر فأرسل إليهم هذا الخطاب ، ولاتنفي بين الروايتين فقد يكون وثوبهم على العامل بسبب دعوتهم إلى العصية .
 (٣) استظهر : استغوى .
 (٤) في رواية « لا ينفع جسم الداء غيرها » .

« ١ »

كتب (وقد أجمع أهل البصر بالأدب على أن هذه الرسالة هي خير كلامه) إلى بُلُكَا بن وَثَّاد عند استعصائه على ركن الدولة . فأنزله عن استعصائه ، وجره بزمام كلامه . وقال بُلُكَا : والله لقد أغنى كتابه عن الكتاب في عَرَكِ^(١) أديمي واستصلاحي وردى إلى طاعة صاحبي . قال :

كتابي وأنا مترجح بين طمع فيك ، ويأس منك ، وإقبال عليك ، وإعراض عنك ، فإنك تُدِلُّ^(٢) بسابق حرمة ، وتَمُتُّ بسالف خدمة . أيسرُهما يوجب رعاية ، ويقتضى محافظة وعناية ، ثم تَشْفَعُهما بمحدث غُلُولٍ^(٣) وخيانة ، وتُدْبِعُهما بِأُفٍّ^(٤) خلاف ومعصية ، وأدنى ذلك يُحْبِطُ أعمالك . وَيَمَحُقُ كلَّ ما يُرعى لك . لا جَرَمَ . إلى قد وقت بين ميل إليك وميل عنك ، أقدم رجلاً لَصِيدِكَ وأوخر أخرى عن قصدك ، وأبسطيداً لأَصْطِلَامِكَ واجتياحك ، وأثني ثانية لاستبقائك واستصلاحك ، أتَوْفَّ^(٥) عن أمثال بعض الأمور فيك ، ضئلاً بالنعمة عندك ، ومنافسة في الصنعة لديك ، وتأميلاً لَقَيْدَتِكَ وانصرافك ، ورجاء لمراجعتك وانعطافك ، فقد يَغْرُبُ العقل ثم يَثُوبُ ، ويَغْرُبُ اللب ثم يَثُوبُ ، ويَذْهَبُ الحَزْمُ ثم يعود ، ويَفْسُدُ العزم ثم يَصْلُحُ ، ويَضَاعُ الرأي ثم يُسْتَدْرَكُ ، ويشكر المرء ثم يَضْحَرُ ، وَيَكْدَرُ^(٦) الماء ثم يصفو ، وكلَّ ضِيقَةٍ

(١) المرك : الدلك . وبابه نصر .

(٢) الإدلال : التقة بالهو .

(٣) الغلول : الحياطة في الغنمية . وبابه نصر ، وأمان الحقد قباه ضرب .

(٤) الروضة الأنف (كفتي) : التي لم ترع . والكأس الأنف : التي لم يصرب منها ، والأمس

الأنف : الذي لم يسبق بمثله .

(٥) كدر من باى طرب وسهل ، والوصف منه كدر (كفرج) وكدر (كسهل) ،

فإلى رَحَا^(١) وكلَّ غَمْرَةٍ فإلى انجلاء ، وكما أنك أتيت من إساءتك بما لم يَحْسِبْهِ^(٢) أولياؤك ، فلا يدعُ أن تأتي من إحسانك بما لا يَرْتَقِبُهُ أعداؤك ، وكما استمرت بك الفلة حتى رَكِبْتَ ماركبت واختَرْتَ ما اختَرْتَ ، فلا عجب أن تنتبه انتباهةً تُبْصِرُ فيها قُبْحَ ما صنعتَ ، وسوء ما أثَرْتَ ، وسأقيم على رَسْمِي^(٣) في الإبقاء والملاحظة ماصِلَح ، وعلى الاستيناء والمطاولَة ما أمكن ، طمعاً في إنباتك ، وتحكماً لحسن الفن بك ، فلست أعدَم فيما أظاھرهُ من إغذار ، وأرادفه من إنذار ، احتجاجاً عليك ، واستدراجاً لك . فإن يَشَأَ اللهُ يَرْشِدْكَ ، ويأخُذْ بك إلى خطاك ويُسدِّدْكَ ، فإنه على كل شيء قدير ، وبالإجابة جدير .

وزعمت أنك في طَرَفٍ من الطاعة بعد أن كنت مُتَوَسِّطاً . وإذا كنت كذلك فقد عرفت حاليها . وحلَبْتَ شَطْرِيهَا^(٤) فَتَشَدَّدْتُكَ^(٥) اللهُ لَمَّا صَدَقْتَ عما سألتك : كيف وجَدْتَ ما زِلْتَ عنه ، وكيف تَجِدُ ما صِرتَ إليه ؟ ألم تكن من الأول في ظِلِّ ظليل ، ونسيم عليل ، وريح بليل ، وهواء ندي ، وماء روي ، ومهادٍ وطيب ، ورُكنٍ ركين ، ومكانٍ مَكِين ، وحِصْنٍ حَصِين . يَقيكُ للثائف ، ويؤمِّنُكُ المخاوف ، ويَكُنْفُكُ من نوائب الزمان ، ويحفظُك من طوارق الحِذْثَانِ^(٦) عزَّزْتَ به بعد الذلَّة ، وكثُرَتْ بعد القِلَّة ، وارتفعت بعد الضعة ، وأيسرَتْ بعد العُسرة ، واستغنيت بعد اللزربة ، واتسعت

(١) الرخاء : لين الأمر واتساعه ، والرخاء (بالضم) : الرخ اللينة .

(٢) احتسبت الرجل : اخترت ماعدته . والني هنا أنهم لم يعرفوا فيك هذا كأنهم اختبروه فلم يجدوه ينطوي على مثل ما قبل ، أو أنهم لم يشكروا في وجوده فيه فلم يفتشوا عنه .

(٣) الرسم : الطريقة وما خططته لنفسك لتسير على نهجه .

(٤) لثافة شطران : مقدم ومؤخر ، ولكل شطر خلفان (حلتا ندي) .

(٥) نقد (كنصر) : سألت كناشده ، قال في شرح القاموس : ولا يجيء بعدها إلا لفظ الواو والاستفهام والنهي والأمر ، وهذا هو المخاوف عليه أو جواب القسم .

(٦) حِذْثَان : جمع حِذْث ، وهو صرف البهر .

بعد الضيعة ، وظفرت بالولايات ، وخفقت فوقك الرّايات ، ووطئ عتيك الرّجال ،
وتعلقت بك الآمال ، وصرت تُكاثَرُ وتُكاثَرُ بك ، ونشير ونُشَارُ إليك ، ويُذكر على
النابر اسمك ، وفي المحاضر ذِكرُك ، فقيم الآن أنت من الأمر ؟ وما العوض عما عددت ،
والتخلف بما وصفت ، وما استفدت حين أخرجت من الطاعة فسك ، ونقصت منها
كفك ، وعمست في خلافها يدك ، وما الذي أظلك بعد انحسار ظلها عنك ؟ أظلل ذو
ثلاث شعب لا ظليل ولا يفتى من اللهب ؟ قل نعم . كذلك . فهو والله أكشف
خلالك في العاجلة ، وأزوحها في الآجلة ، إن أمت على الحايطة والعنود ^(١) ووقفت على
المُشاقّة والجُحود . . . تأمل حالك ، وقد بلغت هذا الفصل من كتابي فسنبكرها ،
والمس ^(٢) جسلك وانظر هل يحس ^(٣) وجس ^(٤) عرقك وانظر هل ينبض ؟ وقش
ما انحنت عليه أضلاعك هل تجد فيه قلبك ؟ وهل حلي ^(٥) بصدرك أن تقفر بفوت
سريح ^(٦) ، أو موت مريح . ثم قس غائب أمرك بشاهده ، وآخر شأنك بأوله . . .
روى الثعالبي عن بلكا ، وكان من آرب ^(٧) أمثاله أنه كان يقول : والله ما كانت حالي
عند قراءة هذا الفصل من كتابه إلا كما قال !

« ٢ »

وكتب ابن العميد أيضاً في غرض دقيق ، ومقام حرج ، إلى صديق تزوجت أمه على رغه:
الحمد لله الذي كشف عنا ستر الحيرة ، وهدانا لستر العورة ، وجذع بما شرع أف

(١) النود : مصدر عند (كنصر وجس وصم) بمعنى مال عن الشيء أو عرف الحق وجانبه .

(٢) لمر الشيء (كضرب وضمر) منه يده .

(٣) جس الشيء وبه (كنصر) وأحس كذلك : وجد حسه وشعر به .

(٤) جس الشيء (كنصر) : لسه .

(٥) قال الأصمعي قال حلي (كفرج) في معنى ، وحلا (كنصر) في في : أي وجدت حسه وحلاوته

(٦) الأمر السريح : العاجل الذي لا مطل فيه .

(٧) آرب : أعقل .

الغيرة ، ومنع من عَصَل^(١) الأمتهات كما منع من وأد البنات ، استنزالا للنفوس الأبية عن الحمية حمية الجاهلية ثم عَرَضَ للجزيل من الأجر من استسلم لواقع قضائه ، وعَوَّضَ جزيل الثواب والدُّخْرِ ، مَنْ صَبَرَ على نازل بلائه . وهناك الله الذى شرح للتقوى صدرك ، ووسع فى البلوى صبرك ، ما ألهمك من التسليم لمشيئته ، والرضا بقضيته ، وما وفقك له من قضاء الواجب فى أحد أبويك ، ومن عَظُمَ حقُّه عليك . وجعل الله تعالى جدَّه^(٢) ما تجرَّعته من أُنْفٍ ، وكَظَمْتَهُ من أَسْفٍ ، معدودا فيما يُعْظَمُ عليه أجرك ؛ وَيَجْزُلُ^(٣) به ذُخْرُك ، وَقَرَنَ بال حاضر من امتاعك لفعلا ، المنتظر من أرتماضك^(٤) لدفعها ، فَتَسْتَوِي فِيهَا المصيبة ، وتستكملُ عنها الثُّوبَةَ ، فوصل الله لسيدى ما استشعره من الصبر على عُرْسها^(٥) بما يَسْتَكْسِبُهُ من الصبر على نَفْسها ، وعَوَّضَهُ من أسيرة قَرْشها ، أعواد نمشها . وجعل تعالى جدَّه ما ينعم به عليه بعدها من نِعَمِهِ ، معرى من نِقَمِهِ . وما يؤليه بعد قبضها من مَنَحِهِ مُبَرَّأً من مَحَنِهِ ، فأحكام الله تعالى جدَّه ، وتقَدَّستْ أسماؤه جاريةً على غير مُراد المخلوقين ، ولكن الله تعالى يختار لعباده المتقين ما هو خير لهم من العاجلة ، وأبقى لهم فى الآجلة . اختار الله لك فى قبضها إليه ، وقدمها عليه ما هو أنفع لها وأولى بها ، وجعل القبر كفوا لها والسلام .

[الصاحب بن عباد] : لزم ابن العميد وعرف بصحبته وُسْمَى الصاحب ، ثم حل محله عند بنى بويه ، فكان وزير مؤيد الدولة أحد ملوك بنى بويه ، ثم بق مع أخيه فخر الدولة لما حل محله ، وبقى مبعجلا عنده نافذ الأمر حتى مات بالرى سنة ٣٨٥ هـ .

(١) العَصَل : منع التزويج .

(٢) الجد : العظمة .

(٣) جزل (ككرم) : صار عظيما .

(٤) الارتماض : التوجع والحرق واشتداد الأمر .

(٥) العروس : المرأة والرجل ماداما فى أعراسها ، وجمه للرجل عرس ، وللرأة عرائس .

« ٣ »

كتب من رسالة بعث بها إلى ابن العميد جواباً عن كتابه إليه في وصف البحر :
وصل كتاب الأستاذ الرئيس صادراً عن شط البحر بوصف ما شاهد من عجائبه ،
وعاين من مراكبه ، ورآه من طاعة آلائه للرياح كيف أدارتها ، واستجابة أدواتها لها
متى نادتها ، وركوب الناس أشباحها^(١) ، والخوف برأى ومسمع ، والمنون بمزقب
ومطلع ، والدهر بين أخذ وترك ، والأرواح بين نجاة وهلك . إذا فكروا في المكاسب
الخطيرة هان عليهم الخطر ؛ وإذا لاحت لهم غرر^(٢) المطالب الكثيرة حُبب إليهم
الفرر^(٣) . وعرفت ما قاله من تمنيه كوني عند ذلك بمحصرتي ، وحصولي على مساعدته ،
ومن رأى بحر الأستاذ كيف يَرَحَر^(٤) بالفضل ، وتلاطم فيه أمواج الأدب والعلم ، لم
يَعْتَب^(٥) على الدهر فيما يُفَيْتُهُ من منظر البحر ، ولا فضيلة له عندى أعظم من إكبار
الأستاذ لأحواله ، واستغفامه لأهواله ، كما لا شيء أبلغ في مفاخره ، وأتقى جواهره ،
من وصف الأستاذ له ، فاني قرأت منه الماء السلسال ، لا الزلزال^(٦) ؛ والسحر الحرام
لا الحلال ، وقد علمت أنه كتب ولم يخطر بباله سعة صدره ، فلو فعل ذلك لرأى البحر
وَسَلًا^(٧) لا يفضل عن التبرص^(٨) وَتَمَدًا^(٩) لا يكثر عن الترشف^(١٠) .

- (١) أشباح : جمع شبح ، وهو شخص المي .
(٢) الفرر : جمع غرة ، وهي من كل شيء أحسنه .
(٣) الفرر : اسم مصدر ، من غرر بنفسه إذا عرضها للهلاك .
(٤) زحر (كتح) البحر : طفا وتعلأ .
(٥) هتب (كتمر وضرب وفرح) : لام . واستمتبه : أرضاه أو طلب منه أن يرضيه (ضد) .
العتب (بالكسر) : الكثير العتاب . العتوب : من لا يصل فيه العتاب .
(٦) المراد بالزلزال ماء البحر ، لأنه باضطرابه يزلزل ما حوله . أما الزلزال بكسر الزاي فهو المصدر
بمعنى الزلزال . وهكذا كل ما كان على هذه الصيغة من مضعف الرباعي فهو بفتح أوله اسم فاعل
وبكسره مصدر .
(٧) الوشل . الماء القليل يتحلب من نحو صخرة أو جبل ولا يصل قطره .
(٨) التبرص : التبغ بالقليل . والبرصة : ماتلتت به من الماء .
(٩) التمد والتشاد : الماء القليل لامادة له .
(١٠) الترشف كال تبرص : أن يؤخذ قليلا قليلا .

وَكَمْ مِنْ جِبَالٍ جُئِبَتْ تَشْهَدُ أَنَّكَ السَّجِيالُ وَبَحْرٍ شَهِدَ أَنَّكَ الْبَحْرُ

« ٤ »

وكتب في مصحف أهدى إليه :

الير أدام الله الشيخ أنواع ، تَطَوَّلَ بِهِ أَنْوَاعٌ ^(١) ، وتقصّر أبواع ، فإن يكن فيها ما هو أكرم مَنْصِبًا ^(٢) وأشرف مَنْسَبًا ^(٣) ، فتخفة الشيخ إذ أهدى إلى ما لا تشا كله النِّسَم ، ولا تعادله القِيم : كتاب الله وبيانه ، وكلامه وفرقانه ^(٤) ، ووحيه وتنزيله ، وهُدايه وسبيله ، ومعجزة رسول الله صلى الله عليه ودليله . طَبَعَ مِنْ دُونِ مَعَارِضِهِ عَلَى السَّهَاءِ ، وَخَتَمَ عَلَى الْخَوَاطِرِ وَالْأَفْوَاهِ ، فَقَصَّرَ عَنْهُ الثَّقَلَانِ ^(٥) ، وَبَقِيَ مَا بَقِيَ الْمُلَوَّنِ ^(٦) ، لِأَمْحِ سِرَاجِهِ ، وَاضْحَ مِنْهَا بِه ، مُنِيرٌ دَلِيلُهُ . عَمِيقٌ تَأْوِيلُهُ ، يَقْصِمُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ ^(٧) وَيُذِلُّ كُلَّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ، وَفَضَائِلُ الْقُرْآنِ لَا تُحْصَى فِي أَلْفِ قُرْآنٍ ^(٨) ، فَأَصِفْ الْخَطَّ الَّذِي يَهْرَ الطَّرْفُ ، وَفَاقِ الْوَصْفِ ، وَجَمِّعْ صِحَّةَ الْأَقْسَامِ ، وَزَادِ نَحْوَةَ الْأَقْلَامِ ، بَلْ أَصْنَفْ بِتَرْكِ الْوَصْفِ . فَأَخْبَارُهُ آثَارُهُ ، وَعَيْنُهُ قِرَائُهُ ^(٩) . وَحَقًّا أَقُولُ : إِنِّي لَا أَحْسِبُ أَحَدًا مَخْلَا لِلْمُلُوكِ جَمْعَ مِنَ الْمَصَاحِفِ مَا جَمَعْتَ ، وَابْتَدَعَ فِي اسْتِكْتَابِهَا مَا ابْتَدَعْتَ ، وَإِنْ هَذَا الْمَصْحَفُ لَزَائِدٌ عَلَى جَمِيعِهِمَا زِيَادَةُ الْقُرْعَةِ ^(١٠) عَلَى الْفُرْعَةِ ، بَلْ زِيَادَةُ الْحِجِّ عَلَى الْعُمْرَةِ :

(١) الباع : مقدار ما بين اليدين إذا مدتا .

(٢) المنصب : الأصل والمرجع والفعل كضرب .

(٣) ليه (كضرب ونصر) : ذكر ليه .

(٤) الفرقان : كل ما فرق بين الحق والباطل . ويطلق على التوراة والقرآن وهو المراد هنا .

(٥) الثقلان : الجن والإنس .

(٦) الملوان : الليل والنهار ، والواحد ملا .

(٧) مرید : عات .

(٨) قرآن الثانية بمعنى مقروء .

(٩) فر الباءة : كشف أسنانها ليعرف عمرها . والمعنى أن ظاهره دليل عليه ، واليه هنا ذات الصم .

(١٠) فرعة الصم : أعلاه . وفرقة : أوله ومقدمه .

لَقَدْ أَهْدَيْتَهُ لُطْفًا نَفْسًا وَمَا يُهْدَى النَّفْسُ سِوَى النَّفْسِ

[أبو إسحق الصَّابِي^(١)] : نشأ يتعلم الطب على غير رغبته ، وما زال حتى توفر على الأدب ، واتصل بالوزير المُهَلَّبِيَّ وزير عز الدولة فولاذ ديوان الرسائل ، وكان ينوب عنه في أعمال الوزارة حين يغييب ، وقد سجن طويلا لحقد^(٢) عضد الدولة عليه . ثم عفا عنه فبقى بقية حياته لا يكتسب أنفة منه حتى مات سنة ٣٨٤ هـ ، وكان مع صابئته يحفظ القرآن ويصوم مع المسلمين رمضان .

« ه »

كتب إلى بعض أصدقائه يستمحيه حين أساءت إليه الأيام :

ولما صارت صروف الدهر تَوَعَّلُ بعد التَّطَرُّفِ^(٣) ، وتُجْحِفُ^(٤) بعد الضَّعِيفِ^(٥) ،
وصادف ما تجدد على في هذا الوقت منها أشلاء^(٦) منى منهوكة ، وأعظم ما مبرية .
وحشاشة مُشْفِيَّةٌ وبقية مُودِيَّةٌ ، جعلت أختار الجهات ، وأعتام^(٧) الجنبات^(٨) لأتحو
منها ما لا يُعَاب سائله إذا سأل ، ولا يُحْيِبُ أمله إذا أمل ، وكان سيدي أولها إذا عددت ،

(١) الصابئة ، قيل هم عباد الكواكب ، وقيل هم قوم بين النصارى والمجوس . وقال الزعفراني : هم قوم صبنوا عن دين النصارى ودين اليهود وعبدوا الملائكة ، وقيل هم يمدون الأجرام السماوية والنار .
(٢) كان الصابي يكتب عن عز الدولة من يختار من مز الدولة وربما كانت تصدر عنه رسائل إلى عضد الدولة وفيها ما يؤلم فلما ملك عضد الدولة ينداد بعد قتل عز الدولة اعطاه وكلفه في السجن أن يكتب تاريخ بني يويه . وقيل لعضد الدولة إن صديقا للعاصي دخل عليه وهو يميل في الكتاب فقال له هذه أباطيل أعفها وأكاذيب ألقها فهاج عقل عضد الدولة فأبده وما زال مجعدا طول مدته .

(٣) طرقت الناقة : رعت أطراف المرعى ولم تختلط بالتوق كتنطرت .

(٤) أجهف بالشيء : ذهب به .

(٥) التجيف : التنقص من الأطراف .

(٦) لأشلاء : جمع شلاء وهو العضو .

(٧) اعتام : أخذ النيمة وهي الحيار .

(٨) الجنبات : جمع جنبه ، وهي الناحية .

وأولاهما إذا أعتدنتُ ، وكتبت كتابي هذا بيد يكاد وجهي يَنْظُمُ منها إذ تَحُطُّ .
إشفاقا على مائه مما يُرِيْقُهُ ، لولا الثقة بأنه يَحْفَرُ مياه الوجوه ويَحْمِيهَا وَيُجَمِّعُهَا^(١)
ولا يُقْدِيهَا .

« ٦ »

وكتب أبو إسحق إلى الصاحب بن عباد يعتذر عن تأخر كتبه ويثني عليه :
أنا أعتذر إلى سيدي أطلال الله بقاءه من تأخر كتبي عن حضرته الجليلة ، بمنزلة إذا
تأملته حقَّ تأمله ، وعرضه على نقده وتمييزه ، وعرف صدق منطقته ، وخلوص مَصْدَرِهِ
علم أنني مواسلٌ بباطن مرادى ، وإن صرمتُ بظاهر فعلى ، وملازمٌ بخافى مقصدى ،
وإن أخلتُ ببادى مسلكى ، وهو أنى جَرَبْتُ مكاتبته أيد الله موافقاً عليها
مُكْتَباً^(٢) ، ومراحياً بين أوقاتنا مُعَيَّاً^(٣) لأتبع أَحَبَّ الأمرين إليه ، وأوقعهما لديه ،
فلما لاح لى أن الإجماع أنفق ، والترفية أوفق ، وَوَقِفْتُ بأن رأيه على فى الحاليف
محروسٍ النواحي والجوانب ، تحمى الشرائع والمشارب ، اقتصرت على أن أتصرف أخباره ،
وأُسَرَّ باستقامتها وانتظامها . وأتَنَسَّم أحواله وأسكنُ إلى إطرادها والتثامها . وأُتَبَّح بما
يصير إليه أيد الله من ذروة مرتبة يَمْتَلِكُهَا ، وغارب مَرَقَبَةٌ يَمْتَلِكُهَا ، وأن أدلَّ للتحديثين
عنهما ، والسامعين بهما ، على أنه لم يستوف بعدُ حَظَّهُ ، ولم يستوعب قِطْعَهُ ، فإن للدنيا
مواعيد^(٤) فيه ، لا بد أن يَنْتَجِزَها بمساعيه . . .

« ٧ »

كتب رجل إلى محمد بن عبد الله :

-
- (١) أجم البئر ، تركها ليتجمع ماؤها . وجت هى تجم جاً وجاماً (يفتح الجيم فيها) .
(٢) كبه على وجهه (كنصر) ، صرعه فأكب . وهذا نادر أن يكون الثلاث متدياً والرباعى لازماً
(٣) أغب ، آتى غبا وهو فى الزيارة أن تكون كل أسبوع ، وفى الورد ان ترد يوما ونظماً يوما ، وفى
الجمي أن تجيء يوما وتذيع يوما .
(٤) مواعيد ، جمع موعود .

إن من النعمة على اللئى عليك ألا يخاف الإفراط ولا يأمن التقصير ، ولا يحذر أن تلحقه قتيصة الكذب ، ولا ينتهى من المدح إلى غاية إلا وجد من فضلك عوناً على تجاوزها . ومن سعادة جَدِّكَ أن الداعى لك لا يَتَّكِم كثرة السادحين ومساعدة من النية على ظاهر القول .

نماذج من كلام البلغاء

فى المدة الثالثة من العصر العباسى

[أبو على عبد الرحيم] بن القاضى الأشرف البَيْهَسَانِي^(١) اللّخْمِيّ العربى كاتب الديار المصرية أواخر أيام الدولة الفاطمية ، وأوائل الدولة الأيوبية المعروف بالقاضى الفاضل المتوفى بالقاهرة سنة ٥٩٦ هـ .

« ١ »

كتب على لسان خطيب عَيْذاب^(٢) إلى صلاح الدّين يتشفع له فى توليه خطابة الكرك^(٣) قال :

أدام الله السلطان الملك الناصر وثبته . وتقبّل عمله بقبول صالح وأثبتته ، وأخذ علوه قائلاً أو يثبتته ، وأرغم أفعه بسيفه وكبته .

خدمة^(٤) للملوك هذه واردة على يد خطيب عَيْذاب ، ولما نبأ به للنزل عنها وقلّ للرفق^(٥) منها ، وسمع هذه الفتوحات التى طَبَّقَ الأرض ذكرها ، ووجب على أهلها

(١) بيسان ، مدينة بالأردن بالقرب الشامى .

(٢) عَيْذاب ، من بلاد مصر على شاطئ البحر الأحمر وهى قبال جدة من بلاد الحجاز .

(٣) الكرك ، بلدة بلسف جبل لبنان وهى خلاف الكرك (بالنعريك) وهى قلعة بنواحى البلقاء .

(٤) الخدمة ، المراد بها الرسالة .

(٥) المرفق الاتضاع .

شُكْرُهَا ، هاجر من هَجِير عَيْذاب وبلغها ، سارياً في ليلة كلها نهار ، فلا يسأل عن صُجْعِهَا ، وقد رَغِبَ في خطابة السَّكْرُك وهو خطيب ، وتوسل بالملوك في هذا الملتبس وهو قريب ، وتَزَعَّ من مصر إلى الشام وعن عَيْذاب إلى السَّكْرُك وهذا عجيب ، والفقْرُ سائقٌ عَنيفٌ ، والمذكور عاقلٌ (١) ضعيف ، ولَطْفُ اللَّهِ بالخلق بوجود مولانا لطيفٌ ، والسلام .

« ٢ »

وله يصف حمام الرِّسَالِ :

تَحْمِلُ من البطائق أجنحةً . وتُجَهِّزُ جيوشَ المقاصد ، والأقلام أسلحة ، وتحمل من الأخبار ما تحمله الضمائر ، وتطوى الأرض إذا نشرت الجناح الطائر ، وتكون مراكب الأغراض والأجنحة قُلُوبًا ، وتركب الجوَّ بحرًا يُصَنِّقُ فيه هبوبُ الرياح موجاً مرفوعًا ، ومن بلاغات البطائق استفادت ما هي مشهورة به من السجع ، ومن رياض كتبها أَلِفَتْ الرِّيَاضَ ، فهي إنباء دائمة الرِّجَم ، وقد سكنت النجوم فهي أنجم . وأَعِدَّتْ في كُنائِهَا فهي أُمَمٌ ، وكادت تكون ملائكة لأنها رسل نيطت بها الرِّقَاع ، فصارت أولى أجنحة مَنَعْنَى وثلاثَ ورُبَاع ، وقد باعد الله ما بين أسفارها وقَرَّبَهَا . وجعلها طَيْفَ خيال اليقظة الذي صَدَّقَ الدينَ وما كَذَّبَهَا (٢) تَرْغِمُ أنف النوى بتقريب المهود ، وتكاد الميون بملاحظتها تلاحظ نَجْمَ السَّعُود ، وهي أنبياء الطيور لكثرة ما تأتي به من الأنباء ، وخطاباؤها لأنها تقوم على منابر الأغصان مقام الخطباء .

« ٣ »

وله عن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى بعض الأمراء

(١) عاقل ، اما معناه ذوعقل وفهم ، أو هو من عقل الدية إذا ظاهرها بدل الجاني ومنه العاقلة وهم عصبة الرجل لأنهم يقلون عنه . والمراد بكونه عاقلا أنه ذو أسرة يضمن لهم الرزق ويقوم بأمورهم .

(٢) أي جعلها سادقة غير كاذبة .

بالشام عند وفاة السلطان نور الدين محمود : وهي :

كتابنا هذا إلى الأمير مُعزِّين بالرزء الذي كَمَلَتْ أقسامه وتمت ، ورمَتْ أحداثه القلوب فأَصَحَّتْ . وطَرَقَتْ أحاديثُه الأسماع فأَصَحَّتْ ، وأبَى أَنْ تَعُوَّ كلومه ، وكاد لأجله الأفق تنكسف بدوره ، وتَنَكِّدُ نجومه ، وتُلم جانب الدين لفقده من لولاه لَدَرَسَتْ^(١) أعلامه ، ولم تُدْرَسْ^(٢) علومه ، ونجا فاستولى على كلِّ قلب وجيبه ، وعلى كلِّ خاطر وجُوهه . بانتقال المولى « نور الدين » إلى سكنى دار السلام ، وقدمه على ما أعدّه الله له من جزاء ذبّه عن الإسلام ، وبكى أهله على فقد عزائمه التي بها حُفِظَتْ وحُرِّسَتْ ، وشَكَتِ الممالك وَخَنَةَ بُعْده وإن ابتهجت الملائكة بقربه وأنست ، فقله هو !! من مصاب أغرى العيون بَفَيْضِها ، وشَلَّ الأولياء من المسرة ونعيمها إلى المساءة وقَيْظِها ، وأوجبَ تناجى الكفار بالنجاة من تلك السَّطْوَةِ التي لم تَزَلْ تَرِيدُها غما وترُدُّها بغيظها . . .

ومنهين بما أسأ الكَلَمَ ودأواه ، وحوى الحق إلى الجانب الأمتع وآواه . من جلوس ولده للملك الصالح ذى التصويب والتسديد مشمولاً منا بالعرف والنعم والطول الجسم ، جارياً على سننه المعهودة ، وعاداته المحمودة في رفع صالح أَدْعِيَتِهِ ، عن صفاء سريره ، وخلوص عقيدته ، مستمراً على جميل تحيته . في إمدادنا ببركته إن شاء الله تعالى .

« ع »

[وقال عماد الدين الأصبهاني : في كتابه : « الفتح القسِّي ، في الفتح القدسي » ، يذكر فتح عكَّاء :

ورحل السلطان ظُهِرَ يوم الثلاثاء ظاهر^(٣) على أهل التثليث ، مُدْبِلًا^(٤) للطَّيِّب

(١) درس الرسم : عفا .

(٢) من الدراسة ، وهي تفهم العلم ومراجعتها .

(٣) ظاهراً : متقبلاً .

(٤) مدبلاً : ناصراً .

مُزِيلًا لِلخَيْث ، وسار عسكره ، وثار عَشِيرُهُ ^(١) ، وَظَهَرَتْ رَايَاتُهُ ، وَبَهَرَتْ آيَاتُهُ ، وَتَعَرَّتْ كُوسَاتُهُ ^(٢) ، وصاحت بوقاته ، وجالت خيوله ، وسالت سيوله ، وَطَلَّتْ فِي سَمَاءِ الصَّبَاحِ نَجْمُ خُرْصَانِهِ ^(٣) ، وَقَلَّتْ قَلَائِحُ ^(٤) تِلْكَ الْجِبَالِ جِبَالُ فُرْسَانِهِ ، وَحَفَرَتْ حَوَافِرُ الْعَبَادِمِ ^(٥) أَصْلَابَ ^(٦) الصَّلَادِ ^(٧) وَالصَّلَابِ ^(٨) ، وَفَصَّحَتْ بِأَعْرَابِ الْحَمَاحِمِ ^(٩) صَوَاهِلُ الْجِيَادِ الْعَرَابِ ، وَالْأَسِنَّةُ مُسْرِعَةٌ ^(١٠) ، وَالْأَعِنَّةُ مُسْرِعَةٌ . وَبَحُورُ السَّوَابِحِ مَتَوَجَّةٌ مُتَرَجِّجَةٌ ، وَبَوَارِقُ الْبِمَارِقِ مُتَبَوِّجَةٌ ^(١١) ، وَأَوْضَاحُ الْجُرْدِ وَغُرُهَا كَأَوْضَاحِ النَّصْرِ وَغُرِّهِ مُتَبَلِّجَةٌ ، وَنَزَلَ عَشِيَّةً بِأَرْضِ لُؤَيَّةٍ لِدَاعِي الْفَتْحِ مُبَلِّغًا ، وَلِجَيْشِ النَّصْرِ مُعَبِّغًا ، وَلِمَوْلُودِ الْمَلِكِ الْقَتْمِ بِتَلْقِيحِ الْحَرْبِ الْقَوَانِ مُرَبِّغًا ، وَبَاتَ بِهَا بُعْرَسًا بَانِيًا عَلَى عُرُوسِ الظَّفَرِ الْبِكْرِ ، جَانِيًا ثَمَارَ الْأَمَانِي مِنْ غُرُوسِ الْبَيْضِ وَالشَّمْرِ ، وَأَصْبَحَ وَقَدْ أَحْمَبَ جَمَاحُ الْهَمْرِ ، وَصَحَّ نَجَاحُ الْأَمْرِ .

« ٥ »

كتب القاضى الفاضل إلى بعض إخوانه يستوحش منه ويتشوق إليه ، (وقد أكثرنى الكتاب من الاستشهاد بالشعر) :

فِيَارِبَ إِنْ الْبَيِّنَ أَضَحَّتْ صُرُوفُهُ عَلَى وَمَالِي مِنْ مُعِينٍ فَكُنْ مَعِي

(١) البثر : التراب ، والعباج (النبار) .

(٢) الكوس : الطبل (مرب) .

(٣) الخرصان (يضم الحاء وكسرها) : جمع خرص (مثنية) وهو الرمح .

(٤) القلائع : لملها جمع قلاع وهي جمع قلعة ، وهي الحصن في الجبل .

(٥) الصلادم : جمع صلدم ، وهو الفرس الشديد الحافر .

(٦) أصلاب : جمع صلب ، وهو عظم الظفر من لدن الكعكل إلى العقب .

(٧) الصلاد : جمع صلد ، وهو الصلب الأملس (يريد الحجارة الشديدة) .

(٨) الصلاب : جمع صلب بمعنى الشديد .

(٩) الحامح : جمع حمسة وهي مرّ الفرس (صوته) حين يقصر في الصهيل ويستعين بنفسه .

(١٠) شرع الرجل الرمح وأشرعها : سددها نحو القرن .

(١١) تبوّج البرق : تكشف .

على قُرْبِ عُدَالِي وَبُعْدِ أَحَبِّي وَأَمْوَاهِ أَجْفَانِي وَبَيْرَانِ أَضْلَمِي
هذه تحية القلب المذنب ، وسريرة الصبر المذنب ، وظلمة عزم الشاؤم المكذب ،
أصدرتها إلى المجلس ، وقد وقَد في الحشا ناراها : الزفير أوارها ، والدُموع شرارها ،
والشوق أنارها ، وفي القواد نازرها :

لَوْ زَارَنِي مِنْكُمْ خَيَالُ هَاجِرٍ لَمَسَدَتْهُ فِي ظُلُمَاتِهِ أَنْوَارُهَا
أسفاً على أيام الاجتماع التي كانت مواسم السرور والأمرار ، ومباسم الثغور والأوطار ،
وتذكراً لأوقات عَذْبَ مَذَاقِهَا ، وامتد بالأنس رواقها :

وَاللَّهِ مَا نَسِيتُ نَفْسِي حَلَاوَتَهَا فَكَيْفَ أَذْكُرُ أُنَى الْيَوْمِ أَذْكُرُهَا
وقد فارت الجناب ، لازال جنباه نضيراً ، وسناسنائه مستطيراً ، وملكه في الخافقين ^(١) خافق
الأعلام ، وعزّه على الجديدين جديد الأحيام ، لم أف من على كتاب تحلف سطوره
ما غسل الدمع من سواد ناظري ، ويقدم بياض منظومه ومنشوره ما وزعه التبن من
سويداء خاطري :

وَلَمْ يَبْقَ فِي الْأَحْشَاءِ إِلَّا صَبَابَةٌ مِنَ الصَّبْرِ تَجْرِي بِالدُّمُوعِ الْبَوَادِرِ
وأسأله المناب بشريف الجناب ، وأداء فرض تقبيل الأرض ، حيث تلتقي أمور الدنيا
والآخرة ، وتعمُر البيوت العامرة المَنّ الغامرة ، وفضل الظل غير منسوخ به حيره ،
ويُسّر الجُدُ بشخص لا تسمع الدنيا بنظيره :

تَظَاهَرَ فِي الدُّنْيَا بِأَشْرَفِ ظَاهِرِهِ فَلَمْ تَرَ أَنْتَقَى مِنْهُ غَيْرَ ضَمِيرِهِ
كَمَا نَى خِرّاً أَنْ أُسَمِّيَ بَعْدَهُ وَحَسْبِي هَدِيّاً أَنْ أُسَيَّرَ بِبُورِهِ
فَأَيُّ أَمِيرٍ لَيْسَ يَشْرَفُ قَدْرُهُ إِذَا مَا دَعَاهُ صَادِقاً بِأَمِيرِهِ

« ٦ »

ومن ذلك أيضاً قوله :

(١) الخافقان : المشرق والغرب أو أقطابها لأن الليل يخطفان فيها .

وصل من الحضرة :

كتاب به ماء الحياة ونفعه السحيا فكأنى إذ ظفرت به الحضرة

فوقفت عنده منه على :-

عُفُودُ هِيَ الدُّرُّ الَّتِي أَنْتَ بِحُسْرُهُ وَذَلِكَ مَا لَا يَدْعِي مِنْهُ الْبَحْرُ
وَرَسَتْ مِنْهُ فِي :

رِيَاضِ يَدَيْ تَجْنِي وَعَيْنِي وَخَاطِرِي نَسَاقٍ فِيهَا النُّورُ وَالزَّهْرُ وَالشُّعْرُ
[أبو محمد القاسم بن علي] الحريري البصري له المقامات الحسنون التي عرفت شأنها.
ولسنا بصد أن ننقل لك منها نماذج ، فإنها بم تناول كل طالب ، وقد شاعت مطبوعة
في مصر منذ عهد بعيد . ولكننا نذكر لك أنها تمثل كتابة عصرها من التزام السجع
والكوف على البديع ، ولذلك سننقل هنا ما أظهر فيه الحريري براعته في التلاعب
بالألفاظ ، وعنايته بأنواع البديع من أحاج ، ونضمين للأشعار والأمثال .

« ٧ »

قال في القامة الرابعة والعشرين القطيعية^(١) ، وهي التي تتضمن إلقاء أبي زيد على
جلسائه مسائل مُلغزة في النحو :

قَالَ فَأَمَّا إِذَا دَعَوْتُمْ نَزَالَ ، وَتَكَبَّيْتُمْ لِلنِّضَالِ . فَمَا كَلِمَةٌ هِيَ إِنْ شِئْتُمْ حَرْفٌ
مَحْبُوبٌ أَوْ اسْمٌ لَهَا فِيهِ حَرْفٌ حَلُوبٌ ، وَأَيُّ اسْمٍ يَتَرَدَّدُ بَيْنَ فَرْدٍ حَازِمٍ ، وَجَمْعٍ مَلَزِمٍ ،
وَأَيُّهُ هَاءٌ إِذَا تَحَقَّتْ أَمَاطَتُ الثَّقَلِ ، وَأُطْلِقَتْ لِمُتَقَلِّ ، وَأَيْنَ تَدْخُلُ السِّسِينَ فَتُعْزَلُ
الْعَامِلُ ، مِنْ غَيْرِ أَنْ تَجَامَلَ ، وَمَا مَنْصُوبٌ أَبْدَأُ عَلَى الظَّرْفِ ، لَا يَخْفَضُ سِوَى حَرْفٍ ،
وَأَيُّ مَاضٍ أَخْلَ مِنْ عَرَى الْإِضَافَةِ بِمُرُوءَةٍ ، وَاخْتَلَفَ مَعْنَاهُ بَيْنَ مَسَاءٍ وَغُدُوَةٍ ،
وَمَا الْعَامِلُ الَّذِي يَقْتُلُ آخِرَهُ بِأَوَّلِهِ ، وَيَعْمَلُ مَعْكُوسَهُ مِثْلَ عَمَلِهِ . . الخ .
أَرَادَ بِالْكَلِمَةِ الَّتِي هِيَ حَرْفٌ مَحْبُوبٌ أَوْ اسْمٌ لَهَا فِيهِ حَرْفٌ حَلُوبٌ . كَلِمَةُ «نَم» ،

(١) نسبة إلى قطيعة الربيع ، وهي محلة بينقاد .

فهي حرف جواب ، ثم هي اسم يطلق على الإيل وفيها الحرف ، وهي الناقة الضامرة .
وأراد بالاسم المتردد بين فرد حازم وجمع ملازم ، كلمة سراويل ، فهي مفرد على
بعض الآراء وجمع على رأى آخر ، ومعنى حازم أنه يربط على الخصر ، ومعنى ملازم أنه
لا ينصرف .

وأراد بالماء التي إذا التفتحت أمطت الثقل ، وأطلقت المعتقل . الماء اللاحقة
الجموع مثل صياقة وصياقلة ، فإن الكلمة بدونها ممنوعة من الصرف فهي ثقيلة وبها
تخف فتصرف .

وأراد بالسين التي تعزل العامل ، من غير أن تجامل : السين الداخلة على المضارع
وتفصل بينه وبين أن التي كانت قبلها ناصبة ، ثم صارت مخففة من الثقيلة
فارتفع الفعل .

وأراد بالنصوب على الطرف لفظ عند فهي لا تجر إلا بمن . وأراد بالمضاف الذي
أخل من عرى الإضافة بعروه ، واختلف حكمه بين مساء وغدوة . لفظ لن التي
تضاف دائماً ، ولكن إذا وقعت بعدها كلمة غلوة نصبت بها ونونت يقال لن غدوة .
وأراد بالعامل الذي يعمل معكوسه عمله حرف يا ومعكوسها أى وكلاهما للنداء .

« ٨ »

ومن مقاماته التي أبدع فيها وتلاعب بالألفاظ والحروف القائمة السادسة المراجعة
(نسبة إلى المراجعة وهي موضع بأذربيجان) ، وهي تتضمن الرسالة التي إحدى كلماتها
معبجة والأخرى مهجلة جاء فيها :

الكرم ثبت الله جيش سعورك زين . واللؤم غصّ الدهر جفن حسودك يشين ،
والأروع^(١) يثيب ، والمُور^(٢) يخيب ، والحلال^(٣) يضييف ، والماحل^(٤) يخيف ،

(١) الأروع : الساجد الجميل الذي يروعك جماله .

(٢) المور ، الفحيح الفعل .

(٣) الحلال : السيد الركين الرزن .

(٤) الماحل : الواثق الماكر .

والسح يُفْذَى^(١)، وَالْحَكَّ يُفْذَى^(٢)، والعطاء يَنْجَى، والمطال يُشْجَى، والدعاء يَنْقَى،
والمَدَحُ يَنْقَى، والحَرَّ يَحْزَى، والإِلْطَاطُ^(٣) يُحْزَى، واطراح ذى حرمة غَيٌّ، ومحرمة
بَنَى الآمالَ بَقَى. وما ضن إلا غَيْن^(٤)، ولا غَيْن إلا ضَيْن... الخ.

« ٩ »

ومنها المقامة السادسة عشرة المغربية^(٥)، وهى التى تتضمن العبارات التى تقرأ
طرداً ورداً. قال فيها: فابتدر لمنعتى، صاحب ميمتى وقال: (لَمْ أَخَاطَلْ)، وقال
ميامنه: (كَبَّرَ رَجَاءَ أَجْرِ رَبِّكَ)، وقال الذى يليه: (مَنْ يَرْبُّ إِذَا بَرَّ نَيْمٌ)،
وقال الآخر: (سَكَّتْ كُلُّ مَنْ نَمَّ لَكَ تَكْسِمْ) الخ.

« ١٠ »

ومنها المقامة السابعة عشرة القهقرية، وهى التى تتضمن الرسالة التى تقرأ من أولها
بوجه ومن آخرها بوجه قال فيها:

الإنسان صنعة الإحسان، وربُّ^(٦) الجليل فعل الندب^(٧)، وشيعة الحرّ ذخيرة
الحمد، وكسب الشكر استمارة السعادة، وعنوان الكرم تبشير البشر، واستعمال

١) يقال غنوة كغذته . والجوهري أنكره لأنه لم يعرفه كما يقول صاحب القاموس المحيط .

٢) الخلل: البخل اللجوج .

٣) الإلطاط: جحود الحق .

٤) الفين: ضعيف الرأي .

٥) مميت مغربية لأن حادتها جرت في بعض بلاد المغرب .

٦) الرب: التزينة والتنمية .

٧) الندب: الخفيف في الحاجة .

المدارة يوجب المصافاة ، وعقد^(١) الحجة يقتضى النصيح ، وصدق الحديث حلية الإنهان
وفصاحة المنطق سحر الألباب ، وشرُّ الهوى آفة النفوس ، ومثلُ الخلائق شَيْنُ
الخلائق^(٢) ، وسوء الطمع يُبين الرِّع ، والتزام الحزامة زمامُ السَّلامة ، وتطلب المثالب
شرُّ المعاييب ، وتنبُّع العثرات يُدحضُ المودات ، وخُوصُ النية خلاصةُ العطية ، وتهنئةُ
النوال^(٣) ثمن السؤال ، وتسكُّف السكِّف^(٤) يُسهِّل الخلف ، وتيقُّن المعونة يُسني
المثونة^(٥) ، وفَضْل الصِّدْر سعة الصِّدْر^(٦) ، وزينةُ الرعاة ، تمتُّ السَّعة ، وجزاء المناطح
بَثُّ المناطح ، ومَهْرُ الوسائل تشفيغ^(٧) المسائل ، ومجلبة الغواية استغراق الغاية ،
وتجاوز الحدِّ بِكُلِّ الحدِّ ، وتعدى الأدب يُحيطُ القُرب ، وتناسى الحقوق ينشئُ
الغفوق ، وتماشى الرِّيب يرفع الرُّتب ، وارتفاع الأخطار باقتحام الأخطار ، وتَنَوُّه
الأقدار بمواتاة الأقدار ، وشرف الأعمال في قصير الآمال ، وإطالة الفكرة تنفيح
الحكمة ، ورأس الرِّئاسة تهذب السياسة ، ومع اللِّجاجة تُلغى الحاجة ، وعند الأوجال
تنفاضل الرجال ، وبتفاضل الهِمَم تنفاوت القيم ، وبتزيد السفير يهِنُ التدبيز ،
وبخل الأحوال تبين الأهوال ، وبموجب الصِّبر ثمرة النصر ، واستحقاق الإحَاد^(٨)
بحسب الاجتهاد ، ووجوب الملاحظة كِفَاء المحافظة ، وصفاء الموالى^(٩) بتمهيد الموالى ،
وتَحَلَّى المروءات بحفظ الأمانات ، واختبار الإخوان بتخفيف الأحران ، ودفعُ

(١) عقد الحجة : رابعتها .

(٢) الخلائق الأولُ الناس . والثانية الصفات والأخلاق .

(٣) أى أن تحمل السائل بها بما أعطيته هو ثمن لبذل ما وجهه بالسؤال .

(٤) أى احتمال الشقة يسهل لك الجزاء عليها .

(٥) ينى : يسهل أى التحقق من وجود المساعدة يسهل الثقة على صاحبها .

(٦) الصدر الأولى بمعنى الرئيس .

(٧) التشفيغ : قبول الشفاعة .

(٨) أى استحقاق أن محمد .

(٩) أى إخلاص المحب في محبته أن يمهّد موالى حبيبه .

الأعداء بكَفِّ الأَوْدَاء ، وامتحان العقلاء ، بمقارنة الجهلاء ، وتَبَشُّرِ العواقب يؤمن المعاطب ، واثقاء الشُّعْعة يَنْشُرُ السُّمُعة ، وقبح الجفاء ينافي الوفاء ، وجوهر الأحرار عند الأسرار ، فهدء مثاق لفظة ، تحتوى على أدب وعظمة ، فمن ساقها هذا المساق فلأحرار ولا شقاق ، ومن رام عكس قلبها وأن يردّها على عقبها فليقل : الاسراء عند الأحرار ، وجوهر الوفاء ينافي الجفاء ، وقبح السمعة ينشر الشُّعْعة . . الخ .

« ١١ »

جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري المتوفى سنة ٥٧٧ هـ .
كتب من مقالاته يندّد بالحرص والجشع في المال :

يا عبد الدينار والدرهم متى أنت عتيقهما . ويا أسير الحرص والطمع متى أنت طليتهما ، هيهات لا إعتاق إلا أن تكاتب^(١) على دينك المُمَزَّق ، ولا إطلاق ، أو تُفَادَى بِخَيْرِكَ المُلَزَّق . يا من يشبعه القُرْص ، ما هذا الحرص ، ويا من تُرويه^(٢) الجُرْع ، ما هذا الجزع . ستعلم غداً إذا تقدمت ، أن ليس لك إلا ما قدمت . وإذا لقيت المنون ، لم ينفعك مال ولا بنون . ما يصنّع بالتناطير المُقَنْطَرَة ، عابر هذه القنطرة . وما يريد من البهجة والفرحة ، نازل ظلّ هذه السَّرْحة^(٣) .

« ١٢ »

ومنها في حفظ اللسان :

من لم يحفظ ما بين فَكَّيْهِ ، ظلَّ يُقَلِّبُ كَفْيِهِ ، وبات يتلمل على دفيه ، حزناً على ما فرط فيه من التحفظ ، وأسفاً على ما فرط منه من التلطف ، ولو كان اللسان مخزوناً ،

(١) السكّابة : أن يشتري العبد نفسه من سيده بمال يدفعه له منجماً .

(٢) رواه وأرواه بمعنى .

(٣) السرحة: الشجرة العظيمة . والمراد أن مدة الدنيا مثل ظل شجرة لا يلبث أن يزول بتحول العيس

لم يكن الفؤاد محزوناً ، وقلماً يحرس مهجته ، من لا يحرص لهجته . ولن تجد على السرّ أميناً ، إلا من كان بكلّ أمانة قيناً .

« ١٣ »

ومنها في الحثّ على الجِدّة :

دَبَّرَ العاش والمعاد ، يازير سُلَى وسُعاد ، فليس من اعتاد المضاجع ، كن ارتاد
المناجع ، ولا من ألف الملاعب ، كن كلف المتاعب . الكيس متجلد متصلب ، فيما
يجدى عليه متقلب . والعاجز متقاعد متقاعس ، عما يجب فيه التيقظ متناعس ، فكس
يا كسلان في أمريك ولا تعجز ، ونصيبك من داريك فأحرز ، ولا تبغ في متصرفاتك
إلا طيب الحياة ، والقرب من النجاة .

نماذج الكتابة العلمية

في العصر العباسي

من أقدم الأمثلة في الكتابة العلمية ما كتبه الفقيه أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم
الأنصاري الذي كان أحد أصحاب الإمام أبي حنيفة النعمان وقاضى قضاة الرشيد ، كتب
إليه الرشيد أسئلة في أموال بيت المال وطرق تحصيلها ومواضع صرفها ، فكانت إجابة
القاضى كتاباً جليلاً في الفقه سمي : كتاب الخراج ، وهو مطبوع بمصر .

« ١ »

ومنه : ولا يؤاخذ أهل الخراج برزق عامل ، ولا أجر مدنى ، ولا احتفان ، ولا نزلة

ولاحمولة^(١) طعام السلطان ، ولا يؤخذ منهم ثمن صنف ولا قراطيس ، ولا أجور الفيوج^(٢) ، ولا أجور السكيالين ، ولا مئونة لأحد عليهم في شيء من ذلك ولا قسمة ولا نائبة سوى الذى وصفنا من المقاسمة ، ولا يؤخذ ثمن الأتبان ويقاسمون الأتبان على مقاسمة الخنطة والشعير كيلا أو تباع ، فينقسم ثمنها على ما وصفت من القطيع في المقاسمة ، ولا يؤخذ منهم ما قد يسمونه رواجاً للدرهم يؤدونها في الخراج ، فإنه بلغنى أن الرجل منهم يأتي بالدرهم يؤديها في الخراج فيقتطع منها طائفة ، ويقال هذا رواجها وصرفها ، ولا يضرب رجل في درهم خراج ، ولا يقام على رجله فإنه بلغنى أنهم يقيمون أهل الخراج في الشمس ويضربونهم الضرب الشديد ، ويلقون عليهم الجرار ، ويقيدونهم بما ينعمهم من الصلاة ، وهذا عظيم عند الله ، وشنيع في الإسلام .

وقال في شأن المسجونين : لا بد لمن كان في مثل حالهم إذا لم يكن له شيء يأكل منه لا مال ولا شيء يقيم به بدنه أن يجرى عليه من الصدقة ، أو من بيت المال . من أى الوجهين فلت ، فذلك موسع إليك وأحب إلى أن تجرى من بيت المال على كل واحد منهم ما يقوته فإنه لا يحل ولا يسمع إلا ذلك . والأسير من أسرى المشركين لا بد أن يطعم ويحسن إليه حتى يحكم فيه ، فكيف برجل مسلم قد أخطأ أو أذنب يترك يموت جوعاً ؛ وإنما حمّله على ما صار إليه القضاء أو الجهل .

« ٢ »

ومن كتاب سيبويه المتوفى سنة ١٨٣ هـ في النحو :

(هذا باب إضافة المنادى إلى نفسك) .

اعلم أن ياء الإضافة لا تثبت في النداء كما لم تثبت التنوين في المفرد لأن ياء الإضافة بمنزلة التنوين لأنها بدل من التنوين ، ولأنه لا يكون كلاماً حتى يكون في الاسم ، كما أن

(١) الحمولة : الأبل التي يحمل عليها .

(٢) الفيوج : الحراس .

التنوين إذا لم يكن فيه لا يكون كلاماً ، لحذف وترك آخر الاسم جزءاً ليفصل بين الإضافة وغيرها وصار حذفها هاهنا لكثرة النداء في كلامهم حيث استغنوا بالكسر عن الياء ، ولم يكونوا ليثبتوا حذفها إلا في النداء ، ولم يكن لبس في كلامهم لحذفها ، فكانت الياء حقيقة بذلك لما ذكرت لك إذ حذفوا ما هو أقلّ اعتلالاً في النداء ، وذلك كقولك : يا قوم لا بأس عليكم ، وقال عز وجل : « يَا عِبَادِ فَاتَّقُوا اللَّهَ » .

« ٣ »

قال الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ في كتابه : « الحيوان » تحت عنوان :
« القول في الحيات » :

الاهم جنبنا التكلف ، وأعدنا من الخطل ، واحمنا من العجب بما يكون منا ،
والثقة بما عندنا واجعلنا من المحسنين . حدثنا أبو جعفر المكفوف النحوي العنبري ،
وأخوه روح الكاتب ورجال من بني العنبر أن عندهم في رمال بلعبر حية تصيد العصافير
وصغار الطير بأعجب صيد . زعموا أنها إذا انتصف النهار واشتدّ الحرّ في رمال بلعبر ،
وامتنعت الأرض على الحافي والمنتعل ورَمَضَ^(١) الجُنْدُبُ^(٢) غَمَسَتْ هذه الحية ذنبها
في الرمل ، ثم انتصبت كأنها رمح مركوز أو عود ثابت ، فيجئ الطائر الصغير أو الجرادة
فإذا رأى عوداً قائماً وكره الوقوع على الرمل لشدة حرّه وقع على رأس الحية على أنها
عود ، فإذا وقع على رأسها قبضت عليه ، فإن كان جرادة أو جُعَلًا أو بعض ما لا يشعها
مثله ابتلمته وبقيت على انتصابها . وإن كان الواقع على رأسها طائرًا يشعها مثله أكَلته
وانصرفت ، وإن ذلك دأبها ما منع الرمل جانبها في الصيف والقيظ في انتصاف النهار
والهاجرة ، وذلك أن الطائر لا يشكّ أن الحية عود ، وأنه سيقوم له مقام الجُنْدُلِ^(٣)

(١) رمض (كفرح) : فاس حر الرمضاء (الأرض الشديدة الحرارة) .

(٢) الجندب : نوع من الجراد .

(٣) الجندل : أصل الشجرة بعد ذهاب فرعها .

للحرباء^(١) إلى أن يسكن الحرّ وَهَجَ الرمل ؛ وفي هذا الحديث من العجب أن تكون هذه الحية تهتدى لمثل هذه الحيلة ، وفيه جمل الطائر يفرق ما بين الحيوان والعود وفيه قلة أكثراث الحية بالرمل الذي عاد كالجُر ، وصلاح أن يكون ملة وموضعا للخُبْزة ، ثم يشتمل ذلك الرمل على ثلث الحية ساعات من النهار ، والرمل على هذه الصفة ؛ فهذه أعجوبة من أعاجيب ما في الحيات .

« ٤ »

ومن كتاب الموازنة بين أبي تمام والبحرئى للأمدى التوفى سنة ٣٧٢ هـ .
ومن خطه (يريد أبا تمام) قوله :

وَالْحَرْبُ تَرَى كِبْرَ رَأْسِهَا فِي مَشْهَدٍ عُدِلَ السَّقِيَّةُ بِهِ بِأَنْفِ حَلِيمٍ
فِي سَاعَةٍ لَوْ أَنَّ لُقْمَنَا بِهَا وَهُوَ الْحَكِيمُ لَكَانَ غَيْرَ حَكِيمٍ
جَشَمَتْ طُيُورُ الْمَوْتِ فِي أَوْكَارِهَا فَتَرَكْنَ طَيْرَ الْعَقْلِ غَيْرَ جُنُومٍ

فالبيتان الأولان جيدان ، وقوله : جشمت طيور الموت في أوكارها ، بيت ردىء في القسمة ردىء في المعنى لأنه جعل طير الموت في أوكارها جائمة : أى ساكنة لا ينفرها شيء ، وطير العقل غير جنوم : يعنى أنها نفرت فطارت ، يريد طيران عقولهم من شدة الروح ، وما كان ينبغى أن يحصل طير الموت جنوماً في أوكارها ، وإنما كان الوجه أن يجعلها جائمة على رؤوسهم أو واقعة عليهم ، فأما أن تكون جائمة في أوكارها فإنها في السلم أو في الأمن جائمة في أوكارها أيضاً ، وطير العقل ليست بضدّ طير الموت ، وإنما هي ضدّ لطير الجهل ، وطير الحياة هي ضد لطير الموت ولو كان قال :
جشمت طيور الموت فوق رؤوسهم فَتَرَكْنَ أَطْيَارَ الْحَيَاةِ تَحْمُومٍ
لكان أشبه وأليق . اهـ .

(١) الحرباء : دودة تستقبل الشمس برأسها ، وهي من العطاء ، وهي فصيلة سامّ أبرص .

من قول الإمام عبد القاهر الجرجاني المتوفى سنة ٤٧١ هـ في كتابه : أسرار البلاغة « في مواقع التمثيل وتأثيره » : واعلم أن مما اتفق العقلاء عليه أن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني أو برزت هي باختصار في معرضه وقلت عن صورها الأصلية إلى صورته كساها أبهة وكسبها منقبة ورفع من أقدارها ، وشب من نارها ، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها ودعا القلوب إليها ، واستثار لها من أقاصى القلوب صباية وكلفا به وقصر الطباع على أن تعطىها محبة وكلفا .

فإن كان مدحا كان أبهى وأخم ، وأنبل في النفوس وأعظم ، وأهز للطف ، وأسرع للإلف ، وأجلب للفرح ، وأغلب على المتمدح ، وأوجب شفاعته للمدح ، وأقضى له بغز المواهب والمنائح ، وأسير على الألسن وأذكر ، وأولى بأن تعلقه القلوب وأجدر ، وإن كان ذمما كان مسه أوجع وميسمه الذع ، ووقعه أشد ، وحده أحد ، وإن كان حججا كان برهانه أنور ، وسلطانه أظهر ، وبيانه أبهر . إلى أن يقول ، فانظر إلى قول البحتري .

دَانِ عَلَى أَيْدِي الْفُتَاةِ وَشَاسِعُ
كَالْبَدْرِ أَفْرَطَ فِي الْمُلُوكِ وَضَوْءُهُ
عَنْ كُلِّ نِدَى فِي النَّدَى وَضَرِيبُ
لِلْمُعْصِيَةِ السَّارِينَ جِدُّ قَرِيبُ

وفكر في حالك وحال المعنى معك وأنت في البيت الأول لم تنته إلى الثاني ولم تدبر نصرته إياه وتميله له فيما يلي على الإنسان عيناه ، ويؤدى إليه ناظره . ثم قسمها على الحال وقد وقتت عليه وتأملت طرْفِيه ، فإنك تعلم بعد ما بين حالتك وشدة تفاوتهما في تمكن المعنى لديك ، وتجنبه إليك ، ونبله في نفسك ، وتوفيره لأنسك ، وتحكم لي بالصدق فيما قلت والحق فيما ادعيت .

« ٦ »

وفي كتاب ، « إحياء علوم الدين » للإمام حجة الإسلام أبي حامد الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥ هـ قال والوظيفة الثامنة ، (أى من وظائف العلم المرشد) أن يكون المعلم عاملاً بعلمه فلا يكذب قوله فعله ، لأن العلم يدرك بالبصائر والعمل يدرك بالأبصار وأرباب الأبصار أكثر . فإذا خالف العمل العلم منع الرشد ، وكل من تناول شيئاً وقال للناس لا تتناولوه فإنه سم مهلك ، سخر الناس به ، واتهموه وزاد حرصهم على ما نهوا عنه ، فيقولون : لولا أنه أطيب الأشياء وألذها لما كان استأثر به . ومثل العلم المرشد من المسترشدين مثل النقش من الطين والظل من العود ، فكيف ينتقش الطين بما لا ينتقش فيه ، ومتى استوى الظل والعود أعوج ، ولذلك قيل في هذا المعنى :

لَا تَنْتَهَ عَنْ خُلُقٍ وَتَأْتِي مِثْلُهُ عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمُ

وقال الله تعالى : « أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ » ، ولذلك كان وزر العالم في معاصيه أكبر من وزر الجاهل ، إذ يزل بزائه عالم كثير يفتنون به ، ومن سر سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها ، ولذلك قال علي رضي الله عنه : قصم ظهري رجالان عالم متهتك ، وجاهل متنسك ؛ فالجاهل يضر الناس بتنسكه ، والعالم يفرم بتهتكه ؛ والله أعلم .

« ٧ »

وفي كتاب إحصاء العلوم لأبي نصر الفارابي المتوفى سنة ٣٢٩ هـ في تعريف علم المنطق قال :

فصناعة المنطق تعطى جملة القوانين التي شأنها أن تقوم العقل وتسدد الإنسان نحو طريق الصواب ، ونحو الحق في كل ما يمكن أن يغلط فيه من المقولات ، والقوانين التي تحفظه ونحوه من الخطأ والزلل والغلط في المقولات ، والقوانين التي يتجنن بها في

المعقولات ما ليس يؤمن أن يكون قد غلط فيه غلط ؛ وذلك أن في المعقولات أشياء لا يمكن أن يكون العقل غلط فيها ، وهي التي يجد الإنسان نفسه كأنها فطرت على معرفتها واليقين بها مثل أن الكلّ أعظم من جزئه ، وأن كلّ ثلاثة فهو عدد فرد ، وأشياء أخرى يمكن أن يغلط فيها ويعدل عن الحقّ إلى ما ليس بحقّ ، وهي التي شأنها أن تدرك بفكر وتأمّل ، عن قياس واستدلال ، ففي ذلك دون تلك يضطرّ الإنسان الذي يلتزم الوقوف على الحقّ اليقين في مطلوباته كلها ، إلى قوانين المنطق .

وفي هذا القدر من أمثلة كتابة العلوم كفاية ، فقد ظهر فيها ما قلناه آتفاً من أن هذه العلوم كانت في عباراتها بعيدة عما منيت به كتابة الإنشاء من قيود وتكلف زحزحها عن القصد من الإنشاء ، وهو الفناء بلا عناء في تفهيم المراد .

تراجم الكتاب

« ١ »

أبو بكر الخوارزمي

يذكر بعض المؤرخين : أن أصل آياه من طبرستان ، وهي على الساحل الجنوبي من بحر الخزر « بحيرة أورال » ، وأنه إنما نشأ بخوارزم وتربى بها .
ويذكر آخرون أن أباه من خوارزم ، وأمه من طبرستان ، وهي أخت محمد ابن جرير الطبري المؤرخ ، ولذلك تركبت له نسبة ممزوجة من الموطنين ، فقليل له الطبرخزي .

نشأته وتعلمه

نشأ بخوارزم ، وهي إذ ذاك في أيدي البويهيين ، وكانت من نصيب ركن الدولة ابن بويه أخى عماد الدولة ومعرّ الدولة ، وكانوا جميعاً يتقاسمون بينهم شرق المملكة الإسلامية « العراق ، وفارس ، وخراسان » .

والذى يعلم من شأن هذه الدولة وغيرها من الدول التى كانت تنافسها ، كالحدانية ،
والسامانية ، والفردونية أن العلم كان قد وصل فيها إلى تمام النضج ، فراجت سوقه ،
وكثر الإقبال عليه ، وظهرت فيه المؤلفات الجلية فى كل نوع ، وكان ملوك هذه الدول
يبالغون فى إكرام العلماء ، ويكرمون وفادتهم ، ويستكتبونهم الكتب بأسمائهم ،
ويجزلون لهم العطاء عليها ، ولقد كان من ملوك هذه الدول الشاعر الملقب والكاتب
الجليل ، وفى أيامهم راجت سوق الأدب حتى استوزر الكتاب الجيدون ، أمثال أبى محمد
الحسن بن محمد المهلبى وزير معز الدولة الذى كان فى أشد الضيق قبل الوزارة حتى قال :

أَلَا مَوْتُ بُيَاعُ فَاشْتَرِيهِ فَهَذَا الْعَيْشُ مَا لَا خَيْرَ فِيهِ

ومن وزرائهم الكاتب الجليل القدر ، ابن العميد وزير ركن الدولة والصاحب ابن عباد
وزير مؤيد الدولة .

وفى هذا الزمن فى ظل هذه الدول ألف أبو الفرج الأصبهاني كتاب « الأغاني » ،
فحمله إلى سيف الدولة فأعطاه ألف دينار واعتذر إليه . كذلك أخرج ابن النديم كتابه
« الفهرست » ، وهو من الموسوعات الكبرى التى يفخر بها هذا العهد ، كذلك كان
من علماء هذا الزمن الفيلسوف الجليل القدر أبو نصر الفارابى مخترع القانون ، وابن سينا
الطبيب صاحب كتاب « القانون » فى الطب فى أربعة عشر جزءاً ، وهو مطبوع
بمصر ، والشفاء فى ثمانية عشر جزءاً فى الطب وغيره ، وهو محفوظ بدار الكتب الملكية
بمصر . وابن سينا هو الذى استقدمه منصور بن نوح من ملوك الدولة السامانية لما سمع
بشهرته ، وكان مريضاً فبرئ على يديه فنال منه خيراً كثيراً . وغير هؤلاء كثيرون لهم
مؤلفات لا تدخل تحت حصر ، أكثرها عمل برسم هؤلاء الملوك الذين كانوا يرون من
الفخر العظيم أن يذكر اسمهم فى كتاب يعتقدون أنه سيخلد على الأيام فيخلد معه اسمهم ،
حتى لقد جعلوا التأليف ثمناً للرضا عن السجين ، كالذى ذكروا أن عضد الدولة كان
معتقلاً أبا إسحق الصابى ، فجعل شرط الرضا عنه وإطلاقه أن يؤلف كتاباً فى مناقب
الدولة البويهية ، فجعل يؤلفه فى السجن ، ويقال : إن واشياً دخل عليه حين كان

مشغولاً بالتأليف ، فقال له : ما تصنع ؟ قال : (أباطيل أمتهم وأكاذيب ألقمها) فنقل ذلك إلى عضد الدولة ، فغضب ولم يطلقه من سجنه حتى كانت أيام ابنه مصصام الدولة فخرج زريّ الحال قد تداعى من الهمّ والحرم .

في هذه الأيام نشأ الخوارزمي ، وقد رأى العلم تتعدّد له المجالس ، ويكثر فيه التنافس ويرتقى شأن العالم والكاتب حتى تكون قصور الملوك مراجه ومغذاه ، وكبرى الوزارة منقلبه ومأواه ، فكان جديراً أن يؤمل في هذه الأيام دولة لفهمه ، وصولة لقلعه . فأقبل على العلوم يحصاها ، وهي إذ ذاك كثيرة لا حصر لها ، فما زال يحصل علومه بخوارزم ، وهي مدينة من مدن العلم لأنها قسبة من قصبات الملك ، فحصل منه نصيباً يستطيع أن يستقل به في طلب الرزق ، وقد ساعده عليه ذكاء شديد ، وحافضة نادرة ، ورغبة أكيدة ، فصار كما وصفه الثعالبي في « يتيمة الدهر » (يحاضر بأخبار العرب وأيامها ودواوينها ، ويدرس كتب اللغة والنحو والشعر ، ويتكلم بكل نادرة) . ولم ينته في طلب العلم عند حدّ من السنّ أو قدر من المعلومات ، بل ظلّ طول حياته نهماً يتسقط النوادر ، ولا يمرّ ببلد إلا جالس علماءه ، وطارج شعراءه ، ونادم أديبائه ، وقد تنقل في بلاد الإسلام حتى وصل إلى حلب ، فكان جديراً بعد ذلك أن يكون نادرة عصره دراية وفهماً لأنه جمع مزايا الأقطار ، واشتمل على أنواع المعارف الموزعة في البلاد .

لَيْسَ عَلَى اللَّهِ مِسْتَنْكِرٌ أَنْ يَجْمَعَ الْعَالَمَ فِي وَاحِدٍ^(١)

وفي هذا يقول صاحب اليتيمة : (فارق وطنه في ريمان عمره ، وحادثة سنه ، وهو قويّ المعرفة ، قويم الأدب ، نافذ القريحة ، حسن الشعر ، ولم يزل يتقلب في البلاد ، ويدخل كور الشام ، ويأخذ من العلماء ، ويقتبس من الشعراء ، ويستفيد من الفضلاء حتى تخرج وخرج فرد الدهر ، في الأدب والشعر) .

(١) هذا البيت يرويه الناس كثيراً بالواو في أوله وذلك خطأ لأنّه من السريع ولا يوزن إلا بحذفها .

مؤهلات فضله

وصل الخوارزمي من الشهرة بين أهل عصره حدًا بعيدًا حتى قال عنه معاصروه :
«إنه باقة»^(١) الدهر وبجر الأدب» ولا يجتمع لأمري كل هذا الفضل حتى يكون له
من وراء ذلك ملكة تواتيه وتساعد عليه .

نعم عرف عن الخوارزمي أنه كان يتمتع بحافظة ذاكرة لم يمهدها مثلها في أهل
عصره ، فقد كان يروى شعر العرب منذ جاهليتهم إلى أيامه ، يدل على ذلك كثرة
ما تجده في شعره من تضمين لكلام الشعراء من جاهليين وإسلاميين سابقين
ومعاصرين ، ولا يكون ذلك إلا لحافظ ذاكر ورواية تتوارد على ذهنه المعاني بما
لبستها من ألفاظ . وإذا ذهبنا نعدد من أمثلة ذلك خرجنا عن الاختصار اللائق
بعملنا ، ولكننا نشيع رغبة الطالب من الأمثلة ليلس بيده مقدرة هذا الرجل على
الحفظ والاستحضار .

قال يمدح عضد الدولة :

وَلَمَّا أَكْثَرَ الْحَسَادُ فِيهِ وَقَالُوا قَدْ تَغَصَّنَتْ الْخُلُودُ
أَحَابَ الْفَضْلِ عَنْهُ حَاسِدِيهِ (لَأَمْرٍ مَا يَسُودُ مِنْ يَسُودُ)

المصراع الأخير لبلمام بن قيس الكِنَافِي .

وقال في السَّيَّاح ، وهو فرس لعضد الدولة :

حَسَدَ السَّيَّاحَ سَمِيَهُ لَمَّا بَدَا فِي سَرِّهِ شَخْصُ الْمُهَاجِرِ الْأَبَّاحِ
فَلَوْ أَنَّ شَاعِرَ بُخْتَرٍ فِي عَصْرِهِ مَا قَالَ فِي فَرَسٍ وَلَا فِي أَعْوَجِ
(خَفَّتْ مَوَاقِعُ وَطْنِهِ فَأَوَّاهُ يَجْرِي بِرَمْلَةٍ عَلَاجٍ لَمْ يَزُهِجْ)^(٢)

(١) الباقية : الباهية .

(٢) أزهج : آثار النبار .

والبيت الأخير للبحرئ .

ويقول :

وَمَنْ تَرَكَ الْأَخْيَارَ يُنْشِدُ أَهْلَهُ (أَحِلُّ أَيُّهَا الرِّبْعُ الَّذِي خَفَّ أَهْلُهُ)
والمصرع الثاني لأبي تمام .

ويقول في الهجاء :

قَوْمٌ تَرَاهُمْ غَضَابِي حِينَ تُنْشِدُهُمْ (لَكِنَّهُ يَشْتَهِي مَدْحًا بِمَجَانٍ)
والبيت من قول القائل :

عُثْمَانُ يُفْلِمُ أَنَّ الْمَدْحَ دُو تَمَنٍ (لَكِنَّهُ يَشْتَهِي مَدْحًا بِمَجَانٍ)
ومنها :

قَدْ قُلْتُ إِذْ قِيلَ لِسَمَاعِيلَ مُتَدَحِّحٌ (له من الناس بَحْتُ غَيْرُ وَشَنَانٍ)^(١)
الناسُ أَكْبَسُ مِنْ أَنْ يَدْحُوا رَجُلًا مَا لَمْ يَرَوْا عِنْدَهُ آثَارَ إِحْسَانٍ

ويقول من قصيدة :

تُفَاضِيهِمْ أَسْيَافُنَا فَكَأَنَّا (يَرَيْنَ بَرِيئًا مَنْ سَفَكْنَ لَهُ دَمًا)
كَأَنَّ ظُبَاهَا سَاعَةَ الرَّوْعِ غُلَّتْ (وَلَنْ تَسْتَطِيعَ الْحِلْمُ حَقِّي تَحَلُّمًا)
والمصرع الثاني لحاتم الطائي :

فهذا التضمين وهو كثير جداً في كلامه ثراً وشعراً هو نتيجة لازمة لكثرة الحفظ ، وهي ميزة من مزايا الخوارزمي .

وربما دلّ دلالة واضحة على كثرة محفوظه وشهرته بين أهل زمانه تلك القصة التي رووها عنه حين قصد الصاحب بن عباد ، فقال لحاجبه بلغ الصاحب أن أديباً بالباب يستأذن في الدخول ، فعاد الحاجب يقول له : يقول لك الصاحب : إني أئزمت نفسي ألا يدخل عليّ من الأدباء إلا من يحفظ عشرين ألف بيت من أشعار العرب ، فقال

(١) البغت : الجدة والبنوت : ذو الحظ .

الخوارزمي : سله أهذا القدر من شعر الرجال أم النساء ؟ فلما بلغ الحاجب ذلك قال : إنما هو أبو بكر الخوارزمي ، وأذن له ، وهشّ وبشّ في وجهه وأجرل عطاه .

ولم يكن الخوارزمي يقتصر على هذا الفضل ، بل كان له إلى جانب الحافظة الذّاكرة : ذكاء نادر ، وملّكة في الفهم قوية ، وحكمة استفادها من تجاربه ووعاها من تجواله ، وقد تجلّى العقل الراجح فيما جرى على لسانه من فكرة ناضجة ، وقول جامع وكلمة شاردة ، وحكمة لم يوع مثلها إلا عن حكيم حصيف الرأي ، وهذه الكلمات التي تجري مجرى الأمثال من أقواله كثيرة جدًا قد نشرها في ثنايا رسائله ، فمنها :

الشكر على قدر الإحسان ، والسلع بإزاء الأثمان . الادّكار حيث التناهي ، والتقاضى حيث التقاضى^(١) ، والسواء لغير حاجة داء ، وهو عند الحاجة شفاء ، الاستقالة تأتي على العثرات ، كما أن الحسنات يذهبن السيئات ، الشجاع محبوب^(٢) حتى إلى من يحاربه ، والجبان مبغض حتى إلى من يناسبه ، والجواد خفيف حتى على قلب غريمه^(٣) ، والبعيل ثقيل حتى على قلب وارثه وحميمه ، الدهر يمتلئ وربما يحجل ، وما شاء الإقبال فعل ، أو جمع الضرب ما لا يمكن معه البكاء ، وأشدّ البلوى ما لا يحقّقه الاشتكاء ، من الناس من إذا وَلِيَ عزّته نفسه^(٤) ، ومنهم من إذا عزل ولاء فضله ، ما المحنة إلا سيل ، والسيل إذا وقف ، فقد انصرف ، وما الأيام إلا جيش ، والجيش إذا لم يَكُرْ^(٥) ، فقد قرّ .

(١) تقاضى عنه : تناقل .

(٢) يقال أحب فهو محبوب . وذلك أن الثلاث من مادة الحب مسموع ولكنه قليل واسم المفعول من الثلاثي مستعمل أكثر منه من الرباعي فكأن الفعل الثلاثي هجر وقي ، مفعوله ، والرباعي استعمل وهجر مفعوله . فأبو بكر استعمل صيغة المفعول القليلة الورد .

(٣) الغريم : البائن والذين (صد) .

(٤) في هذا المعنى يقول الشاعر :

إنّ الأمير هو الذي يضي أميرا يوم عزله

إن زال سلطان الولاية لم يزل سلطان فضله

(٥) كر على العدو من باب نصر : هجم .

فأنت ترى هذه الحكم ليست حكاية لما تردد على ألسنة القوم بل هي نتيجة
تجربته ومشاهدته .

تصرفه وأحواله

لم يكذبوا الخوارزمي في العلم ، وَبَسَّطَ في السن حتى هجر الوطن ، وفارق المَطَنَ
إجابة لنداء المهمة العالية التي حفزته إلى لقاء الملوك والاستفادة من جاههم فقد رأى
دولا تنافس في العلم وهو من أعلامه ، وتعطى على قدر الفهم وهو من أقوامه ، وتشيد
بذكر البيان وهو يحمل أبلغ أقلامه ، فحركت منه الآمال أُخَوِّدِيَا^(١) واسع مجال
الهمة ، فخرج من خوارزم ، وجعل تتراى به كور العراق والشام حتى وصل إلى سيف
الدولة ، فاتصل به وخدمه حيناً ، فاستفاد منه ثم مضى على غلوائه في الاضطراب
والاغتراب ، وشرق بعد أن غرب ، فورد بخارى ثم عاد منها إلى نيسابور ، فاتصل
بالأمير أبي نصر أحمد بن علي الميكالي وأكثر من مدحه فاستفاد منه خيراً كثيراً ،
ثم قصد سجستان ، وتمكن من واليها أبي الحسين طاهر بن محمد ومدحه وحوى
صلاته ، ولكنه عاد فجهاه فوقع في أسره وطال عنده سجنه حتى استشفع بأبي نصر
الميكالي ، وأرسل إليه قصيدة طويلة منها في مدحه :

وما كنتُ في تركك إلا ككتاركِ يَقِينًا وراضٍ بِمُدَّةِ بالتَّوَهُّمِ
وقاطنِ أرضِ الشُّركِ يَطْلُبُ تَوْبَةً وَيَخْرُجُ من أرضِ الحَظْمِ وَزَمَرِ
وذى عِلَّةٍ يَأْتِي عَظِيلًا لِيَسْتَقِي بها وهوَ جَارٌ للسَّيْحِ بنِ مَرَمِ
ورأى كلامَ مُفْتَقٍ إِنْزَاقًا وَيَتَرَكُ قُتًا خَائِبًا وابنَ أَهَمِ^(٢)

(١) الأخوذى : الخفيف الحاذق ، والمهر في الأمور لا يشذ عنه منها شيء .

(٢) يقال خرج في إثره (بالكسر) وإثره (بالتحريك) أى بعده . وابن أهم هو عمرو بن الأهم =

جَنَابُ تَجَنَّبَنَاهُ لَيْسَ يُجْذِبُ وَبِحَرْ تَحْطِنَاهُ لَيْسَ بِمَرْزَمٍ
ثم عاد إلى نيسابور ، وما زال بها حتى وفق التوفيق كله بقصده حضرة صاحب
ابن عباد بأصبهان فأنجحت^(١) سفرتة ، وربحت تجارته ، وبجاه صاحب اتصل
بأبن العميد بشيراز قم له الغنى ، وعاد إلى نيسابور بالغنمة الباردة ، واقتنى فيها ضياعاً
وعقاراً ، ثم عاد إلى شيراز ، فكان من تنافى الإكرام من عضد الدولة أن أجرى له
رسماً يصل إليه كل عام بنيسابور مع المال الذى كان يحمل من فارس إلى خراسان ،
فعاش الخوارزمي بنيسابور فى أحسن حال وأجل مكانة تجرى عليه الأرزاق من
مقتنياته ، ويشغل وقته بالعلم يدرسه ، والأدب يقيم سوقه ، والشعر يرويه ، والخطب يحكيه .
وقد جرت عليه شدة شديدة تهيمت له فيها الأيام كل تهيم حتى دخل السجن
وبدئ باستصفاء ماله لتطاوله بالمهجاء على بعض رجال الدولة هناك ، ولكنه تمكن من
الفرار ، وقصد حضرة صاحب بيجران ، فأزاح عنه غمته واتفق أن ولي نيسابور
رجل من المتعصبين للخوارزمي المعجبين بأدبه ، فاطمأن مقامه بالمدينة ، ورزمت^(٢)
حاله . وردت إليه أمواله ، وكان موضع التجارة والاحترام حتى منى بمساجلة بديع الزمان ،
فلاقى مالم يكن فى حسبانته وأنف من تلك الحال ، وانخزل انخزالاً شديداً ، ولم يحمل
عليه الحول حتى مات سنة ٣٨٣ هـ ، وعمره ستون سنة .

توفد مع الزبرقان على رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله رسول الله عن الزبرقان فقال : مطاع
فى أدبه ، شديد المارضة ، مانع لما وراء ظهره . فقال الزبرقان : لأنه يعلم منى أكثر من
هذا ولكنه حسدى فقال عمرو : أما والله إنه لزمى الروءة ، ضيق العطن ، أحق الولد ، لثم
الحال . والله يارسول الله ما كذبت فى الأولى ولقد صدقت فى الأخرى . ولكنى رجل رضىت
فقلت أحسن ماعلت وسخطت فقلت أقبح ماعلت فقال رسول الله : إن من البيان لسحرا .

(١) أنجح كنبح .

(٢) رفة العيش (ككرم) : لان . ورفه الرجل (كنع) : لان عيشه .

بين الخوارزمي وبدیع الزمان

كان الخوارزمي متصديراً للزعامة على الكتاب والأدباء ، فكان بنيسابور مرجع الفضل غير مدافع ، وربّ الفصاحة غير مزاحم ، تحط بفنائه رجال الطلاب ، ويسلم عليه بالزعامة الشعراء والكتاب ، ويجلس لإملاء الأخبار ، وهو بحرها الزاخر ، ولرواية الشعر عن الأوائل والأواخر ، واستمرّ على ذلك حتى غازل الستين ، فجع إلى وقار السنّ ، جلال الفنّ ؛ وكان في غمار الأدباء بنيسابور قى حدّث ، ولكن له مخايل ، ولخايله قوم يتعصبون ، ولأدبه محتجون ، ذلك هو بدیع الزمان الهمداني ، فانبرى للخوارزمي يعاينه ^(١) ويهاثره ^(٢) ويصاوله ^(٣) ، ويناضله ^(٤) ، وجرت بينهما في ذلك مراسلات ومكاتبات ومناقشات ومناظرات ، فاجتمع للبدیع حدّائة السنّ ونشاط الشباب إلى أدب هو في الأدب لباب ، إلى معجبين يصفقون له كلما سجع ، ويُسّاون كلما رجع . واجتمع على الخوارزمي فنور السنّ ودهشة المفاجأة ، بهذه المناوأة ، فالبث أن حمّ ومات على أثر حمّاه ، فكانت مصيبة موته فائدة للبدیع الذي طار صيته بكلّ مكان ، وجرى اسمه على كلّ لسان .

وكان سبب هذه المهاترة : أن بدیع الزمان ورد بنيسابور رقيق الحال ، وطعم في معاونة أبي بكر وفي مثله يطعم إذ ذاك ، فقد كانت تدّرّ عليه أخلاف الرزق ، وبنياً بعيش رغد ، فطعم قرينه في الأدب أن يكون له منه عطف ، وفي لقائه لطف ، فلم ير إلاّ تجمّعاً ، فكتب يستعطفه ويعتذر عنه فيما جرى من لقائه ويذكره بأن صلة الأدب

(١) المايادة : أن تأتي بكلام لا يهتمى لوجهه (الإلفاز) .

(٢) المهاترة : أب يسب كل صاحبه بالباطل .

(٣) المصاولة : الموائبة .

(٤) المناضلة : المباراة في الرمي .

أقوى سبب ، وأعز نسب ، فلم يزد أبو بكر إلا تحملاً وتسبباً ، وجرت بينهما مراسلات ، ثم اجتمعا في دار أحد الإخوان ، وعرض عليه البديع المناظرة في الرواية ، وهو عليها الأشهر ، فلم يقبل الخوارزمي ، واختار إجازة الشعر ، واقترح إجازة قول المتنبي :

أَرْقَى عَلَى أَرْقَى وَمِثْلِي يَأْرَقُ وَجَوَى يَرْيَدُ وَعَبْرَةٌ تَذْفِرُقُ
ثم ابتدر يخبز ، فقال :

وَإِذَا ابْتَدَهْتُ بَدِيهَةً يَا سَيِّدِي فَأَرَاكَ عِنْدَ بَدِيهَتِي تَتَقَلَّقُ
وَإِذَا قَرَضْتُ الشَّعَرَ فِي مَيْدَانِهِ لَا شَكَّ أَنَّكَ يَا أَخِي تَتَشَقَّقُ
إِنِّي إِذَا قُلْتُ الْبَدِيهَةَ قُلْتُهَا عَجَلًا وَطَبْعُكَ غَيْرَ طَبْعِي يَرْفُقُ
مَالِي أَرَاكَ وَلَسْتَ مِثْلِي عِنْدَهَا مُتَمَوِّهَاً بِالْتَرَهَاتِ مُتَحَرِّقُ (١)

فقال له البديع : أراك بين قواف مكرهة وقافات خشنة ، كل قاف كجبل قاف ، منها تتقلب وتنشق وتمخرق .

ثم أجاز البديع فقال :

مَهْلًا أَبَا بَكْرٍ فَرَنْدُكَ أَضِيقُ فَأَخْرَمَنْ فَإِنْ أَخَاكَ حَتَّى يُرْزَقُ
دَعْنِي أُعْرِكَ إِذَا سَكَّتْ سَلَامَةٌ فَاقُولِ يُنْعِدُ فِي ذَوِيكَ وَيُعْرَقُ
وَلِقَائِكَ فَتَكَلَّتْ سُوءُ فَيْكَمْ فَدَعِ الشُّوْرَ وَرَأَاهَا لَا تُحْرَقُ
يَا أَحْمَقًا وَكَفَاكَ ذَلِكَ خِرْيَةٌ جَرَّيْتُ نَارَ مَعْرِفَتِي هَلْ تَحْرَقُ

فاعترضه أبو بكر ، فقال : « يا أحقما لا يجوز فإن أحق لا ينصرف » ، فأجابه البديع : إن للشاعر أن يرد ما لا ينصرف إلى الصرف ، وله رأيه في القصر والحذف ، ثم انتهى بهما الحال إلى السباب ، فيقول الخوارزمي : أَنَا كَسَبْتُ بِهَذَا الْعَقْلَ دِيَةَ أَهْلِ هَمْدَانَ

(١) التوبيخ : تلبس الأمر وإخفاء حقيقته . الترهات : جمع ترهة وهي الأبطولة . تمخرق : تأتى بالكذب

مع قلته ، فإذا أَفْذَتْ أَنْتَ بعقلك مع غزارته ؟ فإِردَّ عليه المَهْدَانِي ، فيقول : إِنْ هذا الذى تمدح به وتتصلف إنما أَنَاكَ من أَنَاكَ سَحَدَتْ فَأَخَذَتْ ، وسألت فخصمت ، واجتذبت فافتنيت ، ثم اقترقا على صلح هو أشبه بالشقاق .

ثم عادا بعد ذلك إلى المناظرة فاقترح عليه البديعُ أصنافاً كثيرةً من الترسل كأن يكتب في المعنى الواحد نظماً ونثرًا ؛ ويفرِّغ^(١) منهما فراغًا واحدًا . أو أن يكتب كتابًا يقرأ من آخره إلى أوله أو كتابًا يقرأ منه جوابه ، أو كتابًا إذا عكست سطوره كان جوابًا . فقال الخوارزمي ، هذه شعبةٌ ، ولكن تكتب على طريقة الناس ، فاقترح عليهما مقترح أن يكتبيا في النقود وفسادها والتجارات ووقوفها والبضائع وانقطاعها . فكتب أبو بكر :

الدرهم والدينار بمن الدنيا والآخرة ، بهما يتوصل إلى جنات النعيم ، ويخلف في نار الجحيم . قال الله تبارك وتعالى : « خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ » . وقد بلغنا من فساد النقود ما أكبر ناه أشد الإكبار ، وأنكرناه أعظم الإنكار ، لما نراه من الصلاح للعباد ، وتنويه من الخير للبلاد وتعرفنا في ذلك ما يُرْبِحُ للناس ، في الزرع والضرع ، ويعود إليه أمر الضر والنفع .

أما البديع فقد كتب في هذا الموضوع كلامًا يقرأ من آخره إلى أوله ، وهو :

الله شاء أن الحاضر صدور بها وتملأ ، المنابر ظهور لها وتفرَّج ، الدفاتر وجوه بها وتُمسَّق ، الحابر بطون لها تُرْشَق آثارا كانت ، فيه آمالنا مقتضى على ، أيديه في تأييده الله أدام الأمير جرى فإذا ، المسلمين ظهور عن الثقل هذا ويرفع الذين أهل عن الكلِّ هذا يحط أن في إليه تنضرع ونحن ، واقفة والتجارات ، زائفة والنقود ، صيافرة أجمع الناس صار فقد ، كريمًا نظرًا لينظر . شيمه مصابٌ وانتجعنا ، كرمه

(١) فرغ (كنصر وفتح) وقد قرئ بهما قوله تعالى - سطر غ لسم أيها الخليلان - كما ذكر في الكامل.

بارقة وشمنا ، همه على آمالنا رقاب وعلقتنا ، أحوالنا وجوه له وكشفنا آمالنا وفود
إليه بعثنا فقد نظره بجميل يتداركنا أن ونعمائه تأييده وأدام ، بقاءه الله أطال
الجليل الأمير رأى إن^(١) .

فانكسر الخوارزمي وانهت المناظرة بين إعجاب بالبديع وزراية على الخوارزمي ،
ولكن هذه المجالس يرويها البديع نفسه ، فلسنا نعرف نصيب الصدق فيها أو التحامل
منه على صاحبه ، ولكن النتيجة ، وهي انهزام الخوارزمي قد تحققت .

نثره وشعره

إذا كان ملاك البلاغة كثرة الحفوظ وتتابع الرواية ، فلا غرو أن يشار إلى
أبي بكر بالبنان في موضوع البيان لأنه كما تعلم كان في الرواية بحراً لا يرد له غرْب ،
ولا يقام له بسيل .

لذلك ترى أن الجزالة بادية في قوله حتى ربما أدته إلى الإغراب ، وتجد أفاظه
حافلة بالمعاني لكثرة ما وعى من أقوال السابقين وترسم خطاهم ، واشتمل على معانيهم ،
وكان يسير على نهج أهل عصره في الفرام بالسجع ولكنه لم يكن يلج فيه إلحاح
الصاحب بن عباد ، ولم يتركه للطبع كما فعل المحدثاني .

كذلك كان في الشعر ذا قدم فارعة ، فقد مدح ورثى وتغزل وهجا ولا غرابة
في جمعه بين النثر والنظم ، فقد كان هذا شأن أغلب النابسين من أهل زمانه .

(١) لقد صدق الخوارزمي في قوله إن أعمال البديع من هذا النوع إنما هي شعبة فان هذا الكتاب
الذي أوم البديع به الناس أنه يأتي بالخوارق هو إذا تدبرت من أيسر الأمور . وجرب ذلك
أنت واكتب كلاماً تبدأ به من آخر الصفحة حتى تنتهي إلى أولها فانه يأتي في ظاهره كأنك كتبه
مكوساً . وهذا أهون شيء لولا أن البديع يظهره بهذه الشمودة كأنه من الحال أنه هو دون
سائر الناس .

وإذا قيس بالبدیع خرج البديع بركة اللفظ ، واحتياذ الطبع ، وحسن مقاطع السجع ، وقصر فقراته ، وعدم التزامه ، ولا شك أن البديع في كل أموره خير منه لوفور ذكائه ، وسلامة طبعه .

وقد أخذ على الخوارزمي أنه قد يفوته التجانس في قوله ، فلا يجمع بين الكلمة وأختها ، ولا يضمها إلى صاحبها ، بل قد يأتي بالفقرة نافرة قلقة ، وقد عدوا عليه من ذلك قوله من رسالة في الشكر : وجدير بمن هطلت عليه سحاب عيناك ، ورفرفت حوله أجنحة رعايتك . . . قالوا إن التناسب غير واقع بين هطلان السحاب ورفرفة الأجنحة ، وقوله من رسالة : وشرح قلبك وأعلى كعبك . فإن إضافة الشرح إلى القلب ليس لها تلك الروعة في إضافته إلى الصدر في قوله تعالى : « أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ » .

كما عابوا عليه قوله في الصاحب بن عباد وقد مرض :
نوالى نفس المجد ساعة أخبروا بما يشتكى من سقمه ويمارس
فإن لفظة النعى فيها ما فيها من الطيرة ، إذ هي مما يقع في المرائي لا العبادات . وكذلك
عابوا قوله يمدح الأمير شمس المعالي ، ويذم الأيام التي لم تجعل الأمير ذا سلطان يحكم
بلاداً كغيره :

إلى كم يحل المرء مثلك بِلَدَةٍ بها مِنِّي فيها لغيرك خاطبُ
لقد هان من أُمسى ببِلَدَةٍ غيره وقد ذل من بآلت عليه الثعالب^(١)

(١) كان غاوى بن عبد العزيز سادنا لصم بن سليم . إذ أقبل ثعلبان فقتلاه قتالا عليه فقال :

أرب يبول الثعلبان برأسه لقد ذل من بآلت عليه الثعالب

وقد استعهد الجوهري بالبيت على أن لفظ ثعلبان مفرد بضم الثاء وخطأه صاحب القاموس .
ولحق غاوى برسول الله فأسلم فقال له النبي ما امسك فقال غاوى بن عبد العزيز فقال له أنت راشد
ابن عبد ربه .

فإن فيه سوء أدب ، وهو بالتقريع أشبه منه بالتقريط .

ولا ينبغي أن يفضَّ عَدَّ هذه المآخذ من فضل الرجل ، فلقد قالوا قديماً :
* كفى المرء نبلاً أن تعد معايبه * وهذه المآخذ ليست إلى جانب إحسانه وارتقائه
في سماء البلاغة شيئاً مذكوراً ، وأما رجل يتعقب الناس كلامه كما تعقبوا كلام
الخوارزمي لا بدَّ يجدون فيه كثيراً من مثل هذا ، وما أكثر ما عدوا على أبي تمام
والبحتري والمتنبي حتى لقد ألقت الكتب ونصيب كبير فيها لمساوئهم ، ولكن ذلك لم
يفقدهم الزعامة التي عرفت لهم بين الشعراء .

ولأبي بكر مجموعة رسائل مطبوعة متداولة في مصر ، وقد ذكر الثعالبي أن له
ديوان شعر كرسائله ، ولكننا لم نثر عليه ، وأنت واجد منه نصيباً كبيراً في
يَتِيْمَةُ الدهر للثعالبي ، ويقال : إن للخوارزمي مقامات ، ولكنها لم تشتهر لأن مقامات
البديع أختها .

مَحْذَرُ قَوْلِهِ

قال يمدح الفقر : . . . وإنما يكره الفقر لما فيه من الهوان ، ويستحبّ الفناء^(١)
لما فيه من الصوان^(٢) ، فإذا تَبَعَ^(٣) النعم من تربة الفنى ، فالغنى هو الفقر ، واليسر
هو العسر ، لا بل الفقير على هذه القضية أحسن من الغنى وأقل منه أشغالا ، لأن
الفقير خفيف الظهر من كلِّ حق ، منكفئ الرقبة من كلِّ رق فلا يستبطئه إخوانه ،
ولا يطعم فيه جيранه ، ولا تنتظر في القطر صدقته ، ولا في النحر أضيحيته^(٤) ، ولا في

(١) الفناء : الاستغناء .

(٢) الصوان : هكذا في الأصل ، والصواب الصيان .

(٣) تبع (كنصر وقطع وضرب) : تبع وظهر .

(٤) الأضيحة : ذبيحة العيد وجمها أضاح . ومثلا أضحية وأضحية . ومعى العيد عيد الأضحية لأنه
تذبح فيه هذه الأضاحي . وسبب تسمية الذبيحة بذلك أنها تذبح في وقت الضحى .

شهر رمضان مائنته ، ولا في الربيع باكورته ، ولا في الخريف فاكته ، ولا في وقت
الغلة شميره وبرّه ، ولا في وقت الجباية خواجه ومُشره . لا ، إنما هو مسجد يحمل
إليه ، ولا يحمل عنه ، تتجنبه الشرط نهاراً ، ويتوقاه القسس ليلاً ، فهو إمامهم وإمامهم .
وأما الغنى فإنيما هو كالغنى غنيمة لكل يد سالة ، وصيد لكل نفس طالبة ،
وطبق على شوارع النواصب ، وعلم منصوب في مدرّجة^(١) الطالب ، يطعم فيه الإخوان ،
ويأخذ منه السلطان ، و ينتظر فيه الحدّان ، ويخيف ملكه النقصان .

وله في ذكر نهдам منزل : بلغني ذكر الهدّة ، فالحدّ لله الذي هدم الدار ولم يهدم
المقدار ، وثلم المال ، ولم يثلم الجلال ، وسلط الحوادث على الخشب والنّشب^(٢) ، ولم
يسلطها على العرض والحسب^(٣) . ولا على الدّين والأدب ، ولا بدّ للنعمة من عوذة^(٤)
ولا بدّ لعين الكمال من رقية ، ولأن يكون في دار تبنى ومال يجبر خير من أن يكون
في النفس التي لا جابر لكسرها ، ولا نهاية لقدرها .

وكتب في وصف رمد أصابه : صادف ورود الكتاب رمداً في عيني حصري في
الظلمة ، وجبسي في القمّ والنّمة^(٥) ، وتركني أدرك بيدي ما كنت أدرك بعيني ، كليل
سلاح البصر ، قصير خطو النظر ، قد ثكلت مصباح وجهي ، وعدمت بعضي الذي هو
آثر عندي من كلي ، فالأبيض عندي أسود ، والقريب مني مبعد ، قد خاط الوجع
أجفاني ، وقبض عن التصرف بناني ، قفراغي شغل ، ونهاري ليل ، وطوال الحافلي

(١) المدرجة : السالك .

(٢) النشب : المال والقار .

(٣) الحسب : ما يده الرجل من مفاخر آياته .

(٤) العوذة : الرقية .

(٥) القم : الغم . والنمة : كل أمر ملتبس .

قصار ، وأنا ضريرو وإن عددت في البصراء ، وأمى وإن كنت في جملة الكتاب والقراء . قصرت^(١) العلة خطوتى قلمى وبنانى وقامت بين يدى ولسانى .

وكتب إلى بعض تلاميذه وقد أخبره في كتاب أنه مريض :

وصلنى كتابك فسررتنى نظرى إليه ، ثم غنى اطلاعى عليه ، لما تضمنته من ذكر علتك ، وأنبأ عنه من سوء حالتك . جعل الله أول العلة كفاة كافية ، وآخرها شفاء وعافية ، ولا أعدمك على الأولى أجراً ، وعلى الأخرى شكراً . وبودى لوقرب على تناول عيادتك ، فاحتملت عنك بالتعهد والمساعدة بعض أعباء علتك ، فلقد خصنى من هذه العلة قسم كقسمك ، حتى مرض قلبى لمرضى جسمك ، وأظن أنى لو لقيتكم عليلاً لانصرفت عنك ، وأنا أعلّ جدياً وأشغل منك قلباً ، فإنى بحمد الله تجلّد على أوجاع أعضائى ، غير جلد على أوجاع أصدقائى ، ينبو سهم الدهر إذا رمانى ، وينفذ فى إذا رمى إخوانى . فأقرب سهامه منى ، أبعد سهامه عنى . كما أن أبدها عنى أقربها منى . شفاك الله وعافاك ، وكفانى فيك الحذور وكفاك ، ورفع جنبك^(٢) ، وغفر ذنبك ، وآمن سرّ بك .

وكتب إلى تلميذ له معاتباً : إن كنت أعزّك الله لا ترانا موضعاً للزيارة ، فنحن فى موضع الاستزارة ، وإن كنت تعتقد أنك استوفيت حقنا عليك وبقى حقلك علينا ، فقد يزور الصحيح الطبيب بعد خروجه من دأته ، واستغنائه عن دوائه ، وقد تجتاز الرعيصة على باب الأمير المعزول فتتجمل له ، ولا تميزه عزله . ولو لم تزرنا إلا لترينا رجحانك ، كما طالما رأينا نقصانك لكان ذلك فعلاً صائباً ، وفى القياس واجباً . وقد أكثر من شعره . إكثاره من نثره ، وتناول فيه كلّ للمانى فسا قصر فى واحد منها .

قال فى وصف جميل يزداد حسناً على الأيام وشأنها تغيير الصور وتبحيح المحاسن :

(١) قصره (كضرب) : جملة قصيرا .

(٢) أى أفلحك من مرضك حتى يرتفع جنبك عن الفراش .

وشمسٍ ما بدتْ إلا أرتنا بأن الشمسَ مَطْلَمَها فُصُول
تزيد على السنين ضياءً وحُسنًا كما زُفْتُ على العتق السُّمُول^(١)
وقال في خضراء الدمن :

قلت للعين حين شانتْ جمالاً في وجوه كواذب الإيماض^(٢)
لا تفرُّه نك هذه الأوجه القُرُّ رُ فيارب حَيَّة في رياض
وقال يلدح بالشجاعة :

ويشربُ الكُنْ في إناه من الثرى رَحِيْقًا خوايها الطلأ والمناكب^(٣)
ويَسْمَعُ الكُنْ الفناء مَدَامُحْ وَيَكْنِزُ لَكُنْ الكُنُوزَ مَنَاقِبُ
لو أن حبيباً كان لاقاه لم يَقُلْ وأكثُرُ آمالِ النفوسِ الكواذب
وقال من عضدية :

غريبٌ على الأيامِ وَجَدَانُ مِثْلِهِ وَأَغْرِبُ مِنْهُ بعدَ رُؤْيَتِهِ القُرُّ
فلا حُرُّ إلا وهوَ عبدٌ لجوده ولا عبدٌ إلا وهوَ في عَدْلِهِ حُرُّ
عَجِبْتُ لَهُ لَمْ يَلْبَسِ الكِبَرُ حُلَّةً وَفِينَا لِأَنْ جُرْنَا عَلَى بَابِهِ كِبَرُ
وقال يرثي ابن العميد :

رَجُلٌ لو أَنَّ السُّكْمَرَ يَحْسُنُ بَعْدَهُ هُجِيَ القَصَاةُ وَأُنْبِ المَقْدُورُ
أَشْكُو إِلَيْكَ النَفْسَ وَهِيَ كَتِيبَةٌ وَأَذُمُّ فِيكَ الدَّمْعَ وَهُوَ غَزِيرُ
وأقولُ للعين الغزيرِ بكاؤها خَطْبٌ لَعَمْرِي لو عَمِيَتْ يَسِيرُ

(١) العتق للخمر: القدم . الشمول : الحر أو الباردة منها ، سميت كذلك لأنها تشمل برمجها الناس
أو لأن لها عصفة كعصفة ريح الشمال .

(٢) شام البرق : نظر إليه أين يقصد ؟ . الإيماض : اللعان الخفيف من البرق .

(٣) الرحيق ، الحر أو أطيبها أو أنضلها . الخواي : جمع خاية (وعاء الحر) . الطلأ : جمع طلبة
(ناظم) وهي العتق . أما الطلاء (بالكسر ولد) فهي الحجر أو ما يطبخ من العنب حتى ذهب لثاه

قَدْ مِثُّ بَعْدَكَ مِيتَةً مُسْتَوْرَةً قَدْ سَاقَهَا لِي مَوْتُكَ الشَّهْوَرُ^(١)
 وَدُفِنْتُ فِي قَبْرِ الْمَمُومِ وَضَعْنِي كَفَنَانِ ضَيْقِ الصَّدْرِ وَالتَّفَكُّيرِ
 ضَحِكْتَ إِلَيْكَ الْجُودُ ضَحِكَكَ كَلَامًا وَأَفَاكَ ضَيْفٌ أَوْ أَتَاكَ فَقِيرُ^(٢)
 وَسَقَى ضَرِيحَكَ مُسْتَهْلٌ عُمْرُهُ شَهْرٌ وَعُمْرُ النَّبْتِ مِنْهُ شَهْوَرُ
 جُودٌ كَكَفْلِكَ أَوْ كَمِثْلِي أَوْ كَمِ^(٣) أَجْرَاهُ سَيْفُكَ فِي الْعِدَا الْمَشْهُورُ
 وشعره كثير تناول فيه جميع الأغراض ولكننا قنع بما رويناه .

بديع الزمان الهمذاني

هو أحمد بن الحسين بن يحيى بن سعيد بن بشر المكنى بأبي الفضل ، اللقب ببديع الزمان ، وهو عراقي صميم من تغلب ثم من مضر .

نشأته وتصرفه

نشأ بهمدان من بلاد فارس ، وهي بلدة طيبة الهواء ، عذبة الماء ، نزهة الرياض ، معشبة الريف ، فلما عقل عنى أبوه بتعليمه ، فألزمه أبا الحسن أحمد بن فارس بن زكريا العالم اللغوي الشهير ، صاحب كتاب [الجمل في اللغة] فتلقى عنده ، ولقرط ذكرائه اشتغف علوم أستاذه ووعاها في أقرب مدة ، وكذلك تلقى عن عيسى بن هشام الأخبار . ولبث بهمدان إلى سنة ٣٨٠ هـ ، وعمره إذ ذاك سبع وعشرون سنة ، لأن ولادته كانت عام ٣٥٣ هـ .

(١) مات يموت ويمات ويميت .

(٢) الجود : جمع جأد وهو المطر الغزير .

ثم خرج يضرب في الأرض ويتبع الملوك ، وينزل بساحات الأجواد ، والزمن كما علمت زمن اعتزاز بالأدب وحيطة لأهله تتنافس البول القائمة في تقريب العلماء ، وإكرام وفادة الكتاب والشعراء ، فكثرت هؤلاء الرحلة بين شرق وغرب ، فهذه شيراز ، وأرجان ، وسجستان ، وأصبهان ، ونيسابور ، وبخارى ، وحلب ، ومصر وغيرها عواصم يقيم فيها ملوك لا يدخرون وسعاً ، ولا يرضون ببذل في سبيل العلم ، يتفقون بذلك إرضاء شعوبهم بخدمة الدين وعلومه ، كما يلتمسون بذلك تسجيل مفاخرهم ، فبعد أن كانت بغداد هي المثابة لكل نايع يريد أن يثرى من وراء علمه وفضله ، صار في كل مصر من هذه الأمصار بغداد ثانية يقيم فيها للعلم والأدب أكبر وزن . لذلك رأينا كل أديب بارع أو عالم فاضل قد انتجع كل هذه الأمصار ، وإن هو لم ينشط للرحلة أغرى بالمال ، ووعد العطاء الجزل . فهذا التنبي يصعب سيف الدولة بن حمدان بحلب حيناً ، ثم تزين له أطماعه الذهب لأمعاً في يد كافور الإخشيدي بمصر فيقصده ثم يعول على زيارة عضد الدولة بشيراز ، ويعرج على ابن العميد بأصبهان ، ويترفع عن قصد صاحب بن عباد بعد أن استزاره ، وضمن له المشاطرة في ماله ، وعلى نهج التنبي سار كل من نبغ من شاعر أو كاتب ، وقد رأيت ما كان من أبي بكر الخوارزمي .

فتلك سنة هذا العصر قد اتبهما بديع الزمان ، فإنه زایل همدان شاباً في السابعة والعشرين من عمره كما قلنا ، قصد حضرة الصاحب بن عباد فتزوّد منه مالاً وفضلاً ، ثم قصد جرجان فاستفاد من مداخلة الاسماعيلية (فرقة من الشيعة) ، وعاش في أكنافهم ، واختصّ منهم بأبي سعيد محمد بن منصور ، وكان مشهوراً بالفضل مقدّماً على الفضلاء . ثم صحت عزيمته على قصد نيسابور وفيها الأمير أبو الفضل الميكالي فدخلها سنة ٣٨٢ هـ ، فنشر للناس برّه ، وأظهر ظرّزه^(١) وأملى أربعمائة مقامة لم يصل إلينا منها إلا أربعون ، (وسنفردها عنواناً في هذه الترجمة) ، ثم شجر بينه وبين الخوارزمي فافصلنا خبره

(١) من معاني البرز الثياب . والمراد هنا بضاعته من الأدب . الطرز (بالكسر) : الهيئة ويقال هذا طرز هذا : أي شكله .

من مراسلات ومناظرات ومهارات في مجالس حضرها العلماء والأدباء ، فانتصر البديع ،
واندحر الخوارزمي ، وحِمَّ من الحزن ، فلم تنته سنة ٣٨٣ هـ حتى مات ، وخلا الجوُّ
للبدیع ، وطار صيته كلَّ مطار ، وارتفع قلبره عند الملوك والأمراء ، فاستأنف رحلاته
بعدهذه الشهرة الدائنة ، ولم تبق بلدة من بلاد خراسان وسجستان وغزنة إلّا دخلها وجنى
من ثمراتها ، وجبى من مبرّاتها . ثم ألقى عصا التسيار بهرّاة ، (وهى مدينة عظيمة فى
ولاية واسعة على أطراف خراسان مما يلي بلاد الهند) ، فاتخذها قراره ، ثم ما زال
يتمرّف الناس ، ويتوسم الأشراف ليختار منهم رجلاً يصاهره حتى وقفه الله كلَّ
التوفيق فى مصاهرة أبى على بن الحسين الخشتاى ، وهو من أعيان هراة وعلمائها .
فصفت للبدیع الدنيا ، واتسقت الأحوال ، واقتنى بمعونة صهره ومشورته الضياع الملهة ،
ولكن المنية لم تمهله حتى يجنى ثمار كدّه ، ويستريح من عناء رحله ، بل عاجلته ، فخبأ
ضوءه أزهر ما كان وفارق الدنيا أحبّ ما كانت إليه وأثلج ما كان صدرًا بها .
مات رحمه الله يوم الجمعة الحادى عشر من جمادى الأولى سنة ٣٩٨ هـ ، وقيل
مات مسمومًا بما دسّسه له أعداء فضله وحساد جاهه ، وقيل بالسكنة ، وعجل دفنه ،
فأفاق فى القبر ، ثم سمع صوته بالليل . ففتح عليه القبر ، فوجد وقد تغيرت ضجّته ،
وقبض على لحيته ومات من هول القبر كما قالوا ، أو من فساد الهواء على ما ترجح .

نبوغ بديع الزمان

ذاعت للبدیع فى أيامه شهرة دَوّى خبرها بكلّ مكان ، فكان لا يدخل بلدة حتى
يكون فضله قد سبقه إليها فيحلّ بها مكرما وينزل على ملوكها ضيفًا ثم يخرج بالحنائب
البُجُر من الهدايا والألطاف^(١) . وقد أجمع قلة الأدب على الثناء عليه ، وبالفوا فى

(١) الألطاف : جمع لطف أو لطفة (بالتحريك فيها) وهى الهدية .

إطرائه حتى يقول الثعالبي في يتيمة الدهر : « هو مفخرة همدان ، ونادرة القلم ، ويكرم عطارد^(١) ، وفرد الدهر ، وغرة العصر » ، ويقول عنه أبو إسحق الحصري في زهر الآداب : « بديع الزمان اسم وافق مسماه ، ولفظ طابق معناه كلامه غرض المكسر ، أنيق الجواهر ، يكاد الهواء يسرقه لطفاً ، والهوى يشقه ظرفاً » ، ولم تر أحداً قد أخذ عليه بادرة أو عدله هفوة على كثرة ما راج النقد في أيامه ، وجعله الحساد مظهاراً للنقمة على ذوى الفضل كما فعل الصاحب ابن عباد حين غاظه كبر المتنبي عليه ، فلم يسلم له بيت واحد من تقدمه .

فأما أسباب هذا الإجماع على فضل بديع الزمان فهي ما يأتي :

١ — كانت له ملكة سليمة ، وسليقة عربية ورتها من تحلوه في الأصلاّب العربية التي نمته إلى أفصح القبائل ، فهو كما ذكرنا من تغلب ، ثم من مضر معدن الفصاحة ، وبيئة العروبة الصحيحة ، وليس ينكر أثر الوراثة في المرء ، فبديع الزمان قد نشأ في بيئة فارسية فكان يعرف الفارسية ، ولعلها كانت لغة خطابه ، ثم حاول العربية بالدراسة وتلقاها عن المعلمين ، ولكن للملكة دفيناً في المرء يكشفه الصقال وتجوده المحاولة ، لذلك رأينا له طبعاً لا يتخلف ومادة لا تُنَزَفُ ، وسلاسة تدلّ عليه ، ويسراً لا عسر معه ، وسهولة تغري المارض بالإمكان فيرى المستحيل في إمكانه .

٢ — كذلك كان له إلى جانب هذا الطبع السليم ذكاء وقاد ، وعقل راجح قمت جميع قواه من حافظة وذاكرة ومتخيلة ومفكرة ، فلم تقو إحداها بضعف الأخريات ، ولكنها كلها كانت بمثابة من التناسب ومقدار من التماسي لا يتم إلا للمقول الجبارة كما يقولون .

(١) عطارد : نجم من الجنس ، وهي النجوم الخمسة : زحل ، والمشتري ، والمريخ ، والزهرة ، وعطارد وخنوسها أنها قتيب . وهو عند اليونان معتبر إله البلاغة . يقال للبالغ هو بكر عطارد : أي أنه أول من أنجب هذا الإله في البناء ، وفي لسان العرب قال الأزهري : عطارد كوكب الكتاب .

فأما حفظه فقد كان عجباً من العجب كان ينشد القصيدة التي لم يسمعها قط ، وهي أكثر من خمسين بيتاً ، فيحفظها كلها ويؤديها من أولها إلى آخرها لا يجرم منها حرفاً ، ولا يخل بمعنى ، وكان ينظر في الأربعة أو الخمسة من أوراق كتاب لم يعرفه ولم يره ، نظرة واحدة خفيفة ثم يَهْدُّ بها عن ظهر قلبه هَذَا ، ولذلك استحق أن يلقب « بالحافظ » .

و بلغ من تمام عقله ، وشدة ذكائه ، وسرعة بديهته أن كان يقترح عليه عمل القصيدة ، أو إنشاء الرسالة في معنى بديع فيفرغ منها في الوقت والساعة ، وقد يعطى القوافي الكثيرة ، فيأتي بها في أبيات رشقة ، وقد تلقى عليه الأبيات الفارسية فيترجمها في الحال إلى أبيات عربية ، وربما كان المعنى غامضاً متعاصياً ، وربما كان يكتب الكتاب المقترح عليه ، فيبدأ بآخره حتى ينتهي إلى أوله ، فيخرج كأحسن ما يكتب الكاتبون لا أثر فيه للتمهل ولا دليل فيه على التكلف ، وقد سمى الخوارزمي ذلك شعبة (كما مرَّ بك في حديث مناظر اتها) ، وما الشعبة إلا أخذ كالسحر لا يدري مأثاه .

ولو لم يكن في كل هذه المزاي إلا سرعة الخاطر التي جعلت كلامه كله عنو الساعة . ومساوقة^(١) القلم ومساجة اليد ، لكان له به الفضل الذي لا يجحده جاحد . وإن رجلاً يكون من آثار إنشائه أربعمائة مقامة ، وتلك الرسائل الكثيرة التي هي وحدها كتاب ضخيم ، وديوان من الشعر متنوع الفنون ، إن رجلاً يكون له كل هذه الآثار ثم يسلم من قد ولا يوقف له على عيب ، فهو الرجل العبقري الذي تضن بمثله الأجيال ، فهو كما قال الثعالي : « بكر عطارد ، وفرد النهر » .

(١) ساوقة : باراه في السوق . وقد وردت هذه الكلمة في جميع تراجم بديع الزمان « مسابقة القلم » بالراء وهي لامني لها فصيحناها بما ترى .

مقاماته

قد علمت أن اثنين قبل بديع الزمان تقدما بعمل المقامات ، فأما أحدهما فهو أبو بكر بن دريد اللغوى المشهور صاحب كتاب : [جوهرة لغة العرب] المتوفى سنة ٣٢١ هـ ، وأما ثانيهما فهو أستاذ البديع ، وهو أبو الحسين أحمد بن فارس المتوفى سنة ٣٩٠ هـ ، صاحب المجمل فى اللغة . ولم تصل إلينا مقامات هذين الأديبين حتى نستطيع أن نقيس بهما مقامات البديع ، ونعرف إلى أى حد استفاد منهما فى نهجه أو عبارته ، على أن مقامات ابن دُرَيْد قد وصفت لنا ، فكانت بالقياس إلى مقامات البديع خشنة محشوة بالغريب ظاهرة التكلف تنبؤ عنها الطباع ولا تنفتح لها حجب الأسماع ، ولعل مقامات ابن فارس لا تختلف عن مقامات ابن دريد ، فهو لغوى مثله ولم يعرف عنه ترسل كما عرف عن منشئ زمانه .

أما مقامات البديع فقد جاءت سهلة العبارة رشيقة الأسلوب محلاة بالزينة اللفظية البارة من جناس وسجع ، وكل ذلك ثوب لمعان خلاصة وحيل ظريفة كلها فى الكدبية يملؤها بالنكات التى تضحك الشكل ، والفوائد العلمية النادرة .

وقد جعلها مساجلة ومناقلة بين رجلين هما عيسى بن هشام وأبو الفتح الإسكندرى . أما عيسى بن هشام فهو أستاذه الذى تعلم عنه الأخبار ، وكان راوية لها حتى سمى الأخبارى ، فاستعار البديع اسم أستاذه فجعله راوية مقاماته ^(١) ، وأما أبو الفتح الإسكندرى الذى جرت على يده حوادث للمقامات ، فهو رجل من أهل اسكندرية مصر اشتهر بالكُدبية يتكسب بها ، ويستدرّ عطاء الناس بما يجرى على لسانه من لفظ وما يطرّفهم به من حادث فنحله البديع وقائع مقاماته .

(١) لم يذكر ذلك أحد قبلنا من سراج المقامات ولكننا هدينا إليه من مراجعة أسماء أساتذته فعرّفنا من بينهم عيسى بن هشام الأخبارى .

أسلوب بديع الزمان

يتجلى في مقاماته ورسائله وشعره ، ذلك الطبع الطاوع والسليقة الموازية ، فلم يكن يكره لفظاً أليفاً ، ولا يتكلف أسلوباً متعاطلاً ، بل كانت ألفاظه سهلة وأسلوبه سلسلة . أما الحسن البديعي من جناس وسجع وغيرها ، فقد كان يستعمل منه ما هدى إليه الطبع ، وجاء به عفواً خاطراً ، فهو يسجع ولكنه لا يكره قافية على محلها ، ولا يأتي بها قلقلة في مكانها ، ولذلك تخلوله فقر من السجع ، ويكتفى فيها بالمزاوجة فلا يرى أثر التكلف في قوله ، وكذلك أنواع البديع الأخرى ينفق منها بقدر^(١) ، ثم هو لا يستعمل منها إلا الحسن اللفظي الذي لا يعضل ولا يمتصص معه معنى ، وبهذه المزايا استحققت كتابته الإعجاب وخلت من العيب .

وقد تناول في رسائله وشعره كل أغراض القول في أيامه ، فاشتاق واستنبح ، وعتب واعتذر ، واستباح واستهدى ، ووصف وهجا ، وتهكم وقد ، إلى غير هذا مما تراه موزعاً في ديوانه ورسائله ومقاماته .

والبدئية تغلب على قوله وتراها متمثلة في شعره ، ففيه ما اقترحت عليه قافيته ووزنه ، وفيه ما ترجمه من شعر فارسي للوقت والساعة ، ومنه ما طلب إليه الإجابة به عن رسالة وردت لحينها ، ومنه ما كان ردّاً التحية ، أو جواباً عن سؤال في معنى شعر فيفسره بمثله إلى غير ذلك مما تأتي بأمثله منه في مختار قوله .

(١) القدر (بالفتح والسكون) المقدار ويبلغ المعنى .

مختار قوله من رسائله

أول ما كاتب به أبا بكر الخوارزمي قوله : (وقد اتبع فيه طريقة التضمين التي كانت إحدى وسائل التحسين في ذلك العصر) . .
 أنا لقرب الأستاذ ، كما طرب التشوان مالت به الحُر ، ومن الارتياح للقائه ، كما انتفض العصفور بلبلة القطر . ومن الامتزاج بولائه ، كما التقت الصهباء ^(١) والبارد التذنب . ومن الابتهاج بمزاره كما اهتزت تحت البارح ^(٢) الفصن الرطب ، فكيف ارتياح الأستاذ لصديق طوى إليه ما بين قصبتَي العراق وخراسان ، بل عتبتَي نيسابور وجرجان ؟ وكيف اهتزازه لضيف في برودة جمال ، وجِلدة حمال .
 رثَ الشَّمالِ مُنْهَجِ الأَثوابِ بَكَرَتْ عليه مُعِيرَةُ الأَعْرَابِ ^(٣)
 كَمَهْلِهِلٍ وَرَبِيعَةٍ بِنِ مُكَدَّمٍ وَعَيْنَتَهُ بِنِ الحارثِ بِنِ شِهَابٍ
 وهو ولي إتمامه ، بإفاد غلامه ، إلى مستقرى لأفضى إليه بما عندي إن شاء الله تعالى وحده .

وكتب جواباً عن تهنئته بمرض أبي بكر الخوارزمي :

الحُر أطل الله بقاءك ، ولا سيما إذا عَرَفَ الله معرفتي ، ووصف أحواله صفتي .
 إذا نظر علم أن نِعَمَ الله مادامت معدومة فهي أمانى ، فإن وجلت فهي عواري .
 وأن يحن الزمان وإن طالت فستنفد ، وإن لم تُصَبْ فكان قد ، فكيف يَشْمَتُ بالحنة من لا يَأْمَنُها في نفسه ، ولا يَمُدُّها في جنسه ، والشامت إن أَفَلَّتْ فليس يفوت . وإن

(١) الصهباء : الحُر المصورة من غيب أبيض ، وذلك اسم لها كالعلم .

(٢) البارح : الربيع الحارة في الصيف ، والمراد هنا مطلق الربيع .

(٣) الشمال ، جمع شمال وهو شيء كالخجلة يغلى به ضرع الشاة . والمراد أثوابه نهج اللاس

الثوب : أخلقه كنهجه .

لم يمت فسيموت . وما أقيح الشبهة بمن أمن الإمامة ، فكيف بمن يتوقعها بعد كل لحظة ؛ وعقب كل لقطة ، والدهر غرثان طُعْمه^(١) الأخيار ، وظمآن شربه الأحرار ، فهل يَشْمَتُ المرءُ بأنياب آكله ، أم يسرّ الماقل بسلاح قاتله ، وهذا الفاضل شفاه الله وإن ظاهرناه بالمدواة قليلا فقد باطنناه ودأ جھيلا والحرّ عند الحجة لا يضطاد ، ولكنه عنه الكرم ينقاد^(٢) ، وعند الشدائد تذهب الأحقاد . فلا تتصور حالي إلا بصورتها من التوجع لعنته والتحرّز لمرضته . وفاه الله المكروه ؛ ووفاني سماع السوء فيه .

وكتب إلى مستريح عاوده مرارا ، وقال له : (لم لا تُدِيم الجود بالذهب ، كما تدبمه بالأدب) . قال :

عافاك الله . مثل الإنسان في الإحسان ، كمثل الأشجار في الثمار . سبيله إذا أتى بالحسنة ، أن يُزِفَهُ إلى السنة ، وأنا كما ذكرت لأملك عضوين من جسدي وهما فؤادي ويدي . أما الفؤاد فيعاق بالوفود ، وأما اليد فتولع بالجود ، لكن هذا الخلق النفس ، ليس يساعده الكيس ، وهذا الطبع الكريم ، ليس يحتمله الغريم ، ولا قرابة بين الذهب والأدب ، فلم جمعت بينهما ؟ والأدب لا يمكن تَرْدُهُ في قصعة ، ولا صَرْفُهُ في ثمن سلعة ، ولي من الأدب نادرة : جَهِدْتُ في هذه الأيام بالطباع ، أن يطبخ لي من حَبِيبَةِ الشَّامِخِ^(٣) ، لو أنّا قلم يفعل ، وبالتصّاب أن يسمع أدب الكتاب ، فلم يقبل . وأنشدت في الحُجَم ، ديوان أبي تمام ، فلم ينفذ ، وكففت

(١) الطعم ، الطعام .

(٢) الحجة : الفضب . والمعنى أنا لا أطاوع على الشدة ولكني أقاد بالعين .

(٣) العماخ هو ابن ضرار شاعر مخضرم من أوصاف العرب للحميد والنفوس وأرجزم على البديهة ومن جيبته قوله .

دعوت إلى ماتاني فأجابني كريم من الفتيان غير مزج
ففي عملاً الشيرزي وروى ستاه ويضرب في رأس الكمي المذبح
ففي ليس بالراضى بأدنى مينة ولا في بيوت الحى بالتولج

إلى الحَبَام ، مُقَطَّعَات اللَحَام^(١) ، فلم يأخذ ، واحتجج في البيت ، إلى شيء من الزيت ، فأشدت من شعر الكُمَيْت ، ألفاً ومائتي بيت ، فلم تكن ، ولو قَصْتُ أَرْجُوزَةَ الصَّجَاج ، في توابل السُّكْبَاج ، ما عَدَّتْهَا عِنْدِي ، ولكن ليست تقع ، فما أضع ، فإن كنت تحسب اختلافك إليّ ، إفضالا علىّ . فراحتي ، في ألا تَطْرُقُ ساحتي ، وفَرَجِي ؛ في ألا تحبي ، والسلام .

وكتب يعاتب أبا الفضل الميكالي ويستديم ودّه :

لَنْ ساءَ في أَنْ نَلْتَنِي بِمَسَاةٍ لَقَدْ سَرَّنِي أُنَى خَطَرْتُ بِبَالِكَ

الأمير (أطال الله بقاءه) في حالي به وجفائه متفضل ، وفي يومى إدانائه وإيماده مُنْطَوِّل . وهينئآله من حمانا ما يحلُّه ، ومن عُرانا ما يحلُّه ، ومن أعراضنا ما يستحلُّه . بلفي أنه أدام الله عزّه استزاد صنيعه ، فكنت أظنني تجنيئآ عليه ، مُساء إليه ، فإذا أنا في قرارة الذنب ؛ ومثارة القتب^(٢) ، وليت شعرى أى محذور في العشرة حضرته ، أو مفروض في الخدمة رفضته ، أو واجب في الزيارة أهملته . وهل كنت إلا ضيفاً أهدها متزّرع شاسع ، وأذاه أمل واسع . وحدها فضل وإن قلّ . وهدها رأى وإن ضلّ ، ثم لم يُلْقَ إلا في آل ميكال رَحَلَه ، ولم يصل إليهم حبلة ؛ ولم ينظم إلا فيهم شعره ، ولم يقف إلا عليهم شكره ، ثم ما بعدت محبة إلا دنت مهانة ، ولا زادت حرمة إلا نقصت صيانة ، ولا تضاعفت منه إلا تراجعت منزلة ولم تزل الصفة بنا حتى صار وابلُ الإِعْظَام قطره وعاد قيصُ القيام صُدْرَه^(٣) ، ودخلت مجلسه وحوله من الأعداء كتيبة ، فصار ذلك التقريب أزوَراراً ، وذلك السلام اختصاراً ، والاهتزاز إيماءً ،

(١) أبو اللحام : شاعر ولعله هو المراد .

(٢) المني أنه لما افطلع إحسان الأمير حملت ذلك على تنبيه علىّ وظلمه لي بقطعه المرة من غير سبب ولكنني علمت أن هذا منه لما يراه من وقوعي في الخطأ ونسبتي إلى الذنب . والواقع أني لأعلم ذنباً جنيته .

(٣) الصدرة ما يلبس على الصدر « صدري » . والمني عاد الطويل قصيراً .

والعبارة إشارة ، وحين عاتبته آمل إعتابه ، وكاتبته أنتظر جوابه ، وسألته أرجو إيجابه ،
أجاب بالسكوت ، فما ازددت إلا له ولاء ، وعليه ثناء ، لاجرم أتى اليوم أبيض وجه
العهد ، واضح حجة الودّ ، طويل لسان القول ، رفيع محكم العذر ، وقد حملت فلاناً من
الرسالة ما تجافى القلم عنه ، والأمير الرئيس أطال الله بقاءه ينعم بالإصفاء لما يورده موقفاً
إن شاء الله عزّ وجلّ :

وكتب إلى الشيخ أبي الطيب يعزّيه :

تالله ما يضرب الكلب ، كما يضرب هذا القلب ، ولا يقطر الشمع ، كما يقطر هذا
الدمع ، والنار أرقق بالزّناد ، من هذه المصيبة بالأكباد ، وما للسمّ سلطان هذا النعم ،
ولا للغمّر ، طفيان هذا الأمر ، وقسى إلى القبر ، أعجل منها إلى الصبر . وأذناي
بالموت ، آتس منهما بهذا الصوت ، أو لم يكفنا الجرح حتى ذُرّ عليه الملح ، ألم أكن
من أبي القاسم مُنْقَل الظهر فما هذه العلاوة على الحِمْل ، ولم هذه الزيادة
على الثقل .

من هراة وأناين القول والعمل : أعمل في السّماء^(١) ، وأقول وأأسفأ . والحمد لله الذي
كذّر وصقّ . وصلواته على نبيه المصطفى ، وآله المجتبي ، ولولا أن يتطير الشيخ من
مقدّمى فيقول لا يأتيني إلا عند مصيبة لسقيتُ تربة هذا النجم الآفل من دموعي ،
وقدّمت أجداثه بضلوعي^(٢) . ولكنه ألقى في رؤى أن خدمتي هذه طيرة ، وأن
تأخرى عنها خيرة ، فكلما استخفني إليه الجزع ، أقعدني عنه الفرّج . ولو كان أحد
من البرية فوق أن يذكر بالله لكانه الشيخ أدام الله عزّه . لما أوقى من تمام النفس
وكمال الفضل ، والمعركة بأحوال الدهر ، والقضّ على ناجذ الحلم^(٣) ، ولكن تفقد الكريم

(١) السّماء (كسواء) : السّواء . ولراد أنه مريض يبالغ نفسه .

(٢) أى جعلت ضلوعي أجداثاً له .

(٣) الناجذ : الضرس مطلقاً أو أحد أربعة هو الأواخر أو هو الناب . والحلم (بالضم وبضميتين) :
الاحتلام . وناجذ الحلم هو الضرس الذى يثبت عند بلوغ سن الاحتلام والكلام كناية عن
تمام العقل .

لوعة ، ولفجأة المصيبة روعة ليس لها إلا التدبر ، والتذكير والتذكر . فإنا أذكر الله عز وجل الذي أخذ في مشارق الأرض أمره ، وأجرى بين اللحوم والجلود حكمه . وجعل أكثر هذا العالم دونه ، وصان مع ذلك من الشوائب دينه . وأبقى له من صالح الأولاد من يُقِرُّ عينه ، ومن طيب النسل ما يُقوى ظهره وَيَقِيظُ عدوه ، ولن يُنسى الكثير من آلائه ، القليل من بلائه ، والله يجعل هذه المصيبة خاتمة للصائب ، ولا يريه في الأعزّة سوءاً أبداً .

وكتب في تهنئة بفتح الجالية بباب بلخ وهو آخر ما أنشأه .

كتابي أطال الله بقاء الشيخ السيد ، من هزاة عن سلامة ، وصنع الله جميل وسلطانه عزيز ، وكيدة متين ، والحد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على محمد وآله أجمعين . وهذا وربب الكعبة ، آخر ما في الجنبه^(١) ، لقد أنصف القارة^(٢) ، ومعا السيف ما قال ابن دارة^(٣) ، ثم لا تزوّده بعدها للترك ، ولا تحكم بعدها بالملك ، لقد كاس^(٤) السلطان أعز الله نصره ، إذ عقر^(٥) الله شعره ، وعرض على الله فقره ، وفوض إليه أمره ، ونذر الله نذره ، وناهض بالله خصمه ، وسأل الله حوله ، ولم يعجبه كثرة الملاء حوله ، ولم يشغل بخيوله وفيوله ، بذلك شد الله أزره^(٦) ، وقوى أسرّه^(٧) ، وأعز نصره ، وأقطع عضره ، وأطمع مُلكه ، وأورثه أرضه ، إنما الظفر

(١) الجنبه : كناية السهام .

(٢) إشارة إلى المثل « قد أنصف القارة من رامها . والقارة : قبيلة مشهورة بالرمية . »

(٣) ابن دارة : شاعر أكثر من هجاء بني فزارة . فتأمروا في قتله فقال بعضهم لا تقتلوه ولتأخذوا عليه أن يمدحنا فيمحو مدحه ماسق من دم فزموا على ذلك . ثم إن رجلا منهم كان قد أذاه هجاؤه اغغله فضر به بسيفه فقتله وقال في ذلك :

قتل ابن دارة بالجزيرة سيفنا وزعمت أن سبابنا لا يقتل
فأشار إلى ذلك الكيت بن معروف فقال .

فلا تكثرُوا فيه الضجاج فأه معا السيف ما قال ابن دارة أجمعا

(٤) كاس : كان كسا .

(٥) عقره : ألقى عليه الفرس (التراب)

(٦) الأزر : القوة والظهر .

(٧) الأسر : العصب ، ومتانة التركيب .

بأسبابه ، والموفق يأتي الأمر من بابه ، والخالقون أدام الله تمكين الشيخ الجليل وإن
أكلوا الحديد وهاضوه ، وسروا إلى الموت وخاضوه ، وبلغوا العذر وجازوه ، وجهكوا
القتال وصدقوا المصاع^(١) ، وأشهدوا السباع ، فقد حكم الله لهم بالقسولة بعد الهزيمة ،
وطرق إليهم الشتيمة ، فهؤلاء الأشقياء الذين هم فراش النار ، وقشاش^(٢) الدار ،
وأوباش الفرار ، وخشاش^(٣) الأرض ، وعلق السيف ، وحشرات الصيف ، ولقيف
السيل^(٤) ، على سخيخ الحليل ، لا يلزمون دارهم ، ولا يعرفون مقدارهم ، أولا يرون
أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين . لا صبر في القتال ، ولا نوم في الرحال ، رعدة
فوقها صلف ، وراعدة تحتها قصف^(٥) ، يا أبناء الإمام ، ورعاء الشاء ، وحلب
السقاء^(٦) ، وغشاء^(٧) الماء ، وجمع الغواص ، والقواعد من النساء ، ألا يذهب أحدكم
لشانه ، ألا يلزم أحد قطع لسانه ، ألا يقف عند حذّه ، ما للتاج ، وأهل النتائج ؟ .

المختار من مقاماته

منها المقامة الكروفية ، ونقلها برمتها قصرها . قال :
حدثنا عيسى بن هشام قال : كنت وأنا في السن أشد رحلي لكل عماية ،
وأركض طرفي إلى كل غواية ، حتى شربت من العمر سائقه ، ولبست من الدهر

-
- (١) المصاع : التزال والحرب . من ماصه : أي حاربه وجالده .
 - (٢) القشاش : ماعلى وجه الأرض من ثبات الأشياء . وقشاش الناس أراذلهم .
 - (٣) خشاش الأرض (بالثلاث) : حفراتها .
 - (٤) اليف السيل : مايلقه ويجمعه من كل ماص به ، والمراد أنهم أوباش مختلطون كالذى يجمعه السيل في مروه .
 - (٥) القصف : الحور من قصف (كفرح) صار خوارا .
 - (٦) حلب السقاء : مايقه من بقية ماء يستترك يستدر الضرع .
 - (٧) غشاء الماء : ماعليه من زيد .

سابقة ، فلما أن صاح النهار بجانب ليلى^(١) وجعت للمعاد ذيل ، وطئت ظهر المروضة^(٢) لأداء الفريضة ، وحببني في الطريق رفيق لم أنكره من سوء ، فلما تجالينا وخبرنا بجاليها ، سفرت القصة عن أصل كوفي ومذهب صوفي ، وسرنا فلما أحللتنا الكوفة ملنا إلى داره ودخلناها ، وقد بَقَلَ وجهُ النهار^(٣) واحضرَ جانبه ، ولما اغتمض جفن الليل وطَرََّ شاربه^(٤) . قُرِعَ علينا الباب ، فقلنا من القارع المنتاب ؟ . فقال وَقَدْ الليل وبريده^(٥) ، وَقُلْ^(٦) الجوع وطريده ، وَخُرْ قاده الصُّرْ ، والزمن المرّ ، وضيف وطوّه خفيف ، وضالته رغيغ ، وجارٍ يستمدى على الجوع ، والجيب المَرَقوع . وغريب أُوقِدَتِ النار على سَفَره ، ونَبَحَ القوّاء في أثره ، ونُبِذَتْ خلفه الحُصَيَّات ، وكُنِسَتْ بعده العَرَصَات ، فنَضُوهُ طليح^(٧) ، وعيشه تَبَرَّج ، ومن دون قَرْنِخيه مامه فيح . قال عيسى بن هشام : فقبضت من كيس قبضة الليث وبعثتها إليه ، وقلت زِدْنَا سَوَالاً ، نَزِدْكَ نَوَالاً ، فقال : ما عَرِضَ عَرَفَ المُوَد ، على أَحَرٍّ من نار الجود ، ولا لَيْقٍ وَقَدْ البِرِّ ، بأحسن من بَرِيدِ الشكر ، ومن ملك الفضل فليؤَاسِر ، فمن يذهب العرف بين الله والناس ، وأما أنت فحقق الله آمالك ، وجعل اليد العليا لك . قال عيسى بن هشام : ففتحنا له الباب ، وقلنا ، ادخل فإذا هو

(١) يشير إلى قول الفرزدق :

والثيب ينهض في الشباب كأنه ليل يصبح بجانبه نهار

(٢) للمروضة : الدابة المثلثة .

(٣) يقال بقل وجه الغلام : إذا ظهر فيه الشعر (الحية) .

(٤) طر شاربه : نبت شعره . وقد لاحظ الامام محمد عبده في شرحه للقامات أن الأجل أن يكون

احضر جانبه في حين الليل ، وطَرََّ شاربه في حين النهار . كما في بعض الروايات .

(٥) البريد : الرسول .

(٦) القُلْ : للمتهم .

(٧) النضو : المهزول . الطليح : الثوب .

شيخنا أبو الفتح الإسكندري ، فقلت : يا أبا الفتح ، شَدَّ ما بلغت منك انحصاصة .
وهذا الزَّيُّ خاصة^(١) ، فتبسّم وأنشأ يقول :

لا يَمُرُّ نَكٌّ الذي أنا فيه من الطَّلَبِ
أنا في ثروة تُشَقِّقُ لها بُرْدَةُ الطَّرَبِ
أنا لو شئتُ لا تَخْذ تُسَوِّفُها من الذَّهَبِ
أنا طورا من التَّيَبُّطِ وطورا من العرب

ومنها المقامة البلخية ، وهي قصيرة أيضا نقلها برمتها ، قال :

حدثنا عيسى بن هشام قال : نهضت بي إلى بلخ تجارة البَرِّ فوردتها وأنا
بمُدْرَةٍ^(٢) الشباب وبال فراغ وحلية الثروة ، لا يَهْتَمُّ إلا مَهْرُهُ ففكر أستقيدها ، أو
شُرُودُ من الكَلِّم أصيدها . فما استأذن على سمى مسافة مُعَاي ، أفصحُ من كلامي ،
ولما حنى الفراق بنا قَوْسَهُ أو كاد دخل على شاب في زِيٍّ مِلءِ العين ، وحلية تَشُوكُ
الأَخْدَعَيْنِ . وطَرَفٍ قد شَرِبَ ماء الرَّاغِدَيْنِ^(٣) . ولقيني من البر في السَّناء ، بما
زدته في الثناء . ثم قال : أظعنَّا تريد ؟ قلت : إِي والله ؛ فقال : أخَصَبَ رائدُكَ
ولا ضِلَّ قَائِدُكَ ، ففني عزمت ؟ فقلت : غداة غد ، فقال :

صباحُ الله لا صبحُ انطلاق وطيرُ الوصل لا طيرُ الفراق

فأين تريد ؟ قلت الوطن ، فقال : بانث الوطن ، وقضيت الوطر . ففني العود ؟ قلت :
القابل ، فقال : طوبت الرِّيطُ^(٤) وثبتت الخيطُ^(٥) . فأين أنت من الكرم ؟
قلت : بحيث أردت ، فقال : إذا رجعتُ الله سالما من هذا الطريق ، فاستصحف لي

(١) خاصة بالرفق خبر لزي أي زيه دليل وعلامة . وبالنصب مفعول مطلق أي وما أشد ما بلغ منك
هذا الزي خصوصا .

(٢) عنرة الشباب : أوله .

(٣) الرافدان : دجلة والفرات .

(٤) الرِّيط : الثوب الرقيق أو كل ملاء ذات لفقين والمراد أنه يحض ليالى هنيئة .

(٥) المراد بالخيط الزمن من اليوم إلى قابل والمراد بثنيه جعل أحد طرفيه على الآخر أي أنه يستولى
على طرفي المدة من هذا الزمن .

عدواً في بردة صديق . من نِجَارِ الصُّفْرِ^(١) ، يذهب إلى الكفر ، ويرقص على الظفر
كدارة العين ، يحط قتل الدين ، ويتأنق بوجهين قال عيسى بن هشام : فعلت أنه
يلتس ديناراً ، فقلت لك ذلك قدماً ، ومثله وعداً ، فأنشأ يقول :

رَأَيْكَ مِمَّا خَطَبْتُ أَهْلِي لَا زِلَّ لِلْكُورَاتِ أَهْلًا
صَلَبْتُ عُرُودًا وَدُمْتُ جُودًا وَفُتَّ قَرْنًا وَطَبْتُ أَصْلًا
لَا أُسْتَطِيعُ الْعَطَاءَ حِمْلًا وَلَا أُطِيقُ السُّؤَالَ تَقْلًا
قَصَّرْتُ عَنْ مَنَهَاكَ ظَنًّا وَطَلْتُ عَمَّا ظَنَنْتُ فَعْلًا
يَا رُجْمَةَ الدَّهْرِ وَلِلْعَالِي لَا لَقِيَ الدَّهْرُ مِنْكَ تُكْلًا^(٢)

قال عيسى بن هشام : فلتته الدينار ، وقلت أين منبت هذا الفضل ؟ فقال : نمتي
قريش ، وهدى الشرف في بطائعها ، قال بعض من حضر : ألسنت بأبي الفتح
الإسكندري ؟ ألم أرك بالهراق تطوف في الأسواق ، مُكْدِيًا^(٣) بالأوراق ، فأنشأ يقول :

إِنِّ لِلَّهِ حَيِيدًا أَخَذُوا الْعُمَرَ خَلِيطًا
فَهُمْ يُمَسُّونَ أَعْرَا بَا وَيُضْحَوْنَ نَبِيطًا

المختار من شعره

له تسمية في حَجَرِي الرحي ، وقد بعث بها إلى الصاحب بن عباد .
أَخْوَانٍ مِنْ أُمِّ وَأَبٍ لَا يَفْتَرَانِ عَنِ الشُّبِّ
مَا مِنْهُمَا إِلَّا ضَرْبٌ يَشْكُو مُعَانَاةَ التَّأَبِ

(١) الصفر : جمع أصفر وهو الدينار لصفره لونه .

(٢) الرجمة : ما يبنى حول النخلة تستند به والمعنى أنه عماد الدهر .

(٣) في لسان العرب : أ كدى ألح في المسألة ، ويقال لا بكديك سؤال : أي لا يلج عليك .

وكلاما حَتَقِ القَوَا دِ عَلَى أَخِيهِ بِلَا سَبَبٍ
يَغْرِيهِمَا بِالشَّرِّ سَبَطَ الرِّيحِ وَابْنُ أَبِي الْخَسَبِ
مَا مِنْهَا إِلَّا بِهِ شَرَطُ الْيُبُوسَةِ وَالْحَرْبِ^(١)
فَلَنَا بِصُلْحِهِمَا رَدَى وَلَنَا بِحَرْبِهِمَا نَسَبٌ
وَقِيلَ لَهُ كَيْفَ أَصْبَحْتَ فَقَالَ :

أَصْبَحْتُ فِي الْبَيْتِ بِلَا بَيْتٍ أَقْلَبَ الْكَفَّ عَلَى لَيْتٍ
وَصَاحِبِ الْبَيْتِ يَرِيدُ الْكَرَا وَلَيْسَ فِي الْبَيْتِ سِوَى الْبَيْتِ
وَقَالَ فِي تَرْجُمَةٍ مَعْنَى فَارْسِي :

جَيْشُ الْمَلَايِكَةِ وَالْجَلَا لِـ بَوَاجِهِ مِنْ أَهْوَى مُنَاخٍ
فَلَوْ انْتَبَرَى لِلْأَرْضِ فِي أَثَارِ أَزْهَرَتِ السَّبَاخِ
وَأَقْرَحَ عَلَيْهِ أَنْ يَجِيزَ هَذَا الْبَيْتَ :

جَمِيعُ فَوَائِدِ الدُّنْيَا غُرُورٌ وَأَكْثَرُ قَوَاهِ كَذِبٌ وَزُورٌ
قَالَ عَلَى النَّفْسِ ارْتِجَالًا :

إِذَا الدُّنْيَا تَأَمَّلَهَا حَكِيمٌ تَبَيَّنَ أَنَّ مَعْنَاهَا عُيُورٌ
فَبَيْنَا أَنْتَ فِي ظِلِّ الْأَمَانِ بِأَسَدِ حَالَةٍ إِذْ أَنْتَ يُورُ^(٢)
زَمَانٌ فِي قَضِيَّتِهِ جَبُورٌ وَدَوَارٌ بِمَا تَأْبَى دَهْوَرٌ
رَضِيَتْ قَضَاءُهُ أَوْلَسْتَ تَرْضَى فَعُضَّ يَدَيْكَ وَانْظُرْ مَا تَنْصِيرُ

وَقَالَ يَرَى صَاحِبَاهُ لَهُ :

لِنْ أَخْرَزَكَ النَّاعِي لَقَدْ أَخْرَزَنِي النَّاعِي
وَلِنْ بَتَّ بِجَمْعِجَاعٍ لَقَدْ بَتَّنَا بِأَوْجَاعٍ

(١) حَرِيه : سَلْبُهُ مَالُهُ .

(٢) الْبُورُ : الرَّجُلُ الْفَاسِدُ وَالْمَسَالِكُ الْفَوَاحِشُ وَالْجَمْعُ .

أَرْبَ القصر والمنظر مَالَكَ بالقاع
أيا من دونه الموت بنفسى وبأشياى
ويا مؤنس آمالى ويا موحش أطماى
لقد كنت أَرْجِيكَ لِمَا يَسْتَحِقُّهُ السَّامِى
وما نسمو له نَفْسٌ ولا يُدْرِكُهُ بَاعِى

وقال يمدح الأمير فريفون ملك الجوزجان :

ألم تر أُنَى فى نَهْضَتِي لَقِيتُ النفى والمنى والأميرا
ولما التقينا شَمِيتَ التراب وكنت أُمراً لأشَمِّ الصِّيرا
لَقِيتُ أُمراً مِثْلَ غَيْبِ الزمان يطوسحاً ويرسُو بُيُورا
فلا عدى للملك ذَا رَوْعَةٍ يَمُونُ المنى وَيَسُرُّ السِّريرا
لآلِ فَرِيفُونِ فى المسكرات يَدُّ أَوَلا واعتذارُ أخيرا
إذا ما حَلَّتْ بِمَفَنَاهُمُ رَأَيْتُ نَيْباً وَمُلْكَاً كَثِيرا

العلوم فى العصر العباسى

عرفت مما ذكرناه فى المقدمة أن العلوم بلغت فى هذا العصر ثلثمائة أوتزيد، والنذى حدا بالعرب إلى العناية بهذه العلوم هو الضرورة الحافزة، إذ لا يعقل أن أمة يتعاطم عمرانها وتتسع رقعة ملكها كما حدث للأمة العربية ثم تبقى مستغنية عن العلم غير المحسة بالحاجة إليه . فهذه الضرورة المدنية تدفعهم إلى طلب الطب لعلاج مرضاهم ، وتعرف الحساب لضبط جبايتهم ، والهندسة لإقامة مبانيهم ، وهكذا لا ترى علما من العلوم الكونية من فلك وكيمياء وفنون حرب وتدير ملك إلا والمدنية داعية إليه موجبة له . ثم علوم الدين وغيرها من النفسيات تدعو إليها ضرورة الاجتماع حتى تضمن السعادة

لأنهم تزدحم بها مواطنها وتكثر مطالعها وتمتد علاقاتها . ولعلوم اللسان عند العرب شأن خاص إذا كان كتاب دينهم وهو القرآن بالعربية فشأت علومها من نحو ولغة وغيرها في خدمة القرآن حتى يظل واضح البيان مفهوم العبارة .

وقد قيض الله للعلم من نصروره في جميع قترات هذا العصر ؛ فحين كانت الدولة عربية خالصة في أيام الخلفاء الأول أيام المنصور والشيد والمأمون وغيرهم كان يحذوم إلى العناية بالعلم حرصهم على بقاء دولتهم إذ العلم سياج الدول والضامن لبقائها . وقد ساعد على ذلك قوة الدولة وكثرة جبايتها فهل على الخلفاء وهم ذوو السلطان المطلق أن يبذلوا في سبيل العلم . فألهبوا الهمم بعطائهم الكثير حتى رأينا أنه لم يمض على دولتهم قرن من الزمان حتى كانت قد وضعت جميع العلوم الإسلامية وترجم أكثر ما عرف من علوم الأمم القديمة الحديثة ، من يونان وفرنس وكلدان وهنود ومصريين . فاجتمع للعرب علم الأوائل والأواخر وانصرفت الهمم إلى تحصيل هذه العلوم والزيادة عليها حتى أتوا فيها بالعجب العجيب .

وحين ضعف هؤلاء الخلفاء وغلت أيديهم وتقلصت دولتهم من أطرافها لم يضعف شأن العلم ولم يبطل نشاط العلماء ، لأن هذه الإمارات التي اقتطعت من الدولة كان حكامها وشعوبها مسلمين فضمن ذلك للعلم أن يبقى رواجه وتدوم العناية به ؛ لأن أغلب هذه العلوم إنما أحدثت لخدمة الدين وسهولة الوصول إلى فهمه . كذلك شاعت المنافسة بين هؤلاء الملوك أن يبذلوا في إكرام العلماء وإن يقدقوا عليهم العطاء فكان للعلم في عصرهم شأن هو على التحقيق أزهى من شأنه في العصر الأول فكثرت في أيامهم التأليف وكانوا يحملون عليه العلماء ليسجلوا أسماءهم في مؤلفاتهم ، وانتشرت المدارس وكثرت دور الكتب ونبغ الفلاسفة في كل فن وتعددت المحترعات مما سنعه له فصلا في آخر هذا الباب نبين فيه نتائج اشتغال العرب بالعلم .

أقسام العلوم

وهذه العلوم تنقسم في جلتها قسمين : العلوم الإسلامية ، والعلوم الدخيلة ، ويراد بالعلوم الإسلامية كل علم نشأ لخدمة الإسلام والقرآن الكريم ، وهي التي اخترعها المسلمون واشتغلوا بها ابتداء لم ينقلوها عن غيرهم ولم يستعينوا فيها بالنقل عن أمم سابقة . ويراد بالدخيلة تلك العلوم التي صارت إلى المسلمين من طريق النقل عن الأمم الأخرى ، فلم يكن لهم فيها أولاً إلا أثر الهمة في النقل واختيار اللفظ العربي لما ورد بها من مصطلحات ، أو تعريب لألفاظها في تلك اللغات وصقلها حتى تخضع لأحكام العربية . ولا بد لنا من أن نذكر ما كان للعلوم في هذا العصر من نشأة وتدرج وما انتهى إليه أمرها حتى نهاية العصر العباسي .

ونحن بادئون بالعلوم الإسلامية ، وهي تنقسم قسمين : علوماً لسانية ، وأخرى شرعية ، ولما كانت اللسانية إنما أحدثت لخدمة الدين والقرآن ، وكانت في جلتها سابقة للعلوم الشرعية في الوجود ناسب أن نبدأ بها أولاً . وهي أنواع : النحو ، والصرف ، واللغة ، والبلاغة ، والعروض ، والأدب ، (وهو يشمل التاريخ وال نوادر والأنساب ورواية الشعر وقده) .

العلوم اللسانية

النحو

نشأ النحو بصرياً ، لأن أبا الأسود الدؤلي واضعه نزل البصرة ، فاتفق حوله من

تعلمه عنه ، وهم الطبقة الأولى من النحاة ، ومنهم : يحيى بن يعمر ، وعنبسة القليل ، وميمون بن الأقرن . وساعد على نمو النحو في البصرة أن الذين نزلوا بها من جالية العرب كانوا كثيرين ، والبادية حولهم عامرة بالأعراب الفصحاء في نواحي نجد والبحرين ، فسهل عليهم الأخذ عن البادية . أما الكوفة فقد قلّ حولها من تؤخذ عنهم اللغة ، ولم يكن عربها في الفصاحة بمثابة عرب البصرة ، على أنه قد شغلهم منذ قديم رواية الشعر والأخبار ، فانصرفوا عن النحو حينئذ نشأت في البصريين طبقة ثانية هي طبقة عبد الله بن أبي إسحق الحضرمي ، وعيسى بن عمر الثقفي ، وأبي عمرو ابن العلاء ، وأبي الخطّاب الأخفش الأكبر ، وهؤلاء جميعاً أدركوا العصر السامى ماعدا الحضرمي فإنه مات سنة ١١٧ هـ في أيام هشام بن عبد الملك ، وبقي أهل الكوفة لا يشتغلون بالنحو حتى نشأت هذه الطبقة فبدؤوا بالأخذ عنهم ، وقد ذكروا أن أول من عرف النحو بالكوفة شيبان بن عبد الرحمن التيمي المتوفى سنة ١٦٤ هـ ، وكان بصرياً فانتقل إلى الكوفة وسكن بها وهو من تلامذة أبي عمرو بن العلاء ، وقد ظهر معه في طبقته أبو جعفر الرؤاسي ، ومعاذ الحرّاء واضع علم التصريف . ثم تتابعت الطبقات من البصريين والكوفيين فكانت الطبقة الثالثة من البصريين هي طبقة الخليل بن أحمد ، ويونس بن حبيب ، وأبي معاوية بن شيبان . ثم جاءت منهم الطبقة الرابعة ؛ ومن أشهر رجالها : سيبويه ، والأصمعي ، وأبو عبيدة ، وأبو زيد الأنصاري . وكان سيبويه إمام هذه الطبقة أخذ النحو عن الخليل بن أحمد ، وعيسى بن عمر ، وأخذ اللغة عن الأخفش الأكبر . ولسيبويه كتابه الذي كل فيه تقاريع العلم وأكثر من شواهد حتى صار كتابه هو الإمام في هذا العلم ، وحتى صار لشهرته إذا قيل « الكتاب » لا ينصرف إلا إليه .

وقد عاشر هذه الطبقة من البصريين طبقة من الكوفيين كان إمامهم الكسائي ، وهو الذي جمع البرامكة بينه وبين سيبويه إمام البصريين حين قدم بغداد ليظهر بها فضله . تناظرا بمجلس يحيى البرمكي ، وكان موضوع المناظرة هذه المسألة : « كنت أغلن

أن الزنبر أشد لسعاً من القرب فإذا هو هي أو فإذا هو إياها ، فكان سبويه يرى أن الصواب فإذا هو هي : ويرى الكسائي أنه يجوز أيضاً فإذا هو إياها ، وادّعى أن العرب تقول بالوجهين ، فتحاكاً إلى أعرابي ، فكان رأيه مع الكسائي وانخزل سبويه وخرج من بغداد ولم يعد إليها .

وقيل : إن الانتصار إنما تم للكسائي بخديعة وتدليس^(١) . ذلك أن الدولة كان ضلعا مع الكوفيين لأنهم شيعتهم ، فكانوا يؤثرونهم على البصريين ، ويختارون منهم مؤدبي أبنائهم وحضار مجالسهم ، فأراد يحيى البرمكي أن يحمل الأعرابي الذي اختير للفصل في هذه المسألة على أن يقول برأى الكسائي ، فلم يطاوعه لسانه ، فاتفقوا على أن يقولوا له بمحض الناس يقول الكسائي كذا ويقول سبويه كذا فغلب أيهما الصواب ؟ فيقول الأعرابي مع الكسائي . ففعل الأعرابي ذلك فكان قوله فصلاً ، وانخزل سبويه . ثم كانت طبقة خامسة من البصريين إمامها الأخفش الأوسط ويقابلها من الكوفيين طبقة القراء وهو تلميذ الكسائي ومؤلف كتاب الحدود ، وكان المأمون قد أمره أن يؤلف كتاباً يجمع به أصول النحو ، وأمر أن تفرّد له حجرة في دار الحكمة ، وוכל به من يكفيه كل حاجة حتى لا يتعلق قلبه بشيء حتى إنهم كانوا يؤذنون له في حجراته بأوقات الصلاة ، فألف كتابه الحدود حفظ به العربية . ومن فضله كان يقال عنه « القراء أمير المؤمنين في النحو » ، ثم جاءت طبقة المبرد من البصريين يقابلها طبقة ثعلب من الكوفيين .

(١) القول في هذه المسألة مقال سبويه وعلى مثاله قوله تعالى فإذا هي يضاه . ولو ثبت النصب لكان خارجاً عن القياس واستعمال الفصحاء ، وقد ذكر في توجيه أمور منها :

أولاً : أن الظرف وهو إذا نصب الضمير لأن فيه معنى وجدت ورأيت .
ثانياً : أن الضمير استعير من مكان ضمير الرفع ، قال ابن مالك ويشهد له قراءة إياك بعيد .
ثالثاً : أن الضمير مفعول به والأصل فإذا هو يساويها ونظروا له بقوله تعالى : لن أكله الذئب ونحن عصبه (بنصب عصبه) .

رابعاً : أنه مفعول مطلق ، والأصل فإذا هو يسمع لسانها وهذا أشبه ماوجه به النصب .
خامساً : الضمير منصوب على الحال من الضمير في الخبر المحذوفه والأصل فإذا هو ثابت مثلها .

ثم لم يكن بعد هؤلاء تجديد في النحو، وإنما كان عمل من أتى بعدهم شرح كلام السابقين أو اختصاره للناشئين، وبطلت العصبية الكوفية والبصرية، فكان الواحد من هؤلاء العلماء يجمع آراء أهل البلدين لا يزيد على الترجيح بينها والمفاضلة، ومن هؤلاء : بن درستويه المتوفى سنة ٣٤٧ هـ، وأبو على الفارسي المتوفى سنة ٣٧٧ هـ، والسيرافي المتوفى سنة ٣٦٨ هـ، والزماني سنة ٣٨٤ هـ، وابن جني سنة ٣٩٢ هـ، والربيعي سنة ٤٢٥ هـ، والزنجشري صاحب الفصل المتوفى ٥٣٨ هـ، وابن الشجري سنة ٥٤٢ هـ؛ وهؤلاء جميعاً كانوا يبتدأ وماتوا بها، وإنما كانوا يرحلون إلى ملوك الشرق، إجابة لرغبتهم، وطبعاً في عطائهم، ومن النحويين في غرب المملكة الإسلامية بمصر والشام ابن النحاس المصري المتوفى سنة ٣٣٧ هـ، وابن خالويه أحد العلماء بمحضرة سيف الدولة بن حمدان، وقد توفي سنة ٣٧٠ هـ، وابن برى المقدسي المصري المتوفى سنة ٥٨٢ هـ، وابن الحاجب صاحب الشافية في الصرف والكافية والأمال في النحو المتوفى سنة ٦٤٦ هـ.

الفروق بين مذهبي البصريين والكوفيين

كان البصريون لقربهم من العرب الخلف يستطيعون الاستشهاد على كل مسألة من مسائل العلم. فكانوا لذلك أهل سماع لا يميزون رأياً إلا إذا أيدوه بالشاهد واحتجوا له بكلام العرب؛ أما الكوفيون فقد كانوا أهل قياس لعدم استطاعتهم النقل عن العرب كما استطاع إخوانهم، فحين وجد البصريون شاهداً لكل مسألة من مسائل العلم لجأ الكوفيون إلى القياس، وحين أخذ الكوفيون غير متحرجين استطاع البصريون ألا ينقلوا إلا عن تمت ملكاتهم وعرفوا بفصاحة ألسنتهم. هذا هو مجمل الفرق بين المذهبين، ولا نزال إلى الآن نرجح المذهب البصري على المذهب الكوفي لاختلاف مبنى المذهبين كما رأيت.

وقد احتدم الجدل بين أهل البلدين وتعددت مسائل الخلاف بينهما وألف فيها كثيرون أشهرهم كمال الدين الأنباري للتوفى سنة ٥٧٧ هـ ألف كتاب : (الإنصاف ، في مسائل الخلاف) وأبو البقاء البكري ألف كتاب : (التبيين ، في مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين) ؛ وقد تلخص السيوطي هذه المسائل وأتى بها في الجزء الثاني من كتابه (الأشباه والنظائر) ، وبلغ مجموع مسائل الخلاف مائة مسألة واثنين ، وهذه أمثلة منها تراها موزعة في كتب النحو :

- ١ — الاسم مشتق من السموّ عند البصريين ، ومن الوسم عند الكوفيين .
- ٢ — الفعل مشتق من المصدر عند البصريين ، والعكس عند الكوفيين .
- ٣ — عند البصريين لا ينوب الظرف والجار والمجرور عن الفاعل مع وجود المفعول ويمحوز ذلك عند الكوفيين .
- ٤ — عند البصريين لا يبنى فعل التعجب من الألوان إلا بواسطة أشدّ وأشدد ونحوهما ويمحوز بناؤه من السواد والبياض بلا واسطة عند الكوفيين .
- ٥ — يحوز عند البصريين تقديم خبر ليس عليها ، ولا يحوز عند الكوفيين .
- ٦ — لا يقدم الاستثناء على المستثنى منه عند البصريين ، ويمحوز عند الكوفيين .
- ٧ — العدد المركب خمسة عشر يعرف صدره فقط عند البصريين ، ويمحوز تعريف المعجز مع الصدر عند الكوفيين ، فيقال على رأى الأولين جاء الخمسة عشر رجلا ، ويمحوز على رأى الآخرين جاء الخمسة عشر رجلا .

علم اللغة

هو كعلم النحو لم يكن وليد هذا العصر بل قد بحث أيام الأمويين ، لأنهم كما تعلم عنا بالربية من جميع أطرافها ، فكانت لهم بألفاظ اللغة عناية تمثلت في استفسارهم عن معاني كلماتها إذا وردت في شعر أو نحوه ، فقد ذكروا أن عبد الملك كان في

مجلس يضم خاصته وسنمارة ، فقال لهم : « أيكم يأتي ببحروف المعجم في بدنه ، وله على ما يتناه ؟ فقام إليه سويد بن غفلة وقال : أنا لها يا أمير المؤمنين ، فقال قل ما عندك . قال : أنف . بطن . ترقوة . ثغر . جحمة . حلق . خد . دماغ . ذكر . رقية . زند . ساق . شفة . صدر . ضلع . طحال . ظهر . عين . عنبية^(١) . فم . قفا . كف . لسان . منخر . نُفُغ^(٢) . هامة . وجه . يد . فهذه آخر حروف المعجم والسلام على أمير المؤمنين .

فقام بعض الجالسين وقال : أنا أقولها في جسد الإنسان مرتين فضحك عبد الملك وقال اسويد : أما سمعت ما قال ؟ قال أنا أقولها ثلاثا ، فقال له : « لك ما تمضي » ، فقال : أنف . أستان . أذن ، بطن . بصر . بزباز^(٣) ، ترقوة . تينة^(٤) . تمرة ، ثغر . ثنايا . ثدى ، جحمة . جنب . جهة ، حلق ، حنك^(٥) . حاجب ، خد . خصر . خاصرة ، دبر . دماغ . دُزْدُر^(٦) ، ذقن . ذكر . ذراع ، رقية . رأس رقية ، زند . زَرْدَمَة^(٧) . زغب ، ساق . سرّة . سبابة ، شفة . شعر . شارب ، صدغ . صدر . صلعة ، ضلع . ضفيرة . ضرس ، طحال . طرة . طرف ، ظهر . ظلم^(٨) . ظفر ، عين . عنق ، عاتق ، غيبة . غلصمة . غنة ، فم . فك . فؤاد ، قلب . قدم . قفا ، كف . كتف . كمب ، لسان لحية . لوح ، مِرْفَق . مَنَكِب . منخر . نفنوغ . ناب . نَن^(٩) ، هامة . هَيْف . هياة . وجه . وجنة . ورك ، يمين . يسار . يا فوخ ؛ ثم نهض مسرعا ،

(١) اليب : اللحم التندل تحت الحنك .

(٢) النفغ : اللحية في الحلق عند الهازم ، والاهزمتان : نائتان تحت الأذنين .

(٣) البزباز : الفرج .

(٤) التينة : الدبر .

(٥) الحنك : ماتحت الذقن .

(٦) البودر : مغارز أستان الصبي .

(٧) الزردمة . موضع الاجتلاع .

(٨) الظم : ماء الأسنان ويريقها ، وهو كالوادر يداخل السن من شدة البريق .

(٩) الن : الشعر الضعيف .

وقبل الأرض بين يدى عبد الملك ، فقال : والله ما تزيد عليها ، أعطوه ماتنى ، وأعطاه كثيرا .

وقبل عصر التأليف لم يكن سبيل إلى معرفة كلمة أو الوقوف على معناها إلا بمشاهدة الأعراب أو سؤال أهل العلم أو العثور عليها في شعر يفسرها ، ويبين موقعها فيه . ففكر الأئمة في وضع كتب يجمعون فيها الألفاظ ويشرحون معناها ، ولكن الفكرة لم تأتهم كاملة كما هي الآن في معاجم اللغة التي بأيدينا ، بل إنهم كانوا يقصرون أبحاثهم على أنواع خاصة من الكلمات ، فكتاب مثلاً في النخل والكرم يبحث في أسماء أنواعهما وأغصانهما وما يتعلق بهما من ثمر وأوراق ، وما يرتبط بذلك من أفعال في غرسها وظهورها ، وأثمارها وقطعها وغير ذلك ؛ وللاصمى في هذا الباب فضل عظيم فأكثر كتبه الباقية للآن من هذا النوع . منها : كتاب أسماء الوحوش ، وكتاب الإبل ، وكتاب خلق الإنسان ، وكتاب الشاء ، وكتاب الخيل ، وكتاب النبات والشجر ، وكتاب النخل والكرم للتقدم ذكره .

وعلى خطة الاصمى : سار الثعالبي في فقه اللغة في حصر الكلمات تحت معانيها ، وكذلك فعل بن سيدة^(١) في المختصر .

أما طريقة وضع المعاجم مرتبة على حروف الهجاء ، فيقال : إن أول من اختصرها هو الخليل بن أحمد الفراهيدى ، ذكروا أنه ألف كتاب العين ، وسماه كذلك لأنه بدأه بحرف العين إذ اقتضى الترتيب في نظره أن يجعلها على حسب الخارج وأقصاها الحلق ثم يليه اللسان ثم الأسنان ثم الشفتان ، وكان ترتيب الحروف على نظامه هكذا : ع ح هـ خ غ

(١) ابن سيدة (بسين مكسورة بعدها ياء ساكنة ودال مفتوحة وهاء ساكنة) : هو الحافظ أبو الحسن بن علي بن اسمعيل ، كان اماماً في اللغة والعربية حافظاً لها وكان ضريراً ، وله المحكم في اللغة ومنه أجزاء بدار الكتب لاثم بسنة ، وله « المختصر » وهو مطبوع بمصر في سبعة عشر جزءاً . توفي سنة ٤٥٨ هـ وهو أبديلى من مدينة مرسية ولذلك يلقب بالمرسى . (كتابنا إجماع الأعلام) .

ق ك ج ش ض ص س ز ط د ث ل ن ف ب م ا ي و^(١).

ويظهر من وصف كتابه أنه كان يحوى شواهد الكلام، ويعرض لأراء في النحو كما بحث في أوله عدد المهمل وللمستعمل من الألفاظ، ولكن هذا الكتاب ظل متوارياً بعد الخليل نحوستين عالماً حتى قدم به وراق من خراسان سنة ٢٤٨ هـ، فباعه في البصرة بخمسين ديناراً. ويقال إن الخليل عمل الكتاب وحج خلفه بخراسان، فكان في الخزائن الطاهرية حتى وجه به إلى العراق. وقال ابن النديم في فهرسته: إنه لم يرد لهذا الكتاب ذكر في الأخبار ولا عدّ من آثار الخليل قبل ظهوره على يد هذا الوراق. ويرجح جماعة من الثقات أنه موضوع منحول بدليل أن ما فيه من قواعد النحو إنما ورد على مذهب الكوفيين والخليل بصرى وقد اختصر هذا الكتاب^(٢)، أبو بكر الزبيدي الأندلسي المتوفى سنة ٣٧٩ هـ اختصاراً لطيفاً حذف فيه الشواهد، وبقاه من التصحيف والأبنية المختلة، فشاغ المختصر، وأقبل الناس عليه وفضلوه على الأصل. وبسبب اختفاء كتاب الخليل هذه المدة بقي التأليف في اللغة منحصراً في طريقة الأصمعي، وابن الأنباري (٣٢٨ هـ)، والنضر بن شميل (٢٠٣ هـ)، وابن الأعرابي (٢٣١ هـ)، وابن السكيت وغيرهم، ومضى على زمن الخليل أكثر من قرن، ولم يؤلف في اللغة كتاب على نظام كتاب العين^(٣) حتى جاء أبو بكر بن دريد، فألف كتاب الجهرة^(٤) في اللغة، ولم يتبع فيه ترتيب الخليل، فبيداً بالعين بل جعله على الترتيب الأبجدي المشهور (ألف باء تاء)، ولكن البحث فيه يخالف ما نألفه الآن من كتب

(١) وهذا الترتيب في الحروف على رأى الخليل يؤخذ من الآيات الآتية باعتبار أوائل كلماتها.

علقت حبياً هنت خيفة غدوه
قليل كرى جفنى شكا خرصده
سبا زهوه مقلدا ديانة تائب
ظلامته ذنب قوى ربع لحده
نواظره لناكه بميسده ملاحته أجرت يابيع وجهه

(٢) وتوجد نسخ خطية من مختصر الزبيدي بمكتبات أوروبا.

(٣) كتاب العين هو رواية الليث عن الخليل، وفي دار الكتب المصرية قطعة منه مطبوعة في شداد من الجزء الأول تنتهى إلى مادة جمع.

(٤) من الجهرة نسخ خطية في لندن وغيرها من مكتبات أوروبا، ونسخة ناقصة بدار الكتب المصرية.

اللغة لأنه إذا ذكر مادة (ع ل ن) مثلاً قلبها على أوجها وأتى بمعانيها في جميع الأحوال فيفسر العن واللعن والنعل ، وقد تلمذ لابن دريد أبو منصور محمد بن أحمد ابن الأزهري الملقب بالأزهري المتوفى سنة ٣٧٠ هـ ، وكان فقيهاً فغلبت عليه اللغة وقرأ على ثعلب وابن دريد ونقطويه ، وطاف بلاد العرب في طلب اللغة ، فأخرج معجمه المسمى تهذيب اللغة ، فجعله على ترتيب مخارج الحروف كما فعل الخليل ، وفي المكتبة الملكية جزءان (الأول والثاني) من هذا الكتاب عدد صفحاتهما ألفان ينتهي الثاني منهما بمادة « ذرا » ، ومنه نسخ كاملة بمكاتب الآستانة وطب .

ثم جاء صاحب بن عباد الكاتب المشهور وزير مؤيد الدولة ثم أخيه نجر الدولة ابنه ركن الدولة ، المتوفى سنة ٣٨٥ هـ ، فأخرج كتابه المحيط وهو في سبعة مجلدات والمجلد الثالث منها بالمكتبة الملكية ، وقد أكثر صاحب في كتابه من الألفاظ وقل من الشواهد .

ثم جاء بعده أبو الحسن أحمد بن فارس (٣٩٠ هـ) أحد وضاع المقامات وأستاذ البديع المهنداني ، وكتابه مجمل كما يستفاد من اسمه « المجمل » ، وفي كتب المرحوم الشنقيطي نسخة منه في مجلدين يحتويان ١٣٠٠ صفحة حسنة الخط ، وقد عاش في زمن ابن فارس أبو إسماعيل بن حماد الجوهري (٣٩٨ هـ) ، وهو من فزارب ببلاد الترك ، وقد كان واسع العلم في اللغة سافر إلى البدو ، ودخل ديار ربيعة ومضر ، وطاف الحجاز . ثم أخرج كتاب : « تاج اللغة وصحاح العربية » ، وقد جاء كتابه أوفى من المجمل لابن فارس ، وتهذيب الأزهري ، وجمهرة ابن دريد ؛ ويتميز عليها بأنه استوعب أكثر الألفاظ المستعملة في السنة العرب لزمه وحفظها السماع عن عاشرهم من أهل البادية ، وقد جعل القاعدة في ترتيب الألفاظ على أواخر الكلمات .

يؤخذ على الصحاح خطأ في ضبطه وتصحيح بعض ألفاظه ، لأن صاحبه مات قبل أن يبيضه وينقحه إذ كان قد وسوس في عقله ، فزعم أنه يطير ، وقال : أيها الناس إني قد عملت في الدنيا شيئاً لم أسبق إليه ، وسأعمل للآخرة مثله ، ثم أتى بمصرعي باب

وضمهما إلى جنبه ، وصعد مكاناً عالياً في جامع نيسابور ، ثم أهوى فوق ميثاً ، وقد ألف كثيرون في نقد الصحاح ، وآخرون في الاحتجاج له . والكتاب مطبوع في مصر .

ثم جاء جار الله الزخشرى ، فأخرج كتابه : (أساس البلاغة) ، وهو يمتاز بأنه يفصل بين الحقيقة والمجاز في الكلمة ، وقد خلط ذلك المتقدمون ، ثم أنه يأتي بالكلمة مستعملة ، ويلم بالشواهد إلماً مناسباً ، وقد رتب على حروف المعجم ، ولكنه جعل ذلك حسب أوائل الكلمات ، فساؤه همزة قبل ماؤه باء ، ويراعى مع الأول الثاني ثم الثالث فيأتى مثلاً بطعم ثم طم ثم طمن ثم طما وهكذا .

وبهذه المعاجم ينتهى تكوين اللغة وحصرها وجميع من يأتى بعد هؤلاء الذين ذكرناهم ليس له أثر في جمع ما لم يجمع أو قل ما لم ينقل لأن اللغة كانت قد فسدت بالبادية ، فلم يكن لمؤلفي المعاجم إلا جمع ما تفرق منها واختصار ما طال ، ومن كتب اللغة بعد ما تقدم : (الباب الزاخر ، والباب الفاخر) لرضي الدين الصاغاني المتوفى سنة ٦٥٠ هـ ، ولم يمه بل وقف فيه عند مادة « بكم » .

وقد قال فيه بعض الشعراء فحسنت منه التورية كل حسن :

إن الصغاني الذي حاز العلوم والحكم
كان قصارى أمره أن ينتهى إلى بكم

وكان قد ألف قبله : (تكملة الصحاح) ، وهى بعض حواشى الصحاح ذكر فيها ما فاتته من اللغة وناقضه في بعض مواضع ، وهى أكبر حجماً من الصحاح ، فجمع بينهما في كتاب سماه : « مجمع البحرين ^(١) » ، وكذلك لأبى السعادات المبارك المعروف بابن الأثير كتاب أسماء : « النهاية » ، فى غريب الحديث والأثر ، وهو مطبوع بمصر فى أربعة مجلدات ، وقد جعل ترتيبه كترتيب الأساس ، وكلامه خاص بالألفاظ التى

(١) ليس بدار الكتب المصرية من هذه التأليف للصغاني إلا التكملة واسمها (التكملة والذيل والعملة) .

وردت في الأحاديث النبوية ، وأثار الصحابة رضوان الله عليهم ، فهو في غالب شأنه خدمة لعلم الحديث وليس كتاباً عاملاً في اللغة .

علوم البلاغة

تتعلق هذه العلوم بضمّ الكلمات وتركيب الأساليب والنظر فيما يحسن العبارة بعد استيفائها شرط الصحة ، وهذه العلوم قد بحثت مسائلها متفرقة غير مضمومة إلى أبواب العلم ولا محصورة في تقاسيمه . وكان ذلك منذ العصر الأموي حين أوع العرب بالنقد فهابوا القول الملهل والقوافي القلقة والاستعارات البعيدة والتشبيهات غير المقبولة مما تراه مروياً في كتب الأدب عن معاوية وعبد الملك وهشام وجلسائهم . والحق أن تلك العلوم بهذا الاعتبار الواسع الذي قد خلقت مع العرب من يوم عرفوا الكلام وذاقوه ، وتحركت ألسنتهم بنقله وتمييز مقبولة من مردوده .

والذي نبهته في هذا الباب هو تكون هذه العلوم وصيرورتها إلى ما صارت إليه من اقسامها إلى أنواعها الثلاثة وحصر مسائلها في كتب خاصة لا تختلط بغيرها من مسائل العلوم الأخرى .

فنقول : إنه لما ضعفت لللكات في العصر العباسي عن إدراك الأسرار في الأساليب ، وحسن الالتئام بين الكلمات ، وخفي على الناشئين في اللغات الأعجمية كثير من أسرار الكلام تكوّنت مباحث هذه العلوم من الأبحاث التي جرت في بعض آي القرآن وكلام البلغاء ، كالذي عرض من الشبهة لهذا الذي سأله أبا عبيدة في مجلس الفضل من الربيع في معنى قوله تعالى : « ظَلَمُوا كَأَنَّهُمْ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ » ، فقال له هذا على حدّ قول الشاعر (أمرئ القيس)

أَيْتَلْنِي وَلِمَشْرِفِي مُضَاجِي وَمُسْتَوْنَةُ زَرْقِ كَأَنْيَابِ أَغْوَالِ

ومثل الذي كان من أبي يوسف يعقوب الكندي الفيلسوف الذي ركب إلى

أبى العباس المبرد وقال له أرانى أجدف فى كلام العرب حشواً ، فقال أبو العباس : فى أى موضع وجدت ذلك ؟ قال : أجدف العرب يقولون : عبد الله قائم ، ثم يقولون : إن عبد الله قائم ، ثم يقولون : إن عبد الله قائم ، فالألفاظ متكررة والمعنى واحد ، فقال أبو العباس بل المعانى مختلفة ؛ فالأول إخبار عن قيامه ، والثانى جواب عن سؤال سائل ، والثالث جواب عن إنكار منكر ، وقد تكررت الألفاظ لتكرار المعانى .

كذلك كان لالتجاء المتقربين إلى استعمال الغريب وتنطسهم به وتزيدهم على الناس أن بحث العلماء فى حدّ الفصاحة وشروطها ، فنفوا أن يكون هذا التعقير فصاحة بل عدوه سخفاً ، وكذلك كان التعصب للقديم من الشعر والزيادة على الحديث منه مثاراً للجدل فى مسائل هذه العلوم ، فوازوا بين أسلوب وآخر وفضلوا استمارة على غيرها .

كذلك كان الشعراء المحدثون أمثال : بشار ، وأبى نواس ، ومسلم ؛ ومن تقيهم يعنون بالحسن البديع ، ويستعملونه على نسق ما جاء فى القرآن وكلام العرب منه ، ولكهم أكثروا من هذا من غير أن يعرفوا أسماء ما يستعملون غالباً حتى نبه ذلك ابن المعتز إلى حصر هذه الأنواع فى كتاب عمله ، وسماه : « البديع »

وكان أعظم داع إلى بحث هذه العلوم هو الدفاع عن بلاغة القرآن لما نشأ من الزنادقة والملحدّين وغيرهم من يعيبه ، ويقول : إنه فى مقدور العرب وأن الله صرّفهم عنه ، كما فعل النظام وغيره . فدعا كل هذا العلماء إلى بحث مسائل هذه العلوم متفرقة .

وإذا أردنا أن ترتب كيف تخلقت بضعة هذه العلوم ، ثم تمثلت بشراً سوياً ، فإنا نذكر أن أول ما بحث منها هو بعض مسائل علم البيان . فقد ألف أبو عبيدة المتوفى سنة ٢٠٦ هـ كتابه : (مجاز القرآن) على أثر السؤال الذى تقدّم ذكره عن معنى قوله تعالى : « طَلَّهَا كَأَنَّهُ رُيُوسُ الشَّيَاطِينِ » . ثم تابع العلماء بعده فوضعوا رسائل وأملوا مجالس فى الاستعارة والسكناية ، ثم جاء الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ ، فأخرج كتابه (إيجاز القرآن) ، و : البيان والتبيين) ، فبحث فى معنى الفصاحة والبلاغة ،

ولم يكن يفرق بينهما وتكلم في الأسجاع ، وما يحسن وقه منها وما يسوء ، وأتى للمستكره بأمثلة من أسجاع السكهان إلى غير ذلك مما بحث في أبواب متفرقة من كتابه : (البيان والتبيين) . أما كتاب : (إعجاز القرآن) ، فلم يصل إلينا ، ولكن أسمه وحده كاف للدلالة على موضوعه ، وأنه كان حجاجاً ومخاصمة للمخالفين له في الرأي الطاعنين في إعجاز القرآن .

وأتى بعده ابن المعتز الخليفة العباسي المتوفى سنة ٢٩٦ هـ ، فتبع ما في الشعر من محسنات ، وألف كتاباً سماه : (البديع) ، وذكر فيه سبعة عشر نوعاً هي : التشبيه الاستعارة . السكناية . التجنيس . الطباق . ردّ العجز إلى الصدر . المذهب الكلامي . الالتفات . التمام . الاستطراد . تأكيد المدح بما يشبه الذم . تجاهل العارف . حسن التضمين . الإفراط في الصفة . عتاب المرء نفسه . حسن الأبتداء . الهزل الذي يراد به الجد ؛ وكان يستشهد عليها بآيات من القرآن وكلام الجاهليين ، وإنك لتري في موضوعات كتابه أن العلوم الثلاثة : (معان . بيان . بديع) لم تنفصل بعد ولم توضع لها حدودها ، فإن مما سماه بديعاً كل مسائل علم البيان وهي : التشبيه ، والاستعارة ، والسكناية .

ثم كان من المعاصرين لابن المعتز ، قدامة بن جعفر البغدادي المتوفى سنة ٣١٠ هـ ، فإنه ألف كتاباً في نقد الشعر سماه : (نقد قدامة) ، وأتى فيه بعشرين نوعاً توارد مع ابن المعتز في سبعة منها ، وهي : الجناس ، والطباق . الالتفات . والتشبيه . والمبالغة . والاستعارة . والتتيم ؛ وانفرد بثلاثة عشر .

ثم جاء أبو هلال العسكري المتوفى سنة ٣٩٥ هـ ، فألف كتابه المسمى : (كتاب الصناعتين : الشعر والكتابة) ، وقد ذكر في مقدمته : « وقد علمنا أن الإنسان إذا أغفل علم البلاغة ، وأخل بمعرفة الفصاحة لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ما خصه الله به من حسن التأليف ، وبراعة التركيب وما شحنه به من الإعجاز البديع والاختصار اللطيف ، وضمنه من الحلاوة ، وجلله من رونق الطلاوة . . . » ، ثم كان

من موضوعات الكتاب : البلاغة والفصاحة لغة . الإيانة عن معنى البلاغة . الإيجاز والاطناب . التشبيه حسنه وقبيحه . السجع والازدواج ، البديع وهو خمسة وثلاثون نوعاً . ذكر مبادئ الكلام ومقاطعها . القول في الفصل والوصل .

فأنت ترى من مراجعة فهرس هذا الكتاب أن العلوم لم تميز ، وأن الفصاحة والبلاغة لا تزالان لفظين مترادفين لمعنى واحد ، وأن علم البديع بلغ خمسة وثلاثين نوعاً مع ملاحظة أنه لم يعد السجع والازدواج منه ، ولكن علم البديع ظاهر الاستقلال عن أخويه لأنه جمع مسائله على ما يرى تحت عنوان واحد وهو « البديع » .

فكتاب الصناعتين هو أول كتاب أشير فيه إلى مسائل العلوم الثلاثة أى أنه ذكر مسائل من علم المعاني كالإيجاز والاطناب والفصل والوصل وأخرى من البيان وهى التشبيه ، ولكنه لم يدل على أن هذا من موضوعات علم المعاني ، وذلك من موضوعات علم البيان ، ولكن الذى صرح به وحصر أنواعه هو علم البديع كما عرفت .

ثم جاء الإمام عبد القاهر الجرجاني للتوفى سنة ٤٧١ هـ ، فألف كتابيه : « دلائل الإعجاز » ، و « أسرار البلاغة » ، وجعل الأول خاصاً بمسائل علم المعاني ، فأتى فيه بتحقيق القول في الفصاحة والبلاغة ، ولم يفرق بينهما ، ثم تكلم في التقديم والتأخير والذكر والحذف والفصل والوصل والتعريف والتكثير والقصر والتأكيد ، وقد تكلم في هذا الكتاب عن الاستعارة والتثيل ، ولكنه تناوله من ناحية التأثير وبيان فسيطة الكلام بهما ؛ وفي كتاب (أسرار البلاغة) بحث في موضوعات علم البيان من التشبيه وأقسامه والاستعارة وأنواعها والجاز العقلي واللغوى ، ولكن الذى نلاحظه أنه لم يتناول مباحث علم البديع . وإذا كنت قد علمت أن البديع متميز منذ ألف فيه ابن المعتز وصاحب الصناعتين ، وأن عبد القاهر حدّ موضوعات المعاني والبيان ، فتكون علوم البلاغة على أيام عبد القاهر قد تميزت وانفصلت أنواعها وحصرت مسائل كل علم وحدها ، وإن كان لم يأت في كلامه ما يدل على أنه يسمي

مباحث : « دلائل الإعجاز » علم المعاني ، ومباحث « أسرار البلاغة » علم البيان ، وإن كنت ترى على ظاهر الكتاتين تحت عنوان الأول : « في علم المعاني » ، وتحت عنوان الثاني : « في علم البيان » ، فأكبر ظني أن هذه من زيادة الطابع ، ولا يدل إهمال عبد القاهر لمباحث علم البديع على جهل بها فإنه قد ذكر منها في مقدمة « أسرار البلاغة » التجنيس والطباق في سياق ما يحسن به الكلام من ارتباط بين ألفاظه وتناسب إلى غير ذلك .

وكتب عبد القاهر : هي عروس كتب البلاغة إذ أنها مصوغة أحسن صوغ تناسب عبارة مؤلفها شرف للوضع وسمو درجته ، ويكثر فيها من الشواهد والأمثلة من حرر الكلام وأشرفه فقد أكثر من الآيات القرآنية والشعر البليغ ، وقد أعانه على ذلك تمكنه من ملكة البيان وسلامة ذوقه من تعقيد الفلسفة .

وكان من آثار شيوع هذه العلوم وكثرة تداولها أن فسر الزمخشري القرآن الكريم مستدلاً على إعجازه ببيان أسرار بيانه وما اشتمل عليه من حسن تأليف وقوة تأثير وجمال إيجاز وحلاوة تفصيل وإطناب ، وتفسيره يعد تطبيقاً لمسائل هذه العلوم فليس داخلاً في سلسلة المؤلفات التي ظهرت فيها إذ المراد بذلك الكتب التي تجمع المسائل وتضم الفروع فيظهر فيها التقسيم والتبويب والزيادة على ما فعله الأوائل أو تغيير ما كان لهم من مذهب أو تبديل ما كان من مصطلح ، ولم يفعل الزمخشري شيئاً من ذلك .

وجاء بعد ذلك أبو يعقوب السكاكي المتوفى سنة ٦٣٦ هـ ، فألف كتابه : « مفتاح العلوم » ، وجعله في النحو والصرف والمعاني والبيان والبديع ، فاتمى إليه الاجتهاد في هذا الفن ، ولم يأت بعده من زاد شيئاً من أصول العلم ، اللهم إلا ما كان من علم البديع . فإن علماء مصر والشام قد زادوا على ما وضعه أهل المشرق فيه وقد أوصله بن أبي الأصبع المصري المتوفى سنة ٦٥٤ هـ ، إلى تسعين نوعاً في كتابه « تحرير التمييز » . ثم زادت الأنواع البديعة عن ذلك كثيراً ، ولكن بعد هذا العصر ففترك ذلك لموضعه .

علم العروض

يطلق توسعاً على علم العروض والقافية ، والعروض هو علم وزن الشعر بالمقاييس التي جرى عليها العرب في نظمهم ، وعلم القافية هو العلم بأحكام أواخر الآيات .
وعلم العروض من العلوم التي كان العرب يجرون على أحكامها بالسليقة ومحض الفطرة من غير تعليم ، فهو كالنحو الذي لم يكن العربي يعرف منه إلا أن يجري كلامه عليه إجراء صادقاً لا يخطئ فيه ولا يتعثر ولو سألته عن سبب رفع أو نصب لايحير^(١) جواباً ، بل هو لم يكن يعرف النصب والرفع بهذه المعاني التي صار عليها الاصطلاح ، وإذ كان الفناء طبعياً في النفوس ، لا تجدة إلا ولها منه نصيب على قدر ما منحها الله من رقة طبع وسلامة ذوق ، فهذه الأوزان الشعرية هي مقاييس العرب في غنائها ترغمت بها في كلامها ، فجاء على تلك الأوزان والألحان التي ضبطت فيما بعد فكانت علم العروض ، وكما لم يكن العرب يستطيعون تعاليل صوابهم في النطق ، كذلك كانوا ينظّمون على هذه الأوزان التي دلهم عليها ذوقهم ، فيأتى شعرهم مضبوطاً بها فلا يخطئون ، ولا يستطيعون تعليل ضبطهم .

والسبب الذي حدا إلى اختراع هذا العلم هو ما طرأ على الملكات من فساد فقتصت السليقة العربية ، وأصبح المقتفى لآثار العرب في ألحانها لا يستطيع أن يلتزمها بل يزيد أو ينقص فيها ، ويقع ذلك منه خطأ بحكم فساد الطبع أو هو يعتمد ذلك لما رأى الألحان التي تجري عليها الأمم الأخرى من فرس وروم وغيرهم واستطابها ، ورأى فيها اتساعاً من ضيق الأوزان العربية القليلة . فخرج عنها ونظم بها ما سماه شعراً ، وادعى عربيته وهو في نظر العلماء غير عربي لخروجه عن أوزان العرب .

قال الخليل : فسألت الشيخ عن هذا ، فقال : هو علم يتوارثونه عن سلفهم يسمونه « التنعيم » .

وقيل أيضاً : إن العرب كانت تعرف نغم الأبحر ، فكان الشاعر إذا أراد أن يقول شعراً كرر بيتاً ، أو كلمات مهجلة حتى تمتلئ نفسه بالنغمة التي يريد أن ينظم عليها ، ثم يقول على مثال ما كرر ، وكانوا يسمون هذا للسكر « المتر » .

وأرى أن هذا كله أدعاء يراد به النض من شأن الخليل في اختراعه . يؤيد ذلك أن العرب لم تكن تعرف الصناعة في لغتها من أى ناحية فلم تعرفها من ناحية الوزن ؟ وأن هذا العلم لو كان قديماً معروفاً قبل الخليل ما أصاب الناس الدهش حين أخرجه لهم فشفاهم به عن كل ما سواه حينما من الدهر . والخليل جدير أن يكون أبا عذرة هذا الفن ، فقد عوّذنا أن يأتي بالمعجب المعجّب في كل ما يعمل ، فهو المتهدي إلى طريقة وضع المعاجم وحصر ألفاظ اللغة ، كذلك هو مخترع صور حركات الشكل للحروف العربية ، وقد زاد في الشطرنج قطعة سماها الجمل ظل الناس يلعبون بها زمناً ومات وهو يفكر في طريقة حسابية قال عنها : تمضى بها الجارية إلى البدال فلا يظلمها ... ، ومات الخليل سنة ١٧٤ هـ ...

علماء العروض

وأشهر العلماء الذين يذكرون في هذا العلم ولهم فيه آراء اعترضوا بها على الخليل وهى غير جوهرية ، هم : الأخفش الأوسط أبو الحسن سعيد بن مسعدة تلميذ سيديويه ، والجربى وأبو إسحق الزجاج تلميذ المبرد ، وقد حصر الخليل أوزان الشعر في خمسة عشر وزناً سماها بحدوداً تشبهاً لأحدها بالبحر في الاتساع لأن كل وزن تجرى عليه أمثلة كثيرة من شعر العرب ، وتلك البحور هى : الطويل ، والمديد ، والبسيط ، والوافر ،

والكامل ، والمهزج ، والرجز ، والرمل ، والسريع ، والنسرح ، والخفيف ، والمضارع ، والمتقارب ، والمجتث ، والمتقارب .

وقد جاء الأخفش فزاد وزناً هو بحر المتدارك ، وقيل : إن الخليل نظر في هذا الوزن فلم يصح عنده لأنه يخالف لأصوله التي وجد عليها أكثر كلام العرب إذ أن التشعيت والقطع ، وهما من العلل الشعرية (يدخلان في حشوه وهما مختصان في كل الأوزان بالأعاريض والأضرب ، فذلك جعله الخليل شاذاً ولم يعول عليه ، ولو أننا تابعنا من يقول : إن الخليل لم يهتد إلى هذا الوزن ولم يثر بأمثاله فيما جمعه من كلام العرب فليس ذلك بقادح في فضله .

وجاء بعد الأخفش الجوهري ، فجعل البحور اثني عشر : سبعة مفردات ، وهي : الوافر ، والكامل ، والمهزج ، والرجز ، والرمل ، والمتقارب ، والمتدارك ؛ وخمسة مركبات وهي : الطويل ، والمديد ، والبسيط والخفيف ، والمضارع . فالطويل : مركب من المتقارب . والمهزج : لأن الأول وزنه فعولن فعولن ، والثاني وزنه مفاعيلن مفاعيلن . والطويل : مركب منهما ووزنه فعولن مفاعيلن ، وبقية الخمسة يتركب كل واحد منها من بحر من السبعة المفردة ، فلا نطيل بذكر هذا التفصيل ، وزاد الأخفش في الوافر عروضاً ثالثة مجزوة مقطوفة وضربها مثلها ، واستشهد عليها بأبيات من الشعر القديم إن صحت فهي قليلة لا تكفي لتقرير قاعدة . كذلك خالف الأخفش الخليل في مشطور الرجز ومنهوكه ؛ فالخليل يعدّها شعراً ، والأخفش لا يرى ذلك . أما ما تركب من جزء واحد ، فهما متفقان على أنه لا يسمى شعراً ، وخالفهما الزجاج ، فجعل من الشعر قول القائل : موسى القمر ، غيث زخر ، يحيى البشر .

وقد كان الخليل يسمى مجموع الحذف والقطع (الحذف هو حذف السبب الخفيف والقطع : حذف ساكن الوند الجموع) بترّاً إذا وقفاً في المتقارب والمديد ، وخالفه الزجاج ، فلم يسم ذلك بترّاً إلا في المتقارب ، إذ هو الذي يظهر فيه البتر لصيرورته إلى فع بعد

فعولن . أما في اللديد فإن فاعلاتن يصير فاعل فيبقى من الكلمة أكثرها ، فلم يستحسن الزجاج تسمية هذا الجزء من اللديد أبتر ، وكان يسميه (محذوفاً مقطوعاً) .
هذه أمثلة مما استدرك به العلماء على الخليل وجميعها أمور في العرض لا تفتح في فضل الرجل ونسبة هذا العلم إليه جملة وتفصيلاً فيكون نسيج وحده في العلماء ، وهو جدير بهذا فقد قالوا قديماً في الدلالة على فضله : إنما أكلت الدنيا بعلم الخليل وكتبه وهو في خص لا يشعر به . وحكاياته في الزهد كثيرة . ولعله لا يتم لعالم ماتم له من الفضل ، وحسن الأثر إلا إذا كان مثله في زهده ، وعدم قصده الدنيا بعلمه ، رحمه الله رحمة واسعة .

مصطلحات العروض

كان من لوازم وضع العلم أن توضع له مصطلحاته ، وقد قام الخليل بذلك فاختر ألفاظاً عربية ناسب فيها بين المعاني اللفوية والمعاني المرادة في اصطلاحه ، وشرح للناس هذه المناسبات .

فقال : إنه يسمى الجزء النقي في آخر الشطر الأول من البيت عروضاً تشبيهاً له بالخشبة التي تكون في وسط الخيمة وعلى تسمية الطويل بطول أجزائه وكثرة حروفه ، والوافر بوفرة الأوتاد فيه ، واللديد بامتداد سباعيه حول خماسيه ، وخالفه الزجاج ، فقال : إنه يشاركه في هذا كل ما تركب من خماسى وسباعى ، وإنما سمي مديداً لامتداد سببين في طرف كل جزء من أجزائه السباعية ، واعترض قوم على هذا التعليل بما لا طائل تحته ، إذ أن سبب التسمية لا يوجبها ، ولكل مصطلح عند الخليل تعليل ، وقد يخالفه من أتى بعده في سبب التسمية أو في التسمية ذاتها كما حصل في تسمية مجموع الحذف والقطع بالبر ، وقد مرّ بك هذه المسألة .

ويحسن بالطالب ألا يجهل من مصطلحات العروض أشياء في وصف الأبيات تمر به كثيراً في دواوين الشعراء وكتب الأدب ، ولا يليق به جهلها ، فمن ذلك :
البيت التام : هو الذي استوفى أجزائه فلم يحذف منه تقعيلاً من تقاعيله ، ولا عراها
نقص كقول الشاعر (من الكامل) :

وَإِذَا صَحَوْتُ فَمَا أَقْصَرُ عَنْ نَدَى وَكَمَا عَلِمْتَ شِمَائِلِي وَتَكَرُّمِي
وقول الآخر من الرجز :

دَارُ لِسْلَمَى إِذْ سُلِّمَتْ جَارَةٌ قَفَرًا تَرَى آيَاتَهَا مِثْلَ الزُّبُرِ
والوافية : هو ما استوفى أجزائه مع نقص شيء من بعض الأجزاء مثل قول طرفة
(من الطويل) :

سَبَّيْ لَكَ الْأَيَّامَ مَا كُنْتَ جَاهِلًا وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تَزُودِ
والجزوءة : هو ما ذهب جزءا عروضه وضربه مثل قول الشاعر (من الوافر) :

لَقَدْ عَلِمْتُ رَبِيعَهُ أَنْ نَ حَبْلَكَ وَاهِنٌ خَلَقُ
والمشطور : ما ذهب نصفه مثل قول العجاج (من الرجز) :
* مَا هَاجَ أَخْرَانَا وَشَجُوا قَدْ شَجَا ؟ *

والمنهوك : ما بقي ثلثه مثل قول ورقة بن نوفل (من الرجز) :

يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعُ أَحْبُبُ فِيهَا وَأَضَعُ

والمصمت : وهو ما خالفت عروضه وضربه في الروي كقول ذي الرمة :

أَنْ تَوَسَّمتَ مِنْ خِرْفَاءِ مَنْزِلَةٍ مَاءِ الصَّبَاةِ مِنْ عَيْنِيكَ مَسْجُومِ

والمصرع : ما غيرت عروضه للإلحاق بضربه بزيادة أو نقص ، فالزيادة كقول
امرئ القيس :

فَقَانِكَ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبٍ وَعِرْفَانِ وَرَبِيعِ خَلَّتْ آيَاتُهُ مِنْذَ أَزْمَانِ

ومثال النقص قوله أيضاً :

أجارتنا إن الخطوب تنوب وإني مقيم ما أقام عسيب
والمقني : ما اتفقت فيه العروض والضرب في القافية من غير تغيير في العروض مثل
قوله أيضاً :
قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فغومل

٣ علم الادب

يحسن بنا قبل تعريف هذا العلم وبيان المراد منه أن نذكر الأطوار التي مرت
بكلمة « أدب » فلمل في توضيح ذلك إشارة إلى المراد من هذا العلم .
لم يعرف الجاهليون الأدب إلا بمعنى الخلق الحسن والخم الطيب ، وقد تقولوا هذا
المعنى عن الأدب ، وهو الدعوة إلى الطعام ولا يدعو إليه في مثل صحراء العرب المقفرة
وأرضهم المجدبة إلا كل سمح جواد طيب النفس .
ثم جاء العصر الأموي فاشتغل الناس برواية الشعر الذي يسمو بالنفس ويزيد في
فضائلها ، والأخبار الدالة على شجاعة العرب وكريم شمائلهم وعظيم وقائهم فسمى
مجموع ذلك أدبا لأنه وسيلة الأدب وباعثه في النفس . وسمى رواية هذه الأشعار ونقله
تلك الأخبار أدباء أو مؤدبين ، وسمى تعليمها تأديبا . ثم نشأت العلوم العربية من نحو
وعروض ولغة فانضمت إلى رواية الشعر والأخبار وشملت كلمة الأدب إذ كان طالب
الشعر والخبر لا يصلح له إلا بحذق هذه العلوم ، ومنذ القرن الثالث لما داخل الشعراء
والكتاب الأدباء في صناعتهم سمو أدباء مثلهم وما زالوا حتى استبدوا بوصف الأدب
فصار الأديب في الغالب هو الشاعر والكاتب .

وقد قال ابن الأنباري المتوفى سنة ٥٧٧ هـ صاحب كتاب « نزهة الألبا ، في طبقات
الأدبا » : (ان علوم الأدب ثمانية : النحو واللغة والتصريف والعروض والقوافي

وصنعة الشعر وأمثال العرب وأنسابهم) ثم جعلها الزغشري اثني عشر علماً. وأرى أنهما لم يستوفيا إلا ما كان يشترط في الأديب لمهدهم وما قبله فإنه لما كان المقصود من الأدب ثمرته وهي الإفادة في فن المنظوم والمنثور كما يقول ابن خلدون، توسع الناس في مطالب الأديب حتى لم يجدوه مستغنياً عن الإمام بأى علم، فقالوا في تعريف الأدب قولاً أشمل من قول ابن الأنباري والزغشري، وهو (حفظ أشعار العرب وأخبارها والأخذ من كل علم بطرف). ولعل هذا أصدق تعريف له. ويكفي أن تتمثل ما يحتاج إليه الأديب اليوم إذا أنشأ مقالاً أو عمل قصيدة هل تراه في غنى عن فلسفة أو اقتصاد أو علم نبات أو حيوان أو تاريخ قديم أو حديث، إلى جانب الخيال الشعري والأدلة الخطائية، حتى يستطيع أن يصور معانيه ويحسن تمثيلها للناظر في كلامه.

أولية الأدب العربي م

إذا كان الأدب أبسط معانيه هو حفظ الأشعار ورواية الأخبار، فاعلم أن العرب اشتغلوا به منذ جاهليتهم، فقد كان لهم شعراء لا ينبغون حتى يتلذذوا لغيرهم كما كان أمروؤ القيس تلميذ أبي دؤاد الإيادي، وكما كان زهير تلميذاً لنخلة بشامة بن الندير، وأوس بن حجر، وكما كان الخطيئة تلميذ زهير وابنه كعب من بعده؛ فكان هؤلاء يروون أشعار أساتذتهم ويمدون بها القوم ويترنمون بحسانها كذلك كان في العرب نسابون يعرفون أنساب القبائل ويحفظون وقائعها وأيامها. بل لقد وصلوا بالأدب إلى أقصى غاياته، وهو النقد والتحريض لآثار البغاء، وقد تمثل ذلك كله في سوق عكاظ على ما تعلم.

ولما جاء الإسلام شغلهم حينئذ عن الشعر وقوله والأخبار وروايتها بالأمر العظيم الذي جاء به، وهو نشر الدين، وإعلاء كلمته، على أنهم في هذه الفترة لم يعدوا زعماء

يدعونهم إلى الأدب ويرغبونهم فيه ، كالسيدة عائشة ، وعمر بن الخطاب ، وأقوالهم في ذلك مأثورة مشهورة .

فلما صار الأمر إلى بني أمية جعلوا إحياء الأدب وتجديد دارسته ونشر مطويه ناحية من نواحي سياستهم ، فكانت له في أيامهم سوق نافقة .

وفي هذه الأطوار كان الأدب يتناقل بالمشافة ويدرس بالحاضرة لم يقيد منه إلا قليل ؛ فلما جاء العصر العباسي ، ودوّنت العلوم كان للأدب من بينها نصيب كبير ، وبدأت تأليفه في أول أمرها رسائل صغيرة في مسائل خاصة ، فلأبن المقفع رسائل في الآداب ؛ منها الأدب الصغير ، والأدب الكبير ، وكتاب اليتيمة في طاعة السلطان . وللأصمعي المتوفى سنة ٢١٤ هـ كتاب في معاني الشعر ، وكتاب الأسميات ، وهو مجموع مختارات من كلام الشعراء ، وله أيضاً رجز العجاج . ولأبي عبيدة معمر بن المثنى المتوفى سنة ٢٠٩ هـ كتاب : « نقائض جرير والفرزدق » ، وكتاب طبقات الشعراء ، ويسميه ابن النديم : « الشعر والشعراء » ، ولأبي عبيد القاسم بن سلام المتوفى سنة ٢٢٣ هـ كتاب الأمثال . وقبل ذلك جمع حماد الزاوية المتوفى سنة ١٥٦ هـ معلقات العرب التي بأيدينا ، وكذلك جمع شعراً كثر القبائل ، وأخرج للفضل الضبي المتوفى سنة ١٦٨ هـ كتاب « المفضليات » ، وكتاب « الأمثال » .

كانت هذه الرسائل هي الإرهاص لما جاء بعد ذلك من كتب الأدب التي تشمل أبوابه وتجمع فنونه ، وتكون خليطاً من النحو واللغة والنقد والتاريخ ، ولقد تأخرت هذه الكتب في الظهور لأنها كانت تحتاج إلى ثقافة خاصة وفكر مقوم درس العلوم على اختلاف أنواعها ثم خرج منها بنتائج كانت هي محاسن تلك العلوم فناسب أن يجتمع في الكتب التي تقرأ للذة والفائدة ، وتقويم اللسان ، وتنقيف الجنان ، وتلك هي كتب الأدب .

وكان أول ما خرج منها للناس : « كتاب البيان والتبيين » للجاحظ المتوفى

سنة ٢٥٥ هـ ، وهو كتاب يجمع فنون القول من نثر ونظم ، ويضم أخبار طبقات الناس من جاهليين وإسلاميين ، ومن خلفاء وأمرأ ، وعامة ، ومن صلاح زهاد وزنادقة ملحدين ، ويجمع إلى الفكاهة المضحكة ، الموعظة المشجبة .

ولما كانت كتب الجاحظ أسبق كتب الأدب إلى الوجود ، وكان صاحبها قدوة في علمه وفضله رأينا أن الكتب التي جاءت بعده قد نهجت نهجه وسلكت طريقه ، فترى كتاب الكامل للمبرد المتوفى سنة ٢٨٥ هـ صورة للبيان والتبيين في جمعه المسائل الكثيرة بلا نظام ولا تبويب محكم ، وإن كان طابع كل مؤلف قد ظهر في كتابه ، فزارة علم الجاحظ وكثرة تمويله على العقل جعلته يعتمد في كتابه على قلمه ، فترى له فصولاً هي من نسج يده كتاب « البيان » وغيره . وكثرة رواية المبرد وغلبة النحو عليه جعلت كتابه أقرب إلى أن يكون جمعاً وسرداً لا أثر للمؤلف فيه ، وتستطيع أن تقهر هذا من قول صاحبه في مقدمته : (هذا كتاب يجمع ضروراً من الآداب بين منشور ومنظوم وشعر ومثل سائر وموعظة بالغة واختيار خطبة شريفة ورسالة بليغة . والنية أن يفسر كل ما يقع فيه من كلام غريب أو معنى مغلق) .

وقد فعل أحمد بن أبي طاهر طيفور المتوفى ٢٨٠ هـ فعل الجاحظ والمبرد في كتابه : المنظوم والمنثور الذي أخرجه في أربعة عشر جزءاً لم يكن له فيها أثر ظاهر لأن كتابه كله اختيار بحث .

ثم إننا نرى التأليف في الأدب ينتحى منحى أدق في بابه ويعنى فيه بأبواب جديدة ، فتحل أبحاث البلاغة محل أبحاث النحو الذي طال عليه العهد وفرغ الناس من استطرافه ، فترى كتاب : « الصناعتين : الشعر ، والنثر » ، يعنى بمباحث البلاغة على حين لا يعرض لمسألة واحدة من النحو . وترى كذلك كتب النقد تخرج دالة على حصافة مؤلفيها وعظيم ثقافتهم ، فتنقد الشاعر أو الكاتب في اختيار لفظه ، وفي تأليف خياله وصوغ استعارته أو تشبيهه كما فعل أبو بشر الأمدى في الموازنة بين

أبى تمام والبحترى ، وكما فعل أبو منصور الثعالبي في « يتيمة الدهر » خصوصاً عند ما عرض للمعني ، فإنه لم يترك حسنة إلا سجلها له ، ولا مذمة إلا عدّها عليه في أسلوب قوى وتقد لا ذع . ويتمثل في كتب هذه الطبقة النظام وحسن التبويب . وأرقى مثال لهذا ، كتاب العقد الفريد وإن كان صاحبه من أدياء الأندلس . وكذلك ترى مادة العلم تتسع وينضمّ شتاتها حتى يؤلف أبو الفرج الأصبهاني كتابه : « الأغاني » ، وهو واحد وعشرون جزءاً في الألحان وتراجم مغنيها وقائل شعرها .

وقد كان الفناء في أوائل أيام الدولة أحد علوم الأدب لالتزامهم تلحين الشعر ، فكان المعاني له لا بد أن يكون أديبا يحسن اختيار ما يلحّنه من كلام الشعراء ويحسن فهمه وضبطه ، وكان سامع الفناء يستفيد إلى جانب اللذة فائدة لغوية وخيالاً بديعاً فيما يسمعه من شعر مختار ، وكانوا يسمون النغم والمناذمات والأسمار « الآداب الرفيعة » .

٣ الأسمار والخرافات

في العصر الثاني من عصور اللغة في الدولة العباسية انتشر نوع من الآداب هو الأسمار والخرافات ، وقد كثّر هذا النوع لما أصبح السمر والمناذمة صناعة ، وذلك حين شلت يد الخلفاء عن أعمال الدولة واستبدّ بها الوزراء من الترك والفرس فاحتاج الخلفاء إلى ما يشغلهم ويملاً فراغ وقتهم ، فعكفوا على أنواع الملاهي من شطرنج وزرد وغيرها ، وأدّوا منهم القصص والندماء بمحدثونهم بما يزيج سأمهم ويزجي وقتهم .

وأوّل ما عرف الناس من كتب الأسمار (وقد ظهر مبكراً جداً) هو كتاب : « كليله ودمنة » الذي ترجمه عبد الله بن المقفع .

وقد أقبل عليه الناس يدرسون له لطافته وبلغ حكته حتى أنهم من عنايتهم به

نظموه كما فعل أبان بن عبد الحميد ، ولكن هذا النظم قد ضاع ، فلم يبق منه إلا قليل ؛ ومنه هذان البيتان وما :

هذا كتابٌ أدبٍ ومِحنةٌ وهو الذي يُدعى كَلِيلَ دِمْنَةٍ
فيه احتمالاتٌ وفيه رُشدٌ وهو كتابٌ وَصَفَتْهُ الهِنْدُ

والأسمار التي اشتغل بها العرب تنقسم قسمين : منها عربيّ ، ومنها مترجم ؛ فالعربيّ منها يحكي حياة العرب ويمثل معيشتهم وآدابهم وشجاعتهم ، والذي يغلب على هذه القصص أنها ترجع إلى أصل من الحقيقة ، ولكنه ضئيل بالنسبة إلى ما صارت إليه بالتهويل والزيادة على مرور الأيام ، وقد أباحوا لأنفسهم فيها عدم التقيد بالحقيقة لأنّ الفرض منها إما إثارة الحمية في النفوس أو تزجية الوقت ، فلم يكن الشأن فيها للحقيقة ، بل هو لأغراض أخرى لا تتحقق إلا بالإطالة والتوسع .

ومن تلك القصص العربية قصة عنتر وضعها رجل اسمه يوسف بن إسماعيل في زمن الخليفة العزيز بالله الفاطمي بمصر ، وكانت قبله معروفة يتناقلها الناس بالرواية عن الأصمعي ، وما زالت تتسع وتنشعب حتى دونها يوسف هذا حين طلب إليه الخليفة العزيز الفاطمي أن يصنع للناس شيئاً يشغلهم عن الحديث في فتنة وقعت في قصره فدوّن هذه القصة فتلهى بها الناس عن ذاك الحديث .

ومن القصص العربية أيضاً قصص غرامية تمثل العفة والتفاني في الحب بنيت على ما جاء في أخبار العشاق ، ككثير لُبني ، وجميل بثينة ، ومجنون لبلى ؛ وفي كلّ هذه القصص نصيب للحقيقة ، ولكن خيال الرواية فيها ظلّ كبير .

القصص المترجمة

كذلك نقل العرب قصصاً عن الأمم الأخرى ، وكان أكثر ما نقل عن الفرس والهند ، وقد ذكر صاحب الفهرست أسماء عشرات منها ، ولكنها ضاعت فلم يبق بأيدينا منها إلا ألف ليلة وليلة ، وهي قصص متسلسلة تقع في نحو أربعة آلاف من الصفحات ، وهي فارسية الأصل نقلت قبل القرن الرابع للهجرة واسمها بالفارسية (هزار افسان) قال المسعودي المتوفى سنة ٣٤٦ هـ : إن اسمها إفسانه ، ومعناه بالفارسية : خرافة . قال والناس يسمون هذا الكتاب « ألف ليلة وليلة » .

وذكر ابن النديم في فهرسته : أن سبب وضع الكتاب بالفارسية أن ملكاً من ملوكهم كان كلما تزوج امرأة قتلها من الغد ، فتزوج بجارية من بنات الملوك لها عقل ودراية ، وكانت تسمى شهر زاد ، وقد علمت عنه هذه الحالة . فلما حصلت عنده جعلت تخفوه وتنتهي من حديثها في كل ليلة بما يجمل للملك يشواق إلى تمته ، وما زالت كذلك حتى أتى عليها ألف ليلة وليلة ، وكانت قد رزقت منه ولداً ، فأظهرته وأوقفت الملك على حيلتها فاستمقها واستبقاها .

وهذا الكتاب أيضاً لم يبق على ما كان عليه في الأصل الفارسي ، بل زيدت عليه حكايات بغدادية ومصرية ، ولكن لا تزال عليه المسحة الفارسية ، وقد عدّه ابن النديم : « غثا باردا » لكثرة ما أصابه من عبث وما أفسده من ألفاظ وأساليب عامية ، وخيالات وتصورات تمثل أفكار الطبقات الجاهلة في تلك العصور . ولسنا نعهده اليوم من كتب الأدب المحترمة التي يقبل عليها ذوو الأذواق السليمة ، وطلاب الأدب الراقى ، بل هو عندنا هو العامة وأهل البطالة وصغار المتعلمين .

والعجب أن الإفرنجية يطرون عجباً بهذا الكتاب وقد ترجموه إلى لغاتهم وبعثونه من أجل الآداب العربية ، ولعلهم إنما نظروا إليه من ناحية أنه يصور الشعوب في تلك العصور تصويراً حقيقياً ، وذلك مقصد يهم الباحث الاجتماعي .

وأظهر مافي الكتاب أنه يمثل حياة الانهماك في اللذة في قصور الملوك والعظماء ، ويصف المرأة وصفاً يدل على الضعف وسوء ظن الرجل بها وعدم ثقته بأدائها ، ويدل الكتاب كذلك على نشو الجهالة في طبقات تلك الشعوب حتى إنها كانت تميل إلى تصديق هذه الخرافات من أخبار السندباد البحري وغرائب ما شاهده في أسفاره من السمك الكبير الحجم على هيئة البقر والحير ، والثعابين التي تأكل الآدميين وطير الرنخ الذي يشبع فرخه الصغير عشرات من الناس إلى غير ذلك .



وقد عرض ابن خلدون لكتب الأدب فذكر أنه سمع من شيوخه في مجالس العلم أن أصول هذا الفن (الأدب) ، وأركانها أربعة ، وهي : أدب الكاتب لابن قتيبة ، وكتاب الكامل للعبد ، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وكتاب النوادر لأبي علي القالي البغدادي ، وما سوى ذلك فتبع لها وفروع منها .

وأنت ترى من هذه الكتب ما ليس له قيمة ظاهرة بين كتب الأدب مثل : أدب الكاتب فهو إلى الإملاء أقرب منه إلى الأدب ، ولا ينبغي أن نسيء الظن بفهم ابن خلدون في تقديره لكتب الأدب فإنه إنما حكى آراء شيوخه فليس ينبغي أن يؤخذ بها على أنه في نفس هذا المعرض أشاد كثيراً بذكر كتاب الأغاني ، فقال عنه : « جمع فيه (أي مؤلفه) أخبار العرب وأشعارهم وأنسابهم وأيامهم ودولهم وجعل مبناه على الفناء في المائة صوت التي اختارها المغنون للرشد فاستوعب فيه ذلك أتم استيعاب وأوفاه ، ولعمري إنه ديوان العرب وجامع أشات الحاسن التي سلفت لهم في

كل فن من فنون الشعر والتاريخ والفناء وسائر الأحوال ، ولا يعدل به كتاب في ذلك
فيا نعلمه ، وهو الغاية التي يسمو إليها الأديب ويقف عندها » .

العلوم الشرعية

تكتفى منها بالكلام عن التفسير ، والحديث ، والفقه ، والكلام

التفسير

نزل القرآن الكريم على صاحب الشريعة صلى الله عليه وسلم ، فكان يفسر
لصحابة غامضه ، ويبين أحكامه بالقول والفعل ، ويعين ناسخه ومنسوخه ، وكان
الصحابة يحفظون ذلك عنه ويتناقلونه ، وكان قهاتهم كالحق ، وابن عباس ، وعبد الله
ابن عمر ، وابن عمرو ، وابن مسعود ، وأبي بن كعب ، وأنس بن مالك يبينون
للناس ما غرض عليهم ، ثم جاءت طبقة التابعين ، فنقلوا عن الصحابة ؛ ومن هؤلاء :
مجاهد ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة بمكة ؛ والنخعي والشعبي بالكوفة ؛ ومالك بن
أنس بالمدينة ، والحسن البصري بالبصرة .

ولم يؤثر عن أحد من هؤلاء تأليف ، بل كان الناس يتناقلون رواياتهم بالسماع .
اللهم إلا ما ذكروا من تفسير ابن عباس المتوفى سنة ٦٨ هـ ، وفي دار الكتب
الملكية نسخة منه ، والذي يظهر أن نسبته إلى ابن عباس إنما يقصد بها أنه من
روايته لا أنه كتبه فإن عهد ابن عباس عهد تخرج من كتابة التفسير حتى لا يختلط
بالقرآن ، والمشهور أن أول من دون التفسير مجاهد المتوفى سنة ١٠٤ هـ .

ولما حدث التأليف في العصر العباسي دون الناس التفاسير ، فجمعوا فيها كل

ماوصل إليهم من روايات ، وفيها كثير من الأباطيل التي قبلها المسلمون في عهدهم الأول . من أمثال : كعب الأحبار ، وعبد الله بن منبه ، وعبد الله بن سلام ؛ وهم يهود أسلموا ، وكانت لهم أقدار استفادوها بصحبة النبي أو البلاء في الإسلام وكان العرب قد بدأت أذهانهم تفتح للمعرفة ، فكانوا يسألون هؤلاء لأنهم أهل مدينة وأديان قديمة ، فكانوا يجيبونهم بما درسوه في دينهم القديم ، وكان قد سبق فحشي بالترهات والأباطيل ، فانتقلت هذه إلى المسلمين عن هذا الطريق ، كذلك عمل كثير من أعداء المسلمين على دس هذه المفاسد والأضاليل حتى يشوهوا بها جمال الدين ، فجازت على الناس خصوصاً إذا وردت إليهم منقولة عن يوثق بإسلامه .

وجاءت بعد ذلك طبقة من المفسرين فحسوا هذه الأقوال ، وحققوا الروايات ، ونقوا الأكاذيب . ومن هؤلاء : أبو جعفر بن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠ هـ صاحب « جامع البيان في تفسير القرآن » ، وقد وازن فيه بين الآراء ونقّى زائتها وحرص على جمع أنوال الصحابة والتابعين التي رويت من طرق صحيحة فلذلك كان من أجلّ التفاسير مع كونه من أقدمها . والذي ساعده على تمحيص الروايات أنه كان عالماً بالتاريخ فاستفاد بذلك في تفسيره ، وهو صاحب التاريخ المنسوب إليه المسمى : « كتاب أخبار الرسل والملوك » .

وفي العصر الثاني وما بعده : حين ضعفت الملكات من الفهم لم يكن يكتفي في تفسير الآية ببيان معناها ، بل احتاج طلاب العلم إلى أن يدلوا على ما فيها من وجوه البلاغة ، وأن يعرب لهم لفظها ليساعد ذلك على الفهم ، وكانت العلوم من فقه وأصول وغيرها قد عرفت ، فكان المفسرون يتناولون مسائلها كلها عرضت لها مناسبة ، فاجتمعت العلوم كلها في تفسير القرآن ، وهذا يحقق ماقلناه من أنها إنما بحثت في سبيل خدمته ، ولكن كلّ تفسير كان يغلب عليه العلم الذي برز فيه مؤلفه ، فمفسر أبي إسحق الثعلبي المتوفى سنة ٤٣٧ هـ المسمى : « كشف البيان عن تفسير القرآن »

يغلب عليه القصص . وتفسير الكشاف تغلب عليه البلاغة والاحتجاج لمذهب المعتزلة ،
وتفسير الرازي المتوفى سنة ٦٠٦ هـ المسمى : (مفاتيح العلوم) يغلب عليه الكلام
والأصول .

وفي هذه الكتب الأخيرة تركت الأسانيد التي كانت تلازم التفسير القديمة .

علم الحديث

كان شأن حديث رسول الله ﷺ تفسير القرآن منقولاً بالرواية عن الصحابة
وتابعيهم ، وكان الأئمة في العصور الأولى يتحرّجون من تدوينه حتى لا يختلط بالقرآن .
ولكن كثيرين اجترأوا على رسول الله ﷺ يكذبون عليه متعمدين غير خاشعين من
تبوء مقاعد من النار يوم القيامة ، وهؤلاء هم الذين دخلوا في الدين ليفسده ويغيروا
معامله ، كما أن كثيرين ممن لا شك في إسلامهم أرادوا أن يستعينوا بمقام رسول الله
عند الناس ، فأسندوا إليه أقوالاً لم يقلها ، وإنما كان غرضهم أن يحاربوا بها أعداءهم
كما كان يفعل للمهلب بن أبي صفرة في قتاله للخوارج ، فكان يضع الأحاديث ليشد بها
أزر جنوده ويضعف أمر أعدائه ، كذلك أكرت الفرق الدينية كالشيعة وغيرها من
وضع الأحاديث لتأييد مذاهبها حتى كان لأهل السنة أحاديث وللشيعة غيرها . وقد
عدّ من وضاع الأحاديث محمد بن أبي يحيى بالمدينة ، والواقدي ببغداد ، ومقاتل بن
سليمان بخراسان ، ومحمد بن سعيد بالشام ، وابن أبي العوجاء بالكوفة ، وكثير من
هؤلاء كان يعترف بما أحدث ، كما فعل ابن أبي العوجاء حين قدم للقتل سنة ١٥٣ هـ
فإنه قال : « والله لقد وضعت أربعة آلاف حديث حلت بها الحرام وحرمت الحلال ،
والله لقد فطرتمكم يوم صومكم وصومتمكم يوم فطرتمكم » .

كثرت الأحاديث كثرة هائلة ، وتناقضت تناقضا ظاهراً على أيام عمر بن عبد العزيز حتى كانت الأحكام في البصرة والكوفة ، تخرج متناقضة في مسألة واحدة ببلدة واحدة ، فراح ذلك عمر ، ولكنه أحجم عن التدوين ، ونفى الزائف حتى لا يكون قد ابتدع ما لم يسبق إليه ، وكان ورعاً كثير التحرج ، ولكنه لم يستطع صبراً على هذه النتائج ، فاستخار الله أربعين يوماً ، فحارله الله أن يدون الحديث . فندب لذلك ابن جريج ، أو ابن شهاب الزهري ، أو أبا بكر بن حزم ، ودون من الأحاديث مدونة كتب بها إلى الأمصار حتى يكون العمل عليها .



وفي العصر العباسي تجرد العلماء بمعونة الخلفاء لجمع الأحاديث ، والنظر في رواياتها وتعديلها وتجريحها ، وبيان ناسخها ومنسوخها ، ففرع من الحديث علوم ، منها : معرفة الناسخ والمنسوخ إذا تعارض الخبران ، ولم يمكن الجمع بينهما ببعض التأويل ، وعلم تقدم أحدهما على الآخر ، فيحكم إذ ذاك بنسخ المتأخر للمتقدم ، وقد قال الزهري : (أعيا الفقهاء أن يعرفوا ناسخ الحديث ومنسوخه) وكان للشافعي فيه قدم راسخة . ومن علوم الحديث معرفة الأسانيد ، فبحثوا في الرواة تعديلاً وتجريحاً ، وفي الرواية اتصالاً واقتطاعاً ، وألفوا الكتب في طبقات الرواة ، كما بحثوا في غريب الحديث ، وألفوا المعاجم في ذلك . فلم يتركوا في خدمة كلام رسول الله باباً إلا وبلغوه . وقد ألبوا في هذا العمل بلاءً حسناً حتى استطاعوا تجريد الحديث مما شابه على مرور الأيام ، ولم يتركوا في هذا العمل بقية يتمها غيرهم من بعدهم ، فهم كانوا لقربهم من عهد الرواية ، ولحذبهم على الدين خلفاء وعلماء ، أجدر ألا يتركوا ثمة دون أن يسدوها ، ولذلك يقول ابن خلدون : (وقد اقتطع لهذا العهد (عهد ابن خلدون) تخرج شيء من الأحاديث أو استدرأوها

على المتقدمين ، إذ العادة تشهد بأن هؤلاء الأئمة على تعددهم ، وتلاحق عصورهم ، وتغاييرهم
واجتهادهم لم يكونوا ليفعلوا شيئاً من السنة ، أو يتركوه حتى يعثر عليه التأخرون . هذا
يبعد عنهم . وإنما تنصرف العناية لهذا العهد إلى تصحيح الأمهات المكتوبة وضبطها
بالرواية ، والنظر في أسانيدھا إلى مؤلفيھا ، وعرض ذلك على ما تقرّر في علم الحديث
من الشروط والأحكام .

وقد اختلف نظر الأئمة الفقهاء إلى الأحاديث ، فمن صحّ عنده منها كثير ظهر أثره
في مذهبه ، فكان إلى التقليد أقرب كالإمام مالك أفادته نشأته بالمدينة بين أهل
الحديث ، وثقات رواته أن صحّ عنه منه الكثير ، فلم يحتج إلى القياس في أحكامه .
والإمام أبو حنيفة النعمان نشأ بالعراق ، والحديث الصحيح بها قليل والمكذوب
للموضوع كثير ، فلم يصح عنده إلا سبعة عشر حديثاً ، فكان مبنى مذهبه القياس . والإمام
أحمد بن حنبل كان يروى ألف ألف حديث ، وقد دون نصفها فكان مذهبه أشد
تويلاً على الرواية من كل المذاهب .



والكتب المصنفة في الحديث أكثر من أن تحصى إلا أن السلف والخلف قد
أطبقوا على أن أصح الكتب بعد كتاب الله تعالى هي : « صحيح البخاري » ثم « صحيح
مسلم » ثم « موطأ مالك » ثم « سنن أبي داود » ثم « سنن الترمذي ^(١) » ، ثم
« سنن النسائي ^(٢) » .

(١) نسبة إلى مدينة على طرف نهر جيحون . قال ابن خلكان : والناس يختلفون في ضبطها ، فبعض يقول
بفتح التاء ، وبعض بضمها ، وآخرون بكسرھا . قال والتداول على لسان أهل تلك المدينة فتح
التاء مع كسر الليم ، والذي كنا نعرفه كسر التاء والليم جيما ، والذي يقوله المنسحقون وأهل
العرفه ضم التاء والليم (كتابنا إجماع الأعلام) .

(٢) النسائي : نسبة إلى مدينة نسا من مدن خراسان ، والنسائي كان إمام عصره في الحديث سكن
مصر وانتشرت بها تصانيفه ، وفي آخر حياته قدم دمشق فقتل عن معاوية فقال : أما يرشني أن
يخرج رأساً برأس . حتى يفضل على علي قداسه الأمويون في المسجديات سنة ٣٠٣ هـ (إجماع الأعلام) .

والنبي أشار على مالك بعمل الموطأ هو أبو جعفر المنصور لما حج سنة ١٤٣ هـ ، فقال للإمام مالك : « يا أبا عبد الله لم يبق في الناس أفتقه مني ومنك ، فاجمع هذا العلم ودونه ووطئه للناس ، وتجنب شذائد ابن عمر ، واقصد إلى أواسط الأمور ، وما اجتمع عليه الأئمة والصحابة ، فاعتذر مالك فلم يقبل منه المنصور ، ثم قال مالك : « والله لقد علمني التصنيف » ، وهو أقدم كتاب في الحديث ، والفقهاء إلى أيامنا هذه .

وأما صحيح البخارى ، فهو للإمام محمد بن إسماعيل البخارى المتوفى سنة ٢٥٦ هـ جمع فيه سبعة آلاف ومائتين وخمسة وسبعين حديثاً ، منها ثلاثة آلاف مكررة ، وكان يقول : أصح الأسانيد على الإطلاق : مالك عن نافع عن ابن عمر . وقد كان البخارى آية في الحفظ ، فإنه لما قدم بغداد ، وسمع به أصحاب الحديث فيها اجتمعوا وعمدوا إلى مائة حديث ، فقلبوا أسانيدھا ومتونها وجعلوا متن هذا السند ذاك ، ثم دفعوها إلى عشرة من الرجال مع كل رجل عشرة أحاديث ، وأحضروهم مجلس امتحانه ، فجعلوا يسألونه وهو ينفي لهم صحتها ويروىها على أصلها ، فأقرّوا له بأفضل . ومسلم تلميذ البخارى ، وقد تبع أستاذه في عمله ولم ينقل في صحيحه إلا ما صح لديه بعد أن كان الأئمة يكتبون الصحيح والضعيف بسنده ، ويعتمدون على التمييز بذكر السند ، ولكن البخارى ومسلماً تركا بعض الصحيح والحسن .

ثم جادت الطبقة التي يقول عنها ابن خلدون فلم يكن لها استدراك شيء فات ، وإنما كان عملها الشرح ، والضبط ومراجعة الأسانيد .

علم الفقه

هو استنباط الأحكام الشرعية من : واجب ، ومحظور ، ومندوب ، ومكروه ، ومباح في أمور العبادات والمعاملات ، والأصل في هذه الأحكام هو نص القرآن ، وحديث رسول الله من قول وعمل ، وقد كان الصحابة أيام النبي إذا نزلت الآية تولى

النبي شرحها لهم ، والعمل بها أمامهم ، وكلما جدّ لهم أمر أو عرضت قضية سألوه عنها فينزل فيها القرآن فيعملون بما قضى به .

فلما قبض الرسول عنهم ، وحدثت أحداث لم تكن على عهده ، أو نسوا حكماً في أمر من أمور دينهم كانوا يرجعون إلى كبار الصحابة الذين عنوا بدرس القرآن ، ولازموا رسول الله ووعوا قوله ورأوا فعله ، وهؤلاء هم الذين كانوا يسمون القراء إذ لم يكن أغلب العرب إلا أمّيين لقربهم من البداوة ، فكان هؤلاء القراء يفتنون الناس فيما يعرض لهم ، ويرجعون في ذلك إلى نص القرآن أو الحديث ، وتختلف أفهامهم في آية القرآن ، أو يصحّ عند أحدهم حديث لم يروه الآخر ، فنشأ عن ذلك اختلاف الآراء في مسائل الدين ، وكانت القضية التي تعرض إذا لم يجدوا لها نصّاً في القرآن ، ولا حديثاً من كلام الرسول رجعوا إلى أشباهها بما له حكم ، فماسوها بها ما دامت العلة في الحكم ممثلة في تلك القضية العارضة ، وهذا ما يسمونه بالقياس .

وقد تفاوت الأئمة في التعويل على القياس فبعض أكثر منه ، وهم أهل العراق لما فاتتهم رواية الحديث لقلة من نزل ببلادهم من أهله ، ولكثرته ما راجع عندهم من الأحاديث للوضوعة ، لذلك لم يصحّ عند أبي حنيفة إلا سبعة عشر حديثاً ، فأغلب أحكامه اتبع فيها القياس ، وأهل المدينة لما كانت الرواية عندهم متوافرة ورجالها العدول كثيرون عولوا عليها في استنباط أحكامهم حتى كادت تكون كلها تقليداً ، وبعض توسط فأخذ من الحديث ، وعمل بالقياس على قدر ما أداه إليه اجتهاده .

وقد كثرت المذاهب حتى كان لكل فرقة من الفرق التي نشأت في الإسلام فقه يخالف فقه الفرقة الأخرى ، فكان للشيعة فقه ، وللخوارج فقه ، ولكن أغلب هذه المذاهب قد تلاشى بضعف أصحابه وذهاب ريعهم ، ولم يبق منها إلا ما أراد الله بقاءه لصالح الناس ، وهو المذاهب الأربعة : الحنفي ، والمالكي ، والشافعي ، والحنبلي . ولكل من هذه المذاهب إمام عرف المذهب به ، ومواطن شاع فيها ، فأما الحنفي

فصاحبه الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت المتوفى سنة ١٥٠ هـ ، ومقامه في الفقه لا يلحق ، يشهد بذلك الإمام مالك النسي قال في شأنه : « إنه رجل لو كلمته في هذه السارية أن يجعلها ذهباً لقام بحجته » ، وقد انتشر مذهبه في العراق ، وفارس ، والهند والصين ، وما وراء النهر ، وبلاد الترك ، وشرق أردن ، وبعض بلاد الشام ، ومصر .
والمذهب المالكي : صاحبه الإمام مالك بن أنس المتوفى سنة ١٧٩ هـ ، وكان الشافعيّ من تلاميذه ، وقد بلغ من ورعه أنه لم يكن يركب بالمدينة مع ضعفه وكبره ، وكان يقول : لا أركب بمدينة بها قبر رسول الله . وقد انتشر مذهبه بالحجاز ، ومصر ، والمغرب ، والأندلس . ولما عاد كثير من جالية العرب بالأندلس إلى الإسكندرية وصعيد مصر راج مذهب المالكية فيهما .

ومذهب الشافعي ينسب للإمام أبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي المتوفى سنة ٢٠٤ هـ وكان مولده بقرية بالشام ، ثم نقل إلى الحجاز فترقى به ، وتلقى العلم عن الإمام مالك النسي قال في شأنه : « إن يكن أحد يفلح فهذا الغلام » .
ثم قدم بغداد ، ثم خرج منها إلى مكة ، ثم عاد إلى بغداد ، وأملى فيها مذهبه القديم ، وكان ممن أخذ عنه الإمام أحمد بن حنبل ثم خرج إلى مصر فأقام بها إلى أن توفى . ومقلدوه بمصر أكثر منهم بغيرها ، وكان قد انتشر مذهبه في العراق ، وخراسان وما وراء النهر ، وقاسم أهله الحنفية في الفتوى والتدريس ، ثم تقلص ظله ، وفي مصر اعتراه انزواء لما كان من فعل الفاطميين بأهل السنة عامة ، فراج مذهبهم الشيعي حتى قضى عليهم صلاح الدين الأيوبي ، فنادى مذهب الشافعي إلى الظهور بمصر ثانية .
ومذهب الحنابلة : منسوب إلى الإمام أحمد بن حنبل المتوفى سنة ٢٤١ هـ ، وهو الذي شهد له الشافعي حين زایل بغداد إلى مصر ، فقال : « خرجت من بغداد وما خلقت بها أتقى ولا أفتقه من ابن حنبل » ، وفي أيامه كانت فتنة خلق القرآن ، فدعى إلى القول بخلقه ، فلم يجب وضرب وجس وهو مصرّ على الامتناع ، ومذهبه قليل

الأشباع لبعده عن الاجتهاد وأصالته في معاضدة الرواية ، وأكثرهم بالشام والعراق من بغداد ونواحيها ، وبلاذ نجد والبحرين ، وهم متشددون في مذهبهم وطالما قامت الفتن يبغداد من آثار تشددهم وإنكارهم على غيرهم .

علم الكلام

هوالم الذى يبحث فى العقائد الإيمانية ، كوحداية الله وكماله وقدرته ، ويتناول إثبات ذلك بالدليل العقلى بعد ثبوته بالدليل النقلى ، قترفع الشكوك ، وتزول الشبهة التى تخالج النفوس الضعيفة

وإنّ البحث فى تدرج هذا العلم ليمثل لنا كيف تنقل الفكر العربى فى أطواره منذ بدء الاسلام إلى أن شاعت الفلسفة ، وانتشرت آراؤها بين المسلمين .

تدرّج هذا العلم من البساطة إلى التعقيد ، ومن الفطرة السليمة إلى منازعة الشك ، ومجادبة التردد ، ومن وضوح البيان إلى تعقيد الفلسفة ، حتى صار فى نهاية أمره طلاس ، واختلطت مسائله بمسائل العلوم النظرية التى جذّت فى الملة وصار لها السلطان على جميع الناس .

كان السلف الصالح يقرءون القرآن فتطمئنّ إليه قلوبهم وتسرع آياته إلى قرارة اليقين من نفوسهم ، فنزهوا الخالق عن مشابهة المخلوقات ، وآمنوا بالبعث والنشور لحديث القرآن عنها ، ولم يتشككوا فى حصولها ، ولا فى عذاب النار ونعيم الجنة ، ولم يحتاجوا الى دليل عقلى على ذلك ، وكفاهم أن الله أخبر عنه ، وأفاد تعلق إرادته به .

وليس معنى هذا أن الدين الإسلامى لم يأت حائاً على النظر فى ملكوت السموات والأرض ، فالآيات الداعية إلى ذلك فى القرآن كثيرة قال تعالى : « إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ

كُلُّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْمَلُونَ » ، وقال تعالى : « لَوْ كُنَّ فِيهِمَا آلِهَةً إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا » ، إلى غير ذلك من الآيات الحاثية على النظر والاستدلال بالموجود على الموجد . حتى إنه تعالى لم يقصر الاستدلال والبرهنة على وجوده جلَّ شأنه ، بل ساق الدليل وأحكم العلة في الآداب التي هي مواضع محضة أو تكليف مطلق ، قال تعالى : « أَدْفَعْ بِآلَتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ » .

وقد ظل السلف الصالح على ذلك وتلقاه منهم التابعون بالقبول الحسن ، ونظروا في الآيات التي توهم التشبيه فأمَّنوا بها ولم يتعرضوا لمعناها يبحث أو تأويل وقالوا أقرءوها كما جاءت مغلبين أدلة التنزيه لكثرتها ووضوحها ، ولكنه قد شذ عنهم قوم اتبعوا ما تشابه من الآيات وتوغلوا في التشبيه لما جاء في ظاهر الآيات من إثبات اليد والأصبع والوجه والقدم في نحو قوله تعالى : « يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ » : وقوله تعالى : « مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيَّ » ، وقوله تعالى : « وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي » وقوله : « تَجَرَّى بِأَعْيُنِنَا » ، وقوله عليه الصلاة والسلام : إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن ، إلى غير ذلك من الآيات والآثار . فأنبتوا كل ذلك لله فلما رأوا أنهم قد وقعوا في التجسيم الصريح ومخالفته آيات التنزيه أرادوا الفرار من شعبة ذلك فقالوا : جسم لا كالأجسام فوقوا في التناقض وخالفوا المقول . وذهب فريق إلى التشبيه في الصفات فقالوا بالجهة ، والاستواء ، والنزول ، والصوت ، فاتهموا إلى التجسيم كما انتهى إخوانهم ، لأن الاستواء لا يكون إلا لمتحيز ولا لتحيز إلا للجسم . وهكذا بقية هذه الصفات تنتهي إلى ما انتهى إليه الاستواء من استلزام التجسيم ، ولما رأى هؤلاء صيرورتهم إلى ما لا يحبون أن يصفوا به الله تعالى قالوا صوت لا كالأصوات وجهة لا كالجهات فنسقطت حجتهم بسقوط حجة الأولين ولم يبق قائماً إلا مذهب السلف والإيمان بما آمنوا به تغليفاً للآيات الصريحة الكثيرة على القليلة المشابهة .

وهذه الآراء السابقة ما بين مشبهة ومنزهة كلها تمثل الفطرة ولا تخرج عن دائرة التفكير الأولى لأنها لم تتعدّ النصوص الواردة في الشرع غير أن بعضها أثر السلامة فغلب دليلاً على دليل وهذا هو رأى الذين نقوا التشبيه ، وبعض آخر حاول الجمع بين الدليلين وأحسن أنه يحسن التخرج بينهما بما ارتأى ولكنه وقع في الخلف من حيث أراد التوفيق .

ثم لما فتحت الأذهان قليلا ، وعاشر العرب أقواماً لهم أديان سابقة ومذاهب في تلك الأديان متعددة تعمقوا التفكير وبحشوا الأدلة وناقشوها بفكر اعتاد الجدل فنشأت فرقة المعتزلة في حدود المسألة الأولى بعد الهجرة وكان مبدأ تكونها أن واصل بن عطاء كان بمجلس من مجلس الحسن البصرى فاعتزل مجلسه وجعل يقرر أن مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن ولا كافر ، وأن له منزلة بين المنزلتين ، فقال الحسن : قد اعتزل مجلسنا فسمى واصل ومن تابعه في آرائه معتزلة . أما هم فسموا أنفسهم أهل العدل والتوحيد لقولهم : بأنه يجب على الله إثابة المطيع وعقاب العاصي ، ولنفيهم عن الله تعالى الصفات : من العلم ، والقدرة ، والإرادة ، والحياة ، وعللوا ذلك بأنه لو ثبتت هذه الصفات لله لزم تعدد القديم كما نقوا السمع والبصر عنه تعالى لكونهما من عوارض الأجسام ، وقد ردّ عليهم أهل السنة الجارون على مذهب السلف الصالح فقالوا إن ثبوت صفات العلم والقدرة وغيرها لا يستلزم تعدد القديم لكونها ليست عين الذات ولا غيرها ، وكذلك قالوا في الاحتجاج لثبوت السمع والبصر له تعالى انه غير مشروط فيهما اليبينية وإنما المراد بالسمع إدراك المسموع وبالبصر إدراك المبصرة ، وقد نشأ عن رأى المعتزلة القول بخلق القرآن لأنهم لما نقوا صفة الكلام نقوا أن يكون لله كلام فحكّموا بأن القرآن ليس كلام الله وأنه مخلوق ، وهذا رأى نشأ منذ الدولة الأموية ونسب إلى الجعد بن درهم أستاذ مروان بن محمد ثم كانت لهذا القول فتنة أيام المأمون والمعتصم والواثق وضربت فيها الأبشار ، وأريقَت الدماء .

وكان أبو الحسن الأشعري أحد المعتزلة ولكنه خرج عليهم بمذهب كان إلى مذهب السلف أقرب ، وكثر تابعوه فسمى مذهب أهل السنة والجماعة ، وكان ذلك في حدود سنة ثلثمائة إذ أنه ولد سنة ٢٦٠ هـ ودام على الاعتزال أربعين سنة ثم أراد الله للحق أن يغلب الباطل ، فكان ذلك بأن شرح قلب الأشعري للدفاع عن السنة فخرج على الناس يوما فصعد منبر الجامع بالبصرة وقال : أيها الناس إني قد استهديت الله فهديني وقد انخلت من جميع ما كنت أعتقد كما انخلت من ثوبي هذا ورمى بثوبه . وكان المعتزلة قبل ذلك قد رفعوا رؤوسهم فحجروا الأشعري حتى دخلوا في أقاصع الناس ، وكان سبب خروجه على أستاذه ابن علي الجبائي أنه قال له ما تقول في ثلاثة أخوة مات أحدهم مطيما ، والآخر عاصيا ، والثالث صغيرا ؟ فقال : الأول يثاب بالجنة ، والثاني يعاقب بالنار ، والثالث لا يثاب ولا يعاقب .

قال الأشعري فإن قال الثالث : يارب لم أمتني صغيرا ولم تقنني إلى أن أكبر وأومن بك وأطيعك فأدخل الجنة ، ماذا يقول الرب تعالى ؟ فقال الجبائي : يقول إني كنت أعلم أنك لو كبرت عصيت فدخلت النار فكان الأصلح لك أن تموت صغيرا ، قال فإن قال الثاني يارب لم لم تمتني صغيرا لئلا أعصى فلا أدخل النار ، فما يقول الرب ؟ فهبت الجبائي . وترك الأشعري مذهبه واشتغل هو ومن تبعه بإبطال رأى المعتزلة وإثبات ماوردت به السنة ومضى عليه الجماعة ، وتوسط بين الفريقين فنفى التشبيه وأثبت الصفات المعنوية الأربع ، وهي القدرة والارادة والعلم والحياة ، وكذلك أثبت السمع والبصر والكلام القائم بالنفس ، واحتج لذلك بالنقل والعقل وتعرض لجميع ما أورده المعتزلة من الآراء كالكلام في الصلاح والأصلح والحسن والقبح .

وقد كثر أشياع أبي الحسن الأشعري وتوالت طبقاتهم فكان من تلاميذه ابن مجاهد وغيره . وأخذ عن هؤلاء إمام الحرمين أبو بكر الباقلاني وقد كان له أثر في مذهب الأشاعرة ، فإنه زاد فيه مقدمات عقلية تتوقف عليها الأدلة وتحتاج إليها تلك

البحوث مثل إثبات الجوهر الفرد ، وأن العرض لا يقوم بالعرض ولا يبقى زمانين ، وأن بطلان الدليل يؤدي إلى بطلان المدلول ، وجعل اعتقاد هذه اللقائات واجبا تبعا للعتائد المتوقعة عليها .

وإلى هذا الحين لم يكن المتكلمون قد نظروا في علم المنطق ولا حاولوا معرفته لظنهم أنه من الفلسفة وهي في نظرهم مباينة للعتائد الشرعية فكانوا يتحرجون من النظر فيها خوفا على عقائدهم . وتبع ذلك انصرافهم عن المنطق إذ كان معدودا في جملتها . ثم لما كثر تداول العلوم الفلسفية وعرف أن المنطق لا علاقة له بما فيها من آراء وأنه ليس إلا معيارا للأدلة ، تقاس به أدلة الفلسفة كما تقاس به أدلة غيرها من العلوم فحينذاك أقدم علماء الكلام على دراسة قوانينه فكانت دراسته وتطبيقه على فهم سببا في تهذيبه والمدول عن كثير من مسائله فرجعوا عن القول بأن بطلان الدليل بطلان للمدلول ، وسميت طريقهم طريقة المتأخرين . وأدخلوا في علم الكلام منذ ذلك الحين الرد على الفلاسفة لكونهم أصل الابتداع في الملة .

وكان الامام الغزالي أول من كتب في علم الكلام على هذا المنحى وتبعه الامام ابن الخطيب . ثم زاد إقبال علماء الكلام على كتب الفلسفة حتى اختلطت مباحثهما . وأكثر ما يتجلى ذلك في كتاب الطوالع للبيضاوي وكذلك من أتى بعده من العجم ، فكل تأليفهم قد امتزجت بمباحث الفلسفة حتى صارت إلى الغموض والتعمية .



ومن هذا يتحقق لك ما قلناه من تمثيل هذا العلم لأطوار الفكر العربي فهو يتدرج من سذاجة وبساطة إلى محاولة للابتداع وتغاييب للرأى إلى النظر في أدلة الفلسفة والبحث على منوالها إلى الانغماس المطلق فيها حتى صار علم الكلام لا ينفصل عنها ولا يفهم إلا من اطلع على قوانينها وعرف أسلوبها .

وقد ذكروا في سبب تسمية العلم أنه إنما سمي علم الكلام لأن سبب وضعه والخوض فيه هو إثبات الكلام النفسى لله تعالى ، وقيل لأنه مبنى على الدليل العقلى وقيل يرجع فيه إلى قتل ، فالمعول فيه على الكلام والبلوغ به إلى الاقناع ، وقيل لأنه في بيان طرق الاستدلال على أصول الدين أشبه بالمنطق في تبيينه سالك الحجب في علوم الفلسفة فتوالت كلمة المنطق في تسمية هذا بالكلام في تسمية ذلك ، وقيل لأنه أكثر العلوم خلافا وزاعا فيشتد افتقاره إلى الكلام مع المخالفين ، وقيل لأنه قوة أدلته صار هو الكلام دون ماسواه كما يقال للأقوى من الكلامين هذا هو الكلام . ويسمى أيضا التوحيد تسمية للعلم بأهم مسائله ، وهى إثبات الوحدة لله تعالى

السير والتواريخ

اشتغال الأمة بتاريخها وسير أبطالها وتفصيل وقائعها وأيامها أمر يكاد يكون طبيعيا في الأم تدعو إليه المفاخرة بالآباء والاعتزاز بفضائلهم والرغبة في تسجيل محامدهم لذلك نرى أن العرب وهم في باب الفخر والمصيبة مجنون قد اشتغلوا في جاهليتهم بتاريخهم فأطروا أبطالهم وتمدحوا بأعمالهم وحكوا ضلهم في وقائعهم وقد ملئوا بذلك شعرهم فكان ديوانهم وسجل أعمالهم كما يقولون .

وفي هذه الجاهلية اشتغلوا بالأنساب فكان منهم علماء بها يعرفون نسب القبيلة ويردون إليها الضال وينفون عنها الدعى بمهارة عجيبة تدعش المتبع لأخبارهم ، وقد جعلوا نسبهم ست مراتب ، وهى الشعب ثم القبيلة ثم العمارة ثم البطن ثم الفخذ ثم القميصة . فالشعب هو النسب الأبعد مثل عدنان وقحطان . والقبيلة هى ما انقسمت فيها أنساب الشعب مثل ربيعة ومضر . ثم العمارة وهى ما انقسمت فيها أنساب القبيلة مثل قريش وكنانة . ثم البطن وهو ما انقسمت فيه أنساب العمارة مثل بنى عبد مناف وبنى نخزوم .

ثم الفخذ، وهى ما انقسمت فيه أنساب البطن مثل بنى هاشم و بنى أمية ثم الفصيلة مثل بنى طالب و بنى العباس .

وكان النسابون يحفظون أسماء القبائل وما تفرع منها حفظاً يُهذّونه هَذَا، فإذا عرض لأحدهم رجل وقال له أنا من تميم مثلاً فانسبني فإنه يبدأ بالأصل وما تفرع منه وما يزال ينتقل من العماثر إلى البطون إلى الأخاذ حتى ينتهى إلى الفصيلة، ومنها إلى والد السائل . ومن أشهر النسابين فى الجاهلية أبو بكر الصديق رضى الله عنه، ولما جاءت الدولة الأموية عفى معاوية بأخبار العرب لما بنى سياسته على العصبية فكان مجلسه مذاكرات فى أيام الجاهليين وأعمالهم حتى لقد استدعى عبيد بن شربة من أهل اليمن فكان يحدّثه بذلك وألف له فى تلك الأحاديث كتاب (أخبار الملوك الماضين) فكان أول كتاب فى التاريخ .

وقد دفع العرب إلى العناية بالأنساب فى هذا العصر سبب آخر هو بناؤهم العطاء وأرزاق الجند على حسب ترتيب القبائل، وقد فعل ذلك عمر بن الخطاب لما وضع ديوان جنده فكانت قریش فى ترتيبه أولى القبائل، وكان آكل النبی مقدسين على غيرهم ومن حضر بدرًا أكثر عطاء ممن لم يحضرها إلى غير ذلك من الفروق التى استدعت العلم بالأنساب والمغازى وتاريخ الإسلام عامة .

كذلك احتاجوا إلى معرفة الأماكن وحوادث الإسلام الأولى وتواريخ الأمم لما رأوا أن تفسير القرآن يستلزم معرفة أسباب النزول وأما كنهه والبحث عن أخبار الأمم التى ورد ذكرها فيه فنشأ عن ذلك تتبع لسيرة النبی وسماع لأخبار الأمم التى ورد ذكرها فى القرآن، من دخل الإسلام وكان ذا سابقة فى العلم كأهل اليمن ويهود الجزيرة، ولكن هؤلاء كانوا بين منافقين أرادوا تشويه الإسلام بالأخبار الكاذبة، أو جهلاء امتلأت رؤوسهم بالترهاب قبلها عنهم العرب بسداجتهم ولم يستطيعوا إذ ذاك قدها وبهرجة باطلها لمكانهم من الأمية والجهل بهذه التواريخ .

ولما لم يكن العصر الأموي عصر تدوين لم نجد فيه عملا للمؤرخين مستقلا بنفسه غير مثبت في روايات المفسرين وأهل الحديث .

فلما جاء العصر العباسي وزخرت الدولة بالعلم وتفرغت أصوله وجدنا التاريخ من أوائل العلوم التي عنوا بها فقد اشتمل عندهم على هذه الأنواع .

(١) فن السير والمغازي (٢) فن فتوح البلدان (٣) فن طبقات الرجال (٤) فن النسب (٥) فن تاريخ الممالك (٦) فن معرفة أيام العرب (٧) فن القصص (قصص الأنبياء وغيرهم) .

ولكل من هذه الفنون أسباب دعت العرب إلى بحثه والعناية به .

فمن السير نشأ عن عنايتهم بتاريخ رسول الله إذ كان مصدر الشرع ووسيلة إلى معرفة ناسخه ومنسوخه واجبه وسفته ، وقد كتبت هذه السيرة بأكبر عناية حتى لم يترك مؤرخوها حالاً من أحواله عليه الصلاة والسلام إلا فصلوا القول فيها فأصبحتا نعرف عنه ما لا تعرفه أمة عن نبيها أو عظيمها ، ودراسة حياته عليه الصلاة والسلام مبعث هداية ورشد ، ودليل فضل ونيل ، وسبيل حكمة وسداد لكل من عنى بها وأهتدى بنورها .

وأقدم ما عرف من ذلك (كتاب المغازي) لابن مسلم الزهري المتوفى سنة ١٢٤ هـ و (كتاب المغازي) لموسى بن عقبة المتوفى سنة ١٤١ هـ وقد ضاعا . وليس في هذين الكتابين كما يدل اسمهما إلا ذكر غزوات الرسول فقط . فأما سيرته كاملة فأقدم ما وصل إلينا منها سيرة محمد بن إسحق رواية عبد الملك بن هشام المتوفى سنة ٢١٣ هـ المسماة (سيرة ابن هشام) وهي أقدم المصادر وأوثقها في هذا الباب .

وفن فتوح البلدان دعاهم إلى بحثه تحقيق أمر الجزى والخراج لمعرفة المفتوح صلحا وأمانا أو عنوة ، ومراعاة اليهود التي تمت بين الفاتحين وأهل البلاد .

وأقدم ما وصل إلينا من كتب الفتوح كتاب (فتوح الشام) لأبي إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدى البصري من أواسط القرن الثاني للهجرة ، وقد طبع الكتاب

بكل سكته سنة ١٨٥٤م وفيه كثير من الخبايا السياسية التي جرت بين الخلفاء الراشدين وقوادهم وما تكتب به القواد أو راسلوا كبراء الروم أو عقدوه من العهود أثناء حروبهم بالشام . وقد جاء بعده أبو عبد الله الواقدي فألف كتاب (فتوح الشام) أيضاً ولكنه أشبه بالقصص لما حواه من التفصيل والمبالغة ، وإن كان مؤسساً على الحقيقة ، وقد طبع بمصر وغيرها .

فنّ الطبقات : ويراد بها طبقات الرجال وترتيبهم بحسب أزمته أو فضلهم في قههم ، والذي دعاهم إلى تناول هذا النوع أنهم حين اضطروا لتحقيق مسائل العلم نظروا في رواياتهم وفرقوا بين ضعيفها ومتينها فاستتبع ذلك منهم بحث أحوال الرواة وتقسيمهم إلى عدول وغير عدول ، ولقد تناول بحسبهم جميع أنواع الطبقات حتى كانت لهم طبقات للشعراء ، والأدباء والنحاة ، والفقهاء والصحابة ، والتابعين والفرسان والمحدثين والفقهاء والمفسرين والحفاظ والمتكلمين والنسائيين والأطباء والندماء والمغنين ، وألقوا في كل نوع غير كتاب . فكان العرب أكثر أمم الأرض كتباً في التراجم ، وقد يحوى الكتاب الواحد أربعة آلاف ترجمة ككتاب الأنساب للصاغاني وغيره ، ومن أشهر كتب الطبقات كتاب طبقات ابن سعد المتوفى سنة ٢٣٠ هـ للمسمى طبقات الصحابة والتابعين وقد طبع في لندن سنة ١٨٢٥ م في ثمانية أجزاء ، وفيه غير السيرة النبوية تراجم الديرين والأنصار والمهاجرين وتراجم الصحابة من الرجال والنساء .

فنّ الأنساب : احتاجوا إليه كما ذكرنا حين بنوا عطاءهم على مراتب القبائل والسبق إلى الاسلام ، وقد ذكروا أن أول من ألف فيه زياد بن أبيه الذي استلحقه معاوية بأبي سفيان فيقال انه عمل كتاباً في نسبه ومثالب العرب ودفعه إلى أبنائه وقال استظفروا به على العرب .

وفي العصر العباسي ألف هشام الكلبي المتوفى سنة ٢٠٦ هـ كتابه (النسب الكبير)

وهو يحتوى على أنساب القبائل من المذناية والقحطانية ، ومنه نسخ خطية في باريس والأوسكورال واكسفورد وغيرها .

ومن النساين في هذا العصر المهيم بن عدى الكوفي المتوفى سنة ٢٠٧هـ ، والمذائني المتوفى سنة ٢٢٥هـ ، وعلان الشموي ، والزيبر بن بكار وغيرهم ممن ترى أسماءهم تتردد في كتب الأدب أو التاريخ كالأغاني أو الطبرى وغيرها .

فإن تاريخ الممالك : يصح أن يكون نواة التأليف في هذا ما كان عند معاوية من رغبة في تعرف سير الملوك والساسة من الأعاجم حتى كان يجلس لأصحاب الأخبار كل ليلة بعد العشاء إلى ثلث الليل فيقصون عليه ما كان لهم من مكاييد حرية وسياسة للرعية . ولا شك أن سماع أخبار العظماء يستنهض الهمم ، ويضيف إلى عمر السيامى وتجاربه تجارب من سبقه فيسيّر في سياسته على نهج ، ويخرج من هذه الأخبار بعلم وتجربة لا يستغنى عنهما مثله .

ولقد جاء المنصور من خلفاء العباسيين بعد ذلك فاحتاج إلى مثل ما احتاج إليه معاوية فنقلت له الكتب من الفارسية في سير ملوك الفرس وقد كانوا دهاة في السياسة وذوى رأى صائب في قيادة الجيوش وإحكام أمور الرعية ، فترجم له ابن المقفع (خدای نامه) في سيرة ملوك الفرس . ثم رأى العرب أنهم عاشروا هذه الأمم وفتحوا بلادها ولم يحسن أن يجهلوا تاريخهم فألثوا الكتب في ذلك حتى لقد كتبوا في بدء الخليقة وحوادث الطوفان وغيرها مما ورد في القرآن . وللعرب في ذلك همة عظيمة فإنهم بحثوا وحققوا وطافوا البلاد^(١) ودرسوا بأنفسهم طبائع أهلها وسمعوا من أفواههم

(١) ومن أشهر الرحالين العرب السائح الهروي الذى يقال انه لم يترك برّا ولا بحرا إلا نصده ولم يصل إلى موضع إلا كتب خطه في حاله حتى ضرب به للث قليل في إطلاع شعاذ :

أوراق كديجه في بيت كل فتى على اتقاق معات واختلاف روى
قد طبق الأرض من سهل ومن جبل حكاه خط ذاك السائح الهروي .

تاريخ أسلافهم، وأقدم كتاب وصل إلينا في ذلك كتاب اليعقوبى المتوفى سنة ٢٧٨ هـ طبع في ليدن سنة ١٨٨٣ م وهو قسيان قسم للتاريخ القديم تناول فيه التاريخ منذ آدم إلى ظهور الإسلام، وفيه أخبار السريان والهنود واليونان والرومان والفرس والنوبة والبربر. والقسم الثانى فى تاريخ الإسلام وقد رتبته على حسب الخلفاء وينتهى إلى سنة ٢٥٩ هـ فى زمن المعتز على الله .

ومن هؤلاء المؤلفين أبو حنيفة الدينورى المتوفى سنة ٢٨٢ هـ وله كتاب (الأخبار الطوال) وهو يشتمل على نحو ما اشتمل عليه كتاب اليعقوبى، وينتهى بوفاته المعتصم سنة ٢٣٧ هـ .

وشيوخ المؤلفين فى هذا الباب هو ابن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ هـ، وقد اشتهر بقوة عارضته وفصاحة لهجته وصبره على العمل حتى قالوا إنه قضى أربعين سنة يكتب فى كل يوم أربعين صفحة . وعمله الذى اشتهر به هو تفسيره المعروف بالتفسير الكبير وتاريخه للمسمى أخبار الرسل والملوك، وينتهى إلى سنة ٣٠٢ هـ، وقد طبع بمصر فى ثلاثة عشر جزءاً وقد اتبع فى أخباره الإسناد إلى الرواة . وقد كان للكتاب رواج عظيم فى سالف الأيام حتى كان منه فى خزانة العزيز الفاطمى صاحب مصر عشرون نسخة وفى دار العلم للحاكم بأمره مائة وعشرون . ثم جرى عليه ما جرى على غيره من الضياع حتى أنهم حين أرادوا طبعه أخيراً لم يجدوه مجموعاً فى مكان واحد .

فمن معرفة أيام العرب : احتاجوا إليه حين قاموا بجمع أشعار العرب فاضطروا إلى معرفة أسباب إنشاء العلقات وكبار القصائد وتجردوا لمعرفة أحوال العرب التى يستدل عليها بشعرهم فجمعوا من ذلك كثيراً، وقوام عملهم ارتياح الخلفاء لسماع هذه الأخبار فكثرت واستفاضت وصار من أقسام التاريخ قسم يسمى أيام العرب وأخبارها .

وأقدم مؤلف وصل إلينا في هذا النوع كتاب « طبقات الشعراء الجاهليين والاسلاميين » ، وهو لابن سلام الجعفي المتوفى سنة ٢٣٢ هـ ، وقد طالما استشهد صاحب الأغاني بأقواله ورجع إليه في تعيين طبقات كثير من الشعراء ، وفعل ذلك القائل والزجاج في أماليهما وكذلك السيوطي في مرزهره ، وقد قسم ابن سلام الجاهليين عشرين طبقات غير أصحاب المراتي ، وقسم الاسلاميين عشرة كذلك والكتاب مطبوع بمصر ، ويعد الأغاني لصاحبه أبي الفرج الأصبهاني المتوفى سنة ٣٥٦ هـ أكبر مصدر في هذا الباب ، والكتاب كبير يقع في واحد وعشرين جزءا طبع منها أولاً عشرون ثم عثر للمستشرق رودلف برونو سنة ١٨٨٨ م على الجزء الحادي والعشرين فتم الكتاب على ذلك .

اشتغل أبو الفرج نحواً من خمسين سنة في كتابه ، وقد بناه على تبين مائة الصوت التي اختارها المغنون للرشد فكان إذا ذكر صوتاً منها ذكر طريقته ومن غناه ، وربما ترجم لأوضاع لحنه ، ثم يستطرد إلى ذكر قائل الشعر فيترجم له ، وقد يعرض في الكلام ذكر أشياء من واقعة أو رجل فيذكر تاريخه ، فلذلك احتوى الكتاب على أخبار مئات من الشعراء ، والمغنين والأدباء والعشاق والخلفاء والقواد وأكثر أيام العرب وأحوالهم وقبائلهم وأنسابها ، ووقائعها ومذامها ومحامدها فصار سجلاً عاماً لتاريخ العرب في الجاهلية خصوصاً .

وصاحبه ثقة يعتمد على السند ولا يكتفى بذلك بل كانت له ملكة للنقد ، وبصيرة بالكلام ، بها يبين منحوه ويرد زائغه .

ذكر صاحب الأغاني خبر تعلق ابن أبي ربيعة بالريا وإخاحه عليها بالهوى ، وتزويج أهلها لها من سهيل وكتابتها إليها شعراً في قوهية^(١) وبعث به إليها ، فلما قرأته بكت بكاء شديداً ثم كتبت إليه تقول :

(١) قوهية : هي ثياب يرض تنسب إلى بلدة تسمى قوهستان ببلاد فارس ثم قيل لكل ثوب يشبه ما ينسج بها قوهي أيضاً .

أَتَانِي كِتَابٌ لَمْ يَرِ النَّاسَ مِثْلَهُ أُمِدَّ بِكَافُورٍ وَمِسْكِ وَعَنْبَرٍ
وَقِرْطَاسِهِ قُوْهِيةٌ وَرِبَاطُهُ بِمَقْدَمِ الْيَاقُوتِ صَافٍ وَجَوْهَرٍ
وَفِي صَدْرِهِ مَنَى إِلَيْكَ نَحْيَةٌ لَقَدْ طَالَ تَهْيَاؤُكُمْ وَتَذَكُّرِي
وَعُنْوَانُهُ مِنْ مَسْتَهَامِ قُوَادِهِ إِلَى هَاتِمٍ صَبَّ مِنَ الْحَزَنِ مُسَمَّرِ

ثم يقول : قال مؤلف هذا الكتاب : وهذا الخبر عندى مصنوع وشعره مضعّف يدل على ذلك ، ولكنى ذكرته كما وقع إلى (ص ٩١ ج ١ طبعة الساسى) وفى ص ٣٣٣ ج ٢ تحقيق تاريخى فى نصر النعمان بن المنذر ، وهكذا ترى فيه من مثل ذلك كثيرا .

وقد عد عليه ياقوت الحموى بعض مآخذ ذكرها فى قوله (وقد تأملت هذا الكتاب وعينت به وطالعه مرارا وكتبت منه نسخة بخطى فى عشر مجلدات ونقلت منه إلى كتابى للرسوم بأخبار الشعراء فأكثرت وجمعت تراجمه فوجدته يعد بالشئ ولا ينفى به فى غير موضع منه كقوله فى أخبار أبى العتاهية (وقد طالت أخباره هاهنا ، وسنذكر خبره مع عتبة فى موضع آخر) ولم يفعل . وقال كذلك فى مقام آخر (أخبار أبى نواس مع عنان إذ كانت سائر أخباره قد تقدمت) ولم يتقدم منها شئ إلى أشباه ذلك والأصوات المائة هى تسعة وتسعون (وما أظن إلا أن الكتاب قد سقط منه شئ أو يكون النسيان قد غلب عليه) والكتاب لا يزال كما وصفه ياقوت .

وقد اشتمل الكتاب على كثير من أخبار المستهترين ، والمجان ، والأخبار الموضوعة على الخلفاء ، وكثير منها لا يصدق ، وعذر أبى الفرج فيها أنه نقلها عن عاصروه ، وكثير منهم لا يتورع عن الكذب ، ولم يكن هم أبى الفرج تحقيق الحادث فى ذاته ، ولكن كان همه نقل الشعر الذى قيل فيه أو غنى ، فهو لأجل ذلك لم يتحرّ فليس الكتاب من هذه الناحية مصدرا تاريخيا للحقائق ، وإن كان أمر ذلك فى الجاهليات أقرب إلى التحقيق لأن روايتها كانوا أقرب إلى الورع ، والتحرّج من الكذب .

وقد اختصر أبو الفرج نفسه كتابه ، ولكنه قد ، واختصره بعده كثيرون ، منهم ابن مكرم صاحب لسان العرب المعروف أيضاً باسم ابن منظور ومختصره هذا مخطوط بمكتبة الأزهر .

فن القصص : قد سبق لنا القول فيما كان منه في الأسماء والخرافات في الكلام عن علم الأدب ، أما قصص الأنبياء : فقد كان من خدمة التفسير العناية بها لورودها في القرآن ، وتلك القصص اعتمد العرب فيها على من أسلم من اليهود والنصارى ، وأغلبهم كانوا من جهلاء قومهم أو من فاسدى العقيدة فكثرت فيها الخلط .

ترجمة العلوم

في العصر العباسى

شعر العرب بالحاجة إلى العلم لأنه قوام الحياة المدنية ، وضرورتها التي لا غنى عنها ، وقد عرفت كيف أقبل العرب في هذا العصر على المدنية يأخذون بأسبابها ، ويتشبه ملوكهم بالأكاسرة في نظام معيشتهم ، وتدير ملكهم ؛ فكان لابد من العلم الذى تساس به هذه الممالك ، وتدير أمورها .

ولذلك تضافرت الأمة : خلفاء ووزراء ، فبدلوا في سبيل ذلك ما حرك الهمم لتحقيق هذا الغرض الشريف ، وبذل معهم كثيرون من أهل البيوتات الكبيرة في الدولة ممن يتشبهون بالملوك ، ويريدون أن يذكروا بهذه النقبة معهم .

العلم في الأمام المعاصرة للعرب

وكان يعاشر العرب في هذا الحين أمم ذات مدنيات سابقة ، وعلوم ناضجة متوارثة في أجيال متعاقبة . فكانت اليونان مشهورة بحكمتها ، ولها فلاسفتها وأطبائها الذين لا تخفى شهرتهم : كسقراط ، وأرسطاليس ، وأفلاطون ، وأبقراط ، وجالينوس ، وأرشميدس ، وغيرهم .

وكذلك كان الفرس أهل أدب وعلوم انتقلت إليهم من الهند والصين ، ثم من اليونان في عهود سابقة ، وكان ذلك نتيجة للحوار والاختلاط في الحروب . وقد ذكروا أنه في عهد سابور بن أردشير بعث إلى اليونان من جلب كتب الفلسفة ونقلها إلى الفارسية ، ولما جرى على علماء اليونان الاضطهاد من ملكهم جُستَنيان^(١) نزحوا إلى بلاد الفرس ، فوجدوا صدوراً رحيمة فنشروا علومهم بتلك البلاد ، واستفادت الفارسية هذا الميراث الذي زفه إليها هؤلاء الضيوف الطارئون . كذلك كانت أمة السككديان على نهر دجلة ، وقد عرفت قديماً بالعلم خصوصاً الطب ، وكانت بها مدرسة جُنديسابور^(٢) التي بقيت إلى العصر العباسي قائمة ، وكان يعلم فيها الطب الهندي واليوناني .

وحدث كذلك أن العلوم انتقلت إلى أمة الشريان^(٣) بانتقال أساتذة مدرسة الإسكندرية على أثر إغارة الإسكندر المقدوني عليها ، فأسس هؤلاء العلماء في وطنهم الجديد مدارس الرُّها ، ونصيبين وقنشرين ، وكان يدرس بها الطب ، والصيدلة ، والحيوان ، والنبات .

وأمة الهند ذات مدنية قديمة وعلوم موروثه ، اشتهرت من بينها علوم النجوم ، والطب ، والآداب ، فمن هؤلاء ، وعن المصريين أسبق الأمم إلى المدنية نقل العرب علومهم . وقد كان لاتصال هذه الأمم قديماً بعضها ببعض أثر عظيم في تنقل علومها من واحدة إلى الأخرى ، فالفرس نقلوا من علوم الهند ، وكذا ترجعوا إلى أفهمهم كثيراً من

(١) كان ذلك أيام كسرى أنو شروان ، وقد فرّ إلى بلاده سبعة من اليونان الذين شردهم اضطهاد جستنيان لاثونية فأمرهم كسرى بنقل العلم فتحملوا الطب والنطق ، وكان حكم كسرى (٥٣١ - ٥٧٨) من الميلاد .

(٢) أنشأ سابور بن أردشير هذه المدينة وبني كسرى أنو شروان بيارستانها ، وهي الآن أطلال مدينة شاه آباد ، وبها تعلم طب العرب الحارث بن كلثة وطب بعض عطاء الفرس فنحه مالا وجارية هي سمية أم زياد .

(٣) بلاد السريان فيما بين النهرين .

كتب اليونان ، فتجد عندهم كتباً في علم النجوم ، وأصله هندي ، وأخرى من الطب والآداب والنطق ، استفادوها من الهند أو اليونان ، لوقوعهم بينهم من الشرق والغرب ، وهذا شأن العلم في كل زمان فهو لا وطن له بل ينتقل برحلة العلماء ، وإغارة الفاتحين . وقد جاء العرب فوجدوا هذه العلوم ذخراً ثميناً تعز به هذه الأمم ، وإن كان قد اعترى بعضها فتور في تحصيله ، وكسل عن النظر فيه فقتنوا بأن يصوروا كتب العلم في دورها ، وأن يقوموا على حراسها ، وهذا شأن الأمم إذا بلغت نهايات عمرها تجعل العلم من اللقنات مجتزئة من تحصيله بضم أشتاته في خزائنها ، ولكن الأمة العربية كانت في ذلك الحين جديدة الآمال منبئة النشاط ، فسكا أسرع في غزو هذه الممالك ، والاستيلاء على مواطنها ، كذلك غزتها في منتجات أفكارها فأسرعت في ذلك إيسراعها في الفتح ، ولم يمض إلا قليل حتى حازت علوم الدنيا نقلاً ودراسة وانتقاداً ، فصار لها من آثار ذلك ما أحدثته في آثار الماضين من تهذيب ، وما أبرزته من جديد ، ونشأ من رجالها الفلاسفة الذين أروا على سابقهم ، وأثروا بالعجب العجائب في علومهم ، وسنفرد لهذه النتائج فصلاً خاصاً .

أدوار الترجمة

بدأت الترجمة قبل العصر العباسي بما تم على يد خالد بن يزيد بن معاوية من نقل بعض الكتب ، وكان مغرمًا بالنظر في الكيمياء فترجم له فيها ، وفي الطب والنجوم ، وقد قال عنه الجاحظ : (وهو أول من ترجم له في النجوم والطب والكيمياء) . ولكن عمل خالد كان عمل فرد لا يصح أن نحكم به على العصر . لذلك نقول إن العصر الأموي قد انتهى ، ولم يكن العرب قد اشتغلوا بالترجمة ، فهي لذلك ميزة العصر العباسي ، وفضيلة تدب الله لها خلقاء .

وكان أول من عني بها منهم أبو جعفر المنصور فإنه على بخله بالمال بذل في سبيل الترجمة بسخاء حتى لقد أعطى جرجيس ابن بَحْتِشُوع الطبيب عشرة آلاف دينار، وهو عطاء لم يجر مثله على يده؛ ورغب إليه منذ ذلك الحين في نقل كتب الطب اليونانية، وقد ترجم في عهد المنصور في أنواع كثيرة من العلوم، فقد ترجم في الموسيقى كتاب بطليموس في الاغنون الثمانية، وترجم كذلك في الهندسة والمنطق، ولكن العلمين اللذين زاد اهتمام المنصور بهما هما الطب والنجوم؛ فقد نقل له جرجيس المتقدم بعض كتب أبقراط الطبيب اليوناني المشهور، كما نقل له البطريريق كتاب الترياق لجالينوس الطبيب اليوناني أيضاً، ونقل له في النجوم محمد بن إبراهيم القزاري (وهو من أشهر المترجمين في عهده) كتاب السندهند من الهندية، وكذلك ترجم له ابن المقفع من الفارسية كتاب كلية ودمنة، وهذا الكتاب هندی الأصل نقل إلى الفارسية ومنها إلى العربية، كذلك ترجم ابن المقفع كتاب المقولات، وكتاب تحليل القياس لأرسطو، وكتاب إيساغوجي الذي ألفه فَرْفَرِيُوس الصُّورِيّ، وجعله المدخل إلى كتب أرسطو المنطقية.

ولقد قتر أمر الترجمة في عهد المهدي والمهدي، لاشتغالهما باستئصال شأفة الزنادقة فلم يكن في أيامهما شيء يذكر في هذا الباب.

ثم جاء عصر الرشيد: وقد بلغت المملكة أوجها غنى ونظاماً وقوة فراجت الترجمة في أيامه، وساعد على ذلك أن كان البرامكة وزراءه، وكانوا في دوتهم أسبق الناس إلى الفضل، وأحرصهم على طيب الذكر، وأعرفهم بقدر العلم، فحروا همة الرشيد لذلك، وجادوا هم من تلقاء أنفسهم على المترجمين فيما ترجموه من الكتب برسهم، ونتج عن ذلك إقبال الناس على الترجمة فنقلوا منها كثيراً في كل العلوم، وأعادوا ترجمة كثير من الكتب التي ظهرت في أيام المنصور، لأن ترجمتها لم تكن صحيحة.

وكان من آثار رواج العلم ، والترجمة في أيام الرشيد إنشاء دار الحكمة ببغداد ،
وهي تلك الدار التي حوت كل ما عثر عليه في ذلك الحين من كتب هندية ،
وفارسية ، ويونانية .

ثم كانت أيام المأمون فكانت أزهر عصور الترجمة لأن المأمون كان عالماً
جليل القدر في كل العلوم ، وكان يجالس العلماء فيشاركونهم بحوشهم ، بل يتغلب عليهم
بقوة عارضته وصفاء ذهنه ، فكان الناس يتقربون إليه بالعلم ، ويتسابقون بالفضل ،
وقد اعتنى بالترجمة عناية كبيرة حشد لها همته ، وأعدّ عدته ، فكتاب ملك الروم في
إنفاذ ما عنده من كتب العلم المدخرة ببلاده ، فسمح له بها ، فأخرج المأمون بها من
أشهر رجال الترجمة منهم الحجاج بن يوسف بن مطر ، ويوحنا البطريق ، وسلم
صاحب بيت الحكمة ، وجعل على رأسهم حنين بن إسحق ، فنظروا في تلك الكتب
وحملوا إليه ما اختاروه منها ، فأمر المأمون بترجمته ، وكان يعطى كثيراً حتى كان
يعطى أجر الكتاب المترجم وزنه ذهباً .

ومن عناية المأمون بالترجمة ، وسلامتها من الأغلاط العلمية واللغوية ، أنشأ ببغداد
مدرسة للترجمة يتعلم فيها أبناء العرب اللغات المختلفة حتى يجيدوا النقل عنها ، وقد جعل
النظر في أمر هذه المدرسة إلى طبيب نسطوري ، وللنساطرة في الطب قدم فارعة
وخدمة سابقة ، ويقال إن في مكتبة الأسكوريال معاجم عربية يونانية وأخرى عربية
لاتينية وضمت ليحذق بها أبناء العربية لغة هذه العلوم في اليونانية .

وقد جعل المأمون المترجمين يوماً في الأسبوع يجتمعون فيه بعلماء اللغة ليطالع هؤلاء
على عملهم فيصححوه ويقرؤه ، ولم ينته عصر المأمون حتى كانت كل العلوم التي ألف
فيها الهنود والسريريان والفرس واليونان قد ترجم منها في العلم الواحد الكتاب أو
الكتابان أو الثلاثة ، خلا السحر ، وعبادة الأوثان .

ومن المترجمين في أيام المأمون عن اليونانية حبيش الأعسم وأصطفان بن باسيل

ويوحنا بن ماسويته وقسطنطين لوقا ، وعن الفارسية آل نوبخت (موسى ويوسف)
وعن الهندية منكه وابن دهن .

ثم فترت الترجمة في أيام المعتصم لأنه لم يكن له في العلم نفوذ المأمون ، وعناية
الرشيد فسكنت ريبها ولم يكن من غيره عناية بها لأن الناس تبع للوهم فيما يقبلون
عليه ، أو ينصرفون عنه من الأمور . فلما كان عصر الواثق ، وكان ذكيا ذا ولع
بالآداب والعلوم حتى كان يقال له المأمون الأصغر ، نشطت الترجمة في أيامه ولكنها
كانت في نوع خاص هو الأسماء والخرافات . وذلك لأن استبداد الأمراء بدأ يظهر
في أيامه فكان يرى في مطالعة الأسماء وسماعها أثرا في التسلية وترجية الوقت ، وقد
ترجم له كتاب ألف ليلة وليلة (هزار أفسان) وقد عرفت حديثه فيما مضى .

ولما ولي المتوكل وكانت الآراء الفلسفية قد أثمرت ثمرها المكروه من الإلحاد
والابتداع رأى أن يقضى على ذلك فاشتغل بإحياء السنة ونهى عن الجدل ، ولم يمد
إلى الترجمة يدأ إلا ما كان من العلوم النافعة كالطب فقد نقل له حنين بن إسحق
وأصطفان بن باسيل وموسى بن خالد كتباً للجالينوس كما نقل أصطفان كتاباً في النبات
لديسقوريدس اليوناني .

وكان من مقاومة المتوكل للبدعة أن حجب على أهل الذمة وألزمهم أموراً فيها كثير
من الاستخفاف بهم كلبس الزنار والطيلاسة المسلية ونهى عن تعليم أبنائهم في
مكتاب أولاد المسلمين ، وحرّمهم من أعمال الدواوين ، وكتب إلى الأمصار بهدم بيوتهم
وأبطل كثيراً من حقوقهم ، وذلك ما لم يمهده في سعة صدر الإسلام وحسن رعايته لمن
دخلوا في حكمه ، ولعل المتوكل عنوا في إرادته القضاء على ما راعه من تبديل الناس
للشرع ، وجحد لهم فيه بالباطل ، وأن هؤلاء النصارى كانوا الأيدي العاملة غالباً في ترجمة
ما جرّ على المسلمين هذه المصائب ، فعاملهم هذه المعاملة ليقضى على فتنة ناجية قبل أن
يكون منها القضاء على الدين .

وبعد عصر المتوكل آخر عهد المسلمين بالترجمة معزوة إلى الخلفاء .

نقل العلم لغير الخلفاء

لما عرف الناس رغبة الخلفاء في نقل العلم جروا في ميدانهم وساروا على نهجهم والناس في كل عصر مقلدون للوكهم، يتفانون فيما يحبون، ويحرصون على ما إليه ينزعون، لذلك رأينا كثيراً من غير الخلفاء اعتنى بنقل العلوم وبذل فيها عن سعة. وأول من يذكر في هذا المقام هم البرامكة الذين لم يكن ينقصهم من عظمة الخلافة إلا اسمها، وقد كان لهم في الدولة الشأن الأول، ووصلوا في نفوس الناس إلى المنزلة التي لا يسمو إليها إلا الخلفاء، وقد يذكر بعدهم كثيرون من بيوتات الجند أمثال أولاد شاكر الذين جدوا في طلب العلوم القديمة، وكان لهم فيها فاذ، فكان محمد بن موسى بن شاكر وافر الحظ في الهندسة والنجوم، وسائر الرياضيات، وأخوه أحمد كان ماهراً في الحيل (الليكانيكس)، وأخوها حسن كان متفرداً بالهندسة، له فيها طبع لا يذاني، وقد خدم هؤلاء الإخوة تلك العلوم بتحصيلها، وكذلك بذلوا الرغائب في سبيل نقلها إلى العربية، وكان من جملة من أثنوه للبحث عن الكتب إسحاق بن حنين، وكانوا ينفقون على الترجمة في الشهر خمسمائة دينار، ومن المترجمين لهم إسحاق، وحيش، وثابت ابن قرة.

ومن آثار غرامهم بتلك العلوم أن أخرجوا مؤلفات كثيرة في الطب والحيل والهندسة، وهم الذين حققوا للمأمون أن محيط الأرض طوله ٢٤٠٠٠ ميل، وذلك أن المأمون رأى في الكتب المترجمة أن محيط الكرة يبلغ طوله ما ذكرنا فأراد أن يتف على حقيقة ذلك فسأل بنى موسى المذكورين عنه فقالوا هذا أمر قطعي، فطالبهم بالتحقيق فخرجوا إلى صحراء سنجر، وهي في غاية الاستواء، وأخذوا معهم جماعة ممن يثق بهم المأمون ويركن إلى معرفتهم بهذه الصناعة فلما كانوا بتلك الصحراء أخذوا ارتفاع القطب الشمالي ببعض الآلات وضربوا في ذلك الوضع وتداوروا فيه حبلاً طويلاً ثم مشوا إلى

الجهة الشمالية على استواء الأرض من غير انحراف حتى كان ماقلسوه من الأرض $٦٦\frac{2}{3}$ ميل ، ثم أخذوا ارتفاع القطب المذكور فوجدوه قد زاد درجة على الارتفاع الأول ، ثم فعلوا مثل ذلك متجهين من الوتد الأول إلى جهة الجنوب حتى انتهى مثل القياس الأول وقاسوا ارتفاع القطب فوجدوه قد نقص درجة عن ارتفاعه الأول . ومن المعلوم أن عدد درج الفلك ٣٦٠° و بضرب هذه الدرجات في حصة الدرجة الواحدة من سطح الأرض وهي $٦٦\frac{2}{3}$ ميل نتج أن محيط الأرض هو أربعة وعشرون ألف ميل كما ورد في كتب العلوم ثم عادوا ففعلوا ذلك في نواحي الكوفة فتوافق الحسابان فلم المأمون صحة ما حرره القدماء .

ومن بذل في نقل العلوم من غير الخلقاء أيضاً محمد بن عبد الملك الزيات ، كان يقارب عطاؤه للنقطة والنساخت ألفي دينار في الشهر ، وقد نقل باسمه عدة كتب ، ومنهم أيضاً علي بن يحيى المعروف بابن المنجم ، وكان من كتّاب المأمون ، ومنهم إبراهيم بن محمد بن موسى الكاتب ، وكان حريصاً على نقل كتب اليونان .

إحصاء الكتب المترجمة

يطول بنا القول لو عدنا إلى ذكر الكتب التي نقلت إلى العربية في جميع أحوال الترجمة منذ عهد المنصور إلى أن قُتِرَتْ في أواخر أيام المتوكل ؛ على أنه لا فائدة من تعداد هذه الكتب ، فإن أكثرها قد ذهبت به الحوادث ، ولكننا في سبيل الدلالة على مجهود العرب في هذا المقام نستطيع أن نحصي ما استطاع إحصاؤه من الكتب بحسب أنواعها وأشخاص مؤلفيها .

ففي الفلسفة نقل ثمانية كتب لأفلاطون ، وتسعة عشر لأرسطاليس غير كثير من شروح لتلك الكتب ، وغير كتب أخرى لمؤلفين لا تعرف أسماءهم .

وفي الطب نقل عشرة كتب لأبقراط ، وأربعة وستون للجالينوس ، وهذا غير

كتب في الطب ذكرها صاحب الفهرست ، ولم يذكر ناقلها . هذا إلى كتب أخرى في الرياضيات والنجوم وسائر العلوم ، وهذه الأنواع كلها مترجمة عن اليونانية . أما الكتب التي ترجمت عن غير اليونانية فهي عن الفارسية نحو عشرين كتابا في التاريخ والأدب ، ونحو ثلاثين عن اللغة السنسكريتية ، وأكثرها في الرياضيات والطب والنجوم ، ونحو عشرين عن السريانية والنبطية ، وأكثرها في السحر ، والطلسمات ، وهناك بضعة كتب نقلت عن اللاتينية والعبرانية والمصرية . وقد ضاع أغلب هذه الكتب ولم يبق منها إلا القليل ، فمن ذلك كتاب الجسطى لبطليموس ترجمه الحجاج بن يوسف ؛ وكتاب (السياسة في تدبير الرياسة) ترجمه يوحنا البطريق ، وكتاب (المدخل في الطب) ، وكتاب (النواميس) لحنين ابن إسحاق ، وكتاب منطق أرسطو (لإسحاق بن حنين بن حنين بن إسحاق السابق الذكر) وكتاب (الفلاحة اليونانية) لتسطا بن لوقا نقله عن السريانية ، وقد طبع بمصر ؛ وأغلب هذه الترجمات مشتقة في مكاتب : ليدن ، وبرلين ، وأسبانيا .

إهمال الأدب اليوناني في الترجمة

يلحظ الباحث في موضوعات الترجمة في العصر العباسي أنها شملت كل شيء من علوم الأمم وآدابهم خلا الآداب اليونانية من شعر وقصص ، وذلك أمر يستعري النظر . والسبب فيه ظاهر وهو أن العرب إنما نقلوا العلوم التي عرفوا قدر الحاجة إليها من طب وصيدلة ، وهندسة وكيمياء وما إلى ذلك مما كان ينقصهم في مدنياتهم ، فأما الشعر والخيال فهم فيه مُتَجَلِّون ولهم منه تراث تليد من العصر الجاهلي وكسب طريف أحدثوه بعد إسلامهم فهم لم يعدلوا بالشعر شيئا ثم هم من الاعتداد بأنفسهم والسمو بلغتهم في المسكنة التي لا يظنون أن أحدا يدانهم فيها فلم تكن بهم حاجة إلى خيال اليونان وقصصهم ، والآداب خصوصا تتباين فيها أذواق الأمم ، فلو أن العربي أراد أن يترجم

أدب اليونان لحض اللذاعة والاستمتاع به ؛ فإنه غير واجد فيه ما يسره ، لأنه لم يألف إلا خياله ولم يعتد إلا ما يعليه عليه ذوقه .

أما نقل آداب الفرس والهند فذلك راجع في مجلته إلى أن النقلة من هذه اللغات لم يؤمروا بذلك من قبل الخلفاء ولكمهم تزيدها به من عند أنفسهم ليظهروا في العربية فضل لغتهم ولعلمهم أرادوا بذلك مسرة الأمراء من الفرس فيما نقل من الفارسية فهم طبعاً يحنون إلى لغتهم ويشفقون بأدبها ، وإذا كانوا يقرءونه في الفارسية فإنهم يرضون عن نقله إلى العربية حتى يكون لأبنائهم اتصال بلغة آبائهم . كذلك يقال في اللغة الهندية إنه اتفق وجود ترجمة تبرعوا بنقل هذه الآداب ورأوا أنها لشرقيتها تمازج الخيال العربي ولا تجافيه ، وهناك أمر جدير بالاعتبار يحول دون ترجمة الأدب اليوناني وهو بناءه على الوثنية وتأليه الكواكب والقوى الكونية ؛ والعرب يفرون من الوثنية ويمقتونها لأن دينهم إنما جاء لمحاربتها . فهذا سبب ذاك .

أثر الترجمة في حضارة العرب

لقد ظهر أثر هذه الترجمة عاجلاً فإنه في أوائل عهدها استطاع الرشيد أن يطرف ملك الروم بساعة دقاقة متحركة بالماء ، فلما رآها رجال شلمان ظنوها آلة سحرية ووقعوا في حيرة حتى هموا بكسرها . وقد مر بك أنهم في عهد المأمون استطاعوا التحقق من طول محيط الأرض . كذلك عملوا في زمنه أرساداً وأزياجاً^(١) فلكية وحسبوا السكسوف والخسوف ، ورصدوا الاعتدال الربيعي والخريفي ، وقدروا ميل منطقة فلك البروج .

وقد تمددت المراصد في نواحي المملكة العربية : منها مرصد بغداد المنشأ على

(١) الأزياج : جمع زيج وهو حساب حركات الكواكب للوقوف على أوقات شمروقها وغروبها وهو ما يراد الآن من لفظ (تقويم) .

قطرتها وقد رصدت به عدة أرساد ، ومرصد المراغة الذى أنشأه نصر الدين الطوسى بأمر هولاكوخان ، ومرصد سمرقند الذى أنشأه تيمورلنك ، ومرصد دمشق الذى أنشأه حفيد تيمورلنك ، ومرصد جبل المقطم الذى أنشأه ابن يونس الفلكى صاحب الزيج الحاكى .

وكذلك كان من آثار الترجمة غير ما مر أن كشف العرب قوانين لثقل الأجسام مائعا وجامدا ويحشوا الجاذبية وقالوا بها واخترعوا مذهب الساعة (البندول) اخترعه يونس بن حبيب المصرى . وكان أبو الحسن الجوهري أول من وضع مبادئ الضوء وفسر أسباب انعكاسه على النجوم . وكذلك عملوا بيت الإبرة « البوصلة البحرية » وقالوا بكبرية الأرض ودورانها على محورها ، واخترع أبو نصر الفارابى المتوفى سنة ٣٣٩ هـ آلة القناء المسماة بالقانون ، كما كان لأبى بكر الرازى المتوفى سنة ٣٢٠ هـ ولع بالعلوم الحكمة وخصوصا علم الكيمياء ، وقد توصل إلى تركيب زيت الزاج المسمى الآن « الحامض الكبريتى » باستقطار « كبريتات الحديد » التى كان يعرف تركيبها ، ويسمى الزاج الأخضر ، وكذلك استحضر الكحول « السبرتو » باستقطار مواد نشوية وسكرية متخمرة ، وقد اعترف الإفريقية بأن العرب هم الذين استحضروا ماء الفضة المسمى الآن « حامض النترك » وماء الذهب المسمى « النيترو-هيدروكلوريك » وكشفوا البوتاسا ، وروح النوشادر وملحه ، وحجر جهنم المسمى « نترات الفضة » والسلميانى المسمى « كلوريد الزئبق » والراسب الأحمر المسمى « أكسيد الزئبق » وقد أشار ابن الأثير إلى مركبات إذا طلى بها الخشب امتنع احتراقه وقد استخدمها العرب فى واقعة الزنج سنة ٢٦٩ هـ وم أول من وصف التقطير، والترشيح والتصفيد والتبلور والتذويب .

وفى كتاب : (ميزان الحكمة) الذى نقله أحد الأوربيين عن العربية بحوث فى وزن الجسم فى الهواء وما يطرأ على وزنه من التغير تبعا لتغير كثافة الهواء ، وذلك يدل

على أن العرب كانوا يعلمون أن قاعدة ارشميدس عامة ، وليست مقصورة على السوائل بل تشمل الغازات أيضاً . ومن هنا يتضح أن العرب كانوا يفهمون أن الهواء الساخن يرتفع لأنه مغمر بوسط أكثر كثافة منه لا لأنه استفاد شيئاً من طبيعته العلوية كما يقول أرسطو . وفي الكتاب السابق بحث في مركز الثقل واتزان الميزان ، وفيه يعزى سقوط الأجسام إلى تأثير قوة تجذبها نحو الأرض .

وكان لابن الهيثم المصرى أثر في علم الضوء كبير ، فقد أثبت أن خطوط الضوء تصل من المرئى إلى العين ، وأبطل نظرية أفلاطون وإقليدس التى كانت تقول بالعكس ، مما يدل على أن ابن الهيثم كان يعرف تركيب العين معرفة مبنية على التشرىح والاختبار ، وقد بحث ابن الهيثم أيضاً في انكسار الأشعة عند مرورها في طبقات الهواء واستنبط من ذلك أن النجم الذى ترقبه العين يظهر في موضع غير موضعه الحقيقي ، وأن الشمس تظهر على الأفق قبل وصولها إليه فعلاً ، وكذلك يبقى شعاعها بعد غروبها . وكان الأقدمون ينظرون إلى الكيمياء نظرة خيالية فأظهر العرب استحالة ذلك وبحوثاً في الكيمياء الحقيقية وهى تركيب الأجسام من عناصر وتحليلها إليها .

ومن آثارهم العظيمة أنهم كانوا السبب في نقل الأرقام الهندية إلى سائر أقطار العالم ، فالعرب يسمونها الهندية والإفرنجية يسمونها العربية . وأول من تناول هذه الأرقام من العرب هو أبو جعفر محمد بن موسى الخوارزمى ، كذلك أخذ الإفرنجية علم الجبر عن العرب وقلوه باسمه العربى . وكان أول من تكلم في هذا العلم هو ديوفنتوس الإسكندرى من أهل القرن الرابع للميلاد ولكن بحثه فيه كان بحثاً أولياً . أما العرب فهم واضعو قواعده الأساسية التى صار بها علماء مستقلاً فهم بالنسبة لديوفنتوس كعبد القاهر الجرجانى أو السكاكى مثلاً بالنسبة إلى من تكلم قبلهم في علوم البلاغة ولم يتناولوها إلا من أطرافها .

وفي الطب أحدثوا في العلاج وسائل لم تكن معروفة قبلهم وقد وافق عليها من

جاء بدم فقد عالجوا الفالج بالقصد والزيف بصب الماء البارد ، واستعملوا المرقد (البنج) في العمليات الجراحية ، وكتب أبو بكر الرازي في أمراض الأطفال ، وله كتاب بهذا الأسْم ، وألف كذلك في الجدري والحصبة ، ومن الأقوال المأثورة التي تدل على فضل العرب في الطب قولهم : إن الطب كان معدوما فأحياه جالينوس ، وكان متفرقا فجمعه الرازي ، وكان ناقصاً فأكمله ابن سينا .

أما الصيدلة فإنهم أول من ألف في الأقرباذين على النمط المعروف الآن ، وأول من أقام حوانيت الصيدلة على وضعها الحاضر .

وقد كان للعرب أثر عظيم في علم تقويم البلدان ، فقد طافوا البلاد ، ورسموا الأقطار ، ووصفوا أحوالها ، وطبائع أهلها وهيئاتهم وملهم وصوروا الكرة الأرضية ، وعليها الأقاليم السبعة مبيّناً عليها عمارها وغامرها وخلقاتها وبحارها . فدل ذلك الشريف الإدريسي سنة ٥٤٨ هـ . وقد كان الطواف يدلن كثير من العلماء اختبروا البلاد بأنفسهم ولم يتكلموا في حقائقهم التي سجلوها إلا على ما رأوا رأى العين واختبروه اختبار الحقيق . ومنهم عبد اللطيف البغدادى المتوفى سنة ٦٢٩ هـ الذي قدم مصر ووصف الأهرام . والسائح الهروى المتوفى سنة ٦١١ هـ الذي يقال إنه لم يترك برا ولا بحرا ولا سهلا ولا جبلا يزار إلا قصده ، ولم يصل إلى موضع إلا كتب خطه في حائطه ، وقد ذكر ابن خلكان أنه شاهد ذلك في البلاد التي رآها حتى صار مضرب الأمثال .

قال الشاعر :

أَوْزَاقُ كُدَيْتِهِ فِي بَيْتِ كُلِّ قَتَى عَلَى اتِّفَاقِ مَعَانٍ وَاخْتِلَافِ رَوَى
قَدْ طَبَّقَ الْأَرْضَ مِنْ سَهْلٍ وَمِنْ جَبَلٍ كَأَنَّهُ خَطَّ ذَاكَ السَّائِحُ الْهَرَوَى



وإذا عددنا فلاسفة الإسلام ، وذكرنا لكل آثاره خرجنا إلى الاطالة التي لا يسمح بها كتاب ككتابنا ، ويمكن أن نشير إلى أنه نبغ من المسلمين في عصور متفاوتة أمثال أبي يعقوب يوسف الكندي العربي الصميم الذي يتصل أباءه بملوك كندة ، وقد عاصر المأمون والمعتصم ، والوائق والمتوكل ، وبرع في علوم الطب والحساب والمنطق ، والألحان ، والهندسة ، والنجوم ، وألف أكثر من مائتي كتاب ولم يبق منها إلا كتاب في إلهيات أرسطو ، ورسالة في الموسيقى وهما بمكتبة برلين ، ورسالة في معرفة قوى الأدوية المركبة ، وهي في مكتبة منش ، وكتاب في علة اللون للأزهر الذي يرى في الجو ، وكتاب في المد والجزر ، وهما في أكسفورد وغير ذلك .

ومن فلاسفة الإسلام أبو نصر الفارابي المتوفى سنة ٣٣٩ هـ ، وهو محمد بن طرخان ، وأصله من فاراب ببلاد الترك ولكنه نشأ بالشام ، وقد فاق الكندي في كثير من علومه وألف فيما لم يسبق إليه ككتاب (السياسة المدنية) وهو من قبيل الاقتصاد السياسي الذي يظن أنه من آثار التمدن الحديث ، وله كتاب (إحصاء العلوم) ، وهو من قبيل الموسوعات لاشتماله على عدة علوم ، وله كتاب (آراء أهل المدينة الفاضلة) وله غير ذلك .

ومنهم أبو بكر الرازي المتوفى سنة ٣٢٠ هـ ، وقد مر بك كثير من استنباطاته في علم الكيمياء ، وقد خلف أكثر من مائتي كتاب كما فعل الكندي ، ومن هذه الكتب كتاب (الحاوي) في الطب ، وهو أجل كتبه وأعظمها ، وكتاب (الحصبة والجدرى) وكتاب (برء الساعة) « الاسعاف » .

ومنهم الرئيس ابن سينا المتوفى سنة ٤٢٨ هـ ، وهو من المفكرين بسعة العلم وقوة العقل تزيد مؤلفاته على مائة . ومن كتبه الباقية في الطب (القانون) وهو في أربعة عشر

جزءاً وهو مطبوع بمصر (والشفاء) وهو ثمانية عشر جزءاً مطبوع على الحجر ببلاد فارس ، وبدار الكتب الملكية بمصر نسخة منه . وقد ألف في غير الطب في الفقه والتوحيد واللغة والمنطق ، وله قصيدته المشهورة في النفس وأولها :

هبطت إليك من الحل الأرفع ورفاء ذات تدلل وتمنع .

ومن العلوم التي لم يسبق إليها العرب ولم يصل إلى مثلها أهل التمدن الحديث إلا بد نضج تمدنهم في القرن الماضي علم (تدبير المنزل) وقد حدوه بأنه معرفة اعتدال لأحوال المشتركة بين الرجل وزوجته ، وأولاده وخدمه ، وطريق علاج الأمور الخارجة من الاعتدال ، وعلم السياسة ، وقد كانت عندهم شرعية ومدنية ، وألف فيها على جماله أبو زيد البلخي كتابين ، وألف في السياسة المدنية أبو نصر الفارابي - ومن أهم لكتب فيها (سلوك المالك في تدبير الممالك) ألفه ابن الربيع المستعصم آخر خلفاء العباسيين - وكذلك ألفوا في الاقتصاد وتدبير المال ، ومن ذلك كتاب (الإشارة إلى محاسن التجارة) للشيخ أبي الفضل جعفر بن علي الدمشقي ، ولا يعرف تاريخ وفاته ولكن يرجح أنه عاش في العصر العباسي - وفي الكتاب فصول في تعريف المال وأنواعه وطرق تمييزه والكشف عن رديئه وفاسده ومعرفة الأحجار لكريمة والأفاريه والأنسجة والأبسطة - ومن ذلك أيضاً كتاب (الجواهر وأصنافها) لمحمد بن شاذان الجوهري ألفه للمعتضد المتوفى سنة ٣٧٩ هـ وهذه الكتب غير معشور عليها إلا لكتاب الإشارة فإنه مطبوع بمصر .

ونرى في هذا القدر كفاية وإن كلف فضل العرب في هذا الباب يعز

عن الاستيعاب .

اثر الترجمة في اللغة العربية

لقد كانت ترجمة العلوم سبباً في اتساع اللغة من ناحيتين ضربنا لك أمثلة لواحدة منهما في أبواب سابقة وتلك هي الألفاظ التي عربت من اللغات الفارسية واليونانية والهندية وغيرها .

أما الناحية الثانية فهي ناحية وضع اللفظ العربي للمدلول الذي أرادوا نقل معناه - وقد وجد العرب من لفهم ليتأوا تساعاً ومطاوعة في هذه كما وجدوا ذلك في الناحية السابقة فيحسن بنا في محاولتنا جعل العربية اليوم لغة العلم كما هي لغة الدين والأدب أن نعول على الناحيتين فنستفيد من محاسنها ونبرهن على أننا نتقيل أسلافنا فيما انتحوه في خدمة هذه اللغة الشريفة .

ومن المصطلحات التي وضعها العرب قولهم في فنون الطب مثلاً : الكحلة « طب العيون » . الصيدلة . التشريح . الجراحة . التوليد ، وقولهم في اصطلاحات عامة فيه : الرطوبة . المزاج . الحار . البارد . الجاف . اليابس . السوداء . الصفراء . البلغم . التخبة . الإنذار . النبض . الهضم . البهران . الإمساك . وقولهم في وصف الأدوية : مرطب . ملطف . محلل . منضج . مخشن . هاضم . أكال . لتناع . مبرد . مقو . مخدر قابض . مسهل . مدرّ . معرق .

وقولهم في مصطلحات الفلك والرياضة : الزيج . الفلك . الرصد . التعديل . المماس . المخروط . المثلث . المربع . شبه المنحرف . الدائرة . القوس . الوتر . الزاوية . (قائمة . حادة . منفرجة) .

ومن الاصطلاحات الفلسفية : العرض . الجوهر . الموضوع . المحمول . المتقضى . المانع . التصور . التصديق . الشكل . القياس . الماهية . الهوية . الكمية . الكيفية . اللانتهائية . اللاضرورة . الدور . التسلسل .

وقد زادت المصطلحات العلمية حتى اضطروا إلى وضع معاجم لها ، ومن أشهر تلك المعاجم كتاب (التعريفات) للبرجاني المتوفى سنة ٨١٦ هـ ، و (كشف اصطلاحات الفنون) للتهانوي المتوفى سنة ١١٥٨ هـ ، و (كلييات أبي البقاء) وغير ذلك . هذا إلى ما نال الأسلوب من تغير ، فقد كثرت فيه استخدام فعل الكون والبناء للمجهول والفعل بالضمير الغائب وصوغ المصادر الصناعية ، وهي التي تكون بزيادة ياء النسب على اسم الذات فيصيرها مصدرا مثل : المائية . الكيفية . الكمية . ولقد كان لتطبيق قواعد المنطق واستعمال أقيسته أثر في تضييق الأساليب ، فقد أصبح للتكلم مقيدا بالإتيان بالمقدمات ، ووصلها بالنتائج بصورة تكاد تتحد في كل تدليل ، فضاقت بذلك الأساليب بعد أن كان التكلم يتلاعب باللفظ ، ويقلب الكلام على وجوهه ماشاء .

وبكثرة المصطلحات ودقة دلالاتها أصبحت لغة العلوم لا يفهمها إلا أصحابها ، وأصبحت معرفة المعاني اللغوية لاقيمة لها في فهم أساليب العلوم حتى لقد ألغوا معاجم المصطلحات العلمية إلى جانب المعاجم اللغوية .

حياة ابن المقفع

نسبه : اسمه روزبه بن داؤدويه ، ويكنى أبا عمرو ، ثم تسمى بعبدا لله ، وكنى

بأبي محمد بعد أن أسلم كما سيأتي

وهو فارسي من أهل غورستان المعروفة باسم الأهواز ، وهي قرية من البصرة .

نشأته

ولد ابن المقفع بالبصرة سنة ١٠٦ هـ ، ونشأ بها في ولاء بنى الأهم ، وكان أبوه قد ولى للحجاج خراج بلاد فارس ، فاحتجج شيناً من آل السلطان فضر به الحجاج حتى تقفمت يده (تشنجت) فلقب من ذلك الحين بالمقفع ، وكل الموالي في عهد الأمويين كانوا مضطهدين ليس لهم في الدولة جاه لأن الأمويين بنوا سياستهم على الغش من شأنهم والزراية بهم ، فكان هؤلاء يتقربون إليهم بالفضل ، ويلتمسون لديهم المنزلة بالأدب ، وحذق العربية . لذلك حرص المقفع على تنشئة ابنه أحسن تنشئة ليخرج صالحاً لخدمة هؤلاء الخلفاء أو أهل بيتهم أو وولاتهم ، ولا يتذرع متذرع إلى ذلك إلا بالعربية يدرسها ، فيروى الشعر ، ويحفظ الخطب ، ويقرأ القرآن ، ويضم إلى ذلك معرفة الحساب وغيره مما يحتاج إليه الكاتب في هذه الأيام . وتستطيع أن تعرف منهج هذه الدراسة من مراجعة وصية عبد الحميد بن يحيى للكتاب ، فنها تعلم حاجة الناشئ الذي يلتمس الرزق من عمله في الكتابة .

وقد كانت نشأة ابن المقفع في البصرة ولاؤه لبنى الأهم سبباً لهما أثرهما في بلاغته وما صار إليه من تصدر في حلبة البيان .

فالبصرة هي ذلك البلد الذي أنشأه عمر بن الخطاب سنة ١٤ هـ بين ريف العراق وصحراء العرب ، فهوت إليه أفئدة كثير من القبائل العربية وخصها الله بقوم كانوا في الفصاحة مجلدين . فكانت البصرة منذ قديم ميثابة الرواة وجمع الأدباء ومنبت الشعراء ، وبها أقيم المربد فكان خلقاً لمكاظ . وعرف من علماء البصرة ، وشعرائها ، ومحدثيها ورواتها كثير من هم قادة أهل العربية وجلة رجالها . فكان من علمائها النحويين أبو الأسود ، وابن أبي إسحق الحضرمي أول من علل النحو ، وعيسى بن عمر التقي أول من ألف فيه ، وسيبويه أول من جمعه في كتاب ، وكان من رواتها الأصمعي وأبو عبيدة وخلف ، ومن متكلميها واصل ، وإبراهيم بن سيار النظام ، والحسن البصري وابن سيرين . ومن شعرائها بشار ، وصالح بن عبد القدوس ، وسلم الحاسر ، وأبو نواس .

ولا بد أن ابن المقفع تلمذ لجلة العلماء من البصرة وإن كان المؤرخون لم ينصوا على أحد من معلميه إلا على أبي الجاموس ثور بن يزيد الأعرابي كان يفد إلى البصرة وعنه أخذ ابن المقفع الفصاحة . هكذا روى ابن النديم . ولكن فضل ابن المقفع يجعلنا نقول إنه لم يترك علماً إلا عرفه ولا شاردة أو واردة في اللغة إلا وقف عليها فإن فضله يستلزم ذلك . ويكفي أن نقول إنه وزن بالخليل بن أحمد فقال محمد بن سلام سمعت مشايخنا يقولون : لم يكن للعرب بعد الصحابة أذكى من الخليل بن أحمد ولا أجمع ، ولم يكن في العجم أذكى من ابن المقفع ولا أجمع .

تقلبه في عمله

ولما عرف فضل ابن المقفع وظهرت له في الكتابة مخايل حرص الناس على الانتفاع بمواهبه فاتخذوه داود بن يزيد بن هبيرة كاتباً له . وكان داود مع أبيه يزيد الذي كان وإلى العراق من قبل مروان بن محمد ، فلما قتل مروان امتنع يزيد على بني العباس حتى آمنه المنصور ثم قتله . وبذلك انتهى عمل ابن المقفع في الدولة الأموية ولكننا لا نجد له بين آثاره شيئاً لما كان قد كتبه عن داود .

فلما أظلمت الدولة العباسية أبي فضله إلا أن يمتاز به هؤلاء كما اعتر به أصحاب الدولة السابقة ، فقد اتصل بأعمام المنصور فكتب لعيسى بن علي أيام ولايته على كerman وقد أسلم على يده . وتأدب عليه بعض أبناء إسماعيل بن علي . ثم كتب لسليمان بن علي في ولايته على البصرة وأعمالها ، وقد دامت له هذه الولاية من سنة ١٣٣ إلى سنة ١٣٩ هـ حتى عزله المنصور وولى محله سفيان بن معاوية الذي كان على يده قتل ابن المقفع .

وفي أيام اتصاله بأعمام المنصور وصلت شهرته إلى الخليفة فانتفع به فيما أراد من نقل علوم الفرس إلى العربية ، فقد وجد فيه فارسياً أضاف إلى معرفته لفته حنق

العربية مع ذكاء متوقد وهمة عالية فترجم له شيئاً ووضع شيئاً ، ولكن ذلك لم يمنع المنصور أن يوعز بقتله أو يسكت عنه لأسباب سنذكرها على حدة .

ديانة ابن المقفع

كان ابن المقفع كما كان أبوه زُرَادُشْتِيَا ، وتلك ديانة تنسب إلى بنى الفرس زرادشت الذى كان له كتاب يسمى الإيستاق ، وقد عامل العرب أهل هذه الديانة معاملة أهل الكتاب . والمشهور من تعاليم زرادشت أنه يقول بأصلين وهما أهورا وهو أصل الخير ، وأهرمن وهو أصل الشر . ولكل من هذين قدرة وتصرف ، فأهورا خلق كل نافع من حيوان ومادة ، وأهرمن خلق كل ضار من حيوان مفترس وحشرة مؤذية . والحرب سجال بين هذين الإلهين ، وأن المؤمنين من ينصر إله الخير فيعمل على تعمير الدنيا ومقاومة إله الشر .

وهذه الديانة كانت معتقد الفرس عامة إلى الفتح الإسلامى ، فدخل فى الإسلام من دخل وبقى على دينه من بقى . وتلك الديانة هى التى حرقها «مانى» فرأى أن تغلب الخير على الشر فى العالم غير مستطاع ، فلذلك حرم الزواج وأوجب الصوم ، حتى يعجل القناء إلى العالم ، وقد ذكروا أن هُرْمُزُ ملك الفرس اعتنق هذا المذهب فراج حيناً فلما خلقه بهرام وقتل ماني وشرد أصحابه بقيت تعاليمه .

وقد تفرع من ديانة زرادشت مذهب آخر وهو مذهب «مَزْدَك» وكان أيضاً يقول بالنور والظلمة (إله الخير وإله الشر) ولكنه يرى أن تعالج الحياة ويقضى على البغضاء ، ويرى أن وسيلة ذلك إباحة الأموال والنساء لأنهما سبب التباعد .

فهذه هى الديانة الزرادشتية فى أصلها وما تفرع منها ، وقد كان لهذه الفروع أتباع ولكنهم قليلون ، أما الأصل فقد كان عليه غالب القوم كما ذكرنا . وقد حكى

الإصطخرى أن بعض قرى كرمان كانت على مذهب مرزك طول عهد الدولة الأموية .
وبعد فهل كان ابن المقفع يتبع أصل الدين وتعاليمه المرتضاة لجمهور الفرس أم ينجح
إلى شيء مما جد فيها من فساد وسوء تفسير . ولكن يظهر من حسن سمت ابن المقفع
ووافر أدبه أنه إنما كان يتبع أصل الديانة ولم يكن يتطرف بما جد فيها من مذاهب
تنافى النظام وتضاد أصول الاجتماع فإن ذلك لا يقر عليه من يدين به خصوصاً في
حواضر البلاد كالبصرة وبغداد مثلاً .

أسلم ابن المقفع ولم يذكر في إسلامه أن أحداً حمله عليه أو رغبه فيه وذلك
شأن المسلمين في هذا العهد فإن اعتزازهم بأنفسهم واستغناءهم بكثرتهم لم يجعلهم يرون في
الإسلام قلة تحتاج إلى التكاثر . وقد خدمهم جمهور من أصحاب الديانات الأخرى ،
ونالوا جوائزهم ، واستحوذوا على رضاهم ، فلم نر أحداً من الخلفاء رغب إليهم في
الإسلام . وبقى هؤلاء على دينهم حتى ماتوا عليه فلم يكن ذلك بمأثل دون وصولهم
إلى ما أرادوا من الدولة . فهذه الشواهد تؤيد أن ابن المقفع لم يسلم بإعاز ولا إطاح ولم
يدفعه إلى الإسلام طمع في مادة أو قرى من أصحاب الدولة فقد كانت له هذه المزايا
وهو على الجوسية .

فإن المقفع كان أحد هؤلاء الذين دلهم عقلهم وهداهم بحسبهم إلى أن الدين
الإسلامي هو أقوم سبيل إلى معرفة الله والاستحواذ على رضاه وأنه الوسيلة للنجاة في
الدنيا والآخرة .

لذلك نرى المؤرخين مجمعين على أن ابن المقفع قد رغب من ذات نفسه في
الإسلام حين كان كاتباً لميسى بن عيسى فاستمهله عيسى إلى الهند ليكون إسلامه بمشهد
من المسلمين وليحتفل به في جمع من القواد والرؤساء .

فلو أن إسلام ابن المقفع بتدبير وحمل ما رأينا عيسى بن عيسى على يمد ذلك مفاجأة
ويطلب منه التهنيل إلى الهند . ولما أسلم سمي عبد الله وكنى أبا محمد .

أما ماشاع عن زندقته وما انبنى عليها من قتله بيد سفيان بن معاوية فيصح أن يكون ذلك قد اتخذ ذريعة إلى قتله .

أستدل الناس على زندقته بأنه حين بات على نية الإسلام زمزم على الطعام فقال له عيسى ألسنت على نية الإسلام ؟ فقال أكره أن أبيت على غير دين . وأقول ربما حمله على ذلك المادة فلما أنكر عليه عيسى احتج بهذه الحجة وهو رجل تأتي له كرامته الأدبية وحصافته العقلية أن يبدع قبول فـما يحير له جوابا .
كذلك عدوا عليه أنه مر بيت نار الجحوس فتمثل .

يَا بَيْتَ عَائِكَ الذِي أَتَمَرَّلُ حَذَرَ الْعَدَا وَبِهِ الْفَوَادُ مُوَكَّلُ
إِنِّي لَأَمْنُحُكَ الصَّدُودَ وَإِنِّي قَسَمًا إِلَيْكَ مَعَ الصَّدُودِ لَأُمْتَلُ

ونرى أن التمثل بالأبيات لا يكون حجة على ندمه لترك دينه فيكفي في التمثل عموم المعنى وأنه فارق ديننا إلى دين وهجره كما هجر الشاعر بيت محبوبته . فأما تطبيق جميع أجزاء المعنى فليس ذلك شرطاً لهم في التمثيل .

على أن اعتبار الفكاهة في ذلك أقرب من اعتبار الأسف على ما فاتته من دينه وهو لم يضطر كما ذكرنا إلى الإسلام . وانظر كيف تلمسوا له المزالق في قوله في رثاء يحيى بن زياد .

زُرْنَا أَبَا عَمْرٍو وَلَا حَيَّ مِثْلُهُ فِإِنَّ رَبَّ الْحَادِثَاتِ يَمُنْ وَقَعُ
فَإِنْ تَكُ قَدْ فَارَقْتَنَا وَتَرَكْتَنَا ذَوِي خَلَّةٍ مَا فِي أَسْدَادِهَا طَمَعُ
لَقَدْ جَرَّ نَفْعًا فَقَدْ دَنَا لَكَ أُنْنَا أَمِنَّا عَلَى كُلِّ الرَّزَايَا مِنَ الْجَزَعِ

فعرزوا ذلك إلى مذهب الزنادقة في أن الخير مخلوط بالشر أخذوا ذلك من قوله (لقد جر نفعاً فقد دنا لك) وهذا بعيد جدا .

ولقد بلغ من حسد الناس له على فضله ورغبتهم في الخط من شأنه أن ألف

بعضهم الكتب في الإلحاد ونسبها إلى ابن المقفع ولكنها تدل بسنخ عباراتها وضعة معانيها أن ابن المقفع برىء منها .

وصها أكثر من الناس اتهامهم له بالزندقة فإن هذه السكتة لا تدل على حقيقة التهمة لما نعلمه من أن كثيرا من الناس يتبعون أول ناعق فهم في ذلك إمعات لا يستقلون بحكم .

والقول في إسلام أمرى أو فقاخه يخفى على المعاشرين المخالطين فكيف إذا طال العهد ؟ على أن كثيرا من متهمى ابن المقفع بالزندقة يحاسبونه على أمور أتاها قبل الإسلام وهو فيها غير ملوم إذ كان إنما ينصر دينه . فإذا كان قد ترجم كتباً أو وضع حديثاً عن رسول الله فكل ذلك قد جبه الإسلام فليس عدلا محاسبته عليه .

أسباب قتله

كان سليمان بن علي والياً على البصرة من قبل المنصور وقد خرج أخوه عبد الله ابن علي على الخليفة فجاه سليمان ولم يسلمه إلى أبي جعفر إلا بعد أن أمضى أماناً كتب صيفته عبد الله بن المقفع ، واشترط فيه شروطاً وأفرط في الاحتياط لمولاه حتى لا يستطيع المنصور الغدر به ، فكان من الأمان قوله : (ومتى غدر أمير المؤمنين بعمه عبد الله فساؤله طوالق ودوابه حبس وعبيده أحرار والمسامون في حل من بيعته) . ولما تمكن أبو جعفر من عبد الله سجنه وعزل أخاه عن البصرة وولى عليها سفيان بن معاوية وما فعل ذلك إلا ليعيظ سليمان بما فعل من حمايته لأخيه .

وقد ظهر من ابن المقفع اعتداء على سفيان وإهانة له ولا ندرى هل كان من هوان الرجل في نفسه أو لأن ابن المقفع يرى من وفائه لأصحاب نعمته أن يحقر هذا الذي عورضوا به وخوّل ما كان لهم من جاه وعز .

ذكروا أن ابن المقفع كان يتنادر على سفیان ويسخر به فكان إذا دخل عليه
(وكان سفیان كبير الأنف) قال السلام عليكما . وقال له يوما ما تقول في رجل خلف
زوجا وزوجة ؟ وقال سفیان يوما ما ندمت على سكوت ، فقال له ابن المقفع الخرس زين
لك فكيف تندم عليه ؟ فكان سفیان يقول والله لأقطعنه إربا إربا وقد فعل .
وقد حكموا في قتله حكايات تختلف في صورتها ولكنها تتحد في شنائها . ذكروا
أنه ألقاه في بئر وردم عليه بالحجارة ، وأنه أدخله حماما وأغلقه عليه حتى اختنق ، وأنه
ألقاه عضوا عضوا في تور حتى أتى عليه ، وكان يقول ما على في هذه الملة شيء فهو
زنديق قد أفسد الناس . وقد كان قتله سنة ١٤٢ هـ فيكون قد مات وعمره ست
وثلاثون سنة .



حقا لقد كثرت الزندقة في هذه الأيام وراع الخلفاء أمرها ، ولكننا رأينا أنها قد
اتخذت وسيلة لشفاء العداوات ، فكثيرا ما رأينا العداوة تنشأ بين وزير وشاعر فيقيمها
قتل ذلك الشاعر بدعوى الإلحاد كما حصل لبشار حين هجا يعقوب بن داود وزير
المهدي . فليس يبعد أن تكون ضغينة سفیان على ابن المقفع هي التي جعلته يصوغ
له هذه التهمة فيقتله بها . وما أكثر ما تروج هذه التهم في زمن تتجه فيه الأذهان
إلى محاربة الزندقة ويعتقد الولاة والخلفاء أنهم يتقربون إلى الله بدماء هؤلاء الزنادقة .
وليس يبعد أن يكون تغير قلب المنصور على ابن المقفع لتشدده في الأمان لعمه هو
الذي جراً سفیان على قتله . وقد ظهر أثر ذلك حين غضب سليمان وعيسى لقتله ، وقدم
الشهود على المنصور للشهادة على سفیان فقال لهم أرايتم إن قتل سفیان به ثم خرج ابن المقفع
من هذا البيت وأشار إلى باب خلفه وخاطبكم ما ترون أني صانع بكم أأقتلكم بسفیان ؟ فرجع

الشهود عن الشهادة ، ولا شك أن هذا تهاون من النصور في دم الرجل وما دعاه إليه إلا نصرة واليه على أعمامه وما سبق من حقد على ابن المقفع بسبب الأمان .

أخلاق ابن المقفع

لقد ذكروا عن ابن المقفع من حسن السمّت ، وتعام الخلق ، ودوام الوفاء ما جعله في هذا الباب أصلاً وعدة ، وإذا كان شعر الشاعر أو كتابة الكاتب صورة لنفسه ودليلاً على خلاله ، فإننا نجد في كتابة ابن المقفع تمجيداً للفضيلة وإشادة بذكرها وإعظاماً لشأن الصداقة وتعوّيلاً عليها وحثاً على الوفاء ودعوة إلى القناعة وترغيباً في بسط المعروف وكف الإساءة ، يمثل ذلك أدباه الصغير والكبير ، وكذلك تتمثل هذه النزعة فيما اختار من الكتب التي ترجمها واختيار المرء قطعة من عقله . فكتاب كليلته ودمنة كله أدب وحكمة كما تعرف فلا شك أن بين خلق ابن المقفع وآثار قلعه نسباً كبيراً . وما ندرى هل كانت هذه الأخلاق طباعاً فيه جعلته يلهم بذكرها ويحرص على نقلها للناس أم أن نشأته وتلمه جعله بهذه المثابة من تمجيد الفضيلة والترغيب فيها لكثرة ما تأدّب بذلك في مطالعته ودراساته .

ولسكن الذي نقول إن دين ابن المقفع القديم ، وبناءه على نصرة الخير ، ومقالة رؤسائه في ذلك بل حصرهم الدين كله فيه ، وكذلك قراءته لأدب لغته ، وكلها مبنية على تمجيد الفضيلة والانتهاز بالحوادث وضرب المثل ، واستنباط العبرة ، ثم ما أفاده أخيراً بالإسلام من هذا ، وهو فيه أعقل وأقوم قليلاً ، كل ذلك مضافاً إلى طبع هادئ وتقس طيبة جعلنا نرى من ابن المقفع رجلاً يؤثر على نفسه ، ولو كانت به خصاصة ، ويفدى صديقه بروحه لا يراى ولا يداهن .

فأما ما روى عنه مما يؤيد هذه الشائيل فيه فهو كثير ، وأدله على تمكن الوفاء من نفسه ما ذكروا من أنه كان صديقاً لعبد الحميد بن يحيى الكاتب ، فلما لجأ إليه عبد الحميد بالبحرين بعد قتل مروان ، وفاجأ الطلب عبد الحميد وهو معه في بيت . قال الجند : أيكما عبد الحميد ؟ فقال : كل « أنا » ، وتلك الكلمة من عبد الحميد حق ، ولكنها من ابن المقفع وفاء لاحق له . وخاف عبد الحميد أن يسرعوا بأذى إلى صاحبه ، فقال : ترفعوا فإن في علامات أعرف بها ، فوكلوا بنا بعضكم ويمضى بعض ليعود بهذه العلامات .

كذلك ذكروا أن سعيد بن سلم قصد الكوفة ، فلقه ابن المقفع ورحب به وعلم منه أن به فاقة وأن ديناً ركه ، فسأله : هل قصدت أحداً ؟ فقال له : أتيت ابن شُبْرمة فوعدني أن أكون مريباً لبعض أولاد الخاصة ، فقال ابن المقفع : أف ! ! ! يجعلك مؤدبا في آخر عمرك . أين منزلك ؟ فعرفه إياه . فلما كان الغد قصده ابن المقفع فوضع بين يديه منديلا ، فإذا فيه أسورة مكسورة ودرهم متفرقة ، ومقدار ذلك أربعة آلاف درهم ، فأخذ سعيد هذه الهبة وعاد إلى البصرة واستغنى بها .

وقال ابن قتيبة في عيون الأخبار : بلغ ابن المقفع أن جاراً له يبيع داراً له بدين ركه ، وكان يجلس في ظل داره ، فقال : ماقت بحمة ظل هذه الدار إن باعها معدماً وبت واجداً ، فحمل إليه الثمن وقال : لا تبع . وحدثوا عنه أيضاً : أنه كان يطعم الطعام ويوسع على كل محتاج ، وأنه كان يجرى على بعض وجوه البصرة والكوفة ما بين خمسمائة درهم إلى ألفين في كل شهر .

وكذلك كان فيه إلى جانب هذه الأمهات من الفضائل كالات أخرى من الوفاء وحسن السم وروقة الشائيل .

علم ابن المقفع وبلاغته

بلغ ابن المقفع منزلة عالية من تقرب الملوك واعتمادهم عليه واستشارتهم له وتديعهم الملك برأيه كما فعل الأمراء والولاة الذين استكتبوه ، فقد كانوا إنما يصدر عن رأيه ، وكان بمثابة الوزير لهم في عملهم . تدرك ذلك من إشارته في الرأي عند تسليم عبد الله ابن عليّ إلى المنصور والتزول على حكمه من التشدد مع الخليفة وتوكيد الأيمان عليه . وقد فعل المنصور في الاعتماد عليه والاستئناس إلى مشورته أكثر من ذلك ، فقد خول إليه وضع دستور يسير عليه في حكم الرعية ، وذلك في رسالة الصحابة التي عملها له ، وسنعرفك بها في الكلام من كتبه .

ولا يرتقى رجل إلى هذه المنزلة حتى يكون من حصافة الرأي وجودة الفكر بمثابة كبيرة . ولن يصل إلى هذا الرأي الحصيف والفكر الجيد حتى يكون قد تنقف بالعلوم وتعملى بالآداب ، فأثمرت فيه هذا الثمر الذي حرص عليه الخلفاء وولاة الأمور .

وإن حادثاً واحداً نذكره لك يكفيننا مثونة التدليل على فضله والإشادة بذكره ، وذلك أنهم قالوا : لم يكن في العرب بعد الصحابة أذكى من الخليل بن أحمد ولا أجمع . ولا في العجم أذكى من ابن المقفع ولا أجمع . وقد جمع بينهما عباد بن عباد المهلبى ، فكتبنا ثلاثة أيام ولياليها يتحادثان ، فلما افتقرا سئل الخليل عن ابن المقفع ، فقال : ما شئت من علم وأدب إلا أن علمه أكثر من عقله . وسئل ابن المقفع عن الخليل ، فقال : ما شئت من علم وأدب إلا أن عقله أكثر من علمه .

فهذه القصة كافية في الدلالة على فضله فإنه لم يجمع بينهما إلا وهما في الفضل متعادلان ، وبالرياسة في العلم موسومان ، وال خليل بن أحمد هو ما هو ! جبار من جبارة العقول ، وقد من أفضا الدنيا ، اخترع العروض ووضع طريقة المباحم . وهذب

الشكل في الخط العربي ، فإذا قرن ابن المقفع به ، فقد قرن إلى إمام جليل ونادرة من فئات الأيام . ثم تكون شهادة التحليل ، وهو بهذه المثابة من الفضل « إن ابن المقفع علمه أكثر من عقله » أعظم دليل على مكانة الرجل .

فلا بد أن يكون قد حاز علوم العصر ، وحوى الفضل الذى وزع في الناس . وإن في كتبه لدليلاً أوضح على فضله ، فقد تكون هذه القصة مكذوبة أو مبالغاً فيها . فأما الأثر الباقي الذى تواترت الأخبار بنسبته إلى الرجل ، فهذا ما لا شك في دلالاته ولا أثر للمبالغة في شأنه .

تدل مؤلفات ابن المقفع وترجماته على أنه كان يعرف المنطق ، وقد ترجم فيه « إيساغوجي » لأبي جعفر المنصور ، فكان أول من اعتنى في الملة الإسلامية بترجمة الكتب المنطقية كما يقول القفطى صاحب كتاب أخبار الحكماء ، ومثل المنطق لا يستطيع الترجمة فيه إلا كل من فهمه وحذق مسأله . كذلك كان أول من اخترع في العربية طريقة التدوين في التاريخ بترجمته كتاب « خديانامه » في سيرملوك العجم .

وأول ما عرفت العربية السمر الملهى والقصص المشتمل على الحكمة كان على يد ابن المقفع بترجمته كتاب : « كليله ودمنة » ، كذلك لم يكونوا قبله كتبوا في الأخلاق ، فدلهم على ذلك بأدبيه الصغير والكبير وإن كان ما فيها ليس بحثاً في الخلق وبيان حدوده ، وطريق تربية النشء عليه ، ولكن عمله كان نواة انضمت إلى غيرها مما أنتجته الترجمة للعلوم ، فألف الناس في الأخلاق بالبحث الفلسفى المعروف كما فعل ابن مسكويه .

ويكفى أن يكون ابن المقفع قائد الناس إلى المناخر وداهم على هذه الحماد التى كان لها في اللغة وأهلها أكبر رفع .

أما بلاغة ابن المقفع فإننا نستطيع أن نلئس أسبابها ونتائجها لمسأ لا يدع شكاً في أن نصيبه منها كان عظيماً وحظه كان وافراً . فأسباب بلاغته هى نشأته في البصرة أو

في ولاه بنى الأهم ، وتقدّم الزمن به إلى صدر القرن الثاني إذ أنه ولد في سنة ١٠٦ هـ ومات سنة ١٤٢ هـ . فقد عاش في شباب العربية ، وحضر شيوخ الرواية ، وشافه الأعراب ، وصادف عناية الخلفاء من أمويين وعباسيين ، بأمر تلك اللغة ، فلا بدّ أنه نهل من العربية وعلّ حتى تملأ . ومما يدلّ على ذلك قوله : (شربت الخطب ريا ، ولم أضبط لها روياء ، فناصت ثم فاضت ، فلا هي نظاماً ، وليس غيرها كلاماً) وأما نتائجها فهو ما تراه في كتبه الباقية الآن ، وهي كلية ودمنة ، والأديان : (الصغير والكبير) ، ورسالة الصحابة .

إن البلاغة التي تلتئم مع كلّ ذوق وتروج في كلّ جيل هي البلاغة الجديرة بالاعتبار ، ومن هذا النوع بلاغة ابن المقفع فإن كتبه وقد مرّ عليها ألف سنة أو تزيد ، لا تزال جليدة قد شغف الناس حبها على مدى الأيام ، فكان كتاب : كلية ودمنة موضوع احتفاء العصور التي تلت وضعه إلى يومنا هذا ، ولا نجد هذه الميزة لكتاب حاشا القرآن الكريم وحديث رسول الله . ولا شك أن سرّاً عظيماً تشتمل عليه بلاغة الرجل هو الذي جعلها جديدة على الأيام مستحسنة مع تبدل الأذواق واختلاف الرغبات . والذي نراه أن كتابة ابن المقفع تمثل أعلى طبقات البلاغة العربية . فإن العصر الذي عاش فيه هو الذي حاز هذه الفضيلة بجمعه بين الثقافة الفكرية وسلامة الملكة اللغوية . وإذا اجتمع للكلام معنى ولفظ فقد جمع الحسن من أقطاره ، وإذا كان ابن المقفع شيخ طفته غير مدافع فهو لذلك شيخ كتاب العربية أولاً وآخرها وغابراً وحاضراً .

تناول الماعاني الحكيمة من كل موعظة حسنة ، وكلمة سامية ، وخلق فاضل ، ومثل سائر ، وقصة رائعة ، فكان موضوع كتابته هو لباب العلم ، وخلاصة التجربة ، وثمرة الحياة وهو جدّ ووقار ، وإرشاد وتأديب .

ولقد احتاجت هذه الماعاني الشريفة إلى لفظ يكون مواقفاً وملائماً لها وكفئاً لشرفها .

فكان ابن المقفع أقدر الناس على هذه الملامة بما وهب من ذهن صاف وخاطر حاد ورواية شعن بها ذهنه قفاضت كما يقول .

كان موضوع كتابته دقيقاً فهو حكمة وليس أدق من الحكمة ، ومثل وليس أجوج منه إلى حسن الوضع ، ومعان نفسية تخلق خلقاً على غير مثال سابق ، فهي من أجل هذا تحتاج إلى لفظ يوافقها في دقتها ، وقد وهب ابن المقفع المهل في اختيار لفظه والتأني لما ينشئ من عباراته حتى لقد كان كثير توقف القلم قليل له في ذلك فقال : « إن الكلام يزدهم في صدرى فيقف قلبي لتخيره » ، فهو لاجبسة ولا حيرة ولا قفرا في الأساليب يقف قلعه ولكن تتكاثر عليه سائحات الأساليب فيختار منها الجياد .

تنظر في عبارته فتجد لفظاً قد جاء وفق المعنى لا فاضلاً عنه ولا مفضولاً ، وتجد الطبع قد أرخى له عنانه ، فجرى على سننه ، لا يلوى على سجة يجتليها ، ولا يحرص على فقرة يزواج بها ، ولا ينظر في أعطاف الأسلوب لعله يحسنه بتجنيس أو طباق ، فهو في شغل عن كل هذا بتطبيق أصول البلاغة وذلك لا يكون في رأيه إلا بتجلية المعنى وإيراده ضاحياً لا يحول بينه وبين الفهم حائل .

لم يفعل ابن المقفع ذلك إلا وهو يدين بأن البلاغة الإبانة والإفصاح ، فقد سئل عنها فقال : (البلاغة هي التي إذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها) ، ولا يدخل في وهم الجاهل هذا الظن إلا إذا رأى كلاماً سهلاً ومعنى جلياً فظن أنه قادر عليه ، وقد كان من لوازم هذا في رأى ابن المقفع أن يترك الألفاظ الوحشية التي كان يتزبد بها بعض أهل زمانه ويظنونها من البلاغة ، فقد قال في وصية لبعض الكتاب : (إياك والتبع لوحش الكلام طمعاً في نيل البلاغة فإن ذلك هو العي الأكبر) ولم تنته به الرغبة في السهولة إلى أن يسف ويتبدل ، فإن ذلك عيب لو صار إليه لم يكن أقل من عيب التكلف والعمل ولكن الذي حفظ لكلامه الفضيلة أن كان سهلاً متجافياً عن التعمير متزفياً عن الإسفاف .

ومن ذلك وصيته لسكاتب (عليك بما سهل من الألفاظ مع التجنب لألفاظ السفلة) .
فابن المقفع قد لاءم بين معنى حكيم ولفظ حكيم ، فاجتمع لكلامه الفضل ، وحوى كل نبيل .

وقد جاءت آثاره شاهدا لاتبليه الأيام ، على أنه كان قوى الملكة تام السليقة ، فلم يوقف له على غلطة ولم تؤخذ عليه نبوة ، والنبو في الطباع مألوف ، والعثرات في الألسنة متوقعة خصوصا من مثل ابن المقفع الفارسي الأصل الذى تزاخم العربية في ذهنه لغة آبائه التى يجيدها ، ويحكم أصولها . وقد شهد له الأصمى بالفضل في هذا الباب فقال :
(ما رأيت فيما كتب ابن المقفع لحنا إلا في موضع واحد وهو قوله : العلم أكبر من أن يحاط به فخذوا البعض) . يريد أن كلمة بعض لا تدخل عليها أداة التعريف .

آثاره

لابن المقفع آثار كثيرة وأغلبها قد فقد ولكن الباقى منها هو :

- (١) الأدب الصغير . (٢) الأدب الكبير . (٣) رسالة الصحابة .
- (٤) اليتيمة في طاعة السلطان . (٥) كلية ودمنة .

فأما الأدبان : فهما من وضعه ، جمع فيهما ما وعاه قلبه من الحكم ، وما استقر في نفسه من كلام الفلاسفة ، وليس ترجمة عن كتب في الفارسية صادف فيها هذه الحكم مجموعة فقلها ، فما أشبه شىء بملاحظاته في الحياة ، وتجاربه من الأيام . والأدب الصغير منشور الحكم ، مبثوث الأقوال ، لاربط بين أجزائه ، فقد تجد كلمة في الصديق إلى جانب أخرى في القناعة إلى ثالثة في محاسبة النفس ، ثم يعود بعد ذلك إلى الكلام عن الصداقة ، أو أدب من آداب النفس سبق له القول فيه ، وكأنه إنما جمع أشتات هذه الحكم من ذهنه ، ولم يحاول أن يجعل لها نظاما .

أما حكم الأدب الكبير فهي أقرب إلى التبويب . إذا أنه جل الشطر الأول منه خاصا بالسلطان وأصحابه وولاته ومن اتصل بهم : ينهى في ذلك عن خصال ، ويدعو إلى أخرى ، ويدل على أخلاق هؤلاء الحكام في الغدر ، وطبيعتهم في الإيقاع . والشطر الثاني من كتاب جعله للصديق والحاجة إليه ، ومتى يثق به المرء ، وما يطلب منه إلى غير ذلك .

وإذا أردنا أن نتبين عن أى ثقافة صدرا هذان الكتابان ، هل هما أثر لثقافة ابن المقفع الفارسية ، أو لثقافته العربية نرى أن من الظلم ادعاء أنهما لواحدة منهما دون الأخرى ، ففيهما : حكم فارسية ، وحكم إسلامية ، أو عربية . فالرجل مدين فيهما للثقافتين متأثر بالتهذيبين .

أما رسالة الصحابة : فقد أوردها صاحب كتاب المنثور والمنظوم ، وهو مخطوط بدار الكتب الملكية المصرية ، وقد نشرت في مجموعة رسائل البلغاء ، وهي كما يفهم من قراءتها بحث في أمور السولة ، وما يجب أن يتبع في سياستها ، وقد كتبها المنصور . تعلم ذلك ، وإن لم يصرح باسمه لأنه ترحم على أبي العباس السفاح ، فهي مكتوبة للمنصور الذي وليه في الحكم ، ومات ابن المقفع في أيامه .

تناول فيها الجند فائضى على الخراسانيين ، وذكر أموراً في استصلاحهم ، ودوام طاعتهم ، وجعل منها التعويل في تقديمهم ، وإعلاء مراتبهم على الكفاية وحدها ، ودعا إلى تعليم الجند ، وجعل أعطياتهم في أوقات محدودة لا تعدوها دفعا لقلقهم ، واستبقاء لودتهم .

ثم تناول أهل العراق فائضى عليهم ، وذكر أنهم عمود الدولة وبهم قام صرحها ، واستقت أمورها ، ثم يستعطف الخليفة على أهل الشام لأنهم من رعيته ، ويعتذر عن كراهتهم للعباسيين ، ويذكر الحيلة في القضاء على هذه الكراهة بأن يصطنع الخليفة خيارهم ، فإنهم لا يباشون أن ينفصلوا عن أصحابهم من أهل الهوى فيتتابع الناس في رضا الخليفة ، وتم له طاعتهم .

ويتناول أمراً كان مفسدة للعدالة وذهاباً بطأئينة الناس وذلك هو أمر القضاة الذى تعددت أحكامه وتناقضت حتى لقد صار القاضى فى جانب من الكوفة مثلاً يقضى فى مسألة بغير ما يقضى به الذى فى جانبها الآخر فى المسألة ذاتها وكلّ يتبع رأياً وينتهى إلى أثر عن النبى أو عمل للصحابة . فأشار على المنصور بأن ترفع إليه الأفضية التى يختلف فيها القضاة مدعومة بأسبابها ينظر فيها الخليفة ويرجح ما يراه ويدون ذلك ويأمر بالعمل به . ومعنى هذا أن يصبح للمسلمين قانون أحكام يتبعه القضاة فى جميع أنحاء المملكة الإسلامية . وهذا هو الذى انتهت إليه المدنية الحديثة ، وقد أشار به ابن المقفع منذ ألف سنة وتزيد .

وتناول الخراج وما فيه من فوضى ، فقد فرضت على الأرضين فروض واحدة مهما بلغ اختلافها فى الجودة والخصب ، وفى ذلك غبن . وقد أشار بأن تمسح الأرض وينظر فى نوعها ومقدار صلاحيتها للزراعة ويفرض على كل نوع منها ما يناسبه ويدون ذلك فى سجلات الدولة فيرتفع بذلك الظلم ويقل من العمال والولادة احتجاجهم للأموال .

كذلك تناول أصحاب السلطان وخاصة رجال « المية » وذكر أن من حول أمير المؤمنين منهم قوم ليسوا من العلية فشرهم على الناس كبير ، وأثرهم فى رأى أمير المؤمنين سئ ، فهم عيونه وآذانه فيجب أن يختارهم اختياراً حسناً ليكونوا أداة إصلاح بين الراعى ورعيته .

تلك هى رسالة الصحابة وهى كما ترى ثقافة فارسية صرفة احتاج إليها العرب فى تنظيم ملكهم فكان على يد ابن المقفع نقلها إليهم . ومن أجدر من الفرس بتعرف هذه الأمور وقد كانوا أهل ملك سابق ودولة عظيمة وسياسة محكمة .

واليتيمة موضوعها طاعة السلطان (أبى جعفر المنصور) وحمل الناس على اتباعه هو وآل بيت العباس جميعاً لمكانهم من رسول الله . وقد طبع الأدب الكبير يوماً ما باسم اليتيمة خطأ حتى عثر فى كتاب المنثور والمنظوم لابن طيفور على اسم هذه الرسالة وجزء منها وليس فيه شيء مما فى الأدب الكبير .

كليله ودمنه

أصله بالهندية ، وضعه بيدبا الفيلسوف منذ نيف وعشرين قرناً للملك من ملوك الهند يسمى دبشليم ، وكان قد طغى واستبد فحاول الفيلسوف نصيحته ولكنه لم يسمع له قولاً وأمر بسجنه ثم عاد فسكر في نصيحته واستعادها منه فوجد فيها خيراً ، فأمره أن يعمل كتاباً يرجع إليه الملوك إذا احتاجوا للعظة . فجمع تلاميذه وأخرج هذا الكتاب على مثال لم يسبق إليه ، فجعل النصيحة على ألسنة البهايم حتى لا يلقى المارك غضاضة في تلقيها والاتصاح بها .

وقد كان الكتاب في اللغة الهندية السنسكريتية اثني عشر باباً وهي :

(١) باب الأسد والثور . (٢) باب الحمامة المطوقة . (٣) باب اليوم والغربان . (٤) باب القرد والغليم . (٥) باب الناسك وابن عرس . (٦) باب الجرد والسنور . (٧) باب الملك والطائر فتنة . (٨) باب الأسد وابن آوى والناسك . (٩) باب البؤة والأسوار والشَّهَر . (١٠) باب إبلاذ وبلاذ وكِرَخت . (١١) باب السائح والصائغ . (١٢) باب ابن الملك وأصحابه .

وأول ترجمة للكتاب كانت إلى اللغة القبطية ، ثم تسمع الناس بشأنه فوصل خبره إلى ملك القرس أنوشروان الذي عنى بنقل العلم وتوفير أسباب الصلاح لمملكته فاختار طبيباً فيلسوفاً اسمه برزويه وزوده بالمال والنصيحة بالتكتم والحيلة في نقل الكتاب إلى الفارسية . فخرج إلى بلاد الهند متطياً وما زال يحتال حتى اتصل بخازن كتب الملك فمكنه من نقل الكتاب إلى اللغة الفهلوية (الفارسية القديمة) فاد به إلى كسرى فبالغ في إكرامه وفتح له خزائنه ليختار ما يشاء ، فلم يرغب إلا أن يخلد اسمه بالكتاب فصدر بترجمة حياته وما كان من حيلته في نقل الكتاب وكتب تلك الترجمة بزرجمهر وزرأنوشروان ، وسمى هذا الباب باب برزويه .

وقد نقل الكتاب بعد ذلك إلى اللغة السريانية حوالى سنة ٤٧٠ للميلاد، ثم نقل ابن المقفع الكتاب من اللغة القهلوية إلى العربية وصدّره بمقدمة شرح فيها الغرض من الكتاب وما يجب على قارئه أن يستنبطه من حكمته، ويقال إنه زاد في صلب الكتاب باب الفحص عن أمر دمنّة، وباب الناسك والضيف، وباب البطة ومالك الحزين، وباب الحمامة والثعلب ومالك الحزين. فإن في هذه القصول روحاً إسلامية كقوله في باب الفحص عن أمر دمنّة « ولأن تعذب في الدنيا بمجرمك خير من أن تعذب في الآخرة بجهمم مع الإيتم » وكقوله « وقد قالت العلماء « من كتم حجة ميت أخطأ حجته يوم القيامة » وكقوله « وقد علمنا أن شهادة الواحد لا توجب حكماً » وقوله « من كتم شهادة ميت ألجم بلجام من نار يوم القيامة ».

ثم زاد على بن الشاه ويقولون إنه هو أبو القاسم على بن محمد بن الشاه الظاهري^(١) من نسل الشاه بن ميكال وقد توفى سنة ٥٣٠٢ هـ، مقدمة ذكر فيها السبب الذى من أجله وضع بيدبا كتابه وقد جاء في هذا السبب: « أن الاسكندر غزا بلاد الهند واستبد بهم حينما ثم استخلف عليهم رجلا من ثقاته فثاروا به وخطبوه ثم ولوا رجلا من أبناء ملوكهم يقال له دبشليم فلما استوثق له الأمر طغى وبغى واستهان بأمر الرعية فرأى الفيلسوف بيدبا أن واجبه يقضى عليه بنصيحة الملك فنصحها فأعرض واستكبر أولا ثم عاد إلى الرشد وسمع النصيح وتقدم إلى بيدبا أن يعمل له كتابا « يجهد فيه نفسه وليكن مشتملا على الجدل والمزحل واللهر والحكمة والفلسفة » فجمع تلاميذه واستعان بهم على إخراج الكتاب فكان أول عمل من نوعه.

والذى يظهر أن ابن المقفع لم يترجم الكتاب ترجمة حرفية يحرص فيها على الأصل بل إنه كان يمازج بين ما ينقل وبين روح العصر ومزاج المنقول إليهم واعتبار إسلامهم فلم يرد في الكتاب شيء من الوثنية التى يدين بها الهنود ولعل هذا ما دعا

(١) كان الظاهري أدبيا طبيا مفاكها في نهاية الطرف والنظافة (فهرست ابن النديم) .

الناس إلى القول بأن الكتاب موضوع لا مترجم، فقد قال ابن خلكان « إن الكتاب مختلف فيه هل هو ترجمة أو تأليف » على أن عبثاً كثيراً نال الكتاب من الأجيال التي مر بها والنساخ الذين عملوا فيه ، فقد ترى فقرات منقولة في بعض السكتب فإذا عدت إلى النسخة التي بيدك لم تجددها فيها وكذلك النسخ التي بأيدينا من الكتاب الآن تختلف فيما بينها ببارات تزيد وتنقص .

وقد راجع الكتاب وتسامعت به الأمم فنقل إلى أغلب اللغات من الترجمة العربية لأنها هي التي بقيت بعد ذهاب الأصل الفهلوى . وقد ترجم إلى السريانية ثانية عن العربية بين القرن الثامن والثالث عشر الميلادي ، كما ترجم إلى اليونانية والفارسية الحديثة عدة ترجمات . وهو الآن في جميع لغات العالم حتى الهندية نفسها ترجم إليها . وقد بلغت عناية القوم بالكتاب أن نظم مرات فأول من نظمه أبو سهل الفضل ابن نوبخت وقد خدم المنصور والمهدي ، ثم أبان بن عبد الحميد اللاحق ، فعل ذلك بإشارة البرامكة لتعليم أبنائهم . ومن هذا النظم قوله :

هذا كتاب أدبٍ ومحنة وهو الذي يدعى كليله ودمنه
فيه احتمالات وفيه رُشدٌ وهو كتابٌ وضعتُه الهندُ

كذلك نظمه علي بن داود كاتب السيدة زبيدة زوج الرشيد، ونظمه بشر بن المعتد . وقد قدمت كل هذه المنظومات . ثم نظمه ابن الهيثمي المتوفى سنة ٥٠٤ هـ وسماه « نتائج الفطنة : في نظم كليله ودمنه » وهو مطبوع . ونظمه ابن ممتاى المصرى المتوفى سنة ٦٠٦ هـ كما نظم أبوبابا منه عبد المؤمن بن الحسن من أهل القرن السابع ، ونظمه أيضاً جلال الدين النقاش من أهل القرن التاسع وكل ذلك مطبوع .

ونقله مرة ثانية من الأصل الفارسي عبد الله بن هلال الأهوازي ليحيى بن برمك في خلافة المهدي ، وقد ضاعت هذه الترجمة .

وقد عارضه كثيرون ، وأسبق الناس إلى معارضته سهل بن هرون صاحب بيت

الحكمة للمأمون وضع على نسقه كتاب ثلثة وعشرة، وابن الهبارية ناظمه ألف على منواله: كتاب : « الصادح والباغم » ، وهو مطبوع ، وكذلك لابن ظفر المتوفى سنة ٥٩٨ هـ كتاب : « سلوان المطاع في عنوان الطباع » ، وهو مطبوع في تونس ويروت . ولابن عمر شاه المتوفى سنة ٨٥٢ هـ « كتاب فاكهة الخلفاء ، ومناظرة الظرفاء » ، وهو مطبوع بمصر ، ويقال ان أبا العلاء المعري ألف كتاب : « القائف على مثال كليملة ودمنه » ، وهو غير موجود ، وقد شرجه في كتاب سماه : « منار القائف » .

ولا شك أن عمل ابن المقفع وقد سبق هذه الأعمال كان صاحب الفضل في شيوع هذا الأسلوب على ألسنة الشعراء والكتاب ، ذلك الأسلوب الذي يعجب العامة ويلهى الخاصة ، ولا يحول بين الحكم وفاد حكمة إلى كل قلب يريد في أخرج أوقات الظلم وأروع أيام الاستبداد . وقد انتشر هذا النوع من الأدب في كل لغات العالم على أثر شيوع هذه الترجمة العربية . وإن كان له أصل فيها ، فالعرب كانت تعرف في أمثالها وقصصها الجاهلية ذلك النوع الذي يجري على لسان الحيوان والمراد به موعظة الإنسان ، ومن أمثالهم في ذلك : إنما أكلت يوم أكل الثور الأبيض ، وقولهم في بيته : يؤتى الحكم ، إلى غير ذلك .

مختار من كلام ابن المقفع

في الأدب الصغير

على العاقل (ما لم يكن مغلوباً على نفسه) ألا يشغله شغل عن أربع ساعات : ساعة يرفع فيها حاجته إلى ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يفضى فيها إلى إخوانه وثقاته الذين يصدقونه عن عيوبه وينصحونه في أمره ، وساعة يخلى

فيها بين نفسه وبين لنتها مما يحل ويجعل فإن هذه الساعة عون على الساعات الأخر ، وإن استجمام القلوب وتوجيهها زيادة قوة لها وفضل بلغة .

ومنه : سمعت العلماء قالوا : لا عقل كالتيدير ، ولا ورع كالكف . ولا حسب كحسن الخلق . ولا غنى كالرضا . وأحق ماصبر عليه ما لا سبيل إلى تغييره ، وأفضل البر الرحمة ، ورأس المودة الاسترسال ، ورأس العقل المعرفة بما يكون وما لا يكون . وطيب النفس حسن الانصراف عما لا سبيل إليه . وليس من الدنيا سرور يعدل محبة الإخوان ، ولا فيها غم يعدل ققدم .

من الأدب الكبير

إنما يحمل الرجل على الخلف إحدى هذه الخصال : إما مهانة يجدها في نفسه وضريح وحاجة إلى تصديق الناس إياه ، وإما عيب بالكلام فيجعل الأيمان له حشواً ووصلاً ، وإما تهمة قد عرفها من الناس لحديثه فهو ينزل نفسه منزلة من لا يقبل قوله إلا بعد جهد اليمين ، وإما عيب بالقول وإرسال اللسان على غير روية ولا حسن تقدير .

ومنه : إذا رأيت صاحبك مع عدوك فلا يفضنك ذلك ، فإنما هو أحد رجلين إن كان رجلاً من إخوان الثقة فأقع مواطنه لك أقرها من عدوك لشر يكفه عنك ، أو لعمرة يسترها منك ، أو غائبة يطلع عليها لك . فأما صديقك فما أغذاك أن يحضره ذو ثقتك ، وإن كان رجلاً من غير خاصة إخوانك ، فبأى حق تقطعه عن الناس وتكلفه ألا يصاحب ولا يجالس إلا من تهوى .

وقد سبق اختيار وصف صاحب ، وهو من الأدب الكبير .

من كليلة ودمنة

قال دمنة : زعموا أن غديرًا كان فيه ثلاث سمكات . كيسة وأكيس منها وعاجزة ، وكان ذلك الغدير بنحوة من الأرض لا يكاد يقربه أحد ، وبقربه نهر جار ، فاتفق أن اجتاز بذلك النهر صيادان ، فأبصرا الغدير ، فتواعدا أن يرجعا إليه بشباكه . فبيصدا ما فيه من السمك ، فسمع السمكات قولهما . فأما أكيسهن لما سمعت قولهما ارتابت بهما وتحوّفت منهما ، فلم تخرج على شيء حتى خرجت من المكان الذي يدخل فيه الماء من النهر إلى الغدير ، وأما الكيسة فإنها مكثت مكانها حتى جاء الصيادان ، فلما رأتهما عرفت ما يريدان ذهبت لتخرج من حيث يدخل الماء ، فإذا بهما قد سداً ذلك المكان ، فحينئذ قالت : فرطت وهذه عاقبة التفريط ، فكيف الحيلة على هذه الحال ، وقلما تنجح حيلة العجلة والإرهاق . غير أن العاقل لا يفتن من منافع الرأي ، ولا ييأس على حال ، ولا يدع الرأي والجهد . ثم إنها تماوت ، فطفت على وجه الماء منقلبة على ظهرها تارة وتارة على بطنها فأخذها الصيادان فوضاها على الأرض بين النهر والغدير ، فوثبت إلى النهر فنجت . وأما العاجزة فلم تزل في إقبال وإدبار حتى صيدت .

من رسائله

كتب إلى بعض أصدقائه :

كان من خبري بَعْدَكَ أَنِّي قَدِمْتُ بِلَدِ كَذَا ، فَنَهَيْتُ لِي بَعْضُ مَا شَخَّصَتْ لَهُ ،
والحمد لله على ذلك الله عز وجل . وأنا إلى أن يأتيني خبرك محتاج . فأما جملة خبري
في فِرَاقِكَ قَلْبِي مَكَّةُ كُلِّ مَا سَوَّاهُ حَرَامَ فِيهَا .

وكتب يُعزَى من ولد :
إنما يستوجب على الله وغده من صبر الله بحقه ، فلا تجمعن إلى ما فُحِثَ به
من ولدك النجيمة بالأجر عليه والموض منه ، فإنها أعظم المصيبتين عليك ، وأنكى
المرزئعين لك . أخلف الله عليك بخير ، وذخر لك جزيل الثواب
هذا إلى ما قدمناه من كلامه في نماذج الكتابة ، فسد إليه .

حياة الجاحظ

[نسبه] : لقد ضاعت الحقيقة في نسب الجاحظ بين التعصين له وعليه فالأولون
يقولون : إنه كنانى صليبية ، والآخرون يدعون أنه مولى للكنانية ، وأن جدّه كان
عبداً أسود لأبي القلّس بن قُلْع الكنانى :
وقد ذكر يموت بن المرزّع كما روى ياقوت الحموى صاحب معجم الأدياء قال :
(الجاحظ خال أمى ، وكان جدّ الجاحظ أسود ، يقال له فزارة ، وكان جلالاً لعمر بن
قُلْع الكنانى) :
وعلى كلا الرأيين ، فهو عمرو بن بحر بن محبوب ، وإذا لم يكن محبوب هذا هو
فزارة الذى تحدث عنه يموت يكون جدّاً لأبي الجاحظ .
والجاحظ لقب لعمر ، وكنيته أبو عثمان ، وإنما لقب بالجاحظ لبحوط عينيه ،
وبروزهما .

نشأته

ليس ثبوت نسب الجاحظ من كنانة أو لحاقه بهم بالولاء بذى أثر عظيم في حياته ،
وإنما اللهم هو ما ترتب على ذلك من نشأته بينهم خصوصاً إذا ثبت أن هذا الولاء

قديم ، وأن له ثلاثة آباء تمت لهم مخالطة بنى تميم ، فيكون الجاحظ على ذلك عربى
النشأة سلقى اللسان يقول فيعرب . وذلك هو الذى يهتم الباحث فى حياة الأدباء .
كذلك لا يضير الجاحظ أن يكون قد نشأ فقيراً يبيع الخبز والسك بسوق سيعان، فقد
ارتفع به ذكؤه وعلمه حتى جالس الملوك وولع الناس بمشاهدته وحضور مجلسه بعد أن
شاعت شهرته كل الشيوخ ، حتى لقد حضر إليه من الأندلس سلام بن زيد ، وكان
قد أعجب بما وصل إلى الأندلس من كتبه ، ككتاب الترييع والتدوير ، وكتاب
البيان والتبيين . قال : وكان طالب العلم بالشرق يشرف عند ملوكنا بقاء أبى عثمان ،
فخرجت لا أعرج على شىء حتى وصلت إليه . كذلك ولع المتوكل به فأحضره مجلسه ،
وكان الذى يدلّه على فضله وزيره الفتح بن خاقان ، وهو أحد المعجبين بالجاحظ . وقد
أحب المتوكل أن يكل إليه تعليم أولاده ، فلما رآه لأوّل مرّة استبشع منظره ، فأعطاه
عشرة آلاف درهم وصرفه . وهو الذى أرسل إليه رسولاً وهو مريض فى آخر حياته ،
وألحّ على الرسول فى التعجيل به إليه ، ولكن الرسول وجده ، وقد قعد به المرض
وألحت عليه العلة فلم يستطع إجابة أمر الخليفة .

بيئة الجاحظ

نشأ بالبصرة ، وهى ناهيك من بلد جمع أسباب الفضل فى تلك العصور الزاهية
التي عاش فيها الجاحظ ، فقد كانت البصرة موطن علوم العربية . بها نشأ النحو وعاش
رجالها وإليها ثاب علماء اللغة ورواد الأدب ، وحوّلها ضرب خيامهم عرب خلص
اختارهم الأئمة لنقل اللغة . وفيها كان المريد يقام بديلاً من سوق عكاظ فى الجاهلية .
تلك هى البصرة موطن العلماء الأعلام فى كلّ علم من النحو ، والرواية ، والحديث ،
والتفسير ، والفقه ، والكلام ، والخطابة ، والشعر ؛ وفيها عاش أبو الأسود ،

وَعَنْبَسَةُ الْقَيْلِ^(١)، وَنَصْرُ بْنُ عَاصِمٍ، وَيَحْيَى بْنُ يَعْمَرٍ، ثُمَّ أَبُو عَمْرٍو بْنُ الْقَلَاءِ، وَأَبُو الْخَطَّابِ الْأَخْفَشُ الْأَكْبَرُ، وَالْأَصْمَعِيُّ، وَأَبُو عَيْبَةَ، وَخَلْفُ الْأَحْمَرُ، وَوَاصِلُ بْنُ عَطَاءٍ، وَإِبْرَاهِيمُ بْنُ سَيَّارِ النَّظَّامِ، وَمِنْ أَعْلَامِ عِلْمِهَا وَوَعَاظِهَا التَّابِعِيَانِ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ، وَمُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ، وَقَبْلَهُمَا الصَّحَابِيَانِ: أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ، وَأَنْسُ بْنُ مَالِكٍ؛ وَكَانَ بَهَا مِنَ الْخَطْبَاءِ وَالشُّعْرَاءِ خَالِدُ بْنُ صَفْوَانَ، وَالْفَرَزْدَقُ، وَبِشَارٌ، وَأَبُو نُؤَاسٍ وَغَيْرُهُمْ. فِي هَذِهِ الْبَيْتَةِ نَشَأَ الْجَا حَظُّ وَتَرَبَّى بَيْنَ بَنِي كَنْثَانَةِ الْقَصْعَاءِ، فَكَانَ بِمَا انْضَمَّ إِلَى هَذِهِ النِّشْأَةِ مِنْ ذِكَاةِ خَلْقٍ أَحَدُ أَفْئَادِ الْعَالَمِ. وَقَدْ عَاشَ الْجَا حَظُّ وَلِيداً فِي خِلَافَةِ الْهَادِي، وَشَابَا أَيَّامَ الرَّشِيدِ، ثُمَّ شَهِدَ أَيَّامَ الْمَأْمُونِ، وَمَا كَانَ فِيهَا مِنْ حَرَكَةٍ فِلْسَفِيَّةٍ، ثُمَّ عَاشَ، فَرَأَى أَيَّامَ الْمُعْتَصِمِ وَالْوَاتِقِ وَالْمُتَوَكِّلِ، وَبَقِيَ بَعْدَهَا مَغْلُوجاً حَتَّى مَاتَ فِي أَيَّامِ الْمُعْتَزِّ.

وَلَدَ الْجَا حَظُّ حَوَالِي سَنَةِ ١٦٠ هـ، وَتَوَفَّى سَنَةَ ٢٥٥ هـ، فَكَانَتْ مَدَّةُ حَيَاتِهِ طَلَعَ قَرْنَ مِنَ الزَّمَانِ هُوَ أَزْهَى أَيَّامِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، فِيهِ نَضَجَتْ الْعُلُومُ الْعَرَبِيَّةُ وَالْإِسْلَامِيَّةُ، وَتَمَّتْ تَرْجُمَةُ الْعُلُومِ الدَّخِيلَةِ، وَازْدَحَمَتِ الدُّنْيَا بِخُلَفَاءِ وَوُزَرَاءِ لَمْ تَشْهَدْ الْأَيَّامُ مِثْلَهُمْ فَضْلاً وَسَخَاءً، وَقُوَّةَ سُلْطَانٍ، وَلَا شَكَّ أَنَّ كُلَّ هَذِهِ أَسْبَابَ لِنُبُوغِ الرِّجَالِ. وَقَدْ اِزْدَحَمَتْ هَذِهِ الْفَتْرَةُ بِالتَّابِعِينَ مِنْهُمْ بَيْنَ شُعْرَاءَ وَكُتَّابِ وَعِلْمَاءَ وَفِلَسَفَةٍ، وَأَطْبَاءِ يَخْتَصُّ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِنَاحِيَةٍ مِنَ الْفَضْلِ، وَيَسْتَبْدِلُ بِنُوعٍ مِنَ النُّبُوغِ، وَلَكِنْ نُبُوغُ الْجَا حَظُّ

(١) هُوَ عَنْبَسَةُ بْنُ مَعْدَانَ وَكَانَ مَعْدَانُ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ مِيسَانَ قَدِمَ الْبَصْرَةَ وَأَقَامَ بِهَا، وَكَانَ يُقَالُ لَهُ: مَعْدَانُ الْقَيْلِ. وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَاصِمٍ كَانَ لَهُ قَيْلٌ بِالْبَصْرَةِ وَقَدْ اسْتَكْبَرَتْ الثَّنْفَةُ عَلَيْهِ فَأَتَاهُ مَعْدَانُ فَخَبِلَ نَفَقَتَهُ فَكَانَ يُسَمَّى مَعْدَانُ الْقَيْلِ فَنَشَأَ ابْنُهُ عَنْبَسَةُ فَقِيلَ لَهُ عَنْبَسَةُ الْقَيْلِ، وَقَدْ قَالَ الْفَرَزْدَقُ يَهْجُوهُ:

لَقَدْ كَانَ فِي مَعْدَانَ وَالْقَيْلِ زَا جِرَ لَعْنَةُ الرَّأْيِ عَلَى الْقَصَائِمَا

وَقِيلَ لَعْنَةُ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ لَمْ يَلِ الْقَيْلِ وَأَعَا قَالَ الْقَوْمُ فَقِيلَ لَهُ أَمْرًا يَفِرُّ مِنْهُ إِلَى الْقَوْمِ لِأَسْرِ عَظِيمٍ.

كان غير محدود ، فهو بحق محدود في الكتاب ، وفي المؤلفين ، وفي الفلاسفة والتكلمين . وإذا طوِّب المؤرخ أن يضرب النثل لرجل جمع ثقافات هذا العصر وحوى أنواع فضله فإنه غير واجد إلا الجاحظ يمتح به لكل باب من أبواب تلك المعارف . وقد ذكروا من أساتذة الجاحظ : الأصمعي ، وابن الأعرابي ، وأبا عبيدة ، وأبا زيد الأنصاري في الرواية واللغة ، وأبا سعيد بن مسعد الأخفش في النحو ، ويزيد ابن هرون ، والسري بن عدي ، وأبا يوسف القاضي في الحديث ، وأبا إسحق إبراهيم بن سيار النظام في الكلام . وأنا أضيف إلى هؤلاء جميع فلاسفة اليونان وعلماء الهند وأدباء الفرس الذين قرأهم الجاحظ كتبهم المترجمة في هذا العهد ، وقد كان خير تلميذ يحسن التلقي لما كان له من قوة قد ، وحرص على الفهم والتفكير .

مؤهلات الجاحظ

قد يعيش الرجل في مثل هذه البيئة أو خير منها ، ولكنه لا يكون أهلاً للاستفادة مما فيها فلا ترى له بين رجالها ذكراً ، ولكن الجاحظ كان جديراً أن ينفع بكل ما أحاط به إذ كان شديد الذكاء ، قوى الفطنة ، وقد تمثل ذلك فيما حواه من هذه العلوم ، وترأس فيه من أنواع المعارف . فقد كان إماماً في التكلمين ونادراً في الأخباريين ، ولبيقاً في الكتاب ، وفيلسوفاً عالماً بالطبائع ، دارساً لأحوال المخلوقات ، ملماً بالتاريخ ، خبيراً بمثالب الأمم ومحامداً .

وليس أدل على ذكائه من الاطلاع على كتبه ، ففيها تمثل قوة التحصيل للعلم ، والجمع لأشتات مسائله ، ثم التحيص لها ونق زائفها ، وعدم التوويل إلا على ما يؤيده العقل وتؤدي إليه التجربة .

ولا يصل هذه المنزلة في الفضل إلا كل من كان قوى الملكة فاذا البصيرة ،

ليس كل همه التحصيل والوقوف عند أقوال الأقدمين، وهكذا كان الجاحظ، وهو القائل في حكمته التي كان أول الآخذين بها (إذا سمعت الرجل يقول: ما ترك الأول للآخر شيئاً، فاعلم أنه ما يريد أن يفلح)، فهو لم يكن يؤمن باتهاء الفضل عند الأوائل، بل يعتقد أن له نصيباً من الفهم يزيف به الباطل من آرائهم، ويزيد به ما نقص من كالمها. ولذلك رأيناه يناقش أرسطو وغيره من الحكماء، ويعارض المفسرين وغيرهم فيما يرون من رأى كاسيمر بنا في الكلام عن كتبه.

وقد ساعد هذا التهن الوقاد صبر جميل وشغف بالعلم لا مزيد عليه، فقد كان مغرمًا بالاطلاع حتى لم يكن يقع في يده كتاب إلا استوعبه قراءة، وما أكثر الكتب في أيامه، فهي في كل علم نشأ أو ترجم. ولقد بلغ من شغفه بالعلم وعدم استطاعته شراء كل ما نشره إليه نفسه من كتبه أن كان يستأجر دكاكين الوراقين، ويبيت فيها ليطالع ما بها من الكتب، ولم يذكروا هذه المنقبة إلا عن الفتح بن خافان، فقد قالوا: إنه كان يحضر لمجالسة المتوكل، فإذا أراد القيام لحاجة أخرج كتاباً من كمه، وجعل يقرأ فيه إلى حين عودته إلى المجلس، وحكوا مثل ذلك عن القاضي إسماعيل بن إسحاق، فسا كان يرى إلا ناظرًا في كتاب.

نواذر الجاحظ

لعلك متعجب من عقدنا لهذا الفصل في حياة عالم كاتب متكلم كالجاحظ ولكننا إنما نريد أن نذكر على مزية في هذا الرجل جمات دروسه وتأليفه حبيبة إلى الناس، وتلك هي البادرة النادرة، والفكاهة الحاضرة، والزاحظ الطريف الذي كان ينتقل به مع طلابه بين الحقائق، فلم يكن يواليها عليهم حتى تسأمها نفوسهم، وتستغلق أمامها أفهامهم، بل كان يمجج بالزاح نشاطهم، وينقى سأمهم، وقد طالما اعتذر عن ذلك في كتبه، إذ عابه به حساده، فقالوا: إنه يخطط الجذب بالهزل، والحقائق بالترهات.

فقد قال في شأن كتاب الحيوان والاعتذار عما فيه من فكاكة . وهذا كتاب موعظة وتعريف وتثنية وتنبيه ، وأراك قد عبته قبل أن تنف على حدوده ، وتسكر في فصوله وتعتبر آخره بأوله ومصادره بموارده ، وقد غلطك فيه بعض ما رأيت من مزح لم تعرف معناه ، ومن بطلالة^(١) لم تطلع على غورها ، ولم تدر لم اجتلبت ، ولا لأى علة تكلفت ، وأى شئ أريخ بها ، ولأى جد احتمل ذلك الهزل ، ولأى رياضة تجمشت . تلك البطالة ، ولم تدر أن المزاح جد إذا اجتلب ليكون علة للجد ، وأن البطالة وقار ورزاقه إذا تكلفت لتلك العاقبة .

وقد عدوا له من نوادره المستظرفة أنه قيل له وقد هرب بعد القبض على ابن الزيات وكان خاصاً به منحرفاً عن أحمد بن أبى دؤاد عدو ابن الزيات لم هربت ؟ قال خفت أن أكون ثأنى اثنين إذ هما فى التنور (إشارة إلى التنور الذى كان يعذب فيه ابن الزيات فى أيام سطوته ، وعذب به فى أيام محنته) .

وطلب إليه بعض الناس أن يكتب كتاب توصية برجل لا يعرفه إلى صديق له ، فكتب إليه : (هذا كتاب مع من لا أعرفه ، وقد كلنى فيه من لا أوجب حرمة ، فإن قضيت حاجته لم أحمدك ، وإن رددته لم أذمك) ، ثم اتفق أن الوسيط فى الكتاب اطلع عليه قبل أن ينفذه ، فلما رأى مابه عاد إلى الجاحظ ، فلما رآه علم أنه فتح الكتاب ، فقال له : علمت أنك أنكرت الكتاب ، وإنما هذه علامة بينى وبين الرجل فيمن أعتنى به ، فقال الرجل . يا أبا عثمان ما رأيت أحداً بطبعك ولا ما جيلت عليه . واتصلت هذه النادرة بالفتح بن خاقان وزير المتوكل فخذته بها ، فكانت سبب اتصال الجاحظ به وحضور مجلسه . وقال الجاحظ : دخلت ديوان الرسائل ببغداد ، فرأيت قومًا صقلوا ثيابهم وصفوا عمامهم ووشوا طرزهم . ثم اختبرتهم فوجبتهم

(١) بطل العمى (كد-ل) صار باطلا ، والمصدر بطل وبطلان (بالضم فيهما) وبطل الأخير (كدخل أيضا) بطلا تطل ، والبطالة هنا من المعنى الثانى : أى إن المزاج تعطل للجد وإضاعة الوقت .

كما قال الله تعالى : « فَأَمَّا الزُّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً » . ظواهر نظفية ، وبواطن سخيفة ،
 فويل لهم مما كتبت أيديهم ، وويل لهم مما يكسبون . وأتاه مرة بعض الثقلاء ،
 فقال : سمعت أن لك ألف جواب مسكت فسلمني منها ، فقال : نعم . قال : الرجل إذا
 قال لي شخص يزوج القحبة ، يا ثقيل الروح فأى شيء أقول له ؟ قال : قل له صدقت .
 وحدث من نفسه قال : ما أخجلني أحد مثل امرأتين ، رأيت إحداهما بالعسكر ،
 وكانت طويلة ، وكنت على الطعام ، فأردت أن أمارحها ، فقلت ، انزلي كلى معنا ،
 فقالت : اصعد أنت حتى ترى الدنيا ؛ وأما الأخرى فلأنها أمتنى وأنا على باب منزلي ،
 فقالت : لي إليك حاجة ، وأريد أن تمشي معي ، فشيت معها حتى أتت بي إلى صائغ ،
 فقالت له : مثل هذا . وانصرفت ، قال : فسألت الصائغ عن قولها ، فقال أتتني بنفس
 وأمرتني أن أهش عليه صورة شيطان ، فقلت لها : ما رأيته ، فأنت بك .

وذكر في كتاب البيان والتبيين ما يأتي « . . والعرب تقول : أخزى الله الرأي
 الذبري ، وقالوا : وجه الحجاج إلى مظهر بن عمار بن ياسر ، عبد الرحمن بن سليم
 السكبي ، فلما كان بجولان أتبعه الحجاج مدداً وعجل عليه بالكتاب مع نُحَيْتٍ
 الغلط ، (وإنما قيل له ذلك لكثرة غلظه) فرَّ نُحَيْتٍ بالمدد ، وهم يُعْرَضُونَ
 بِحَاقِقِينَ ، فلما قدم على عبد الرحمن . قال له : أين تركت مددنا ؟ قال : تركتهم
 يُحْنَقُونَ بِحَاقِقِينَ قال : أو (يعرضون بحاققين) ؟ قال : نعم . اللهم لا تخانق
 في باركين . . . (١) ، وقد حدثت الجاحظ عن بعض تلاميذه ، فقال : كان من
 تلاميذنا من يدعى كيسان كان يسمع غير ما يقال ؛ ويكتب غير ما يسمع ، ويقرأ
 غير ما يكتب (٢) . وما أكثر ما روى الجاحظ من فكاهات .

(١) وتنبه هذه الفكاكة : أن الأمير عبد الرحمن أراد أن يقول لنحيت ألا تنفذى فسمعه يضرط
 فقال ألا يضرط قال قد فعلت أصلح الله الأمير . قال ما هذا أردت . قال صدقت ولكن الأمير
 غلط كما غلطنا . قال أنا غلطت من في وأنت غلطت من استك .

(٢) وفي مثل كيسان يقول الشاعر :

يحي غير ما قلنا ويكتب غير ما يسمه ويقرأ غير ما هو كاتب

معتقد الجاحظ

لم يكن الجاحظ بهذه المثابة من الفضل والعقل ثم يكون مهماً مقلداً يدين بآراء غيره ، ولم يكفه أن يكون صاحب رأى يجتهد فيه ويستقل به ، ثم لا يكون رأيه هذا شأن يذكر بين الآراء . ولكنه كان صاحب رأى يجذب إليه طائفة من الناس استطاع أن يجمعهم على الإيمان به والتمصب له ، ففرقت بين الفرق تسمى الجاحظية ، وهى مشتقة من المعتزلة الذين كان من رءوسهم على أيام الجاحظ إبراهيم النخاس والجاحظ ، فهو على هذا معتزلى يشارك المعتزلة فى غالب آرائهم ، ولكنه يستقل بآراء يحتاج لها ببيانه الناصع وبلاغته العجيبة . والقول فى آرائه دخله التحريف والتبديل ، فإن كثيرين من الناقين عليه شوهوا آراءه وحكوها على غير وجهها ليتخذوا ذلك وسيلة للغرض من شأنه عند الناس .

ومن آرائه التى اقردها عن أصحابه من المعتزلة ما ذكره صاحب كتاب الملل والنحل من قوله بأن المعارف كلها ضرورية وطباع ، وليس شىء من ذلك من أفعال العباد ، وليس للعباد كسب سوى الإرادة . ولعل هذا رأى قد نشأ له من أنه كان يقول بأن الأفعال المتولدة ليست من فعل الإنسان ، كما إذا رميت حجراً فسقط على شىء فكسر ، فهذا الكسر متولد ورأيه أنه لا ينسب إلى الراى ، فكذلك كل ما يحصل من المعرفة فهو متولد من اتجاه الحواس ، فإذا رأيت شجرة لم يكن فعلى إلا توجيه نظرى إليها ، فأما علمى بشكلها وكل ما يتعلق بها فهو متولد عن الروية وليس لى كسب فيه . وكذلك كان يقول باستحالة انعدام الجواهر بعد حدوثها . وقد رد عليه البغدادى صاحب كتاب الفرق بين الفرق بأن هذا يستلزم أن الله يقدر على خلق شىء

ولا يقدر على إفنائه . ومن آرائه قوله : إن الله لا يدخل العباد النار ، وإنما هي التي تجنّبهم إليها ، وأنهم لا يخلدون فيها وإنما يصيرون من طبيعتها . قال البغدادى : يلزم على ذلك أن تكون الجنة كذلك فتقطع الرغبة إلى الله . ويقال أيضاً إن هذا الرأى من الجاحظ مخالف لقول الله تعالى : « يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً » ، والدع : الدفع العنيف ، وقوله تعالى : « حُذُوا فَاغْتُلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ » ، وقوله تعالى : « وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَا كُنْتُمْ » ورووا عنه أيضاً أنه قال إن القرآن جسد يجوز أن يكون مرة رجلاً ومرة امرأة . وقد تصدى للدفاع عنه فيما نسب إليه من الآراء المخاططة أبو الحسين الخياط في كتابه الانتصار لعقيدة أبي عثمان وملخص هذه الردود أن أغلب ما نسب إليه مكذوب عليه .

والمشهور أنه كان من الناصبة الذين كانوا يفضلون عثمان على علي وعلى هذا الرأى كان أهل البصرة منذ واقعة الجمل لأنه ما منهم إلا من قتل له فيها أب أو أخ أو ابن ولكن الجاحظ كان يتنصل من هذا وينفيه عن نفسه خوفاً من بنى العباس^(١) .

أسلوب الجاحظ

يأبى العبقرى إلا أن يكون أمة وحده في كل شيء وهكذا كان الجاحظ ، فكما

(١) وقد نسب إلى النصب (بض على) كثيرون منهم الشريف الرضى في نهج البلاغة ، ولكن يتنافى ذلك أن الجاحظ رسالة في بنى أمية ذكر فيها أنه لا يتولى عثمان إلا في السنين الست التي كانت في أول ولايته ، ثم يذكر معاوية وتحوله الخلافة إلى ملك كسرى ويعدد أخطاءه حتى لقد كفره وكفر من ترك تكفيره ، وهكذا كان شأنه مع ملوك بنى أمية يذكر مساوئهم في تلك الرسالة ، ورأى الجاحظ في عثمان وبنى أمية هو رأى جميع المعتزلة الذين كانوا يكرهونهم ، وإن لم يخرجوا عليهم ، ولملك تفهم هذا أيضاً من حب الباسيين للمعتزلة وتقرّبهم إليهم والأخذ بل رأيتهم حتى قال المأمون بتل مقاتلهم في خلق القرآن وهم بلن معاوية على النبر .

كان علما بين المتكلمين كذلك كان إماما في الأدباء والترسلين ، له أسلوب عرف به واشتهر حتى إن الذي يعرف خصائص هذا الأسلوب ويدرس نهجه لا يفوته أن يعزو إلى الجاحظ ما كان من كلامه مها عييت عليه روايته . وذلك أنك إذا عرضت بين يديك أساليب الكتاب وجدت أنهم إما علماء مؤلفون أو أدباء مترسلون ، فإن كانوا مؤلفين اقتصروا على رواية كلام السابقين لا يستقلون بعبارة ولا يزيّدون برأى ، ثم رأيتهم في دائرة من العلم لا يعتمدونها ، فالؤرخ لا يزيّد على سرد الوقائع ووصف المعارك ، والأديب يروى الشعر والخطب ويشرح أو يعرب ما ورد في عباراتها من غامض . فأما الذي لا يحده موضوع ولا يضبط له خاطر ولا يعرف إلا المعاني تنسال عليه من شعاب الفكر فهو الجاحظ ينتقل : من فلسفة ، إلى توحيد ، ومن قرآن ، إلى حديث ، ويخطئ جد ذلك بالمرح . ثم يخرج منه إلى القصص فيحكى عن نفسه ويروى عن الناس ولا يقتصر على عرب أو فرس حتى ينقل عن الهند والصين وعن اليونان وجميع من خلق الله ، وربما عاد إلى ما بدأه من بعيد ، وربما أنساه الاستطراد ما بدأ ، إلى غير ذلك مما لعلك غير مصادف له إلا في كتب الجاحظ . وقد قدمنا لك أنه عيب بذلك من حساده ، وهو عيب أقرب إلى الإقرار بالفضل ، فإنه ما فعل ذلك إلا من فضل الذكاء ، وازدحام الفكر بالمعاني ، وكثرة ما قرأ عن عرب وعجم ، مع قدرة عجيبة على مزج ذلك وتذكّره عند مناسبته التي تعرض وموضعه الذي يحسن فيه ، ولسنا نحيلك إلا على كتاب الحيوان ، فإنك لا تكاد تفتح له صفحة حتى ترى فيها ألوان العلوم مجتمعة ، فأين تجد مثل هذا إلا في كتب الجاحظ التي عرفت بأنها البحر لاساحل له .

هذه هي ناحية الفكر في تأليفه . فأما العبارة ، فهي اللفظ الرصين ، والأسلوب اللتين ، يهdy إليهما طبع عربي ، ونشأة بين ربيع القصاحة ، ومخالطة الجاهذة القول في البصرة ، مباءة العربية ، ومثابة الفصحاء تجمعوا على حدود البرية ، وأشرفوا على الريف ، فكانوا مورد المربية الصافي ، ومنهلها العذب .

لا يعرف الجاحظ في أسلوبه غير جانب المعنى ، فأما اللفظ فما أظن أنه يوما طلب كلمة شاردة ، ولا عانى عبارة غير مستوية ، ولا توقف يبحث عن محسن ، أو يستدعي سجعة ، وليس مثل الجاحظ في كثرة ما ألف ، وطويل ما جبر يحاول ذلك في كلامه ، فإنه جدير إذا حاوله ألا يكون منه عشر ما كان له من الكتب التي قاربت ثلاثة المائة .

وكذلك كان في ترسله يرسل المعنى في اللفظ الذي يشرف به المعنى ، وهو فيه غير متكلف لمباراة أو مؤثر لسجع ، ولكن شيئا من العناية بالألفاظ والتخيير لها يكون في غير تكلف ، ولا استكراه لمكان الترسل من القلة ، ولموضعه من خطاب الكبراء والعظماء ، وأنه إلى الخاصة دون غيرهم ، فإذا ترفع فيه عن مستوى عبارته في كتبه ، فما ذلك إلا لأنه يضع الهناء مواضع الثقب^(١) ، ويلبس لكل حال لبوسها ، فهو يعلم أن الكتب للخاصة والعامة ، فلا ينظر فيها إلى جانب اللفظ نظره إليه في الرسائل يبحث بها إلى الإخوان والوزراء ، وليس يدعوك قولنا هذا إلى الخط من شأن عبارته في كتبه ، فهي خير ما يكون إذا قيس إلى سائر عبارات المؤلفين على أن فيها مواطن استدعت الأتقن كوصفه للكتب ، وبيان فوائدها في أول كتاب الحيوان ، فإنه جاء آية في الإبداع والرصانة ، ومثلا يحتذى في البلاغة ، كذلك وصفه للقرآن ، وبيان إيجازه في كتاب : « البيان والتبيين » ، وغير ذلك كثير موزع في كتبه .

ويشيع في كتاباته عامة كثرة الترادف ، وليس ذلك إلا من الغنى اللغوي والثروة بالألفاظ والأساليب ، وهو شيء ربما دعاه إليه حاجته إلى تفهيم المتعلمين ما يلقيه عليهم من المعاني ، فهو مدفوع إلى التكرار كما يندفع المعلم في خطاب تلاميذه ، ولكنه تكرر من بليغ ، فكان دائما زينة لقوله ، ودليلا على فضله .

(١) الثقب : الجرب .

كذلك بكثير في قوله الاعتراض وهو لا يفتأ يقول : وفاك الله ، وجنبتك الشبهة ، وعصمتك من الريبة ، وأعزك الله إلى غير ذلك مما كثر في كلامه .
وقد كان الجاحظ شعر ، ولكنه لم يكثر منه ، فلم يحمله موضوع بحث ودراسة .

آثار الجاحظ .

لا سبيل بنا إلى عد كتب الجاحظ ، ويكفي أن نقول إنها أربت على المائتين وقد كانت سبب ثرائه وشهرته حتى لم يبق أحد من معاصريه إلا تعلق بأن يرى هذا الذي طبقت شهرته الخالقين .

أما ثروته التي استفادها من كتبه فقد ذكر طرفاً منها ، فقال لمن سأله : هل لك ضيعة بالبصرة ؟ أهديت كتاب الحيوان إلى محمد بن عبد الملك الزيات فأعطاني خمسة آلاف دينار ، وكتاب البيان والتبيين إلى ابن أبي دؤاد فأعطاني خمسة آلاف دينار ، وكتاب الزرع والنخل إلى إبراهيم بن العباس الصولي فأعطاني خمسة آلاف دينار ، فأنصرفت إلى البصرة ومعى ضيعة لا تحتاج إلى تجديد ولا تسميد . وإذا كان هذا رأيه في المال لا يقتنى به ضياعاً مقلّة فإيه جدير ألا يبقى على الأيام منه شيء . وقد كان كذلك فإنه في آخر أيامه لما فُلج احتاج إلى المال حتى إنه حين قصده ذلك الوالى المزول الذى أحب أن يرى الجاحظ فى مروه بالبصرة ، وكان قد صاغ ثروته إهليلجات وقصد بلده بها ، فلما كان عند الجاحظ فطن لقصته بعجب ما أوفى من صدق الحس . وقال له : أيها الفتى ، إن الأهليلج الذى معك ينفعنى ، فأبعت إلىّ منه ، فأعطاه مائة إهليلجة ، وهو متعجب من استكناهاه خبره مع شدة تكتمه .

وسنورد عليك من كتب الجاحظ ما تبين منه أنه لم يترك علماً ولا موضوعاً إلا خاض فيه ، وأحسن استقصاءه ، فبينما هو يكتب فى الشعر والخطب : « البيان

والتبيين » إذا به يشرح الحيوان ، ويدرس طبائمه في كتاب : « الحيوان » ثم يتناول « الشطرنج والورد » ، ويفرق ما بين « النقيّ والتنجي » ويبحث « إمامة معاوية » ، ويدرس أحوال « المعلمين » ، « وطبقات المغنين » ، ويكتب في طبائع « الحاسد والمحسود » ، ويحاول « مدح النبيذ » ، و« ذم النبيذ » ، ويظهر « غش الصناعات » ، ويعنى بـ « أخلاق الشطار » ، و« نوادر الطفيليين » إلى غير ذلك مما يجعلك تعتقد أنه لم يترك معنى جاد به الله على فكر بشر إلا تناوله بالبحث ، وأفاض فيه القول .

والمطبوع المتداول من كتبه هو « البيان والتبيين » « والحيوان » : « والبخل » ، وإحدى عشرة رسالة طبعت بمصر ، وهي : « الحاسد والمحسود » ، « ومناقب الترك » ، و« نخر السودان على البيضان » ، و« التربع والتدوير » ، و« تغزيل النطق على الصمت » ، و« مدح التجار ، وذم عمل السلطان » ، و« العشق والنساء » و« الوكلاء » و« استنجاز الوعد » و« بيان مذاهب الشيعة » و« طبقات المغنين » .

ومن غير المطبوع ، ولكنه موزع بمكاتب أوروبا « أخلاق الملوك » ، وهو بأيا صوفيا ، و« تنبيه الملوك » ، و« سمر البيان » ، وهما بكوبرلي ، و« العرافة » ، والزجر ، والفراسة « بليدن ؛ وأما غير المنشور عليه من كتبه ، فهو كما علمت كثير ، فاطلب فهرسه من الكتب المطولة التي عنيت بذكره ، كمعجم الأدباء لياقوت الحموي ، والقهرست لابن النديم .

مبلغ تحقيقه وبجته

قد يظن المطالع على كتب الجاحظ (وهو يكثر فيها من النقل) أنه حاطب ليل لا يحقق ما يروى ولا ينقده بصيرته . ولكن الجاحظ على كثرة ما روى وكثرة

ما ألف لم يكن يمر بقول زائف إلا بهرجه وأزاح الشبهة عن حقيقته .
ومن ذلك أن النساين تفاقوا أن أم النضر بن كنانة بن خزيمة اسمها برّة بنت
مرة بن أد بن طابخة ، وأن كنانة تزوّجها بعد موت أبيه خزيمة (على عادة أهل
الجاهلية من تزوّج الابن الأكبر زوج أبيه إذا كان من غيرها) ، فولدت له النضر .
فلحظ الجاحظ أن هذا يستلزم أن يكون في سلسلة نسبه عليه الصلاة والسلام سفايح ،
فلم يقبله وردّه بأن كنانة خلف أباه حقاً على برّة ، ولكنها ابنة أد بن طابخة فلم تعقب
منه . أما برّة التي أعقب منها ، فهي ابنة أخيها وهي برّة بنت مرة بن أد بن طابخة ،
وهي ولدت لكنانة النضر . ومنها اتصلت سلسلة النسب إلى رسول الله ، فليس
فيه نكاح غير صحيح . قال الجاحظ : ومن اعتقد غير هذا فقد كفر .

كذلك هو في كتاب الحيوان ليس محض ناقل عن الذين سبقوه فيما كتب عن
طباع الحيوان وصفاته ، بل إنه في سبيل التحقيق العلمي رحل إلى بعض الأمصار ،
ومنها مصر أقام بها مدّة ، واختبر ما بها من حيوان . وفي تعقبه لأرسلوه وكثرة ردّه
عليه دليل على أن قوة النقد كانت تصحبه في كلّ ما كتب .

تعريف ببعض كتبه

الحيوان

هو أكبر كتب الجاحظ ، وهو سبعة أجزاء ويقع كله في نحو ألف صفحة من
القطع الكبير ، وهو مطبوع بمصر قام بالإتفاق عليه للرحوم الحاج محمد الساسي المغربي
التاجر بمصر ، ومما جاء في أوله مما يشبه التعريف به والدلالة على ما فيه قول الجاحظ :
(وهذا كتاب تستوى فيه رغبة الأمم ، وتشابهه فيه العرب والعجم ، لأنه وإن كان

عربياً أعرابياً وإسلامياً جمعياً ، قد أخذ من طرف السياسة ، وجمع معرفة السماع وعلم التجربة ، وأشرك بين علم الكتاب والسنة ، وبين وجدان الحس ، وإحساس الفريضة ، ويشتهيه القتيان كما يشتهيه الشيوخ ، ويشتهيه الفاتك كما يشتهيه الناسك ، ويشتهيه اللاعب كما يشتهيه المجد ذو الحزم ، ويشتهيه النفل كما يشتهيه الأريب ، ويشتهيه الغبي كما يشتهيه القطن) .

بدأ الجاحظ كتابه بمقدمة استغرقت طلع خمسين صفحة ذكر فيها بعضاً من مؤلفاته وألقى بالوم على العائنين لكتبه ، ثم قسم العالم بما فيه من أجسام إلى جامد ونام ، وجعل النامي النبات والحيوان ، ثم ذكر أقسام البيان ، ثم استطرد إلى مدح الكتب ، ثم تناول موضوع الخط ، ومقدار الحاجة إليه ، ثم خرج إلى الشعر قبل الإسلام ، ثم عاد إلى القول في شأن الكتب والترغيب في اصطناعها ، ثم ذكر ما يمتري الإنسان بعد الخلاء ، ثم سرد طرق الخلاء في البهائم ، ثم ذكر أن الخصى أطول عمراً من الفحل ، ثم تناول الموضوع من الناحية الشرعية ، ورجع إلى القول في محاسن الخصى ومساويه .

ولا تظن أنه حين تناول البحث العلمي في كتابه بذكره للخلاء وما فيه كفى عن الاستطرد !! فهذا ما لا يتصور في الجاحظ ، فهو غير معفيك من مثل يشرحه وحكمة ينسبها إلى قائلها ، وكلمة يرويها عن صاحبها ، وآية يستدل بها على ما يقول ، وقد يستطرد من ذكر الآية إلى أقوال المفسرين في القرآن ، فيقول :

كان أبو إسحق يقول : لا تسترسلوا إلى كثير من المفسرين ، وإن نصبوا أنفسهم للعامة ، وأجابوا في كل مسألة ، فإن كثيراً منهم يقول بغير رواية وعلى غير أساس ، وكلما كان المفسر أغرب عندهم كان أحب إليهم ، فكيف أثق بتفسيرهم وأسكن إلى صوابهم ، وقد قالوا في قوله تعالى : « وَأَنَّ لِلسَّاجِدِ لِلَّهِ » ليست المساجد التي نصلي فيها بل هي الجباه والأيدي والأرجل . وكل ما يقع على الأرض عند سجودنا ، وقالوا في

قوله تعالى : (أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْآيِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ) أنه ليس معنى الجمال والنوق ، وإنما عنى السحاب ، وقالوا فى قوله تعالى : (وَبَلِّغْ لِلْمُطَفِّينَ) ، الويل واد فى جهنم ، ثم قعدوا يصفون ذلك الوادى ، ومعنى الويل فى كلام العرب معروف . وقالوا أخطأ من قرأ قوله تعالى : (عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا) ، فوصل بعض هذه الكلمة ببعض ،

وإنما هى سل سبيلا إليها يا محمد . فإن كان كما قالوا ، فأين معنى تسمى ؟
وقد قصر الجزأين الأول والثانى على الكلام عن الكلب والديك ، وعقد موازنات ومفاضلات بينهما ، فجعل للكلب صاحباً يحتاج له ويذكر محاسنه ، فيرد عليه صاحب الديك رد هذه المحاسن إلى مساوى ، وإثبات محاسن للديك ، فينكر عليه صاحب الكلب بمثل ما فعل ، وهكذا دواليك . وذلك الأسلوب لعله كان متبعاً عندهم بتخبر به قوة الحجة وشدة العارضة . وبين ثبت كتبه تجد كتباً متناقضة ، فكتاب فى « ذم النبيذ » ، وآخر فى مدحه ، وآخر فى « ذم الكتاب » وغيره فى مدحهم .

ثم يبدأ الجزء الثالث بقوله : باب ذكر الحمام ، وما أودعها الله عز وجل من ضروب المعرفة ، ومن الخصال المحمودة لنعرف بذلك حكمة الصانع وإتقانه وصنعه المدبر وإن كنا قد أملناك بالجد . ثم يستمر فى الاعتذار عن خلط جده بالهزل ، فيقول . على أنى قد عزمت - والله الموفق - أنى أوشح هذا الكتاب ، وأفضل أبوابه بنوادير من ضروب الشعر وضروب الأحاديث ليخرج قارئ هذا الكتاب من باب إلى باب ، ومن شكل إلى شكل ، فإنى رأيت الأسماع تملّ الأصوات المطربة ، والأغاني الحسنة ، والأوتار الفصيحة إذا طال ذلك عليها ، وما ذلك إلا فى طريق الراحة التى إذا طالت أورثت الغفلة ، وإن كانت الأوائل قد سارت فى صفار الكتب هذه السيرة كان هذا التدبير لما طال وكثر أصلح ، وما غابتنا من ذلك كله إلا أن تستفيدوا خيراً ، وقال أبو السرداء : إني لأجهم نفسى ببعض الباطل كراهة أن أحمل عليها من الحق ما يملها ،

ثم يروى جملة فكاهات تضحك كما يقول : كل شكلاّن وإن تشدد ، وكل غضبان وإن أحرقه لهيب الغضب ، فقال :

حدثني المدني قال : تحول أبو عبد الله الكوفي اللحياني إلى الحريية ، فادعى أنه فقيه ، وغلن أن ذلك يجوز له لمكان لحيته وسمته ، وألقى على باب داره البواري^(١) وجلس إليه الجيران ، فأتاه رجل فقال : يا أبا عبد الله رجل أدخل أصبعه في أنفه ، فخرج عليها دم ، فأنى شيء يصنع ؟ قال : يحتجم ، قال : الرجل قدمت طبيباً أم فقيهاً ؟ وقال : حدثني أبو الجهماء قال : ادعى شيخ عندنا أنه من كندة قبل أن ينظر في شيء من نسب كندة ، فقلت له يوما وهو عندي : ممن أنت يا فلان ؟ قال من كندة . قلت : من أيهم أنت ؟ قال : ليس هذا موضع الكلام عافاك الله . وقال أخبرني محمد ابن سليمان قال : قال رجل من أهل الكوفة لرجل من أهل المدينة : نحن أشد حباً لرسول الله منكم بأهل المدينة . قال المدني : فما بلغ من حبك لرسول الله ؟ قال : وددت أنى وقيت رسول الله وأنه لم يكن وقع عليه في يوم أحد ولا غيره شيء يكرهه إلا كان بي دونه . قال المدني : أفندك غير هذا ؟ قال : وما يكون غير هذا ؟ قال : وددت أن أبا طالب كان آمن فسر به النبي وإني كافر . وجعل يروى من مثل ذلك ونحوه ثمانى صفحات ، ثم استطرد بقوله : وسنذكر من نوادر الشعر جملة ، فإن نشطت لحفظها فأنها من أشعار المذاكرة ، واستمر يروى من الشعر ، وطالت الرواية حتى لقد عقد في هذا الاستطراد أبواباً ، كباب صدق الفطن ، وجودة القراسة ، وباب اللدج بالجمال وغيره ، ثم إنه بعد نحو خمسين ورقة عاد إلى موضوع الحمام .

وأظنك بذلك لمست جانب الاستطراد في تأليف الجاحظ ، وليس معنى هذا أن الاستطراد قد اعتدى على الحقائق العلمية ، فإنه بعد هذا الاستطراد كتب في الحمام

(١) البواري: جمع بوري أو بورية ، وما الحصيد المنسوج كالبورباء ، والبارباء والبارية .

وحده أكثر من خمسين صفحة ، فوصف أنواعه وذكر طبائمه ، فلم يترك فيه قولاً لقائل .

وفي هذا الكتاب يروى الجاحظ عن أرسطو ، ويسميه صاحب النطق ، ولأرسطو كتاب في الحيوان نقله ابن البطريق ، وقد اطلع عليه الجاحظ وعرضه على فكره الثاقب وبصيرته النقادة ، فلم يكن يخضع لقول أرسطو ، ويخضع بكونه فيلسوف اليونان الأشهر ، بل قد ناقشه في عدة مواضع من الكتاب زيف بها آراءه . فقد روى رأيه في أن إناث المصافير أطول أعماراً من ذكورها التي لا تعيش إلا سنة واحدة ، فقال والذين زعموا أن البغل إنما طال عمره لقلة السفاد ، والمصفور إنما قصر عمره لكثرة السفاد وغلظته ، لوقالوا بذلك على جهة الظن والتقريب ، لم يلهم أحد من العلماء والأمور المتربة غير الأمور الموجبة ، فينبغي أن يعرفوا فضل ما بين الواجب والقرب ، وفرق ما بين الدليل ومثبه الدليل . ثم رد على من ادعى أن الببليل لا يستقر أبداً ، فقال : وزعموا أن الببليل لا يستقر أبداً ، وهذا غلط لأن الببليل إنما يقلق لأنه محصور في قفص ، والذين عاينوا البلابل والمصافير في غير أوكارها وغير محصورة في الأقفاص يملكون فضل المصفور على الببليل في الحركة .

وانظر إلى كلامه عن الحيات كيف يهاجم الزاعم الكاذبة والخرافات الهائلة في بعض أنواع الحيات . قال : والأعراب تقول في الأصله قولاً عجيباً ، تزعم أن الحية التي يقال لها الأصله لا تمر بشيء إلا احترق مع تهاويل كثيرة وأحاديث شنيعة . وتزعم الفرس أن الأجدهانى أعظم من البعير ، وأن لها سبعة رموس ، وربما لقيت أناساً فتبتلع من جهة كل قم ورأس إنساناً ، وهومن أحاديث الباعة والمجانز . وقد زعم صاحب النطق أنه قد ظهر حية لها رأسان ، فسألت أعرابيا عن ذلك ، فزعم أن ذلك حق ، فقلت له : فمن أى جهة الرأسين تسعى ومن أيهما تأكل وتمض ؟ فقال : أما السعى فلا تسعى ، ولسكنها تسعى إلى حاجتها بالتقلب كما تتقلب الصبيان على الرمل . وأما الأكل

فإنها تتعشى بنم وتغدى بنم. وأما العنق فإنها تعض برأسها معاً. فإذا به أكذب البرية.. والكتاب كله على هذا النمط نقل عن صاحب المنطق واستنباط من كلام العرب ، واعتماد على رواياتهم وملاحظة دقيقة واختبار ذاتي ؛ واستطراد إلى مثل ما عرفت . فكل هذا جعل الكتاب موسوعة علمية أدبية عديمة النظير .

البيان والتبيين

لعل هذا الكتاب آخر ما ألفه الجاحظ ، فقد أشار فيه إلى كتاب الحيوان ، وهو لم يؤلف الحيوان إلا حين كان متقدماً في السن مريضاً كما يقول ، لذلك نستطيع أن نعتبر كتاب البيان والتبيين مثال النضج والتمام لعلم الجاحظ ، وإن كان في كل كتبه بمثابة واحدة من تدفق المعرفة وجمع الشوارد والإحاطة الشاملة .

موضوع الكتاب أدب : من شعر ونثر ورواية ، وقد استطاع الجاحظ إلى حد ما أن يلزم في هذا المؤلف ما حده لنفسه من الكلام في الأدب ، فإن جميع ما فيه رواية شعر وخطب ومحاورات ، وحكم وأمثال وفكاهة ، وتعرض للمذاهب من شعرية وغيرها ، وكلام من مشافهات الأعراب ، وحكم حكمتهم ، وتناول لما كان عند غير العرب كالفرس والروم والهند من فلسفة وحكمة ورواية لشيء من مآثور كلامهم . وكل هذا صادق عليه اسم الأدب لأنه كما يقولون : الإلمام بأطراف العلوم ، ومن هنا تدرك السر في أنه لم يتجاوز فيما كتب موضوع الكتاب ، ولكنه مع هذا قد تجلّى فيه ما ذكرنا عن الجاحظ من ازدهام معلوماته وسرعة تواردها ؛ فلم يكن يستطيع أن يضبط أفكاره تحت عناوين وأبواب يجمع فيها كل ما هو متناسب ، لم يستطع ذلك ، وهذا شأنه في كل ما ألف وعذره فيه كثرة معلوماته . وكون التأليف إلى أيامه لم يصر صناعة محكمة الأصول متعارفة المنهج .

وهناك بعضاً من الموضوعات التي تناولها في كتابه تدرك منها كيف يخضع الجاحظ لحكم المناسبة ، ولا يستطيع ضبط فكره وإدخال معلوماته إلى مواضعها التي تليق بها .

بدأ كتابه بالتموّد من العمى والحصص ، ثم استطرد إلى ما قيل فيهما من شعر ونثر وكلام مروى عن العرب وغيرهم ، ثم استطرد إلى ذكر واصل بن عطاء ، وأنه لما كان أبلغ فاحش اللثغ ، وأنه لا بدّ له من مقارعة الأبطال ، ومن انطرب الطوال ، وأن البيان يحتاج إلى تمام الآلة وإحكام الصنعة وإلى سهولة الخروج وجهازة المنطق وتكميل الحروف أسقط واصل الرأى من كلامه ، ثم ذكر شيئاً من كلامه تجنب فيه الرأى ، ثم تراه بعد ذلك طفر طفرة ذكر فيها أن أهل الأمصار إنما يتكلمون على لغة النازلة فيهم من العرب ، وضرب لذلك أمثلة كثيرة ثم عرض لاستخفاف الناس لبعض الألفاظ وغيرها أحق منها بالاستعمال وضرب لذلك الأمثلة فذكر أن الجوع لم يذكر في القرآن إلا في موضع العقاب أو الفقر المدقع والعجز الظاهر والناس يذكرونه في حال المقدرة والسلامة ، ولا يذكرون السغب

ثم عقد فصلاً لتسمية واصل بالفرزال وسبب ذلك ، ثم فصلاً لذكر الحروف التي تدخلها اللثغة ، ثم عرض لذكر الخطباء الذين يجمعون بين الخطابة والشعر وعدد منهم كثيرين ، وإنما أتى بذلك استطراداً حين ذكر رجلاً عرف بقرض الشعر وتجيير الكلام ، فأطال في استطراده هذا ، ثم قال : رجع بنا القول إلى الكلام الأول فيما يعتري اللسان من ضروب الآفات ، فأطال في ذلك ، وذكر أسماء كثيرين من لُكن البلقاء والشعراء والرؤساء ، وروى لكلّ منهم قولاً أثر عنه وبذلك ختم الباب .

فأنت ترى أن كلّ ما ذكره إلى هنا إنما كان استطراداً لاستعاذته في أوّل كتابه

من العمى والحصص .

ثم عقد باباً سماه : باب البيان ، ثم آخر سماه : باب ذكر ناس من البلغاء والخطباء والأئمة^(١) والفقهاء والأمرء ممن لا يكاد يسكت مع قلة الخطأ والزلل ، ثم باب ذكر اللسان ، ثم باب الصمت ، ثم باب ... ثم يختم الجزء الأول بذكر « باب ما قيل في الخفاصر والعصى وغيرها » .

وهذه الأبواب التي عقدها في الجزء الأول منها ما يطول جداً ، ومنها ما يقصر جداً ، حتى لا يتمدى نصف صفحة من الطبعة التي بأيدينا ، وكل هذه الأبواب على النمط الذي ذكرناه لا تضم أشياء متشابهة متناسبة ، بل قد يعرض لما لاعلاقة بينه وبين عنوان الباب ، ففي كتاب الخفاصر والعصى يذكر أن العرب كانت تخطب بالخفاصر ، وتعتمد على القسي ، وتشير بالعصا والقنا ، ويذكر شيئاً من الشعر قيل في ذلك ، ثم إذا عرض لذكر البيعة الشاعر الخطيب ذكر سبب تسميته بالبعيث ، ثم استطراد إلى ذكر كثير من الشعراء ، وبين أسباب تلقيبهم بألقابهم ، ثم قال : ومن الخطباء وجعل يعدد أسماء من الخطباء ، ويذكر أقوالهم ، ونسى ما عقد له الباب وهو العصا والخفصرة ، وكان كلامه في عنوانه قليلاً جداً بحيث لم يعنون له .

ثم بدأ الجزء الثاني بقوله : أردنا أبقاك الله أن نبتدىء صدر هذا الجزء الثاني من البيان والتبيين بالرد على الشعوبية في طعنهم على خطباء العرب ، إذ وصلوا إيمانهم بالخفاصر ، واعتمدوا على وجه الأرض بالقسي والعصى ، ولكننا أحببنا أن نصدر هذا الجزء بكلام من كلام رسول رب العالمين والسلف المتقدمين

وقد اطرده الاستطراد ، والخروج من موضوع إلى موضوع حتى انتهى الجزء الثاني من الكتاب ، وهو لم يرد على الشعوبية في طعنهم على خطباء العرب مع أنه كما ترى في عبارته كان يجب أن يجعل ذلك بدء الجزء الثاني ، فزحزحه الاستطراد حتى

(١) الأئمة : جمع بين معنى مين .

جعله بدء الجزء الثالث ، فكان أوله هذا باب العصاة فيه بعض مطاعن الشيوعية على العرب في عاداتهم التي منها الإشارة ، بالعصى ، والاتكاء على أطراف القسي ، ولزوم الصائم ، والتحالف على النار ، والتعاقد على الملح ، ثم عقد كتاب الزهد ، فأورد فيه كثيراً من أعلام النسك ، وروى كذلك من كلامهم ومواعظهم ، وما روى من أحوالهم وأخلاقهم ، ثم عاد بعد ذلك يقول : ومما يكتب في باب العصا - ومما يزداد في باب ذكر العصى ، ثم عقد بعد ذلك باباً في دعاء الصالحين والأعراب ، ثم باباً في مقطعات من نوادر الأعراب وأشعارهم .

ولعلك قد تمثلت تمام التمثيل تلك الفوضى التي شاعت في هذا الكتاب ، وهي فوضى لزمتم كتب الأدب حيناً طويلاً ، فإن على نعلمة آلف المبرد الكامل ، وابن قتيبة عيون الأخبار ، ولكن هذا العيب أخذ يقل حتى صارت الكتب إلى نظام حسن ، وتبويب منسق ، وتفرغ من التبويب يتسع ويتشعب ، فوصل التأليف إلى أدق نظم في مثل كتاب : صبح الأعشى ونهاية الأرب ، ولا شك أن للزمن كما ذكرنا أثراً عظيماً فيما كان قديماً من اضطراب وما صار أخيراً من نظام .

والظاهرة التي تتجلى في كتاب البيان والتبيين مع كونه كتاب أدب هي أنه قد وضع فيه جلياً كل أنواع الثقافات التي تنفخ بها العرب إلى زمن الجاحظ ، فقيه ما يدل على أن العرب ترجوا عن الفرس والروم والهند ، وعرفوا تاريخ هذه الأمم ، ووقفوا على تاريخ مذاهبها الدينية ، وآرائها الفلسفية ، تعرف ذلك في كثير مما رواه من حكمة الفرس والهند وفلسفة الروم ، وما عرض له عند الكلام عن بشار من آراء التنوية . وما ذكره من مزاعم الشيوعية عند الرد عليهم ببيان فضائل العرب التي عدوها مذاماً ومقايح ، كما أنه على أساس قوى من الثقافة العربية الإسلامية : من رواية الشعر والخطب والاستشهاد بالقرآن ، وحديث رسول الله ، وذكر عادات العرب في قديم أيامها . وما صاروا عليه بعد إسلامهم .

كذلك يلاحظ أن هذا الكتاب من كتب الأدب هو أول كتاب جمع كثيراً من فنونه وضروب القول فيه ، فقد كانت كتب السابقين لا تشمل إلا على بحث من الأدب : كشعر شاعر ، أو قبيلة ، أو جمع جملة من كلام العرب كما فعل أبو عبيدة في كتابه أدعية العرب ، وكما فعل الأصمعي في كتاب الأراجيز ومعاني الشعر ، فكأن الجاحظ أول من أخرج للناس في الأدب كتاباً يجمع الشعر والنثر ، والخطب والأسجاع ، والنوادر والأدعية ، والحكمة والتاريخ ، إلى غير ذلك .

والكتاب بعد يعدّ أعظم وأوثق مصدر للخطباء جاهليهم وإسلاميهم ، كما أنه سجل كذلك لما نقل عنهم من كلامهم ، وكل من ألف في هذا الباب يروى عنه وينسب إليه .

ويعدّه ابن خلدون أحد كتب أربعة هي أصول فنّ الأدب وأركانه ، وهي : أدب الكاتب لابن قتيبة ، والكامل المبرّد ؛ والنوادر لأبي عليّ القالي ، وهذا الكتاب . وإن كان ابن خلدون قد بالغ في شأن بعض هذه الكتب ، كأدب الكاتب ، فإنه محقّ كلّ إحقاق فيما عداه .

مرض الجاحظ وموته

ذكروا في سبب مرضه بالفالج: أنه اجتمع مع يوحنا بن ماسويه الطبيب على مأدّة الوزير إسماعيل بن بلبل الوزير أحمد بن أبي دؤاد ، فقدم لهم سمك فأكلوا ثم مضى فامتنع يوحنا ، فقال أبو عثمان : لا يخلو أن يكون السمك من طبع اللبن أو مضادّ له ، فإن كان أحدهما ضدّ الآخر فهو دواء له ، وإن كانا من طبع واحد ، فلنحسب أننا أكلنا من أحدهما إلى أن اكتفينا ، فقال يوحنا : والله مالى خبرة بالكلام ، ولكن كل يا أبا عثمان ، وانظر

ما يكون غداً ، فأكل أبو عثمان انتصاراً لدعواه فقلج من ليلته ، فقال : هذه والله نتيجة القياس الحال .

وحدث للبرد قال : دخلت على الجاحظ في آخر أيامه ، فقلت له : كيف أنت ؟ فقال : كيف يكون من نصفه مفلوج ، لوحز بالناشير ما شعر به ، ونصفه الآخر يُنفّرس^(١) لو طار الثباب بقر به لآله . وأشدّ من ذلك ست وتسعون سنة .

وقال يوماً لطبيب يشكو إليه علته : اصطلحت الأضداد على جسدى : إن أكلت بارداً أخذ برجلي ، وإن أكلت حاراً أخذ برأسي .

ولا يعلم متى فلج ، ولا كم بقي مفلوجاً ؟ ولكنهم ذكروا أن المتوكل بعث إليه في السنة التي قتل فيها ، وهي سنة ٢٤٧ هـ ، وطلب أن يحمل إليه من البصرة ، فوجدوه لا فضل فيه ، وقال الجاحظ لرسول الخليفة : ما يصنع أمير المؤمنين بأمرئ ليس بطائل ، ذى شق مائل ، ولعاب سائل ، وعقل زائل ، ولون حائل ، فهذه ثمان سنوات من سنة ٢٤٧ هـ إلى ٢٥٥ هـ وهي سنة وفاته قد تتحقق فيها أنه مريض ، فكم مكث قبلها ؟ .

وما زال مفلوجاً والناس يزورونه ، وطلاب العلم يحضرون إليه ، وهو يؤلف بعض كتبه ، فقد ذكر أنه كان يؤلف البيان والتبيين وهو مريض . وكان كل من مرّ بالبصرة يقصده ويسمع كلامه حتى يتحدث بأنه جالس الجاحظ ، أوراها ، وكانوا يعدّون ذلك مفخرة كبيرة .

وقد ذكروا أنه لما حانت منيته سقطت مجلدات الكتب من رفّ كان ينام تحته ، فقضت على ما بقى فيه من ذماء ، فسجل هذا الحادث أن حياته كانت للعلم أولاً وآخرأ .

(١) من الترس ، وهو ورم ووجع في مفاصل الكمين وأصابع الرجلين .

مدى شهرة الجاحظ

إن أكثر النابغين إنما يشتهرون بعد مماتهم على حين يكونون في حياتهم مغمورين لا يكشف حقيقتهم إلا اللوت ، ولكن شهرة الجاحظ خرجت عن هذه القاعدة فاشتهر في حياته شهرة كان من آثارها ما مرّ بك من اعتداد الأندلسيين بكتبه ورفعهم قدر طالب العلم منهم بالمشرق إذا كان قد رأى الجاحظ وتلمذ له ، إلى غير ذلك من إعجاب المتوكل به وطلبه لتعليم أولاده أولاً ، ثم لمادمته ثانياً .

كذلك بلغ من شهرته بعد موته أن ألف أبو حيان التوحيدي كتاباً في بيان فضائله سماه : « تزييف الجاحظ » ، وقد ضاع هذا الكتاب فيما ضاع من الكتب ، ولكن الحوى نقل في معجم الأدباء عن أبي سعيد السيرافي : أنه حدثه بأن ثابت ابن قرّة الطبيب الفيلسوف قال : ما أحسد هذه الأمة إلا على ثلاثة : عرب بن الخطاب ، والحسن البصري ، والجاحظ ؛ وكان يقال : اتفق أهل صناعة الكلام على أن متكلمي العالم ثلاثة : الجاحظ ، وعلي بن عبيدة ، وأبو زيد البلخي ؛ وكان يقال له جاحظ خراسان ، كما كان ابن العميد من المعجبين بالجاحظ ، وكان يعجبه أن يلقب بالجاحظ الثاني ، وكان من عظيم تقديره له إذا طرأ عليه أحد من منتحلي العلوم ، ومصطنعي الآداب ، وأراد امتحان عقله سأله عن بغداد والجاحظ ، فإن وجده منفتحاً لمزايها ببغداد ، عارفاً بقدر رجالها ، قارئاً لشيء من كتب الجاحظ ، ارتفع في عينه ورضى عن أدبه . وكان ابن العميد يقول : كتب الجاحظ تعلم العقل أولاً ، والأدب ثانياً .

وبلغ من شهرته أن ابن الأخشيد على بن عيسى النحوي المتوفى سنة ٣٨٤ هـ ، وكان غاية في كل علم قال : ذكر الجاحظ في مقدمة كتاب الحيوان بعض كتبه ، فكان منها : « الفرق بين النبيّ والمثنى » ، و « دلائل النبوة » ، ثم أعاد في الجزء

الرابع ذكر كتاب « الفرق... » وأحببت أن أرى الكتّابين فلم أقدر إلا على أحدهما ، وهو « دلائل النبوة » ، وربما لقب بالفرق خطأ ، فلما أن حجبت أقت منادياً ينادى بعرفات حين اجتماع الناس : رحم الله من دلنا على كتاب الفرق بين النبیؐ والمُتنبیؑ للجاحظ ، فعاد المنادى بالخيبة ، قال ولكنني بذلك أبلغت نفسي عذرها .

وذكرت متنزهات الدنيا بين يدي ابن دريد ، فقال : هذه متنزهات العميون فأين أنتم من متنزهات القلوب ؟ قالوا : ماهي ؟ قال : كتب الجاحظ وأشعار المحدثين ونوادري أبي العيناء^(١) .

وبلغ من شهرة الجاحظ أن كثيراً من المؤلفين كانوا إذا أرادوا شهرة كتبهم نسبوها إلى الجاحظ ، فاستفادوا من ذلك إقبال الناس عليها وتقديرهم لها ، ومن هذه الكتب كتاب « المحاسن والأضداد » ، وأنت إذا نظرت فيه عرفت أنه لم يثر الجاحظ لأنه ليس إلا عبارات منقولة ، وأقوالاً منسوبة إلى أصحابها . ليس للمؤلف فيه أثر لكلمة أو فكرة . وليس عهدنا بالجاحظ إلا أن يظهر لقارئ كتبه ، ويدله على نفسه بروحه الخفيفة ، وظرفه المتتابع ، وعبارته القياضة ، وليس شيء من هذا في كتاب : (المحاسن والأضداد) . على أنك ترى فيه شعراً منسوباً إلى ابن المعتز ، والجاحظ قد مات ، وعمر ابن المعتز ست سنوات ، وهي سن لا تسمح أن يكون قائل الشعر المنسوب إليه إن صحت النسبة . على أن في أول الكتاب بعضاً من وصف الكتب والثناء عليها مما ورد في مقدمة كتاب الحيوان . وما عهدنا الجاحظ يكون ضعيف العبارة جامد الفكر حتى يعيد ذكر شيء سبق له أن كتبه في كتاب آخر ، وإن أعاد المعنى فهو جدير ألا يعيد اللفظ . ولكن المنقول هنا هو بنصه وفصه الذي ورد في كتاب الحيوان .

(١) قد أحصينا على وجه التفریب جميع ما تفرق في الكتب من نوادر أبي العيناء في الترجمة التي عقدناها في صفحتي ٩١ ، ٩٢ بذيل كتاب « هبة الأیام فيما ينطق بأبي تمام » « فارجع إليها هناك ففيها منة عظيمة » ودليل واضح على ظرف الرجل وخفة روحه .

وكذلك كتاب (سلوة الخريف ، بمنظرة الربيع والخريف) يدلك عنوانه المسجوع على النحل الظاهر كما تستدل على ذلك مما في داخله من ألفاظ التبجيل للملك المؤلف له كقوله : قوام الملك ونظام الدين . . ومن شعر منسوب لابن المعتز وابن الرومي ، وهما لم يكونا إلا بعد الجاحظ ، كذلك كتاب الحنين إلى الأوطان فيه نحو من ذلك وكتاب « الهدايا » ذكر ياقوت أنه مما نسب للجاحظ قديماً .

فهذه الكتب وأمثالها إنما كانت من فعل تجار الكتب « الوراقين » يحبون أن يستفيدوا من نسبة ما يجمعون إلى رجل مشهور كالجاحظ لئلا يكلوا الخبز باسمه .

والغريب أن الجاحظ كان في أوائل حياته ، وقبل أن يشتهر ينسب الكتب إلى غيره ليكون لها رواج ، فكما دان الناس دأوه ، وقد قال في ذلك :

« كنت أولف الكتاب الكثير للمعانى الحسن النظم ، وأنسبه إلى نفسى ، فلا أرى الأسماع تصفى إليه ، ولا الإرادات تتيّم نحوه . ثم أولف ما هو أقتص منه رتبة وأقل فائدة ، وأئجله عبدالله بن الققع ، أوسهل بن هرون ، أو غيرها من المتقدمين من صارت أسمائهم في المصنفين ، فيقبلون على كتبها ، ويسارعون إلى نسخها ، لا لشيء إلا لنسبتها للمتقدمين ، ولما يداخل أهل العصر من حسد من هو في عصرهم ومنافسته على الناقب التي عني بتشبيدها » .

مختارات من كلامه

تكلم عبد القاهر الجرجاني في مقدمة كتاب : « أسرار البلاغة » عن عناية قوم بالبديع وجناباتهم بذلك على المعنى ، فقال : إن أردت أن تعرف مقالا فيما ذكرت لك من أن العارفين بجواهر الكلام لا يرجون على هذا الفن إلا بعد الثقة بسلامة المعنى وصحته ، وإلا حيث يأمنون جنابة منه عليه ، فانظر إلى خطب الجاحظ في أوائل كتبه ،

ثم روى من قوله في أول كتاب الحيوان قوله : « جَنَّبَكَ اللَّهُ الشَّهْهَةَ ، وَعَصَمَكَ مِنَ الْحَيْرَةِ ، وَجَعَلَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ الْمَعْرِفَةِ سَبِيكًا . وَبَيْنَ الصِّدْقِ نَسَبًا ، وَحَبَّبَ إِلَيْكَ الثَّبْتَ . وَزَيَّنَ فِي عَيْنِكَ الْإِنْصَافَ . وَأَذَقَكَ حَلَاوَةَ التَّقْوَى ، وَأَشْعَرَ قَلْبَكَ عِزَّ الْحَقِّ ، وَأَوْدَعَ صَدْرَكَ بَرْدَ الْيَقِينِ ، وَطَرَدَ عَنْكَ ذُلَّ الْيَأْسِ ، وَعَرَّفَكَ مَا فِي الْبَاطِلِ مِنَ الذَّلَّةِ ، وَمَا فِي الْجَهْلِ مِنَ الْقِلَّةِ » .

قال الجرجاني : فقد رك أولاً أن يوفق بين الشهية والحيرة في الإغراب ، ولم ير أن يقرن الخلاف إلى الإنصاف ، ويشفع الحق بالصدق ، ولم يمن بأن يطلب لليأس قرينة تصل جناحه ، وشيئاً يكون رديفاً له لأنه رأى التوفيق بين الماعى أحقّ والموازنة فيها أحسن ، ورأى العناية بها حتى تكون أخوة من أب وأم ، ويذرها على هذا تنفق بالوداد على حسب اتفاقها بالميلاد أولى من أن يدعها لنصرة السجع ، وطلب الأوزان أولاد علة عسى ألا يكون بينها وفاق إلا في الظواهر .

ومن محاسن ما كتب الجاحظ يصف السكتب ، ويبين فضيلتها قوله في كتاب الحيوان :

السكتبان نعم الذُّخْرُ وَالْعُقْدَةُ^(١) ، ونعم الجليس والعُمْدَةُ ، ونعم النُّشْرَةُ^(٢) والنزهة ونعم المشتغل والحرفة ، ونعم الأنيس ساعة الوحدة ، ونعم المعرفة ببلاد الغربة ، ونعم القرين والدخيل^(٣) ، ونعم الوزير والنزيل ، والسكتب عاء مليء علماً ، وظرف حشى ظرفاً ، وإناء شحن مزاحاً وجداً ، إن شئت كان أبين من سحبان وائل ، وإن شئت كان أعيا من باقل ، وإن شئت فحكمت من نوادره ، وإن شئت عجبت من غرائب فرائده ، وإن شئت ألهتك طرائقه ، وإن شئت أشجبتك^(٤) مواعطه ، ومن لك بواعظ مله ، وبزاجر مُقَرٍّ ، وبناسك فاتك ، وبناطق أخرس ، وبيارد حارّ ، ومن لك

(١) العُقْدَةُ : المقار .

(٢) النُشْرَةُ : رقية يبالغ بها المجنون أو المريض .

(٣) الدخيل : الصديق المداخل .

(٤) أشجبه كآشجبه : أحزنه .

بشيء يجمع الأول والآخر ، والناقص والوافر ، والخطي والظاهر ، والشاهد والغائب ، والرفيع والوضيع ، والغث والسمين ، والشكل وخلافه ، والجنس وضده ؟ وبعد : فما رأيت بستاناً يحمل في رُذن^(١) ، وروضة تقلب في حجر ، وناطقاً ينطق عن الموتى ، ويترجم عن الأحياء ، ومن لك بمؤنس لا ينام إلا بنومك ، ولا ينطق إلا بما تهوى ، آمن من الأرض ، وأكتم للسر من صاحب السر ، وأحفظ للوديمة من أرباب الوديمة . . . ، ولا أعلم جازاً أبر ، ولا خليطاً أنصف ، ولا رفيقاً أطوع ، ولا معلماً أخضع ، ولا صاحباً أظهر كفاية ، ولا أقلّ جنابة وإملاً ، ولا أكثر أعجوبة وتصرفاً ، ولا أقلّ تصلفاً وتكلفاً ، ولا أبعد من مرأه ، ولا أترك لشغب ، ولا أزهد في جدال ، ولا أكف عن قتال ، من كتاب . . . ولا أعلم قريباً أحسن موافاة ، ولا أعجل مكافأة ، ولا أحضر معونة ، ولا أقلّ مؤونة ، ولا شجرة أطول عمراً ، ولا أجمع أمراً ، ولا أطيب ثمرة ، ولا أقرب مجتنى ، ولا أسرع إدراكاً ، ولا أوثق في كل إبان من كتاب . . . ولا أعلم نتاجاً في حادثة سنه ، وقرب ميلاده ، ورخص ثمنه ، وإمكان وجوده يجمع من التداير العجيبة ، والمعلوم الغريبة ، ومن آثار العقول الصحيحة ، ومجود الأذهان اللطيفة ، ومن الحكم الرفيعة ، والمذاهب القويمة ، والتجارب الحكيمة ، ومن الاخبار عن القرون الماضية ، والبلاد المتنازحة ، والأمثال السائرة ، والأمم البائدة ما يجمع لك الكتاب . والكتاب هو المجلس الذي لا يطريك ، والصديق الذي لا يقلبك ، والرفيق الذي لا يملك ، والمستريح الذي لا يؤذك ، والجار الذي لا يستطبك والصاحب الذي لا يريد استخراج ما عندك بالملق ، ولا يعاملك بالمكر ، ولا يتخذ منك بالنفاق ، والكتاب هو الذي إن نظرت فيه أطال إمتاعك ، وشحذ طابعك ، وبسط لسانك ، وجود بيانك ، ونغم أفاظك ، وعمر صدرك وحبك تعظيم العوام ،

ومنحك صداقة الملوك . يطيعك بالليل طاعته بالنهار ، وفي السفر طاعته في الحضر ، وهو المعلم الذي إن افتقرت إليه لم يَحْتَرِكْ^(١) ، وإن قطعت عنه المادة لم يقطع عنك الفائدة ، وإن عزلت لم يدع طاعتك ، وإن هبت عليك ريح أعدائك لم ينقلب عليك ، ومتى كنت متعلقاً به ، ومتصلاً منه بأذى حل لم تضطرك معه وحشة الوحدة إلى قرين السوء ، وإن أمثل ما يقطع به الفراغ^(٢) نهارهم ، وأصحاب الكفايات ساعات ليلهم نظر في كتاب لا يزال لهم فيه أبداً ازدياد في تجربة وعقل ومروءة ، وصون عرض ، وإصلاح دين ، ومال ، ورَبٍّ^(٣) ، صنيعة ، وابتداء إنعام ، ولو لم يكن من فضله عليك ، وإحسانه إليك إلا منعه لك من الجلوس على بابك ، ونظرك إلى المارّة بك مع ما في ذلك من التعرض للحقوق التي تلزم ، ومن فضول النظر . وملابسة صفار الناس ، ومن حضور ألقائهم الساقطة ، ومعانيهم الفاسدة لكان في ذلك على صاحبه أسيف النعمة وأعظم المنة .

ومن إخوانياته كتابه إلى إبراهيم بن المدبر .

ما ضاء لي نهار ، ولا دجأ لي ليل ، منذ فارقتك إلا وجدت الشوق إليك ، قد حزن في كبدي ، والأسف عليك قد أسقط^(٤) في يدي ، والنزاع نحوك قد خان جلدي ، فأنا بين أحشاء^(٥) خافقة ، ودمة مُهْرَاقَة ، ونفس قد ذبلت بما تجاهد ، وجوانح قد بايت^(٦) بما تكابد ، وذكرت وأنا على فراش الارتماض^(٧) ممنوع من لذة الاعتماض قول بشار :

(١) حظه (كضرب) : أذله .

(٢) الفراغ : جمع فارغ ، وهو الخالي من العمل .

(٣) الرب : التنمية .

(٤) في الأساس سقط في يده (بالبناء للفاعل) : ندم ، والهزّة هنا للتعدي أي أن الأسف يجلي أسقط في يدي : أي أنتم .

(٥) في الأصل حفا ، وليس في كتب اللغة ما يبرر أن تكون حفا مؤنثة لذلك جعلناه أحشاء .

(٦) على الميء (كرضي) : أصابه البلى وذهبت جدته .

(٧) الارتماض : من قولهم ارتمض من كذا إذا اشتد عليه وأقلته .

إِذَا هَتَفَ الْقَمَرِيُّ نَازِعِي الْهَوَىٰ بِشَوْقٍ فَلَمْ أَمْلِكْ دُمُوعِي مِنَ الرَّجْدِ
أَبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُفَرَّقَ بَيْنَنَا وَكُنَّا كَاءَ الْمُزْنِ شَيْبَ مَعَ الشَّهْدِ
لَقَدْ كَانَ مَا بَيْنِي زَمَانًا وَبَيْنَهَا كَمَا كَانَ بَيْنَ الْمِسْكِ وَالْمَنْبَرِ الْوَرْدِ^(١)
فانتظم وصفنا ، اكننا نتماشى عليه ، ونجربى فى مودتنا إله فى شعره هذا . وذكرت
أيضاً مارماني به الدهر من فرقة أعزائي من إخواني الذين أنت أعزهم ويمتحنني بمن نأى
من أحبائي وخلصاني^(٢) الذين أنت أحبهم وأخلصهم ، ويُجَرِّعُنِيهِ من مرارة نأيمهم
وبعد لقائهم ، وسألت الله أَنْ يَقْرِنَ آيَاتِ سِرِّهِ بِالقرب منك ، ولين عيشي
بسرعة أوبتك .

وكتب إلى قلبى المغربى يتشوق : والله يا قلبى لولا أن كبدى فى هواك مقروحة ،
وروحى بك مجروحة ، لساجلتك هذه القطيعة ، وماددتك حبل المصارمة ، وأرجو الله
تعالى أن يديل صبرى من جفائك ، فيردك إلى مودتى ، وأنف القلى راغم ، فقد طال
العهد بالاجتماع حتى كدنا تننا كره عند اللقاء .
وكتب إلى الفتح بن خاقان فى يوم عيد :

أخترنى الملة عن الوزير (أعزّه الله ، فحضرت بالدعاء فى كتابى لبينوب عنى
ويعمر ما أخلته العوائق منى ، وأسأل الله تعالى أن يجعل هذا العيد أعظم الأعياد
الساقية بركة على الوزير ، ودون الأعياد المستقبلة فيما يُحِبُّ وَيُحَبُّ لَهُ ، ويقبل ما توسل
به إلى مرضاته ، ويضاعف الإحسان إليه على الإحسان منه ، ويمتعه بصحبة النعمة ،
ولباس العافية ، ولا يره فى مسرة قصاً ، ولا يقطع عنه مزيداً ، ويجعلنى من كل
سوء فداءه ، ويصرف عيون الغير عنه ، وعن حظى منه .

وكتب يستنجز : أما بعد فقد رَسَفْنَا فى قيود مواعيدك ، وطال مقامنا فى سجون

(١) المنبر هنا : الزعفران ، والورد : اسم له ، وأصله وصف كالأسد ورد .

(٢) خلصان : جمع خلص (بالكسر) وهو المخلص ، ويجمع على خلصاء أيضاً .

مَظْلَك فَاطْلُقْنَا (أَبْقَاكَ اللَّهُ) مِنْ ضَيْقِهَا ، وَشَدِيدِ غَمِّهَا بِنَعْمٍ مِنْكَ مُثْمَرَةً ، أَوْ
« لَا » مُرِيحَةً .

مجالس العلم والمناظرة

إن المتتبع لتاريخ هذه الدولة يجد أن العلم فيها كان جليل القدر رفيع الشأن دعا
إليه الخلفاء ، وتنافس فيه الأمراء ورغل به أهله في حلل الثراء .

وقد كانت له حركة دائبة منذ ظهرت هذه الدولة ، فهذا الخليفة أبو جعفر المنصور
يحجج ، فيدعو الإمام مالك بن أنس إلى وضع الموطأ ، ويرسم له خطته حتى يقول مالك
لقد علمني التأليف ، ثم هو يستدعي ابن المقفع ، فيأمره بأن يترجم له إيساغوجي وغيره ،
ويستدعي جرجيس بن بختيشوع رئيس أطباء جنديسابور ، فيحمله على أن يترجم له في
الطب ، ويعطيه على مجلده عشرة آلاف دينار ، وهذا غيره من الخلفاء : كالرشيد ،
والمأمون ، ووزرائهم ، كالبرامكة ، والفضل بن سهل وغيرهم يقربون منهم علماء اللغة ،
وشعراء العربية ، وتراجمة العلوم ، ويجودون في سبيل ذلك بالمعطاء ، ولا يكتفون بالحث
وبعث المهتم ، بل يكونون هم أنفسهم أدباء شعراء علماء ناظرين في كل علم مناظرين
فيه أهله ، فقد حكوا عن المأمون أنه كان يجمع العلماء من كل فن ، ويناقشهم واحداً
واحداً ، فرمما غلبهم جميعاً .

ثم يأتي من بعد هؤلاء خلف ، وهم ملوك الدول الناشئة في الدولة العباسية فيتشبهون
بالخلفاء ، ويسترضون العامة بمثل أعمالهم ، ويبالغون في تقريب العلماء ، والاستئثار
بمشهورهم ، ويطلبون إليهم تأليف الكتب برسمهم ، فتكثر الكتب ، ويعظم شأنها
وتعلو قيمتها حتى يعطى سيف الدولة بن حمدان أبا الفرج الأصبهاني ألف دينار ثمناً
لكتاب الأغاني ويمتد إلى غيره .

فهذه حال تجعل الناس يحرصون على العلم ، وينضون في سبيله مطايا الطلب ، ويقاسون الأسفار البعيدة طلباً لحديث ، أو رغبة في لقاء راوية . كما أنهم داخلوا الأعراب في باديتهم ، وعاشروهم في أخيتهم طلباً للغة وضبطاً لألفاظها ، وأتباعاً لفصيحها ، فراجت بذلك سوقهم عند الخلفاء ، ووطئوا أعتابهم بهذا العلم ، وأدانت مجالسهم ، بل استحقوا أن يقوم الخلفاء بخدمتهم توقيراً للعلم ، فقد صلب الرشيد الماء على يدي أبي معاوية الضرير وهو يغسلهما ، وإذا كان خلفاء بني أمية قد قربوا الشعراء ورواة اللغة ، وأهل الأخبار ، فذلك منهم أشبه بأن يكون سلوة واستقراراً . وبأباً من أبواب المنادمة لا يدعو إليه في رأيهم خدمة للدين ، أو إحياء لسنته ، أو إبقاء على القرآن حتى لا يستغلق معناه على الناس . بدليل أن اهتمامهم كان من ناحية واحدة هي ناحية الرواية لأُمور الجاهلية ، والإحياء لأدائها ، فهم قد بذلوا في هذه السبيل دون غيرها ، ولم ترمِ قلوبهم محدثاً ، أو أحسنوا إلى فقيه ، وإنما كان هؤلاء يجتهدون في عملهم إحياء للدين ، وطلباً للثواب من الله كما كان يفعل ابن عباس وغيره من الصحابة والتابعين من بعدهم .

أما بنو العباس لمخاديتهم إلى ذلك ورع ورغبة في إحياء السنة ، وحرص على القرآن ثم مسامرة للندية ، واستكمال للنواحي ، فتجردوا في هذا ، وبذلوا الكثير من المال ، فكان لمطالعتهم أثر عظيم في التشجيع في سبيل العلم حتى رأيناه متعلق كل همه ، ومناط كل أمل ، وحتى رأينا الناشئ ينشأ في المهنة الحفيرة ، فما هو إلا أن يحسن باستطاعته للفاخرة في هذا التيار حتى تراه قد غامر فيه ، فإذا هو يوماً ما شاعر الخليفة ، أو قاضيه أو نديمه ، وإذا هو يثرى من عطائه ، ويصير من ذوى الأحساب ، ولا حسب له إلا علمه وأدبه ، فهذا أبو نواس كان غلام عطار بالبصرة ، ثم صار شاعر الخلافة ، وكذلك أبو العتاهية كان يصنع الجرار ويبنيها على ظهره بالكوفة ، ثم يصير من كبار الشعراء . ويُدلى على الرشيد فلا يجيبه إلى قول الشعر فيحبسه ويضربه ، والزجاج كان يخرط

الزجاج ، ثم اشتهى تعلم النحو فلزم المبرد ، وكان لا يعلم إلا بأجر وكان كسب الزجاج درهما ونصفا في اليوم ، فاشتراط المبرد أن يعطيه درهما في كل يوم إلى أن يفرق بينهما الموت ، وقد وفى بتعهده فأخلص المبرد في تعليمه ، ثم صار الزجاج يعلم القاسم بن عبيد الله الذى صار وزير المعتضد ، فكان ذلك سبب ثراء الزجاج ، وهذا أبو تمام كان يسقى الماء بالجرة في جامع القسطنطين ، ثم هو يحل بموضع التَّحِلَّة من رجال الدولة ، فيتولى بريد الموصل ، والجاحظ كان يبيع الخبز والسكك بسوق سيحان ، ثم يصير صديق الوزراء ، وندبم الخلفاء ، ثم هو يعيش أرفه عيش من كتبه التى يتقاضى عن الواحد منها آلاف الدنانير ، إلى غير هؤلاء ممن رفهم العلم .

من أجل هذا كثرت مجالس العلم وتعددت حلقاته ، وشاعت المناظرة فيه ، فكنت ترى هذه المجالس ، وتلك المناظرات فى المساجد الجامعة كالخرميين الشرفيين ، والمسجد الأقصى ، ومسجد بنى أمية بدمشق ، ومساجد البصرة والكوفة ومصر : كالمجامع الأزهر ، ومسجد أحمد بن طولون ، وجامع الحاكم ، كذلك مجالس العلم فى دور الخلفاء والأمرأ ، وفى الأسواق العامة كالربد بالبصرة ، والكُناسة بالكوفة ، والمُعَيق بالمدينة ، وفى أندية الشعراء ببغداد وغيرها ، وكان للشعراء مجتمعات كثيرة فى مقاصر القصور ، وحانات الخمر ، والأديرة ، والرياض والبساتين ، وشواطئ البرك والأنهار .

وقد كانت المناظرات متنوعة ، فمنها نوع هادئ لا خطر منه على الاجتماع لأنه لم يكن يتعلق بالفقيدة الدينية التى يستهين المرء فى الدفاع عنها بروحه ، وذلك مثل مناظراتهم فى النحو والأدب وفهم الشعر وتفسيره ، أما المناظرات الحادة التى كانت تتعلق بالعقائد ، فقد كانت خطيرة تراقى فيها الدماء فى كثير من الأحيان كفتنة خلق القرآن التى أشعل جذوتها للمؤمن ، واستباح فيها الدماء ، والأذى لأولياء الله من العلماء ، وقد تبعه فى طريقه المعتصم ، ثم ابنه الواثق حتى زال عن الناس شرها أيام التوكل ولكنه بين حين وآخر كانت الفتن تهبُّ فى بغداد بين الحنابلة المتشددين فى دينهم وبين أصحاب الآراء

المتطرفة ممن قرءوا الفلسفة وولعوا بأرائها ، وكان العامة يساهمون في هذه المناظرات فتصير إلى نضال وكفاح لا يقف عند الحجة بل ينتهي إلى القتال .

أمثلة من المناظرات الأدبية

١ — قيل كتب الرشيد في ليلة من الليالي إلى أبي يوسف صاحب أبي حنيفة :
أفتنا حاطك الله في هذه الآيات :

فَإِنْ تَرَفُّقِي يَا هِنْدُ فَالْزَفَقُ أَيْمَنُ وَإِنْ تَحَرَّقِي يَا هِنْدُ فَالْخُرْقُ أَشْأَمُ
فَأَنْتِ طَلَّاقٌ وَالطَّلَاقُ عَزِيمَةٌ ثَلَاثًا وَمَنْ يَحْرُقُ أَعَى وَأَظْلَمُ

فقد أنشد البيت عزيمة ثلاث بالرفع ، وعزيمة ثلاثاً بالنصب . فكم تطلق بالرفع ، وكم تطلق بالنصب ؟ قال أبو يوسف : قلت في نفسى هذه مسألة فقهية نحوية إن قلت فيها بظنى لم آمن الخطأ ، وإن قلت لا أعلم قيل لى كيف تكون قاضى القضاة ، وأنت لا تعرف مثل هذا ، ثم ذكرت أن أنا الحسن حمزة بن على الكسائى معى فى الشارع ، قلت ليكون رسول الخليفة بحيث يكرم ، وذهبت فدخلت على الكسائى وهو فى فراشه ، فأقرأته الرقة ، فقال لى خذ الدواة واكتب : أما من أنشد البيت بالرفع ، فإنه طلقها واحدة ، وأنبأها أن الطلاق لا يكون إلا بثلاثة ولا شىء عليه . وأما من أنشد عزيمة ثلاثاً ، فقد طلقها وأبأها لأنه قال : أنت طالق ثلاثاً . فأفندت الجواب فحملت إلى آخر الليل جواز وصلات فوجهت بالجميع إلى الكسائى .

٢ — قال حماد بن إسحق عن أبيه قال كنا عند الرشيد فحضر الأصمى والكسائى فسأل الرشيد عن بيت الراعى :

قتلوا ابن عفان الخليفة مُحَرِّمًا ودعا فلم أرَ مثله مُحَذِّدًا وَلَا

فقال الكسائى : كان قد أحرم بالحج ، فضحك الأصمى وتهاقفاً^(١) ، فقال الرشيد :

(١) التهاق : ضحك النساء خاصة ، أو ضحك فى فحور كضحك المستزى .

ما عندك؟ قال: والله ما أحرم بالحج، ولا أراد أيضاً أنه دخل في شهر حرام كما يقال أشهر وأعام إذا دخل في شهر أو عام. فقال الكسائي: ما هو إلا هذا، وإلا فالعنى بالاحرام. قال الأصمعي: تخبرني عن قول عدى بن زيد:

قتلوا كسرى بلبيل محرماً فتولى لم يمتع بكفن
أى إحرام لكسرى، فقال الرشيد: فالعنى؟ قال يريد أن عثمان لم يأت شيئاً
يوجب تحليل دمه، فقال الرشيد: يا أصمعي ما نطاق في الشعر.

٣ — قال يحيى بن المبارك: كنا في مجلس أبي عمرو بن العلاء، فجاء عيسى
ابن عمر الثقفي، فقال: ماشيء بلغني عنك أنك تجيزه. قال: وما هو؟ قال: بلغني أنك
تجيز ليس الطيب إلا المسك بالرفع، فقال له أبو عمرو: هيهات نمت وأدب الناس، ثم
قال لي أبو عمرو: تعال أنت يا يحيى، وقال لخلف الأحر: تعال أنت يا خلف امضيا إلى
أبي مَهْدِيَّة، فلقناه الرفع فإنه يأبى وامضيا إلى المنتجع بن بهان التميمي، فلقناه النصب
فإنه يأبى. قال: فضينا إلى أبي مَهْدِيَّة، فوجدناه قائماً يصلي، فلما قضى صلاته أقبل
علينا، فقال: ما خطبكما؟ قلت جئناك لنسألك عن شيء من كلام العرب، فقال:
هاتياه، فقلنا: كيف تقول ليس الطيب إلا المسك، قال: أتامراني بالكذب على
كبر سني فأين الزعفران وأين الجاوي، فقال له خلف الأحر: ليس الشراب إلا العسل،
فقال: فما تفعل سودان حجر؟ ما لهم غير هذا التمر، فلما رأيت ذلك قلت له: كيف
تقول: ليس ملاك الأمر إلا طاعة الله، فقال: هذا كلام لا دخل فيه ليس ملاك الأمر
إلا طاعة الله والعمل بها ونصب فلقناه الرفع فأبى، فكتبنا ما سمعنا منه، ثم جئنا إلى
المنتجع، فقلنا له كيف تقول: ليس الطيب إلا المسك ونصبنا، فقال: ليس الطيب
إلا المسك ورفع، وجهدنا به أن ينصب فلم ينصب، فرجعنا إلى أبي عمرو وعنده عيسى
ابن عمر لم يرح بعد، فأخبرناه بما سمعنا، فأخرج عيسى خاتمه من يده، فدفعه إلى
أبي عمرو وقال: بهذا سدت الناس يا أبا عمرو.

٤ — حدث النَّصْر بن سُمَيْل قال: كنت أدخل على المأمون في سمرة، فدخلت عليه ليلة فدار الحديث على ذكر النساء، فقال المأمون: حدث هشام عن مجاهد عن الشعبي عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا تزوج الرجل المرأة لدينها وجهها كان فيها سداد من عوز « فأورده بفتح السين » قلت: صدق يا أمير المؤمنين هشام، حدثنا عوف بن أبي جميلة عن الحسن عن علي كرم الله وجهه عن رسول الله: إذا تزوج الرجل المرأة لدينها وجهها كان فيها سداد من عوز، « وأوردها بكسر السين »، وكان المأمون متكئاً فاستوى جالساً وقال: يا نصر، كيف قلت سداد؟ قلت نعم، لأن السداد هنا لحن. قال: أو تلحنني؟ قلت: إنما لحن هشام وكان لحناً فتبع أمير المؤمنين لفظه قال: فما الفرق بينهما؟ قلت: السداد « بالفتح » القصد في الدين والسبيل، و « بالكسر » البلفة، وكل ما سددت به شيئاً فهو سداد. قال: أو تعرف العرب ذلك؟ قلت: نعم، هذا العَرَجِيُّ يقول:

أضاعوني وأنى فقى أضاعوا ليوم كريهة وسدادٍ تُفَرِّ

قال المأمون: قبح الله من لا أدب له وأطرق ملياً، ثم قال: ما حالك يا نصر؟ قلت: أَرِيضَةٌ لِي بِمَرِّ أَنْصَابِهَا وَأَعْمَزُهَا « أشرب صبايتها ». قال: أفلا أفيدك مالا معها؟ قلت: إني إلى ذلك لاحتاج. قال: فأخذ القرطاس وأنا لا أدري ما يكتب، ثم قال: كيف تقول في الأمر من أن يُتَرَبَّ الكتاب^(١)؟ قلت: أتربه. قال فمن الطين. قلت: طينه. قال: فما هو؟ قلت: مَطِينٌ. قال: هذه أحسن من الأولى. ثم قال: يا غلام تبلغ به إلى الفضل بن سهل. قال: فلما قرأ الفضل الكتاب. قال: يا نصر، إن أمير المؤمنين أمر لك بخمسين ألف درهم فما كان السبب؟ فأخبرته ولم أكذبه، قال

(١) نرى أنه لابد من قراءة الفعل (يترب) بالبناء المجهول حتى لا يظهر نوعه أو ثلاثي أم رباعي فيكون للسؤال وجه.

لحنت أمير المؤمنين ؟ قلت : كلا إنما لحن هشام ثم أمر لي الفضل من خاصة ماله بثلاثين ألف درهم ، فأخذت ثمانين ألفا بحرف استفيد مني .

٥ — عن أبي عبيدة معمر بن المثنى قال : أرسل إلى الفضل بن الربيع أن أقدم عليه ببغداد ، فلما قدمتها استأذنت عليه ، فأذن لي وهو في مجلس له طويل عريض فيه بساط واحد قد ملأه ، وفي صدره فرش عالية ، لا يرتقى إليها إلا على كرسى وهو جالس عليها ، فسلمت عليه بالوزارة ، فردّ وضحك إليّ واستدناني حتى جلست على فرشه . ثم سألني وألطفني وباسطني ، وقال : أنشدني فأنشده ، فطرب وضحك . وزاد نشاطه ، ثم دخل رجل في زى الكتاب له هيئة ، فأجلسه إلى جانبي وقال له : أتعرف هذا ؟ قال لا . قال هذا أبو عبيدة علامة أهل البصرة أقدمناه لنستفيد من علمه ، فدعا له الرجل وقرظه لعمله هذا ، وقال لي : إني كنت إليك مشتاقا . وقد سألت عن مسألة ، أفأذن لي أن أعرفك إياها ؟ قلت هات . قال : قال الله عز وجل : « طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُئُوسُ الشَّيَاطِينِ » ، وإنما يقع الوعد والوعيد بما قد عرف مثله ، وهذا لم يعرف . قلت : إنما كلم الله تعالى العرب على قدر كلامهم . أما سمعت قول امرئ القيس :

أَيَقُولُنِي وَالْمَشْرِفِيُّ مُضَاجِيحِي وَسَنُونَةُ زُرُقٍ كَأَنِّيَابٍ أَغْوَالِي

وهم لم يروا النول قط ولكنهم لما كان أمر النول يهولهم أوعدوا به .

٦ — قال الأصمعي يمشي إلى الأمين ، وهو ولي عهد فصرت إليه ، فقال إن الفضل ابن الربيع يحدث عن أمير المؤمنين أنه يأمر بحملك إليه وكان بالرقعة يومئذ ، فجهزت وحملت إليه ، فلما وصلت استرحت ثلاثة أيام ثم أدخلني الفضل بن الربيع على الرشيد ، فاذا هو جالس منفرد فسلمت فاستدناني وأمرني بالجلوس فجلست فقال يا عبد الملك وجهت إليك بسبب جارتين أهديتا إليّ قد أخذتا طرفا من الأدب أحببت أن تبور ما عندهما وتشير فيهما بما هو الصواب ثم استدعى الجاريتين فسألت احدهما عن حروف من القرآن

فأجابني كأنها تقرأ من كتاب وسألها عن النحو والعروض والأخبار فساقت ثم
سألها هل تقرأين الشعر فاندفعت تقول :

يَا غِيَاةَ الْبِلَادِ مِنْ كُلِّ مَحَلٍّ . مَا يُرِيدُ الْعَبَادُ إِلَّا رِضَاكَ
لَا وَمَنْ شَرَفَ الْإِمَامَ وَأَعْلَى مَا أَلَاعَ إِلَهَ عَبْدَ عَصَاكَ

فقال يا أمير المؤمنين مارأيت امرأة في سنك^(١) رجل مثلها ، وسأل الأخرى فوجدها
دونها وبعد حديث طويل وسمي مع الخليفة أمر له بمائة ألف درهم ، وأمر له الفضل
بعشرة آلاف وأشركته الجارية الأولى في عطائها .

٧ — حكى أبو العباس المبرد قال : قصد أبا عثمان المازني رجل من أهل النعمة ليقرأ
عليه كتاب سيدييه وبذل له مائة دينار على تدريسه فامتنع أبو عثمان وأضرب على رده
قال قلت له جعلت فداك أترد هذه النفقة مع فائقك وشدة اضائقك . قال ان هذا
الكتاب يشتمل على ثلثمائة ، وكذا وكذا آية من كتاب الله ولست أرى أن أتمكن منها
ذميا غيره على كتاب الله وحمية له . قال فاتفق أن أشخص إلى الواثق ، وكان السبب
في ذلك أن جارية له أغنت :

أَظْلُمُ إِنِّ مُصَابِكُمْ رَجُلَا أَهْدَى السَّلَامَ تَحِيَّةَ ظُلْمُ

فرد عليها بعض الناس نصها رجلا وتوهم أنه خبر إن ، وليس كذلك وإنما هو معمول
لمصابكم ، لأنه في معنى أصابتكم وظلم خبر إن . فقالت الجارية لا أقبل هذا ، وقد قرأته
على أعلم الناس بالبصرة أبي عثمان المازني ، فلما دخل المازني على الخليفة . قال له من
خلفت وراءك؟ قال له خلفت أختي أصغر مني أقيمها مقام الولد فقال : ما قالت لك حين
خرجت قلت طافت حولي . وقالت وهي تبكي أقول لك يا أخي ما قالت بنت الأعشى
لأبيها وهو :

(١) للسك : الجلد أو خاس بالسخلة (وهي ولد الشاة ما كان)

تَقُولُ ابْنِي حِينَ جَدَّ الرِّحِيلُ أَرَانَا سَوَاءً وَمَنْ قَدْ سَمِعَ (١)
أَبَانَا فَلَا رِمْتَ مِنْ عِنْدِنَا فَإِنَّا بَعْضُهُمْ إِذَا لَمْ تَرْمَ
تَرَانَا إِذَا أَضْمَرْنَاكَ الْبِلَادُ نَجْشِي وَتَقْطَعُ مِنَّا الرِّحِمَ

قال فما قلت لها ؟ قال : قلت أقول لك يا أخية ما قال جرير لزوجته أم حُرْرة :

ثَبِّقِي بِاللَّهِ لَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ وَمِنْ عِنْدِ الْخَلِيفَةِ بِالْبَجَاحِ

فقال : لاجرم إنك ستنجح ، وأمر له بثلاثين ألف درهم .

وفي غير هذه الرواية أنه لما دخل عليه قال له يا اسمك ؟ قال : المازني أراد أن يعلمني معرفته ابدال الباء مكان الميم في هذه اللفظة ، فقلت بكر بن محمد المازني ، فقال مازن بن شيبان ، أم مازن بنى تميم ؟ قلت : مازن بنى شيبان . قال حدثنا ، قلت : يا أمير المؤمنين هيبتك تمنعني ، وقال الراجز :

لَا تَقُولُواهَا وَادُلُّوْهَا دُلُّوْا إِنْ مَعَ الْيَوْمِ أَخَاهُ غَدُوْا

قال فسرّه . قلت لا تقولوها : لاتمنعوا بها في السير ، يقال : قلت إذا سرت سيرا عنيّ ، ودلوت : إذا سرت سيرا رفيقاً ، ثم أحضر التوزي ، وكان في دار الواثق ، وكان قد قال : إن مصابكم رجل توها أنه خبر إن ، فقال له المازني : كيف تقول إن ضربك زيدا ظلم . قال التوزي : خبر ، وفهم للسألة :

٨ — سئل المازني بحضرة للتوكل عن قوله تعالى : « وَمَا كَانَتْ أُمَّكَ بَغِيًّا »

فقال له كيف حذف التاء وبقي فاعيل ، وفاعل إذا كان بمعنى فاعل لحقته التاء نحو فتى ، وفتية ؛ فقال : إن بغيا ليست بفاعل ، وإنما هي فَعُول بمعنى فاعلة لأن الأصل فيها بَقْوَى ، ومن أصول التصريف إذا اجتمعت الواو والياء والسابق منهما ساكن

(١) يتم (كلم وضرب) : صار يتيا .

قلبت الواو ياء ، وأدغمت الياء في الياء كما قالوا شويت شيئاً ، وكويت الدابة كيتاً ، فعلى هذه القضية بقى ، ووجب حذف التاء منها لأنها بمعنى باغية كما تحذف من صبور بمعنى صابرة .

المناظرات في العقائد

تسربت إلى المسلمين آراء لم يرضاها السلف الصالح ، وكان ذلك قبل أن يترجم شيء من العلوم ، فقد كانوا في العصر الأموي يختلفون بين شيعة ومعتزلة ومرجئة وجماعية ، ولبعض هذه الفرق آراء تطرفوا فيها وغلوا ، وإنما كان منشأ هذا أن الإسلام دعا إلى توحيد الله من طريق النظر في آثاره ، وتلك حكمة من الشارع ليؤمن من آمن عن بينة ، وليظل باب الإيمان مفتوحاً لمن ضل سواء السبيل حيناً ، حتى إذا ثاب إلى رشد ، ونحكم فكره كف عن غيه ، ودخل في الإسلام مقتنعاً بصحته ، فيستطيع الدفاع عن عقيدته ، ولكن قوما أساءوا استعمال هذه الحرية فجروا وراء مزاعمهم فضلوا الطريق . كذلك كان دخول كثيرين في الإسلام من أهل الديانات الأخرى داعياً إلى مزجهم معتقداتهم القديمة بدياتهم الجديدة ، فحدثت لهم شبه وشاعت بين إخوانهم من المسلمين ، أو هم تعمدوا إفساد الدين بإفساد أصوله ، فكل هذه العوامل اجتمعت ، فكان من آثارها ما كان من اقتران المذاهب في العقائد حتى كان بعضهم يكفر بعضاً ، وقد كان جدال في هذه العقائد في العصر الأموي حتى أن القول بخلق القرآن كان يقوله الجهمي مربي مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين ، ولكن هذا الجدل اتخذ مظهر الحدة في عهد الدولة العباسية ، وقد ساعد على ذلك إطلاق الخلفاء العباسيين الحرية للناس في تكفيرهم واعتقادهم ما لم يمس ذلك خلافتهم حتى إذا رأوا سوء أثر هذه الحرية عادوا يتشددون ، وكذلك كان من الأسباب ضعف الإيمان

عند بعض ، واستيلاء الآراء الفلسفية على عقول بعض ، وشدة الورع ، والتحرج في الدين عند من ظالوا على نهج السلف الصالح محاذرين الوقوع في الإبداع ، ومجانبيين كل ما يدينهم من الشبهة . فالتشدد من هؤلاء ، وإطلاق العنان^(١) للفكر من أولئك وسع مسافة الخلف حتى كانت فتن ، وسالت دماء ، وأبيحت ذمم ، وأقوى ما تكون المحنة في ذلك إذا دان صاحب السلطان برأى ، فإنه يتخذ من قوة سلطانه عوناً على مخالفته في رأيه ، فيشتد الكرب بالناس ، وتكثر للمآسى المظلمة .

فهذه محنة القول بخلق القرآن أودى فيها كثير من العلماء من أهل الورع : بالحبس والضرب ، بل لقد قتل المعتصم منهم كثيرين ، ولكها مع ذلك تعتبر فتنة ضيقة النطاق أما المحنة التي ينصب فيها الشر على رءوس جواهر كثيرة من عامة الشعب فتلك ما حدث في الدولة الفارسية بالعراق وهي شيعية تنصب لآل علي^{عليه السلام} ، وكذلك الدولة الفاطمية بمصر ، فإنها كانت تحارب أهل السنة أشد حرب ، وعداء دولة لتفريق عظيم من شعبها فظيع الأثر ، طويل الأمد ، ظاهر البنى .

القول بخلق القرآن

لم يكن قبل المأمون أحد من العلماء الذين يرون خلاف رأى الجمهور يستطيع أن يظهر رأيه ، ولكن المأمون هو الذى شجعهم على ذلك فإنه كان يبرو قبل دخوله بغداد يجالس العلماء ويناقشهم ، ثم لما دخل بغداد أمر يحيى بن أكثم أن يجمع له وجوه العلماء والفقهاء ، فجمع له أربعين فسألهم المأمون وناقشهم ، وكان من الحرية التي منحهم إياها أن تناظر بين يديه محمد بن أبي العباس ، وعلى بن الهيثم ، فنصر محمد الإمامية ،

(١) العنان (بالكسر) : اللجام ، والعنان (بالتفتح) : السحاب . فكلهما كوزن ما يعتاده .

ونصر على الرّيدية^(١)، وجرى بينهما كلام وتناول، فقال المأمون : الشتم عني، والبذاءة لؤم، إنا قد أجبنا الكلام، وإظهار المقالات، فمن قال الحق حيدناه، ومن جمل ذلك دفعناه، ومن جمل الأمرين حكنا فيه (يريد أن المعاند يكره على رأي). وهذا منتهى ما يكون من حرية الرأي، فإن هذين المذهبين اللذين تناظر فيهما محمد وعليّ هما أكبر حرب على الدولة العباسية، فمجبب أن يقبل خليفة هذه الحرية فيما ينقض دولته من أساسها

وكان من آثار هذه الحرية التي سنّها المأمون أن أنشأ القول بخلق القرآن .

ومسألة القول بخلق القرآن مبنية على إثبات صفات لله أو نفيها، فالمعتزلة لا يثبتون لله صفات قائمة بذاته لئلا يتعدّد القديم، وأهل السنة يثبتونها، فتفرّع عن ذلك أن قال المعتزلة : إن القرآن مخلوق، لأنه لو كان قديماً لتعدّد القديم، وهم يمتنعون ذلك ويقولون : إنه ليس بصفة لله، بل إن الله يخلق هذه الحروف في جسم محدث يسمعه النبي، وهذا هو الوحي عندهم .

أظهر المأمون رأيه في خالق القرآن سنة ٢١٢ هـ، وربما كان يظن أنه بذلك يتبعه فقهاء الأمة فينحسم الخلاف، ولكن لم يحدث إلا أن أنكر عليه الفقهاء للتورّعون واتهموه بالابتداع، بل قال بعضهم بكفره، فلما خشي هذه الحال على نفسه أراد أن يحمل الناس على رأيه بقوة سلطانه، فكتب وهو غازٍ إلى واليه على بغداد، إسحق

(١) الريدية : بعد وفاة زين العابدين تولى قوم أكبر أولاده حمدا الباقر، وقال قوم إن الخلافة حق لكل طائفة اتصف بصفات الشجاعة والعلم والسخاء، وهؤلاء قاموا بإعادون زيد بن علي ابن الحسين فسبوا الريدية .

الإمامية : فرق كبيرة من الشيعة تقول بمودة إمام منتظر، ففرقة تنتظر جعفر الصادق، وأخرى تنتظر محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسين، وثالثة تنتظر محمد بن الحنفية، وترغم أنه يقيم مرضى، وعنده غسل وماء . قال كثير :

تغيّب لا يرى فيهم زمانا مرضى عنده غسل وماء

ابن إبراهيم أن يستحق أن يتجن الناس ، فلما فعل إسحق لم يجيبوه إجابات صريحة ، وهذا مثال من ردودهم . قال لبشر بن الوليد : ما تقول في القرآن ؟ قال أقول : إنه كلام الله . قال لم أسألك عن هذا ، أخلق هو ؟ قال : الله خالق كل شيء . قال : أما القرآن شيء ؟ قال : هو شيء . قال فخلق هو ؟ قال ليس بخلق ، ثم أعاد عليه السؤال ، فقال : ما أحسن غير ما قلت .

فرجع إسحق كلامهم إلى المأمون ففاضله منهم هذه المحاولة وكتب إليه أن يعيد أمتحانهم ، ومن لم يجبه أوثقه في الحديد وأرسله إلى عسكر الخليفة ، وفي هذه المرة أجابوا جميعاً بأن القرآن مخلوق ما عدا أربعة ، فشدوا في الحديد . وفي اليوم الثاني أعاد سؤالهم فأجاب منهم واحد ، وفي الثالث أعاد على الباقيين فأجاب واحد ، وبقي اثنان ، وما أحد بن حنبل ، ومحمد بن نوح ، فوجهما إلى عسكر المأمون ، وفيما هم بالركة بلغتهم وفاته فأعيدوا إلى دار السلام .

وقد أوصى المأمون أخاه المعتصم بالجد في هذا الأمر فأحضر الامام أحمد وعرض عليه أن يقول كما قال غيره فأبى ، ولم ينه عن رأيه مالتى من الضرب ، والتعذيب في مجلس المعتصم نفسه ، وكان يتردد بين ذلك ، وبين ضيق الحبس وهو صابر محتسب . وقد اتبع الواثق سيرة أبيه ، فكان يجعل إليه كل من يدين بهذا الرأي حتى لقد حمل إليه من مصر أبو يعقوب يوسف بن يحيى البويطى أكبر أصحاب الشافعى ، ومات في سجنه سنة ٢٣١ هـ ، وقد ملّ الواثق نفسه هذه للمقالة ، وانتقلت من الجدل إلى الهرل حتى لقد دخل عليه عبادة المضحك وقال له : يا أمير المؤمنين أعظم الله أجرك في القرآن . قال ويلك القرآن يموت ؟ قال يا أمير المؤمنين : كل مخلوق يموت . من يصلى بالناس التراويح إذا مات القرآن . فضحك الواثق وحيى بشيخ مقيد فسأله أحمد بن أبي دؤاد عن قوله في القرآن ، فقال له الشيخ : أنا أسألك قبل أن تسألنى هذا الذى تقوله من خلق القرآن شيء علمه رسول الله والصحابة أم جهلوه ؟ قال بل علموه . قال : دعوا إليه الناس كما

دعوتهم أم سكتوا؟ قال بل سكتوا، قال فهلا وسعك ماوسعهم، فأمر الواثق بإطلاقه .
ثم جاء المتوكل فأمر برفع المحنة في هذه المسألة، فاستراح الناس بعد عناء طويل .
والحق أن المسألة لم تكن تستحق كل هذا الصراع، فقد كانت تقريباً لخلاف قديم
بين المعتزلة وأهل السنة، فما بالها تأخذ وحدها كل هذا الإهتمام، على أن المقرر عند أهل
السنة أن الدلالات، وهي الألفاظ التي تروها حادثة؛ لأننا تناولها بالسنتنا وتكيفها
بأصواتنا، وهي حين القراءة قائمة بالحدث . أما مدلول القرآن، وهو الصفة النفسية
القائمة بذاته تعالى قديم، والفرق بين القراءة والقراءة كالفرق بين الذكر والمذكور،
فالمذكور حادث والمذكور قديم^(١) . وما كان على المتورعين من مثل أحمد بن حنبل
أن يقول ذلك فيصرح بأن المخلوق من القرآن تلاوته أو أن ما بين دفتي المصحف مخلوق:
أي هذا انط وتلك الألفاظ المكتوبة مخلوقة، ولكنه لم يفعل وقبل الأذى على أن
يقول بخلاف القرآن بهذا المعنى فيسرى إلى اعتقاد الناس خلقه بحسب مدلوله، وقد مرّ بك
في الكلام عن علم التوحيد بعض مناظرات فيه فارجع إليها هناك .

المدارس في الدولة العباسية

لقد عرفت ما كان من شأن الأمة العربية في العلم، وتبجيل رجاله وتمكينهم من
الشرف والثراء، فكان جديراً أن يطلب العلم بكل مكان، وأن يرحل في سبيله إلى
أقصى البلاد، وقد تم ذلك وتعلقت الهمم به كل تعلق، ورأينا أفتية المساجد، ورحبات

(١) كان فريق من أهل السنة يقولون: لفظي بالقرآن مخلوق، وهؤلاء لقوا الاضطهاد من العامة
والإغفال من أهل الحديث، وقد كان الإمام البخاري يمتنه أثر من هذا. فقد كان يقول بهذا
الرأى فاضطهده محمد بن يحيى الذهلي إمام المحدثين بنيسابور حتى خرج البخاري عنها خوفاً من
العامة أن تبطش به .

البيوت، وقصور الملوك، وميادين الأسواق، ودور الكتّاب العامة، بل دكاكين الوراقين تصبح مجالاً لطلب العلم، ثم انتهى الأمر بأن بنيت المدارس المنتظمة، ورتب لها المدرّسون، ووقفت عليها الحبوس التي تضمن لطلبتها ومدرّسيها الأرزاق الشهرية، والجرّيات اليومية.

وقد نشأ تلقى العلم بنشأة الإسلام؛ فإن المسلمين منذ أيامهم الأولى حين كان الإسلام غير ظاهر الأمر كانوا يجتمعون بدار بنى الأرقم عند الصفا يتلقون عن رسول الله الوحي ويقرءون القرآن، وتلك هي النار التي قصد إليها عمر بن الخطاب حين هدى الله قلبه للإيمان، ومنها خرج المسلمون صفيين بينهم النبي فأعلنوا الإسلام واستمر منذ ذلك الحين إعلاؤه.

ولقد ذكروا أن رسول الله جعل فداء أسرى بدر أن يعلم الأسير القارئ عشرة من أولاد المسلمين القراءة، هذه أول مدرسة في الإسلام لتعليم الأحداث ومحاربة الأمية فيهم، كما ذكروا أن عبد الله بن أم مكتوم قدم مهاجراً إلى المدينة فنزل بدار القراء. ذكره السيوطي في حسن المحاضرة، فدل على أن للقراء داراً يجتمعون فيها للقراءة والمذاكرة في العلم. وما بالخفي أمر مجلس رسول الله بين أصحابه في المسجد حيث كان يحلّس عليه الصلاة والسلام فيتخلق الناس حوله حلقات بعضها دون بعض ويتلو عليهم القرآن ويعلمهم الدين، ويدعوهم إلى الخلق القاضل.

ولسنا محتاجين إلى نص يدل على أن المسلمين اتخذوا مجالس للعلم بعد دخولهم في الدين، فإن العقل وحده ليوجب علينا تيقن ذلك إذ كان الدين قانوناً عظيمًا، وأصولاً متعددة في العبادات والمعاملات، فلا بدّ لحظ ذلك من تعليم وتلقين.

ولقد أتى القرآن حاثًا للعرب على العلم، مرغبا لهم في تحصيله، فكانت أول آية منه هي قوله تعالى: « أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » .

وفي العصر العباسي لما استبحرت العلوم ، وحسنت مكافأة الخلفاء والأمراء عليها رأينا العلم يُطلب أحثّ طلب ، ولكنه ظل حيناً طويلاً ليس لطلبة نظام ، فالراغب في العلم يقصد إحدى حلقاته بمسجد من المساجد ، ويختار أستاذه بمحض إرادته ، فيختلف عدد الطلبة باختلاف منزلة المعلم وحذقه لعله . فقد كان يجتمع في حلقة الفارابي مئات من المثين من الطلبة ، وكان أبو بكر الرازي الطبيب المشهور يجلس في مجلسه ودونه تلاميذ ، ومن دونهم تلاميذهم ، ودون هؤلاء غيرهم ، فكان المريض يجيء فيصف ما يجد لأول من يلقاه ، فإن كان عندهم علم وإلا تمدّاهم إلى غيرهم ، فإن أصابوا ، وإلا تكلم الرازي . وكان الإمام غفر الدين بن خطيب الرّى إذا ركب مشى حوله ثلثائة من تلاميذه الفقهاء ، وكان هو والشيرازي ، والفارابي ، وابن سينا ، والغزالي أكثر العلماء تلامذة .

وربما قصد الطالب إلى دار العالم فيقرأ عليه كتاباً في العلم الذي أشتهره ويأخذ عنه إجازة في ذلك . ومن كان في مثل منازل الأمراء من أهل الثراء يحضر المعلمين لأولاده . وبعض العلماء كانوا يضمنون بعلومهم فيطلبون عليه الأجر ، ولكن أغلبهم كان يلقي الدروس العامة لا يبغي عليها جزاء ، فكان الفقير من طلبة العلم واجداً بشيئته عند هؤلاء وهم كثير .

وقد كثرت تلقى العلم على أنواعه ، ولم يكن مقصوراً على الذكور ، بل كان للإناث منه حظ وافر ، فقد ذكرنا أن السيدة زبيدة زوجة الرشيد وأمّ الأمين كان عندها مائة جارية يقرأن القرآن ويدرسن العلم ، وكان المارّ بمقاصيرهنّ يسمع هنّ دوياء كدوى النحل . وذكرنا أن إبراهيم بن إسحق الموصلي كان يعلم الجوارى ، ويتقنهنّ بيتغى بذلك الربح لأن الناس يرغبون في الجارية إذا كانت أدبية مثقفة ، فقد يدفعون فيها أعلى الأثمان ، وكذلك كان يفعل دحمان يشترى الجارية بمائتي دينار فيعلمها فيبيعها بمشرة آلاف .

ومن عناية الخلفاء بالعلم ، وإعداد الأماكن لتلقيه ما حَكَّوْا أن الخليفة المعتضد

بأنه العباسي لما بنى قصره ببغداد استزاد في الترع ، فستل عن ذلك فذكر أنه يريد أن يبنى دوراً ومساكن ومقاصير يرتب في كل موضع رؤساء كل صناعة ومذهب من العلوم النظرية والعملية ، ويمجى عليهم الأرزاق السنوية ليقصد كل ما اختار علماً أو صناعة رئيساً فيأخذ عنه .

ولكن لأندرى هل نفذ الخليفة إرادته ؟ فيكون أول من أنشأ المدارس المنظمة ، وأجرى على أسانئها الأرزاق .

ولكن المشهور أنه لم يكن للعرب مدارس من هذا النوع حتى أحدثها نظام الملك وزير السلطان ^{١٩}إلب أرسلان ، ثم وزير ابنه ملكشاه ، وقد اقتدى بنظام الملك غيره في إقامة هذه المدارس .

والمراد بها كل بناء أعد للدراسة ، ورتب له المدرسون . وعين لكل مدرس نوع عمله وزمنه ، وقدر له راتبه الشهري ، وكذلك اختير طلبتها وحصر عددهم ، وأجريت عليهم الأرزاق والمعالي . وفي كثير من الأحيان كان يكفل لهم أمر معاشهم من طعام وكسوة ومأوى .

بنى نظام الملك مدرسة الكبرى ببغداد . شرع فيها سنة ٤٥٧ هـ ، ونجرت سنة ٥٤٩ هـ ، واحتفل بافتتاحها يوم السبت عاشر ذي القعدة من هذه السنة ، وجمع الناس على طبقاتهم ليحضروا درس الشيخ أبي إسحق الشيرازي ، فجاء الشيخ ليحضر ، فلقبه صبي في الطريق ، فقال يا شيخ : كيف تدرس في مكان مغصوب ؟ فرجع الشيخ واخفى ، فلما يسوا من حضوره ذكر الدرس بها أبو نصر الصباغ .

وكان نظام الملك قد بنى قبل ذلك مدرسة بنيسابور سميت النظامية أيضاً ، ودرس بها إمام الحرمين .

هذا هو المشهور من أن نظام الملك أول من بنى المدارس من هذا النوع ، وقد أنكر الحافظ الذهبي في كتاب « تاريخ الإسلام » على من زعم ذلك ، وقال قد كانت المدرسة

السيقية المنسوبة إلى السعدي المتوفى سنة ٤٥٠ هـ قبل أن يولد نظام الملك ، والمدرسة السعيدية بنيسابور أيضاً بناها الأمير نصر بن سُبُكْتِكِين أخو السلطان محمود حين كان والياً بها . ومدرسة ثالثة بها أيضاً بناها أبو سعيد إسماعيل بن علي بن المثنى ، ومدرسة رابعة بناها إسماعيل الاسترابادي الصوفي ، وأخرى بنيت للأستاذ أبي إسحق ، وذكروا أنه لم يكن قبلها بنيسابور مدرسة .

ويمكن التوفيق بين الرأيين كما فعل القاضي تاج الدين السبكي في طبقاته الكبرى ، فإنه قال : قد أدت فكرى وغلب على ظنى أن نظام الملك أول من رتب المعاليم للطلبة . وفي مصر ذكر ابن خلكان أنه لما ملك السلطان صلاح الدين بن أيوب الديار المصرية لم يكن بها شيء من المدارس ، فبنى بها المدرسة الناصرية لتعليم المذهب الشافعى سنة ٥٦٦ هـ ، وهى أول مدرسة بنيت بمصر ، وبنى المدرسة الصلاحية بالقرافة الصغرى سنة ٥٧٢ هـ مجاورة للإمام الشافعى ، وجعل لناظرها أربعين ديناراً فى كل شهر ، ورتب له فى كل يوم ستين رطلا من الخبز ، وراويتين من ماء النيل ، وبنى أخرى مجاورة للشهد الحسينى ، وجعل دار عباس الوزير العبيدى مدرسة الحنفية ، وهى المعروفة الآن (على عهد بن خلكان) بالسيفية ، وبنى غير ذلك . وقد مرّ بك فى الأبواب المتقدمة شيء عن المدارس فى الإسلام فارجع إليه .



والذى يجب ملاحظته أن إقامة المدارس فى الإسلام قد حدثت متأخرة كثيراً عن نهضة العلم نفسه ، فإن العلم بدأ ينهض فى النصف الأول من القرن الثانى والمدارس لم يبدأ وجودها إلا فى النصف الثانى من القرن الخامس ؛ وكان العلم إذ ذاك قد سمحت غروسه ، وطالت أغصانه ، وامتدت ظلاله ، وأنبعث ثماره ، فلا بد لهذا من سبب يحسن معرفة كنهه .

تأخر وجود هذه المدارس إلى تلك الأيام التي ضعف فيها شأن الخلفاء ، وحل محلهم في المنزلة هؤلاء السلاطين الذين توزعوا الملك واقتسموه ممالك صغيرة تجتهد كل منها أن تستحوذ على رضا عايتها ومودة خاصتها ، فكان منهم تنافس في إكرام العلماء والمطف على الفقراء ، وإحياء شعائر الدين ليستفيدوا بذلك قوة يستعينون بها على صيانة هذا الملك المغصوب من أصحابه . لذلك نرى أن ظهور هذه المدارس مقرون بإنشاء الأربطة للزهاد ، والمارستانات للرضى ، والمساجد للصلاة ، وحبس الأوقاف الكثيرة لينفق منها على هذه المنشآت . كذلك كان هؤلاء السلاطين يخافون على ما جمعوه من ثروة أن يستبد بهامن يحجى عنهم من الحكام ، فكانوا يجعلون بوقفها على أعمال الخير ، ويجمعون لأبنائهم نصيباً منها فيعززون ثواب الله ويضمنون لأبنائهم الاستمتاع ببعض ما جمعوا . كذلك كان من دواعي إنشاء هذه المدارس تأييد المذاهب التي كان السلاطين يشتدون في نصرتها ، فإن صلاح الدين لما استولى على مصر كانت البروس التي تلقى في الأزهر على مذهب الشيعة ، فأبطل هذا المذهب وأحيا المذهبين الشافعي والمالكي وأنشأ لهما المدارس كما مر بك .

وقد ندرك بعض هذه الأسباب من هذه القصة : ذكرنا أن نظام الملك بذل جهده في استالة الأعداء وموالة الأولياء ، فأكثر من الإحسان حتى عم به الصديق والعدو والبغض والحبيب ، وكان من أمم مساعيه في ذلك أن بنى دور العلم لطلبته والأربطة للعباد والزهاد ، وأنه كان ينفق في هذا السبيل كل عام ستائة ألف دينار فوشى به بعضهم إلى السلطان ، وقالوا : إن الأموال التي ينفقها نظام الملك في ذلك تقيم جيشاً يركز رايته في سور القسطنطينية ، فعاتبه ملكشاه في ذلك ، فأجابه إني أقت لك جيشاً يسمى جيش الليل إذا نامت جيوشك ليلاً قامت جيوش الليل على أقدامهم صفوفاً بين يدي ربهم فأرسلوا دموعهم ، وأطلقوا ألسنتهم ومدوا إلى الله أكنهم بالنساء لك ولجيوشك ، فأنت وجيوشك في خمارتهم تعيشون ، وبدعائهم تبتون وبركاتهم تمطرون وترزقون ، قبل ملكشاه قوله وسكت .

الجامع الأزهر

كان الفاطميون منذ قامت دولتهم في مصر مجتدين في نشر مذهبهم الشيعي ، فلم يكبد جوهر القائد فاتح مصر باسم المعز لدين الله الفاطمي يخطط أساس مدينة القاهرة حتى شرع في بناء مسجد يتلقى فيه الناس عقائد هذا المذهب ، وقد شرع في بنائه لست بقين من جمادى الأولى سنة ٣٥٩ هـ وأقيمت فيه الصلاة ، لتسع خلون من رمضان سنة ٣٦٢ هـ .

وأول من حاول جعله جامعة علمية هو الوزير يعقوب بن كلس وزير العزيز بالله ، وأول ما عمله في هذا الشأن أن بنى بجواره داراً لجماعة من الفقهاء وعدتهم خمسة وثلاثون فقيهاً ، فكانوا يجتمعون بالمسجد كل يوم جمعة عقب صلاة الجمعة فيقرءون القرآن إلى صلاة العصر وأجرى عليهم الخليفة أرزاقاً ، وكان وزيره ابن كلس يصلهم ويبرمهم . ولما ولي الحاكم بأمر الله أمر بنقل الكتب التي كانت عنده في دار العلم أو الحكمة ووزعها على المساجد الثلاثة : الأزهر ، والحاكم ، والمقس ، وكان نصيب الأزهر منها نحو نصفها .

وبلغ من العناية بالعلم وخصوصاً فقه الشيعة أيام الفاطميين أن كان النساء يحضرن في الجامع الأزهر كما ذكر المقرئ في خطبه .

الشعر في الدولة العباسية

قد رأيت أن قيام الدولة العباسية كان حدثاً عظيماً، واقتلاباً هائلاً له أثره في حياة العرب ، ونظام معيشتها ، وتعاظم مدنيّتها ، وتكاثر علومها ، ونبوغ فلاسفتها .
ولقد كان للشعر العربي نصيب كبير مما نال اللغة العربية من ارتقاء . والشعر جدير بهذا ، فقد كان في كلّ عصر موضوع عناية القوم والمقصد من فنون قولهم ، والعمدة في إظهار مشاعرهم ، وقد شمل التّغيير كلّ شيء في الشعر من معانيه وأغراضه وألفاظه وأسلوبه ووزنه .
وكان للشعر في نفوس الخلفاء والأمراء منزلة . وللشاعر عندهم مكانة ، وسنشرح كلّ ذلك لتمثّل من مجموعه ما كان للشعر والشعراء في هذا العصر من قدر .

منزلة الشعر

كان الحكام الأوائل في هذا المصّر هم عرب نشأوا في العربية ، فرسخت فيهم ملكتها ، وتأنّصت عاداتها ، وهزّت أعطافهم بلاعتها . لذلك رأيناهم يحرصون على الشعر لأنهم يرون فيه مجدّهم السابق ، وغرّم التّأله . فتذاكروا أقوال أسلافهم ، وتناشدوا مآثور كلامهم ، وعقدوا المجالس لذلك ، وجادوا بعظيم العطاء على كلّ مبرز في العناية بهذه الآثار ، وحاذق في تفهم ما ورد عن السلف منها ، كذلك سمعوا المدح من شعراء عصرهم ، وفرضوا لهم الأعطية في بيت المال ، وأعطوا على كلّ بيت ألف دينار إلى غير ذلك مما دلّ على مبلغ عنايتهم بالشعر وقائله .

ولم ينته أمرهم إلى الالتذاذ بسماع الشعر ، والارتياح إلى إنشاده ، بل كان لهم بصر به ، ومعرفة بخبره ، فقد سمع المنصور شعر طرّيف بن تمّ العنبريّ :

إِنَّ فَنَائِي لَنَنْبَغُ لَا يَوْمِيَّهَا
غَمَزُ الثَّقَافِ وَلَا وَهْنُ وَلَا نَارُ^(١)

مَتَى أُجْرُ خَائِفًا تَأْمَنُ مَسَارِحُهُ وَإِنْ أُخِفَ آمِنًا تَقْلُقُ بِهِ الدَّارُ
إِنْ الْأُمُورَ إِذَا أَوْزَدَتْهَا صَدْرَتْ إِنْ الْأُمُورَ لَهَا وَرَدُّ وَإِصْدَارُ

فقال : أنا أحق بشعره منه ، وأنا النى وصف لا هو . وليس هذا القول منه إلا أثر
لحسن تقديره لهذا الكلام ، وأنه فى علو معناه لا يليق إلا أن يكون صفة لخليفة مثله .
وكذلك المنصور هو الذى انصرف من دفن ابنه جعفر الأكبر ، وفى قلبه لوعة
الحزن عليه ، فلم ير مسلياً عنه إلا قصيدة أبى ذؤيب الهذلى فى رثاء أبنائه ، فقال
لاربيع : أبغى من أهل بيتى من ينشدنى :

أَمِنْ النُّونِ وَرَبِّهَا تَتَوَجَّعُ وَالدَّهْرُ لَيْسَ بِمُفْزِعٍ مِنْ يَجْزَعُ

فخرج الربيع إلى بنى هاشم ، فلم يجد فيهم من يحفظها ، فعاد إليه فأخبره بذلك ، فقال :
والله لمصيتى بأهل بيتى ألا يكون فيهم من يحفظ هذه القصيدة لقله رغبتهم فى الأدب ،
أعظم وأشد على من مصيبتى بأبنى . ثم قال : انظر هل فى القواد والموام من يعرفها
فإنى أحب أن أسمعا من إنسان ينشدها . فخرج الربيع فاعترض الناس فلم يجد واحداً
ينشدها إلا شيخاً مؤدباً قد انصرف من تأديبه فانصرف به إلى المنصور ، فأنشدها إياه ،
فلما قال : « والدهر ليس بمفزع من يجزع » قال : صدق والله ، فأنشدنى هذا البيت
مائة مرة لتردد هذا المصراع على فأنشده ؛ ثم مر فيها ، فلما انتهى إلى قوله : « والدهر
لا يبق على حدثانه » الخ قال : سلا أبو ذؤيب عند هذا القول . فأتت ترى أنه عرف
موضع الإبداع فى القصيدة ، فاستعاده مائة مرة ، وعلم حين هدأت نفس الشاعر وسلا .
وكان المأمون كذلك بصيراً بالشعر : حدث عمارة بن عقيل قال : أنشدت المأمون قصيدة
فى مدحه فيها مائة بيت ، فإبتدأت بيت إلا سبقتنى إلى قافيتها . قال عمارة : فقلت
والله يا أمير المؤمنين ما سمعها منى أحد قط . قال المأمون : وهكذا ينبغي أن يكون .
وقال عمارة : قال لى عبد الله بن السمط : علمت أن المأمون لا يبصر الشعر ، فقلت : ومن

ذا يكون أعلم به منه ؟ فوالله إنك لترانا نفضده أول البيت فيسبقنا إلى آخره . قال : إني أنشدته بيتا أجده ، فلم يتحرك له ، فقلت له : وما هو ؟ قال :

أضحى إمام الهدى المأمون مشتغلا بالدين والناس بالدنيا مشاغلا
فقلت ما صنعت شيئا ، وهل زدت على أن جعلته مجورا في محرابها في يدها سبحتها :
فن القائم بأمر الدنيا إذا تشاغل عنها ؟ وهو المطوق بها . هلا قلت كما قال جرير في
عبد المزي بن الوليد :

فلا هو في الدنيا مُضِيعٌ نَصِيحُهُ ولا عَرَضُ الدنيا عن الدين شَاغِلُهُ

ولقد عرف الناس عن خلفاء هذه الدولة ما للشعر في نفوسهم من كرامة وفي آذانهم من قبول ، فكانوا يجلون الشعر وسيلة إلى إيصال ما يتحاشون مواجهتهم به ، كأن الشعر يحمل من عسر الموقف يسرا ، ومن شدة الأمور سهولة ولينا . ذكر المبرد في كتاب « الروضة » أن الرشيد غزا بلاد الروم ، فخص له تقفور ، وبذل الجزية ، فلما عاد واستقر بمدينة الرقة ، وسقط الثلج تقص تقفور العهد ، فلم يجسر أحد على إعلام الرشيد لمكان هيئته في صدور الناس . فبذل يحيى بن خالد الأموال للشعراء على أن يقولوا إشعارا في إعلامه ، فتقدم إليه شاعر من أهل جدة يكنى أبا محمد . فأنشد الرشيد قصيدة منها :

تقص الذي أعطيتَه تقفورُ فكلَّيْهِ دائرةُ البوارِ تدورُ
أبشِرْ أميرَ المؤمنينَ فإنه فتَحَ أُنْكَ بهِ الإلهُ كبيرُ
تَقُورُ إِنَّكَ حينَ تَقْدِرُ أنْ نأى عَنكَ الإمامُ لجاهلٍ مغرورُ
أَطْلَعْتُ حينَ عَدَرْتُ نَكَ مَفْلَتَ هَبْلَتِكَ أَتُك ما ظَنَنْتَ غُرورُ

فلما انتهى الشاعر من هذه الأبيات قال الرشيد : أوقد فل ثم غزاه في بقية الثلج وفتح مدينة هرقل . وقد ذكرنا أن جفاء دب بين الرشيد وبين جاريته ماردة ، وهي بعزة دلال المشقوق تأبى أن تمتدز وهو بعزة الخلافة وشرف الملك يأبى ذلك ، فرام يحيى

ابن خالد أن يزِيل ما بينهما ، فاستدعى العباس بن الأحنف ، فقال : ويحك يا عباس ! إنما اخترتك من ظرفاء الشعراء لقرب مأخذك ، وحسن تأتيك ، وإن الذي نددت بك له من شأنك ، وقد جرى بين الرشيد وبين ماردة عتب أعياني أمره ، قتل شعراً تسهل به هذا السبيل ثم تركه حيناً ، فقال أربعة أبيات من روى واثنين من آخر ، وبعث بالجميع إليه ، والآيات هي :

الماشقان كلاهما مُتَغَضِّبٌ وكلاهما مُتَوَجِّدٌ مُتَجَنِّبٌ
صدت مغاضبةً وصد مغاضبا وكلاهما عما يُعالج مُتَعَبٌ
راجع أحببتك الذين هَجَرْتَهُمْ إن التَّيَمَّ قَلَمًا يَتَجَنَّبُ
إن التَّجَنَّبَ إن تطاول منكما دبَّ الشَّؤُّ له فَمَزَّ المَطْلُبُ

والبيتان :

لا بُدَّ للماشق من وَفَقَةٍ تكون بين الوصل والصَّرمِ
حتى إذا ألهمَّ تمادى به راجع من يهوى على رَغَمِ

فلما سمع الرشيد الشعر ، وانتهى إلى قوله : « راجع من يهوى على رَغَمِ » أغرب في الضحك ، ثم قال : أراجعه والله على الرغم ، ثم أمر له ، وأمرت الجارية والوزير بما اشترى بعمه ضياعاً ثقل عشرين ألف درهم .

ولم يقف بصرم بالشعر عند حدِّ فهمه ، وإدراك محاسنه ، والتسلي بلهوه ، والاهتياج بحماسته ، بل إنهم كانوا هم أنفسهم شعراء ، فقد روى للرشيد شعراً كثيراً ، فمن ذلك قوله في جارية له تركية :

يا رَبَّةَ المنزل بالبرك وَرَبَّةَ السُّلْطَانِ وَاللَّهِ (١)
ترقى بالله في قَتْلِنَا لَسْنَا مِنَ الدَّيْلِمِ وَالتُّرْكِ

(١) البرك (بالفتح أو بالكسر) اسم لواضع كثيرة ، ومنها أقصى المعمور من الأرض . ولعله أشار بذلك إلى أنها من تلك البلاد (بلاد الترك) .

وقوله في قينة له أيضاً :

تُبْدِي صُدُودًا وَتُخْفِي تَحْتَهُ مَقَّةً فَاَلْقَسُ رَاضِيَةً وَالطَّرْفُ غَضْبَانُ
يَا مَنْ وَضَعْتَ لَهُ خَدْيٌ قَدَّالَهُ وَلَيْسَ فَوْقِي سِوَى الرَّحْمَنِ سُلْطَانُ

وقوله في رثاء جارية رومية يقال لها هيلانة وقد صرا على قدها من الحزن ما ضاق له

صدره وفرغ دونه صبره :

قَاسَيْتُ أَوْجَاعًا وَأَحْزَانًا لَمَّا اسْتَخَصَّ الْمَوْتَ هِيلَانًا
فَارَقْتُ عَيْشِي حِينَ فَارَقْتُهَا فَا أَبَالِي كَيْفَمَا كَانَ
قَدْ كَثُرَ النَّاسُ وَلَكِنِّي لَسْتُ أَرَى بَعْدَكَ إِنْسَانًا
وَاللَّهِ مَا أَنَا لِمَا حَرَّكَتْ رِيحٌ بِأَعْلَى نَجْدٍ أَغْصَانًا

وكان له ثلاث جوار أهداهنَّ إليه الفضل بن الربيع ، وهنَّ : سحر ، وضياء ، وخنت ؛

فقال فيهنَّ :

إِنْ سِحْرًا وَضِيَاءً وَخَنْتَ هُنَّ سِحْرٌ وَضِيَاءٌ وَخَنْتَ
أَخَذْتَ سِحْرٌ وَلَا ذَنْبَ لَهَا ثَلَاثِي قَلْبِي وَتَرَبَّاهَا الثُّلَاثُ

وقال فيهنَّ أيضاً :

مَلَكَ الثَّلَاثُ الْآلِئَاتُ عِنَانِي وَخَلَّانَ مِنْ قَلْبِي بِكُلِّ مَكَانٍ
مَا لِي تَطَاوَعْنِي الْبَرِيَّةُ كُلُّهَا وَأَطِيعِي هُنَّ فِي عِصْيَانِي
مَا ذَاكَ إِلَّا أَنَّ سُلْطَانَ الْهَوَى وَبِهِ قَوَيْنَ أَعَزُّ مِنْ سُلْطَانِي

ولقد نسبوا للعالمون قوله في الشطنج ، وقد كان أحب ملاهيه إليه :

أَرْضٌ مُرَبَّعَةٌ سَحَرَاءُ مِنْ أَدَمَ مَا بَيْنَ الْفَيْنِ مَوْصُوفِينَ بِالكَرَمِ
هَذَا يُغَيِّرُ عَلَى هَذَا وَذَاكَ عَلَى هَذَا يُغَيِّرُ وَتَيْنِ الْحَرْبِ لَمْ تَمِ

فانظروا إلى الخليل قد جاشت بمركة في عسكرين بلا طبل ولا علم
وقال الزبير بن بكار : دخلت على المعتز بالله فسلمت عليه ، فقال يا أبا عبد الله إني قلت
في ليلتي هذه أحيانا ، وقد أعيأ عليّ إجازة بعضها ، فقلت أنشدني ، فأنشدني ،
(وكان محمواً) :

إني عرفتُ علاجَ القلبِ والوجعِ وما عرفتُ علاجَ الحبِّ والجزعِ
جزعتُ للحبِّ والحُمى صبرتُ لها إني لأعجبُ من صبرى ومن جزعى
سومن كان يشغله عن حُبِّه وجعٌ فليس يشغلى عن حُبِّكم وجعى
قال أبو عبد الله الزبير ، فقلت :

وما أملُ حديثي ليلةً أبداً مع الحبيبِ وياليت الحبيبِ معي
فأمر لي على البيت بألف دينار .

ولقد يطول بنا القول لو ذهبنا نسرد ما تفرق في الكتب من شعر هؤلاء الخلفاء ،
ويكفي في الدلالة على شأن الشعر فيهم أن نذكر أن ابن المعتز وهو واحد منهم عد من
كبار الشعراء ، وقد قالوا : إن الراضى آخر خليفة ، انفرد بتدبير الملك ، وآخر خليفة
خطب على منبر يوم جمعة ، وآخر خليفة له شعر مدون ، فكان الشعر كان لازمة من
تقدمه من الخلفاء ، وليس معنى هذا أن الخلفاء بعده انقطعوا عن قول الشعر لأن المنفى
هو اجتماع هذه الخصال في خليفة بعد الراضى ، فيصح أن الشعر ظل فيهم ، وهذا
هو للناسب لما صاروا إليه من فراغ وانصراف إلى اللهو والمناذمة .

هذا وإن من استبد بالأمر من ملوك السول الناشئة في المملكة العباسية قد أرادوا
أن يتيقوا العباسيين في كل ما عرفوا به ، فكانوا مع عجمتهم يحتفلون بالشعر ويجيزون
عليه ، بل لقد قالوه ونبغوا فيه ، فهذا عضد الدولة يروى له قوله :

ليس شربُ الكأسِ إلّا في الطَّرِّ وغناء من جوارٍ في السَّحَرِ
غانياتٍ سالباتٍ للثَّهَى ناغماتٍ في تضاعيف الوترِ

ومن قوله أيضاً :

خَطَرَاتُ ذِكْرِكَ تَسْتَتِيرُ مَوَدِّي فَأَحْسِنُ مِنْهَا فِي الْفَوَادِ دَيْبِيَا
لَا عُضْوٌ لِي إِلَّا وَفِيهِ صَبَابَةٌ فَكَأَنَّ أَعْضَائِي خُلِقَتْ قُلُوبَا

شان الشاعر

على قدر نصيب الشعر من المكانة في النفوس تكون منزلة الشاعر بين أهل زمته فإذا رأينا جيلا من الناس يعتد بالشعر ، ويعرف له أثره في تهذيب النفوس ، ومخاطبة الوجدان ، وتجميل مناظر الحياة ، وتخليد محاسن الدنيا ، ومفاخر الملوك ، رأينا الشاعر ، وقد ساهى الملوك في المنزلة ، وساوهم في نعيم العيش ، وكأثرهم بالمال ، وهو إنما استفاده منهم ، واستجداه من أكتفهم ، ولكن كثرة العطاء ، والتخرق فيه يجعل من هذا المستمنح المستجدي ثريا يملك القصور والضياع ، ويسير في ركابه الفلمان والأتباع ، ثم رأينا له كرامة وجاهاً مرعياً .

وهكذا كان شأن الشعراء في المائة الأولى من عمر هذه الدولة ، فقد كانت الأموال تنصب وفودها معجلة إلى بيت المال والخلفاء في هذا العهد عرب تهزم الأزرحية ، ويرتج أعطافهم الثناء ، فكانت أقوال الشعراء كالزق وأخذ السحر تجعلهم يهودون ثم يهودون ، حتى أننا لا نكاد نصدق اليوم ما تقرأه في كتب الأدب عن هذه الطائفة التي قد تبلغ مائة ألف دينار ، وقد كانت هذه جائزة مروان بن أبي حفصة عدة مرات .

لما علم الهدي بمكانة مروان هذا ومنزلته في الشعر أحب ألا يدخل عليه في غمار الناس ، وعين له يوماً حشد فيه وجوه بني العباس في مجلسه ، فلما تمام المجلس دعاه فأنشده :

كَأَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مُحَمَّدًا لَرَأَيْتُهُ بِالنَّاسِ لِلنَّاسِ وَالِدَ

على أنه من خالف الحق منهم سقته به الموت الخوف الواحد
فأشار إليه المهدي فأمسك ، ثم قال : يا بني العباس هذا شاعركم المنقطع إليكم المعادي
فيكم فأتوه ما يسره ، ثم قرأ عليهم مالا فرض على موسى ابنه خمسة آلاف
درهم ، وعلى هرون مثله ، ثم فرض على القوم على قدر حالهم حتى بلغ مجموع ذلك
أربعين ألفاً ، ثم قال : وأمير المؤمنين يعطيك من صلب ماله ثلاثين ألفاً حاضرة وسيأتيك
منى ما يؤدبك إلى الغنى . فقال مروان : قد رأيت من قبولك وبشرتك ومسروك بما
سمعت منى ما سأزداد به شعراً ، وستسمع ويبلغك ثم قال : لا يبلغ ما أعطيتني لشاعر
بمدي قال أجل . قال فأذن في زيارتك ؟ قال نعم . قال يا أمير المؤمنين لي فيك وفي
أهلي بيتك عدو فإن رأيت ألا تجعل لأحد على سلطاناً دونك قال : لا سلطان عليك
دون أمير المؤمنين . .

ودخل مروان بن أبي الجنوب وقلب مروان الأصغر^(١) على التوكل فأنشده :
سَقَى اللهُ نَجْدًا وَالسَّلَامَ عَلَى نَجْدٍ وَيَا حَبْدًا نَجْدٌ عَلَى الْقَرَبِ وَالْبُعْدِ
نَظَرْتُ إِلَى نَجْدٍ وَبَغْدَادُ دُونَهَا لَعَلِّي أَرَى نَجْدًا وَهِيَاةَ مَنْ نَجْدِ
وَنَجْدٌ بِهَا قَسُومٌ هَوَاهُمْ زِيَارَتِي وَلَا شَيْءَ أَحْلَى مِنْ زِيَارَتِهِمْ عِنْدِي
فلما أتم إنشادها أمر له بعشرين ومائة ألف درهم وخمسين ثوباً وثلاثة من الظهر فما
برح حتى قال في شكره :

تَحَيَّرَ رَبُّ النَّاسِ لِلنَّاسِ جُفُفًا فَمَا كُنْهُ أَمَرَ الْعِبَادِ تَحَيُّرًا

فلما صار إلى قوله :

فَأَمْسِكَ نَدَى كَفَيْكَ عَنِّي وَلَا تَزِدْ قَدْ خِضْتُ أَنْ أُطْفَى وَأَنْ أُتَجَبَّرَا
قال التوكل : لا والله لا أمسك حتى أغرقك بجودي ، ولا تبرح أو تسأل حاجة ، قال

(١) هو ابن مروان بن أبي حفصة الشاعر الذي مدح المهدي والرشيد ومات سنة ١٨١ هـ .

الضيعة التي أمرت بإقطاعي إياها من العيامة ذكر ابن المدبر أنها وقف المعتصم قال :
فإني أقبلسكها بخراج درهم ، ثم قال : هذه ليست بحاجة . قال فضياعي التي كانت لي
وحال ابن الزيات بيني وبينها فأمر للتوكل بردها إليه .

دخل ابن الخياط على المهدي فدحه ، فأمر له بخمسين ألف درهم ، فلما قبضها
فرحها على الناس ، وأنشأ يقول :

لَمَسْتُ بِكَفِّي كَفَّهُ أَبْتَغِي النَّفَى وَلَمْ أَدرِ أَنَّ الْجُودَ مِنْ كَفِّهِ يُعْدَى
فَلَا أَنَا مِنْهُ مَا أَقَادَ ذُو النَّفَى أَفَدْتُ وَأَعْدَانِي قَاتَلْتُ مَا عِنْدِي^(١)
فلما بلغ المهدي الخبر والأبيات أعطاه بكل درهم ديناراً .

دخل سلم بن عمرو الخاسر على المهدي فأنشده :

أَلَيْسَ أَحَقَّ النَّاسُ أَنْ يُدْرِكَ النَّفَى مُرَجَّى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَسَائِلُهُ
لَقَدْ بَسَطَ الْمَهْدِيُّ عَدْلًا وَتَأَنَّلَا كَانَهُمَا عَدْلُ النَّبِيِّ وَتَأَنَّلُهُ
فقال : أما ما ذكرت ياسلم من الجود ، فوالله ما تعدل الدنيا عندي خاتمي هذا ، وأما
العدل فإنه لا يقاس برسول الله صلى الله عليه وسلم أحد ، وإني لأتحرّاه جهدي ، ثم أمر
له بعشرة آلاف درهم وعشرة أثواب ، ووفد عليه من قابل ، فأنشده :

إِنَّ الْخِلَافَةَ لَمْ تَكُنْ بِخِلَافَةٍ حَتَّى اسْتَقَرَّتْ فِي بَنِي الْعَبَّاسِ
شَدْتُ مَنَاكِبَ مُلْكِهِمْ بِخِلَافَةٍ كَالدَّهْرِ يَخْلِطُ لَيْتَهُ بِشَيْئِ^(١)

فأمر له بعشرين ألف درهم وعشرين ثوباً . فلما كان العام الثالث أنشده :

أَفَنِي سُؤَالَ السَّائِلِينَ بِجُودِهِ مَلِكٌ مَوَاهِيهِ تَرَوْحُ وَتَهْتَدِي
هَذَا الْخَلِيفَةُ جُودُهُ وَتَوَالَهُ نَقْدَ السُّؤَالِ وَجُودُهُ لَمْ يَنْفَدِ

(١) أقاد : أعطى . أفدت : استغدت .

(٢) الشماس والشموس : النفور ، من شمس (كنص) .

فَأَمَرَ لَهُ بِثَلَاثِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ وَثَلَاثِينَ ثَوْبًا . . . وَسَلَّمَ هَذَا هُوَ الَّذِي مَاتَ سَنَةَ ١٨٦ هـ ،
وَخَلْفَ ثَرَوَةٍ مَقْدَارِهَا خَمْسُونَ أَلْفَ دِينَارٍ مِنَ الذَّهَبِ وَأَلْفَ أَلْفٍ وَخَمْسِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ
مِنَ الْفِضَّةِ ، غَيْرِ الضَّيَاعِ .

وَكَانَ أَبُو نَوَاسٍ يَتَكَسَّبُ كَثِيرًا ، وَلَكِنَّهُ كَانَ مُتَلَفًا سَمَحًا ، وَكَانَ يَسَاجِلُ فِي
الْإِنْفَاقِ عَبَّاسُ بْنُ الْأَخْنَفِ ، وَصَرِيحُ الْغَوَانِي ، فَلَمْ يَكُنْ لَهُ مَذْخَرٌ . وَأَبُو تَمَّامٍ جَمَعَ
ثَرَوَةً طَائِلَةً ، وَلَكِنَّهُ كَانَ مَغْرَمًا بِالتَّجَوُّالِ فِي الْأَرْضِ ، فَأَفْنَى فِي ذَلِكَ ثَرَوَتَهُ ، وَكَانَ لَهُ
قَهَّارَةٌ وَكِتَابٌ ، وَكَانَ الْبَحْتَرِيُّ يَسِيرُ فِي مَوْكَبٍ مِنْ عِبِيدِهِ ، وَلَهُ أَيْضًا قَهَّارَةٌ وَكِتَابٌ .
وَالْمَتَنَبِيُّ جَمَعَ ثَرَوَةً طَائِلَةً ، وَكَانَ يَخِيلًا وَطَمَعٌ أَنْ يَصِلَ إِلَى الْمَلِكِ بِثَرَوَتِهِ ، وَبَلَغَ مِنْ كِبَرِهِ
واعتداده بنفسه أَنْ كَانَ يَنْشُدُ سَيْفَ الدَّوْلَةِ ، وَهُوَ جَالِسٌ عَلَى خِلَافِ عَادَةِ الشُّعْرَاءِ
الَّذِينَ كَانُوا يَقْبَلُونَ الْأَرْضَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَيَقْفُونَ لِلْإِنْشَادِ .

وبعد المائة الأولى إلى حين قيام الدول الناشئة في العباسية ، للتنافسة في إكرام
العلماء والشعراء كانت فترة يخل فيها الخلفاء . وصلدوا واتبعهم في ذلك رجال دولتهم ،
فارتفعت أصوات الشعراء بالشكوى ، ورأينا ابن الرومي يقول فيمن أخلف ظنه
وخييب أمله :

إِنْ كُنْتُ مِنْ جَهْلٍ حَتَّى غَيْرَ مُعْتَدِرٍ وَكُنْتُ مِنْ رَدِّ مَذْحِجِي غَيْرَ مُتَّسِبٍ^(١)
فَأَعْطَانِي ثَمَنَ الطَّرْسِ الَّذِي كُتِبَتْ فِيهِ الْقَصِيدَةُ أَوْ كِفَارَةُ الْكَذِبِ

وَقَالَ فِي ابْنِ الدَّبَرِ :

يَا بْنَ الدَّبَرِ غَرَّكَ الرُّؤَاؤُ عُمْرًا وَلَيْسَ لَهُمْ سِوَاكَ مُرَادُ
أَدْعُو عَلَى الشُّعْرَاءِ أَخْبَثَ دَعْوَةٍ إِذْ مَجْدُوكَ وَغَيْرُكَ الْأَمْجَادُ
قُلْ لِي بِأَيِّ حِيلَةٍ أَعْمَلْتُهَا هَتَفُوا بِأَنَّكَ لَا حُطِطْتَ جَوَادُ
مَا أَنْتَ وَالْمَعْرُوفُ أَوْ مَفْتَاحُهُ ذَهَبَتْ بِذَنبِكَ دُونَكَ الْأَجْوَادُ

(١) أناب : خزي واستعيا وبجردها «أوب» .

لكن إخالُ معاشرًا خيبتهم
أنبوأ عليك يستميحك غيرهم
نصبوا الحبال للآسى فأجادوا^(١)
فيخيب خيبتهم وتلك أرادوا

ويقول في الأسف على من مضى من الكرام :

ذهب الدين تهزهم مداحهم
كانوا إذ امتدحوا رأوا ما فيهم^(٢)
هز الكماة عوالي الران^(٣)
فالأزحية منهم يمكن

ثم كان للشعر رواج على يد سيف الدولة وعضد الدولة وأمثالهما من أعادوا سيرة الخلفاء الأولين ، فكثر الشعراء ، وتوزعوا في البلاد ، ونبئت طائفة منهم في خراسان وطبرستان والأهواز ومصر ، وقد كنا لا نراهم إلا في بغداد ، ومن نبغ منهم في غيرها من بلد أو بادية ، فإما كان هم أن يقصد بغداد حيث الخلفاء يطرون عطاءهم الفدى على الشعراء .

معاني الشعر

أما معاني الشعر في هذا العصر فهي قسمان : معاني السابقين من جاهليين ، وإسلاميين تناولها الباسيون فأحسنوا غالباً في صوغها وحاكروا هؤلاء في حسن سبكها أوزادوا عليهم في ذلك لما امتازوا به من حصافة الرأي واتساع الحيلة في القول ، والقدرة على الخلابة باللفظ ، وما كان لهم من عناية بالتحسين ، وليس ذلك مطرداً في أخدم ولكنه غالب شائع في مجيديمهم . والذي ساعدهم على ذلك أيضاً أن المعنى وقع إليهم ، وقد تعب الأول في استنباطه ، واحتفل بحسن صوغه ، فلم يبق على مستعيره

(١) الإسوة (بالكسر ويضم) : القدوة وما ينسب به الحزين والجمع أسا (بالكسر والضم) .

(٢) الران : الرياح الصلبة القدة ، واحدها رانة .

(٣) الأزحية : الارتياح للندى ، والأزحى : الواسع الخلق .

إلا أن يحدث فيه ما يحاول به الزيادة على السابق ، وذلك ميسور له حين كفى المثونة في الاستنباط . والذي نعينه من تلك المعاني إنما هو المعاني التي امتاز بإيرادها شاعر ، فنسبت إليه وعرفت به ، فأما المعاني العامة التي لا بدّ لكلّ قائل أن يعرض لها كقولهم : إن الطيف يجود بما يحل به صاحبه ، وإن الواشي لو علم بجزار الطيف لساء ، وكقولهم في المديح : إنه كالبحر والسحاب ، وإن عطاء اليوم لا يمنع عطاء الغد ، وإنه يجود ابتداء ، وقولهم في الرثاء : إن الدنيا حرمت نفع هذا الميت وإن هلكه ليس هلك واحد ولكنه هلك أمة ، وكشفة النجوم ومواقها والسحب وما فيها من البروق والرعود ، والغيث وما ينبت عنه ، وبكاء الحام وما يدلّ عليه ، إلى غير ذلك من المعاني التي لا تنسب إلى صاحب لأنها قد شاعت ، ولأنها لا يستغنى عنها قائل وإن كان قد تبع فيها اللاحق السابق ، ولكنها كثرت حتى لم تصبح خاصة بشاعر دون غيره .

وأما القسم الثاني فهو المعاني التي استقلّ العباسيون باختراعها ، ولم يكونوا فيها عيالاً على غيرهم .

المعاني القديمة

وحيث أخذ المتأخر للمعنى من المتقدم لم يكن دائماً بمثابة واحدة من الزيادة عليه أو التقصير عنه ، بل إن ذلك يرجع إلى الشاعر ومهارته في الصوغ ، وحسن تأنيده للمعنى واحتيااله على إبرازه حتى لقد يصبح بذلك أجدر بالمعنى من مخترعه .
ذكروا أن النابغة قد أبدع في وصف قدرة النعمان وأن مطلوبه لا منجى له ولا معتمص ، فقال :

فإنك كالليل الذي هو مُدْرِكِي وإنِ خِلْتُ أن المُنْتَأَى عَنْكَ وَاسِعٌ

وقد اعترض الأصمعي على النابغة فقال : أما تشبيهه الإدراك بالليل فقد تساوى الليل والنهار فيما يدركانه ، وإنما كان سبيله أن يأتي بما لا قسم له حتى يأتي بمعنى مفرد .
فلو قال قائل : إن منصورا النوى في ذلك أحسن منه لوجد مساعا إلى ذلك حيث يقول :

فَلَوْ كُنْتُ كَالْعَفَاءِ أَوْ كَسُمُوهَا خَلَّيْتُكَ إِلَّا أَنْ تَصُدَّ تَرَانِي

وقد أخذ هذا المعنى كثير من الشعراء ، فقال سلم الخراسم :

فَأَنْتَ كَالدَّهْرِ مَبْنُونًا حَبَائِلُهُ وَالْدَّهْرُ لَا مَلْجَأَ مِنْهُ وَلَا هَرَبُ
وَلَوْ مَلَكَتُ عَيْنَ الرِّيحِ أَضْرِفُهَا فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ مَا فَاتَكَ الطَّلَبُ

وقال البحتري :

وَلَوْ أَنَّهُمْ زَكَبُوا السُّكُوكَ لَمْ يَكُنْ يُنْجِيهِمْ مِنْ خَوْفِ بَأْسِكَ مَهْرَبُ

وقال علي بن جبلة :

وَمَا لِأَمْرِي حَاقِلَتُهُ مِنْكَ مَهْرَبُ وَلَوْ رَفَعْتُهُ فِي السَّمَاءِ الْمَطَالِعُ
يَلِي هَارِبُ لَا يَهْتَدِي لِمَكَانِهِ ظَلَامٌ وَلَا ضَوْءٌ مِنَ الصُّبْحِ سَاطِعُ^(١)

وقد يدق الأخذ حين يعول الآخذ على عموم المعنى ومغراه ويترك أفضله جملة كما قال
عروة بن الورد :

وَمِنْ يَكْ مِثْلِي ذَا عِيَالٍ وَمُقْتَرَا مِنْ الْمَالِ يَطْرَحُ نَفْسَهُ كُلَّ مَطْرَحٍ
لِيَتَلَعَّ عُذْرًا أَوْ يَنَالَ رَغِيْبَةً وَمُبْلَغُ نَفْسٍ عُذْرَهَا مِثْلُ مَنْجَحٍ

أخذه أبو تمام ، فقال :

(١) بلى تفيد لإبطال النوى سواء في الاستفهام أو غيره . مثال الاستفهام . قوله تعالى : أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قالوا بلى . ومثال غير الاستفهام قوله تعالى أيضا : زَعِمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ . وتكون بمعنى بل مثل قوله تعالى : وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة ، ثم قال : بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . والمعنى بل من كسب ، وهي في البيت بمعنى بل أي إن المارِبَ الموصوف بهذه الصفات لا مهرب له منك .

فَقِيَّتْ تَيْنَ الظِّلِّينَ وَالضَّرْبَ مِيتَةً تَقُومُ مَقَامَ النَّصْرِ إِنْ قَاتَهُ النَّصْرُ
 فقد جعل عروة اجتهداه في طلب الرزق عذراً يقوم مقام النجى ، وأبو تمام جعل الموت
 في الحرب قائماً مقام الانتصار ومرجع المعنيين واحد وإن اختلف التصوير واللفظ .
 ومثل ذلك قول جرير :

وَلَا يَمْنَعُكَ مِنْ أَرْبٍ لِحَاهُمُ سَوَالُهُ ذُو الصِّمَامَةِ وَإِتِّخَارُ
 أَخْذِهِ أَبُو الطَّيِّبِ ، قَالَ :

وَمَنْ فِي كَفِّهِ مِنْهُمْ قَنَاقَةٌ كَمَنْ فِي كَفِّهِ مِنْهُمْ خِصَابٌ
 وقد يزيد الأخذ على صاحب المعنى كما قال اللطّل بن غيلان :
 وَلَسْتُ بِنَظَّارٍ إِلَى جَانِبِ النَّفَى إِذَا كَانَتْ الْقَلِيَاءُ فِي جَانِبِ الْفَقْرِ
 فأخذه أبو تمام ، قَالَ :

يَصُدُّ عَنِ الدُّنْيَا إِذَا عَنَّ سُوْدُودٌ وَلَوْ بَرَزَتْ فِي زِيٍّ عَذْرَاءُ نَاهِدٍ^(١)
 وزيادة أبي تمام بقوله « ولو برزت . . . » جعلت المعنى حسناً جميلاً حتى كاد
 يستبد به ، ومن ذلك قول الأسود بن يعفر .

يَسْعَى بِهَا ذُو ثَوَمَتَيْنِ كَأَنَّمَا قَنَاقَتُ أَنْامِلِهِ مِنَ الْفِرْصَادِ^(٢) التَّوَارِدِ^(٣)
 وقد أحسن أبو نُوَاسٍ أتباعه بزيادة من الحاسن ، قَالَ :
 يَبْكِي فَيُذْرى الدُّرٌّ مِنْ تَرْمِيسٍ وَيَلْطِمُ الْوَرْدَ بِمُشْنَابٍ
 وأحسن الواوَاءُ الدمشقي بعد أبي نُوَاسٍ ، قَالَ :

(١) السُوْدُودُ (بالهمز مضموم الدال الأولى ومن غيره مفتوحها) : السيادة والعرف .

(٢) قَنَاقَةٌ (كَنَعَ) : اشتدت حرته . التوَمَتَانِ : جَنَاتُ دُرٍّ . الْفِرْصَادُ : صَبْعٌ أَحْمَرٌ ، وَالْيَتِ فِي وَصْفِ
 سَاقِي الْحَرْقِ وَقَبْلَهُ :

وَلَقَدْ لَهَوْتُ وَلِلشَّابِ بِشَابَةٍ بِمِلَافَةِ مَرْجَتِ جِمَاءِ غَوَادِي

وَأَمْطَرَتْ لَوْلَا مِنْ نَرْجِسٍ وَسَقَتْ وَرَدًا وَعَصَتْ عَلَى الْعُنَابِ بِالْبَرْدِ
ومن ذلك أيضاً قول جرير :

إِذَا غَضِبْتَ عَلَيْكَ بَنُو تَيْمٍ رَأَيْتَ النَّاسَ كُلَّهُمْ غَضَابًا
أَخَذَهُ أَبُو نَوَاسٍ ، قَالَ :

لَيْسَ عَلَى اللَّهِ بِمُسْتَكْرٍ أَنْ يَجْمَعَ الْعَالَمَ فِي وَاحِدٍ ^(١)
فأبداع غاية الإبداع إذ أخرجه مخرج العموم وصاغه صيغة الكلمات الجامعة وبالغ في
مدحوه ، فجعله العالم على حين جعل جرير قبيلة تيم هي الناس كلهم ، ثم بقى فرق بين
العالم والناس فالأولى أشمل وأعم وأبعد في المبالغة .
ومن ذلك أيضاً قول الفرزدق في ناقته :

عَلَامَ تَلَفَّيْنِ وَأَنْتِ تَحْتِي وَخَيْرُ النَّاسِ كُلِّهِمْ أُمَامِي
مَنْ تَأْتِي الرُّصَافَةَ تَسْتَرِيحِي مِنَ الْأَنْسَاعِ وَالِدَبْرِ الدَّوَامِي ^(٢)
فأخذه أبو نواس وصار أحق به حين قال :

وَإِذَا اللَّطِيُّ بَنَا بَلْعَنَ مُحَمَّدًا فَظَهَرُوهُنَّ عَلَى الرَّجَالِ حَرَامُ
فقد جعل الفرزدق جزاء ناقته على إبرغ المدح أن يريحها فحسب من الأنساع والدبر
الدوامي . أما أبو نواس فكان أكرم وأدل على سروره ببقاء مدحوه وثقته بما يؤمل
منه ، إذ خلى راحته سائمة وحرم ظهرها على الركاب .

ومن المعاني التي سبق إليها جاهلي فتابع الشعراء في كل العصور على استعارة

(١) وقال أبو نواس في نفس المعنى :

مَنْ تَحْتِي إِلَيْهِ الرَّحْلُ سَالِمٌ تَسْتَجِمِي الْخَلْقَ فِي تَمَالِ انْسَانٍ
وقال المتنبي :

هَدِيَّةٌ مَا رَأَيْتَ مَهْدِيهَا إِلَّا رَأَيْتَ الصِّبَادَ فِي رَجُلٍ

(٢) الأنساع : جمع نسع ، وهو سير يشهد به الرجل . الدبر : جمع دبيرة ، وهي قرحة الدابة .

معناه قول أبي نواس :

فَتَمَشَّتْ فِي مَقَاصِلِهِمْ كَتَمَّتْ فِي الْبُرْءِ فِي السَّمِّ

فالأصمى يقول : إنه سرقة من مسلم بن الوليد حيث يقول :

تَجَرَّى حُبُّهَا فِي قَلْبٍ وَامِعَهَا جَرَّى السَّلَامَةُ فِي أَعْضَاءِ مُنْتَكِسِ^(١)

وهو أخذه من قول عمر بن أبي ربيعة :

لَقَدْ دَبَّ الْهَوَى لَكَ فِي فَوَادِي دَيْبِ دَمِ الْحَيَاةِ إِلَى الثَّرَوِي

وهو أخذه من قول بعض اللُذْرَيْنِ :

وَأَشْرَبَ قَلْبِي حُبَّهَا وَمَسَى بِهِ كَمَسَى حُمَيَّا الْكَأْسِ فِي عَقْلِ شَارِبِ

وَدَبَّ هَوَاهَا فِي عِظَائِي وَحُبُّهَا كَمَا دَبَّ فِي اللَّسُوعِ سُمُّ الْقَتَارِبِ

وهو أخذه من أَسْتَفْتِ نَجْرَانَ حيث يقول :

مَنْعَ الْبَقَاءِ تَقَلُّبُ الشَّمْسِ وَطُلُوعُهَا مِنْ حَيْثُ لَا تَمُتِي

وَطُلُوعُهَا خُمْرَاءَ صَافِيَةٍ وَغُرُوبُهَا صَفْرَاءَ كَالْوَسْرِ

نَجْرِي عَلَى كَيْدِ السَّمَاءِ كَمَا يَجْرِي حِمَامُ الْمَوْتِ بِالنَّفْسِ

ومن المعاني التي توارد عليها الشعراء قول النابغة :

إِذَا مَافَزُوا بِالْجَيْشِ حَلَقَ فَوْقَهُمْ عَصَائِبُ طَيْرٍ تَهْتَدِي بِعَصَائِبِ

جَوَانِحُ قَدْ أَيقَنَ أَنَّ قَبِيلَهُ إِذَا مَا اتَّقَى الْجَيْشَانِ أَوَّلُ غَالِبِ

أخذه أبو نواس ، فقال :

تَقَايَا الطَّيْرُ غَزَوَتَهُ نِقَّةٌ بِاللَّحْمِ مِنْ جَزَرِهِ^(٢)

وقال مسلم بن الوليد :

(١) المراد بالمنتكس : مطلق مريض . لا الذي طوده المرض به فنه .

(٢) تأيا بالمكان : تلبث وانتظر .

قد عَوَّدَ الطَّيْرَ عَادَاتِهِ وَتَقَنَّ بِهَا فَهَنْ يَنْبَغْنُهُ فِي كُلِّ مَرْحَلٍ
وقال أبو تمام :

وقد ظَلَّتْ أَعْنَاقُ أَعْلَامِهِ ضَخًى بِعِقْبَانِ طَيْرٍ فِي الدِّمَاءِ تَوَاهِلَ
أَقَامَتْ مَعَ الرَّايَاتِ حَتَّى كَانَتْهَا مِنَ الْجَيْشِ إِلَّا أَنَّهَا لَمْ تُقَاتِلِ

وجاء للتفتي فأضاف إلى المعنى ما جعله أحق به إذ قال :

يُبْدِي أَيْمُ الطَّيْرِ عُمْرًا سِلَاحَهُ نُسُورُ الْمَلَا أَحْدَانُهَا وَالْقَشَاعُ^(١)
وما ضَرَّهَا خَلْقٌ بغيرِ مَخَالِبٍ وَقَدْ خُلِقَتْ أَسْيَافُهُ وَالْقَوَائِمُ

وإنما لتقتصر على ما أوردنا حتى لا نخرج عن القصد من الإشارة والتمثيل ، وإن كان القول في هذا الباب من لباب العربية لأنه يفشى سرَّ الشعراء في انتحالهم نواحي المعاني وديبهم إلى محاسن القول ، ويدل على مقدار أذواقهم ، وما استطاعوه من زيادة بمحاولتهم ، أو قصروا عنه من وفاء وإبداع . فلصق العيب بالسارق ، وحفظ المعنى للسابق .

المعاني الجديدة

يراد بها تلك المعاني التي استقلَّ المحدثون بابتداعها ، ولم يسبقهم إليها جاهلي ولا إسلامي ، وتلك لعمر الحق كثيرة كثرة المشاهدات التي أحدثتها الحضارة متعددة تعدد العادات التي أوحى بها المدنية مبتكرة بهذا الفكر المثقف الذي قرأ حكمة الهند ، وتأدب بأدب الفرس ، وتأمل تأمل اليوناني الحكيم ، وإذا استبدَّ المتقدمون بمتانة التعبير وصحة الأداء ، وحازوا فضيلة السلامة من قصور الملسكة ، وكان كلامهم حجة في العربية ، ومعجماً لألفاظها وأساليبها ، فإن للمحدثين مزية المعنى ، والتحليق في سماء

(١) الملا : الفلاة ، وفي رواية الفلا فيكون جمع فلاة وهي الصحراء . الأحداث : الصغيرة . القشاع : السنة ، والمراد بأيم الطير عمرا النسور لأنها أطول الطيور عمرا .

الخيال ، واتساق الفكر ، ولقد قال أبو الفتح عثمان بن جنى . المولودون يستشهد بهم .
في المعاني كما يستشهد بالقدماء في الألفاظ .

ولا شك أن الشاعر إنما يحكى ما يرى ، ويصف ما أحس ، ومن الذى يتكر
أن الحضري قد شاهد ما لم يره البدوى ، فهو يعيش فى مدن حافلة وجموع حاشدة ،
ويرى أنواع الناس ، ومختلف الأزياء ، ويعيش بين القصور ، ويبصر ما تحوى من
أناث ورياش ، ويزنق مختلف الطعوم ، وهو يكسب رزقه بغير الوسائل التى يكسب
بها البدوى فيلتمسه فى صناعة أو زراعة أو تعليم أو كتابة ؛ والعربى إنما سبيله فيه
الفارة ، ومطاردة الوحش ، فكيف لا تختلف بسد كل هذا مقادير عقولهما
ومادة خيالهما .

وإذا كان ابن الرومى وابن المعتز ، وهما حضريان يظلهما عصر واحد ويعيشان
فى مدينة واحدة ، ويحسان إحساساً هو فى جملة واحد ؛ قد تباينت بهم الحال فيما
يصفان ؛ فكيف بالجاهلى أو الإسلامى إذ قيس إلى العباسى والحكم فى معيشتهم
متباين . ولقد ذكروا أن لائماً لام ابن الرومى وقال لم لا تشبه كتشييات ابن المعتز
وأنت أشعر منه ؟ فقال . أنشدنى من قوله الذى استعجزتنى فى مثله ، فأنشده فى
صفة الهلال :

فانظر إليه كزورقٍ من فضة قد أثقلتُهُ حُمُولُهُ من غَيْرِ (١)
قال فردنى فأنشده :

سقىا لروضاتِ لنا من كل نَوْرٍ حالِيه
صيونُ أَذْرِيُونِها للشمس فيها كَالِيَه (٢)

(١) الجمولة (بالضم) : المتاع الذى يحمل . والجمولة (بالفتح) الدابة يحمل عليها المتاع .

(٢) الأذريون : مربب آذركون : أى لون النار وهو ورد له أوراق حمراء وسطها سواد له بنود
وارتفاع وقد يكون أصفر ، ولاختلاف لونه يشبه بكاس من عقيق فيها مسك قال ابن المعتز :

مداهن من ذهب فيها بقايا غالية

فصاح واغوثاه بالله !! لا يكلف الله قساً إلا وسعها ، ذلك إنما يصف ماعون بيته
لأنه ابن الخلقاء وأنا أى شىء أصف ؟ ولكن انظروا إذا وصفت ما أعرف أين يقع
الناس كلهم منى . هل قال أحد قط أملك من قولى فى قوس الغمام ، (وروى الأبيات
التي رويت من ناحية أخرى لسيف الدولة ، وقد مرت بك) ، وقولى من قصيدة فى
صفة الرقاقة :

ما أنس لا أنس خبازاً مرت به يدخو الرقاقة مثل الملح بالبصر^(١)
ما بين رؤيتها فى كف كره وبين رؤيتها قوزاء كالقمر^(٢)
إلا بمقدار ما تنداح دائرة فى لجة الماء يرمى فيه بالحجر

وسنورد عليك من المعانى التي عرفت للمحدثين ، ولم تقع قبلهم لشاعر جاهل أو اسلامي
ما يكون مثالا لها وشاهداً عليها إذ لا سبيل إلى حصر ذلك ، فإنه كثير شائع .
فمن المعانى التي لم يعرفها المتقدمون قول بشار :

يا قوم أذني لبعض الحى عاشقة والأذن تمشق قبل العين أحيانا
قالوا بمن لا ترى تهذى فقلت لهم الأذن كالمين توفى القلب ما كانا

وقال أبو نواس (وقد ذكر للبرد أنه لم يسبق إليه) :

أيها الرائحان باللوم لوما لا أذوق المدام إلا سميما
نالى بالملام فيها إمام لا أرى لى خلافة مستقيما

وحمل أذريوة فوق أذنه ككأس عقيق فى قرارتها مسك

وقد يشبه مدهن من ذهب فيه شىء من الغالية (أخلط الطيب) كقوله المروى فى الأصل .
ومعنى كلاءة عيون الأذريون للشمس أنها تستقبلها وتدور معها حيث دارت . والضمير فى « فيها » للرياح .

(١) صا الفى : بسطه .

(٢) قور الفى : قطعه من وسطه خرقة مستديرا ، والمراد هنا مجرد الاستدارة .

فَاضِرٍ فَاهَا إِلَى سِوَايَ فَإِنِّي لَسْتُ إِلَّا عَلَى الْحَدِيثِ نَدِيمًا
كَبُرُ حَظِّي مِنْهَا إِذَا هِيَ ذَارَتْ أَنْ أَرَاهَا وَأَنْ أَشْمَّ النَّسِيًّا^(١)
فَكَأَنِّي وَمَا أَزِيئُ مِنْهَا قَمَدِي يُزِيئُ التَّحَكُّمًا
كُلٌّ عَنْ حَمْلِهِ السَّلَاحَ إِلَى الْخَرِّ بِ فَاَوْصَى الْمُطِيقَ الْأُنْفِ

وقوله في صفة نساء شمخارات (ويروى لابن المعتز) :

وَنَحَتْ زَنَايِرَ شَدَدَنْ عَقُودَهَا زَنَايِرُ أَغْكَانٍ مَعَاقِدُهَا الشَّرَرُ^(٢)
ومن اختراعات أبي تمام (وهو كثير الاختراعات) قوله :

وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ نَشْرَ فَضِيلَةٍ طُوِيَتْ أَتَاحَ لَهَا لِسَانَ حَسُودٍ
لَوْلَا اشْتِمَالُ النَّارِ فِيمَا جَاوَرَتْ مَا كَانَ يُعْرِفُ طِيبُ عَرَفِ الشُّوَدِ
وقوله في الرثاء :

بَنِي مَالِكٍ قَدْ نَبِهَتْ حَامِلَ الثَّرَى قُبُورٌ لَكُمْ مُنْتَشِرَاتُ الْمَالِمْ
غَوَاصُ قَيْدِ الْكَفِّ مِنْ مُتَنَاوِلٍ وَفِيهَا عَلَا لَا بُرْتُ تَقَى بِالسَّالِمِ
وقوله :

وَإِذَا الْمَجْدُ كَانَ عَوْنِي عَلَى الرَّءِءِ تَقَاضِيَتُهُ بِتَرْكِ التَّقَاضَى
وقوله :

لَيْسَ الْحِجَابُ بِمُقْصٍ عَنْكَ لِي أَمَلًا إِنَّ السَّمَاءَ تُرْجَى حِينَ تَحْتَجِبُ
ولابن الرومي في باب الاختراع مجال واسع إذ قد عرف بالنوص على اللماي واستقصاها

(١) كبر الصبي (بالكسر) : معظه .

(٢) الزنار : الحبل يشد على الوسط . المكنة : ما انطوى وثني من لحم البطن معنا ، والجمع أعكان وعكن .

حتى لا يدع فيها بقية لحاول ، ولعل ذلك إنما من نسبه إلى الروم ، وهم أهل تأمل
وسحكة وعقول راجحة ، فظهرت وراثته في المعاني التي غاص عليها واستقصاها ، ومن
ذلك قوله :

عَنِّي لِعَيْنِكَ حِينَ تَنْظُرُ مَقْتَلٌ لَكِنَّ لِحَطِّكَ سَهْمٌ خَفِيفٌ مُرْسَلٌ^(١)
وَمِنْ الصَّجَابِ أَنَّ مَعْنَى وَاحِدًا هُوَ مِنْكَ سَهْمٌ وَهُوَ مَعْنَى مَقْتَلٌ
وقال يعاتب من يزداد على التَّوَدُّدِ بهذا :

تَوَدَّدْتُ حَتَّى لَمْ أَدْعِ مُتَوَدِّدًا وَأَفْنَيْتُ أَقْلَامِي عِتَابًا مُرَدَّدًا
كَأَنِّي أَسْتَدْعِي بِكَ ابْنَ حَنِينَةٍ إِذَا النَّزْعُ أَذْنَاهُ مِنَ الصَّدْرِ بَعْدًا
وقوله في الغزل :

نَظَرْتُ فَأَقْصَدْتُ الْفَوَادَ بِلَحْظِيهَا ثُمَّ انْتَشَنَتْ عَنْهُ فَظَلَّ يَسِيمٌ
فَالْمَوْتُ إِنْ نَظَرْتُ وَإِنْ هِيَ أَعْرَضَتْ وَقَعُ السَّهَامِ وَتَرَعْنُ أَلِيمٌ
وقوله في تعليل طول قصائد المدح بأنه هجاء للمدح :
وَإِذَا امْرَأُؤُا مَدَحَ امْرَأً لِنَوَالِهِ وَأَطَالَ فِيهِ فَقَدْ أَرَادَ هِجَاءَهُ^(٢)
لَوْ لَمْ يُقَدَّرْ فِيهِ بَعْدُ الْمُسْتَقَى عِنْدَ الْوُرُودِ لِمَا أَطَالَ رِشَاءَهُ
وقوله في صفة بجيل :

(١) مقتل : اسم مكان . والمعنى أن عيني هي المكان الذي تهطل منه عينك ، فاذا نظرت إلى ونظرت
إليك كان في ذلك هلاك ، وما سبب ذلك إلا عينك التي أثرت في بوقع نظرها الذي هو كالسهم
ولولا أني نظرت إليك فرأت هذا الطرف الساحر ما وقعت تحت تأثيره الذي أودى بحياتي .
(٢) كرر ابن الرومي هذا المعنى فقال :

إِذَا عَنَ رَفْدَ الْمُسْتَقْدِ أَطَالَ الْمَدْحَ لَهُ الْمَادِحُ
وقدما إذا استبعد للمستق أَطَالَ الرِّشَاءَ لَهُ الْمَاخُ
وقد أخذ السراج الوراق هذا المعنى فقال :

سَامِحٌ بِفَضْلِكَ عَبْدًا مَقْصُورًا فِي الثَّنَاءِ
رَأَى قَلِيًا قَرِيًّا قَلَمَ يَطُلُ فِي الرِّشَاءِ

يُقَتَّرُ عِيسَى عَلَى نَفْسِهِ وليس بَاقٍ ولا خَالِدٍ
فَلَوْ يَسْتَطِيعُ لَتَقْتِيرَهُ تَنَفَّسَ مِنْ مَنَحَرٍ وَاحِدٍ

ومن المعاني المحترقة قول ابن الخياط ، وينسب إلى بشار :

لَمَسْتُ بِكَفِّي كَفَّهُ أَبْتَغِي النَّفَى ولم أَذِرْ أَنَّ الْجُودَ مِنْ كَفِّهِ يُعْدَى
فَلا أَنَا مِنْهُ مَا أَفَادَ ذُوو النَّفَى أَقَدْتُ وَأَعْدَانِي فَأَتَلَفْتُ مَا عِنْدِي

ومن ذلك قول المتنبي في ابن العميد ، وزير ركن الدولة .

من مُبْلَغِ الْأَعْرَابِ أَنِّي بَعْدَهَا جَالَسْتُ رَسْطَالِيسَ وَالْإِسْكَندَرَا
وَسَمِعْتُ بَطْلِيْمُوسَ رَاوِيَ كُتْبِهِ مُتَمَكِّكًا مُتَبَدِّيًا مُنْهَضَرَا
وَلَقِيتُ كُلَّ الْقَاضِلِينَ كَأَنَّمَا رَدَّ إِلَهُهُ قُوسَهُمْ وَالْأَعْصَرَا
نُسِقُوا كَمَا نُسِقَ الْحِسَابُ مُقَدِّمًا وَأَتَى فَذَلِكَ إِذْ أَتَيْتُ مُؤَتَرَا^(١)

وقوله :

حُلِقْتُ أَلُوفًا لَوْ رَجَعْتُ إِلَى الصَّبَا لفارقتُ شَيْئِي مُوجِعَ الْقَلْبِ بِأَكْبَا
ومن المعاني التي لم يعرفها المتقدمون إذ لم تكن المثلة بالصلب شائعة في أيامهم شيوعها في
هذه الأيام ، وإن حصلت فإنه لم يحصل أن رثى مصلوب ، قول ابن الأنباري في
ابن بَقِيَّةٍ :

كَأَنَّ النَّاسَ حَوْلَكَ حِينَ قَامُوا وَفُودُ نَدَاكَ أَيَّامَ الصَّلَاةِ
كَأَنَّكَ قَامْتُمْ فِيهِمْ خَطِيْبًا وَكُلُّهُمْ قِيَامٌ لِلصَّلَاةِ
وَلَمَّا ضَاقَ بَطْنُ الْأَرْضِ عَنْ أَنْ يَضُمَّ غُلَاكَ مِنْ بَعْدِ الْوَفَاةِ
أَصَارُوا الْجَوَّ قَبْرَكَ وَاسْتَعَاذُوا عَنْ الْأَكْفَانِ ثَوْبَ السَّافِيَاتِ
وقول عُثْمَارَةَ الْبَيْهِي فِيهِ :

(١) قيل إن كلمة فذلك فاعل آتى : أى آتى هنا اللفظ الذى يقال عند الجملة في آخر الحساب .

وَمَدَّ عَلَى صَلِيبِ الصَّالِبِ مِنْهُ يَمِينًا لَا تَطُولُ إِلَى شِمَالِ
وَنَكَسَ رَأْسَهُ لِعِتَابِ قَلْبٍ دَعَاهُ إِلَى الْقَوَايَةِ وَالضَّلَالِ
ومن العجيب أن تمارة صلب بعد قوله بقايل ، صلبه الملك الناصر صلاح الدين يوسف
ابن أيوب :

ونحن نكتفي من المعاني الحديثة بما أوردنا فإنها كثيرة لا تكاد تحصى .

أغراض الشعر

لاختلاف الزمن وتقلب الأيام أثر في الأغراض التي يحاول الشعراء القول فيها ،
إذ أن اختلاف نوع المعيشة ، وتبدل وسائل الحياة ، وتفاير علاقات الناس بعضهم
ببعض ، والانتقال إلى العلم بعد الجهل ، والتزام عادات ، واطراح أخرى ، واستحسان
ما كان مستقبحاً ، واستقباح ما كان مستحسناً ، والاعتداد بما كان مغفلاً ، وإغفال
ما كان مرعياً ، كل أولئك أسباب تجعل اتجاه المقول في عصر يختلف عنه في عصر
آخر . لذلك كان لزاماً أن يصبح للشعر في العصر العباسي أغراض غير أغراضه في
العصور الماضية ، وليس يلزم من ذلك أن يمحي القديم ، وينشأ جديد لاصلة له به ،
بل نجد في العصر الناشئ أغراضاً حدثت ، وليس لها في القديم سبب ترجع إليه ، ونجد
الأغراض القديمة التي بقيت قد حدث فيها ما جعلها ذات طابع غير طابعها في العصر
الذي قبله .

فكثير من الأغراض القديمة كالمدح والهجاء ، والغزل بالمؤنث ، والوصف والفخر
والسياسة ، والزهد ، والحكمة ، والمثل أكثرها منها ، وافتنوا في معانيها ، وصبغوها
بصبغة المبالغة حتى انتهت المدح إلى الكفر أو قريب منه ، وصار الهجاء أقذاعاً شائناً
لهاجي قبل المبهج ، وفي الوصف تناولوا كل ما وقعت عليه عيونهم من قصور وبساتين

وسفن ، ومجالس أنس ، وبرك ماء ، وطير ، وسمك ، حتى لقد تناولوا صغير الأشياء كالمرقد ، والشمعة ، والقلم ، والدواة ، وفي السياسة تناولوا العصبية بين المضربة واليمانية ، أو بين المعجم والعرب ، واحتجّ للعباسيين قوم ، وانتصر العلويين آخرون حتى لقد انتهى التعصب إلى الآراء في العلوم ففاضوا بين نحوي البصرة والكوفة . ومن الأغراض التي جدت ولم يكونوا يعرفونها من قبل الغزل بالذكر (وأظهر ما فيه وصف المنار) ، والتعصب لبعض أنواع الزهر ، والقول في المصاوين ، والغوص في الجون ، وهجاء المغنين ، والانتهاج بالأبنة ، والنمّ بالرشوة ، ووصف أنواع المطاعم ، ونظم القصص ، والحكايات التهذيبية ، وضبط قواعد العلوم من فقه وغيره . ومن المعاني القديمة التي شنت عليها الفارة الوقوف بمنازل المحبوبة والبكاء واستبكاء الأصحاب ، ووصف الآثار من نُؤى وأُنأى^(١) وأبعاد ، ثم ذكر الناقة ، وحنينها إلى العطن ، ووصف خلقها ، وجميل صبرها ، ووصف الصحراء وما قاسى الشاعر من حرها وعاصف ريحها ، وما صادف من وحشها . ولكنّ قوما قد بقوا إلى حين متمسكين بالتقديم يحنون إليه ، ويرون في التزامه بقاء لرونق العربية ، وحفظا لمود القصيد . وأول من شنّ الفارة على ذلك أبو نواس ، فإنه جعل وصف الخمر هو مفتتح قصائده ، فكان أول المجددين في ذلك واتباعه الشعراء .

ولقد أكثر أبو نواس من التنديد بالطريقة القديمة حتى كان حامل لواء هذا التبعيد بقوله :

لَا تَبْكُ أَيْلَى وَلَا تَطْرَبُ إِلَى هِنْدٍ وَأَشْرَبُ عَلَى الْوَرْدِ مِنْ حَرَاءِ كَالُورِدِ
وقوله :

(١) نؤى : جمع نؤى (كفعل) ونؤى (كبت) ونؤى (كهدى) وهو الحفيرة تجعل حول الجباء يتجمع فيها ماء المطر . الأُنأى : جمع أنأى ، وهى الخمر تنصب عليه القدر .

صِقَّةُ الطُّلُولِ بِلاَغَةِ الْقُدَمِ فاجعل صفاتِكَ لابنة الكَرَمِ^(١)
وقوله :

سَقِيًّا لِنَـيْرِ الْعِلْيَاءِ فَالْـسَنَدِ وَغـيْرِ أَطْلَالٍ نَحْيٍ بِالْجَرْدِ
وقوله :

يَا رِبْعُ شُغْلِكَ إِنِّي عَنْكَ فِي شُغْلٍ لَا نَاقِيَّ فَيْكَ لَوْ تَدْرِي وَلَا جَمْلِي
وقوله :

تَبَيَّنِي عَلَى طَلَلِ الْمَاضِينَ مِنْ أَسَدٍ لَا دَرَّ دَرُّكَ قُلْ لِي مَنْ بَنُو أَسَدٍ؟
لَا يَفَّ دَمْعُ الَّذِي يَبْنِي عَلَى حَجَرٍ وَلَا صَبَأُ قَلْبٍ مَنْ يَصْبُو إِلَى وَتَدٍ
وقد أحل أبو نواس ذكر الحز وإعلان محاسنها محل بكاء الدار ، فجعله مستهلاً
قصائده ، ولكنه لما اشتهر بذلك وبأن فجوره فيه حبسه الرشيد ، فاضطر أن يعود في
سخرية وتنادر إلى ذكر الأطلال ، وهجر النعت للخمر ، فقال :

أَعْرِ شِعْرُكَ الْأَطْلَالَ وَالْمَنْزِلَ الْفَقْرَا قَدْ طَلَمَا أَرْزَى بِهِ نَعْتُكَ الْحَزَا
دَعَانِي إِلَى نَعْتِ الطُّلُولِ مُسَلِّطٌ تَصِيقُ ذِرَاعِي أَنْ أَرُدَّ لَهُ أَمْرَا
فَسَمَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَطَاعَةً وَإِنْ كُنْتُ قَدْ جَسَمْتَنِي مَرَّ كِبَاؤُ عَرَا

نماذج من أغراض الشعر

الممدح

كان من آثار المدنية أن تتمتع الملوك بالسلطان الواسع ، وتأيد ملسكهم بالجيوش
الكثيفة ، وامتلات قصورهم بالفلمان والجواري ، وسعى بين أيديهم القواد والوزراء

(١) القدم : يصح اعتبارها جما لقدم ويكون أصلها قدم (يضمنين) ثم خفت بتسكين اللال .
ويصح ضبطها بكسر القاف ويكون أصلها القدم (بكسر ففتح) ثم خفت بتسكين اللال أيضا .
ويصح قراءتها بالقاء المفتوحة (القدم) ويكون ذلك من أبي نواس جريا على عادة في ذمه
للرب وتثنيح أمرهم .

فزادت هيبتهم في النفوس ، وعظم إجلال الناس لهم ، وتأثر الشعراء بهذه المظاهر ، واحتاج الخلفاء ومن على شاكلتهم من القواد والوزراء والأمراء أن تزداد هيبتهم في نفوس العامة ، فأجزلوا العطاء على قدر المبالغة في مدحهم فأكثر الشعراء من ذلك . وكان القدماء قد قنعوا بحاتم مثلاً أعلى في الجود ، وعمر بن معديكرب غاية في الشجاعة ، والبدر مصدراً للجمال الفائق ، فلما شبه أبو تمام المعتصم بهذه الأمثلة عابه بعض جلساء الأمير ، وقال : الأمير فوق من ذكرت ، فاضطر أبو تمام أن يعتذر بقوله :

لا تُنْكِرُوا صَرِيَّيْ لَه مَنَّ دُونَهُ مثلاً شَرُوداً فِي النَّدَى وَالْبَاسِ
فَاللَّهُ قَدْ ضَرَبَ الْأَقْلَّ لِنُورِهِ مَثَلًا مِنَ الْمَشْكَاةِ وَالنَّبَاسِ

ولكنه عرف أن الاقتصار على هذا الحد من الثناء لا يرضى الأمير ولا متعلقيه .

وقد حكى لنا علي بن عبد الرحمن بن المنجم أن محبوبته لم ترض عن تشبيه إياها بالبدر ، فقال :

شَبَّهْتُهَا بِالْبَدْرِ فَاسْتَضَعَّكَتْ وَقَابَلْتُ قَوْلِي بِالنُّكْرِ^(١)
وَسَفَّهْتُ قَوْلِي وَقَالَتْ مَنَى سَمِعْتُ حَتَّى صِرْتُ كَالْبَدْرِ
الْبَدْرُ لَا يَرْنُو بَعِينَ كَمَا أَرْنُو وَلَا يَبْسِمُ عَنْ نَعْرِ
وَلَا يَحِيطُ الْمَرْطَ عَنْ نَاهِي وَلَا يَشُدُّ الْعِقْدَ فِي نَحْرِ
مَنْ قَاسَ بِالْبَدْرِ صِفَائِي فَلَا زَالَ أُسِيرًا فِي يَدَيَّ هَجْرِي

وقال المتنبي :

هُمْ الْمَحْسَنُونَ الْكَرَّ فِي حَوَمَةِ الرَّغَى وَأَحْسَنُ مِنْهُمْ كَرُهُمْ فِي الْكَارِمِ
وَلَوْلَا احْتِفَاؤُ الْأَشَدِّ شَبَّهْتُهَا بِهِمْ وَلَكِنَّا مَعْدُودَةٌ فِي الْبِهَامِ^(٢)
وقال السَّلايُ^(٣) شاعر اليعقبة :

(١) النكر : استخفاف الأمر .

(٢) ويرى شبهتهم بها وهي أظهر . والأولى أشد مبالغة لقب التشبيه .

(٣) السلاي : نسبة إلى دار السلام (بغداد) .

تُسَبِّهُ الْمَدَّاحُ فِي الْبَاسِ وَاللَّدَى بِنِ لَوْرَاهُ كَانَ أَصْعَرَ خَادِمِ
فِي جَيْشِهِ خَمْسُونَ أَلْفًا كَعَنْتَرٍ وَأَمْضَى وَفِي خُرَّائِهِ أَلْفُ حَاتِمِ
فَاتَّبَعَتْ أَذْهَانَ الشُّعْرَاءِ إِلَى الْمِبَالِغَةِ الَّتِي أَصْبَحَتْ تَسْتَدْعِيهَا عَظَمَةُ الْمَدْحِ وَانْتِمَاسُهُ
فِي التَّرَفِّ وَنَزْوَعِهِ إِلَى الْغُرُورِ وَالْإِعْجَابِ بِالنَّفْسِ ، فَكَانَ مِنَ الشُّعْرَاءِ افْتِنَانٌ وَغَوْصٌ
عَلَى الْمَعَانِي الَّتِي تُثِيرُ الْإِعْجَابَ ، وَتَزِيدُ فِي تَعَجُّبِ الْمَدْحِيِّينَ الَّذِينَ دَلُّوا عَلَى رِضَاهُمْ بِكَثْرَةِ
الْعَطَاءِ وَتَقَرُّبِ مَنْ شَفَى حَاجَةَ نَفْسِهِمْ مِنَ الشُّعْرَاءِ . بَلْ لَقَدْ طَالَبُوا بِالْإِفْرَاطِ فِي مَدْحِهِمْ ،
فَقَدْ حَكَمُوا أَنَّ الشُّعْرَاءَ اجْتَمَعُوا بِبَابِ الْعَتَمِصِّ ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ ابْنُ الزِّيَّاتِ يَقُولُ لَهُمْ : مَنْ
كَانَ يَحْسُنُ أَنْ يَقُولَ مِثْلَ قَوْلِ الْغَمَرِيِّ فِي الرَّشِيدِ :

حَلِيفَةُ اللَّهِ إِنْ الْجُودَ أَوْدِيَهُ أَحَلَّكَ اللَّهُ مِنْهَا حَيْثُ تَجْتَمِعُ
(وَقَدْ مَرَّتِ الْآيَاتُ ص ٣٠) ، فَلْيَدْخُلْ وَإِلَّا فَلْيَنْصَرَفْ ، فَقَامَ مُحَمَّدُ بْنُ وَهَّابٍ
فَقَالَ فِينَا مَنْ يَقُولُ مِثْلَهُ ، فَقَالَ أَىِّ مَعْنَى ؟ فَقُلْتُ فَقَالَ :

ثَلَاثَةٌ تُشْرِقُ الدُّنْيَا بِبَهْجَتِهَا شَمْسُ الضُّحَى وَأَبُو إِسْحَاقَ وَالْقَمَرُ
فَادْخُلْ عَلَى الْخَلِيفَةِ ، وَحَسَنَتْ جَارَتُهُ .

وَمُحَمَّدُ بْنُ وَهَّابٍ هَذَا هُوَ الَّذِي يَقُولُ فِي مَدْحِ الْحَسَنِ بْنِ سَهْلٍ :

تَعْظُمُ الْأَوْهَامُ قَبْلَ عِيَانِهِ وَيَصْدُرُ عَنْهُ الطَّرْفُ وَهُوَ مُخَازِرُ
بِهِ تُجْتَدَى النِّعْمَةُ وَتُسْتَدْرَكُ الْمَنَى وَتُسْتَكْمَلُ الْحُسْنَى وَتُرْعَى الْأَوَاصِرُ
أَصَاتَ بَنَاتِ دَاعِي تَوَالِكَ مُؤَذِّنًا بِمِجْدِ الْإِلَهِ لَا يُحَاوِرُ
قَسَمْتُ صُرُوفِ الدَّهْرِ بِأَسَاوِنَاثِلَا فَالْكُ مَوْتُورٌ وَسَيْفُكَ وَاتِرُ
وَلَوْ لَمْ تَكُنْ إِلَّا بِنَفْسِكَ فَخِرًا لَمَا انْتَسَبْتَ إِلَّا إِلَيْكَ الْمُنَافِرُ

فَطَرَبَ الْحَسَنَ حَتَّى نَزَلَ عَنْ سَرِيرِهِ إِلَى الْأَرْضِ وَقَالَ : أَحْسَنْتُ وَاللَّهِ وَأَجَلْتُ ، وَلَوْ لَمْ
تَقُلْ فِيَّ وَلَا قُلْتَ بَاقِي دَهْرِكَ غَيْرَ هَذَا لَمَا احْتَجَجْتُ إِلَى الْقَوْلِ ، وَأَمَرَ لَهُ بِخَمْسَةِ آلَافٍ
دِينَارٍ ، وَاقْتَطَعَهُ إِلَى نَفْسِهِ ، فَلَمْ يَزَلْ فِي كَفِّهِ أَيَّامَ وَلايَتِهِ . وَبَعْدَ ذَلِكَ إِلَى أَنْ مَاتَ ،
لَا يَتَصَدَّقُ لغيرِهِ .

وبالغ المتنبي في شأن ممدوحيه حتى يستأثر بعباياهم ، فقد خوطب عضد الدولة في شأنه حين استدعاه ليمدحه ، فقيل له : إنك ستمطيه مالو وزعته على ثلاثين شاعراً
للمثوا الأرض بمدأحك فلم يصخ إلى قول النصاح :
والمتنبي هذا هو الذي يقول في أبي على الكاتب :

لم تَلَقْ هذا الوجهَ شمسُ نهارنا إلا بوجه ليس فيه حياه
فبأي ما قدم سَعَيْتَ إلى الملا أدُمُ الهلال لأخَصِيكَ حَدَاةً (١)
ولك الزمانُ من الزمانِ وقايةً ولك الحِمَامُ من الحِمَامِ فِدَاةً (٢)
لو لم تكن من ذا الوريِّ الَّذِي مِنْكَ هُوَ عَقِمْتَ بِمَوْلِدِ نَسْلِهَا حَوَاةً (٣)
ويقول في كافور :

تَجَاوَزَ قَدْرَ الْمَدْحِ حَتَّى كَانَهُ بأحسن ما يُثْنَى عليه يُعَابُ
وغالبه الأعداءُ ثم عَنَوْا له كما غالبت بِيضُ السِيوفِ رِقَابُ
وَأَكْثَرُ مَا تَلَقَى أبا الْمَكِّ بِذَلَّةٍ إذا لم يكن إلا الحديدُ ثِيَابُ
وأوسع ما تلقاه صدرا وخَلْفُهُ رِمَالًا وَطَعْنُ والأَمَامَ ضِرَابُ (٤)
وأَتَدُّ مَا تَلَقَاهُ حُكْمًا إِذَا قَضَى قَضَاءَ مَلُوكِ الْأَرْضِ مِنْهُ غَضَابُ

وقد غر قوماً كثرة العطاء ، وهان عليهم أمر الدين فلم يتهيبوا أن يرفعوا ممدوحهم

-
- (١) ما زائدة . والمعنى على التمجيد من وصوله إلى درجة في الدال لم يصل إليها غيره ، فهو يقول : بأي قدم وصلت إلى هذه المألى ، ثم دحا له بأن يكون وجه الهلال فعلا له ،
(٢) المعنى ليكن الزمان وقاية لك من عوادي : أى ليهلك هو بها دونك ولبيت الموت فداء لك من نفسه .
(٣) اللذ لغة في الذئ ، والضمير «هو» بالتسكين ضرورة أولفة ، ومعنى البيت : لو لم تكن بين الناس لمدت حواء عقبها مع ماولك من نسلها ، وجعل الناس منه في قوله : « الوري الذي منك هو » لأنه جاهل وعرفهم حتى كأنهم ساقطون دونه .
(٤) الرما والضرب مصدران بمعنى الفاعلة : أى للرماطة وللضاربة . الابتذال : ترك صيانة الشيء . والمعنى أنه يكون أوسع صدرا حين تضيق الصدور بإحاطة جيوش الأعداء .

إلى مقامات يسامون فيها الله عز وجل ، فمنهم من دنا من الشرك ، ومنهم من وقع فيه .
قال أبو نواس :

وَأَخَفْتُ أَهْلَ الشَّرِكِ حَتَّى إِنَّهُ لَتَخَافَكَ التُّطْفُ التِّي لَمْ تُخْلِقْ
وقد قيل إن العتاني لقي أبا نواس ، فقال له : أما استحييت من الله بقولك :
« وَأَخَفْتُ . . . » ، فقال له أبو نواس : وأنت أما استحييت منه بقولك :

مَا زِلْتُ فِي عَمَرَاتِ الْمَوْتِ مُطَرَّحًا يَضِيقُ عَنِّي وَسِيمُ الرَّأْيِ مِنْ حَبِيلِ
فَلَمْ تَزَلْ دَائِمًا تَسْعَى بِلُطْفِكَ لِي حَتَّى اخْتَلَسْتَ حَيَاتِي مِنْ يَدَيَّ أَجَلِي
فقال العتاني : قد علم الله وعلمت أن هذا ليس مثل ذاك ، ولكنك أعذدت لكل
ناصح جواباً ، وقد أعاد أبو نواس : للعتي في قصيدة أخرى ، فقال :

حَتَّى الَّذِي فِي الرَّحْمِ (لَمْ يَكْ صُورَةٌ) لِقَوَادِهِ مِنْ خَوْفِهِ خَفَقَانُ
وقد بالغ البحتري في المتوكل مبالغة زائدة ، ولكنه لم يحم حول الإشرار إذ كان معناه
في ناحية أخرى ، فقال :

وَلَوْ أَنَّ مَشْتَاكَ تَكَلَّفَ فَوْقَ مَا فِي وَسْمِهِ لَسَعَى إِلَيْكَ الْمُنْبَرُ
لحدث البلاذري قال : كنت من جلساء المستعين بالله وقد قصده الشعراء ، فقال لهم :
لست أقبل إلا من قال مثل قول البحتري (وذكر البيت السابق) قال البلاذري :
فرجعت إلى بيتي ثم لقيته وقلت له : قد قلت فيك أحسن مما قال البحتري ، فقال :
هات ، فأنشدته :

وَلَوْ أَنَّ بُرْدَ الْمُصْطَفَى إِذْ لَبِسَتْهُ يَظُنُّ لَفَنَّ الْبُرْدُ أَنَّكَ صَاحِبُهُ
وَقَالَ وَقَدْ أُعْطِيَتْهُ وَلَبِسَتْهُ نَعَمْ هَذِهِ أُعْطَاهُ وَمَنَّا كِبُهُ
فقال له المستعين : ارجع إلى بيتك وافعل ما أمرك به . فرجع فبعث إليه سبعة آلاف
دينار وقال : ادخر هذه للحوادث بعدى ، ولك على الجراية والكفاية ما دمت حيًّا .
ومن الغلو الذي إن لم يكن كفرًا ، فهو منه قريب قول ابن دريد يخاطب الدهر .

مَارَسَتْ مَنْ لَوْهَوْتَ الْأَفْلَاحِ مِنْ جَوَانِبِ الْجَوِّ عَلَيْهِ مَا شَكَا
 قيل إنه لادعائه الجبروت في هذا البيت ابتلاه الله بمرض كان يخاف فيه من النباب
 أن يقع عليه ، ومن قوله وهو كفر صراح :

وَلَوْ حَمَى الْقَدَارُ مِنْهُ مُهْجَةً لَرَامَا أَوْ يَسْتَبِيحَ مَا حَمَى
 تَعْدُو الْمَنَايَا طَالَعَاتٍ أَمْرَهُ تَرْضَى الذِي يَرْضَى وَتَأْتِي مَا أَتَى
 وقول المتنبي :

إِنْ كَانَ مِثْلَكَ كَانَ أَوْ هُوَ كَأَنْ فَبُرْتُ حِينَئِذٍ مِنَ الْإِسْلَامِ
 وقال المتنبي :

يَبْتَزُّنَ مِنْ رَفَى رَسَقَاتٍ هُنَّ فِيهِ أَخْلَى مِنَ التَّوْحِيدِ
 وقد اعتذر عنه بعض المتعصبين له بأن التوحيد هنا نوع من التمر ، وبعض أصلح
 البيت ، قال :

هُنَّ فِيهِ حَلَاوَةُ التَّوْحِيدِ
 وذكروا أن عضد الدولة لما قال :

مُبِيرَاتِ السَّكَّاسِ مِنْ مَطْلَمِهَا سَاقِيَاتِ الرَّاحِ مِنْ فَاقِ الْبُشْرِ

لم يفاجئ بعد هذا القول وأخذته علة انصرع ودخل في غمرات الموت فكان لا ينطق إلا
 بقوله تعالى : « مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيهِ . هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ » . والمتساهلون في هذا
 النوع كثيرون ، كابن نواس ، وابن هاني الأندلسي ، والمتنبي ، والمرعي وغيرهم من
 المتأخرين ، كابن النبية ومن جرى مجراه .

الهجاء

يمثل الهجاء في هذا العصر مآثره المدنية من خبث النفوس، وتبعية العثرات، وسهولة الادعاء، والتقول على الناس (لضعف الوازع الديني). كذلك كان من أثر المدنية أن تعددت المثالب، وكثر الفجور، فكان ما تورط الناس فيه من المفاصد مادة لهجاء. فعبهوا باللواط والأبنة والرشوة وامتناع الوفاء. كما كان من آثار المدنية أن ارتفعت الأذواق، فاستقذرت بعض المناظر، وهجنت بعض العادات. فذموا اللحى، واستبشعوا طولها، وهزئوا بالخلقة المشوهة، والأنوف الكبيرة، واستهجنوا بعض أصوات الغنمين؛ مما يدل على أن الشعور قد دق، والإحساس قد رقى.

ولم يكن كلّ الباعث على الهجاء تلك الأحقاد التي تغلّ بها الصدور، والعصبية التي تقتل في النفس طبيعة الإنصاف، وفضيلة الرحمة كما كان ذلك في العصور الماضية. بل كان مرجع أغلبه إلى السخرية والتهكم وحبّ التنادر، والغلو في الجحون، وإظهار البراعة في التقييد وتوليد المعاني فيه. كما هو الشأن اليوم فيمن توفرت لهم أسباب الراحة وخلت أيديهم من الأعمال، وأفكارهم من البلبال فهم يزجون وقتههم بالتنادر على ذى خلفة عجيبة. أو عادة غريبة، وربما لم يجدوا حقيقة يدّعون بها دعواهم فنوها على الخيال الكاذب.

وقد يبنى الهجاء على سبب ليس له في قرارة النفس غور، ولكنه ناشئ من حرمان الشاعر من البطء، وذلك حين كثرت الشراء وقلت رغبة المدحون في الجود فترتب على ذلك أن الشاعر يمدح المرء طمعا في ماله، ثم ينجيب أمله فيذمه، ثم يعود إلى الرضا حين يجد له أملا فيه، وهكذا أصبحت دواوين الشراء ميداناً لمناقضات تدل على انحطاط أفسس الشراء، وأنهم لا يتبعون في ذمهم أو مدحهم رأياً يتعصبون

له ، أو حقيقة يدافعون عنها ، فذمهم وذمهم كله كذب ، وهم أعلم الناس بكذب مزاعمهم . ولم يكن للأخلاق رقيب يحميها ، ولا لهؤلاء الذين اتخذهم الناس هزاة من يدفع عنهم تلك العاديات ، فانطلق المساجون يقولون بالحق وبالباطل ، ويبالغون في الصغير حتى يجعلوه جسيما ، والوهم حتى يصيروه حقيقة . ولقد كانت هذه الإباحة شأن الدولة في كل شئ يتعلق بالأدب أو المعتقد ما لم يمس الخلافة أو سلطان ذوى السلطان .

ذكروا أن دعبلاً هجا للأمون بقوله :

أُوسُوفُ لِلْأُمُونُ حُطَّةٌ عَاجِزٌ	أوما رأى بالأمس رأسَ مُحَمَّدٍ
يُوفى على هامِ الخِلافِ مِثْلَ ما	تُوفى الجبالُ على رُءُوسِ القُرودِ ^(١)
ويحلُّ في أكْفافِ كُلِّ مُنْتَمِعٍ	حتى يُدَلِّلَ شاهِقاً لم يُصْعِدِ
إِنَّ السَّارَاتِ مُسَهَّدٌ طَلَّابُهَا	فأَكْفُ لُعاَبِكَ عن لُعاَبِ الأسودِ
إِنِّي مِنَ القَوْمِ الَّذِينَ سَيُوفُهُمْ	فَتَلَتْ أَخَاكَ وَشَرَفَتْكَ بِمَقْعَدِ ^(٢)
شَاكُوا بِذِكْرِكَ بَعْدَ طَوْلِ حُمُولِهِ	واستَنَقَدُواكَ مِنَ الحَصِيضِ الأوْهَدِ

فلما بلغ الأمون قوله : ما زاد على أن قال : قاتل الله دعبلاً متى كنت خالماً ؟ وفي حجر الخلافة ولدت ، وبدرّها غُذِيَتْ ، وفي مهدّها رُيِّيت .



قال ابن الرومي حين خاب أمه في جائزة الدح :

إِنْ كُنْتُ مِنْ جَهْلٍ حَقٍّ غَيْرِ مُتَذَرٍّ أَوْ كُنْتُ عَنْ رَدِّ مَدْحِي غَيْرِ مُنْقَلَبٍ^(٣)
فَاعْطِنِي ثَمَنَ الطَّرْسِ الَّذِي كَتَبْتَ فِيهِ الْقَصِيدَةُ أَوْ كَفَّارَةُ الْكُذِبِ
وَقَالَ فِي نَفْسِ الْمَنَى أَبُو الْمُظَفَّرِ الْأَبْيُورَدِيُّ :

(١) القرد : ما ارتفع من الأرض .

(٢) يشير إلى طاهر بن الحسين الخزاعي ، وهو من قبيلة دعبل .

(٣) سبق أن روي الأبيات ، وفيها «متب» بدل «منقلب» و«ما رويان» .

ومداح تحكي الرياض أضمتها في باخل أعيت به الأحساب^(١)
فاذا تنكسها الزواة وأبصروا السمودح قالوا ساحر كذاب

وقال بشار بن برد في بخيل :

خليلى من كذب أعينا أحاكما على دهره إن الكريم معين
ولا تبخلأ بخل ابن قزعة إنه مخافة أن يرجى نداء حزين
كان عبيد الله لم يلق ماجدا ولم يدبر أن للكرومات تكون
إذا جئت في حاجة سد بابها ولم تلقه إلا وأنت كمين
قل لأبي يحيى متى تبلى السن وفى كل معروف عليك يمين

وقال أبو المتاهية يهجو معن بن زائدة :

فصنع ما كنت حليست به سيفك خلخالاً
فما تصنع بالسيف إذا لم تك قتالاً

وقال البحتري يهجو الخثعمي بكبر الأنف :

رأيت الخثعمي يقل أفا يضيق برضه البلد الفضاء
سما صمداً قصر كل سامه لهيته وغص به الهوا^(٢)
هو الجبل الذى لولا ذراه إذا وقعت على الأرض السياه

وقال ابن الرومي فى صلوة أبي حنيفة الوراق :

يا صلوة لأبي حنيفة ممردة كان ساحتها مرأة فولاذ
ترن تحت الأكتاف الواقعات بها حتى ترن بها أكفاف بقذاذ^(٣)

وقال يهجو كنيزة الغنية :

- (١) أعيا : تعب .
(٢) غص (كضرب وفرح والمضارع بالفتح قطع) : امتلأ .
(٣) بقذاذ (بالذال) لفة فى بنداد .

شَاهَدْتُ فِي بَعْضِ مَا شَاهَدْتُ مُسَمِّعَةً
تَقَالُ نَلَسْتُ عَلَى مَنْ ضَمَّ جَلْسُهَا
لَهَا غِنَاءٌ يُثِيبُ اللَّهُ سَامِعَهُ
ظَلَيْتُ أَشْرَبُ بِالْأَرْطَالِ لَا طَرَبًا
وَقَالَ يَهْجُو جَعْفَةَ بِالْقُبُحِ :

رَأَيْتُ جَعْفَةَ يَحْشَى النَّاسُ كُلَّهُمْ
تَخَالَهُ أَبَدًا مِنْ قُبُحِ مَنْظَرِهِ
كَأَنَّهُ ضَعُفٌ فِي لَجَةِ هَرَمٍ
لَوْ كَانَ لِلَّهِ فِي تَخْلِيدِنَا قَدْرٌ
وَقَالَ يَهْجُو مِنْ يَسْمَى عَمْرًا :

وَجْهَكَ يَا عَمْرُو فِيهِ طَوْلٌ
وَالْكَلْبُ وَافٍ وَفِيكَ غَدْرٌ
وَقَدْ يُحَايِي عَنِ الْمَوَاسِي
وَأَنْتَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ سُوءٍ
وُجُوهُهُمْ لِلْوَرَى عِظَاتٌ
مُسْتَعْلَنُ فَاعْلَنُ فَمَوْلٍ
بَيْتُ كَعْنَاكَ لَيْسَ فِيهِ
وَفِي وَجْهِهِ الْكَلَابِ طَوْلٌ
فَقِيكَ عَنْ قَدْرِهِ سُفُولٌ
وَمَا يُحَايِي وَلَا تَصُولُ
قِصَّتُهُمْ قِصَّةُ تَطُولُ
لَكِنَّ أَقْدَاءَهُمْ طَبُولُ
مُسْتَعْلَنُ فَاعْلَنُ فَمَوْلٍ
مَعْنَى سِوَى أَنَّهُ فَضُولُ

وَقَالَ فِي عَجُوزٍ تَتَصَابَى :

عَجُوزٌ تَصَابَى وَهِيَ بَكْرٌ بَزَعْمَا
تَرَى شَعْرَهَا تَحْتَ الْقِنَاعِ كَأَنَّهُ
وَقَالَ ابْنُ أَبِي يَهْجُو ضَبَّةَ بْنِ يَزِيدَ الْمُتَبَيِّ :
وَمِثْلُ الْفِ عَامٍ قَدْ وَجَّيَ حَدَّهَا الْوَاجِي ^(١)
ضَفَائِرُ لَيْفٍ فِي هَدِيَّةِ حُجَّاجٍ

(١) وهي مسهل وحاء ، ووجأ خدما : دته ، وألصقه بالأرض .

يَا أَطِيبَ النَّاسِ نَفْسًا وَأَلَيْنَ النَّاسِ رُكْبَةً
وَأُخْبِتَ النَّاسَ أَصْلًا فِي أُخْبِتِ الْأَرْضِ رُبَّةً
إِنْ أَوْحَشْتُكَ لِلْعَالَى فَإِنَّهَا دَارُ غُرْبَةٍ
أَوْ آتَسْتُكَ الْحَازَى فَإِنَّهَا لَكَ نِسْبَةٌ

وقال بهجو كافورا :

أُرِيكَ الرِّضَا لَوْ أَخْتِ النَّفْسُ خَافِيَا وَمَا أَنَا عَنْ نَفْسِي وَلَا عَنْكَ رَاضِيَا^(١)
أَمِينًا وَإِخْلَاقًا وَغَدْرًا وَخِسَّةً وَجُبْنًا أَشْخَصًا لَحْتُ لِي أُمُّ حَازِيَا
تَقَلُّنْ ابْتِسَامَاتِي رَجَاءً وَغِيْطَةً وَمَا أَنَا إِلَّا ضَاحِكٌ مِنْ رَجَائِيَا
وَتُعْجِبُنِي رِجْلَاكَ فِي الثَّلَلِ إِنِّي رَأَيْتُكَ ذَا ثَمَلٍ إِذَا كُنْتُ حَافِيَا
وَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَلَوْكَ أَسْوَدُ مِنَ الْجَمَلِ أَمْ قَدْ صَارَ أَيْضَ صَافِيَا
وَيُذَكِّرُنِي تَخَيُّطُ كَمِيكَ شَقَّةً وَمَشْيُكَ فِي ثَوْبٍ مِنَ الزَّيْتِ عَارِيَا^(٢)
وَلَوْلَا فَضُولُ النَّاسِ جُثَّتْكَ مَادَحًا بِمَا كُنْتُ فِي نَفْسِي بِهِ لَكَ هَاجِيَا^(٣)
فَأَصْبَحْتُ مَسْرُورًا بِمَا أَنَا مُنْشِدُ وَإِنْ كَانَ بِالْإِنْشَادِ هَيَّجُوكَ غَالِيَا
فَإِنْ كُنْتُ لَا خَيْرًا أَفَدْتُ فَإِنِّي أَفَدْتُ بِلَحْظِي مِشْفَرِيكَ الْمَلاهِيَا
وَمِثْلُكَ يُؤَلَّى مِنْ بِلَادٍ بَعِيدَةٍ لِيُضْعِكَ رَبَّاتِ الْحِدَادِ الْبَوَاكِيَا

(١) لست راضيا عن نفسي لحظي بقصدك . ولا عنك لتقصيرك في حق .

(٢) يشير إلى أن كافورا كان غلام زيات فكان يحمل الزيت ويمشي عاريا ، وقد تلوطن بالزيت . فكأنه يلبس ثوبا منه .

(٣) الفضول : تعرض الناس لما لا ينهم . يقول : إنك لانهم الفرق بين المدح والهجاء . ولولا أني أخشى أن يدلك الناس بما عندهم من فضول . على أن ما أتشدك على أنه مدح هو في الواقع هجاء للعداء .

شعر السياسة

خلف العصر الأموي كثيراً من الخلاف والعصبيات ، فقد أحدث الأمويون عامدين عصبيات اليمانية والمضرية بما أزرأ بينهم من نار الحقد ، وأثاروا من أسباب المنافسة ، فبقيت هذه الأحقاد إلى العصر العباسي خصوصاً في أوله ، وقد أكثر من القول فيها مسلم بن الوليد ، وأبو نواس من اليمانية ، والحكم بن قنبر من المضرية ، وكان يهجو الأنصار .

وكذلك كان احتقار الأمويين للموالى قد أحدث في نفوس هؤلاء ضغينة عليهم ، فتحرّكوا للدفاع عن أنفسهم بذكر مفاخرهم ، وتعداد مثالب العرب ، ولكن قليلاً منهم الذي اجتبرأ على إظهار القول في هذا ، أيام بني أمية . فلما قامت دولة بني العباس ، وهي من الإباحة في إبداء الرأي ، والاعتداد بالموالى بحيث عرفت ، كثر القول في ذلك كما في شعر بشار وديك الجن والخرمى والمتوكلي ، (وكان من ندماء المتوكلي) .

فأما الشعر الذي كان في صميم السياسة فهو الذي كان يقوله شيعة بني العباس أمثال مروان بن أبي حفصة ، وعلي بن الجهم ، وأبان بن عبد الحميد يحتجون لاستحقاقهم الخلافة ، وأنهم أولى بها من بني علي ، وبعكسهم شيعة العلويين أمثال السيد الحميري ، ودعبل الخزاعي ، ومسلم بن الوليد ، ومحمد بن وهيب ، فإنهم يردّون عليهم في ذلك ويهجو بعضهم ملوك بني العباس كما فعل دعبل .

فإنهم

دخل بشار على الهدي ، فقال له : فيمن تمتد يا بشار ؟ فقال : أما على اللسان

والرأى فعرى ، وأما على الأصل فمجبى كما قلت فى شعرى يا أمير المؤمنين :

وَنُبِّئْتُ قَوْمًا بِهِمْ جِنَّةٌ يَقُولُونَ مِنْ ذَا وَكُنْتُ الْعَلَمُ
أَلَا أَيُّهَا السَّائِلُ جَاهِلًا لِيَعْرِفَنِي أَنَا أَنْفُ الْكَرَمِ
نَمَتْ فِي الْكَرَامِ بَنَى عَامِرُ فُرُوعِي وَأَصْلِي قَرِيشُ الْعَجَمِ

وقال مسلم بن الوليد يفاخر قريشاً :

فَاخَرْتَنَا بِمَا بَسَطْنَا لَهَا الْفَخْرَ قَرِيشٌ وَفَخَرُهَا مُسْتَعَارٌ^(١)
ذَكَرْتُ عِزَّهَا وَمَا كَانَ فِيهَا قَبْلَ أَنْ تَسْتَعِيرَنَا مُسْتَجَارٌ
إِنَّمَا كَانَ عِزُّهَا فِي جِبَالٍ تَرْتَقِيهَا كَمَا تَرْتَقَى الْوَبَارُ^(٢)
أَيُّهَا الْفَاخِرُونَ بِالْعِزِّ وَالْعِزُّ لِقَوْمٍ سِوَاهُمْ وَالْفَخْرُ
أَخْبَرُونَا عَنْ الْأَعَزِّ عَالَمُ صُورٍ حَتَّى اعْتَلَى أَمْرُ الْأَنْصَارِ
فَلَنَا الْعِزُّ قَبْلَ عِزِّ قَرِيشٍ وَقُرَيْشُ تِلْكَ الدُّهُورِ تِجَارُ

وقال مروان بن أبي حفصة يخاطب آل أبي طالب ، وكان شديد العداوة لهم :

خَلَّوْا الطَّرِيقَ لِمَشْرِعِ عَادَاتِهِمْ حَطَّمُ لَنَا كَيْبَ يَوْمٍ كُلِّ رِحَامٍ
وَارْضُوا بِمَا قَسَمَ إِلَهُ لَكُمْ بِهِ وَدَعُوا وَرَائَهُ كُلُّ أَصَيْدٍ سَامٍ^(٣)
أَنَّى يَكُونُ وَلَيْسَ ذَاكَ بِكَائِنٍ لِبَنِي الْبَنَاتِ وَرَائَهُ الْأَعْمَامُ^(٤)

ومثله قول الطاهر بن على بن عبد الله بن سليمان بن على بن عبد الله بن عباس :

لَوْ كَانَ جَدُّكُمْ هُنَاكَ وَجَدْنَا فَتَنَازَعَا فِيهِ لَوْ قَتَلَ خَصَامُ
كَانَ التَّرَاثُ جِلْدَنَا مِنْ دُونِهِ فُجَّوَاهُ بِالْقُرْبَى وَالْإِسْلَامِ
حَقُّ الْبَنَاتِ فَرِيضَةٌ مَعْلُومَةٌ وَالْعَمُّ أَوْلَى مِنْ بَنَى الْأَعْمَامِ

(١) بما بسطنا لها الفخر : أى بسطنا لها الفخر . أى بشيئها من أسبابه وذلك بصرتها .

(٢) الوبار (بكسر الواو) : جمع وبرة (بالفتح) وهى دوية كالسنور .

(٣) الأصيد : الملك ، وكل رافع رأسه كبيراً .

(٤) أى كيف يأخذ بنو البنات حق الأعمام فى الوراثة ؟

كان الرشيد قد سمع غناء في قول دعبل :

أَيْنَ الشَّبَابُ وَأَيَّةَ سَلَا
لَا تَعْبَسِي يَا سَلَمَ مِنْ رَجُلٍ
صَحَّكَ الشَّيْبُ بِرَأْسِهِ فَبِكِي
يَا صَاحِبِي إِذَا دَمِي سَفِكََا
لَا تَأْخُذُوا بِظُلَامَتِي أَحَدَا
قَلْبِي وَطَرَفِي فِي دَمِي اشْتَرَا

فسأل عن قائمها ، فقيل له : دعبل ، غلام من خزاعة ، فأمر له بعشرة آلاف درهم ، وخلعة من ثيابه ، ومركب من مراكبه ، وجهز له ذلك مع خادم من خدمه إلى خزاعة فأعطاه جائزة أمير المؤمنين ، وأشار عليه بالمسير إليه فحضر ، ولما سلم أمره بالجلوس فجلس ، فاستنشد الشعر ، فكان الرشيد أول من حرّضه على قول الشعر ، ثم لما بلغه موت الرشيد كافأه أقبح مكافأة ، فقال فيه من قصيدة يمدح أهل البيت ويهجوهم :

وَلَيْسَ حَتَّى مِنَ الْأَحْيَاءِ نَعْلَمُهُمْ مِنْ ذِي يَمَانٍ وَلَا بَكْرٍ وَلَا مُضَرَ (١)
إِلَّا وَهُمْ شُرَكَاءُ فِي دِمَائِهِمْ كَمَا تَشَارَكُوا أَيْسَارَهُ عَلَى جُزُرِ (٢)
قَتْلُ وَأَسْرُ وَتَحْرِيقُ وَنَهْبُ فَعِلَ الْفُزَاةَ بِأَرْضِ الرُّومِ وَالْخَزَرِ (٣)
أَرَى أُمِّيَّةً مَعْذُورِينَ إِنْ قَتَلُوا وَلَا أَرَى ابْنِي الْعَبَّاسِ مِنْ عُذْرٍ
إِذَا رُبِعَ بِطُوسٍ عَلَى الْقَهْرِ الزَّكَى إِذَا مَا كُنْتُ تَرَبِّعُ مِنْ دِينَ عَلَى وَطَرِ (٤)
قَبْرَانِ فِي طُوسٍ خَيْرُ النَّاسِ كُلِّهِمْ وَقَبْرُ شَرِّهِمْ هَذَا مِنَ الْعَبْرِ (٥)

(١) يقال : ذو زيد . أى صاحب هذا الاسم . فذو يمان : أى الذى يقال له يمان . ويمان كبني نسبة إلى اليمن .

(٢) الأيسار . جمع يسر ، وم لا عبو اليسر . الجزر : جمع جزور ، وهى اللاقة التى يقامرون عليها ، ثم يجزرونها ويوزعون لجها على الفقراء .

(٣) الجزر : جبل من الناس خزر أتشيون (ضيغوها) .

(٤) أربع : قف وامكث .

(٥) بيني قبر الرشيد ، وقبر موسى الكاظم .

مَا يَنْفَعُ الرَّجْسَ مِنْ قَرَبِ الزَّكِيِّ وَلَا
عَلَى الزَّكِيِّ بِقَرَبِ الرَّجْسِ مِنْ ضَرَرٍ
هِيَئَاتُ كُلُّ أَمْرٍ رَهْنٌ بِمَا كَسَبَتْ لَهُ يَدَاهُ خُذْ ، أَسْنَتْ أَوْ قَدَّرْ

الغزل بالمذكر

قد عرفت أن من أثر اختلاط الفرس بالعرب شيوع هذه العادة بينهم ، وكان أول من اجترأ على القول فيها حماد بن عجرٍ ، ووالبة بن الحباب ، ثم أبو نؤاس ، وحسين ابن الضحَّاك ، ثم توالى من الشعراء القول في ذلك حتى غلب الغزل بالمذكر على كل قائل ، وصار المتغزل يعيد الضمير في غزله مذكراً ، ولو كانت الصفات للأُنثى .

وقد تبع القول في هذا أن وصفوا العذار وافتنوا فيه ، وهو معنى كما قلنا لم يعرفه السابقون لأنهم لم يكونوا عرفوا هذا النوع من الغزل ، كما كان من آثار شيوع هذه العادة أن هبى الناس بالأبنة واللوطية ، فتفرع عن هذه الرذيلة مساوئ كثيرة كانت في الأدب العربى سبة لقائلها ، وقذى في عين قارئها ، وصمما في أذن سامعها ، وبعد أن كان الغزل القديم بالإفله غفياً يدل على طهارة النفس ، ونبل المقصد ، والتسبيح بحمد الله في خلقته الجمال ، صار على أيام العباسيين عهراً ودعارة ، حتى نرى أكثر المؤلفين إذا تناولوا القول فيه أمسكوا عن الاسترسال خشية أن تندى وجوههم خجلًا مما يسطرون في الأوراق ، وما يحكون عن غيرهم ؛ من وصف شنيع ، أو حكاية لفعل قبيح ، فكيف بقائل الكلام إن كان صادقاً فيما يروى مخبراً عن واقع جرى .

وليس بعيداً أن تكون الأخلاق قد انحطت إلى هذا الدرك ، فكل الشعوب تنتهى بها المدنية ، وإعطاء النفس رغباتها إلى مثل هذا الحد ، ولكن تسجيل هذه الحازى في الشعر دليل على الإفلات من قيود الأدب حتى يتبجح الجرم بما جنى ، فلا ينثنى عن تسجيل تهمته بشهادة نفسه .

ونحن نأقون إليك ما يدلُّ على اتجاهم في هذا النوع ، وإن كنا كذلك
لا نستطيع أن ننقل كلَّ ما وقفنا عليه . قال أبو نواس :

يَا بَدْعَةً فِي مِثَالِ يَجُوزُ حَدَّ الصِّفَاتِ
الْوَجْهَ بِدَرْتَمِ بَعِينَ ظِيْفَلَةٍ
وَالْقَدَّ قَدْ غَلَامِ وَالْفُجْجُ غُنْجُ فَنَاءِ^(١)
مَذْكَرٍ حِينَ يَبْدُو مَوْثُ الْخِلَاطِ
زَهَا عَلَى بَصْذَغٍ مَزْرَفِ الْخَلَقَاتِ^(٢)
مِنْ فَوْقِ خَيْدٍ أَسِيلٍ يَضِيءُ فِي الظُّلُمَاتِ^(٣)

وقال أيضاً :

جَالٌ مَاءِ الشَّبَابِ فِي خَدَيْكَ وَتَلَالَا الْهَاءِ فِي عَارِضِكَ
وَرَمَى طَرْفُكَ الْكَحْلَ بِالسَّحَرِ فَوَادَى فَصَارَ رَهْنًا لَدَيْكَ
أَنَا مُسْتَهْتَرٌ بِجَبْكَ صَبَّ لَسْتُ أَشْكُوهُوَكَ إِلَّا إِلَيْكَ^(٤)
يَا بَدِيعَ الْجَمَالِ وَالْحَسَنِ وَالِدَ الْهِلَالِ حَيَاتِي وَمِيتَتِي فِي يَدَيْكَ
بَأْنِي أَنْتَ لَوْ بَلَيْتَ بُوْجْدِي لَمْ يَهِنْ مَا لَقِيتَ مِنْكَ عَلَيَّكَ
وقال الحسن بن الضحاك في غلام يستحم :

وَأَبْنَى أَبْيَضَ فِي صَفْرَةٍ كَأَنَّهُ تَسْبَرُ عَلَى فُضِهِ
جَرَدَهُ الْحَامُ عَنْ دُرَّةٍ تَلَرَجَ فِيهَا عُكْنُ بَصْنَةٍ
غَضَنَ تَبْدَى يَتَنَّى عَلَى مَأْكَمَةِ مُثْقَلَةِ التَّهْنُصَةِ^(٥)

(١) الفجج : ملاحاة البنين ، أو دل المرأة وعزلها .

(٢) الزرفين : حلقة الباب أو عالم ، وقد زرفن صدغيه : أى لوى شعرهما وحلقه .

(٣) الحد الأسيل . السطين المترسل .

(٤) المستهتر بالقيء (بصينة المقول) : المولع به لا يبالي ما قبل فيه .

(٥) المأكمة : اللحمة على رأس الورك ، وهما مأكان في الإبل .

كَأَنَّمَا الرَّمْسُ عَلَى خَدِهِ طَلَّ عَلَى تَفَاحَةِ غَضِّهِ^(١)

صَفَاتُهُ فَاتَنَسَّ كُلُّهَا فَبَعَضُهُ يَذْكُرُنِي بَعْضُهُ

وَقَالَ فَضْلُ الرُّفَائِيِّ :

وَشَاطِرٌ فَاتَكَ الشِّمَائِلُ قَدْ خَالَطَ مِنْهُ الْحُجُونُ تَحْنِينًا

نَرَاهُ طَوْرًا مَذْكُورًا فَإِذَا عَاقَرَ رَاحًا رَأَيْتَ تَأْنِيثًا

أَتْلُغُ إِنْ قُلْتَ يَا فَدَيْتَكَ قُلْ مُوسَى يَقُولُ مِنْ رَطُوبَةِ مَوْتِي^(٢)

مَازَالَ حَتَّى الصَّبَاحِ مُعْتَنِقِي مَطَارِحِي فِي الدُّجَى الْأَحَادِيثِ

وَقَالَ السَّرَّاجُ الْوَرَّاقُ فِي الْعَذَارِ :

وَفَاتَكَ يَجْرَحُ سَيْفُ لَحْظِهِ مُجَرَّدًا مِنْ جَفْنِهِ وَمُعَمَّدًا

خَافَ عَلَى خَدِّيهِ مِنْ لِحَافِهِ فَبَاتَ فِي عَذَارِهِ مُزْرَدًا^(٣)

وَمِنْ اسْتِعْمَالِ لَفْظِ اللَّذْكَرِ فِي الْمَوْثِقِ قَوْلُ أَبِي نُوَّاسٍ :

يَا قَرَا أَبْصَرْتُ فِي مَأْتَمِّهِ يَنْدُبُ شَجَوًا بَيْنَ أَثْرَابِ

يَكِي فَيُذِرِي الدَّرَّ مِنْ تَرْجِيهِ وَيَلْطِمُ الْوَرْدَ بِسُتَابِ^(٤)

أَبْرَزَهُ الْمَأْتَمُّ لِي كَارَهَا بِرَعْمِهِ دَائِيَاتِ وَحُجَابِ^(٥)

لَا تَبْكُ مَيْتًا حَلًّا فِي قَبْرِهِ وَابْكِ قَتِيلًا لَكَ بِالْبَابِ

(١) الرَّمْسُ : الذمعة القليل .

(٢) اللُّغَةُ فِي الْوَقْفِ : تَحَوَّلَ الْبَيْنُ ثَاءً أَوْ الرَّاءُ غَيْنًا ، أَوْ مَطْلَقُ تَغْيِيرِ حَرْفٍ بِحَرْفٍ .

(٣) الْزُرْدُ : الدرع . يُرِيدُ أَنَّ الْعَذَارَى عَلَى بَسْمَرَتِهِ كَالزُّرْدِ يَنْطَلِقُ الْجَسَمِ .

(٤) أَذْرَتِ الْبَيْنَ الذمعة : أَسْقَطَتْهُ .

(٥) فِي الْقَامُوسِ الْحَمِيصِ : الْمَأْتَمُّ كُلُّ مَجْتَمَعٍ فِي فَرَحٍ أَوْ حُزْنٍ أَوْ خَاصٍ بِالنِّسَاءِ أَوْ الشَّوَابِ مِنْهُنَّ ، وَفِي الصَّحَاحِ : الْمَأْتَمُّ عِنْدَ الْعَرَبِ النِّسَاءُ يَجْتَمِعْنَ فِي الْخَيْرِ وَالْشَّرِّ . قَالَ أَبُو الْعَطَاءِ السَّنْدِيُّ :

عَشِيَّةَ قَامَ النِّسَاءُ وَشَقَّتْ جُيُوبَ بَائِدِي مَأْتَمٍ وَخُدُودَ

أَيَّ بَائِدِي نِسَاءً ، وَفِي الْمَصْبَاحِ مَأْتَمٌ بِالْمَكَانِ : أَطَامَ ، وَمِنَهُ الْمَأْتَمُ لِلنِّسَاءِ يَجْتَمِعْنَ فِي خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ تَسْمِيَةً لِلْمَأْتَمِ بِاسْمِ الْمَجْلَى .

نماذج من بقية الأغراض

من الوصف قول الأرجاني في شجرة ، وقد استوفى كل ما يقال فيها ، ولم يكد يخل
لمن بعده فيها فضلا :

تَمَّتْ بِأَسْرَارِ لَيْلٍ كَانَ يُخْفِيهَا وَأَطْلَعَتْ قَلْبَهَا لِلنَّاسِ مِنْ فِيهَا
سَفِيهَةٌ لَمْ يَزَلْ طَوَّلُ اللِّسَانِ لَهَا فِي الْحَيِّ يَحْنِي عَلَيْهَا حَذَفَ هَادِيهَا^(١)
غَرِيقَةٌ بِدَمْسُوعٍ وَهِيَ تَحْرِقُهَا أَقْأَسُهَا بِدَوَامٍ مِنْ تَلَطُّبِهَا
قَدْ أُمِرْتُ وَرْدَةً حَمْرَاءَ طَالِمَةٍ تَجْنِي عَلَى الْكَفِّ إِنْ أَهْوَيْتَ تَجْنِيهَا
وَرَدْتُ نَشَاكُ بِهِ الْأَيْدَى إِذَا قَطَعَتْ وَمَا عَلَى غُصْنِهَا شَوْكٌ يُوقِعُهَا
وَيُلْقِيهَا فِي سَوَادِ اللَّيْلِ مُسَمِّدَةً إِذَا الْهَمُومُ دَعَتْ قَلْبِي دَوَاعِيهَا
وهي طويلة ، ولأبي الفرج البغفاء في وصف كانون :

وَذِي أَرْبَعٍ لَا يُطِيقُ النَّهْضَ وَلَا يَأْلَفُ السَّيْرَ فِيمَنْ سَرَى
تَحْمَلُهُ سَبَجًا أَسْوَدًا فَيَجْعَلُهُ ذَهَبًا أَحْمَرَ^(٢)
ومثله قوله :

وَالْتَهَيْتُ نَارُنَا فَنَنْظَرُهَا يُفْنِيكَ عَنْ كُلِّ مَنْظَرٍ حَجَبٌ
إِذَا رَمْتُ بِالشَّرَارِ واضْطَرْتُ عَلَى ذُرَاهَا مَطَارِفُ اللَّهَبِ
رَأَيْتُ يَا قُوَّةَ مُشْبِكَةٍ تَطِيرُ مِنْهَا قُرَاضَةُ الذَّهَبِ
وقال السري الرفاء يصف الطبيعة :
وَعِمْ مَرْهَفَاتُ الْبَرَقِ فِيهِ عَوَارِ وَالرِّيَاضُ بِهَا كَوَامِسُ

(١) الهادي : المتق .

(٢) السبع : المنيء الأسود .

ولاح لنا الهلال كسَطَرٍ طَوِيٍّ عَلَى لِبَاتٍ زَرْقَاءِ اللَّبَاسِ

وقال ابن المعتز يصف سحابة :

وسارية لا تَمَلُّ البُكَاءَ جَرَى دَمْعُهَا فِي خُدُودِ الثَّرَى

صَرَتْ تَقْدَحُ الصَّبْحَ فِي لَيْلِهَا يَبْرُقُ كَهْنَدِيَّةٍ تَنْتَضِي

فَلَمَّا دَنَتْ جَلَجَلَتْ فِي السَّمَاءِ رَعْدًا أَجْسَ كَجَرَشِ الرِّيحِ

كَأَنَّ عَلَيْهَا ارْتِدَاءَ الْيَقَاعِ بِأَنْوَارِهَا وَاعْتِجَارِ الرُّبَا^(١)

فَمَا زَالَ مَذْمَعُهَا بِأَكْيَا عَلَى التُّرْبِ حَتَّى اكْتَسَى مَا اكْتَسَى^(٢)

فَأَضْحَتْ سَوَاءً وَجْوهُ الْبِلَادِ وَجَنَّ التَّبَاتُ بِهَا وَالتَّقَى^(٣)

ولابن الرومي في تفضيل التُّرْجِسِ عَلَى الْوَرْدِ :

لِلتُّرْجِسِ الْفَضْلُ الْمَبِينُ لِأَنَّهُ زَهْرٌ وَنُورٌ وَهُوَ نَبْتُ وَاحِدٍ^(٤)

يَنْهَى النَّدِيمَ عَنِ الْقَبِيحِ بِلِحْظِهِ وَعَلَى الْمَدَامَةِ وَالسَّمَاعِ مُسَاعِدَ

خَجَلَتْ خُدُودُ الْوَرْدِ مِنْ تَقْضِيلِهِ خَجَلًا تَوَرَّدَهَا عَلَيْهِ شَاهِدَ

هَذِي النُّجُومِ هِيَ الَّتِي رَبَّتَهُمَا بِحَيَاةِ السَّحَابِ كَمَا يُرَبِّي الْوَالِدَ

فَتَأْمَلُ الْأَنْبِيَاءُ مَنْ أَدْنَاهَا شَبَهَا بِوَالِدِهِ فَذَلِكَ الْمُسَاجِدَ

أَيْنَ الْخُدُودِ مِنَ الْعَيُونِ قِيَاسَةً وَرِيَاسَةً لَوْلَا الْقِيَاسُ الْقَاسِدَ

وقال أحمد بن يونس الكاتب بفضل الورد :

يَا مَنْ يُشَبَّهُ تَرْجِسًا بِنَوَاطِرِ دُعْجٍ تَنَبَّهَ إِنَّ فِهْمَكَ رَاقِدٌ^(٥)

إِنَّ الْقِيَاسَ (لِمَنْ يَصِحُّ قِيَاسُهُ) بَيْنَ الْعَيُونِ وَبَيْنَهُ مُتَبَادِلَ

(١) الاعتبار : التسم (لف الصامئة) . أنوار : جمع نور (بالضم) وهو الضوء .

(٢) التُّرْبُ : لغة في التراب .

(٣) جَنَّ النَّبَاتُ : طَالَ وَزَادَ نَمُوهُ ، وَمِنْ مَعَانِيهِ أَيْضًا : أَخْرَجَ زَهْرَهُ وَنَوْرَهُ .

(٤) الْفَرْقُ بَيْنَ الزَّهْرِ وَالنُّورِ : أَنَّ الزَّهْرَ هُوَ الْأَصْفَرُ مِنْ نَوْرِ النَّبَاتِ . وَالنُّورُ هُوَ الْأَبْيَضُ مِنْهُ .

(٥) الدُّعْجُ : جَمْعُ دُجَاءٍ ، وَهِيَ الْعَيْنُ الشَّدِيدَةُ السَّوَادِ مَعَ السَّمَةِ ، وَيَابَهُ طَرِبَ .

والورد أشبه بالحدود حكايةً فعلام تَجَدُّ فضله يا جاحد
ملك قصير عمره مُسْتَأْهِل نخل لوده لو أن حياءَ خالد
وخليفةً إن غاب ناب بنفحه وبنفحه عنه مقيم راكد
إن كنت تنكر ما ذكرنا بعد ما وضعت عليه دلائل وشاهد
فانظر إلى المُصَفَّر لوًا منها وافطن فما يصفر إلا الحاسد^(١)
وقال أبو نواس يصف مجلس الشراب وآنيته :

ودار ندأني عطلوها وأذلجوا بها أثرٌ منهم جديدٌ ودارسُ
مَسَاحِبُ من جرَّ الزقاي على الترى وأصفاء رِيحانٍ جنىً ويابسُ
حَسَبْتُ بها تحبى فجددتُ عهدهم وإني على أمثال تلك لحابس
ولم أدر من هُم غير ما شهدت به بشرقٍ سَكَّابُ الدَّيَّارِ البسَّاسُ
أقنا بها يومًا ويومين بهـــــــــــــــــده ويوما له يوم الترحل خامس
تدار علينا الزَّاحُ في عسجدية حبثها بأنواع التصاور فارس
قرارتها كسرى وفي جنباتها ممَّا تدرى بها بالقسي الفوارس
فلخمرٍ ما زرت عليه جُيُوبُهُمْ وللماء ما دارت عليه القلائس
وقال يصف اللعب بالصولجان والكرة :

جِنٌّ على جِنٍّ وإن كانوا بشرً كأنما خيطوا عليها بالإبر

- (١) فطن من باب قعد وفرح وكرم .
(٢) قالوا خرج أبو نواس مع بعض الناس إلى الملائن فرأى سابط آثرا تدل على اجتماع كان لقوم فقال له أصحابه صف لنا هؤلاء ، ويقالُم فقال غير متمكث ، هذه الأبيات . قال الجاحظ : نظرنا في شعر القدماء والحدثين فوجدنا الملائن هلت ورأينا بعضا يسرق من بعض إلا قول عترة :

وخلا الذباب بها فليس يبارح غردا كفعل الشارب المترم
هزجا يحك ذراعه بفراعه فمل المكب على الزناد الأجزم

وقول أبي نواس :

قرارتها كسرى

أو مُمَرَّ القارسُ فيها فأنسَمَ^(١) بين رياضٍ مثلِ مَوْشَى الحَبَرِ^(٢)
 مكللاتٍ بِيَهَارٍ وَزَهَرٍ^(٣) فانتدبوا في يومٍ قَرِيٍّ وَخَصَرٍ^(٤)
 إذ ذَرَقَرْنُ الشَّمْسَ في غِيبٍ مَطَرٍ^(٥) صوالجا يَصُبُّو إليها من نَظَرٍ^(٦)
 مَحْنِيَّةٍ أطرافُها فيها رَوَدُ^(٧) قَدَرِها شابرُها لما شَـبَرَ
 فلم يَصِبْ طَوْلٌ ولا شانٍ قَصَرُ^(٨) وقد تَنادَوْا فترامَوْا بالأَكْرَهِ^(٩)
 مُذْجِجَةِ الأركانِ مُدْماءِ الطَّرَرِ^(١٠) شَدَّدَ صَفَقُ مَنَئِها حَشْوُ الشَّعَرِ^(١١)
 أحكمها صانِعُها لما فَطَرَ^(١٢) أَلْطَفَ بالإِشْفاءِ خَرَزًا إذ دَسَرَ^(١٣)
 فليس للإِشْفاءِ بالجلدِ أثرُ^(١٤) يُحَسِّنَ تَفاحًا تَدَلَّى من شَجَرِ
 وقال يصف الحجر (وهي من غرره) :

يا شقيق النفس من حَكَمٍ^(١٥) نَمَتَ عن لَيْلِي ولم أَمَمِ^(١٦)
 فاستقى البِكرَ التي اخْتَمَرَتْ^(١٧) بِخِمارِ الشَّيْبِ في الرَّحِمِ^(١٨)
 نَمَتَ أنصاتَ الشَّبابِ لها^(١٩) بعد ما جازتْ مَدَى المَهْرَمِ^(٢٠)

- (١) يقال وشى الثوب ووشاه فالثوب موشى وموشى أو وضع عليه ما يجمله من غير لونه . الحجر
 (كصب) : جمع حيرة (كمنية) وهي ثوب يمان .
 (٢) اقر : البرد . الحصر : البرد يجده المرء في أطرافه .
 (٣) قرن الشمس : أعلاها وأول ما يبدو منها . صوالجا : مفعول لانتدبوا . يقال ندبه للأمر إذا
 طلبه فانتدب : أي أجاب فكان الوجه أن يقول فندبوا . فيكون أبو نواس أول من أشاع هذا
 الخطأ لأن لم يكن قد سبقه غيره إليه .
 (٤) الأكر : جمع أكره ، وهي السكره .
 (٥) مدماء : شديدة الحرارة . الطرر : جمع طرة وهي شبه علمين يخاطان على طرف الثوب . الصفق الجانب
 (٦) فطر : شق . الإشفى : يحرز يتقب به الجلد . وقد مد هنا وفي البيت بعده للشعر . الدرر :
 اللؤلؤ والمراد هنا الثقب بالإشفى .
 (٧) حكم : خلاف من اليمين ينسب إليه أبو نواس وقد ذكره في شعره في غير هذا الموضع قال :
 ونسني إلى حكم دعوة وما إن له نسب من حكم
 (٨) المراد بخمار الحجر : ما يملأها من الزبد .
 (٩) أنصات : أجاب .

فَهَيَّ لِلْيَوْمِ الَّذِي بُرِّئْتُ وَهِيَ تَرَبُّبُ الدَّهْرِ فِي الْقَدَمِ (١)
عُتِّقْتُ حَتَّى لَوْ اتَّحَلْتُ بِلِسَانِ نَاطِقٍ وَفَمٍ
لَا حَتَبْتُ فِي الْقَوْمِ مَائِلَةً ثُمَّ قَصَّصْتُ قِصَّةَ الْأَمَمِ
قَرَعْتُهَا بِالْمِزَاجِ يَدٌ خُلِقَتْ لِلسَّيْفِ وَالْقَلَمِ
فِي نَدَايِ سَادِقِ زُهْرٍ أَخَذُوا اللَّذَاتِ مِنْ أَمَمِ (٢)
فَتَمَشَّتْ فِي مَفَاصِلِهِمْ كَتَشَّتْ الْبُرْءَ فِي السَّقَمِ
فَعَلْتُ فِي الْبَيْتِ إِذْ مُزِجَتْ مِثْلَ فِعْلِ الصَّحْحِ فِي الظُّلَمِ
فَاهْتَدَى سَارَى الظَّلَامِ بِهَا كَاهْتَدَاءِ السَّفَرِ بِالْعَلَمِ

حكى الأصمعي قال : رأيت أبا نواس في المنام ، فقلت له : هل نسي من خمر يانك شيء ؟
قال : أجودها ، قلت : فاذا كر ، فقال :

أَذْكَرَ اجْراسِجَا وَسَاقِ الشَّرْبِ يَمْرُجُهَا فَلَاحَ فِي الْبَيْتِ كَالْمَصْبَاحِ مُصْبِحُ
كِدْنَا - عَلَى عَلْمِنَا - بِالشُّكِّ نَسْأَلُهُ أَرَاخُنَا نَارُنَا أَمْ نَارُنَا الرَّاحُ
وقال ابن الرومي يصف صانع الزلاية :

وَمُسْتَقَرٌّ عَلَى كَرْسِيهِ تَعَبٍ رُوحِي الْفَدَاءَ لَهُ مِنْ مَنْصِبِ نَصَبٍ
رَأَيْتُهُ سَحَرًا بَقِي زَلَايَةِ فِي رِقَّةِ الْقَسْرِوِ التَّجْوِيفِ كَالْقَصَبِ
يُلْقِي الْعَجِينَ لِحُونًا مِنْ أَمَلِهِ فَيَسْتَحِيلُ شَبَابِيكََا مِنَ النَّهَبِ
وقال يصف العنب الرزاق (٣) :

وَرَزَاقِي مَخْطَفِ الْخُصُوفِ كَأَنَّهُ مَخَازِنُ الْبُؤُورِ
قَدْ صُحْنَتْ مِسْكًَا إِلَى الشُّطُورِ وَفِي الْأَعَالَى مَاءُ وَرْدٍ جُورِي (٤)

(١) بزل الصراب باليزل : أسال منه ، والميزل شبه الطي في الدن « صنبور » .

(٢) زهر : جمع أزهر ، وهو المشرق .

(٣) الرزاق : نوع من عنب الطائف أبيض طويل الحب .

(٤) جور : مدينة بفارس هي قصبة فيروزآباد من أعمال شيراز ، وردها جيد جدا .

بلا فريد وبلا شذور له مذاق التسلي للشور^(١)
وبرد مس الخصر المقرور ونكهة اللينك مع الكافور
لم يبق منه وهج الحرور إلا ضياء في ظروف نور^(٢)
لو أنه يبق على الثهور قرط آذان الحسان الحور

وقال أبو حسن الجوهري يصف الفيل :

يزهو بخرطوم كمثل الصولجان يردرد^(٣)
متنددا كالأفموا ن يمدد الرمضاء مدا
أوكم راقصة تشير به إلى الندمان وجدا^(٤)
وكانه يوق يحرق ركة لينفخ فيه جدا
يسطو بصارمتي لحى يخطمان الصخر هذا^(٥)
أذناه مروحتان أسندتا إلى القودين عمدا^(٦)
عيناه غارتان ضيقتا لجمع الضوء عمدا

ومن وصف التصور وما فيها قول البحترى يصف بركة للتوكل وما فيها من السمك :

يامن رأى البركة الحسناء رؤيتها والآنسات إذا لا حت مغايتها
يحسبها أنها من فضل ربتها تعد واحدة والبحر ثانيا
ما بال دجلة كالتي ترفى تنافسها في الحسن طورا وأطوارا تباها

(١) الفريد : البر الذي يفصل بين الذهب في القلادة ، دندر فريد والذهب مفرد . الشفر : صفار اللؤلؤ

(٢) الوهج : الشماع . الحرور : حر الشمس .

(٣) يرد ردا : يحرك تحريكا .

(٤) النعمان : المتادم .

(٥) الحى (كفعيل) : نبات اللحية في الانسان وغيره ، وهما الحيان وثلاثة ألح والكثير لحى (بضم اللام أو كسرهما مع شد الباء) .

(٦) القودان : جانبا الرأس .

أما رأيت كاليء الإسلام يَكَلُّوها من أن تُعَاب وباني المجد يبينها
 كأنَّ جِنَّ سليمان الذين وُلُوا إبداعها فأدقُّوا في معانيها
 فلو تَمَرَّبها بِلَقِيْس عن عَرْض قالت هي الصَّرْحُ تمثيلاً وتشبيهاً^(١)
 تَنْصَبُ فيها وفُودُ الماء مُعْجَلَةً كالخيل خارجة من جبل مجريها
 كأنَّما الفضة البيضاء سائلة من السباتك تجزى في مجاريها
 إذا عَلَّتْهَا الصَّبَا أَبْدَتْ لها حُبَّكَ مثل الجواشن مصقولاً حواشيها^(٢)
 فحاجبُ الشمس أحياناً يضحكها ورَيُّ الغيث أحياناً يياكيها^(٣)
 إذا النجوم تراءت في جوانبها لَيْلاً حَسِبْتَ سماء رُكِبَتْ فيها
 لا يَبْلُغُ السمك المحصور غايَها لُبْدِ ما بين قاصيها ودانيها
 يَعْنُ فيها بأوساطٍ مُجَنَّحةٍ كالطير تَنْقُصُ في جوِّ خوافيها
 لَمَنْ صَحَّحْ رَحِيْبُ في أسافلها إذا انحططن وبهَوٍّ في أعاليها
 صُورٌ إلى صُورَةٍ الدُّلْفِينِ يُؤْنِسُها منه انزواء بعينيه يُوزِنُها^(٤)
 مَحْفُوفَةٌ برياض لا تزال ترى رش الطواويس تحكيه ويحكىها
 وَدَكَّتِ كمثل الشَّمَرِيِّينَ غَدَتُ إحداها بإزا الأخرى تُساميها^(٥)
 إذا مساعى أمير المؤمنين بَدَتْ للواصفين فلا وَصَفَ يدانيها
 ومن شعر المجنون قول الحمدوني الشاعر في طيلسان أهدهاء إليه محمد بن حرب ، فأكثر

- (١) بلقيس هي السادسة من ملوك النابية (الطبقة الأولى) وكانت ذات جمال رائع وعدل في حكمها وكان في عصرها نبي الله سليمان يملك بيت المقدس فقتل الهدعد إليه خبرها وسافرت إليه فأكرمها وأمنت على يديه ثم عادت إلى بلادها فوجدت الملك المخلوع قلبها قد استولى عليه فاحتالت له بأن تزوجته ثم قتله . العرض الجانب .
- (٢) الجواشن : الدروع والواحد جوشن . الحك : التكسر . قال الفراء : هو التكسر في كل شيء .
- (٣) ريق الليث : أوله . حاجب الشمس : حرقها وجانيها .
- (٤) انزواء : تجمع وتقبض .
- (٥) الذكة كالذكان : الذي يجلس عليه . كمثل الشريرين : أي متحاربين تهارب هذين النعجين .

في وصف بلاده وانسالت عليه الماني حتى قال : قرابة مائتي مقطوعة لا تخلو واحدة منها
من معنى جديد وكلها تهكم بالهدية فمن قوله فيه :

يا بن حرب كسوتني طيلساناً ملّ من صحبة الزمان وصداً
ل إلى ضَعْفِ طيلسانك سداً^(١) لحسيننا نَسَجَ المناكب قد حا
طال ترداده إلى الرَّفْوِ حتى لو بئناه وحده لتهدّى

وقوله :

قل لابن حرب طيلسانك قد أوهى قواي بكثرة القُرْمِ
متبين فيه لمبصره آثار رفو أوائل الأمم
وكانه الجُر التي وصفت في (يا شقيق النفس من حكم)
فإذا رعمناه قميل لنا قد صح قال له البلى أنه لم
مثل السقيم برّا فراجسه نكس فأسله إلى سقم^(٢)
أنشدت حين طنى فأزعجني « ومن العناء رياضة الهرم »

وقوله^(٣) :

يا بن حرب أطلت قري برقوى طيلسانا قد كُنتُ عنه غنياً
فهو في الرقوى آل فرعون في القري ض على النار بكثرة وعشياً
وقد أكثر أيضاً من القول في شاة أهداها إليه سعيد بن أحمد بن خوسنداذ ، ومن
قوله فيها :

أسعيدُ قد أعطيتني أضحيةً مكنت زماناً عندكم ما تطعم
نضواً تماقرت الكلاب بها وقد نيدوا عليها كي تموت فتوئم^(٤)

(١) لعل المني : ظننا أن نسج المناكب قد صار بمثابة السد في المتانة بالنسبة لهاهلة وضعف طيلسانك .
(٢) النكس (كففل) : عودة المرض بعد الدخول في الشفاء ، ولا يقال نكس بفتح النون إلا مع تعس
وذلك للزوجة والاتباع . برا : مسهل برّا (كقطع) وهي لغة في برى .
(٣) في الجزء الرابع من زهر الأدب مقطعات للحمدي في طيلسان بن حرب ،
(٤) النضو : المزبل والأقي بالناء .

فإذا الملا ضحكوا بها قالت لهم
مررت على علفي فقامت لم ترم عنه وعننت والدماغ تسجج^(١)
وقف الهوى في حيث أنت فليس لي متأخر^(٢) عنه ولا متقدم

حدث أحمد بن خالد قال : كنا يوماً عند دار رجل يقال له صالح ، ومعنا جماعة من أصحابنا ، فسقط على كنيسة في سطحها ديك طار من بيت دعل ، فلما رأيناه قلنا هذا صيد فذبجناه وشويناه ثم خرج دعل وسأل عن الديك ، فعرف قصته ، ففدا في اليوم

الثاني على مسجد الحى ، فصلى الغداة ثم جلس على باب للمسجد ينشد قوله :

أَسَرَ الْمُؤَذِّنَ صَالِحٌ وَضَيِّقُهُ أَمَرَ الْكَمِيِّ هَذَا خِلَالِ الْمَاقِطِ^(٣)

بعثوا عليه بناتهم وبنيتهم ما بين نائمة وآخر سامط^(٤)

يَتَنَازَعُونَ كَأَنَّهُمْ قَدْ أَوْقَوْا خَافَانَ أَوْ هَزَمُوا كِتَابَ نَاعِطِ^(٥)

نَهَشُوهُ فَأَنْتَزِعَتْ لَهُ أَسْنَانُهُمْ وَهَشَمَتْ أَقْفَاهُمْ بِالْخَائِطِ

وزعموا أن وهب بن سليمان بن وهب صرط في حضرة أحد القضاة فذاع أمر هذه

الضرطة ، وتناولها الشراء فأكثروا من النول فيها ، فمن ذلك قول ابن

مهدي الكسروي :

إِنْ وَهَبَ بَنُ سُلَيْمَانَ بْنِ وَهَبٍ بَنُ سَعِيدٍ

حَلَّ الضَّرْطَةَ لِلرَّيِّ يَ عَلَى ظَهْرِ الْبَرِيدِ

فِي مُهِمَّاتِ أُمُورٍ مِنْهُ بِالرَّكْضِ الشَّدِيدِ

إِسْتَه تَنْطِقُ يَوْمَ السَّحْفِ بِالْأَمْرِ الرَّشِيدِ

(١) سجع اللمع (كدخل) : سال .

(٢) المؤذن : الديك . هنا : سقط . المايط : مسهل للأائط ، وهو حومة الوغى .

(٣) ممط الدجاجة : وضعها في ماء ساخن لينظف ماعليها من ريش .

(٤) خافان : لقب الملك الترك ككسرى الملك الفرس ، وقصر الملك الروم ، وفرعون الملك مصر قديما . ناعط ، قبيلة من همدان : وأصله جبل نزلوا به فنبهوا إليه .

لم يُجِدْ في القول فالحنا جَإِ إلى دُبُرٍ مجيد
وقد عارض بعض الشعراء قول أبي نواس :
يا قمر أبرزه مأتم يندب شجوا بين أتراب
فقال في ذم أهور :
يا أهورا أبرزه مأتم يندب شجوا بتخاليط

يبكى فيذرى السبع من كوةٍ ويلطمُ الشوكَ يَبْلُوطِ
وحدث أبو عَنَسٍ الصَّيْمَرِيُّ قال : كنت عند المتوكل والبحترى يشده :
عن أيَّ نَغْرٍ تَبْتَسِمُ وبأيَّ طَرْفٍ تحمك
حتى بلغ إلى قوله :

قل للخليفة جعفر المستوكل بن العتصم
والجندى ابن المجندى والنعيم ابن النعيم
اسلم لدين محمد فإذا سلمت فقد سلم
وكان البحترى من أبغض الناس إنشادا فضجّر المتوكل منه ، وأقبل على فقال : أما
تسمع ما يقول يا صيْمَرِيُّ ؟ فقلت : بلى يا سيدى ، فرنى فيه بما أحببت ، فقال
بجياتى أهجه على هذا الروى الذى أنشدنيه ، فقلت :

أدخلت رأسك في الرِّحِمِ وعلتُ أنك تَنْهَزِمُ
يا بحترى حَذَارٍ ويحك من قضاقةٍ ضُغْمِ^(١)
فقد أسلتُ بالديك من الهجاء سَيْلَ العَرِمِ
فبأيَّ عَرَضٍ تعصم ويهتك به جَفَّ القلم
والله حلقةٌ صادقٍ وبتبر أحمد والحرم
وبحق جعفر الإمام م ابن الإمام العتصم

(١) قضاقة : جمع قضاقي (بضم القاف وتحتها) وهو الأسد . ضغم : جمع ضغم وهو الأسد .

لَأَصْبِرَنَّكَ شَهْرَةً يَبِينُ الْمَسِيلَ إِلَى الْقَلَمِ

فجعل المتوكل يضعك ، ويصفق بيديه ، وقد خرج البحرى مضجاً .

ومن مشهورى شعراء الحجون أبو الرقعمق بالشأم المتوفى سنة ٣٩٩ هـ ، وابن حجاج المتوفى سنة ٣٩١ هـ ، وابن سُكَّرَة المتوفى سنة ٣٨٥ هـ بالعراق ، وقد اجتمعا في بغداد ، فكان يقال فيهما إن زماناً جاد بابن سُكَّرَة ، وابن حجاج لسغى جداً .

وأبو الرقعمق ، (وهو نزيله واسمه أحمد بن محمد الأنطاكي) هو القائل :

إخوانناذكروا الصُّبُوحَ بِسُغْرَةٍ فَأَنَّى رَسُولُهُمْ إِلَى خُصُوصَا

قالوا اقترَحْ شيئاً نُجِدْكَ طَبِيعَةً قُلْتَ اطبخوا لى جَبَّةٍ وقميصا

وإلى هنا نمسك القلم عن الإفاضة في نماذج الشعر ، فإنه باب لا تنتهى محاسنه ، ويحسن بك المود إلى ماثلنا به في أبواب سابقة للحكمة والمثل ، فلا نطيل بذكر أمثمتها

لفظ الشعر وأسلوبه

كان من أثر اللدنية رقة حاشية الكلام بنوعيه : النثر والنظم ، ولما كان الشعر مجال الأنافة والتظرف ، فقد رقت حاشيته كثيراً ، خصوصاً وأنه كان موضوع الغناء وهو يتطلب اللفظ الأنيق الرقيق العذب ، لذلك نرى لفظه في هذا المصر قد صار إلى غاية الرقة ، فلو سال كلام لرقته لسال ، ولوطار لفظ خلفته لطار .

وقد دخل الشعر بعض الألفاظ الفارسية على حالها في لغتها دون تعريب أو معربة مصقولة ، وقد فعلوا ذلك تظرفاً حين استعملوا الألفاظ الفارسية على حالها لأن ذلك غير جائز في العربية ، ولكن فعله منهم أبو نواس ، وابن المعتز كثيراً اقتداء بالأعشى ، وأمية بن أبي الصلت في الجاهلية ، وقد فعلا ذلك لأن

الأول أكثر من الرحلة إلى بلاد الفرس ومدح ملوكها وأممية قد طال نظره في كتب الدين ، فانتقلت عدوها إلى لغة شعره .

وأما استعمال الألفاظ بعد تعريبها فذلك شرعة أبيحت في العربية منذ قديم ، وكثرت في هذا العصر في شعر وغيره لأنهم لما رأوا مسميات ولم يجدوها ألفاظاً عربية استعاروها من اللغات الأخرى ، وأجروها على مثال ألفاظهم ، فصارت عربية بالتعريب ووقع منها كثير في كتب العلم والأدب والشعر وسواه .

فن التظرف باستعمال اللفظ الأعجمي بمجته قول أبي نواس :

أَلْبَسْتُ كَفِّي دَسْتِيَاكَ مُشْمَرًا فَرَوَةَ سِنْتَجَابٍ نُوَامًا أَوْبَرًا

وقول إبراهيم اللوصلي :

إِذَا مَا كُنْتُ يَوْمًا فِي شَجَاهَا قَلَّ لَلْمَبْدِ يَسْقَى الْقَوْمَ يَرًا

فَإِنَّ السَّقَى مَكْرَمَةٌ وَمَجْدٌ وَمَدْفَأَةٌ إِذَا مَا خَفْتُ قُرًا

والبيروني : لفظ فارسي معناه ملآن .

وقول العماني يصف من وقف بين الأسود :

لَمَّا هَوَى بَيْنَ غِيَاضِ الْأَشْدِ وَصَارَ فِي كَفِّ الْهَزْبِ الْوَزْدِ

* آلى يذوق الدهر آبَ سَرْدٍ *

وآب سرد : هو الماء البارد .

وأما الألفاظ العربية فقد كثرت بداعي الحاجة إليها في الدلالة على مسمياتها مثل

آسنون في قول القائل :

يَا طَبِيبًا بِالْآسْنُونِ يَدَاوِي لَيْسَ مَا بِي يَزُولُ بِالْآسْنُونِ

دَاوَيْنِي يَا مُعَدِّي بِاسْمِ قَوْمٍ أَيْ وَقْتُ ذِكْرِهِمْ آسْنُونِي

وقول ابن المعتز :

سَقِيَا لِرَوْضَاتِنَا مِنْ كُلِّ نَوْرِ حَالِيهِ

عيون آذَرُونَهَا للشمس فيها كاليه
مداهنٌ من ذهب فيها بقايا غاليه
وقد وردت ألفاظ كثيرة مثل ، مِهْرَجَان ، وَيَرُوز ، وَبَرَكَار ، وَلَوَزِينَج ،
وَجَوَزِينَج ، فلا نطيل بذكرها .

أما أسلوب الشعر فقد رق بركة ألفاظه ، وحسن بالإكثار من التشبيه والاستعارة ،
والعناية بالحسن البديعي . وأول من التفت إليه ، واستكثر منه (لأنه قبل ذلك في
القرآن الكريم ، وقديم كلام العرب) بشار ، وإبراهيم بن هرمة ، ثم مسلم وأبو نواس
ثم أبو تمام والبحترى ، ثم ابن المعتز ، وكل طبقة من هؤلاء تزيد على سابقتها ،
وتستكثر من استعمال البديع ، وبعضهم يغلو كأبي تمام فيفيض في بعض الأحيان من
جمال شعره . وآخر من انتهى إليه الإبداع والاكثار مع السلامة من السقوط هو
ابن المعتز ، ثم جاء بعده قوم توسعوا في البديع ، وألحوا في المحسنات خصوصاً في عصر
بني بويه ، ولكنهم كانوا إلى السلامة أقرب . ثم غرض البديع من محاسن القول فيما
بعد عصر بني بويه كما كان الشأن في الكتابة .

ومن المحسنات التي أذكروا منها الإشارة إلى مصطلحات العلوم مثل قول
أبي نواس :

تَأْمَلُ الْعَيْنُ مِنْهَا مَحَاسِنًا لَيْسَ تَنْقُذُ
فِيبَعْضِهَا قَدْ تَنَاهَى وَبَعْضُهَا يَتَجَدَّدُ
وَالْحَسَنُ فِي كُلِّ عَضْوٍ مِنْهَا مُعَاذٌ مُرَدَّدُ

وقول القاضي شرف الدين المقدسي موجهاً في قواعد الفقه :

أُحْجِبُ إِلَى الزَّهْرِ لَتَحْطَى بِهِ وَارِمَ جِمَارِ أَهْمٍ مُسْتَنْفِرَا
مَنْ لَمْ يَطْفُ بِالزَّهْرِ فِي وَقْتِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُحْلَقَ قَدْ قَصَّرَا

وقول أبي الفتح البستي :

عُرِيتُ ولم أَذْنِبْ ولم أَكْ جانِباً وهذا لإنصاف الوزير خِلَافُ
حُذِفْتُ وغيري مُثَبَّتٌ في مكانه كأنِّي نُونُ الجَمْعِ حين يُصَافُ
وقال أبو نصر أحمد بن يوسف :

وَلِي غُلَامٌ طَالٌ فِي دِقَّةٍ كخَطِّ إِقْلِيدِسٍ لَاعْرَضَ لَهُ
وقد تناهى عقله خِفَةً فصار كالنقطة لا جُزءَ لَهُ

وقال آخر :

محاسنه هَيُولَى كُلِّ حُسْنٍ ومِفْطَاطِسُ أَفْتَدَةِ الرِّجَالِ^(١)

وقال آخر :

مسألة التَّوَرِ جرت بيني وبين من أُحِبُّ
لولا مشيبي ما جفا لولا جفاهُ لم أُشِبُّ

وقول البستي :

قد غَضَّ من أَمَلِي أَنِّي أَرَى عَمَلِي أَقْوَى من المُشْتَرَى في أَوَّلِ الحَمَلِ
وَأَنِّي راحِلٌ عما أَحاولُهُ كأنِّي أَسْتَمِدُّ الحِظَّ من رُحَلِ
وكذلك الجناس أكثروا منه وعلى نسبة الكثرة في أقسامه في علم البديع تجد أمثلة كثيرة ، ولكننا تقتصر على بعضها ، فن الطرف قول البحرى :

فَإِنْ صَدَقْتَ عَنَا قَرَبْتَ أَنْفُسِ صَوَادٍ إِلَى تِلْكَ الوُجُوهِ الصَّوَادِفِ
ومن المقلوب قول التَّيَّاسِ بن الأَخْنَفِ :

حُصَامُكَ فِيهِ لِلأَخْبَابِ فَتَحٌ وَرُحْمُكَ فِيهِ لِلأَعْدَاءِ حَتَفٌ

(١) الهزول : الأصل وهو في الأصل القطعة ، وشبه به الأوائل طينة العالم . وهو في اصطلاحهم موصوف بما يصف به أهل التوحيد الله سبحانه وتعالى من أنه موجود بلا كمية ولا كيفية ولم يقترن به شيء من صفات الحدوث ثم حلت به الصفة واعتزته الأعراض فحدث منه العالم .

ومن جناس التركيب قول البُستِي :

إِذَا مَلَكَتْ لَمْ يَكُنْ ذَاهِبَةً فَدَعَهُ فَدَوَّلَتْهُ ذَاهِبَةً
وقول سَمْسَوَيْهِ للمصري في غلام يبيع القُرَاني :

قُلْتُ لِلْقَلْبِ مَاذَا هَاكَ أَجَنِي قَالَ لِي بَائِعُ الْقُرَاني قُرَاني
ناظره فيما جَنَى ناظره أَوْ دَعَانِي أُمْتُ بَمَا أَوْدَعَانِي
وقال البُستِي :

كُلُّكُمْ قَدْ أَخَذَ الْجَا مَ وَلَا جَا مَ لَنَا
مَا الَّذِي ضَرَّ مُدِيرَ الْجَا مَ لَوْ جَا مَلْنَا

وقوله :

إِلَى حَتْفِي سَعَى قَدَمِي أَرَى قَدَمِي أَرَا قَدَمِي

وقد أولع المتأخرون من أهل هذا العصر بالنوع البديعي المعروف بالقلب ، وهو المسمى أيضاً (مالا يستحيل بالانكاس) ، وهو أن يكون عكس البيت ، أو عكس شطره كطرده ، ولصعوبة مركب هذا النوع لم يسلم من أمثلته إلا قليل ، وقد انعقد الإجماع على أن أبلغ الشواهد عليه قول الأَرَجَانِي :

مُودَتُهُ تَدُومُ لِكُلِّ هَوٍّ وَهَلْ كُلُّ مُودَتِهِ تَدُومُ

ومن الشواهد المقبولة عليه قول بعضهم :

عُجٌّ تَمَّ قُرْبُكَ دَعْدَ آمَنَّا إِنَّمَا دَعْدُ كَبْرُ قِي مُنْتَضِعٌ

ومما ألحوا فيه أيضاً فخرجوا عن الجادة ذلك النوع البديعي المسمى لزوم مالا يلزم ، وهو التزام حرف قبل الروي ، وما يقع من هذا الباب لمتقدم فهو غير مقصود ، أما المتأخرون فقد قصدوا عمله وأكثروا منه حتى إن أبا العلاء المعري عمل في ذلك ديوانا كاملا يسمى « اللزوميات » .

ومنه قوله :

كُنْ كَيْفَ شِئْتَ مُهَجَّجًا أَوْ خَالِصًا وَإِذَا رَزَقْتَ غَنَى فَأَنْتَ السَّيِّدُ
وَأَصْمَتٌ فَكَثْرَ الْكَلَامِ مِنْ أَمْرٍ إِلَّا وَقَالُوا إِنَّهُ مُتَزَيِّدٌ

ويلحق به : ما يختبر به الأدياء مواهبهم ويشحدون به قرائحهم من التزام حروف جميعها
مهل أو معجم أو ما لا تنطبق فيه الشفتان أو ما في كل كلمة منه همزة أو حروفها كلها
منفصلة أو ما يجمع به حروف المعجم كلها في بيت واحد ، إلى غير ذلك مما استهلك
الغنى وجنى على الأسلوب فلم ينظر الشاعر بعد تحقيق وجه من تلك الوجوه في كلامه
إلى حسن تمثيل ، أو وضوح دلالة ، أو صلاحية كلمة لموضعها إلى غير ذلك .

وإننا من باب الفكاهة نروى بعض أمثلة من هذا .

فما جميع الحروف فيه مهيئة قول الخطيرى الوراق :

صُدُوْدُ سَعَادٍ أَحْدَرَ السَّمْعَ مُرْسَلًا وَأَسَارَ حَرًّا لَمْ أَحَاوِلْهُ أَوَّلًا
ومما لا تنطبق فيه الشفتان :

هَانَذَا عَارَى الْجَلْدِ أَسْهَرَنِ النَّيِّ رَقْدًا^(١)

آه لعين نظرت إلى غزال ذى غيد

ومما كل كلمة فيه مهيوزة :

بَابِي أَغِيدُ أَذَابَ فُؤَادِي إِذْ تَنَاءَى وَأَطْهَرَ الْإِعْرَاضَا

ومما ليس فيه حرف متصل بآخر :

زَارَ دَاوُدُ دَارَ أَوْزَى وَأَرْوَى ذَاتُ دَلٍّ إِذَا رَأَتْ دَاوُدَا

ومما جمع حروف المعجم في بيت ، قول أبي جعفر اليزيدى :

وَلَقَدْ سَجَّجَنِي طِفْلَةٌ بَرَزَتْ ضُحَى كَالشَّمْسِ خَنَاءَ الْعِظَامِ يَدِي الْغُضَى^(٢)

(١) الجلد (بالكسر أو بالتحريك) : السك من كل حيوان .

(٢) طفلة (بالفتح) : رخصة ناعمة . خنأه : عريضة العظام .

أوزان الشعر وقوافيه

نظر الخليل بن أحمد الفراهيدي فيما ورد عن العرب من الشعر ، فاستطاع أن يضبطه ، ويرجع أوزانه إلى خمسة عشر أصلاً سماها بحور الشعر . وخالفه في ذلك الأخفش ، فجعلها ستة عشر ، وكان بحر المتدارك هو الذى نفاه الخليل وأثبتته الأخفش . فكل ما خرج عن هذه الأوزان الستة عشر ، أو الخمسة عشر فليس بشعر عربى وما يصاغ على غير هذه الأوزان ، فهو عمل المولدين الذين رأوا أن حصر الأوزان في هذا العدد يضيق عليهم مجال القول ، وهم يريدون أن يجرى كلامهم على الأنعام الموسيقية التى تلتها إليهم الحضارة ، وهذه لاحد لها ، وإنما جنحوا إلى تلك الأوزان لأن أذواقهم تربت على إلقاها ، واعتادت التأثير بها ، ثم لأنهم يرون أن كلاماً يقع على الأنعام الموسيقية يسهل تلحينه والغناء به ، وأمر الغناء بالشعر العربى مشهور ، ورغبة العرب فيه خصوصاً في هذه المدنية المباسية أكيدة .

لذلك رأينا أن المولدين لم يطبقوا أن يلتزموا تلك الأوزان الموروثة عن العرب ، فأحدثوا أوزاناً أخرى منها ستة استنبطوها من عكس دوائر البحور . وهى :

١ — المستطيل ، وهو مقلوب الطويل ، وأجزاؤه : (مفاعيلن فعولن مفاعيلن فعولن) مرتين كقول القائل :

لقد هاج اشتياقاً غريراً الطرف أحورٌ أدير الضدغ منه على مثلكِ وعنبر
٢ — الممتد ، وهو مقلوب المديد ، وأجزاؤه : (فاعلن فاعلاتن فاعلن فاعلاتن) مرتين كقول القائل :

صاد قلبى غزالٌ أحورٌ ذو دلالٍ كلما زدت حبا زاد منى نفورا
٣ — المتوافر ، وهو محرف الرمل ، وأجزاؤه : (فاعلاتك فاعلاتك فاعلن) مرتين ، ومثاله :

ما وقوفك بالركائب فى الطلل ما سؤالك عن حبيك قدرحل

ما أصابك يا فؤادى بـسـدم أَيْنَ صَبْرُكَ يا فؤادى ما فعل

٤ - المنشد ، وهو مقلوب المجتث ، وأجزاؤه : (فاعلاتن فاعلاتن مستنفع لن) مرتين .
وقد نظم منه بعض المولدين :

كن لأخلاق التصابي مستمريا ولأحوال الشباب مستحليا

٥ - المنسرد ، مقلوب المضارع ، وأجزاؤه : (مفاعيلن مفاعيلن فاع لاتن) مرتين ، وقد نظم منه بعضهم :

على العقل فعول في كل شأن ودان كل من شئت أن تداني

٦ - اللطرد ، صورة أخرى من مقلوب المضارع ، وأجزاؤه : (فاعلاتن مفاعيلن مفاعيلن) مرتين . كقول بعضهم :

ما على مستهام ربيع بالصد فاشتكى ثم أبكاني من الوجد

ومن الأوزان التي استحدثوها ما فعله أبو العتاهية ، فقد ذكر أنه نظم على أوزان لا توافق ما استنبطه الخليل إذ جالس يوما عند قصار ، فسمع صوت اللدق ، فحكي وزنه في شعر ، وهو :

للمنون دائرا ت يدرن صرفها

حتى ينتقيننا واحدا فواحدا

فلما انتقد في هذا . قال : أنا أكبر من العروض .

ومما ينسب إلى مسلم بن الوليد من ذلك قوله :

يأيها العمود قد شفتك الصدود

فأنت مستهام حائلتك السهود

تبیت ساهرا وقد ودعك المجهود

وفي الفؤاد نار ليس لها خود

ومن أشهر ما استحدث غير ما تقدم الفنون السبعة ، وهى : السلسلة ، والدوبيت ، والقوما ، والموشح ، والنجل ، وكان وكان ، والمواليا ، (وللوشحات والأزجال من اختراع الأندلسيين وتبعهم فيها المشارقة) .

١ - فالسلسلة أجزاؤه (فعلن فعلن منفعَلن فعلنان) ، ومنه :

السحر بعينيك ما تحرك أوجال إلا ورماني من الغرام بأوجال
ياقامة غصن نشا بروضة إحسان أَيْانَ هَفَّتْ نَسْمَةُ الدلال به مال

٢ - والدوبيت ، وهو وزن فارسى نسج على منواله العرب ، ودو بالفارسية : معناها اثنان ، أى أنه مركب من بيتين ويسميه الفرس الرباعى ولعله لاشتغاله على أربعة أشطر . وأوزانه كثيرة ، وأشهرها : (فَعْلَن متفاعِلن فعولن فَعْلَن)^(١) مرتين ، ومنه قول ابن الفارض .

روحى لك يازائر الليل فِدَا يامؤنس وَخَدِّقِي إذا الليل هَدَا
إن كان فراقنا مع الصبح بدا لا أسفر بعد ذاك صبح أبدا

وهو كما ترى متحد القوافى فى جميع مصاربه ، فإن اختلقت الثلاثة منها سُمى أعرج مثل قول شرف الدين بن الفارض :

أهوى رَشَاءً كُلَّ أُمَى لى بهشا منذ عاينه تصبرى مالِيشا
ناديت وقد فَكَّرْتُ فى خلقته سبجانك ما خلقت هذا عبشا

٣ - القوما : اخترع هذا الفن البغداديون بالقائمون بالبحر فى رمضان ، واسمه مأخوذ من قول بعضهم لبعض (قوما نسحر قوما) ، وقد شاع هذا الفن ، ونظموا فيه الزهري والجرى والعتاب وسائر الأنواع ولغته عامية ماحونة ووزنه (مستفعلن فَعْلَن) مرتين .

(١) قال ابن غازى فى ضبطه :

دوبيتهم عروضه ترتجل فعلن متفاعِلن فعولن فعلن

وأول من اخترعه أبو نقطة للخليفة الناصر، وكان يطرب له فجعل له عليه وظيفة كل سنة، ولما توفي كان ابنه ماهراً في نظم القوما، فأراد أن يعرفه الخليفة ليجري على مفروضه، فتعذر عليه ذلك إلى رمضان، ثم جمع أتباع والده، ووقف أول ليلة من تحت شرف القصر وغنى القوما بصوت رقيق، فأصغى الخليفة له وطرب، فلما أراد الانصراف قال :

يا سيد السادات لك بالكرم عادات

أنا ابن أبو نقطة تميش أبوا مات

فخلع عليه الخليفة، وجعل له ضعف ما كان لوالده.

٤ — الموشحات : اخترعها الأندلسيون، وأول من نظمها منهم مُقَدِّم بن مَعَاوِر من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المراني في أواخر القرن الثالث، وقد كسدت هذه الصناعة في أول الأمر حتى نشأ عبادة القُرَّاز المتوفى سنة ٤٣٣ هـ، فأجاد فيه وانتقل هذا الوزن إلى المشرق فنسخ المشارقة على منواله، وأوزانه كثيرة منها :

(مستفعلن فاعلن فاعيل*) مرتين مثل :

يا جيرة الأبرق اليان هل إلى وصلكم سبيل

ومنها : (فاعلاتن فاعلن مستفعلن فاعلن) مرتين مثل موشحة ابن سناء الملك المصري المتوفى سنة ٦٠٨ هـ :

كللى يا سحب تبيجان الربا بالخلي

واجلى سوارك منعطف الجدول

٥ — الزجل : وقد اخترع هذا الفن بالأندلس بعد أن نضجت الموشحات وتداولها الناس بكثرة حركت قوس العامة، فنسجوا على منوال الموشح بلغتهم الحضرية، وقد كثرت أوزانه حتى قيل صاحب ألف وزن ليس بزجال. وأول من اخترعه رجل يقال له راشد، ولكنه لم يظهر فيه رشاقته كما أبدع فيه بعده ابن قُزَّمان

المتوفى سنة ٥٥٥ هـ ، وهو إمام الزجالين على الإطلاق ، ومن قوله فيه :

وعرّيش قام على دكان بحال رواق
وأسد ابتلع ثعبان في غلظ ساق
وفتح فو بحال إنسا ن فيهِ القوّاق
وانطلق يجرى على الصّفاق ولقى الصّباح^(١)

٦- وكان وكان : نظم اختارعه البغداديون ، وسمى بذلك لأنهم لم ينظموا فيه سوى الحكايات والخرافات .

فكان قائله يحكى ما كان حتى ظهر الإمام الجوزى والواعظ شمس الدين فنظما منه الحكم والمواعظ ، وبصاغ معرب بعض الألفاظ على وزن واحد وقافية واحدة ولا تكون قافيته إلا مردوفة (ساكنة الآخر وقبله حرف ساكن) ومثاله :

قم يا مقصر تضرع قبل أن يقولوا كان وكان
للبر تجمري الجوارى في البحر كالأعلام

٧- المواليا : هو من القنن التي لا يلبزم فيها مراعاة قوانين العربية ، وهو من بحر البسيط لولا أن له أضربا تخرج عنه .

وقد ذكروا في سبب نشأته أن الرشيد لما نكب البرامكة أمر ألا يرثوا بشعر ، فرثهم جارية بهذا الوزن ، وجعلت تنشد وتقول : يا مواليا ليكون ذلك منجاة لها من الرشيد لأنها لا ترثهم بالشعر المنهى عنه .

وهو في الاصطلاح ثلاثة أنواع : رباعي ، وهو ما كان أشطر بيتيه مصرعة مثل قول جارية البرامكة :

يا دار أين الملوك أين القسرس أين الذين رعوها بالقنا والقرس

(١) الصفاق : حجارة رفيقة عريضة والفرد صفحة . ولقى الصباح : يريد أن الماء في ابتضائه كأنه الصباح .

قالت ترام رم تحت الأراضى الدرس سكوت بعد الفصاحة أستمهم خرس
وأعرج : وهو ما اختلف مصراع منه عن الثلاثة الباقية مثل قول بعضهم فى الوعظ :
يا عبد إبكى على فعل المعاصى ونوح هم فىن جدودك أبوك آدم وبعده نوح
دنيا غروره تحبى لك فى صفة مركب ترمى حمولها على شط البحور وتروح
ونعمانى مثل قول بعضهم :

الأهيف الى بسيف اللحظ جارحنا بيده سقانا الطلا ليلا وجارحنا
رمش رمى سهم قطع به جوارحنا آهين على لوعتى فى الحب يا وعدى
هجره كوانى وحيرنى على وعدى يا خل واصل ووافى بالمنى وعدى
* من حر هجرك ومن نار الجوى رحنا *



إن الذى دعاهم إلى الإفلات من قيود الوزن ، ١ وهو على زعمهم ضيق الأوزان
فى الشعر العربى) قد دعاهم مثله إلى الإفلات من قيود القافية . ذلك بأن الشعر العربى
إذا زاد المقول فيه على بيت واحد وجب أن يتحد مع الأصل فى الوزن والقافية ، ولم
يعهد عن العرب القدماء أنهم قالوا بيتين أو أكثر فى معرض واحد إلا جاءوا بذلك
من بحر واحد ، وجعلوا أواخر الأبيات حرفاً واحداً مع ما اشترطوا فى هذه الأواخر من
شروط مجموعها هو علم التوافى .

حقاً إن هذا إذا نظرنا إليه نظرة عامة نراه التزاماً شديداً لم تشتطه لغة غير
العربية . فأكثر اللغات يكنى فيها شرط الوزن مع خلاف بين اللغات واللغة العربية
فيا يراد بهذا الشرط أيضاً .

ولكننا ننظر إلى العربية فى سابق عهودها فنجدها قد نهضت بجميع أغراض
القول مع اشتراط الوزن والقافية ، وكان أكثر كلام العرب شعراً ، ولم يعرف أن أحداً

منهم شكاً من ذلك ، أو تبرم به ، أو حاول الخروج عليه لا في جاهلية ولا إسلام حتى كان العصر العباسى .

فإذا كان بعض الشعراء فى العصر العباسى قد تبرم بهذين القيدين ، فليس العيب عيب اللغة ، ولكنه عيب من يحاول ما لا يستطيع ، هو عيب من لا يستكمل الوسائل ، ثم يريد الطغور إلى الغايات . وما كان لنا أن نتابع هؤلاء الباغين على العربية الذين يريدون أن يتحيفوا جماها من أطرافه فننادى معهم بطرح هذه القيود ، فإنها ليست كما ظنوا قيود منع وإرهاق ، ولكنها حجز زينة ، ومعاهد رشاقة ، ونظام كأنه نظام فريد لا يحسن إلا إذا روعى فيه التناسق والتناظر .

ومن أمثلة هذه المحاولة المزرية بقدر الشعر ما أنشد القاضى أبو بكر الباقلا فى كتابه إعجاز القرآن قول بعضهم :

رب أخ كنت به مقتبطاً أشد كفى بعرى صحبته
تمسكا منى بالود ولا أحسبه يزهد فى ذى أمل

ولكن هذا الناقص لم يجد من يتابعه ، لأن الأذن لا تترتاح إلى صنيعة ، ولكنهم قبلوا من ذلك نوعاً سموه المزدوج ، وهو أن يؤتى بيتين من مشطور أى بحر مقفين وبعدها غيرهما بقافية أخرى ، وهكذا . وقد احتاجوا إلى ذلك ، وأكثروا منه فى نظم القصص الطويلة والحكم والأمثال ومسائل العلوم ، مما لا يرد به إلا مجرد الضبط لسهولة الحفظ ، وحرموا هذا النوع أن يسمى قصيدة مهما طال . وأول من نظم فيه يشار وأبو العتاهية ، ثم تتابع عليه الشعراء ، ومن مزدوجة لأبى العتاهية فى الحكم ، وقد سماها ذات الأمثال وله فيها أربعة آلاف مثل ، قوله :

حسبك مما تبغيه القوت ما أكثر القوت لمن يموت
الفقر فيما جاوز الكفايا من اتقى الله رجا وخافا
هى المقادير فلقى أو فذر إن كنت أخطأت فإخطأ القدر

لكل ما يؤذى وإب قل ألم ما أطول الليل على من لم ينم
ما انتفع للرء بمثل عقله وخير ذخـر للمرء حسن فعله
من جبل النـام عينا هلكا مبلنك الشر كباغيه لكـا
ما عيش من آفته بقاؤه نقص عيشاً كله فناؤه
ما زالت الدنيا لنا دار أذى ممزوجة الصفو بأنواع القذى
من لك بالحض وليس محض يخبث بعض ويطيب بعض
إن الشباب حجة التصابي روائح الجنة في الشباب

ومن هذا النوع ألفية ابن مالك ، وما على شاكلتها من متون العلوم .

وما استحدثوه في القافية أيضاً نوع يسمى المسط ، وهو أن يتبدى الشاعر بيت
مصرع ، ثم يأتي بأربعة أقسمة من غير قافيته ، ثم يعيد قسمًا واحداً من جنس ما أبتدأ
به وهكذا إلى آخر القصيدة ، وقد نسبوا إلى امرئ القيس قوله من هذا النوع :

تَوَهَّتْ من هِنْدٍ مَعَالِمُ أَطْلَالٍ عَفَاكَنْ طُولُ الدَّهْرِ في الزَمَنِ الخَالِ
مَرَّابِعُ من هِنْدٍ خَلَّتْ وَمَصَائِفُ يَصْبِيحُ بِغَنَّاها صَدَى وَعَوَازِفُ
وَعَبَّرَها هَوُجُ الرِّياحِ العَوَاصِفُ وَكُلُّ مُسْفٍ ثُمَّ آخِرُ رَادِفُ
* بِأَسْتَعِمَّ من نَوءِ السَّما كَيْنَ هَطَّالٍ *

وقد يكون بأقل من أربعة أقسمة وبلايت مصرع مثل قول بعضهم :

غزالٌ هاج لي شجنا فَيْتْ مكابداً حَرَكا
عميد القلب مَرَّتْها بِذِكرِ اللهو والطرب
سَبَّتْني غَلْبَةُ عَطْلُ كَانَ رُضابها عَسْلُ
يَنوُّ بِحَضْرَها كَقَلُّ ثَقِيلُ روادِفِ الحَقَبِ

كذلك أحدثوا فيها الخمس ، وهو أن يؤتى بخمسة أقسمة كلها من وزن واحد
وخامسها بقافية مخالفة للأربعة قبله ، ثم بخمسة أخرى من الوزن دون القافية

للأقسام الأربعة الأولى ، ويتحد القسم الخامس مع الخامس من الأولى في القافية
كقول الشاعر :

ورقيب يردد اللفظ ردا ليس يرضى سوى ازديادى بعدا
ساحر الطرف مذجنى الخلد وردا إن يوما لناظرى قد تبدى

* فتعلى من حسنه تكحिला *

وتصدى من فحشه فى استباقٍ يمنع اللفظ من جنى واعتناقٍ
أياس العين من لحاظ اعتناقٍ قال جفى لصنوه لا تلاقٍ

* إن بينى وبين لقياك ميلا *

المولودون أو المحدثون

يراد بالمولدين فى الاصطلاح العام للأدب هؤلاء الشعراء الذين نشأوا فى المصر
الدياسى ، وهم أيضاً المحدثون . وسبب تسميتهم مولدين أنهم من الجيل الذى لم تخلص
أنسابه بل اختلطت ، فكان من الناس المحجين والمقرّفين ، بعد أن كانوا فى القديم عرباً
خلصاً ، ليس فى نسبهم ما هو غير عربى .

فالمولد اسم لكل من نشأ غير خالص العربية ، ثم صار فى اصطلاح الأدب كل
من قال الشعر من أهل المصر الذى كثر فيه هؤلاء المولودون فى الأنساب ولو كان
عربياً قحاً ، وكلمة محدث قريبة المعنى من هذا ؛ لأن معناها الذى جد وحدث
بعد الأصل .

على أنك واجد من بعض رواة الأدب تشدداً فى اعتبار المولد من الشعراء ، فهذا أبو
عمر بن العلاء يقول عن طبقة جرير والفرزدق : لقد أحسن هذا المولد حتى هممت أن
أمر صبياننا برواية شعره ، وهو الذى جالسه الأصمى ثمانى سنين فاسمعه يحنج
بيت إملأى .

وقريباً منه كان الأصمى في التعصب للشعر القديم . ولكنه كان أقرب إلى الانصاف ، فقد روى عنه أنه كان يستحسن أبيات أبي نواس ، « ودار ندأى عطوها وأدجلوا » وقد مرّ بك أنه غالب النابغة في قوله :

فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المتأى عنك واسع
فقال لو أن قائلًا قال إن النمرى أحسن من النابغة في قوله :

فلو كنت كالعقواء أو كسموها لخلتلك إلا أن تصد تراني

لوجد إلى ذلك سبيلا ، ولعل كل جديد يجري عليه ما جرى على جديد الشعر في العصر العباسي ، فقد تعصب عليه قوم حتى أعماهم التعصب عن محاسنه ، وحتى كان الشعر يعجبهم قبل أن يعرفوا قائله فينشطون لكتابته وروايته ، فإذا ما علموا أنه لحدث ألفوا حسنه ومزقوا صحيفته كما رويوا عن ابن الأعرابي أنه عرضت عليه أرجوزة أبي تمام اللامية التي مطلعها .

وعاذل عذلتُهُ في عَذْلِهِ فظن أنّي جاهلٌ من جَهْلِهِ

لبستُ رِيْعَانِي فَذَرْنِي أُبَيْلِهِ مَا عَيْنَ الْمَغْبُونِ مِثْلُ عَقْلِهِ

وقيل له إنها فلان من شعراء العرب فاستحسنها غاية الاستحسان وقال هذا هو الديباج الخُسرواني^(١) ، ثم استكتبها فلما أنهاها قيل له هي لأبي تمام فقال من أجل ذلك أرى عليها أثر الكلفة ثم ألقي الورقة من يده وقال : يا غلام خرق ، خرق .

ويبلغ من آخرين أن يهجنوا القديم ويعملوا على هدمه ويبالغوا في الزيادة عليه كما فعل أبو نواس في تهكمه بمبادئ القضايد في كلام الجاهليين ومن بعدهم حتى حمل الناس على تكسير هذه القيود والإفلات منها .

ولكن الاعتدال في الحكم هو الذي يصادف من العقلاء ارتياحا ، وقد اعتدل كثير من القدة المتقدمين كابن قتيبة وابن رشيق وغيرهم فحكموا أن القديم من الشعر يجب أن يكون مقدما من ناحية الجزالة وسلامة العبارة وأنه مرجع النحوى في شواهد ،

(١) نسبة إلى خسروية ، وهي بلدة بواسط .

واللغوى فى معانى ألفاظه ومبانيها ودلالات تراكيبها ، وأن الجديد المحدث يرجع فى الميزان بمذوبة ألفاظه ورقمتها وحلاوة معانيه وشدة ترابطها ، وقد حكم ابن رشيق فى كتابه «العمدة» بأن مثل القديم والمحدث كمثل رجلين ابتدأ هذا بناء فأحكمه وأتقنه ، ثم أتى الآخر ففقد وزينه . فالكلفة ظاهرة على هذا وإن حسن ، والقدرة ظاهرة على ذلك وإن خشن .

محاسن المولدين فى الشعر

تذاكر الناس يوما فى مجلس محاسن الدنيا ونزهها ، وأطالوا فى ذلك وكان فيهم ابن دريد الشاعر الراوية اللغوى فقال لهم قد أكثرتم من ذكر محاسن الأبصار فأين أتم من محاسن البصائر ؟ فقالوا له وما هى ؟ قال شعر المحدثين ، وكتب الجاحظ ، ونوادر أبى العيناء .

والحق أن شعر هؤلاء مجال للروح وقد أحرزت به العربية فضيلة كبرى فصار بها ألد الآداب لما حواه من محاسن لا تنفد .

فن محاسنهم تلك المعانى التى أزاخوا عنها حجب القلوب ، فكانت درا انصدعت عنه أصدافه ، أزهرا تفتحت أكامه ولم يلقوا بها عند حد بل تنافس الشعراء فيها ، حتى يؤثر عن أحدهم ما يشرف به عند التفضيل والموازنة . ويمثل ذلك فى المعانى التى اخترعوها ، والمعانى التى تناولوها من القدماء ، فولدوا فيها حتى استبدوا بأغلبها وظهر فيها فضل الحضارة على البداءة ، وميزة الثقافة على الجهالة . فما بقى معنى تعرض له جاهلى أو إسلامى إلا شرف بتناول هؤلاء له وإبرازه وإخا جليا . فانظر إلى توليد أبى نواس فى وصف الدمن وهو المعنى الذى أكثر الأولون منه ، ولكن حضارة

أبي نواس أبت إلا أن يحدث فيه ما أحدثته الحضارة في نفسه . قال :

لَمَنْ دِمْنٌ تَزْدَادُ حُسْنَ رُسُومٍ عَلَى طُولِ مَا أَقَوْتُ وَطِيبَ نَسِيمٍ
تَجَافَى إِلَيَّ عَنْهُمْ حَتَّى كُنَّا نَمَّا لَيْسَنَ عَلَى الْإِقْوَاءِ ثَوْبَ نَعِيمٍ
وقال امرؤ القيس يصف حلي امرأة .

كَأَنَّ عَلَى لِبَاتِهَا حَجَرَ مُصْطَلٍ أَصَابَ غَضًّا جَزْلاً وَكَفَّ بِأَجْزَالِ

فأخذه ابن المعتز ، وتصرف فيه أبدع تصرف فقال في وصف الثغر :

أَلْتَمِهَ فِي الدَّجَى وَبَرَقَ ثَنَا يَاهُ يَرِينِي مَوَاضِعَ اللَّثَمِ

أما اختراع الحداث للمعاني فذلك ما لا يحده حصر . وقد سبق من أمثله كثير . ومن غير الذي ذكرناه قول أبي نواس في الحجر وهو ما لم يسبق إليه ولا حام حوله حاتم قبله :

فِي كَوْثُوسٍ كَأَنَّهُنَّ نُجُومٌ دَائِرَاتٌ بُرُوجُهَا أَيْدِينَا

طالعاتٌ مَعَ الشَّقَاةِ عَلَيْنَا فَإِذَا مَا عَرَبْنِ يَغْرُبْنِ فِينَا

ومن المعاني التي استفادوها بمدنياتهم واطلاعهم على العلوم ، تلك الحكمة التي شاعت في أقوالهم واشتهر بها كثير منهم : كصالح بن عبد القدوس ، وأبي العتاهية الذي يؤثره فيما أثر من حكمته أرجوزة بها أربعة آلاف حكمة ، وقد مر بك بعض أبياتها ، وأبي تمام ، والمتنبي الذين انبثت حكمهما في شعرهما وفصلت بها أقوالهما . وليس ذلك بغير على قوم اطلعوا على فلسفة سقراط وأرسطو ووعوا كل ما أثر عن فلاسفة اليونان وحكام الهند والفرس . وللمروزي أحمد بن محمد أبي الفضل السكري مزدوجة ترجم فيها أمثال الفرس ومنها قوله :

مَنْ رَامَ طَمَسَ الشَّمْسَ جَهْلًا أَخْطَا الشَّمْسُ بِالتَّطْلِيحِ لَا تَغْطَى
أَحْسَنَ مَا فِي صِفَةِ اللَّيْلِ وَجِدَ اللَّيْلُ حَبْلِي لَيْسَ يُدْرَى مَا تَلَدُ
مَنْ مِثْلَ الْفَرَسِ ذَوِي الْأَبْصَارِ الثَّوْبُ رَهْنٌ فِي يَدِ الْقَصَّارِ

إن البعير يُبْغِضُ الخشاشا لكنه في أخيه ما عاشا^(١)
 نال الحمار من سقوط في الوحل ما كان يهوى ونجا من العمل
 من لم يكن في بينه طعام فماله في بينه مقام
 كان يقال من أقي خوانا من غير أن يدعى إليه هانا
 وما يتجلى للعيان من محاسن المولدين ما جرى على أيدي مجيديهم من العناية بالبديع ،
 وليس ينكر أحد أثره في النفس وحسن موقعه في الكلام ، إذا أحكم أمره لجاء مساوفاً
 للطبع غير بادي الكلفة . فانظر إلى الطباقي في قول أبي تمام :

ولكنني لم أخوِّ جما مؤفراً ففرت به إلا بشملٍ مُبَدِّدٍ
 ولم تعطني الأيام يوماً مسكناً ألدُّ به إلا بنومٍ مُشْرِدٍ
 وانظر إلى قول مسلم بن الوليد يهجو وقد دق معناه ولطف وارتاحت النفس إلى حسن
 لفظه ، وما سبب حسنه إلا المقابلة والطباق اللذان اجتلبهما المعنى ودعا إليهما حسن
 تنسيق القول ، قال :

أما الهجاء فدقَّ عِرْضُكَ دُونَهُ وَالْمَدْحُ عَنْكَ كَمَا عَلِمْتَ جَلِيلُ
 فاذْهَبْ فَأَنْتَ طَلِيْقٌ عِرْضُكَ إِيَّاهُ عِرْضٌ عَزَزْتَ بِهِ وَأَنْتَ ذَلِيلُ

وانظر إلى حسن التعليل في قول ابن المعتز ويروى لابن الرومي :

قالوا اشتكت عَيْنُهُ قَتَلْتُ كُلُّهُ مِنْ كَثْرَةِ الْقَتْلِ مَسَّهَا الْوَصَبُ
 حمرتها من دماء من قتل والدم في النّصل شاهدٌ عَجَبٌ^(٢)

وقول مجير الدين بن تيم وقد كتب البيتين مع وردة لم تفتح وأرسلها إلى معشوق :
 سَبَقَتْ إِلَيْكَ مِنَ الْخَدَائِقِ وَرْدَةٌ وَأَتَيْتُكَ قَبْلَ أَوَانِهَا تَطْفِيلًا
 طَمِعْتَ بِلَيْتِكَ إِذْ رَأَيْتُكَ جَمَعْتُ فَمَا إِلَيْكَ كَطَالِبٍ تَقْيِيلًا

(١) الخشاش : ما يوضع في أفم البعير ليسهل قياده .

(٢) الأمر العجيب : هو ما جاوز حد العجب .

وقال ابن الرومي في تعليل بكاء المولود عند ولادته :

لِمَا تُؤْذِنُ الدُّنْيَا بِمِنْ صُرُوفِهَا يَكُونُ بُكَاءُ الطِّفْلِ سَاعَةَ بُولَدِ
وَالْأَفْ فَا يُنْكِيهِ مِنْهَا وَلِيَّهَا لِأَوْسَعُ مِمَّا كَانَ فِيهِ وَأَرْغَدُ
إِذَا أَبْصَرَ الدُّنْيَا اسْتَهْلَ كَأَنَّهُ بِمَا سَوْفَ يَلْقَى مِنْ أَذَاهَا مَهْدَدُ^(١)

وقد حسنت المبالغة في شعر العباسيين الذين لم يستأسروا للصنعة فيقعوا في الإحالة وهم كثيرون خصوصاً في المدة الأولى . والمبالغة هي التي يعظم بها الحقير . ويهون المهائل . وهي ما دامت مقبولة في النوق سائفة في التخيل ، جمال لا يعد له جبال . وردت في القرآن ففهم بها المعنى . قال تعالى - يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسه نار - . فهي في الآية حسنة سائفة لموضع يكاد من الدلالة على القرب ومشاركة الوقوع . فلم يدخل القول في الغلو المقوت أو الكذب المزدول . ومن أشعار العباسيين في المبالغة قول البحترى في المتوكل :

فلو أن مشتاقاً تكلف فوق ما في وسمه لسى إليك المنبر
فانظر إلى التعليق بلو والتقيد بما فوق الوسع فإن المبالغة دخلت بهما في باب الإمكان ونظم المعنى بذلك كل فحامة .

ومنها قول ابن الرومي في وصف بخيل :

لو أن قصرَك يا بن يوسف كله إِر يضيق بها فضاء المنزل
وأناك يوسف يستعيرك إبرة لِيَخِيطَ قَدَّ قَيْصِه لم تقبل

فانظر إلى المبالغة كيف كان أثرها في تهويل أمر هذا البخيل وتصوير ضنه بإعارة أهون الأشياء لنبي من الأنبياء في مقام يجود فيه البخيل وتجب الموساة . فأذا أضفت إلى ذلك وفرة ماتحت يد هذا البخيل مما لا يجتمع مثله في ملك أحد وذكرت أنه

(١) استهل : بكى .

ابن المستعير كما يدل عليه ظاهر لفظ يوسف وابن يوسف علمت إلى أى حد صور لنا الشاعر بخله فاستوجب الزاينة من كل مصدق لهذا القول فيه .

وانظر إلى أبى تمام وقد وصف المتصم بالشجاعة يوم عَمُورِيَّةَ فبالغ ما شاء مع وقوعه فى حدود الإمكان قال :

لَمْ يَمْزُ قَوْمًا وَلَمْ يَنْهَضْ إِلَى بَلَدٍ إِلَّا تَقَدَّمَهُ جَيْشٌ مِنَ الرُّعْبِ
لَوْ لَمْ يَقْدُ جَحْفَلًا يَوْمَ الْوَعَى لَعَدَا مِنْ نَفْسِهِ وَحْدَهَا فِي جَحْفَلٍ لِحَبِّ

ويكفى فى تصديق مثل هذا أن تطلع على التاريخ لتعلم أن من الشجعان من سلم له العدو قبل أن يتحرك لمحاربه فكان جيش الرعب هو العامل قبل جيش الهندوانيات والسمهريات ، وأن منهم من لقي الجحافل وحده واخترق الصفوف وألقى الرعب فى قلوب الأعداء .



ومن مزايا الشعر العباسى حسن الربط بين المعانى وذلك أثر لكثرتها عندهم وصدورها عن فكر مرتب وخيال مهذب . فليس فيها ذلك الشرود والتقطع البادى فى أقوال الجاهليين مثلاً . وهذه الظاهرة عامة فى شعر العباسيين لرغبتهم فى القوس على المعانى ، فلم يكن يرض لأحدهم معنى حتى يستوفيه ويأتى على ما استطاع فيه ، فرتب المسببات على الأسباب ، وجاء بالنتائج بعد المقدمات . ومن بناء أفكارهم على هذا التنسيق البديع لم يروا من المقبول فى النوق أن يَطْفِرَ الشاعر من غرض إلى غرض دون أن يمهده بصلة تجمع الغرضين فى ناحية من نواحي التفكير ، فكان من عنايتهم بذلك نشوء النوع المسمى بحسن التخلص ، ومن أمثله قول أبى تمام فى عبد الله ابن طاهر :

تَقُولُ فِي قَوْمِي قَوْمِي وَقَدْ أَخَذْتُ مَنَا الشَّرِيَّ وَخَطَا الْمَهْرِيَّةِ الْقَوْدِ^(١)
أَمَطَّلَعَ الشَّمْسُ نَبْغِي أَنْ تَوْهَمَ بَنَا فَكَلْتُ كَلًّا وَلَكِنْ مَطَّلَعَ الْجُودُ
وقوله من قصيدته التي بدأها بوصف الربيع وأولها :
رَقَّتْ حَوَاشِي الدَّهْرِ فَهِيَ تَمَرَّمُ وَغَدَا النَّوَى فِي حَلِيهِ يَتَكَسَّرُ
فلما أراد التخلص إلى مدح المتصم قال :
خُلِقَ أَطْلٌ مِنَ الرَّبِيعِ كَأَنَّهُ خُلِقَ الْإِمَامُ وَهَدِيَهُ الْمُتَشَبِّهُ
ومن ذلك أيضاً قول أبي نواس :

تَقُولُ لِي مِنْ بَيْتِهَا خَفَّ حَمِيلِي يَمِزُّ عَلَيْنَا أَنْ نَرَاكَ تَسِيرُ
أَمَادُونَ مَصْرٍ لِلْفِي مُتَطَلَّبُ لِي إِنْ أَسْبَابَ الْفِي لَسْكَتِيرُ
فَقُلْتُ لَهَا وَاسْتَمَجَّتْهَا بَوَادِرُ جَرَتْ لِي مِنْ جَزِيرٍ غَدِيرُ
دَعَيْتِي أَكْثَرُ حَاسِدِيكَ بِرِخْلَةٍ إِلَى بَلَدٍ فِيهِ الْخَصِيبُ أَمِيرُ
فَقِي يَشْتَرِي حُسْنَ الثَّنَاءِ بِمَا لَهُ وَيَعْلَمُ أَنَّ الدَّائِرَاتِ تَدُورُ

وقول المتنبي في سيف الدولة :

خَلِيلِي إِنْ لَّا أَرَى غَيْرَ شَاعِرٍ فَلِمَ مِنْهُمْ الدَّعْوَى وَمِثِّي الْقَصَائِدُ^(٢)
فَلَا تَعْجَبْ إِنْ السِّیُوفَ كَثِيرَةٌ وَلَكِنَّ سِیْفَ الدَّوْلَةِ الْيَوْمَ وَاحِدُ

وتعرف فضل العباسيين في ذلك إذا قست عملهم فيه بما كان يفعله الجاهليون من
الطُفُور من معنى إلى معنى بلا أنسة ولا تمهيد كقول النابغة وقد خرج من وصف الليل
إلى المدح :

(١) قومس : بلغة بأصفهان . المهريّة : الإبل تنسب إلى حق من العرب يسمى مورة بن حيدان .
أفود : جمع أفود وهو القنول .

(٢) قال أبو الفتح ابن جني : لو قال فسكن لكان أحسن .

تَقَاعَسَ حَتَّى قُلْتُ لَيْسَ بِمَنْقُصٍ وَلَيْسَ الَّذِي يَرْغَى النَجْمُ بِأَكْبَرِ
عَلَى لِعَمْرٍو نِعْمَةٌ بَعْدَ نِعْمَةٍ لَوْلَاهُ لَيْسَتْ بِذَاتِ عَقَارِبٍ^(١)
أَوْ يَرْبُطُ هُوَ بِالْقَطْعِ أَشْبَهَ كَقَوْلِ زَهِيرٍ :
دَعْ ذَا وَهَدِّ الْقَوْلِ فِي هَرَمٍ خَيْرَ الْبِدَاةِ وَسَيِّدِ الْخَفَرِ

❦

ومما يدل على سلامة أذواقهم ولطف مداخلهم عنايتهم بمطالع القصائد وخواتيمها
فجعلوا المطلع دالا على القصد مشيرا إلى موضوع القول واختاروا له اللفظ المناسب للمقام :
المشجى في مقام الحزن ، المطرب في مقام السرور والارتياح ، ليكون أول ما يقرع السمع
مساعدنا على النشاط داعيا إلى حسن الإقبال . ومن محاسن الابتداء آت قول أبي تمام
في مدح المعتصم بعد فتح عَمُورِيَّةَ .

السَّيْفُ أَصْدَقُ أَنْبَاءٍ مِنَ الْكُتُبِ فِي حَدِّهِ الْحَذُّ بَيْنَ الْحِدِّ وَاللَّعِبِ
بَيْضُ الصَّمَاخِ لِأَسْوَدِ الصَّخَايِفِ مُتَوْنِينَ جَلَاءَ الشُّكِّ وَالرَّيْبِ
وقوله في أول مرثية :

أَحْمَ بَكَ النَّاعِي وَإِنْ كَانَ أَسْمَا وَأَصْبَحَ مَغْنَى الْجُودِ بِعَدِّكَ بَلَقَمًا^(٢)
وقصيدته المشهورة في رثاء محمد بن مُحَمَّدٍ الطُّومِيّ :

كَذَا فَيَلْجِلُ الْخَطْبُ وَلَيَقْدَحِ الْأَمْرُ فَلَيْسَ لِمَنْ لَمْ يَفِضْ مَاؤُهَا عُدْرُ

ومن خير ما يذكر في هذا الباب ابتداء المتنبي وقد لاقى كافورا بعد فراق سيف الدولة
فإنه جمع العنينين في قوله في بدء القصيدة :

فِرَاقٌ وَمَنْ فَارَقْتُ غَيْرَ مُدَمِّمٍ وَأُمٌّ وَمَنْ يَمَّمْتُ خَيْرَ مُيَمِّمٍ

(١) الغارب : النائم .

(٢) المعنى : المنزل الذي أقام به أهله ثم طعنوا أو هو عام . البلع : القفر .

ومثله وإن كان المقام أدق والجمع بين المنين أصعب قول ابن نباتة المصرى يهنى الملك
الأفضل صاحب حماة . ويعزيه عن والده الملك المؤيد ، وهى من غرر قصائده :

هناك بما ذاك العزاء المقدما فما عَبَسَ الحزونُ حَتَّى تَبَسَّما
تُورُ ابتسام في ثُورِ مدامع شِبْهانٍ لا يَمْتَأَزُ ذو السَّبْقِ منهما
تُرْدُ مجارى الدمع والبِشْرُ واضح كوايلِ غَيْثٍ في ضحى الشَّمْسِ قَدْهَمِي^(١)

وأما الختام فقد احتفلوا فيه وقصدوا إلى أن يكون اللفظ مؤذنا بالفراغ شافيا للنفس من
الحاجة إلى السماع . فراعوا في ذلك ألا ينتهى الشاعر بمعنى لم يستوفه فإن بقاء النفوس
طالبة وقد عزَّ المطلب ، راغبة ولا تحقيق لرغبتها ، يكر عليها سرورها بما مضى من
القصيدة ، وينتهى بها إلى القلق وهو لا يَحْسُنُ أن يكون غاية . لذلك اختاروا للختام
تلك المعاني التي تفر النفس عندها كالنداء للمدح فإنه غاية الغايات ، وكلحك بالغة
فإنها لاستقلالها بنفسها وجلال مكانها في النفس تشغل السامع عن انتظار شيء فيتم
مراد الشاعر من حسن الخرج .

ومن حسن الانتهاء قول أبى العلاء المعرى أو المتنبي (على أنه ليس فى
ديوان أحدهما) :

بَقِيَتْ بقاء الدَّهْرِ يا كَهْفَ أَهْلِهِ وهذا دعاء للبرية شامل
وقول أبى تمام فى ختام قصيدة يمدح بها أبا سعيد الطائى :
أَتَيْتُكَ لَمْ أَفْزَعْ إلى غير مَفْزَع ولم أَتَشُدَّ الحاجات فى غيرِ مَشَدِّدٍ
وَمَنْ يَرْجُ معروف البَعِيدِ فإنما يَدِي عَوَّلَتْ فى النابِثِ عَلَى يَدِي



وإنهم حين دلوا على حسن ذوقهم باختيار المعاني الجليلة وسوقها فى معارضها المناسبة

(١) ترد مجارى الدمع : تكهكف .

والإبداع في ترتيبها ، والإحكام في ربطها ، لم يفهم أن ينظروا إلى قلبها من الألفاظ فيختاروها أليق شيء بمدنيتهم ، وأول دلائل على حضارتهم : لأن عيشهم فلانت ألفاظهم ، ورتق شمائهم فرقت عباراتهم ، وركبوا القاره ، وأكلوا الطيب ، وذاقوا العذب وسمعوا اللطرب ، فحكوا كل هذا فيما التمسوا من الكلام للدلالة على معانيهم الحضرية وأغراضهم السامية .

وإن فضل العباسيين على الأدب العربي لفضل واسع المدى غير مستطاع الشكر . فلو تصورنا أن الأدب ظل متوصرا للفظ خشن الجس فكم يكون مبلغ إقبالنا عليه ونظرنا فيه . فيد العباسيين على العزبة عظيمة القدر . وإننا كما قلنا في مقامات سابقة إنما نقتيل ظلمهم ونطبع على غرارهم إذ كانت همهم غاية الهمم وآثارهم مناط الآمال .

مساوى* المولدين في الشعر

إذا تم شيء بدا قصه ، وقد تم الحسن للشعر على يد المولدين فأبت سنة الله في خلقه إلا أن يدخل عليه النقص مع السكال من باب ، ويزوره في إهاب . ذلك أن المعاني التي رفعت شعر العباسيين وجعلته جيباً إلى النفوس بما فتح من أحكام الأفكار ، وجلا من عرائسها الأوبكار ، تلك المعاني هي التي جنت على الشعر حين لم فيها الشعراء ، فما يزال أحدهم يدق ويمن في دقته حتى ينتهي إلى الاستفلاق ويحتاج قارنه إلى إعمال الفكر في الفوص على مراده ، ومن ذلك قول بعضهم :

وَعَلَّمَتْنِي كَيْفَ الْهَوَىٰ وَجَهَلَتْنِي
وَعَلَّمَكُم صَبْرِي قَلَىٰ ظُلْمِكُمْ ظُلْمِي
فَأَعْلَمُ مَا لِي عِنْدَكُمْ فَيَعْمَلُ بِي
هَوَايَ إِلَىٰ جَهْلِي وَأَعْرِضْ عَنِّي عِلْمِي^(١)

(١) معنى البيتين : علمتني بما فيك من جمال ودل كيف أحب ، وجهلت أنت حق الحب فلم ترحم شجوري . وقد كان صبري على مايقع علي من ظلمكم سبباً في استمراركم في هذا الظلم . ولأنى لأعرف ماانتظون عليه من إعراض عني ولكن هوى لكم وبحقي تجهلني أستمروا في التعاقب بكم تناسيا ما أعرفه من إعراضكم عني وإغفالكم لشأني .

وما زالوا يتبعون العويس حتى اتهموا إلى الإنجاز فأكثروا منه وصار موضوع سمرم
ومجال مباراتهم قال بعضهم في القلم :

ما غلام راكع ساجد أخو تحوّل دمه جارى
ملازم للخمس في وقتها مُتَكِفٌ في خدمة البارى

وقال آخر في الميزان :

وقاضى قضاةً يفصل الحكم ساكتاً وبالحق يقضى لا يبرح فينطق
قضى بلسان لا يميل وإن ميل على أحد الخصمين فهو مُصَدِّق
وقال السريّ الرفاء في شبكة الصياد :

وكثيرة الأحداق إلا أنها عمية مالم تنغمس في ماء
وإذا هي انغمست أفادت ربها مالا ينال بأعين البصراء

وقال أبو العلاء المعري في الملح :

وبيضاء من سرّ الملاح مَلَكُهَا فلما قَضَتْ إزني حَبَوْتُ بها حَصى
فباتوا بها مُسْتَمْتِعِينَ ولم تزل تحنُّهم بعد العلَّامِ على الشَّرْبِ
وقوله سر الملاح: السر الخالص ، والملاح جمع ملح . والإرب الحاجة .

وقول آخر في النوم :

وحامل يحملنى وماله شخص يرى
إذا حصلت فوقه وهو لذيذ المتعطى
سريت لأدري أفى أرض سريت أم سما

وقال آخر في الصدى :

وساكن يسكن في القلاة ليس من الوحش ولا النبات
ولا من الجن ولا الحيات ولا الخيام الشعر والأبيات
ولا بنى جسم ولا حياة كلا ولا يدرك بالصفات
يلى له صوت من الأصوات يسمع في الأحيان والأوقات



وكان التشبيه والاستعارة زين كلامهم لما يحملان من المعنى ويكشفان من غامضه
ويقرّبان من بعيدة ، فلما أمتعوا فيها وكدوا الطبع بها أحالوا ، أو أتوا بالسخيف
البارد : فن ذلك قول أبي نواس :

نُجَّ صَوْتُ الْمَالِ مِمَّا مِثْلُكَ يَشْكُو وَيَصِيحُ

فأى شيء أبعد من جعل المال ذا صوت حتى يدعى أنه قد يج من كثرة الشكوى والصياح .
وكذلك قول بشار يصف محبوبته وهجرها .

وَجَدْتُ رِقَابَ الْوَصْلِ أَسْيَافُ هَجْرٍهَا وَقَدْتُ لِرِجْلِ الْبَيْنِ نَعْلِينَ مِنْ خَدَّيْ
فانظر كيف جعل الوصل مقتولا والهجر سيفاً والبين ماشياً على رجلين منتعلاً بأديم الخدين .
وقال أبو تمام :

لَا تَسْتَفِنِي مَاءَ اللَّامِ فَإِنِّي صَبٌّ قَدْ اسْتَمَدَّ بُتُ مَاءٍ بِكَافِي

فأطلق الألسنة بعبية حتى أرسل إليه ظريف من أصحابه فارورة ، وقال له : ابست لنا
شيئاً من ماء اللام ، وقد استنقل منه غاية الثقل ، واستبرد غاية البرد قوله :

كَأَنِّي حِينَ جَرَدْتُ الرَّجَاءَ لَهُ غَضًّا أَخَذْتُ بِهِ سِيفًا عَلَى الزَّمَنِ

ولعل ذلك إنما جاءه من جعله الرجاء شيئاً غضا طرأ كأنه فاكهة أو نحوها بعد
قوله جردت ، وقد رواه صاحب الصناعتين ؟

❖ غَضْبٌ صَبَبْتُ بِهِ مَاءَ عَلَى الزَّمَنِ ❖

وقد حق له أن يقول بعد إيراد البيت : « ولا يكاد يرى تشبيه أبرد من هذا » .



وقد حسنت المبالغة منهم حين كانوا مقتصدين فيها ، فلما سباهم حسنها وغرهم ماتفيد
من جلال وروعة تورطوا في مقابحها فأتوا بالحال كقول الخبز أرزى في وصف نحوه :

ذبت من الشوق فلورُجُ بى فى مقلة النائم لم يَنْتَبِهْ
 وكان لى فىا مضى خاتمُ فالآن لو شئتَ مَنَظَّقْتُ بِهِ
 ومنها قول المتنبي (وما أكثر مبالغاته) يمدح محمد بن زريق الطرسوسى :
 لو كان ذو القرنين أعمل رأيهِ لما أتى الظلمات صرن شموسا^(١)
 أو كان صادف رأس عازرَ سَيفُهُ فى يوم معركة لأعيا عيسى^(٢)
 أو كان لُج البحر مثلَ يمينه ما انشق حتى جاز فيه موسى
 وبعض هذا كفر وبعضه شبه به . على أنك علمت من أمثلة مبالغتهم كثيرا فيما تقدم .



وبقية الحسنات البديعية التى أرقصت وأطربت منهم فى كثير من أقوالهم هى التى
 تجىء اليوم غامضة ممقوتة لأنهم تعمدوها وألحوا فى تممدها ، وأكروها ألبها ولم يقصدوا
 إلى المعنى أو لم يحددهم الغرض إلى إنشاء القول بل حدثهم الرغبة فى تحقيق مثال من هذه
 البديعيات ، فانظر إلى أى حد صار العرض جوهرًا والطلاء أساسا . والغريب من
 أمرهم أنهم عولوا على الدقيق من هذه الأنواع فأكثروا من الاستخدام والتورية وبعد
 أن كان الاستخدام يقع بضمير واحد غالباً استطاع أن يجعله صلاح الدين الصفدى
 بثلاثة ضمائر فى قوله :

ورُبَّ غزالةٍ طلعت بقلبي وهو يرعاها
 نصَبْتُ لها شِراكا من نزار ثم صدناها
 وقالت لى وقد صرنا إلى عين قصدناها
 بذلت العين فأكلها بطاعتها وعجراها

(١) رأيهِ أى رأى المدوح .

(٢) عازر (كهاجر) : الرجل الذى أحياه عيسى عليه السلام .

وقد اجتمع الاستخدام في البيت الرابع ، فالعين : الغضة . والضمير في أكلها لها بمعنى الباصرة ، وفي طلعتها بمعنى الشمس ، وفي مجراها بمعنى معين الماء .

ومن الاستخدام قول ابن نباتة المصري من قصيدة في مدح الرسول :

إذا لم تنض عيني المتيق فلا رأيت منازلها بالقسرب تبهى وتبهر
وإن لم تواصل عادة السفح مقلتي فلا عاها عيش بمفناه أخضر
ومن التورية قول المعري :

إذا صدق الجذأ فترى العم للفتى مكارم لا تخفى وإن كذب الخال
وقول الحريري في الحجر :

يا قوم كم من عاتق عانس ممدوح الأوصاف في الأندية
قتلتها لا أتقى وارثا يطلب مني قوداً أو دية

ومنها قول القاضي الفاضل في محبوبه الذي نبت شاربته :

وكنّت وكنتا والزمان مساعد فصرنا وهو غير مساعد
وزاحني في ورد ريقك شارب ونفسي تأبى شيركها في المواريد

وأما فضيلة السهولة التي ظهرت في شعر الأوائل من شعراء هذه الدولة فقد صارت ركة وغثاء في شعر أواخرهم وفقدت الأساليب على أيديهم جلالها ونخامتها ، حتى اتقد نظموا المعاني العامة في الألفاظ الالهلهلة . وقد سلم ذلك إلى حد ما في شعر البهاء زهير المصري ولكنه في غيره دل بنفسه ، على سخطه .

ومن قول البهاء :

أنا من تسمع عنه وترى لا تكذب في غرامي خبراً
لي حبيب كلك أوصافه لا أرى مثل حبيبي لا أرى

وقوله :

أيارسولى إلى من لا أبوح به إن المهمات فيها يعرف الرجل

بلغ سلامى وبالنغ فى الخطاب به وقيل الأرض عنى عند ما تصل
ويتصل بهذا ما ذكرنا من أن بعض الأدباء اطلع على ديوان صفي الدين الحلي ، فقال :
لا عيب فيه إلا أنه خال من الألفاظ الغريبة فأرسل إليه صفي الدين بهذه الأبيات .
إنما الحيزبون والدرديس والطحا والثفاح والمطليس^(١)
والقطاريس والشعثب والشعثب والحر بصيص والعيطوس^(٢)
والجراجيح والعنفس والعنفس والنفلق والطرفسان والسطوس^(٣)
لغة تنفر السامع منها حين تروى وتشمئذ النفوس
وقبيح أن يسلك النافر الوحشي منها ويترك المأموس
إن خير الألفاظ ما طرب السا مع منه وطاب فيه المجلس
إن قولي : هذا كتيب ، قديم . ومقالى عقنقل ، قديموس^(٤)
لم نجد شاديا تنقى « قفا نبك » على العود إذ تدار الكؤوس
أتراني إن قلت للحب يا علوق درى أنه العزيز النفيس
أوتراه يدري إذا قلت حب البحر أنى أقول سار العيس
درست هذه اللغات وأضى مذهب الناس ما يقول الرئيس
إنما هذه القلوب حديد ولندي الألفاظ مفناطيس
وقد علمت من قول صفي الدين مقدار إزرائه بالألفاظ إذا لم تكن مما ارتضاه أهل

(١) الدرديس : الباهية والشيخ والمجوز . الطحا (بالحاء) : المنبسط من الأرض . وبالحاء والد : السحاب للرفع . الثفاح : البارد المذبذ . المطليس : الأملس البراق .

(٢) القطاريس : جمع غطريس وهو الظالم المتكبر . الشعثب : الكبتش له قرنان أو أربعة كل منها كأنه شق حطب . السقب : ولد الناقة ، أو ساعة يولد ، أو خاص بالذكر . الحر بصيص : الحلي . العيطوس : النامة الخلق من الإبل والنساء .

(٣) العنفس : السمر الاخلاق . المغلق : الفرج الواسع الرخو ، والمرأة الحفاه . الطرفسان : القطعة من الرمل . السطوس : شجرة كالحيزران .

(٤) العقنقل : الوادى العظيم . القديموس : القديم .

زمنه على أن هذا الأديب الناقد ربما أراد ما أردناه من خلوع أهل العصر من الجزالة وهي كما علمت لا تقتضى الوحشية .

وقد حط من قدر الشعر على أيدي العباسيين المتأخرين أنهم ابتذلوا مصون شرفه وتعذوا جليل مقامه ، فبعد أن كان عند الأولين مجال خيال ومستتراد حكمة استعانوا بوزنه ونظام قافيته على ضبط مسائل العلوم من : فقه ونحو وطب وتقويم بلدان وتاريخ . وهذا وإن كان خدمة لتلك العلوم لأنه يسهل تحصيلها بهذا التقييد لكنه إضرار بقدر الشعر وتعذ على قدسيته .

ومن أمثلة ذلك قول الحريري في كتابه (ملحة الإعراب وسنخة الآداب) في علم النحو .

باب الشرط والجزاء

هذا وإن في الشرط والجزاء
تجزم فملين بلا امتراء
وأختها أى ومن ومهما
وحيثما أيضاً وما وإذ ما
وأين منهن وأنى ومتى
فاحفظ جميع الأدوات يافى
وزاد قوم ما فقالوا إما
وأينما كما تلوا أيما
تقول إن تخرج تصادف رشدا
وأينما تنهب تلاق سعدا
ومن يَرَزُ أزره باتفاق
وهكذا تصنع فى البراق
فهذه جوازم الأفعال
جلوتها منظومة اللآلى
فاحفظ وقيت الشر ما أملت
وقس على المذكور ما ألفت

ومن ذلك أيضاً قول ابن سينا من أرجوزة له فى المنطق :

الحـد

العلم منه ماهو التصور ومنه تصديق لشيء يخبر
ويحصل التصديق بالقياس وقد شرحناه بلا التباس
والحد منه يحصل التصور والرسم أيضاً منه فيه أثر
إذا أردت أن تحد حداً فرب الجنس القريب جداً
فانه يحصر كل ذاتي يكون للمحدود في الصفات
ثم اطلب القبول فهي الحاده من صورة أخذتها أو ماده

وقال في مواد المقدمات :

لا يعرف المجهول بالمجهول وإنما يعرف بالمعقول
وإن حكمنا أن كل ما علم قد كان مجهولاً فهذا ينتظم
بغير حد وبلا نهايه وليس عند أحد درايه
بل عندنا المقدمات أول منها يحاز علم ما قد يجهل
فبعضها مقدمات الحس كظلمة الليل وضوء الشمس
وبعضها توجيهها الأوهام فإن يكن موضوعها الأجسام
وكل ما تدركه الحواس فليس فيها أوجبه باس

وقال أيضاً في أرجوزة الطب :

أبلغ من الصابون وزن درهم تنجم من القو لنج غير المحكم
وهكذا الكون والسكرأويا تأكله محمصا تدأويا
وطبقك الأرضاس في التثاؤب مأمنة منه لدى التجارب



مرارة الحية سم قاتل وهو للمسوع بها يقابل
إذا سقى السموم منها جبهه نجما من السم بتلك الشربة
وإن سقى الصحيح منها ماتا في وقته وفارق الحياة

طبقات الشعراء العباسيين

كثر الشعراء في هذا العصر كثرة هائلة . حتى لا يكاد يحصيهم عد ، لما علمت
من عظم شأن الشعر واحتفال الخلفاء والأمراء به ، وكانت كثرتهم هائلة في اللذين
الأولى والثانية . ولعلم في الثانية (وهي مدة حكم البويهيين) كانوا أكثر لتعدد أوصار
المسلمين بتعدد الدول الحاكمة المتنافسة في العناية بالأدب وترقية أهله . ولقد بلغ من
كثرتهم أن صاحب بن عباد بنى قصراً فنهأه خمسون شاعراً . وقالوا إنه اجتمع بباب
سيف الدولة بن حمدان مالم يجتمع بباب خليفة من الخلفاء .

وقد اتفق في هذه المدة أن قامت الدولة الفاطمية بمصر أيضاً فازدهرت الآداب بها
ونافست مصر بلاد المشرق ، فكان للشعر شأن عظيم في كل مكان .

وليس يهنا حصر الشعراء في هذا العصر الطويل المدى الذي دام خمسة قرون
أو تزيد ، ولكننا نذكر طبقات الشعراء فيه . والطبقة كل جماعة عاشوا متقاربين في
الزمان وجرت عليهم أحكام واحدة من تأثير البيئة وإن لم يتحدوا في المنزع أو يدخلوا
في مناقضة أو يتزاحوا على باب ملك .

والطبقة الأولى من شعراء هذه السولة هم مخضرمو السولتين الذين أدرکوا شطرا

من عصر بني أمية ثم أظلمت الدولة العباسية . ومن هؤلاء إبراهيم بن هرمة ، وبشار ابن بُرْدَسنة ١٦٧ ، والحسين بن مُطَيْر ، وأبو حية التَّمِيمِي ، وابن الخياط اللَّسَكِي ، وسَدِيف بن مَيْمُون ، وأبو الهندي ، وحماد عَجْرَد سنة ١٦٨ ، ومُطِيع بن إِياس سنة ١٦٩ ، وصالح بن عبد القدوس سنة ١٦٧ ، وأبو دُلَامَة سنة ١٦١ ، والسَّيد الجُمَيْرِي سنة ١٧٣ ، ومروان بن أبي حَفْصَة سنة ١٨١ ، ومن رُجَّاز هذه الطبقة أبو نُحَيْلة السَّعْدِي ، ورؤبة بن الصَّجَّاح سنة ١٤٥ .

والطبقة الثانية نشأت في صدر الدولة ، ومن رجالها والبة بن الحباب وأبو العتاهية سنة ٢١١ ، وأبو نُوَاس سنة ١٩٨ ، ومسلم بن الوليد سنة ٢٠٨ ، والحَكَم بن قَتِير (وكان بينهما مهاجرة) وسَلَم بن عمرو الخامس سنة ١٨٦ ، والعباس بن الأحنف سنة ١٩٢ ، وأبو السَّيِّس سنة ١٩٦ ، وأشجع الشَّافِعِي ، والفضل بن عبد الصمد الرَّقَاشِي سنة ٢٠٠ ، وكثُوم بن عمرو التَّمَنَّاغِي سنة ٢٢٠ ، ومنصور النَّعْرِي وربيعة الرَّقِّي ، وأبان بن عبد الحميد ، والكَوْكَ (علي بن جَبَلَة) سنة ٢١٣ ، وعَوْف ابن مُحَلَّم الخَزَاعِي ، ومحمد بن بَشِير الرَّيَّاشِي وبَكْر بن النَّطَّاح .

والطبقة الثالثة طبقة أبي تمام سنة ٢٢١ ، وديك الجِنِّ الحِمَاصِي سنة ٢٣٥ ومحمود بن الحسين الوَرَّاق ، وعبد الصمد بن المُعَذَّل وأخوه أحمد ، والحمدوني إِسْمَاعِيل ابن إبراهيم بن حَمْدُونِي البصري ، وأبو التَّمَثِيل كاتب آل طاهر سنة ٢٤٠ ، وديعيل بن علي الخَزَاعِي سنة ٢٤٦ ، والمَطَوِي (نسبة إلى جده عَطِيَة) والحسين ابن الصَّحَّاح سنة ٢٥٠ .

والطبقة الرابعة طبقة بن الرومي سنة ٢٨٣ ، والبحترى سنة ٢٨٤ ، وابن المعتز سنة ٢٩٦ ، ومحمد بن اسحق الصَّيْمَرِي ، وعلي بن يحيى سنة ٢٧٥ وقد نادى بالتوكل ثم المعتمد بعده ، وأبو العباس الأَنْبَارِي سنة ٢٩٣ ، والبَسَامِي سنة ٣٠٢ ، والخُبَزَّارِي سنة ٣١٧ ، ومن برجزها العَمَّانِي مَدَح الرشيد وعُمَارَة بن عَقِيل .

ومن شواعر هذه المدة والتي قبلها : عليّة بنت المهدي وأخت الرشيد ، وعنان جارية النّاطقيّ وصديقة أبي نواس . ومحبوبة ، وبنّان ، وفصل ، جوارى المتوكل .



وفي عهد بني بويه ومن بعدهم ينقسم الشعراء قسمين : للشارقة وهم شعراء بغداد ومدن العراق ؛ ثم شعراء مصر والشام .

فأما للشارقة فقد اشتهر منهم : أبو الحسن محمد بن عبد الله السّلاميّ سنة ٣٣٩ ، وابن ثبّانة السّعديّ سنة ٤٠٥ ، والشريف الرضي سنة ٤٠٦ ، وميثار الدّيلميّ تلميذه الذي أسلم على يديه سنة ٤٢٨ ، وابن الهبّاريّة سنة ٤٠٥ وهؤلاء جميعاً عاشوا ببغداد .

ومن شعراء الأمصار الأخرى في العراق : أبو طالب المأمونيّ سنة ٣٨٣ ، وأبو الفتح البُشّيّ سنة ٤٠٠ ، وصردوّز سنة ٤٦٥ ، والباخرزيّ سنة ٤٩٧ والطّغزائيّ سنة ٥١٣ ، والغزّزيّ سنة ٥٢٤ ، وابن التعاويذيّ سنة ٥٣٨ والقاضي أبو بكر الأَرَجانيّ سنة ٥٤٤ ، وصلاح الدين أبو الظفر الأبيوزديّ سنة ٥٥٧ ، أما شعراء الشام ومصر فهم أكثر عددا وأرقى شعرا من الشارقة وسبب ذلك ما يقوله أبو منصور الثّعالبي في كتابه يتيعة الدهر . قال :

والسبب في تبرز القوم (يعني شعراء الشام وما يقاربها) قديما وحديثا على من سواهم في الشعر قربهم من خطط العرب ولا سيما أهل الحجاز وبعدهم عن بلاد العجم وسلامة ألسنتهم من الفساد العارض لألسنة أهل العراق بمجاورة الفرس والنبط ومدخلتهم إياهم) .

وشيوخ الشعراء في هذه الأيام إلى نهاية الدولة العباسية هو أبو الطيب المتنبي سنة ٣٥٤ ؛ ومن المعدودين أبو فراس الحمدانيّ سنة ٣٥٧ ، وكشّاحم سنة ٣٦٠

والسري الرفاء سنة ٣٩٣ ، وأبو الفرج محمد بن أحمد الملقب بالوأواء الدمشقي
حوالي سنة ٣٩٠ ، وأبو الفرج البيهقي سنة ٣٩٨ ، وأبو العباس النابلسي سنة ٣٩٩
والخالداني (أبو بكر محمد وأبو عثمان سعيد) الأول سنة ٣٨٠ والثاني سنة ٤٠٠
تقريبا . وخاتم المجيدين أبو القلاء المرمي الفيلسوف الذي أحدث في الشعر الكلام
في الاجتماع وقد الحكم والرثاء للبائسين سنة ٤٤٧ .

ويجيء بعد هؤلاء من أهل الشام : ابن سينان الخفاجي سنة ٤٦٦ ، وأبو الفتيان
محمد بن حيوس سنة ٤٧٣ ، وابن الخطاط الدمشقي سنة ٥١٧ ، وابن منير الطرابلسي
سنة ٥٤٨ ، وابن الساعاتي ولد بالشام وتوفي بالقاهرة سنة ٦٠٤ .
ومن شعراء مصر القاضي أبو الفتح نصر الله المعروف بابن قلايس الإبيكندري
سنة ٥٣٢ ، والقاضي أبو الحسن المعروف بابن الزبير الفسافي الاسواني المقتول
سنة ٥٦٣ ، والقاضي السعيد هبة الله المعروف بابن سناء الملك سنة ٦٠٨ ، وكال
الدين بن النبتي سنة ٦١٩ ، وعمر بن القارض سنة ٦٣٢ وجمال الدين ابن مطروح
سنة ٦٤٩ ، وبهاء الدين زهير سنة ٦٥٦ .

بشار بن برد

بشار واحد من شعراء قلائل كان لهنهم سلطان عليهم في جميع مظاهر حياتهم فحضت
له كل تصرفاتهم . واصطبغت به علاقاتهم بالناس ؛ فقد كان من امتزاج الشعارية
بدمية أن أسرع ظهورها فيه حتى قال الشعر ولم يبلغ العاشرة من سنه ، وقد تمثلت هذه
الشاعرية في اتخاذه آنية داره فإنه لم يعجبه رسم جام طلب من مصور أن ينقشه له
فقد ذكر المصور أنه صور طيوراً تطير فغضب بشار وقال : كان ينبغي أن تجمل فوقها
جارجاً يحوم لصيدها ، ثم كان له من بيته مجالس : مجلس للغداة ، وآخر للعشى ، ويسمى
الأول البردان والآخر الرقيق ، وكذلك كان شاعراً في تناديه ، شاعراً في كل تصوراته

ينغم بالفن ويعرف قدره ويحرص على ما أحدثه منه ، حتى لقد غضب على تلميذه سلم الخامس حين أغار على بيته :

من راقب الناس لم يَظْفَرْ بحاجته وفاز بالطيبات الفاتكُ اللّهِجُ^(١)
فقد أخذه سلم فقال :

من راقب الناس مات غماً وفاز باللذة الجسورُ
قال بشار أناخذ معاني التي قد عنيت بها وتعبت في استنباطها فتكسوها ألقاظاً
أخف من لفظي حتى يروى ما تقول ويذهب شعري ، لا أرضى عنك أبداً .
وبكى حين رأى حماداً قد اهتدى إلى معنى في هجائه كان بشار قد عرفه في
نفسه ولم يشأ أن ييوح به حتى لا يتخذ سلاحاً يقاتل به وذلك قول حماد :

ويا أقبح من قرئ إذ ما عَمِيَ القِرْدُ

ثم هو شاعر يجعل الشعر صورة ما في نفسه من حب ونبض وإعجاب ومقت ، فهو يمدح
ويهجو ويتغزل مندفعاً إلى ذلك بجنون الفن الذي لا حذر معه ولا روية تهنه من
غربه في هجاء ذى سلطان أو إخفاش في غزل بعد أن هدد من أجل ذلك . كل هذا
كان في بشار فكان شاعراً لا كهؤلاء الذين قالوا الشعر من أجل الجائزة ، ثم هم بعد
لا أثر للشعر في مظهر من مظاهر حياتهم ولا غور له في قوسهم .



بشار بن برد بن يَزْجُوخ ، وقد عدّ له أبو الفرج الأصبهاني ستة وعشرين جداً
أسماؤهم كلها أعجمية ، وذكر أن يرجوخ أقرب أسجاده كان من طَخَّارِستان من سبي
للهلل بن أبي صُفْرة وأن أباه برداً كان من عبيد خيرة القُسَيْرِيَّة امرأة المهلب ، وكان
مقيماً لها في ضيعتها بالبصرة فزوجته من امرأة من بني عُقَيْل يقال لها أم الظباء كانت

(١) اللّهِج : الغرم بالماء ، من قولهم لهج بكذا : إذا أغرى به .

متصلة بها ثم وهبته لها فولدت منه بشاراً وهو في ملكها. فأعتقه العقيلية فنشأ بشار في ولاء بني عُقَيْل . وعلى هذه الرواية يكون رق بشار من ناحية أبيه فتكون كذلك عجمته من هذه الناحية . ولكن بعضاً من الرواة يحدث أن بشاراً وأمه كانا لرجل من الأزد ، فزوج امرأة من بني عقيل فساق إليها بشاراً وأمه في صداقتها ثم كانا أن أعتقت العقيلية بشاراً لأنه كان مكفوفاً ، وعلى هذه الرواية تكون عجمته من ناحية أمه فإذا كان قد انضم إليها عجمته من ناحية أبيه يكون بشاراً معماً مخولاً في العجمة ولا يكون له في العربية عرق . ويؤيد هذا الظن إلى حد ما أنه قال : دخلت على المهدي فسألني فيمن تمتدّ يابشار ، قلت : أما اللسان والزيّ فربيان وأما الأصل فمجمي كما قد قلت في شعري يا أمير المؤمنين :

وَبُنْتُ قوماً بهم جِنَّةٌ يقولون من ذا وكنت القَلَمُ
ألا أيها السائل جاهدًا ليعرفني أنا أَقْتُ الكَرَمِ
نَمَتْ في الكرام بني عامر فروعى وأصلي قريشُ المَجَمِ

وأظن أنه لو كانت أمه عربية لما استطاع أن يدعى العجمة المطلقة ، فإنهم فرقوا بين من هو عربي الأب أعجمي الأم ، ومن هو على العكس ومن كان أعجمي الأبوين ، فسموا الأول هجيناً ، والثاني مقرفاً ، والثالث أعجمياً وما كان بشار يجهل هذه التفرقة حتى يجعل كلامه على التوسع .



ومن كان مثل بشار له ولاء في قبيلة عربية يفخر بذلك الولاء ويملاً شديقه بالنسبة إليها ، ولكن بشاراً صادف زماناً قد شغب فيه العجم على العرب وأحسوا لأنفسهم بوجود فأكثروا من ثلب العرب والزيارية بهم وذلك مذهب إنما جد من احتقار العرب للأعاجم وسومهم الخسف فتولد الحقد في قوس هؤلاء عليهم ، ولما

وجدوا من الدولة الأموية ضعفا ثم من العباسيين مبالغة واعتدادا بحسن أثرهم أعلنوا ذلك في حوارهم مع العرب وسجلوه في أشعارهم ، وكان بشار أحد هؤلاء الشعوبيين فكان من قوله الدال على الزرية بشأن العرب :

أصبحتُ مولى ذى الجلال وبَعْضُهُمْ مولى الرِّيبِ فخذ بفضلك فالغر
مولاك أكرمُ من تميم كلها أهل القعَالِ ومن قريش المَشْعَرِ^(١)
فارجع إلى مولاك غيرَ مُدافع سبْحان مولاك الأجلّ الأكبر

خلقه وخلقه

كان من صفة بشار الكه وجحوظ الخدقتين مع تفشيها بلحم أحمر ، فكان أفتح الناس عَمى وأفظه منظرا مع الطول المفرط وضخم الجثة وتشويه الوجه بالجدري وأدمة البشرة .

أما صفاته النفسية فقد كان له منها محاسن ومساوئ ، فكان من محاسنه توقد الذكاء وصدق الحس . فقد ذكروا أنه مر به رجل وهو جالس على بابه وليس معه أحد ويده مخرصة يلعب بها وقدامه طبق فيه تفاح وأُتْرُج^(٢) فتاقت نفس الرجل إلى سرقة ما بين يديه فأقبل قليلا قليلا حتى إذا أهوى بيده ليتناول ما فى الطبق ضربه بشار بالقضيب على يده حتى كاد يكسرها فقال له الرجل أنت الآن أعمى !! قال فأين الحس ؟ .

وجاءه من يسأل عن منزل رجل يعرفه بشار فجعل يفهمه ولا يفهم فأخذ بيده يقوده إلى منزل الرجل وهو يقول :

أعمى يقود بصيرا لا أبالكُم قد ضَلَّ من كانت المُمَيَّان تهديهِ

(١) الشعر : النكس ، والراد به مكة .

(٢) الأترج : ثمر شجر بستانى من جنس الليمون ناعم الحطب والورق .

وقد أدرك بشار علة ذكائه وعرف أن العمى هو الذى وفر له هذا الذكاء فإن المعروف أن القوى والحواس يزيد بعضها بنقصان بعض وقد قال فى ذلك :

عَمِيْتُ جَنِينًا والذكاء من العمى فَبُغْتُ عَجِيبَ الظَّنِّ لِلْعِلْمِ مَوْتِلًا
وَعَاظُ ضِيَاءَ الْعَيْنِ لِلْعِلْمِ رَاغِدًا لِقَلْبٍ إِذَا مَا ضَيَّعَ النَّاسُ حَصَلًا
ولعله لم تكن له منقبة بعد الذكاء إلا صلة الرحم والكرم كان له أخوان يقال لأحدهما
بشرو وللآخر بشير وكانا قصاين وكانا بشار بإزارهما على ضيق صدره وتبرمه بالناس
فكان أخواه يستعيران ثيابه فيوسخاها ويتنجان رائحتها ، فإذا دعا بشار بشوب قلبسه
فأنكر رائحته يقول : (أَيْمًا أَوْجَهَ أَلَى سَعْدًا ^(١)) ، وكان يخرج للناس فى تلك الثياب
التي ابتذلها أخواه ، فإذا قيل له ما هذا يا أبا معاذ قال : (هذه ثمرة صلة الرحم) .

وكان كريمًا حتى لقد جعل لأبى الشَّعْمَقِ الشاعر الرقيق الحال مائتي درهم فى
كل عام فجاءه فى بعض السنين فقال له هلم الجزية يا أبا معاذ ، قال ويحك أئى جزية ؟
قال هو ما تسمع ، ثم امتد بينهما المزح حتى قال أبو الشعقمق يهجو بشاراً :

إِنِّي إِذَا مَا شَاعِرٌ مِهَانِيهِهِ وَجَّحٌ فِي الْقَوْلِ لَهُ لِسَانِيهِ
أَدْخَلْتُهُ فِي أَمَةِ عِلَانِيهِ بَشَارِ يَا بَن

وأراد أن يقول يا بن الزانية فقام بشار فأمسك فاه ودفع إليه مائتي الدرهم .
وأنشد بشار جعفر بن سليمان :

أَقْلَى فَإِنَّا لَا حَقُونَ وَإِنَّمَا يُؤْخَرْنَا أَنَا يَعِدُ لَنَا عَدَا
وَمَا كُنْتُ إِلَّا كَالْأَعْرَبِ بَن جَعْفَرٍ رَأَى الْمَالَ لَا يَبْقَى فَأَبْقَى بِهِ حَمْدًا ^(٢)

(١) سبب هذا للثل أن الأصبط بن قريع كان سيد قومه ، فلقى منهم سوء معاملة فرحل عنهم إلى غيرهم
فوجدهم ياملون ساداتهم كذلك فقال هذا القول . ويظهر أن سعدا هذا هو الذى كان يتاوت به
قومه وهو سعد بن زيد ، وقد روى للثل رواية أخرى : فى كل واد سعد بن زيد .

(٢) يقصد عبد الله بن جعفر كريم المدينة المشهور . وقد قيل عنه إن أهل المدينة كانوا يدانون إلى
أن يأتي عطاء عبد الله فيردوا ديونهم .

فقال له جعفر بن سليمان من ابن جعفر؟ فقال الطيار في الجنة، فقال لقد ساميت غير مسامى، فقال والله ما يقعدنى عن شأوه بعد النسب ولكن قلة النسب. وإني لأجود بالقليل، وإن لم يكن عندى الكثير، وما على من جاد بما يملك ألا يهب البدور.

أما غير ذلك من صفاته، فقد كان شرا كله. كان متبرما بالناس شديد الكراهة لوجوده بينهم، فكان يقول: (اللهم إني تبرمت بالناس وبنفسى فأرحنى منهم ويقول: الحمد لله الذى أذهب بصرى ثلثا أرى من أبض) ونشأ عن ذلك إقذاعه في الهجاء، وكان كثير الاستهتار بشعائر الدين غير مبال بالوقعة فيه، فقد حدث بعض أصحابه قال: كنا نكون عنده، فإذا حضرت الصلاة قنا إليها، ونجعل على ثيابه ترابا حتى ننظر هل يقوم ليصلى فنعود والتراب بحاله وما صلى. وحدث آخر قال أتينا بشارا فأذن لنا والمائدة بين يديه فلم يدعنا إلى طعامه، فلما أكل دعا بطست فكشف عن سوءته وبال فيه ثم حضرت الظهر والمصر فلم يصل فذنا منه أحدهم وقال دخلنا عليك والطعام بين يديك فلم تدعنا إليه فقال إنما أذنت لكم أن تأكلوا، وقال ودعوت بطست ونحن حضور فبليت ونحن نراك فقال أنا مكفوف وأتم بصراء وأتم للمأمورين بغض الأبصار، قال وحضرت الظهر والمصر فلم تصل فقال إن الذى يقبلها تفارق يقبلها جملة.

وسمع مغنية تغنى في قوله :

إن الخليفة قد أبى وإذا أبى شيئا أبيته
وخصَّصَ رخصَ البنَّا نِ بكى على وما بكيتُهُ
يا منظرًا حسنًا رأيت بوجهه جارية فديته
بشت إلى تسومنى ثوب الشباب وقد طويته

فطرب بشار وقال هذا والله أحسن من سورة الحشر.

وتلاحي عبد الله بن مسعود الباهلى وأبو النضير أمام بشار فى شيء، فقال عبد الله

يا بن اللخناء أتكلمنى ولو اشتريت عبداً بمائتى درهم وأعتقته لكان خيراً منك فقال أبو النضير والله لو كنت ابن زنى لكنت خيراً من باهلة كلها فغضب الباهلى فقال بشار أنت منذ ساعة تزنى أمه ولا يفضب فلما كلمك كلمة واحدة لحقك هذا كله ! فقال وأمه مثل أى يا أبا معاذ ؟ فضحك بشار وقال : والله لو كانت أمك أم الكتاب ما كان بينكما من المصارمة كل هذا .

ويكفى فى الدلالة على فجوره أن واصل بن عطاء خاصمه من أجل معتقده وخطب الناس فى أمره وكان أثنى بالراء فكان لبلاغته يتجنبها فى كلامه فقال فى شأنه .

(أما لهذا الأعمى الملحد ، أما لهذا المشنف المكنى بأبى معاذ من يقتله أما والله لولا أن الفيلة سجيية من سجايا الغالية لدستت إليه من يبيع بطنه فى جوف منزله ، أوفى حفله ثم كان لا يتولى ذلك إلا عَتَيْلى أو سَدُوسى) فقال أبا معاذ ولم يقل بشارا ، وقال المشنف ولم يقل المرعث (وتلك كنية بشار لأنه كان يلبس الرعاش فى أذنه) وقال من سجايا الغالية ولم يقل الرافضة وقال فى منزله ولم يقل فى داره وقال يبيع ولم يقل يقرر كل ذلك ليتجنب الراء حتى لا يظهر عيب لثقتة .

وكذلك أنكر عليه سوار بن عبد الله الأكبر ، ومالك بن دينار ما هو متورط فيه من هجاء الناس ، والتشبيب بالنساء ، وقال فيه : ما شئ أدعى لأهل هذه المدينة (البصرة) إلى الفسق من أشعار هذا الأعمى ، وقال واصل أيضاً : إن من أخدع جبايل الشيطان وأغواها لكلمات هذا الأعمى الملحد ، وقد قصده مالك بن دينار فى داره وقال : أنشتم أعراض المسلمين ، وتشب بنسائهم ؟! فجبن بشار ، وقال له : لا أعود ، ولكنه لم يكن إلا كاذبا جباناً يتخلص من الموقف ، ثم عاد إلى ما كان فيه من غزل مغر وهجاء مقذع ، حتى إنه لم يستطع أن يقلع بعد أن تسمع المهدي بما كان من إفساده للنساء والشبان فى البصرة ونهأه وحرمه من الجائزة ، فلم يكن ذلك رادعا له

كما لم يكف بهجاء النساء حتى هجا الخليفة وزيره يعقوب بن داود ، فجعل كل ذلك مع تهمة الزندقة ذريعة لقتله ، فاستراح الناس من شره .



ومن مساوئه : المجون ، وهو في المرء خليط من اطراح الحشمة ، والتنكب عن حسن السم ، وخبث في النفس يدعوها إلى إبراز ما تكن من زوايا وامتهان لما تريد الزاوية عليه ، والامتهان له في صورة المزء والسخرية ، فهو جاع لشور كثير في المرء ، وقد كان لبشار منه نصيب كبير .

ذكروا أنه سمع قاصا يقول في قصصه . من صام رجبا ، وشعبان ، ورمضان بنى له قصر في الجنة صحنه ألف فرسخ في مثلها ، وعلوه ألف فرسخ ، وكل باب من أبواب بيوته ومقاصره ، عشرة فواسخ في مثلها ، فقال بشار : لمن معه : بست والله هذه الدار في كانون الثاني^(١) .

وسر برجل قد رحته بفلته وهو يقول : الحمد لله شكرا ، فقال له : استزد يزدك ، وسر على قوم يحملون جنازة وهم يسرعون المشى بها ، فقال : ما لهم مسرعين أترام سرقوه فهم يخافون أن يلحقوا فيؤخذ منهم ، ورفع إليه غلامه في حساب نفقته عشرة دراهم جلست بها امرأة ، فصاح به بشار وقال : ما في الدنيا أعجب من جلاء امرأة أعمى بمشرة دراهم ، والله لو صدت عين الشمس حتى يبقى العالم في ظلمة ما بلغت أجرة من يجلوها عشرة دراهم .

وكان ينشد المهدي ، ويزيد بن منصور عنده ، فلما فرغ من إنشاده أقبل عليه يزيد (وكانت فيه غفلة) وقال له يا شيخ ما صناعتك ؟ فقال : أثقب اللؤلؤ ، فضحك

(١) كانون الأول والثاني شهران يقعان في قلب الشتاء .

المهدى ، وقال لبشار : أئتندار على خالى ، قال : وما أصنع به ، يرى شيخاً أعمى ينشد الخليفة شعرا ، ويسأله عن صناعته .

وكان بشار جالساً في دار المهدي والناس ينتظرون الاذن ، فقال بعض موالى المهدي لمن حضر : ما عندكم في قول الله عز وجل : (وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ . . .) فقال بشار النحل التي يعرفها الناس قال : هيهات ، النحل بنو هاشم . وقوله : (يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ) يعنى العلم ، فقال له بشار : أرانى الله طعامك وشرابك مما يخرج من بطون بنى هاشم ، فقد أوسعنا غثائهُ ، ففضب وشم بشاراً وبلغ المهدي الخبر فضحك حتى أمسك بطنه ، وقال للرجل جعل الله طعامك وشرابك مما يخرج من بطون بنى هاشم ، فإنك غث بارد .

آراؤه ومعتقداته

كانت الآراء الفلسفية قد بدأت تشيع بين العرب وكان يسرع إلى التعلق بها كل من كان واهى المقيدة كبشار ، لذلك تراه قد اعتنق من هذه الآراء القول بالرجعة إلى الدنيا ، وتكفير جميع الأمة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنها حادت عن الدين . قيل له : ما تقول في الصحابة ؟ قال كفروا ، قيل فما تقول في على كرم الله وجهه ؟ فتمثل بقول عمرو بن كلثوم :

وما شرُّ الثلاثة أمَّ عمرو بصاحبك الذئى لا نصَّبِحينا

وكان يفضل النار على الطين والنور على الظلمة ويصوب رأى إبليس في عدم سجوده لآدم وقد ذكر ذلك في شعره ، فقال :

الأرض مغالمة والنار مُشْرِقة والنار معبودة مذ كانت النار

ويقولون إنه كان أحد أصحاب الكلام الستة بالبصرة، وهم: عمرو بن عبيد، وواصل ابن عطاء، وبيشار، وصالح بن عبد القدوس، وعبد الكريم بن أبي العوجاء، ورجل من الأزد كانوا يجتمعون في داره ويختصمون عنده. فأما عمرو وواصل فقد صارا إلى الاعتزال، وأما عبد الكريم وصالح فقد صححا التوبة، وأما الأزدى فقد مال إلى قول الشَّيْئَةِ^(١) وهو مذهب من مذاهب الهند، وأما بيشار فقد بقي مترددا متحيرا مغلطا. والذى نراه أن بيشارا كان مناققا يظهر لجمهور الناس بأنه على طريقهم ويضمر ازدراءه لمذاهبهم. وكان يعلم ضرر الظهور بالإلحاد بين شعب متدين فاتخذ ذلك سلاحا في هجاء حماد مجرد فكان يتهمة بالزندقة فيقول له :

يَا بْنَ نُهَيْبٍ رَأْسٌ عَلَى ثَقِيلٍ وَاحْتِمَالُ الرَّأْسَيْنِ خَطْبٌ جَلِيلٌ
ادْعُ غَيْرِي إِلَى عِبَادَةِ الْإِلَهِ نَحْنُ فَإِنِّي بِوَاحِدٍ مَشْغُولٌ
يَا بْنَ نُهَيْبٍ بَرِثْتَ مِنْكَ إِلَى اللَّهِ جَهَارًا وَذَلِكَ مِنِّي قَلِيلٌ

وليس بعيداً على شاعر يقول بفيه ما ليس في قلبه أن يكون مناققا فقد ألف ذلك في جميع مظاهر حياته. وهكذا كان بيشار نديقا مع الزنادقة ملازما للجماعة بين جمهور الناس حتى يأمن الشر على نفسه. فليس من أصحاب الآراء الذين يفتنون في معتقداتهم ولا يبالون ما يجره عليهم تمسكهم بأرائهم. وهكذا كان في شعوبيته يحترق العرب ويتلق أمراءهم لأخذ الجوائز والاستحواذ على العطايا. وبعد فهو شاعر أصدق أوصافه أنه كاذب.

شاعرية بيشار

كان لنشأة بيشار في بني عقيل أكبر أثر في شاعريته، فإنه لما تمت له ملكة اللغة بهذه النشأة وانضم إليها ماله من فطرة في الشعر وخيال واسع لا يستقصى معه معنى ولا

(١) قوم من الهند يسمون صنًا يسمى سومنات، وعندما أن العلم والمعرفة لا يحصلان إلا من طريق الحواس فهم لا يؤمنون إلا بما كان محسوسا. قال عنهم في القاموس المحيط: قوم بالهند دهريون قائلون بالناسخ.

يفوت غرض ، صار بشار ذلك الشاعر الذى كثر قوله كثرة لم تهتد لغيره من الشعراء فى قديم ولا حديث فإننا إذا صدقناه فيما ادعى من أن له اثني عشر ألف قصيدة لا يكون فى الشعراء من خلف خمس هذا الشعر أو عشره . والعجب أن يقول بشار هذا القول ولا يرد عليه دعواه أهل عصره ثم لا نرى من شعره إلا نصيباً هو أقل من القليل .

ولعل السبب فى موت شعر بشار هو إقذاعه فى المهجاء وإخفاشه فى الغزل ، وأنه كان السابق إلى هذا فى زمن كان أقرب إلى الورع وفى بلدة (البصرة) هى موطن التابعين وتابعيهم : أمثال الحسن البصرى وابن سيرين وسوار بن عبد الله ومالك ابن دينار وواصل بن عطاء وغيرهم فكل ذلك جعل لشعر بشار أقيح أثر فى النفوس ، ولعل ماجنى الناس من شر هذا الشعر على فتياتهم هو الذى دعاهم إلى ستره وطول الإغفال له بعد موت بشار حتى لا تقوح رائحته . وهذا لعمري هو الذى جعلنا لا نرى كثيراً من الشعر لوالبة بن الحباب ومطيع بن إياس وحامد عجرد وغيرهم من كل فاجر فأتلك بشعره .

ولو أن الزمن تأخر قليلاً يشار فماش فى بغداد أو صادفها وقد تمكنت منها الحضارة وألف الناس هذا القسوق فى الشعر لبقى لنا شعره سليماً كاملاً وكنا نطلع على هذا الشعر الذى يعدل تقريباً نصف الباقي لنا من شعر العرب كلهم . ولكن الذى لا ينبغي أن ننساه أن بشاراً كان مطبوعاً على قول الشعر يقوله بلا كلفة ويناديه فيلي النداء سريعاً لا حبسة فى لسانه ، ولا عقم فى خياله . فلم يكن ينحت من صخر وإنما كان يفر من بحر ، وقد شبهه الأصمى فى كثرة فنونه وسعة تصرفه وأنه لا يتكلف شيئاً متعذراً ولا يقول البيت يحكمه أياماً ، شبهه بالأعشى والناطقة ، وشبه مروان بن أبى حفصة بزهر والحطيئة .

ودليل انطباعه : أنه قال الشعر وعمره عشر سنين ، فلم يبلغ الحلم حتى كان مخشياً

معرة لسانه . وقد هاجى جريراً فأعرض عنه واستصغره فقال لو هاجاني لكنت أشعر الناس . وكان الناس يشكونه إلى أبيه إذا هجاهم فيضربه أبوه فلامته أمه يوماً وقالت له كم تضرب هذا الصبي الضرير أما ترحمه ؟ فيقول لها بل والله إنى لأرحمه ولكنه يتعرض للناس فيشكونه إلى فسمعه بشار فقال له يا أبت إن هذا الذى يشكونه منى هو الشعر وإنى إن ألمت عليه أغنيتك وسائر أهلى فإذا عادوا إليك قتل لهم أليس الله يقول (لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ) فلما عاودوه قال لهم ذلك فأنصرفوا يقولون فقه برد أغيظ لنا من شعر بشار .

ومن انطباعه على قول الشاعر أنه كان يرتجله فى المعنى الضيق والقافية العسرة فيأتى بما يستحق عليه المثوبة . فقد ذكروا أن للنصور ركب هجيناً فى وقت الهجرة فجلت الشمس تلعب بين عينيه ، فقال لمن حوله : إني قاتل بيتاً فمن أجازه فله جيتى هذه وقال :

وهاجرة نصبت لها جيتى يقطع ظهرها ظهر المظانية^(١)

فابتدر بشار فقال :

وقت بها القلوص ففاض دمعى على خدّى وأقصر واعطايه
فتزع للنصور الجبة وهو راكب ودفعا إليه فباعها بأربعمائة دينار . ودخل مع
أبى الشمقمق على عقبة بن مسلم فشفع له عنده ليناله بشئ من خيره فأمر عقبة
لأبى الشمقمق بخمسمائة درهم فقال بشار على الفور :

يا واحد العرب الذى أمسى وليس له نظير

لو كان مثلك آخر ما كان فى الدنيا فقير

فأمر لبشار بألفى درهم .

وذكروا أن الزوار كانوا يسمون فى قديم الدهر السؤال حتى قال خالد بن برمك

(١) المظانية : دوية صفيرة ملساء تشبه سام أبرص .

هذا والله اسم أستقبله لطلاب الخير وأرفع قدر الكريم عن أن يسمى به أمثال هؤلاء المؤمنين لأن فيهم الأشراف والأحرار وأبناء النعم ومن لعله خير ممن يقصد وأفضل أديبا ولكننا نسميهم الزوار؛ فقال بشار في الساعة التي تكلم فيها خالد بهذا الكلام :

حذا خالدٌ في فعله حَدَوَ بَرَمَكِ فجدُّ له مُسْتَطَرَفٌ وَأَصِيلُ
وكان ذَوُو الآمال يُدْعَوْنَ قبله بلفظ على الإعدام فيه دَلِيلُ
يُسَمَّوْنَ بِالشُّوَالِ في كل موطنٍ وإن كان فيهم نابهٌ وجليلُ
فسمَّاهُمُ الزَّوَارَ سَتَرًا عليهم فاستاره للمجتدين سُودُولُ
فأمر له خالد لكل بيت بألف درهم .

ودخل بشار على عقبة بن مسلم فأنشده بعض مدائحه وعنده عقبة بن روبة ابن العجاج الراجز ينشده رجزا مدحه به فسمعه بشار فجعل يستحسن ما قاله إلى أن فرغ فقال له ابن روبة هذا طراز لا تحسنه أنت يا أبا معاذ ، فقال بشار ألى يقال هذا؟ إني والله لأرجز منك ومن أبيك وجدك ، فقال عقبة إنا والله قد فتحنا للناس باب الغريب وباب الرجز والله إني خلّيق أن أسده عليهم وتلاحيا فعاد بشار من غده إلى عقبة وعنده ابن روبة الراجز فأنشده أرجوزة يمدحه بها ، ولعل بشارا كان منصرفا عن الرجز يتركه لئلا عقبة ولكنّه حين حاوله أتى فيه بالمعجب . وهذه هي أرجوزته :

يا طَلَلُ الحَيِّ بذات الصَّمَدِ بالله خَبَّرَ كيف كُنْتَ بَعْدِي ^(١)
أَوْحَشْتَ من دَعْدٍ وَتَرَبَّ دَعْدٍ سَقِيًّا لأسماء ابنة الأشَدِّ
قامتَ تَرَايَ إِذْ رَأَيْتَنِي وَخَدِي كالشمس تحت الزَّبرجِ النَّقْدِ ^(٢)
صَدَّتْ بِجَدِّ وَجَلَّتْ عن حَدِّ ثُمَّ انْتَنَتْ كالنَّفْسِ المُرْتَدِّ
عهدى بها سَقِيًّا له من هَدِي تُخَلِّفُ وَعْدًا وَتَنِي بوعْدِ

(١) ذات الصمد : اسم مكان في ديار بني يربوع .
(٢) الزبرج : السحاب الرقيق . النقْد : المنق .

فنحن من جَهْدِ الهوى في جَهْدٍ وزاهرٍ من سَيْطِرٍ وَجَعِدْ^(١)
أَهْدَى له الدهرُ ولم يَسْتَهْدِ أَفْوَافَ نَوْرِ الحَبْرِ المَجْدِ^(٢)
يَلْقَى الصَّحَى رِيحَانَهُ بِسَجْدِ بَدَلْتُ من ذَاكَ بُكَاءً لَا يَجْدِي^(٣)
وَأَفَقَ حَظًّا مِنْ سَعَى يَجْدِ مَا ضَرَّ أَهْلَ النَّوْكِ ضَعْفُ الحِدِ^(٤)
الحُرِّ يَلْقَى وَالْعَصَا لِلْمَبْدِ وليس للخلجف مثلُ الرَّدِّ
وَالنَّصْفُ يَكْفِيكَ مِنَ التَّعْدِ وصاحبُ كالدَّمِ - لِمَدِّ
حَمَلْتَهُ فِي رُقْعَةٍ مِنْ جِلْدِي أَزْقُبُ مِنْهُ مِثْلَ يَوْمِ الْوَرْدِ^(٥)
حَتَّى مَضَى غَيْرَ قَبِيدٍ الْفَقْدِ وما دَرَى ما رَغِبْتِي مِنْ زُهْدِي^(٦)
إِسْلَمَ وَحُيِّتَ أَبَا المِلْدِ مِفْتَاحُ بَابِ الحَدَثِ المُنْسَدِ^(٧)
مُشْتَرَكَةَ النَّيْلِ وَرَى الزُّنْدِ أَغْرَ لِبَاسَ ثِيَابِ الحَمْدِ
مَا كَانَ مِنِّي لَكَ غَيْرُ الْوَدِّ ثم ثناءٌ مِثْلُ رِيحِ الْوَرْدِ

ونكتني منها بهذا . فطرب عقبة بن سلم وأجزل صلته ، وقام ابن رثبة بخمري ، وهرب من تحت ليلته فلم يعد إليه .



ومن انطباعه على الشعر أن ترى له الشعر في كل معرض حتى في الهزل ومحاور الأشياء ،

-
- (١) زاهر : يريد به شعره الأبيض . السبط : الرسل . الجند : التي .
(٢) أفواف : جمع فوف ، وهو من برود العين تشبه به الأزهار . الحبر : جمع حبرة (كناية) : ضرب من برود العين منير . المجد : الذي قطعه الحائك حديثاً فهو جديد لم يبل بعد .
(٣) شبه الشعر بالريحان . السجد : السجود . والمعنى أن التهاز إذا طلع قابل هذا الشعر بالسجود لشدة يأسه .
(٤) من كان له حظ نال المراد ولو بغير اجتهاد .
(٥) الورد : الحلي .
(٦) أي ذهب وفقدته كأنني لم أُنقده .
(٧) أبو الملد : كناية عقبة بن سلم .

فهو لم يجعل الشعر صورة لنفسه النعمة المزوقة ، ولكنه جعله صورة طبيعية وفيها السمين والثقل ، والقوى والقافر ، والجليل والحقير .

وقد دخل العياب على بشار من هذا الباب ، فقد قال له بعض أصحابه : يا أبا معاذ من الذى يقول :

أَحَبُّ الْخَلَامِ الْأَحْمَرُ مِنْ حَبِّ مَوَالِيَّةٍ

فأعرض عنه ثم صاح به ، فقال : يا أبا معاذ من الذى يقول :

إِنْ سَلَى خُلِقْتُ مِنْ قَصَبٍ قَصَبَ السَّكْرِ لَا عَظَمَ الْجَمَلِ

وَإِذَا أَذْنَيْتُ مِنْهَا بَصَلًا عَلَبَ الْمَشْكُ عَلَى رِيحِ الْبَصَلِ

ففضب وصاح : من الذى يقرعنا بأشياء كنا نعبث بها فى الهدانة فهو يعيرنا بها ، وكان إسحق الموصلى يطن على شعر بشار ويضع منه ، ويذكر أن كلامه مختلف لا يشبه بعضه بعضاً .

وقيل لبشار : إنك لتجىء بالشيء المحجين المتفاوت ، فبينما تقول شعراً تثير به النقع

وتخلع القلوب مثل قولك :

إِذَا مَا غَضِبْنَا غَضْبَةً مُضَرِّيَةً هَتَكْنَا حِجَابَ الشَّمْسِ أَوْ تَطَرَّدَا

إِذَا مَا أَعْرَنَّا سَيِّدًا مِنْ قَبِيلَةٍ ذُرًّا مِنْزِيلَ صَلَى عَلَيْنَا وَسَلَا

تقول :

رَبَابَةٌ رُبَّةُ الْبَيْتِ تَصُبُّ الْخَلَّ فِي الزَّيْتِ

لَهَا عَشْرُ دَجَاجَاتٍ وَدَيْكٌ حَسَنُ الصَّوْتِ

فقال : لكل وجه وموضع ، فالقول الأول جد ، وهذا قلته فى ربابة جاريتى ، فأننا لا آكل البيض من السوق ، وربابة لها عشر دجاجات فهى تجمع لى البيض ، فهذا عندها خير من : (قفا نيك) عندك .

الأغراض في شعره

ولما كان بشار مطبوعاً على قول الشعر لم يكن ليستصى عليه غرض من الأغراض ، فقد مدح وهجا ، وتغزل ورثى ، ووصف ما أحسن ولم يحسن ، وأتى بالحكمة والمثل ، فما قصر في غرض من الأغراض ، وإن اثنتي عشرة ألف قصيدة يقولها لا بد أن يعيد فيها ويبدى في جميع أغراض الشعر ومعانيه . ثم إن بشاراً هو قوة عارضة وتعام قريحة ، حتى لقد عدت له معان كثيرة اخترعها ولم يسبق إليها ، مثل قوله (وينسبان لابن الخياط) :

لَمَسْتُ بِكَفِّي كَفَّهُ أَبْتَعِيَ النِّفَى وَلَمْ أَذِرْ أَنَّ الْجُودَ مِنْ كَفِّهِ يُعْدِي
فَلَأَنَا مِنْهُ مَا أَقَادَ دَوُو النِّفَى أَقَدْتُ وَأَعْدَانِي فَأَتَلَفْتُ مَا عِنْدِي

ولكنه مع ذلك كله غلبت عليه أغراض ، فكثر المروى لنا منها بنسبة غيره مما روى من شعره . وهذه الأغراض ، هي : المدح ، والهجاء ، والتشبيب بالنساء .



فأما المدح فقد اتصل بكثير من الأمراء ، فقال جوائزهم السنية أمثال : خالد ابن برمك ، وعقبة بن سلم ، ونافع ابنه بعده ، وعمر بن العلاء ، والهيثم بن معاوية ، وسليمان بن هشام ، وعمر بن هبيرة ؛ وكان فوق ذلك أن اتصل بالخلفاء فمدح أبا جعفر المنصور ثم المهدي بعده ، فهو من هذه الناحية شاعر نابه لم تقصر شهرته عن الوصول إلى ساحات الخلفاء ، ولم يستغن عن تقيظه أمير من الأمراء ، وقد استحق على شعره الجوائز الكثيرة ، ولكنه كان كما علمت متلافاً كريماً ، فلم يبق له مدخر من كل هذا .

وقد كان بشار يبذل من مدحه على قدر ما يجوز من الصلة ، حتى لقد قيل له يوماً : إن مدائحك في عقبة بن سلم فوق مدائحك في كل أحد غيره ، فقال : إن عطايه كانت

فوق كل عطاء ، دخلت عليه يوماً فأنشدته :

حَرَّمَ اللَّهُ أَنْ تَرَى كَابِنَ سَلَمٍ عُقْبَةَ الْخَيْرِ مُطْعِمِ الْفُقَرَاءِ
لَيْسَ يُعْطِيكَ لِلرَّجَاءِ وَلَا الْخَوْ فِي وَلَكِنْ يَلْدُ طَعْمَ الْعَطَاءِ
يَسْقُطُ الطَّيْرُ حَيْثُ يَنْثَرُ الْحَبْسُ وَتُغْفَى مَنَازِلُ الْكِرْمَاءِ

فأمر لي بثلاثة آلاف دينار . وهأنا قد مدحت المهدي وأبا عبيد الله وزيره ، وأقمت
بأبوابها حولاً فلم يعطيني شيئاً فألام على هذا ؟

مدح خالد بن برمك وهو على فارس فقال :

أَخَالِدُ لَمْ أَخْطِ إِلَيْكَ بِذِمَّةٍ سِوَى أَنْتَى عَافٍ وَأَنْتَ جَوَادُ^(١)
أَخَالِدُ بَيْنَ الْأَبْرِ وَالْحَدِ حَاجِي فَأَيُّهَا تَأْتِي فَأَنْتَ عِمَادُ
فَإِنْ تُعْطِنِي أَفْرِغْ عَلَيْكَ مَدَائِحِي وَإِنْ تَأْتِبْ لَمْ يُصْرَبْ عَلَى سِدَادُ^(٢)
رَكَبِي عَلَى حَرْفٍ وَقَلْبِي مُسْتَعٍ وَمَالِي بِأَرْضِ الْبَاخِلِينَ بِلَادُ^(٣)
إِذَا أَنْكَرْتَنِي بِلَدَةً أَوْ نَكْرَتُهَا خَرَجْتُ مَعَ الْبَازِي عَلَى سَوَادُ^(٤)

فدعا خالد بأربعة آلاف دينار في أربعة أكياس ، فوضع واحداً عن يمينه ، وواحداً عن
شماله ، وآخر بين يديه ، وآخر خلفه ، وقال يا أبا معاذ : هل استقل العماد ، ففس
الأكياس ، ثم قال : استقل والله أيها الأمير .

مدحه بقوله :

لِعَمْرِي لَقَدْ أَجْدَى عَلَى ابْنِ بَرْمَكٍ وَمَا كُلُّ مَنْ كَانَ الْغَنَى عَنْهُ يُجْدِي
حَلَبْتُ بِشَعْرِي رَاحَتِيهِ فَذَرْتَا سِمَاكَمَا دَرَّ السَّحَابُ مَعَ الرَّعْدِ

(١) الخطب : السير على غير هدى . والمراد هنا مطلق السير الضيق . يقول : أقصدك وليس لي بك
أصرة ، أو بيني وبينك عهد إلا أني سألت وأنت كريم . وهذه أعظم أصرة تربط بك
طالبي إحسانك .

(٢) السداد : إما مفرد وهو ما يسد به الشيء كالثلمة ونحوها . وإما جمع سد بمعنى الحاجز . والمعنى
إن لم تعطني اليوم فاني لا أياس من عطائك في غد .

(٣) الحرف : الناقة الضامرة . الشيع : الشجاع .

(٤) أى خرجت مبكراً لأن البازي يخرج في ظلام الليل قبل تليج الفجر .

إذا جئته للدحر أشرق وجهه . إليك وأعطاك الكرامة بالحمد
له نعم في القوم لا يستتيها جزاء وكيل التاجر للدد بالمد^(١)
مفيد ومتلاف ، سبيل تراه إذا ما غدا أوراخ كالجزر والمد^(٢)
أخالد إن الحمد يبق لأهله جمالا ولا يبق الكنوز على الكد
فأطعم وكل من عاك مسترد لا تبقها إن القوارى للرد
فأعطاه خالد ثلاثين ألف درهم ، وكان قبل ذلك يعطيه في كل وفادة خمسة آلاف .
وأمر خالد أن يكتب البتآن الأخيران في صدر مجلسه الذي كان يجلس فيه . وقال ابنه
يحيى : آخر ما أوصاني به أبي أن أعمل بهذين البيتين .

وفد على عربن هيرة ، فدحه بقصيدة يقول فيها :

لألقى بنى عيلان إن فعالمهم يزيد على كل الفعالم مراتبه
أولك الأولى شقوا العمى لسيفهم عن العين حتى أبصر الحق طالبه

ومنها يصف الجيش :

وجيش كجئح الليل زحف بالحصى وبالشوك والخطى محم ثالبه^(٣)
غدونا له والشمس في خدر أها تالعا والطل لم يجر ذائبه
بضرب يذوق الموت من ذاق طعمه وتدرك من نجى الفار مثالبه
كان مثار النفع فوق رء وسنا وأسيافنا ليل تهاوى كوا كبه
بعشنا لهم موت الفجأة إتنا بنو الموت خفاق علينا سبائبه^(٤)

(١) يقول : إنه نعم ، ولا ينتظر الجزاء على قدر إحسانه كما يفعل التاجر الذي يعطي مدا في نظير مد .
(اللد : مكيال ، وهو عند أهل العراق رطلان ، وعند أهل الحجاز رطل وثلاث) .

(٢) التراث : ما يخلفه المرء لورثته . يقول : إن هذا الرجل كسوب ولكنه لا يستبق كسبه بل يعود به
فاله في زيادة ونقص . وجعل ماله تراثا لأنه من شأنه أن يورث عنه ويرى بيش أن الكلمة
معرفة عن تراثه .

(٣) جئح الليل (بالكسر أو الضم) : الطاقة منه . الحصى : العدد الكثير . الشوك : جمع شوكه
وهي السلاح . الخطى : الرمح ، نسبة إلى الخط ، وهو مرفأ بالبحرين تباع فيه الرماح . الثالب :
جمع ثلب ، وهو طرف الرمح ، يقول : إن اطراف الرماح احترت من دماء الأعداء .

(٤) السبائب : جمع سبية وهي الشقة من الثوب . ولراد بها هنا الأعلام (الرايات) .

فراحوا فريق في الإسار ومثله . قتل ومثل لاذ بالبحر هاربة
إذا الملك الجبار صعر خده مسينا إليه بالسيف نعاتبه
فوصله بعشرة آلاف درهم ، فكانت أول عطية سنية أعطاها بشار ورفضت
من ذكره .



وأما هجاء بشار فقد كان مقذعا ، وقد علمت أن الحامل له عليه أولا ما يضره
للناس من ضغينة وما ينطوى عليه لهم من نور ، فهو من أجل هذا يجد في نفسه النافع
إلى هجائهم لا يتكلف ذلك ، ولا يغال به طبعه فيه ، إذ كان الشر مركبا في ذلك الطبع
والحق يلا هذا الصدر . فلذلك كان يهجو لأهون الأسباب بل لغير سبب ، إلا أن
القافية احتاجت إلى اسم فهو يضعه فيها غير مبال بما يصيب صاحبه الوادع من وخزه ،
وما يجره ذلك عليه من تسجيل عار وهو لم يحن ذنباً .

وقد سئل عن سبب ميله للهجاء ، فقال : إني وجدت الهجاء المؤلم آخذ بضع الشاعر
من اللدح الرائع ، ومن أراد من الشعراء أن يكرم في دهر اللثام على المديح فليستعد للفقير
والإقبيالغ في الهجاء ليخاف فيعطى .

ذكروا أن حمرا نهق ذات يوم بقرب بشار ، فخطر بباله بيت ، فقال :

ما قام . . . حمار فامتلا شبقاً لا تحرك عرق في است تسنيم

ولم يكن يريد تسنيا بالهجاء ، ولكنه حين وصل إلى القافية كان قد مر به تسنيم ،
فسلم ، فضحك بشار وقال في است تسنيم ، فلما علم تسنيم بالحادث قال : أما عندك
فرق بين صديقك وعدوك ؟ ألا قلت في است حماد الذي فضحك وأعياك ، وليس
قافيتك على الميم فأعذرك ؟ فقال بشار : صدقت في هذا كله ، ولكن الذي جر عليك
هذا تسليمتك على حين طلبى للقافية ، فقال تسنيم : إذا كان هذا فلا سلم الله عليك ،
ولا على حين سلفت عليك فجعل بشار يصفق وتسنيم يشتمه .

وكان يهجو لأهون الأسباب ، فقد قدم صديق له يسمى كردى بن عامر من مكة ، فلم يهد لبشار شيئاً فكتب إليه :

ما أنت يا كُردى بالهش ولا أبريك من الفش
لم تُهْدِنَا ضَلًّا ولا خاتماً من أين أقبَلْتَ؟ من الحش؟^(١)
وفى هذا ما فيه من استهائته بأمر الدين وجعله الكعبة حشاً .

وكان فنى بالبصرة قد اعتاد أن يرسل إلى بشار فى كل عام فى عيد الأضحى
أخمية ، وكان أهل البصرة يسمونها سنة أو أكثر حتى تباع بعشرة دنانير ، فنى عام
من الأعوام كلف الفتى وكيله أن يشتري النعجة فاشتراها هزيلة ، وسرق باقى الثمن ،
فكتب إليه بشار يتهم بالهدية :

وهبت لنا يا فنى منقرٍ وعجل وأكرمهم أولاً
وأبسطهم راحة فى الندى وأرفقهم ذروة فى الشلا
عبوراً قد أوردها عُمرها وأسكنها الدهر دار اليلى
سكواً تَوَهَّمتُ أن الرعاء سقوها ليشهلها الحنظل^(٢)
وأضربت من أم مبتاعها إن اقتمعت بُكرة حرملاً^(٣)
فلو تأكل الزبد بالترسيان وتدمج المسك والمنذلا^(٤)
لما طيب الله أرواحها ولا يل من عظمها إذ قُتِل^(٥)

وقد هجا جاره لأنه بعث إليه يطلب ثياباً بنسيئة فلم يصادفها عنده ، فقال يهجو :

-
- (١) الحش (مثلة) : المخرج (موضع قضاء الحاجة) لأنهم كانوا يقضون حاجتهم بعيداً من البيوت .
(٢) السلق : هو اللحم والظير ، كالنقوط للإنسان .
(٣) اقتمعت البر أو الجوارش : استغها . الحرمل : نبات كالسمسم يبي آكله . ونلاحظ أن كلمة « اقتمعت » وردت فى الأغاني « اقتمعت » ولم تفسر لأن معنى المادة لا تناسب المقام . فأدركنا الكلمة على عدة وجوه ثم انتهينا إلى أنها لابد أن تكون محرفة عن « اقتمعت » .
(٤) الترسيان : تمر بالكوفة مشهور بمجوده ، يقال الزبد بالترسيان ، يضرب مثلاً لأجود ما كُول . تدمج يريد تلتطخ بهما متفلسة فيهما من قولهم ادعج الفى . فى الفى . إذا دخل فيه واستر .
(٥) الأغفل : الشديد اليبوسة .

ألا إن أبا زيد زنى فى ليلة القدر
ولم يَرَعَ تعالى الله ربه حُرْمَةَ الشهرِ

واسمُنتع العباس بن محمد بن على فلم يمنعه ، فقال يهجوهُ :

ظِلُّ اليسار على العباس ممدود وقلبه أبداً بالبخل معقودُ
إنَّ الكريم ليخفى عنك عُسرته حتى تراه غنياً وهو مجهود
وللخيل على أمواله عللٌ زُرْقُ الشيون عليها أوجهٌ سودُ^(١)
إذا تَكَرَّهْتَ أَنْ تُعْطِيَ القليلَ ولم تقدِّرْ على سَعَةٍ لم يَظْهَرِ الجودُ
أورقٌ بخير ترعى للنوال فسا تُرجى الثمار إذا لم يُورقِ العودُ
بُتُّ النوال ولا تمنك قِلَّتُهُ فكلُّ ما سدَّ فقرا فهو محمود

ولما مدح المهدي غرمة الجائزة هجاه بقوله :

خليفةٌ يَرِنِي بَعْمَاتِهِ يلعب بالدُّبوق والصَّوْلَجَانِ^(٢)
أبدلنا الله به غـيـره ودس موسى فى حرِّ الخَيْرِ رَانَ

وأشدها فى حلقة يونس النحوى ، فسبى به إلى يعقوب بن داود ، وكان قد هجاه من
قبل لما أخر دخوله على المهدي ، فقال :

بنى أمية هُبُوا طال نومُكُمْ إنَّ الخليفةَ يعقوبُ بن داودُ
ضاعت خلافتُكُمْ يا قوم فالتسوا خليفة الله بين الزُّقِّ والعُودِ

فدخل يعقوب على المهدي وتلطف حتى أبلغه هجاء بشار له ، فكاد ينشق غيظاً ، وعد
إلى الانحدار إلى البصرة للنظر فى أمرها وما وكده غير بشار ، فلما بلغ البطيحة سمع أذاناً
فى الضحى ، فإذا بشار يؤذن وهو سكران ، فأبى به وشهد الشهود عليه بالزندقة ، ف ضرب
سبعين سوطاً مات فى أعقابها ، وكانت وفاته سنة ١٦٨ هـ ، وقد أوفى على السبعين
أو التسعين .

(١) يقول إن البخل يمتنع عن العطاء ويذكر علا قبيحة غير مقبولة كما لا يحسن فى الناس أن ترى
عيوناً زرقاء على وجوه سوداء .

(٢) الدبوق : لعبة للصبيان . الصولجان : الحجج ، وهو الصبا المحققة (الثلثية) .

ولكنّ بشاراً مع هذه الجرأة في الهجاء من ناحية كان جباناً يفرق من الهجاء إذا وجه إليه ويفتدى من ذلك بماله أو بمداواة من توهم أنه سيوجعه بميسمه . وفي عطائه لأبي الشمقق رائحة الخوف إلى جانب الرحمة لرقه حاله ، فإنه لما تأخر عليه في بعض السنين هذّده بالهجاء ، فأظهر بشار عدم الاكتراث ، فلما قال فيه :

إني إذا ما شاعر هجانيه وُلجَّ في التذلل له لسانيه
أدخلته في أمت أمة علانيه بشار يا بشار

فلما أراد أن يقول : يا ابن الزانية وثب بشار وأمسك بفمه ، ثم دفع إليه مائتي الدرهم التي كان يجريها عليه كلّ عام وقال : لا يسمع هذا منك صبيان البصرة .

وحديثه مع حمدان الخراط الذي طلب إليه أن يرسم له في جام صور طيور تطير ، فلما حمل ذلك إليه قال له : كان ينبغي أن تجعل جارحاً يحلق فوقها كأنه ينقض عليها ، فإنه كان أحسن ، ولكنك علمت أني أعمى لا أبصر شيئاً وهذّده بالهجاء ، فقال له حمدان : لا تفعل فإنك تنسدم ، فقال : وما تفعل ؟ قال أصورك على باب داري ، وأصور وراءك قرداً يفعل بك الفحشاء ، فقال بشار : اللهم اخزه ، أنا أمازحه ، وهو يأبى إلا الجد !!



أما الفزل فقد كان أظهر مافي شعر بشار من الشناعة ، فإنه هو الذي جعل للمتورعين وأولياء الفتيات والفتيان يهتفون ببشار ، ويسعون به لدى الخليفة ، وقد حدام ذلك أكثر مما حدام الهجاء ، فإن الهجاء ليس ضرره واقعاً إلا على المقول فيه ، على أنه لا يقدح في الشرف ، ولا ينال من الكرامة إلا من ناحية تناول السقاط من الناس له ، وهتفهم به وتمييزهم من قيل فيه ، فأما الفزل فجريته على الأخلاق ، وجنائه على الشرف الحقيقي ، وإذاعته للفجور ، ومساعدته لطيش الشباب ، وجنون الصبا ، ضرر بالغ يزري بقدرامة لا قبيلة ، ويطأطي رأس أميرة لا فرد ، وعاره باق ، ومسبته متوارثة . هذا هو خطر الفزل المغري للفتاة والفتى وهو غزل بشار لذلك نرى أن المهدي

حين غضب عليه لم يغضب إلا من تشبيهه وحين نهاه لم ينه إلا عن التشبيب .
وقد سأل بعضهم أبا عبيدة فقال : ما أحسب هذا (يريد بشاراً) أبلغ في تلك
المعاني (يريد التشبيب) من كثير وجيل ، وغروة بن حزام ، وقيس بن خريم ، وتلك
الطبقة ، فقال أبو عبيدة : ليس كل من يسمع تلك الأشعار يعرف المراد منها ، وبشار
يقارب النساء حتى لا يخفى عليهن ما يريد ، وأى حرة حصان تسمع قول بشار ،
فلا يؤثر في قلبها فكيف بالمرأة الغزلة . وكان أبا عبيدة إنما يريد أن يفرق بين شعر
هؤلاء وشعر بشار ، بأن بشاراً يخاطب النساء ويوضح لهن شعره . وليس هذا هو السر في
شناعة شعر بشار ، وليس شعر من سبقه غامضاً حتى يفوت الناس معناه حين يفوتهم
لفظه ، وإنما السر في ذلك هو ما تعرفه من قراءة تلك شعر بشار فقد رقه أولاً حتى
حببه إلى النفوس ، فصار كل فتى وفتاة يرويه ، ولا يرى في لفظه استعصاء ، بل هو
ككلام الناس سهولة ولياناً ، وهذا خبث من بشار عمد إلى غزله وهجانه ، فرقهما
لهذه الغاية حتى يشعيا في الناس ويقبل عليهما الجاهل والعالم ، وسبب آخر في شيوع
الفاحشة بشعر بشار هو أنه هو أن أمر الحب على المحبين ، وأطعم الطالب فيما يحاول من
أمر النساء حين يقول :

لَا يُؤَسِّتُكَ مِنْ مُحَبَّاتٍ قَوْلٌ تَقْلُظُهُ وَإِنْ جَرَّحَا
عُسْرُ النِّسَاءِ إِلَى مُيَاسَرَةٍ وَالصَّعْبُ يُمَكِّنُ بَعْدَ مَا جَمَعَ

فانظر كيف كان لهذا القول من أثر في نفس فتى من الفتيان عشق فتاة فكلمها ، فلم
تلتفت إليه ، فهم يتركها يأساً ، فذكر قول بشار هذا ، فعاد إليها ولازمها حتى بلغ
حاجته ، خلف ليدفن إلى صاحب الشعر مائتي دينار فجاء بها إلى بشار .
ثم انظر إلى قوله :

قَدْ لَامَنِي فِي خَلِيلَتِي عُمَرُ وَاللَّوْمُ فِي غَيْرِ كُنْهٍ ضَرَرُ
قَالَ أَفَقْتُ قُلْتُ لَا فَقَالَ بَلَى قَدْ شَاعَ فِي النَّاسِ مَنَكَا الْخَبَرِ
قُلْتُ وَإِذَا شَاعَ مَا اعْتَذَارُكَ مِمَّا لَيْسَ لِي فِيهِ عِنْدَهُمْ عُذْرُ

ماذا عليهم وما لهم (خرسوا) لو أنهم في عيوبهم نظروا
 أعشَقْ وحدي ويؤخذون به كالترك تفرون فتؤخذ الخزر^(١)
 يا عجباً للخلاف يا عجباً بنى الذى لام فى الهوى الحَجَرُ
 حسبي وحسب الذى كلفت به منى ومنه الحديث والنظر
 أو قبلة فى خلال ذلك وما بأس إذا لم تحمل لى الأزر
 أو عصاة فى ذراعها ولما فوق ذراعى من عصا أثر
 أو لسة دون برطها بيدي والباب قد حال دونه الشتر^(٢)
 والساق براقة تحللها أو مص ريق وقد علا البهر^(٣)
 واسترخت الكف للعراك وفا لت إيه عنى والسمع ينحدر
 إنهن فها أنت كالذى زعوا أنت وربى مُغازل أشر^(٤)
 قد غابت اليوم عنك حاضنى والله لى منك فىك ينتصر
 يارب خذلى فقد ترى ضرعى من فاسقى جاء ما به سكر
 أهوى إلى مفضدى فرضفة ذو قوة ما يطاق مقتدر^(٥)
 ألصق بى لحية له خشت ذات سواد كأنها الإبر
 حتى علانى وأسررتى غيب وتلى عليهم لو أنهم حضروا^(٦)
 أقسم بالله لا تجوت بهما فاذهب فأت الساور الظفر
 كيف بأبى إذا رأت شفتى أم كيف إن شاع منك ذا الخير

(١) الخزر : قوم من الترك . والمعنى أن الترك يفرون فيؤخذ الخزر بدينهم (كذى المر يكوى غيره وهو رائع) .

(٢) المرط : كساء من صوف أو خز يؤثر به .

(٣) البهر (بالضم) تابع النفس من الإعياء . وقد أتيت هنا ضمة العين لضمة الفاء .

(٤) أشر : مرح .

(٥) المضد : دملج يلبس فى المضد ، والمراد هنا موضعه من المضد .

(٦) غيب (بالتحريك) : غائبون .

قد كنت أخشى الذى ابتليت به منك فماذا تقول يا عبد^(١)
قلت لها عند ذاك يأسكنى لا بأس إني مجربٌ خبيرٌ
قولى لها بقّة لها ظفرٌ إن كان فى البقّ ماله ظفرٌ^(٢)

فكيف ترى لومه للأئمة وتخطئهم فيما شغلوا به أنفسهم من أمر حبه . ثم إنه ينتقل إلى مايجرى بين الحبيبين من النظر والحديث ، ثم القبلّة ، ثم حلّ الإزار ، وهذا عنده لا بأس به ، ثم يصف سائر أنواع التجشيش ، ثم يصف اتباهة الفتاة من سكر صبوّتها ، وأنها حارت فى أمره ، واضطربت لما خطر لها من مفاجأة أهلها وهى على هذا الحال . ثم نهى تحاوره فى أمر العضة ، وما بان من أثرها فى شفتها ، فيستهتر ويستهمن بهذا الميسم الباقى ويمزح ، فيقول لها : قولى لأملك إن بقّة لها ظفر خدشنى .

فتراه قد رسم فى هذه القصيدة سبيل الفوابة من لدن شفيرها إلى مقرّ هاويتها . فماذا يكون شأن الفتاة أو القتي إذا ترنما بهذا الشعر ، أو سمعاه من مغنية تتخث فى وترجع ألفاظه ، ألا يبقيان دائماً على ذكر من وسائل الفجور وأسبابه ؟ أو ليس فى ذلك أكبر ضرر على الأخلاق حين يعمد شاعر كبشار إلى الشعر ، وهو أحبّ شيء إلى نفس العربى والعربية ، فيرققه حتى يجعله ماء جارياً يسوغ مع الرقيق ، ثم يلهب العاطفة بمثل هذه المعاني الفاجرة . قاتله الله لقد كان شيطاناً مardاً سلط على الأخلاق فأفسدها ، لولا أن تدارك الله الناس بحزم الخليفة ، ففضى عليه وعلى ضالّاته .

ولم يكن بشار من صناع الغزل الذين يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم ، فيبقى قولهم رسوماً على الأوراق وألفاظاً على الأفواه لا حرارة لها ، ولكنه عاشق غزل ، وفاتك جرىء ، يحبّ الفوانى وإن لم يرها ، ويفتح داره للنساء يومين فى كلّ أسبوع يجتمعن معه فيأخذن ما شئن من شعر يصنعه للفناء أو الرثاء ، وهو فى هذه المجالس مؤنّس بالحديث مستخلص لنفسه من يقع حبا فى قلبه فهى إمامطاوعة وإما كارهة ،

(١) العبر (مثلث الأول ساكن الثانى ، أو تحرك الباء بحركة العين) : الجريء .

(٢) البقّة : البعوضة .

ووسائله كثيرة يحجل منها الهجاء للأبيّة حتى تسلس له ؟ وهكذا كان له من دينه للمرتق
عون على إجابة نزعت الخبيثة .

وأشهر من أحبهن عبدة التي يقول فيها :

يُرْهَدُنِي فِي حُبِّ عَيْدَةٍ مَعْسُرٍ قُلُوبُهُمْ فِيهَا مَخَالِفَةٌ قَلْبِي
فَقَلْتُ دَعُوا قَلْبِي وَمَا اخْتَارَ وَارْتَضَى فَبِالْقَلْبِ لَا بِالْعَيْنِ يُبْصِرُ ذَوَالْحُبِّ
فَمَا تَبْصُرُ الْعَيْنَانِ فِي مَوْضِعِ الْهَوَى وَلَا تَسْمَعُ الْأُذُنَانِ إِلَّا مِنَ الْقَلْبِ
وَمَا الْحَسَنُ إِلَّا كُلُّ حَسَنٍ دَعَا الصَّبَا وَأَلْفَ بَيْنَ الْعِشْقِ وَالْمَاشِقِ الصَّبِّ

وقوله :

لَمْ يَطْلُ لِيْلِي وَلَكِنْ لَمْ أُنَمَّ وَتَنَى عَنِ الْكَرَى طَيْفُ أَلَمِّ
وَإِذَا قُلْتُ لَهَا جُودِي لَنَا خَرَجَتْ بِالصَّمْتِ عَنْ لَا وَنَمَّ
رَفَعِي يَا عَيْدَةَ عَنِّي وَاعْلَمِي أَنَّنِي يَا عَيْدَةَ مِنْ لَحْمٍ وَدَمِّ
إِنَّ فِي بُرْدَتِي جِسْمًا نَاحِلًا لَوْ تَوَكَّلْتُ عَلَيْهِ لَأَهْدَمَ

الآراء في بشار

يكاد الأدباء ورواة الشعر وتقدته في زمن بشار ، وبعده يجمعون على فضله في
الشعر من حيث رفق المعنى وحسن السبك والبلاغة . فيقول الأصمعي : بشار خاتمة
الشعراء ، والله لولا أن أيامه تأخرت لفضلته على كثير منهم . وكان يقول : كان مطبوعا
لا يكلف طبعه متعذراً ، لا كمن يقول البيت ويحككه أياما ، ويقول أبو عبيدة : حكم
بشار لنفسه بالاستظهار أنه قال ثلاثة عشر ألف بيت جيد ، ولا يكون عدد الجيد من
شعر شعراء الجاهلية والإسلام هذا العدد ، وما أحسبهم برزوا في مثله ، وقال الجاحظ :
كان بشار شاعراً خطيباً ، صاحب منشور ومزدوج ، وسجع ورسائل ، وهو من
المطبوعين أصحاب الإبداع والاختراع للفتن في الشعر القائلين في أكثر أجناسه

وضروبه ، قال الشعر في حياة جرير ، فعرض له . وحكى عنه أنه قال : هجوت جريراً
فأعرض عني ، ولو هاجاني لكنت أشعر الناس .

وقال علي بن النجم : سمعت من لأحصى كثرة من الرواة يقول : أحسن الناس
ابتداءً في الجاهلية امرؤ القيس حيث يقول :

أَلَا عِمٌّ صَبَاحاً أَيُّهَا الطَّلُّ الْبَالِي وَهَلْ يَعْمَنُ مَنْ كَانَ فِي الْعَصْرِ الْخَالِي^(١)
وحيث يقول :

قَتَانِبَكِ مِنْ ذَكَرِي حَبِيبٍ وَمَنْزِل بَسَقَطَ الْوَلَّى بَيْنَ الدُّخُولِ الْخَوِيلِ
وفي الإسلام القحطى حيث يقول * إنا محبوك فاسلم أيها الطلل *
ومن المحدثين بشار حيث يقول :

أَبَى طَلَلٌ بِالْجَزْعِ أَنْ يَتَكَلَّمَ وَمَاذَا عَلَيْهِ لَوْ أَجَابَ مُتَعَمِّمًا
وَبِالْقَرْعِ آثَارُ بَقِيْنٍ وَبِالْوَلَّى مَلَاعِبُ لَا يُعْرِفُنَّ إِلَّا تَوَعُّمًا^(٢)

ولم تحف على بشار منزله ، بل كان يقول : لى اثنا عشر ألف قصيدة أما فى كل
قصيدة منها بيت جيد ، وكان يقول أزرى بشعرى الأذان (يريد أنه إسلامى ولو تقدم
به الزمن لكان من فحول الجاهليين) ، وقال له بعضهم : ليس لأحد من شعراء العرب
شعر إلا وقد قال فيه شيئاً استنكرته العرب من التناظم وشك فيه ، وأنه ليس فى شعرك
ما يشك فيه . قال : ومن أين يأتينى الخطأ ؟ ولدت هاهنا ونشأت فى حجور ثمانين
شيخاً من فصحاء بنى عقيل ما فيهم أحد يعرف كلمة من الخطأ ، وإن دخلت إلى نساءهم
فتساوهم أفصح منهم ، وأيفعت فأبديت إلى أن أدركت فن أين يأتينى ؟ .

ولقى رجل أباهمروبن العلاء (وهو من تعرف زراية على الحديث ومقتاله) ،
فقال له : يا أباهمرو من أبدع الناس بيتاً ؟ قال الذى يقول :

(١) عم صباحاً : تحية جاهلية كأنه مخدوف من نعم نعم (بكسر العين فيها) . كما يقال كل من أكل
يأكل . العصر : (بصتين) لغة فى العصر (بالفتح) . الخالي : المساقى .
(٢) القرع (بالفتح أو الضم) : بلدة بينها وبين المدينة ثمانية أميال .

لم يطل ليلى ولكن لم أتم ونفى عن الكرى طيف ألم
 رؤى عنى قليلا واعلى أنى ياعبد من لحم ودم
 قال فن أمدح الناس؟ قال الذى يقول :
 لمست بكفى كفه أبتغى النفسى ولم أدر أن الجود من كفه يعدى
 فلا أنا منه ما أفاد ذو النفى أفدت وأعدائى فأتلفت ماعندى
 قال فن أهجى الناس؟ قال الذى يقول :
 رأيت الشهيدين استوى الجود فيهما على بعد ذا من ذاك فى حكم حاكم
 سهيل بن عثمان يهود بماله كما جاد بالوجع سهيل بن سالم^(١)
 قال : وهذه الآيات كلها لبشار .

ولقد كنا فى غنى عن هذه الشهادات لولا أننا لا نجد من شعر بشار مادة كثيرة
 نستطيع أن نحكم بهاعليه، لذلك احتجنا إلى أقوال هؤلاء الذين خالطوه ولا بسوه ، ققولهم
 فى بشار حجة لمن لا يرى فى آثاره ما يكفى للحكم عليه .

على أنه إذا استدلل بالقليل على الكثير فإن شعر بشار مثال الرصانة والمثانة ، فهو
 بدوى لولا ما عليه من حلية الحضارة ، جاهلى لولا ما سرى فيه من روح الحكمة وثقافة
 التعليم ، ثم هو مخترع لكثير من المعانى مما جملة إمام المحدثين ومقدمهم وأسبقهم إلى
 طرق أبواب المجون والخلاعة ، والفزل الرقيق الحضرى، والهجاء المنذع، ثم إنه أول من
 تعاطى البديع ، فجمع بين جزالة العرب ورقة المحدثين .

حياة أبى العتاهية

[نسبه] : هو إسماعيل بن القاسم بن سويد بن كبستان مولى عترة ، وكنيته
 أبو إسحق ، وأمه أم زيد بنت زياد الحارثى مولى بنى زهرة .

(١) الوجع : مقصور الوجعاء ، وهى الدبر .

وقد ذكر محمد بن أبي العتاهية أن جدهم كيّسان كان من أهل عين التمر ، وهى بلدة قريبة من الأنبار غربي الكوفة غزاها خالد بن الوليد أيام أبي بكر رضى الله عنه ، فجىء به صغيراً يتيماً إلى أبي بكر ، وكان يحضرته عبيد بن رفاعه العنزي ، فلما عرف أنه من عترة استوهبه من أبي بكر ، فوهبه له فأعتقه ، فصار ولاؤه فى عترة منذ ذلك الحين .

ومن ذلك يتضح أن أبا العتاهية من أصل عربى ليست أبائوه أعلاجاً ، وقد حدث أن رجلاً من أهل الكوفة سبه يوماً بأنه نبطى ، فجرت بينهما مشاجرة سال فيها دم أبي العتاهية ، فأقبل على سيدى عترة إذ ذاك وهما مندل وأخوه حيان ، فشكا لهما ما يتهم به هذا الرجل ، وقال لهما : إن كنت نبطياً هربت على وجهى وإلا أخذنا لى بحق ، فقام معه مندل وما تعلق نعله غضباً وقال : والله لو كان حنك على عيسى ابن موسى (والى الكوفة إذ ذاك) لأخذته لك منه ومرّ معه حتى أخذ حقه .

ولم تصحب أبا العتاهية هذه الكنية منذ نشأته ، ولكنها جدت له بعد أن قال الشعر وعرف شأنه . فقد ذكروا أن المهدي قال له يوماً : أنت إنسان متحذلق معته . فاستوى له من ذلك كنية غلبت عليه دون اسمه ، ويقال للرجل المتحذلق : عتاهية . وذكر صاحب لسان العرب أنه إنما لقب بذلك لأن المهدي قال له : أراك متخلطاً متمتها ، وكان قد تمته بعنبة جارية المهدي . وقيل لقب بذلك لأنه كان طويلاً مضطرباً . وكان أبو العتاهية من أهل المذار ، وهى بلدة بينها وبين البصرة مقدار أربعة أيام . وإن أباه انتقل به إلى الكوفة . وكانت صناعة أبيه عمل الجرار فنشأ فيها أبو العتاهية . وحديث اشتغاله بهذه الصناعة مضطرب مختلط ، فيقول بعضهم : إنه كان له ولأخيه زيد ، عبيد يعملون لهم الخزف فى أثون لهم ، فإذا اجتمع منه شيء ألقوه على أجير لهم يقال له أبو عباد ، فيبيعه على يديه ويردّ إليهم فضله ، وقيل : بل الذى كان يفعل ذلك أخوه زيد لاهو . وقد سئل عن ذلك أبو العتاهية ، فقال : أنا جرار القوافى ، وأخى جرار التجارة . ويحدث بعض أنه شاهد أبا العتاهية وهو جرار يأتيه الأحداث

والتأديبون فينشدهم أشعاره قيأخذون الخريف للتكسر ، ويكتبون فيه ما يسمعون منه .
ويحدث آخر فيقول : إن أبا العتاهية كان يجتاز أسواق الكوفة وعلى ظهره قصص فيه
نغار فيبيع منه ، وقد مرّ بفتيان جلوس يتذاكرون الشعر ويتناشدونه فلم ووضع
القصص عن ظهره وقال : يا فتیان أقول شعراً ولكم إن أجزتموه عشرة دراهم ، وإن لم
تفعلا فليكن مثلاً ، ثم قالوا : قل ولك شرطك ، فقال :

ما كنى الأحداث أتم

وجعل بينه وبينهم وقتاً فلم يفتح عليهم بشيء ، فتممه هو وقال :

. مثلنا بالأمس كنتم

ليت شعري ما صنعت أربحتم أم خسرت

والذي قوله : انه لا طائل تحت هذا الخلاف ، فإن فضل الله يؤتيه من يشاء ، وليس
بمعجب أن ينشأ أبو العتاهية في عمل الجرار ، ويكون شاعراً بليغاً ، ويدور بها في
الأسواق ، ثم هو بعد ذو موهبة شعرية شاء الله أن تظهر ، وأرادت عناية الخلفاء بالشعر
واحتفالهم بشأنه أن يصبح أبو العتاهية جلسهم وتديهم ، بل تصيره عليهم دالة فينشب
بجارية الملهدي ولا يغير عليه ، ويشتهد به العناد فيخالف رغبة الرشيد ، ويمتنع عن
قول الشعر ، ويهتم لذلك الرشيد ، ويقلق ويحتال لأن يعود أبو العتاهية إلى سيرته في
قول الشعر فيأبى أولاً ، ثم يقول في الزهد لا غير ، وكانت رغبة الرشيد أن يعود إلى
الفرل فلم يفعل .

فليس بمعجب أن ينبغ أبو العتاهية في الشعر وليست له سابقة في التعليم ، خصوصاً
إذا علمنا أنه عربي لا يحتاج في اللغة إلى تعلم ولا معاناة دراسة . فأما موهبة الخيال ، فهي
سهلة المئونة ميسورة التحصيل .

ولم يروا لأبي العتاهية شيئاً من شعر الصغر كما فعلوا بأبي نواس وبشار وغيرهما ،
وهذا يرجح في نظرنا أنه لم يقل الشعر إلا وقد تقدم في السن . فملى هذا يكون أحد

الشعراء الذين استحقوا لقب النبوغ في الشعر ، فيكون كالذي ياتي والجعدى

أوصافه ومعتقده

ذكروا من أوصافه الجسمية: أنه كان طويلاً ، دقيق العظام ، خفيف اللحم ، أبيض اللون ، أسود الشعر ، له وفرة جملة ، وهيئة حسنة . وكان مما يرى عليه في حياته التقشف الزائد ، حتى كان أكثر حياته يلبس الكرايس^(١) أو خشن الشعر والصوف ، وربما غلافلس قوصرتين^(٢) يتقب إحداها فيخرج منها رأسه ويديه ، ويقيم الأخرى مقام السراويل ، ويجتري بجنز الشعر ، ويأندم بالخل ، وإذا قرم اجتزا بالردوس ، وهذا منه تشف مخلوط بالبخل ، لأن داعية التقشف هي الزهد في الدنيا ، وترك مناعها ، والشذوف عن محاسنها ، ولكنه جمع إلى التقشف الغرام بالمال ، وتعطيل الحقوق الواجبة فيه من زكاة وترفيه على الأهل والخدم .

وله في البخل نوادر : ذكروا أنه أنشد يوماً ثمامة بن أشرس قوله :

إذا المرء لم يُعْتَقْ من المال نفسه تملكه المال الذي هو مالك
ألا إنما مالى الذى أنا منفق وليس لى المال الذى أنا تاركه
إذا كنت ذا مال فبادر به الذى يحق وإلا استهلكته مهالكه

فقال له : من أين قضيت بهذا ؟ قال من قول رسول الله « إنما لك من مالك ما أكلت فأنتيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأبقيت » فقال له : أو تؤمن بأن هذا قول رسول الله ؟ قال : نعم . قال : فلم تحبس عندك سبعاً وعشرين بذرّة في دارك ولا تأكل منها ولا تتركى ولا تقدمها ذكراً ليوم فقرك وفاقتك ؟ قال : والله إن ماقلت هو الحق ولكن أخاف الفقر ، فقال له : وهل تزيد حال من افتقر على حاله وأنت دائم الحرص والجمع ، شحيح على نفسك لا تشتري اللحم إلا من عيد إلى عيد ؟ فقال له :

(١) الكرايس : جمع كرايس ، وهو ثوب من القطن الأبيض .

(٢) القوصرتة : وعاء القير .

والله لقد اشتريت يوم عاشوراء لحماً وتوابله بخمسة دراهم، قال ثمامة: فأضحكني قوله حتى أذهلني عن إجابته وعلت أنه ليس ممن شرح الله صدره للإسلام .

١ . وحدث ثمامة أيضاً الجاحظ ، فقال له : دخلت على أبي المتاهية يوما ، فإذا هو يأكل خبزاً بلا شيء . فقال له : كأنك رأيته يأكل خبزاً وحده . قال : لا ، ولكن رأيته يأتم بلا شيء . رأيت قدامه خبزاً يابساً وقدحا فيه لبن حليب ، فكان يأخذ القطعة من الخبز فيغمسها في اللبن ثم يخرجها ولم تتعلق منه بقليل ولا كثير .

وكان له جاز يلتقط النوى ، ضعيف سيء الحال ولكنه متجبل في قهره ، فكان يمرّ بأبي المتاهية طرفي النهار فيقول أبو المتاهية : اللهم أعنه ، واصنع له ، وبارك فيه ، وبقي الرجل على ذلك نحواً من عشرين سنة إلى أن مات ، وما إن تصدق عليه أبو المتاهية بدرهم ولا داقق . فقال لأبي المتاهية بعض أصدقائه يوماً : إني أراك تكثر من الدعاء لهذا الشيخ وترغم أنه مقل فلم لم تصدق عليه بشيء ؟ قال : أخشى أن يعتاد الصدقة ، والصدقة آخر كسب العبد ، وإن في الدعاء خيراً كثيراً .

ووقف عليه يوماً سائل من العيارين^(١) الظرفاء ، وكان أبو المتاهية في جماعة من جيرانه فسأله دونهم ، فقال له : صنع الله بك فأعاد عليه السؤال كثيراً ، وهو يردّ عليه بمثل ذلك ، فقال له السائل : ألسن القائل :

كُلُّ حَيٍّ عِنْدَ مَيِّتَةٍ حَفَلُهُ مِنْ مَالِهِ الْكَفَنُ

ثم قال له : هل تريد أن تجعل مالك كله للكفن ؟ قال : لا . قال : فبالله كم قدرت لكفنتك ؟ قال : خمسة دنانير . قال : فهي إذا حفلك من مالك ؟ قال : نعم . قال : فتصدق على من غير حفلك بدرهم واحد . قال : لو تصدقت عليك لكان حظي . قال : فاعمل على أن ديناراً من الخمسة وصيغته^(٢) قيراط فادفع إلى قيراطاً واحداً . وإلا فواحدة أخرى . قال : وما هي ؟ قال : القبور تحفر بثلاثة دراهم فأعطى درهما وأقيم لك

(١) العيار : الكثير الضواف ، والذي يترد بلا عمل .

(٢) الوصيعة : الحطيفة .

كفيلاً بأنى أحفر لك قبرك متى مت وترج درهمين فإن لم أحفر رددته على ورثتك ،
أوردّه وكيلي ، فنجعل أبو العتاهية وقال : اعزب لعنك الله وغضب عليك ، فضحك
جميع من حضر ومّرّ السائل بضحك . فالتفت أبو العتاهية إلى جيرانه وقال : من أجل
هذا حرمت الصدقة ، فقالوا له : ومن حرّمها ومتى حرمت ؟ فما رأينا أحداً ادعى
ذلك قبلك ! !

وقيل له : هل تزكى مالك ؟ قال : والله ما أتق على عيالي إلا من زكاة أموالى ،
ف قيل له : سبحان الله ! إنما ينبغى أن تخرج زكاة مالك إلى الفقراء والمساكين ، فقال :
لوا قطعت عن عيالي زكاة مالى لم يكن فى الأرض أفقر منهم .



أما معتقده فأصدق ما يوصف به أبو العتاهية : أنه كان مضطرب المزاج ، مبطل
الخطر ، لا يميل إلى رأى إلا ريشاً يتحوّل عنه إلى غيره ، وكان يعتقد للمعتد ، فإذا
سمع طاعناً عليه ترك اعتقاده وأخذ بغيره ، ذكروا أنه كان يتشيع على مذهب الزيدية
البترية^(١) لا ينتقص أحداً ، ولا يرى الخروج على السلطان ، وكان مُحِبّاً^(٢) مرة
ومعتزلياً أخرى .

وكان اضطرابه فى معتقداته صورة من اضطرابه فى حياته ، وذلك نتيجة تركيب
خاص فى مزاجه ، فإن من غلبت عليه السوداء تنقل من أحواله بين الأضداد وبالغ فيما
يأتيه أنتم مبالغته ، فهو مثلاً : إما نشيط إلى درجة الجنون ، وإما كسلان إلى قريب من
الجمود أو الموت . وهكذا كان أبو العتاهية ، فقد كان ماجناً مفككاً حتى كان يحمل

(١) الزيدية : فرقة نسبت إلى زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب تقصر الإمامة على أولاد فاطمة
ولا تميزها فى غيرهم . والبترية : طائفة منهم أصحاب (كثير النوى) الأبتري ، توقفوا فى أمر عثمان
أهو مؤمن أم كافر ، وفضلوا علياً على جميع الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٢) أجبرته : نسبته إلى الجبر ، وهو القول بأن العباد مجبورون على أفعالهم .

زاملة^(١) الخنثين بالكوفة وبتبعهم ، ثم صار عاشقاً مدلها ، ثم انتهى إلى النسك الذي حرّم معه قول الشعر جملة ، ثم عاد منه إلى الزهد تاركاً الغزل والمهجاء .

والذي يظهر أيضاً أن لجليل أبي المتاهية أثراً في تردده بين المذاهب حتى كان أقل طعن في المذهب الذي يدين به يدعو إلى هجرانه والبحث عن غيره ، وهذا شأن المقلد الذي لا يرجع إلى عقيدة راسخة ورأى يدعمه بالبرهان ، ويستخلصه بمحض فكرته .

هذا ومما يؤيد رأينا الذي قلناه من أنه نبع في الشعر بعد أن نشأ في العامة ، ولقد عرف معاصروه عنه هذا الجهل ، فقد قال له أحد جيرانه مرّة : لاتصل خلف فلان فإنه مشبه ، فقال : كلا ، إنه قرأ بنا البارحة : « قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ » . قال صاحبه : فعرفت أنه أجهل الناس حين ظن أن المشبه لا يقرأ « قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ » .

وكان أبو المتاهية كثيراً ما يعارض ثمانية بن أشرس ، فقال له يوما بين يدي المأمون أسألك عن مسألة ، فقال له المأمون : عليك بشرك ، فقال : إن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي في مسألته ويأمره بإجابتى ، فقال : أجبه يا أشرس ، فقال أبو المتاهية ، (وهو في هذا يعبر عن رأيه في الجبر) : إن كل ما يفعله العباد من خير وشر فهو من الله وأنت تأبى ذلك ، فمن حرك يدي هذه وجعل يحرك يده ؟ فقال له ثمانية : حركها من أمه زانية . قال : شتمنى والله يا أمير المؤمنين ، فقال ثمانية ناقض قوله ! ! فضحك المأمون وقال : ألم أقل لك أن تشغل بشرك وتدع ما ليس من عملك .

علاقته بالخلفاء وغيرهم

نشأ أبو المتاهية بالكوفة كما علمت ، وما زال حتى اشتمر بالشعر فقصده بغداد ، وهي كعبة كل نابغ في أى ناحية من نواحي النبوغ ، وفيها اتصل بالمهدى وزادت علاقته به ، حتى صار يخرج معه في زهاته للصيد وغيره ، وبلغ من أنس المهدي أنه طالبه

(١) المزملة : جرة يرد فيها الماء ، ولعل الزاملة محرفة عنها ، أو هي عاميتها عند أهل الكوفة .

بأن يهجوهُ لأن غرامه بالصيد عرضه للهلاك مرّة ، وكان معه أبو العتاهية فأضافها ملاح ، وكاد المهدي يموت برداً ، فامتنع أبو العتاهية حتى ألجّ عليه المهدي . فقال :
يَا لَأَبْسَ الْوَشْيِ عَلَى ثَوْبِي مَا أَقْبَحَ الْأَشْيَبَ فِي الرَّاحِ
فقال : زدني بحياتي ، فقال :

لَوْ شِئْتُ أَيْضاً جُلْتُ فِي خَامَةٍ وَفِي وَشَاحِينَ وَأَوْضَاحٍ^(١)
فقال : ويحك ! هذا معنى سوء يرويه عنك الناس . زدني ، فقال : أخاف أن تغضب
فقال : لا ، فقال :

كَمْ مِنْ عَظِيمٍ الْقَدْرِ فِي نَفْسِهِ قَدْ نَامَ فِي جُبَّةٍ مَلَّاحٍ
وبلغ من منزلته في بيت المهدي أن المنصور بن المهدي خطب إليه ابنته السماء « الله » ،
وكان له بنتان هذه ، وأخرى اسمها « بالله » ، فلم يقبل أن يزوجه وقال : إنما طلبها
لأنها بنت أبي العتاهية وكان بها قد ملها ، فلم يكن لي إلى الاتصاف منه سبيل ،
وما كنت لأزوجه إلا بائع جرار ، ولكنني أختاره لها موسراً .
كما بلغ من دأبه على المهدي أن أحبّ عتبة جارية الخيزران ، وأكثر من ذكرها
في شعره ، فلما همّ المهدي باستئصال سيدتها عنها ليهبها له ، استغاثت السيدة والجارية
بالمهدي فألهاه عنها بالمال ، ولكنه لم يفتّر عن ذكرها .

وكان الهادي والرشيد يتنافسان في تربيته أيام أبيهما ، وكان صفواً أبي العتاهية
مع الرشيد ، فكان الهادي عاتباً عليه ، فلما ولى الخلافة لم يكن أسرع من رضاه عنه
بعد أن مدحه بقوله :

يَضْطَرِبُ الْخُطُوفُ وَالرَّجَاءُ إِذَا حَرَّكَ مُوسَى الْقَضِيبَ أَوْ فَكَّرَ
مَا أَبَيْنَ الْفَضْلُ فِي مَغِيبِ مَا أَوْرَدَ مِنْ رَأْيِهِ وَمَا أَضْدَرَ
فَكَمْ تَرَى عَزَّ عِنْدَ ذَلِكَ مِنْ مَعْتَرٍ قَوْمَ وَذَلٍّ مِنْ مَعْتَرٍ
يُثِيرُ مِنْ مَسِّهِ الْقَضِيبُ وَلَوْ يَمْسُهُ غَيْرُهُ لَمَا أَثْمَرَ

(١) الخامة : ثوب من قطن لم يسل . الأوضاح : حلي من فضة ، أو الخلاخيل .

مَنْ مِثْلُ مُوسَى وَمِثْلُ وَالِدِ الْهَمْدَى أَوْ جَدِّهِ أَبِي جَعْفَرٍ
ولما ولى الرشيد الخلافة كان له مع أبي التهاية حديث طويل . فقد بلغ من ملازمته
له أنه لم يكن يفارقه في سفر ولا حضر إلا في طريق الحج ، وكان يجري عليه كل سنة
خمسین ألف درهم سوى الجوائز والمعاون . وقد بلغ من إعجاب الرشيد به أن حرم جميع
الشعراء مرة ، ولم يعط إلا أبا التهاية حين أنشده :

يَا مَنْ تُبْنَى زَمْنَا صَالِحًا صَالِحَ هُرُونِ صَالِحِ الزَّمَنِ
كُلُّ لِسَانٍ هُوَ فِي مَلَكِهِ بِالشُّكْرِ فِي إِحْسَانِهِ مُرْتَبِنٌ
وكان هُرُونُ ابْنِ يَسْمَى الْقَاسِمِ ، وكان من أئمة الناس ، فَرَّ يَوْمًا فِي مَوْكَبٍ عَظِيمٍ بِأَبِي
التَّهَائِيَةِ ، فقام له إعظامًا ، فلم يزل قائمًا حتى جاز ، فلما لم يلتفت إليه . قال
أبو التهاية فيه :

يَتِيهِ ابْنُ آدَمَ مِنْ جِهَلِهِ كَأَنَّ رَحَى الْمَوْتِ لَا تَقْطَعُهُ
فلما بلغ ذلك القاسم أحضره وضربه مائة مقرعة وجسه في داره ، فلما ضاق عليه الحبس
أرسل إلى زبيدة ، وكانت توجب له حقه ، هذه الأبيات :

حَتَّى مَتَى ذُو التَّيِّهِ فِي رَجْوِهِ أَصْلَحَهُ اللَّهُ وَطَافَهُ
بَيْنَهُ أَهْلُ التَّيِّهِ مِنْ جَهْلِهِمْ وَهُمْ يَمُوتُونَ وَإِنْ تَاهُوا
مَنْ طَلَبَ الْعَزَّ لِيَبْقَى بِهِ فَإِنْ عَزَّ الرَّءِيقُ بَقَاءَهُ
لَمْ يَتَصَمَّ بِاللَّهِ مَنْ خَلَقَهُ مِنْ لَيْسَ يَرْجُوهُ وَيُخْشَاهُ
ووصف لها ضيق حبسه ، فرقت له وأخبرت الرشيد بأمره ، فأحضره وكساه ووصله ،
ولم يرض عن القاسم حتى برَّه واعتذر إليه

وفي أيام الرشيد عرضت لأبي التهاية حال تزهدهمدها . وذلك أنه طلب من
مُخَارِقٍ لِلْفَنَى أَنْ يَنْقَطِعَ إِلَيْهِ يَوْمًا لِيُغْنِيَهُ فِي شَعْرِهِ ، فما زال يغنيه حتى صارت التمتع ،
ثم أمر أبو التهاية ابنه وغلّامه ، فكسرا آنية الشراب وآلة الفناء ، ثم أمر بإخراج
ماعدته من التبيذ وصبه وصار يبكي حتى لم يبق من ذلك شيء ، ثم غسل ثيابه واغتسل

ولبس ثياباً من صوف أبيض وأعلن تنسكه ، وامتنع عن قول الشعر وحضور المنادمة ، فشق ذلك على الرشيد ، ولما لم يفلح في ردّه عن هذه الحال أمر بضربه ستين عصا وسجنه ، وحلف ألا يخرج من حبسه حتى يقول الشعر في الغزل ، فلما رفعت المقارع عن أبي المتاهية قال : كلّ مملوك له حرّ ، وامرأته طالق إن تكلم سنة إلا بالقرآن ، أو بلا إله إلا الله محمد رسول الله ، فكأن الرشيد تحزن مما فعله ، فأمر أن يحبس في دار ويوسع عليه ، ولا يمنع من دخول من يريد إليه فأقام السنة لا يَحْتَنُ في حِلْفَتِهِ ، وكان أوّل كلامه بعدها قوله في امرأته :

من قلبٍ مُتَمِّمٍ مشتاق شَفّه شوقه وطولُ القراق
طال شسوق إلى قميدة بيتي ليت شمري فهل لنا من تلاقٍ
رحى حطّى قد اقتصرت عليها من ذوات العقود والأطواق
جمع الله عاجلاً بك شملئ عن قريب وفككتي من وثاق

فلما سمع الرشيد الشعر قال لمسرور الخادم : كم ضربنا أبا المتاهية ؟ قال : ستين عصا ، فأمر له بستين ألف درهم وخلع عليه . وكان في أيام حبسه لا يفتقر عن ذكره ويشعر بالحاجة إليه في مقامات لا يفتنى فيها غيره ، فقد كان مرّة يسمع الغناء من جارية ومعه جعفر بن يحيى ، وكان الغناء في بيت واحد ، فقال الرشيد : ما أحوجه إلى ثان ليطول فيه الغناء فنستمع مدة ، فقال جعفر : قد أصبته . قال : من أين ؟ قال : تبعث إلى أبي المتاهية فيلحق لك به غيره لقدترته على الشعر ؛ فقال : هو أ نكد من ذلك لا يجيبنا وهو محبوبوس ونحن في نعيم وطرب ، ثم كتب إليه بالقصة ، فكان ردّ أبي المتاهية :

ولقد كلفت أمراً عجيباً أسأل التفرّيج من بيت الحزن

فلما وصلت الرشيد قال : قد عرفت أنه لا يفعل ، فقال له جعفر : تخرجه حتى يفعل . قال : لا حتى يشمرّ فقد حلفت ، ثم رضى أبو المتاهية بالعودة إلى قول الشعر تاركاً الغزل والهجاء ، واستمرّ على حاله هذه مدّة الأمين وشطراً من أيام اللأمون حتى مات سنة ٢١١ هـ ، وكانت ولادته بالكوفة سنة ١٣٠ هـ ، فيكون عمره إحدى وثمانين سنة ، ولكنه يقول في شعره إنه عاش تسعين حجة كما سيأتي .

وقد بلغ من شأن شاعر كأبي العتاهية أعجب به الخلفاء وأعلوا منزله أن يتنافس
الناس في الحرص على أن يكون لهم نصيب من شعره ، فمدح الفضل بن الربيع ، وكان
قبل ذلك قد مدح الرشيد فأمره بشعرين ألف درهم ، فلأمدهم الفضل ثاني يوم بقوله :

إذا ما كنت متخذاً خليلاً فقلّ الفضل فأتخذ الخليلاً

يرى الشكر القليل له عظيماً ويعطى من مواهبه الجزيلاً

أرأى حيناً يمتُّ طرقي وجدت على مكارمه دليلاً

فقال له : لولا أن أساوى أمير المؤمنين لأعطيتك مثلاً ، ولكن سأوصلها إليك في
دفعات ، وأعطاه في ذلك اليوم خمسة آلاف درهم .

وكان الفضل بن الربيع من أميل الناس إليه حتى سمعه يتحدث عن البرامكة فتغير
عليه ولم ير منه خيراً بعد ذلك . وكانت له منزلة عند عبد الله بن الحسن بن سهل ،
وكان يقول : لئن ضرك عند ابن الربيع ذكر البرامكة لقد فعلك عندنا ، وأجرى له في
كل شهر ثلاثة آلاف درهم .

ومن مدحهم يزيد بن مزيد ، ومما قال فيه :

كأنك في صدري إذا جئت زائراً تُقدّر فيه حاجتي بابتدائك

وإن أمير المؤمنين وغـيره ليعلم في الهيجاء فضل غنائك

كأنك عند الكـرّ في الحرب إنما تقرّ من السلم الذي من ورائك

فما آفة الأملاك غيرك في الوعى ولا آفة الأموال غير حياك

فأعطاه عشرة آلاف درهم ودابة بسرجهما ولجامها .

واتصل بمر بن العلاء ممدوح بشار . ومما قال فيه :

إن اللطايا تشتكيك لأنها قطعت إليك سبائباً ورملاً

فاذا وردن بنا وردن خفاً وإذا صدرن بنا صدرن صفلاً

وكان يزيد بن منصور خال المهدي يحبه ويقربه ويتعصب له ، فلما مات رثاه بقوله :

أننى يزيد بن منصور إلى البشر أننى يزيد لأهل البدو والحضر

يا ساكن الخفرة المهجور ساكنها
وجدتُ قدك في مالى وفي نَشِي
وجدتُ قدك في شعري وفي نَثَرِي^(١)
فلستُ أدرى جزاك الله صالحه
أمنظري اليوم أسوأ فيك أم خبيري
وكان منقطعاً إلى خالد المسكين ابن أبي جعفر المنصور قال : فاستفدت من ناحيته مائة ألف درهم ، وكان لي في مجلسه مرتبة لا يجلس فيها أحد غيري .

وقد اتصل بمحمد بن معن بن زائدة فدحه وذمه ، وكان سبب ذمه : أن أبا العتاهية كان يهوى امرأة نائحة لها حسن ودماثة ، وكان عن يهاها أيضاً عبد الله ابن معن . ومما قاله أبو العتاهية في ذمه بعد أن ضربه عبد الله ومثل به عبيده قوله :

جَلَدْتَنِي بِكَفِّهَا بِنْتُ مَعْنِ بْنِ زَائِدَةٍ
جَلَدْتَنِي بِكَفِّهَا بِأَبِي تَلَكِ جَالِدَةٍ
وتراها مع الخصى ي على الباب قاعده
تَتَكَفَّى كَفَى الرجا ل تصدِّ مُكَايِدَةٍ
جلدتني وبالفت إنما أنت والده

وقال في هذا المعنى أيضاً :

قال ابن معن وَجَلَا نفسه على من الجلالة يا أهلى
أنا فتاة الحى من وائل فى الشرف الشامخ والنبل
ما فى بنى شيبان أهل الحجا جارية واحدة مثلى
وبلى ويالحنى على أترد يلصق منى القُرْطُ بالحِجْلِ
صالحته يوما على خَلْوَةٍ فقال دع كفى وخذ رجلى

(١) النثب . المال الأصيل من الصامت والناطق . النثر . محركة (لشعر) هو النثر (خلاف الشعر)

شعر أبي العتاهية

سنتناول من شعره أمرين : الأسلوب ، والأغراض .

فأما الأسلوب فهو ذلك السهل اللين الذى بلغ الغاية من اللين والسهولة ، حتى كادت ألفاظه تدقّ عن مخارج الحروف ، فلا تتحرك بها أعضاء الفم انسياغا وذلاقة ، وتلطف في الأذن حتى كأنها لا وقع لها عليها .

ولم يأته ذلك الفضل من ناحية الخلو من الغريب ، وتوخي الكلمات الخفيفة فحسب ، ولكنه جاءه كذلك من ناحية الملكة الصنّاع الحاذقة في إبراز المعنى في أشفّ الألفاظ وأقرب الدلالات ، فالحكمة التي لا يستطيع غيره إبرازها إلا في أسلوب يكاد له خاطره وخاطر السامع حتى يقرّ معناها في نفسه ، ويوصل حقيقتها إلى وجدانه ، تراه قد عمد إليها من أيسر نواحيها ، واتس لها أقرب طرق الأداء ، فاستغنى معناها العظيم بأقلّ لفظ وتراعى في أسهل تعبير ، ويكاد ينهى إليك المعاني مستقلة بنفسها ، عارية عن ثوب اللفظ ، لو صحّ أن يتماسك ماء بلا إناء ، وإن شئت فقل : إن معناه يجتمع له الوضوح والنصوح ، ويتمّ للفظه الشفوف والصفاء ، فكأنما معنى ولا لفظ كما يرقّ الزجاج وتروق الحمر ، فكأنما خمر ولا قدح ، أو قدح ولا خمر .

وهذه السهولة من السحر الذي كان يرقى به أبو العتاهية جميع الناظرين في شعره أو السامعين له ، فتراهم وقد ملكهم من الحسن شيء لم يألفوا أن يكون له عليهم سلطان ، فإنما المألوف أن يكون السلطان للفظ القغم في الأداء ، البادى الرواء ، الذي عولج بأصباغ البديع ، فبدا عذبا في الفم ، حلوا في السمع ، فأما اللفظ المطل من الرواء ، المؤدّى بلاعناء ، فذلك ما لم تألف النفوس الإعجاب به قبل مذهب أبي العتاهية ، والتماسه الجمال في البساطة ، والروعة في السذاجة .

وإذا كان للانضباع على قول الشعر مقياس وجب أن يستولى أبو العتاهية على

غايته ، ويصل إلى نهايته على حين يقف أغلب الشعراء المطبوعين عند نصف الشوط ، لأن الانطباع في أبي العتاهية جعله بحيث يتحدث عن نفسه ، فيقول لمن سألته : كيف تقول الشعر ؟ ما أردته قط إلا مثل لي فأقول ما أريد وأترك ما لا أريد . ويقول في معرض آخر : لو شئت أن أجعل كلامي كله شعراً لفعلت .

وإذا كان من السهولة سهولة متكلفة ، أو من الرقة رقة مصطنعة ، فإن سهولة أبي العتاهية ورقتها هما ذلك النوع البريء الذي لا يتعلق به عيب ، ولا يوجه إليه نقد . وقد عابه قوم بهذا المذهب في القول (وهو أظهر فضائله) فاتهم رجل شعره بالضعف في مجلس ابن الأعرابي ، فقال له : الضعيف والله عقلك لاشعر أبي العتاهية ، ألابي العتاهية تقول هذا ؟ فوالله ما رأيت شاعراً قط أطبع ولا أقدر على بيت ، منه . وما أحسب مذهبه إلا ضرباً من السحر ، ثم أنشد له :

قطعت منك حبال الآمال	وحططت عن ظهر المطي رحال
ووجدت برد اليأس بين جوانحي	فأرختُ من حلّ ومن ترحال
بأيها البطر الذي هو من غد	في قبره متمزق الأوصال
حذف للمني عنه للشم في الهدى	وأرى منك طويّلة الأذيال
حبلُ ابن آدم في الأمور كثيرة	والموت يقطع حيلة المحتال
قستُ السؤال فكان أعظم قيمة	من كل عارفة جرت بسؤال
فإذا ابتليت ببذل وجهك سائلاً	فابذله للمتكرم الفضال
وإذا خشيت تصدراً في بلدة	فاشدد يدك بماجل الترجال
واصبر على غير الزمان فإنيما	فرج الشدائد مثل حلّ عقل

ثم قال للرجل : هل تعرف أحداً يحسن أن يقول مثل هذا القول ؟ فقال الرجل : إن الزهد مذهب أبي العتاهية وشعره في المديح ليس كشمه في الزهد ، فقال : أو ليس هو الذي يقول في المديح ؟ :

وهارونُ ماءُ المُرِّ يُشَفِّي به الصَّدَى إذا ما الصَّدَى بالريقِ غَصَّتْ حناجره
وأوسط بيت في قریش لبيته وأوَّل عزٍّ في قریش وآخره^(١)
وزخفٍ له تحكى البروق سيوفه وتحكى الرُّعود القاصفات حوافره
إذا حَمِيَّتْ شمسُ النهار تضاحكت إلى الشمس فيه بَيَضُهُ ومغافره^(٢)
ومن ذايغوت الموت والموت مُدْرِكٌ كذا لم يفت هرون ضدَّ ينافره
فلم يجد الرجل مخلصاً من ابن الأعرابي إلا أن يقول له : القول ماقلت ، وما كنت سمعت
له مثل هذين الشعرين ولا كتبتهما عنه .

وقد اجتمع أبو الناهية ومسلم بن الوليد في بعض المجالس ، فجرى بينهما كلام ،
فقال له مسلم : والله لو كنت أَرْضَى أن أقول مثل قولك :

الحمد والنعمة لك والملك لاشريك لك

* لبيك إن الملك لك *

لقلت في اليوم عشرة آلاف بيت ولكني أقول :

مُوفٍ على مَهَجٍ في يوم ذى رَهَجٍ كأنه أَجَلٌ يَسْعَى إلى أمل
ينال بالرفقِ ما يَغَيِّبُ الرجالُ به كاللوت مُسْتَعْجِلًا يأتي على مهَلٍ
يكسو السيوف قوسُ الناكثين به ويحمل الهامَ تيجانَ القنا الذُّبُلِ
لله من هاشم في أرضه جبلٌ وأنت وابنك رُكْنَا ذلك الجبل
فقال أبو الناهية قل مثل قولي : « الحمد والنعمة لك » أقل مثل قولك : « كأنه
أجل يسعى إلى أمل » .

وتذاكر الناس يوماً شعر أبي الناهية بحضرة الجاحظ إلى أن جرى ذكر أرجوزته

(١) أوسط . أرفع وأشرف .

(٢) البيض : جمع بيضة ، وهي الخوذة من الحديد تلبس على الرأس . النافر : جمع مغفر . وهو زرد
ينفج من الدروع على قدر الرأس يحمل تحت القلنسوة .

المزدوجة التي سماها « ذات الأمثال » ، فأخذ بعض من حضر ينشدها حتى أتى على قوله :

يا للشباب للرح : التصابي روائح الجنة في الشباب
فقال الجاحظ للعنشد : قف ، ثم قال انظروا إلى قوله : «روائح الجنة في الشباب» ، فإن له معنى كعنى الطرب الذى لا يقدر على معرفته إلا القلوب ، وتعجز عن ترجمته الألسنة ، إلا بعد التطويل ، وإدامة الفكر . وخير الممانى ما كان القلب إلى قبوله أسرع . من اللسان إلى وصفه .

وكان مصعب بن عبد الله يقول : أبو المتاهية أشعر الناس ، فقليل له بما استحق عندك ذلك ؟ قال بقوله :

تعلمتُ بآمالٍ طوالٍ أى آمالٍ
وأقبلت على الدنيا ملجأً أى إقبال
أيا هذا تجهز لفراق الأهل والمال
فلا بُدَّ من الموت على حال من الحال

قال مصعب : فهذا كلام سهل حق لا حشوفيه ولا نقصان ، يعرفه العاقل ويقر به الجاهل .

واستنشد بعضهم سُلماً الخاسر شيئاً من شعره ، فقال : لا ، ولكنى أنشدك لأشعر الجن والإنس .
ثم أنشده :

سَكَنٌ يَبْقَى لَهُ سَكَنٌ ما بهذا يُؤْذَنُ الرِّمَنُ^(١)

(١) السكن : الأول بمعنى المسكن والمنزل . والثانية بمعنى السكان ، وهى فى الأصل السكن (بالفتح) وقد جرت ههنا لتشعر ، أو تكون بالتحريك على أصلها بمعنى تميم الدار ويكون ذلك بسكانها : والحق لا يبقى لنار عمار بسكانها .

نحن في دار يُجَبَّرُنا بيلها ناطقٌ ليسُ
دار سَوَّه لم يدم فَرَحُ لآخرى فيها ولا حَزَنُ
في سبيل الله أَهْسَنَّا كلُّنا بالموت مُرْتَهَنُ
كلُّ نفسٍ عند مِيتَتِها حفَّلها من مالها الكَفَنُ
إنَّ مالَ المرء ليس له منه إلَّا ذِكْرُهُ الحَسَنُ

أما الأغراض التي تناولها أبو المتاهية في شعره، فهي جميع أغراض الشعر: من مدح، وهجاء، ورثاء، وغزل، وزهد. تجلّى فيها جميعاً طبعه السهل ومعناه القريب. ومدحه هو الذي أدرّ عليه ذلك الرزق الواسع والفتى العريض، حتى كان له من وفرة يوماً ما سبع وعشرون بكرة، والبكرة: عشرة آلاف درهم، ولم يصل إلينا خبر الثروة التي مات عنها، ولا بدّ أن تكون عظيمة لما علت من شحّه وكثرة ما يصل إليه من الخلقاء وغيرهم.

ومن مدحه الذي لم يمرّ بك قوله لما عقد الرشيد ولاية العهد لابنيه الثلاثة:
الأمين، والمأمون، والمؤتمن:

وراعٍ يرعى الليل في حفظ أُمَّة يدافع عنها الشرّ غير رَقُود
بألوية جبريلُ يقدّم أهلها وراياتُ نصرٍ حوله وجُنُود
تجافى عن الدنيا وأيقن أنها مفارقةٌ ليست بدار خُلُود
وشدّ عرى الإسلام منه بفتية ثلاثة أملاكٍ ولاة عهود
هو خير أولادٍ لهم خير والد له خير آباء مضت وجدود
بنو المصطفى هرونَ حول سريرِه فخير قيامٍ حوله وقود
تقلّبُ الحافظ المهابة بينهم عيونُ ظباء في قلوب أسود
جذود هو شمسُ أتت في أهلة تبدّت لراه في نهجوم سُود

فوصله الرشيد بصلة ماوصل مثاها شاعراً قط .

وولد للهادي ولد في أول يوم ولي الخلافة ، فدخل أبو العتاهية وأنشده :

أَكْثَرَ مُوسَى غَيْظَ حُسَادِهِ وَزَيْنَ الْأَرْضِ بِأَوْلَادِهِ
وَجَاءَنَا مِنْ صِلْبِهِ سَيِّدٌ أَصِيدُ فِي تَقْطِيعِ أَجْدَادِهِ
فَاكْتَسَتِ الْأَرْضُ بِهِ بَهْجَةً وَاسْتَبَشَرَ الْمَلِكُ بِمِيلَادِهِ
وَابْتَسَمَ النَّبِيرُ عَنْ فَرْحَةٍ عَلَّتْ بِهِ ذِرْوَةُ أَعْوَادِهِ
كَأَنِّي بَعْدَ قَلِيلٍ بِهِ بَيْنَ مَوَالِيهِ وَقُوَادِهِ
فِي تَحْفِيلٍ تَحْفِيقُ رَايَاتِهِ قَدْ طَبَّقَ الْأَرْضَ بِأَجْنَادِهِ

فأمر له موسى بألف دينار وطيب كثير ، وكان ساخطاً عليه فرضى عنه .

أما مجاؤه ، فقد كان ممثلاً يشدّ معناه في لين ألفاظه ، فيكون آلم للهجو وأسير على
الأسنة . وقد مرّ بك مجاؤه لعبد الله بن معن ، فانظر كيف تراه قد جاءه من ناحية
لم ينتبه إليها غيره في المجاء ؟ وتلك هي ادعاء أنه أتى ، ولا يليق بها إلا أن تجلي على
البلع ، وقد استقصى هذا المعنى فكان أمض شئ وأوجع .

وما قال فيه في معنى قصيرٍ بابه وقعوده عن الجدل :

أَلَا قُلْ لِابْنِ مَعْنٍ ذَا السَّلَازِي فِي الْوَدِّ قَدْ حَالَا
قَدْ بُلِّغْتُ مَا قَالَ فَمَا بَالَيْتُ مَا قَالَ^(١)
وَلَوْ كَانَ مِنَ الْأُسْدِ لَمَا صَالَ وَلَا هَالَا
فَضَعُ مَا كُنْتُ حَلَّيْتُ بِهِ سَيْفُكَ خُلْخُلَا
وَمَا تَصْنَعُ بِالسَّيْفِ إِذَا لَمْ تَكُ قَتَلَا
وَلَوْ مَدَّ إِلَى أَذْنِيهِ كَفَيْهِ لَمَا نَالَا

(١) تهديد عبد الله بن معن بأب العتاهية وخوفه ونهاه أن يتعرض لمولاته سمعي ، فهذا ما يشير إليه

أبو العتاهية بقوله : لقد بلغت . . .

قصير الطول والطيلة لاشب ولا طالا^(١)
أرى قومك أبطالا وقد أصبحت بطلا



وفي رثائه رنة الأسف ، وقد أجاد فيه لقربه من المذهب الذى اختص به ، وكان فيه علماً مرفوعاً ، وناراً مشبوبة ، وهو مذهب الزهد والزراية بشأن الدنيا ونعيمها . ومن رثائه ما قاله فى صديقه على بن ثابت فقد حضر وهو يجود بنفسه ، وما زال ملتزماً له حتى فاضت روحه ، فبكى طويلاً وقال :

أشريكى فى الخير قرّبك الله فنعم الشريك فى الخير كنتا
قد لعمري حكيت لى غصص الو ت فخر كنى لها وسكنتا
ولما دفن وقف على قبره ، فبكى طويلاً ، ثم جعل يردّد هذه الأبيات :

ألا من لى بأنسك يا أخيا ومن لى أن أثبتك ما لدنيا
طوتك خطوب دهرك بعد نشر كذاك خطوبه نشرًا وطيا
فلو نشرت قواك لى المنايا شكوت إليك ما صنعت إلّيا
بكيتك يا على بدمع عيى فما أغنى البكاء عليك شيئا
وكانت فى حياتك لى عظام وأنت اليوم أوعظ منك حيا

أما القزل فى شعره فجبال واسع أعاد فيه وأبدى . وكان من خفة وقعه ، وحلاوة مذاقه ، وصفاء ديباجته أن كان المهدي يسمعه منه فى جاريته عتبة فيقبله ويميزه عليه ، واقد رثى لحاله فى عشقها حتى رجا سيدتها فى النزول عنها ، فاستقائت به السيدة والجارية ألا يفعل ، فترضاه عنها بالمال الكثير ولكنه استمر ينسب بها .

(١) الطيلة : السر .

ولما تنسك وكان من مقتضى نسكه أن يحرم على نفسه الغزل شق ذلك على الرشيد كل مشقة حتى ضربه وجسه ، فلو أن في غزل أبي العتاهية ناحية من الحسن وضربا من اللذة لم يجدها الرشيد في غزل غيره ماجزع كل هذا الجزع ، ولا ارتكب معه كل هذا العنف في حمله على تلك الخطئة .

ونستطيع أن ندلل على سبب هذا التأثير العجيب في غزله بأن نقول : إن نشأة أبي العتاهية في المحون والتفكك ، وملازمة الخنثين وحمله زاملتهم في طرق الكوفة رقق من طبعه ، ونحى في غزله جزءا من رجولته ، فصار كزير النساء ، وهو أرق الناس خطابا لهم ، وأعرفهم بما يعلق بقلوبهن ويدور بخلدن ، كذلك ابن طبعه في القول وسهولة لفظه جملا لغزله رقة لم تكن لغيره ، وهى أول ما يراعى في الغزل حتى لئرى الشاعر إذا كان غليظ القول جاسيه ، أغنى في مقام الفخر ووصف الحروب ، وقصر في هذا الباب لما يحتاج إليه من بيان وإسجاج .

وسبب ثالث ، وهو ما عرفت من غلبة السوداء على أبي العتاهية ، فيكون شأنه للبالغة في كل ما يتناوله والإلحاح في جميع ما يمرض له ، لأن غلبة السوداء شعبة من الجنون ، والحب إذا خالطه شيء من هذا اشتملت ناره ، واشتد أواره . وهكذا كان حب أبي العتاهية ليس فيه هواة ، ولا لجوحه ضابط ، وفي التعبير عن مثل هذا الحب حرارة لا تجدها في غزل منبعث عن نفس فاترة وغرام هادئ .

ومن قوله في عتبة :

أحمدُ قال لى ولم يَدْرِ ما بى أَتُحِبُّ الفِداءَ عُتْبَةَ حَقًّا
فَنَفَسْتُ ثُمَّ قُلْتُ نَعَمْ حُبًّا جَرى فى العروق عرقا فرفقا
لو تَجَسَّسَين يا عَتِيبَةُ قَلْبى لَوَجَدْتَ الفؤادَ قَرَحًا تَقَفًّا
قد لعمرى ملَّ الطيب وملَّ أهلُ مَنى مما أقامى والنقى
لِئْنى مِتُّ فاسترحت فإنى أبدا ما حَيَّيتُ منها مُلْكِي

ومن قوله فيها :

يَا عَتَبَ سَيْدِي أَمَا لَكَ دِينٌ حَقٌّ مَقَى قَلْبِي لَدَيْكَ رَهِينٌ
وَأَنَا الدَّلُولُ لِكُلِّ مَا حَمَلْتَنِي وَأَنَا الشَّقِيُّ الْبَائِسُ الْمُسْكِينُ
وَأَنَا الْعِدَاءُ لِكُلِّ بَالِكٍ مُسْعِدٌ وَلِكُلِّ صَبٍّ صَاحِبٍ وَخَدِينُ
لَا بَأْسَ إِنَّ لَدَاكَ عِنْدِي رَاحَةً لِلصَّبِّ أَنْ يَلْقَى الْحَزِينَ حَزِينُ
يَا عَتَبَ أَيْنَ أَفْرُ مِنْكَ أَمِيرِي وَعَلَى حَصْنٍ مِنْ هَوَاكَ حَصِينُ

وكتب مرة إلى المهدي يعرض بطلها منه :

نَفْسِي شَيْءٌ مِنَ الدُّنْيَا مَعْلَمَةٌ اللَّهُ وَالْقَائِمُ الْمَهْدِيُّ يَكْفِيهَا
إِنِّي لِأَيْأَسَ مِنْهَا ثُمَّ يُطْمَعُنِي فِيهَا احْتِقَارُكَ لِلدُّنْيَا وَمَا فِيهَا

ومن قوله فيها أيضاً :

أَلَا مَا لِسَيِّدِي مَا لَهَا أَدْلًا فَأَحْمِلَ إِدْلَامَهَا؟
وإِلَّا قِيمٌ تَجَنَّتْ وَمَا جَنِّتُ سَقَى اللَّهِ أَطْلَامَهَا
أَلَا إِنْ جَارِيَةً لِلْإِمَامِ مَرَّ قَدْ أُسْكِنَ الْحُبَّ سِرَامَهَا
مَشَتْ بَيْنَ حُورٍ قَصَارِ الْخَطَا تُجَاذِبُ فِي الْمَشَى أَكْفَامَهَا
وَقَدْ أَتَمَّ اللَّهُ نَفْسَ بَهَا وَأَتَمَّ بِاللَّوْمِ عُذَامَهَا

ومن قوله فيها :

عَيْنِي عَلَى عُتْبَةٍ مُثَلِّهِ بِدَمْعِهَا الْمَسْكِبِ السَّائِلُ
يَا مَنْ رَأَى قَبْلِي قَتِيلًا بَكِي مِنْ شِدَّةِ الْوَجْدِ عَلَى الْقَاتِلِ
بَسَطْتُ كَفِّي نَحْوَكُمْ سَائِلًا مَاذَا تَرُدُّونَ عَلَى السَّائِلِ
إِنْ لَمْ تَنْيَلُوهُ فَقُولُوا لَهُ قَوْلًا جَمِيلًا بَدَلِ النَّائِلِ
أَوْ كُتِمُ الْعَامَ عَلَى عُسْرَةٍ مِنْهُ قَتْنُوهُ إِلَى قَابِلِ



وأما الزهد ، فقد كان المذهب الذى غلب على أبى العتاهية حتى عرف به وقصر عليه قوله فى آخر أيامه ، فكان ينمّ الدنيا ويزهد فى نعيمها ، ويميب على من يفرّه روتقها ، ويطنّيه زبرجها ، ويذكر الموت وهوله ، والقبر وبلى الأجسام فيه ، ويكثر من ذلك جدّاً حتى اتّبه قوم إلى أنه إنما يذكر الموت والفناء دون النشور والبعث ، وإن ذلك يرجع منه إلى رأى فلسفى يعتقده ، وقد خاطبه فى ذلك بعض أصحابه ، فقال :
مادبنى إلا التوحيد ، ثم أنشد :

أَلَا إِنَّنَا كُلُّنَا بِأَنفُسِنَا بَنَىٰ بَنَىٰ
وَبَدَّوْهُمْ كَانُ مِنْ رَبِّهِمْ وَكُلٌّ إِلَىٰ رَبِّهِ عَائِدُ
فَيَا عَجَبًا كَيْفَ يَعْصِي الْإِنْسَانُ أَمَ كَيْفَ يَجْتَنِدُهُ الْجَاهِدُ
وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ وَاحِدُ

ولعلّ أبا العتاهية إنما كان يقصد بقوله فى الزهد حمل الناس على الخير ، ومنعهم من التكالب على الدنيا ، فكان لا يذكرهم ولا يعظمهم إلا بما قرب منهم وهو الموت والبلى كأنهم لفظ قلوبهم صاروا لا يتأثرون إلا بما يقع تحت حسهم ، وما شئ يداخلهم ويرويه كل يوم مثلاً أمامهم إلا الموت ، وصيرورة المرء إلى القبر وتعرضه فيه للبلى .
وقد تبع كلامه فى الزهد أن جرت على لسانه حكمة تضرب إلى هذه الناحية ، فهى حكمة التخذيل عن الدنيا والتحقير لشأنها ، وكذلك كانت أمثاله التى ضربها من هذا الوادى ، فيصحّ أن نقول : إن حكمته وأمثاله كلها كانت من لباب الزهد الذى أراد أن يكون فارس حلبته . وقد كان .

وأعظم مذكوره فى هذا الباب مزدوجته التى حوت أربعة آلاف مثل ، وقد مرّ بك فى باب الشعر كثير منها . ومن غيرها قوله فى الموت :

لِيُؤْتُوا الْمَوْتَ وَأَبْنُوا لِلْخَرَابِ فَكُلُّكُمْ يَصِيرُ إِلَى تَبَابٍ
أَلَا يَا مَوْتَ لَمْ أَرِ مِنْكَ بُدًّا أَتَيْتَ وَمَا تَحِيْفُ وَمَا تُحَايِ
كَأَنَّكَ قَدْ هَجَمْتَ عَلَى مَشْيِي كَمَا هَجَمَ الشَّيْبُ عَلَى شَبَابِي

وقال له المأمون أنشدني أحسن ما قلت في الموت فأنشده :

أُنْسَاكَ سَحَابَكَ الْمَكَانَا فَطَلَبْتَ فِي الدُّنْيَا الثَّابِتَا
أَوْثِقْتَ بِالْدُّنْيَا وَأَنْسَيْتَ تَرَى جَمَاعَهَا شَتَا
وَعَزَمْتَ مِنْكَ عَلَى الْحَيَاةِ وَطَوَّلَهَا عَزْمَا بَتَا
يَا مَنْ رَأَى أَبُوبِهِ فِيمَنْ قَدْ رَأَى كَانَا فَنَا
هَلْ فِيهَا لَكَ عِزَّةٌ أَمْ قُلْتَ إِنَّ لَكَ اخْلَا
وَمَنْ الَّذِي طَلَبَ التَّقْلُتُ مِنْ مَنِيَّتِهِ فَنَا
كُلُّهُ تَصَبَّحَهُ لِلنِّيَّةِ أَوْ تَبَيَّنَتْهُ بَيَا

وإذا كان عيب في شعر أبي العتاهية فهو ما كان يناقضه من حرصه على المال ،
وتجاوزه الحد في جمعه ، وقد عابه بذلك الجواز ، فقال :

مَا أَقْبَحَ التَّزْهِيدِ مِنْ وَاعِظٍ يُرْهِدُ النَّاسَ وَلَا يَزْهَدُ
لَوْ كَانَ فِي تَزْهِيدِهِ صَادِقَا أَضْحَى وَأَمْسَى بَيْتُهُ لِلْمَسْجِدِ
يَخَافُ أَنْ تَنْفَدَ أَرْزَاقُهُ وَالرِّزْقُ عِنْدَ اللَّهِ لَا يَنْفَدُ
وَالرِّزْقُ مَقْسُومٌ عَلَى مَنْ تَرَى يَنَالُهُ الْأَبْيَضُ وَالْأَسْوَدُ

وكان آخر شعر قاله أبو العتاهية ، وقد أدرك فيه خطأه في الحرص على الدنيا قوله :

إِلَهِي لَا تُمَدِّدْ بَنِي فُلَانٍ مُقِرٌّ بِالَّذِي قَدْ كَانَ مِنِّي
فَمَا لِي حِيلَةٌ إِلَّا رَجَائِي لَعَفُوكَ إِنْ عَفَوْتَ وَحَسَنُ ظَنِّي
وَكَمْ مِنْ زَلَّةٍ لِي فِي الْخَطَايَا وَأَنْتَ عَلَى ذُو فَضْلٍ وَمَنَّ
إِذَا فَكَّرْتَ فِي نَدَمِي عَلَيْهَا عَصَصْتُ أَنَا مِلِّي وَقَرَعْتُ سِنِّي

أَجْنُ بَرْهَرَةَ الدُّنْيَا جُنُونًا وَأَقْطَعُ طُولَ عُمرِي بِالْتَمَنِّي
ولو أني صَدَقْتُ الزَّهْدَ عنها قَلَبْتُ لَأَهْلَهَا ظَهَرَ الْمَجْنُونِ
يظنُّ النَّاسُ بِي خَيْرًا وَإِنِّي لَشَرُّ الْخَلْقِ إِنْ لَمْ تَعْفَ عَنِّي
وأوصى بأن يكتب على قبره :

أُذِنَ حَيًّا تَسْمَعِي إِسْمِي ثُمَّ عَى وَصِي
أَنَا رَهْنٌ بِمُضْجِي فَاحْذَرِي مِثْلَ مَضْرَعِي
عِشْتُ تَسْعِينَ حِجَّةً فِي دِيَارِ التَّرْزَعِ
لَيْسَ زَادُ سِوَى التَّقَى لَخَذِي مِنْهُ أَوْ دَعَى

ولسنا بحاجة أن نقد فصلا لبيان منزلة أبي المتاهية عند الأدباء وغيرهم ، فقد تفرق من ذلك في الترجمة كثير .

وقد مرَّ بك في باب أوزان الشعر أنه كان أحد الذين كسروا قيود الأوزان القديمة ، فلما خوطب في ذلك قال : أنا أكبر من العروض .
وديوان شعره في جزأين كبيرين : أولهما في الزهد ، والثاني في الأغراض الأخرى ، مطبوع في بيروت سنة ١٨٨٧ هـ ، والذي يجب أن نعرفه أن ما في الديوان ليس كل شعره ، لأن أبا المتاهية كان أحد ثلاثة لم تمكن الإحاطة بشعرهم لكثرة ، وهم : بشار ، والسيد الحميري ، وأبو المتاهية ، ولا شك أنه في هذا أكثرهم .

حياة أبي تمام

[نسبه] : يختلف الرواة في نسب أبي تمام ، فبعضهم يجعله عربياً صحیحاً من طيِّ فيقولون : إنه حبيب بن أوس بن الحرث بن قيس بن الأشج بن يحيى بن مروان ابن مُر بن سعد بن كاهل بن عمرو بن عدي بن عمرو بن القوث بن طي .

والذين يدعون أنه نصرانيّ من أهل قرية جاسم من قرى الجيّدور من أعمال دمشق يقولون : إن أسم أبيه ليس أوساً ولكنه ندوس المطار فغير إلى أوس وأدخل في هذا النسب اللغفل ، وعلى هذا يقول شاعر يهجو أبا تمام :

لو أنّ عبد متّافٍ في أرومهم تقبّلوك لما ضرّوا ولا نفعوا
مربّع قومك ناقوس وشمّلة فاذا كرّ رابعهم فيها إذا ارتبعوا
ولاشكّ أن أبا تمام كان يعجبه النسب الأول لأن الالتساء إلى العرب كان شرفاً كبيراً خصوصاً إلى قبيلة مشهورة كطليّ ، وهذا ما يرجح في نظرنا أن يكون في اصطناع هذا النسب يد لأبي تمام ، فقد كان يفاخر به ويسأى الرؤساء كما فعل في مدحه لأحمد ابن أبي دؤاد .

أضحت إياؤ في معدّ كلّها وهم أيادي بناها الممدود
تنميك في قلل المكّام والّثلا زُهرٌ لزُهرٍ أبوة وجدود
إن كنتم حادى ذاك النبع إن نسبوا وفلقة ذلك الجلود
وتركتموم دوننا فلاّتم شركاؤنا من دونهم في الجود
كعبٌ وحاتم اللذان تقاسما خطّط العلامن طارف وتليد

نشأته وتصرفه

في تاريخ أبي تمام كثير من الغموض ، أول ما فيه من ذلك تاريخ ميلاده ، فإن المؤرّخين لم يتفقوا على رأى في عام ولادته . فبعض يذكر أنه ولد سنة ١٨٠ هـ ، وآخر يقول سنة ١٨٨ هـ ، وثالث يروى سنة ١٩٢ هـ ، وبعض يروى عن أبي تمام نفسه أنه ولد سنة ١٩٠ هـ ، وكما اختلفوا في ولادته اختلفوا في وفاته ، فقيل سنة ٢٢٨ هـ ، وقيل سنة ٢٣١ هـ ، وقيل سنة ٢٣٢ هـ ، فيكون مات شاباً

في حدود الأربعين ، أو مجاوزاً لها بقليل . ودفن بالموصل ، ورفاته الآن في حديقة البلدية هناك في ضريح نغم .

ثم يذكرون أنه نشأ بالشام بالقريّة التي ذكرناها ، وهي جاسم ؛ وصاحب الأغاني يذكر أنه نشأ بمنج أو في قرية من قراها . وغيره يزعم أنه نشأ في قرية من قرى دمشق ، ثم يذكرون أنه نشأ فقيراً ، وأنه انتقل إلى مصر ، ولكننا لا نظفر بمعرفة مقدار عمره حين انتقل إلى مصر ، ولا مقدار ما حصله من علم قبل ذلك بالشام . وقصيدته التي ذكر فيها بحبّه إلى مصر تدلّ على أنه قدما وقد عقل ، وأنه حضرها وحده لا في حياطة أسرته ، كما تدلّ على أنه لم يظفر فيها بما أمل من سعة عيش ، ورفاهة حال قام فيها مدّة في أنكد عيش يسقى الماء بالجرّة في جامع عمرو بالقسّاط ، فكان لا اختلاطه بالعلماء أثر في نفسه ومادة في علمه ، وتدلّ القصيدة أيضاً على أنه أقام بمصر خمس سنين ، ولكنه كان قد نضج في الشعر فقالاه وعرف بالجوذة فيه ، وحسد فضله من شعراء مصر يوسف بن السراج ، فاتصل بينهما التهاجي . وكان من ذبوع فضله أنه سمع بخبره المعتصم فاستقدمه إليه ، وفي هذه القصيدة يقول :

بنفسى أرض الشام لا أَيْمَنُ الحِمَى ولا أَيْسَرُ الدهنا ولا أوسطُ الرمل
عدتني عنكم مكرهاً غربة النوى لها وطَرٌّ في أن تمرّ ولا تُحَلِي
أخمة أعوام مضت لمغيبه وشهران بل يومان تُكُلُّ على نُكُلِ
نابتُ فلا مالاً حَوَيْتُ ولم أقم فأُفْتَحَ إذ فُجِّعْتُ بالمال والأهل

ولهذه القصيدة لم تكن آخر عهده ، فيكون قد أقام بها أكثر من ذلك .

دخل بغداد فكان شأنه غير شأن سائر الشعراء ، لأن الواحد منهم كان إذا قدر الله له نجاحاً يكون الخليفة آخر من يسمع به ، ويكون قبل ذلك قد اتصل بمياسير الناس ورؤسائهم ، ثم حاشية الخليفة وأمرأ بيتته ، ثم ينتهى به الشرف ، ويتسامى الحظ ، فيذكر اسمه للخليفة ، فيأذن له بالإشاد بين يديه ، ولكن أبا تمام كان في شهرته كما

كان في نبوغه وثاباً ، فهو إنما قدم بغداد بدعوة من المعتصم ، فلما سمع منه ورضى عنه تسابق الأمراء والوزراء ، ورجال الدولة عامة من حاضر في بغداد وناء عنها ، في أن يشرفهم أبو تمام بمدحه ، ولذلك لانراه قد قبع في بغداد كغيره من الشعراء الذين لا تتجاوز شهرتهم الأفق الذي يعيشون فيه . وما بغداد بالهينة الشأن ، أو الضيقة الرقعة لولم تعددها شهرة أبي تمام ، ولكن نبوغه كان أكبر من أن تسعه بغداد ، فذلك رأينا يشرق ويغرب ، فصدق عليه قوله :

وغربت حتى لم أجد ذكر مشرقٍ وشرقٍ حتى قد نَسِيتُ المغاربا

وقد اتصل أبو تمام بالخليفة ، ووزيره محمد بن عبد الملك الزيات ، ورجال الدولة : الحسن ابن وهب ، والحسن بن سهل ، وأحمد بن أبي دؤاد ، ومحمد بن حميد الطوسي ، والأفشين وأبي دلف المجلي ، وعبد الله بن طاهر ، وخالد بن يزيد بن مزيد وغيرهم من كبار الناس وأصحاب البيوتات في الدولة ، وقد كان له من هؤلاء جود واسع ، وكرم زائد ، وقد اعترف بعضهم بأن عطاءهم دون ما يستحقه شعره . ذكروا أنه لما مدح محمد بن عبد الملك الزيات بالقصيدة التي فيها :

دَيْعَةٌ سَمِعَهُ الْقِيَادِ سَكُوبُ مُسْتَنْثِيَتْ بِهَا النَّزَى لِلْكُرُوبِ

لَوْ سَعَتْ بُقْعَةٌ لِإِعْظَامِ أُخْرَى لَسَى نَحْوَهَا الْمَكَانُ الْجَدِيدُ

قال له : يا أبا تمام ، إنك لتحلى شعرك من جواهر لفظك ، وبديع معنك ما يزيد به حسناً على بهي الجواهر في جياذ الحسان ، وما يدخلك شيء من جزيل العطاء إلا ويقصر عن شعرك في الموازاة .

وهذه الثروة التي استفادها أبو تمام ألتفها في لذاته ، وكان غرامه بالأسفار وولعه بالرحل هو الذي استنفد هذه الثروة الطائلة التي لو حرص عليها كما حرص غيره لرأينا له تراثاً لم يخلفه شاعر ، فإن المعروف أن أبا تمام أدخل في حياته كل شراء زمانه ،

وقطع عنهم أرزاقهم ، فلما مات تنفسوا الصعداء ، وعادت عطاياه تقسم بينهم ،
فانتشئت حالهم .

حدّث أحمد بن يزيد الهلبلي قال : ما كان أحد من الشعراء يأخذ درهما بالشعر في
حياة أبي تمام ، فلما مات اقتسم الشعراء ما كان يأخذه .

صفات أبي تمام ومزاياه

كان أسمر طويلا فصيحاً ، حلو الكلام مع تمتعة يسيرة فيه ، ولعلّ هذه الصفات
ليس منها ما يتعلق بموضوعنا ، وهو شاعرية أبي تمام ، اللهم إلا ما كان من فصاحة
منطقه وحلاوة كلامه . فأما الصفات التي يصحّ أن تكون ذات أثر في شعره ، أو في
حالات نفسه التي ينشأ عنها الشعر ، فذلك هي ما كان فيه من ميل إلى اللهو والبذخ في
المعيشة ، ومن مجون ، واستباحة للشراب ، وتهاون بأمر الدّين ، فهذه صفات يثور ط
فيها الشعراء إلا قليلا جرت بذلك سنتهم خصوصاً في عصور الترف والنعيم ، ولكن
الذي تساؤل عنه ، لمّ لمّ تتجه الأنظار إلى أبي تمام في مسلكه كما اتجهت إلى بشار
وأبي نواس ؟ ولعلّ السبب أن زمن أبي تمام كان زمناً ألفت فيه هذه الأنواع من
الفجور ، وشاع الفسق ، وهدأت في نفوس الخلفاء نائرة الاتهام بالزندقة ، فلم يكن ما يأتيه
أبو تمام بدعاً ولا مستغرباً .

كن أبو تمام يشرب الخمر ، وفيها يقول :

أفئكم فتى حرٌّ فيُعَيِّرُنِي عَنِّي بِمَا شَرِبْتُ مَشْرُوبَةَ الرَّاحِ مِنْ ذَهْنِي
عَدَّتْ وَهِيَ أَوَّلَى مِنْ فَوَادِي بَعَزَمَتِي وَرُحْتُ بِمَا فِي الدَّنِّ أَوَّلَى مِنَ الدَّنِّ
لَقَدْ تَرَكْتُهَا كَأُمِّهَا وَحَقِيقَتِي حَجَازٌ وَصُبُحٌ مِنْ يَقِينِي كَالظَّنِّ

وقد قصد خالد بن يزيد بن مزيد بأرمينية ، فدحه فأعطاه عشرة آلاف ، فلما انصرف

من عنده طابت له الإقامة في أرياض مدينته ، فخرج خالد يوماً يصطاد ، فإذا أبو تمام تحت شجرة يشرب ، وغلّامه يغنيه بالطنبور ، فقال له : ما فعل المال ؟ قال :
 عَلِمْنِي جُودُكَ السَّاحَ فَا أَبَقَيْتُ شَيْئًا لَدَيَّ مِنْ صِلَتِكَ
 مَامَرَّ شَهْرٌ حَتَّى سَمِعْتُ بِهِ كَأَنَّ لِي قُدْرَةً كَقُدْرَتِكَ
 تُنْفِقُ فِي الْيَوْمِ بِالْهَبَاتِ وَفِي الشَّسَاعَةِ مَا تَجْتَنِيهِ فِي سَنَتِكَ
 فَلَسْتُ أَدْرِي مِنْ أَيْنَ تُنْفِقُ لَوْ لَا أَنَّ رَبِّي يَمُدُّ فِي هَبَتِكَ
 فَأَمَرَهُ بِمِثْرَةِ آلَافٍ أُخْرَى .

وكان له غلام خزريّ ، وللمحسن بن وهب غلام روميّ ، فرآه أبو تمام يوماً يعبث بفلّامه ، فقال له : لئن أعنقت إلى الروم لتركضن إلى الخزر . وذكروا أيضاً أنه كان بفارس عند الحسن بن رجاء ، فمضى إليه خبر تركه الصلاة ، فعاتبه في ذلك ، فقال له :
 « لم أنشط للشخص إلّيك من مدينة السلام ، وأنجشم هذه الطرقات الشاقة ،
 وأكسل عن ركعات لا مثوثة فيها على » . لو كنت أعلم أن لمن صلاها ثواباً وعلى من تركها عقاباً ، فتركه بعد هذا الكفر الصريح ، والتبس له العذر في قوله :
 وَأَحَقُّ الْأَنَامِ أَنْ يَقْضَى الدَّيْنَ أَمْرُؤُكَانَ لِلْإِلَهِ غَرِيماً

وكانت فيه فضائل إلى جانب ذلك منها عزة نفسه ، ولعلها إنما جاءت من طفوره إلى الشهرة ، وسرعة اتصّاله بالخلفاء . وقد ذكروا من حديث هذه العفة والعزة أنه لما قدم خراسان مادحا عبد الله بن طاهر بقصيدته التي يقول في مطلعها :

* هُنَّ عَوَادِي يَوْسُفَ وَصَوَاحِبِهِ *

بلغ من إعجاب عبد الله بن طاهر أن نثر عليه ألف دينار فلم يتحرك لها أبو تمام والتقطها الفلّمان ، فخذ عليه عبد الله حينئذ رضاه عنه ، وأضعف له العطية .
 أما ذكاؤه ، وتوقد قريحته ، وصدق حسه ، وسريع حفظه ، فقد كان في كلِّ

ذلك علماً مشهوراً . قالوا : إنه كان يحفظ أربعة عشر ألف أرجوزة غير القصائد والمقطعات .

ولما أنشد محمد بن عبد الملك الزيات قصيدته التي أولها :
 دِيْمَةٌ سَمَحَةُ الْقِيَادِ سَسْكُوبُ مُسْتَفِيثٌ بِهَا الثَّرَى الْمَكْرُوبُ
 لَوْ سَعَتْ بَقْعَةُ لِإِعْظَامٍ أُخْرَى لَسَى نَحْوَهَا الْمَكَانُ الْجَدِيبُ
 كان بحضرته فيلسوف ، فقال : إن هذا الفتى يموت شاباً ، فقيل له : ومن أين حكمت بذلك ؟ قال : رأيت فيه من الحذّة والذكاء ، والفطنة مع لطافة الحسن ، وجودة الخاطر ما علمت به أن النفس الروحانية تأكل من جسمه كما يأكل المهند من غمده .

ولما أنشده أحمد بن المعتصم قصيدته التي أولها :
 مَا فِي وَقُوفِكَ سَاعَةً مِنْ بَاسٍ تَقْضِي حَقُوقَ الْأَرْبَعِ الْأَدْرَاسِ
 وانتهى إلى قوله فيها :

إِقْدَامُ عَمْرُو فِي سَمَاحَةِ حَاتِمٍ فِي حِلْمٍ أَحْنَفٍ فِي ذِكَاةِ إِيَّاسٍ
 قال له الفيلسوف أبو يوسف الكندي يعقوب بن الصباح وكان حاضراً : الأمير فوق من وصفت ، فاطرق أبو تمام قليلاً ، ثم رفع رأسه وقال :

لَا تُنْكَرُوا ضَرْبِي لَهُ مِنْ دُونِهِ مَثَلًا شَرُودًا فِي النَّدَى وَالْبَاسِ
 فَاللَّهُ قَدْ ضَرَبَ الْأَقْلَ لِنُورِهِ مَثَلًا مِنَ الْمَشْكَاةِ وَالتَّبَرَّاسِ
 فلما أخذت منه القصيدة لم يجدوا فيها هذين البيتين ، فدهشوا بسرعة خاطره ، فقال أبو يوسف هذا الفتى يموت قريباً :

ومن حضور جوابه وسرعة بديهته أنه لما أنشد أبا العميشل :
 * هَنِّ عَوَادِي يَوْسُفَ وَصَوَاحِبِهِ *

قال له : لم لا تقول ما يفهم ؟ قال أبو تمام وأنت لم لا تفهم ما يقال ؟ فعدوا ذلك من بدائمه البليغة .



وقد وضع الرؤساء أبا تمام في منزلة عالية ، وجعلوا له بينهم قدراً معروفاً دونه أقدار الشعراء مهما أجادوا القول ، وبالفوا في الإطراء . وإنما ذلك لأن أبا تمام زاد على الشعراء بصفات النبوغ والكمال العقلي والنفسى ، وهذه إذا تمت في امرئ استحقّ التجارة والإكبار ، لأن الذكاء والخلق الفاضل محترمان ، وصاحبهما مرموق بعين الإعظام مهما انحطّ به الفقر ، أو تدنت به في الناس المنزلة ، ولقد انضمّ إلى ذلك كله في أبي تمام علم غزير ، وإطلاع واسع ، وإحاطة بأخبار العرب ، وعى لكل ما عرف لهم من قول كذلك لا بدّ أن يكون قد تنفّذ بالثقافة الحديثة في عصره (ثقافة الملويم المترجمة التي كان رواجها ، واشتداد الطلب لها في أيام أبي تمام) ، فاجتمعت في نفسه ثقافة عربية إلى أخرى فارسية ويونانية وهندية إلى الذكاء الذي يحسن هضم كل هذا والانتفاع به .

لذلك نرى أبا تمام قد نظر إليه الرؤساء في زمانه نظرة إعجاب ، وسما في تقديرهم . عن زملائه الشعراء الذين يكون منتهى أملهم ، وغاية مطعمهم عطاء يكثر أو يقلّ على حسب منزلتهم في الشعر . فأما أبو تمام فقد استحقّ من العطاء أوفره ، ثم كان ذلك دون قدره ، فولاه الحسن بن وهب بريد الموصل . ولعله لو عمر لترقى في الولايات حتى انتهى إلى الوزارة ، فيكون أوّل شاعر أهل الشعر لأسمى مراتب الحكم بعد الخلافة .

نعم كان أكبرهم الشاعر عطاء يوازي قدرته على الإطراء ، وبلاءه في رفة قدر المدح ، فإذا سمت همته إلى أكثر من ذلك ، وكان له طبع ظريف ، وشماثل مستلحة استحقّ أن يكون ندياً لهؤلاء المدحيين ، وهو في كل هذه المراتب لا يطمع في مساومتهم ، ولا يجروء على أن يخاطبهم خطاب الزملاء ، اللهم إلا شعراء أفذاذ أمثال أبي تمام ، واللتني ،

والشريف الرضى ، فهو لاء كان لهم إلى جانب الشعر غوس عالية ، وأقدار كبيرة ترفعوا بها عن أقدار المداح والندماء .

ومما يدللك على منزلة أبى تمام بين رؤساء زمانه أن مالك بن طوق كان قد غضب على قومه بنى تغلب لإفسادهم فى الأرض وقطعهم الطريق ، فلما خافوا سطوة غضبه لجئوا إلى أبى تمام ، فاستنطقه لهم بقوله :

وَمَضَتْ كَهَوْلُهُمْ وَدَبَّرَ أَمْرَهُمْ أَحْدَثْتُمْ تَذْيِيرَ غَيْرِ صَوَابٍ
لَارِقَةُ الْخَصْرِ اللَّطِيفِ غَدَنُهُمْ وَتَبَاعَدُوا عَنْ فِطْنَةِ الْأَغْرَابِ
فَإِذَا كَشَفْتَهُمْ وَجَدْتُمْ لَدَيْهِمْ كَرَّمَ النُّفُوسِ وَقِلَّةَ الْأَدَابِ
لَكَ فِي رَسُولِ اللَّهِ أَعْظَمُ أُسُوءَةٍ وَأَجَلُهَا فِي سُنَّةٍ وَكِتَابِ
أَعْطَى لِلْوَلَفَةِ الْقُلُوبَ رِضَاهُمْ كَرَّمًا وَزَدَ أَخَاكَ الْأَخْرَابِ

فوقعت القصيدة من مالك أجل وقع وقبل شفاعته أبى تمام .

وأبو تمام هو الذى اشتكى إليه البحترى ضيق الحال ، فجعله بطاقة إلى أهل ممرّة النعمان ، فأغدقوا عليه الخير ، ورتبوا له أربعة آلاف درهم قال البحترى : كان ذلك أول مال أصبته

وانظر إلى أبى تمام يشفع للوائق عند أبيه فى ولاية العهد ، فيقول :

فَأَشْدُدْ بِهِرُونَ الْخِلَافَةَ إِنَّهُ سَكَنُ لَوْحِشْتِهَا وَدَارُ قَرَارِ
وَلَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ ذَلِكَ مِمَّصَّمٌ مَا كُنْتُ تَتْرَكُهُ بَدُونِ سَوَارِ

والفرق بين موقف أبى تمام من المعتصم وموقف مسكين الدارمى من معاوية فى تولية يزيد العهد ، فرق عظيم . فعناية كان يحتاج إلى أن يتكلم الشعراء فى ولاية ابنه للعهد لأنها كانت حدثا جديدا يريد معاوية أن يهيئ له أذهان الناس بمثل قول مسكين .

أما الحال أيام المعتصم فلم تكن بهذه المثابة إذ أن ولاية العهد كانت رسما من رسوم الدولة لا تكبر عليه ، ولا حاجة فيه إلى السنة الشعراء ، فوقف أبى تمام من المعتصم

موقف شفاعة حقة ، ولكنّ مسكيننا مأجور على إذاعة رأى الخليفة فى شعره حتى يهين النفوس لقبوله .

شعر أبى تمام

اجتمعت فى شعر أبى تمام صفات هى :

١ - المعانى الدقيقة ، والتصورات العميقة ، والخيال البعيد ، يحدوه إلى ذلك ذكائه الحاد الذى عرفت شأنه . فقد كان من أجل هذا لا يقنع بتناول المعانى من أطرافها ، وقد يكون من هذه المعانى ما لم يسبق إليه سابق ولا حام حوله حاتم ، وهذا كثير عند أبى تمام

٢ - التماس اللفظ الجزل يتزيد به على الناس ، ويدلّ به على واسع علمه باللغة وإحاطته بكلام العرب .

٣ - القصد إلى تحسين الكلام بأنواع البديع ، ولم يكن أبو تمام صاحب هذا المذهب بل سبقه مسلم بن الوليد وطبقته ، ثم أبو نواس وطبقته ، وهؤلاء لم يحدثوا هذا من عدم ، ولكنهم أطالوا تعمده ، وأداموا انتحاء طريقته ، ولم يكن قبلهم من أبدى هذا القرام ولا التزمه هذا التزام ، بل كان يأتي من الشعراء والكتاب عفواً لما طرأ بلا قصد ولا تعمّد ، وهو واقع فى القرآن ، وكلام الجاهليين والإسلاميين على النحو الذى ذكرناه لك .

وفرق ما بين مسلم وطبقته ومن جاء بعده وبين أبى تمام ، أن هؤلاء لم يكتفوا بهذا مذهب كلّه . ولا تعمّدوه تعمده ، فكان كلامهم حسناً لا عيب فيه وجالاً لا يفضّ نه إلا كثر ، ولكنه عند أبى تمام يستولى على أسلوبه استيلاء ظاهراً ، ويكاد حاول تحقيقه فى كلّ جملة ، ويظهره وإن أبى الظهور فى كلّ فقرة . لذلك كان من

السابقين حسناً دائماً ، لأنه مع تعمله قريب إلى الطبع ما دام لا يلتزم التزاماً ، ولا يكره إكراها . فأما في كلام أبي تمام ، فقد كان فيه جانباً الحسن والقيح ، وسمت الانطباع والتخلف ، وعلامة اليسر والعسر .

هذه الصفات الثلاثة هي أعدة القول في شعر أبي تمام ، وعليها يبنى الحكم له بالإجادة أو التقصير ، والسلامة أو العيب . فإذا اتفق له المعنى الشريف الذي لم يتذله الشعراء والخيال البديع الغريب للزعر . واستقام له اللفظ الجزل الزنان النخم الذي لم يُعرق في البدأة فيجسّو ويغلظ ، ولم تهلهل الحضارة فيفقد روحه ورساتته ، ثم زخرف هذا القول بعد بالبديع الذي لا يُعَصُّ منه ، نجاء حاكياً للطبع ، في حسن الوضع ، ودقة الصنع ، كان الكلام الجامع لهذه المزايا هو غاية كل أديب ، وأمنية كل قائل .

ولأبي تمام قصائد سلت له فيها هذه المقاصد على ما وصفنا ، فكانت بروداً يمانية ، أو ديباجاً خُسرَوانية ، فاستحقت التقدم على كل شعر عربي عرف بالجوذة في قديم وحديث .

وقد ينعكس الحال في هذه المقاصد ، فإذا المعنى الذي يريده أبو تمام شريفاً مصوناً يأتي عويصاً ، أو مستحيلاً ، أو فكرة فيجة غير واضحة للمرى ، ولا ظاهرة الغرض ، وإذا باللفظ الذي طلب له الجزالة والرصانة يخرج بدوياً متعجرفاً ، وإذا الزينة التي طلبها للجمال قد أكثر منها ، ففضت من الحسن وقضت بالاستهجان ، فانظر (وقالك الله السوء) إذا اجتمعت هذه المقامح في كلام (وقد تجتمع في كلام أبي تمام) كيف يكون وقعها في السمع وبعدها عن القضاة ؟ !

ومن هنا رأيناهم يحكمون على أبي تمام حكماً يكاد يكون متناقضاً . قال صاحب الأغاني : « والسليم من شعره النادر شيء لا يتعلق به أحد ، وله أشياء متوسطة ، وأخرى رديئة رذلة جداً » .

وما ذكرناه لك سابقاً هو السبب في أن يكون له الجيد الذي لا يتعلق به أحد
والتوسط المقبول ، والردى الرذل البالغ الغاية في ذلك .

ونستطيع أن ندلك على مواضع من الحسن في كلامه بما نسوقه لك من أخبار في
طيها شعر نال إعجاب جهابذة الكلام وقاد المعاني والألفاظ .

ذكروا أن ابن الزيات كان يقول : أشعر الناس طراً الذي يقول :

وما أبالي وخير القول أصدقه حَفَنْتَ لِي ماء وجهي أَوْحَفْتَ دَمِي

وكان إبراهيم بن العباس الصُّبُولِيُّ يقول : أشعر أهل زماننا الذي يقول :

مَطَرٌ أَبُوكَ أَبُو أَهْلَةٍ وَائِلٌ مَلَأَ الْبَسِيطَةَ عُدَّةً وَعَدِيدًا

نَسَبٌ كَانَ عَلَيْهِ مِنْ شَمْسِ الضُّحَى نُورًا وَمِنْ فَلَقِ الصَّبَاحِ عُمُودًا

ورثوا الأبوة والحظوظ فأصبحوا جمعوا جدودا في العلى وجدودا^(١)

وقدم عُمَارَةُ بْنُ عَقِيلٍ بَغْدَادَ ، فَاجْتَمَعَ النَّاسُ إِلَيْهِ ، وَكُتِبُوا شِعْرُهُ وَشِعْرُ أَبِيهِ ، وَعَرَضُوا
عَلَيْهِ الْأَشْعَارَ ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ : إِنْ هَاهُنَا شَاعِرًا يَزْعُمُ بَعْضُ أَنَّهُ أَشْعَرُ النَّاسِ ، وَيَزْعُمُ
آخَرُونَ غَيْرَ ذَلِكَ ، فَقَالَ أَنَشِدُونِي مِنْ قَوْلِهِ ، فَأَنَشَدُوهُ :

غَدَتْ تَسْتَجِيرُ الدَّمْعَ خَوْفَ نَوَى غَدٍ وَطَادَ قَتَادًا عَنْدهَا كُلُّ مَرْقَدٍ^(٢)

وَأَقْدَمَهَا مِنْ عَمْرَةَ الْمَوْتِ أَنَّهُ صُدُودُ فِرَاقِي لَا صُدُودُ تَعَمُّدٍ

فَأَجْرَى لَهَا الْإِشْفَاقُ دَمْعًا مَوْرَدًا مِنَ الدَّمِ يَجْرِي فَوْقَ خَيْدِ مَوْرَدٍ

هِيَ الْبَدْرُ يُنْقِضُهَا تَوَدُّدٌ وَجْهَهَا إِلَى كُلِّ مَنْ لَاقَتْ وَإِنْ لَمْ تَوَدِّدِ

ثم قطع المنشد إنشاده ، فقال له عُمَارَةُ : زِدْنِي مِنْ هَذَا ، فَوَصَلَ الْإِنْشَادَ ، وَقَالَ :

(١) جدود الأولى : جمع جد ، وهو أب الأب . والثانية جمه : بمعنى الحظ .

(٢) التوى : البعد ، وهو مؤنث . القناد : شجر صلب له شوك كالإبر .

ولكنني لم أخوِ جمعا مؤقرا
ولم تُعطى الأيام نوماً مُسكناً
فُزْتُ به إلا بشلٍ مُبدد^(١)
ألدُّ به إلا ينوم مُسرِّد

فقال عُمارة : لله دره ، لقد تقدّم في هذا المعنى من سبقه إليه على كثرة القول فيه حتى
لقد حجب إلى الاعتراب . هيهه ، فأنشده :

وطول مقام المرء في الحى مُخلّق
فإنّي رأيتُ الشمسَ زيدتُ حبةً
لديبا جتيه فاعترب تتجدد^(٢)
إلى الناس أن لست عليهم بسرّ مد

فقال عُمارة : والله لئن كان الشعر بمجودة اللفظ ، وحسن المعاني ، واطراد المراد ، واتساق
الكلام ، فإن صاحبكم هذا أشعر الناس .

وحدث عبيد الله بن عبد الله بن طاهر قال : لما قدم أبو تمام خراسان اجتمع
الشراء إليه وسألوه أن ينشدهم ، فقال : قد وعدني الأمير أن أنشده غداً وستسمعونني ،
فلما دخل على عبد الله أنشده :

أهن عوادي يوسف وصواحيه
فصراً قدماً أدرك النجج طالبيه^(٣)
فلما بلغ إلى قوله :

وقلّل نأى من خراسان جاشها
فقلّت اطمئني أنصر الرّوض عازبه^(٤)

(١) جمع : مجموع ، والمراد به المال المكتسب . موثر : كثير .

(٢) أخلق اللابس الثوب : أبلاه وذهب بمجده . الديبا جتان : الخدان .

(٣) يروي البيت بلا همز فيكون قد دخله الحزم ، وهو عيب شعري كما يروى به فيخلو من العيب .
ولذلك آثرنا روايته بالهمز . عوادي : جمع حادية ، من عاده عن كذا : بمعنى صرفه .
والاستهزام في البيت للتعريض . والمعنى لاشك أن النساء هن اللاق حاولن صرف يوسف عن
تقاه ، وإذا كان ذلك فاعزم عزماً أكيداً على مخالفتهن حتى تدرك النجج فاعلم سبيل إدراك
النجاح هو تصميم العزم وإمضاء النية (من تعلقنا على كتاب « هبة الأيام ») .

(٤) ويروى نأى . الجأش : القلب أو الصدر . وقولهم فلان رابط الجأش من إضافة اسم الفاعل إلى
مفعوله : أي أن الشجاع لجأته كأنه يربط قلبه بجنه من الطيران ، أو من إضافته إلى فاعله : أي أن
قلبه يربطه فتثبت قدمه فلا يفر (من تعلقنا على كتاب « هبة الأيام ») .

وَرَكِبَ كَأَطْرَافِ الْأَسِنَّةِ عَزَّسُوا عَلَى مِثْلِهَا وَاللَّيْلُ تَسْطُو غِيَابُهَا^(١)
لَأُمْرِ عَلَيْهِمْ أَنْ تَمَّ صُدُورُهُ وَلَيْسَ عَلَيْهِمْ أَنْ تَمَّ عَوَاقِبُهُ^(٢)

صاح الشعراء ما يستحق مثل هذا الشعر غير الأمير أعزه الله ، وقال شاعر منهم يعرف بالرياحي : لي عند الأمير جائزة وعدني بها ، وقد جعلتها لهذا الشاعر جزاء إحسانه ، فقال له عبد الله : بل نضعها لك ونقوم بما يجب علينا له ، فلما فرغ من الإنشاد ثر عليه ألف دينار فتركها ، فالتقطها الغلمان .

وأنشد أبو تمام يوماً أبا دلف العجلي قصيدته :

عَلَى مِثْلِهَا مِنْ أَرْبَعٍ وَمَلَاعِبٍ أَذِيَلَتْ مَصُونَاتُ الدَّمْعِ السَّوَائِبِ^(٣)
فَلَا بَلَّغَ إِلَى قَوْلِهِ :

إِذَا اقْتَضَتْ يَوْمًا تَمِيمٌ يَقْوَسُهَا وَزَادَتْ عَلَى مَا وَطَّدَتْ مِنْ مَنَاقِبِ^(٤)
فَأَتَمَّ بَذَى قَارِ أَمَالَتْ سَيُوفُكُمْ عُرُوشَ الَّذِينَ اشْتَرَوْهُنَّ قَوْسَ حَاجِبِ^(٥)
مَحَاسِنُ مِنْ تَجْدٍ مَتَى تَقَرُّنَا بِهَا مَحَاسِنَ أَقْوَامٍ تَكُنْ كَلِمَايِبِ

فقال أبو دلف : يا معشر ربيعة ، مامدحتُم بمثل هذا الشعر فما عندكم لقائله ؟ فبادروه بمطاردتهم يرمون بها إليه ، فقال أبو دلف : قد قبلها وأعارك لبسها ، وسأنوب عنكم في ثوابه ، ثم أمر له بخمسين ألف درهم وقال : والله ما هي بإزاء استحقاقك وقدرك

(١) التمرس : نزول آخر الليل ، شبه الراكبين بأطراف الأسنة في التفاض ، والمضاء في الزم ، وشبه الإبل بأطراف الأسنة في دقتها وقلبي الراكب عليها وتأذيه بركوبها من نحوها وناله مباشرة عظامها .

(٢) يستعدون صواب ما يرونه ولا يفكرون فيما تأتي به الأقدار .

(٣) أذال الشيء : أتمته واجتله ولم يره حقه .

(٤) يشير بهذا البيت إلى حادث حاجب بن زرارة مع كسرى حين قدم عليه في سنة جدبة وطلب إليه حل ألف بعر برا على أن يعيد إليه قيمتها إذا أسير ، فقال كسرى وما ترهني على ذلك ؟ قال قوسي هذه ، فاستعظم كسرى همته وقيل منه الرهن . ومات حاجب فأحضر بنوه المال إلى كسرى وطلبوا قوس أبيهم فافتخرت تميم بذلك (كتاب هبة الأيام) .

(٥) يقول ابني عجل قوم أبي دلف : إذا كان لتيمن هذه المغفرة فإن لكم الغلبة على كسرى في يوم ذي قار . وهو من أعظم أيام العرب مع الفرس (كتاب هبة الأيام) .

فاعدزنا ، فشكره وقام ليقبل يده لحلف ألا يفعل ، ثم قال له : أنشدني قولك في رثاء محمد ابن حميد الطوسي ، فأنشده :

وما مات حتى مات مَضْرِبُ سيفه من الضرب واعتلت عليه القنأ السم^(١)
وقد كان قَوْتُ الموت سهلاً فردّه إليه الحفاظُ المرُّ والخلقُ الوعر^(٢)
فأثبت في مُسْتَقَرِّ الموت رجلاً وقال لها من تحتِ أخمصك الحشر^(٣)
غدا غُدُوَّةً والحدُّ نَسْجُ رداه فلم ينصرف إلا وأكفاهه الأجرُ
كأن بيني نَبْهَانِ يَوْمَ وفاته نجومُ سماء خَرَّ من بينها البدرُ
يُزَوِّونَ عن نَأْوِ نَعْرَى به المَلَأَ ويبكى عليه البأسُ والجودُ والشعرُ
وأني لهم صَبْرٌ عليه وقد مضى إلى الموت استشهداً هو والصبرُ
ففي كان عَذْبُ الرُّوحِ لامن عَصَا ضَرَّ ولكن كِبَرًا أن يقال به كِبَرُ^(٤)
فَقَى سَلْبَتُهُ الخيلُ وهو حَمَى لها وبرَّته نَارُ الحَرْبِ وهو لها جَمْرُ

(١) استعار أبو تمام موت حد السيف لاثلامه ، وألوجه فيها انعدام الأثر وطلان العمل . أما اعتلال الفناء ، فاما أن يكون مناه أنها تحت عليه الذنوب واتخذت ذلك ذريعة إلى عصيانه والخلاف عليه وما ذنبه عندها إلا كثرة تكليفها الظن . ولما أن يكون مناه إصابتها بالهلة (وعلمتها تلم نصلها وتكسر كموبها) فأصبحت لا تستطيع العمل معه . وهذا المعنى يناسب ما تقدم من موت حد السيف (من تعليقاتنا على كتاب هبة الأيام) .

(٢) الحفاظ : حماة الحقيقة (ما يجب الدفاع عنه) ووصفه بالمرارة لأن في سبيله يتكلم المرء بشدة في بمثابة الطعم المر .

(٣) الأحمس : ما لامسه الأرض من باطن الرجل .

(٤) الفضاضة : الذل . والمعنى أنه كان رقيق الفمائل لين الجانب ، وليس ذلك منه هوأنا وصغر شأن ، ولكنه ترفع منه عن أن يتهم بالكبر . ويرى بعض الفراع لايبث أن لكن نصبت كبرا على أنه اسمها وخبرها مخوف ، والتقدير ولكن كبرا عن أن يقال إنه متكبر ، جله عذب الروح . وقيل إن اسم لكن مخدوف والخبر جملة فعلية ناب عنها المصدر ، والتقدير ولكنه يتكبر كبرا من أن يقال به كبر . ورأى أن لكن أهملت مع عدم تخفيفها فهي عاطفة تليق على تمييز كأنه قال هو عذب الروح لاس جهة الفضاضة والمذلة ولكن من جهة الكبر عن التهمة بالكبر (ملخص من تعليقاتنا على كتاب « هبة الأيام ») .

وقد كانت البيضُ المائيرُ في الوعى
بَوَاتِرَ فَهَى الْآنَ مِنْ بَعْدِهِ بُتْرٌ^(١)
أَمِنْ بَعْدَ طَيِّ الحَادِثَاتِ مُحَمَّدًا
يَكُونُ لِأَنْوَافِ النَّدى أَبَدًا نَشْرُ
إِذَا شَجَرَاتُ الْعُرْفِ جَذَّتْ أَصْوُلُهَا
فَفِي أَى فَرْعٍ يُوجَدُ الْوَرَقُ النَّصْرُ
مَضَى طَاهِرُ الْأَنْوَافِ لَمْ تَبْقَ رَوْضَةٌ
غَدَاةً غَدَا إِلَّا أَشْتَهَتْ أَنَّهَا قَسْبُ
نَوَى فِي الثَّرَى مِنْ كَانَ يَحْيَاهُ الثَّرَى
وَيَقْبُرُ صَرْفَ النَّهْرِ نَاتِلُهُ النَّصْرُ
عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ وَقَفًّا فَإِنِّي
رَأَيْتُ الْكَرِيمَ الْحُرَّ لَيْسَ لَهُ عُمُرُ

فلما أتمَّ إنشادها قال أبو دلف : والله لوددت أنها في ، فقال أبو تمام : بل أئذي
الأمير بنفسى وأهلى وأكون أنا المقدم دونه ، فقال له : إنه لم يمت من رثى بهذا الشعر
أو مثله .

ولما قدم على الحسن بن رجا ، فأشده قصيدته اللامية ، فوصل إلى قوله :

لَا تُنْكِرِي عَطْلَ الْكَرِيمِ مِنَ الْغَى
فَالسَّيْلُ حَرْبُ الْمَكَانِ الْعَالِي^(٢)
وَتَنْظُرِي حَبَّ الرَّاكِبِ يَنْشُهَا
مُحْيِي الْفَرِيضِ إِلَى مُيْمَتِ الْمَالِ^(٣)

قام الحسن على رجله وقال : والله لا أتمتها إلا وأنا قائم ، فقام أبو تمام لقيامه ،
وأتمها بقوله :

لَمَّا بَلَّغْنَا سَاحَةَ الْحَسَنِ اقْصَى
عَنَا تَمَلُّكَ دَوَّلَةِ الْإِحْمالِ
بَسَطَ الرَّجَاءَ لَنَا جِرْعَمَ نَوَائِبِ
كَثُرَتْ بَيْنَ مَصَارِعِ الْأَمَالِ
أَعْلَى عَذَارَى الشَّعْرِ أَنَّ مَهْوَرَهَا
عِنْدَ الْكَرَامِ وَإِنْ رَخُصْنَ غَوَالِ
تَرِدُ الظُّنُونُ بِنَا عَلَى تَصْديْقِهَا
وَيُحْكَمُ الْأَمَالُ فِي الْأُمُوالِ

(١) يروى البواتر، وهي جمع باتر: بمعنى فاطم، والمباير: جمع ميار، وهي صيغة مبالغة من البتر. والمائير: جمع مأثور، وهو السيف الذي شفرته حديد ذكر، أو الذي ثمنته الجن (وهذا من أوامم العرب) أو الذي توارثه الناس لنفسه. بتر: جمع أوتر، وهو في الأصل المقطوع الذنب، والمراد هنا قليل النفع.

(٢) المطل (بالتحريك) : التجرد من الخلق. الحرب : العدو وإن لم يكن محاربا، وهو وصف بالصدر يستوى فيه الله والجمع والذكر والمؤنث .

(٣) الحب نوع من السير . فمن داجه : حملها على بذل أقصى ما عندنا من السير .

أَضْعَى سَمِيَّ أَيْكَ فَيْكَ مُصَدَّقًا بِأَجَلٍ فَائِدَةٍ وَأُضِدَّتِي فَالِ^(١)
 وَرَأَيْتَنِي فَالَتْ نَفْسَكَ سَمِيهَا لِي ثُمَّ جُدْتَ وَمَا انتَظَرْتُ سُؤَالِي
 كَالْفَيْثِ لَيْسَ لَهُ أُرِيدَ نَوَالُهُ أَوْ لَمْ يُرَدْ بُدٌّ مِنَ التَّهْمَالِ
 فتعاقبا وجلسا ، وقال له الحسن : ما أحسن ما جلوت هذه العروس ، فقال : والله
 لو كانت من الحور العين لكان قيامك لها أوفى مهورها . قال محمد بن سعيد وأقام عند
 الحسن شهرين ، فأخذ على يدي عشرة آلاف درهم وأخذ غير ذلك مما لم أعلم به على
 بخل كان في الحسن بن رجاء .

العيوب في شعر أبي تمام

لأبي تمام استعارات خرج بها عن الجادة والتمس فيها أوجه شبه يجتذباها اجتذاباً
 ويعقد بها صلة نافرة ، فمن ذلك قوله :
 جَذَبَتْ نَدَاهُ غُدُوَّةَ السَّبْتِ جَذْبَةً غَرَّ صَرِيحاً بَيْنَ أَيْدِي الْقَصَائِدِ
 وقوله :
 أَنْزَلَتْهُ الْأَيَّامُ عَنْ ظَهْرِهَا مِنْ بَعْدِ إِبْثَاتِ رِجْلِهِ فِي الرِّكَابِ
 وقوله :
 كُلُّو الصَّبْرَ زُرّاً وَاشْرَبُوهُ فَإِنَّكُمْ أَنْزَلْتُمْ بَعِيرَ الظُّلْمِ وَالظُّلْمُ بَارِكُ
 وقوله :
 يَدُ الشَّكْوَى أَتَتْكَ عَلَى الْبَرِيدِ تُمَدُّ بِهَا الْقَصَائِدُ بِالنَّشِيدِ
 تَقْلَبُ بَيْنَهَا أَمَلًا جَدِيدًا تَدْرَعُ حُلَّتِي طَمَعِ جَدِيدِ
 شَكْوَتْ لِي الزَّمَانُ نُحُولَ حَالِي فَأَرْشَدَنِي إِلَى عَهْدِ الْحَمِيدِ

فَجِئْتُكَ رَاكِبًا أَمَلْتُ الْقَوَافِي عَلَى شِقَّةٍ مِنَ الْبَلَدِ الْبَعِيدِ

وقوله :

لَا تَسْقِي مَاءَ الْمَلَامِ فَاثْنِي صَبْ قَدْ اسْتَعَذْتُ مَاءَ بَكَائِي^(١)

وقوله :

هَوَى كَانَ خَلْسًا إِنْ مِنْ أَحْسَنِ الْهَوَى هَوَى جُلَّتْ فِي أَفْنَانِهِ وَهُوَ خَامِلٌ^(٢)

وقوله :

اسْتَنْبَتَ الْقَلْبُ مِنْ لَوَاعَتِهِ شَجَرًا مِنْ الْهُمُومِ فَأَجْنَتْهَا الْوَسَاوِيسَا

وقوله :

لَا يَأْسِفُونَ إِذَا هُوَ سَمِنَتْ لَهْمٌ أَحْسَابُهُمْ أَنْ تُهْزَلَ الْأَعْمَارُ

وقوله :

تَرَى حَبْلَهُ عُرْيَانًا مِنْ كُلِّ غَدَرَةٍ إِذَا نُصِبَتْ تَحْتَ الْحِبَالِ الْحَبَائِلُ

وأنت غنى عن أن تفسر لك وجه التكلف في هذه الاستعارات ، وبعضها إيماد دفع إليه حبه للجناس أو غيره من أنواع البديع ، ففي البيت الأخير لم يجعل الحبل عريان من الغدر إلا ليتم كلامه بالحبال التي تحتها حبال فيجتمع له الجنس الذي أراده .

(١) أورد صاحب كتاب الشكوك هذا البيت وقال إن السكاكي يستهجه لأن الاستعارة التخييلية منفكة عن المكتبة ، وصاحب الإيضاح يمنع الاشكال مستندا إلى أنه يجوز أن يكون شبه اللام بظرف شراب مكروه فيكون استعارة بالكناية وإضافة الماء تخيلية ، أو أنه تشبيه من قبيل لجن الماء قال ووجه التشبه أن اللوم يسكن حرارة الفرام كما أن الماء يسكن غليل الأوام ، وهل ابن الأثير أن بعض الظرفاء من أصحاب أبي تمام لما بلغه البيت المذكور أرسل إليه فارورة وقال ابعث لنا شيئا من ماء اللام فأرسل إليه أبو تمام وقال إذا بعثت إلي ريشة من جناح النمل بعثت إليك . قال العاصمي إن للبيت عملا آخر كنت أظن أني لم أسبق إليه حتى رأيته في التبيان وهو أن يكون ماء اللام من قبيل المشاكلة ولا تظن أن تأخر ذكر ماء البكاء يمنع من المشاكلة لأنهم صرحوا في قوله تعالى - فمنهم من يعصى على بطنه ومنهم من يعصى على رجليه - أن تسمية الزحف على البطن مثيا لمشاكلة ما يبداه له ملخصا .

(٢) الجنس الاختلاس ، الأفياء : جمع فاء ، وهو كل ما كان شمسا فسمخه الظل . الحامل : الذي لا شأن له . والمفنى كان هوى هذه الجليات مختلا لا يدري أمره اللذال والرقباء ، وإن أحسن الهوى هو الذي لا ذكر له ولا شأن يشتهر به بين الناس .

وكذلك قبيح من جناسه قوله :

قَرَّتْ بَرَّانٌ عَيْنُ الدَّهْرِ وَاشْتَرَّتْ بِالْأَشْتَرِّ عِيُونَ الشَّرِّكَ فَاصْطَلَحَا

وقوله :

ذَهَبَتْ بِمَذْهَبِهِ السَّاحَةُ فَالْتَوَتْ فِيهِ الظُّنُونُ أُمُذْهَبُ أَمْ مَذْهَبُ

ومن قبيح طباقه :

إِنَّ الْمُلُوكَ هُمْ كَوَاكِبُنَا الَّتِي تَخْفَى وَتَطْلُعُ أَسْعَدًا وَنُحُوسًا

فانظر إلى الطباق في قوله تخفى وتطلع كيف جره إلى سوء الأدب في جعل الملوك تغور وتخفى ثم وصفها بالنحس ، وهو لفظ تكفى بشاعته في مقام المدح .

وأما إغرابه وتحويله على الألفاظ الخوشية ، فقد كان غراما منه واستظهاراً بعلومه بلغات العرب .

وقصيدته التي يمدح بها عِيَّاشَ بْنَ لَيْعَةَ كلها تقريباً أمثلة لهذه الغرابة ، قال في مطلعها :

أَحْيَا حَشَاشَةَ قَلْبٍ كَانَ مَخْلُوسًا وَرَمَّ بِالصَّبْرِ عَقْلًا كَانَ مَأْلُوسًا^(١)

ومنها :

فَدَقَلْتُ لِمَا أَطْلَحْتُمُ الْأَمْرَ وَأَنْبَعَثُ عَشْوَاءَ تَالِيَةِ غَيْسًا دَهَارِيسًا^(٢)

ومنها :

الْوَارِدِينَ حِيَاضِ الْمَوْتِ مَتَاقَةً ثَابِتًا وَكَرَادِيْسًا كَرَادِيْسًا^(٣)

تَمَوَّكَ قِنْعَاسُ دَهْرٍ حِينَ يَحْزُنُهُ أَمْرٌ يُشَاكُهُ آبَاءُ قِنَاعِيْسًا^(٤)

وبعد ، فإن عيوب أبي تمام كثيرة ، ومرذول شعره شائع في ديوانه ، ومما شبّه حسناته بين إساءاته إلا بجواهر نفيسة قد انتشرت في أرض كاداء وعرة ، فإذا ما أعيا المرء

(١) الخلوس : الملبوس . رم : أصلح . مألوس : مختلط .

(٢) اطلحتم : أظلم . العشواء : ضعفة البصر . القيس : جمع غيساء ، وهي الظلمة . الدهاريس : جمع دهرس (كخفر) وهي الداهية .

(٣) متأفة : ممثلة . ثبا : جماعات . كراديس : جمع كردوسة ، وهي القطعة العظيمة من الخيل .

(٤) نموك : نسوك . القنّاس : شديد منيع من الإبل والرجال . يشاكه : يشاكل ويشابه .

وحفيت قدمه صادف ، وقد أشرف على اليأس جوهرة من تلك الجواهر ، فيعوضه
لقاؤها ما لاقى من عناء ، وعانى من لأواء . وقد يسعد القارى الحظ فيجد القصيدة أو
أوالمقطوعة كلها قد سلمت من العيب ، فيرى نفسه حين يقرأها كأنه في سهل
قد نبت جانباه ، واضطرب بالماء ساحله ، وهذه سلة المتبع لشعر أبى تمام . ولقد
وجب على قارى شعره أن يمثل بقوله :

وَلَمْ تُعْطِنِي الْأَيَّامُ نَوْمًا مُسَكَّنًا أَلَدُّ بِهِ إِلَّا بَنُومٌ مُسَرَّدٌ
أو قوله :

بَصُرْتُ بِالرَّاحَةِ الْكُبْرَى فَلَمْ تَرَهَا تَنَالُ إِلَّا عَلَى جِسْرٍ مِنَ التَّعَبِ
وقبل أن نختم القول فى مساوى أبى تمام نرى لك بعضاً من كلامه الذى صفا لفظه ،
وراق معناه وقربت استعارته ، وحسن أثر البديع فيه ، وذلك قوله فى وصف الروض :

إِنَّ الرِّبْعَ أَثَرُ الزَّمَانِ لَوْ كَانَ ذَا رُوحٍ وَذَا جُنَّانٍ
مُصَوِّرًا فِي صُورَةِ الْإِنْسَانِ لَكَانَ بَسَامًا مِنَ الْفَتَيَانِ
بُورِكَتْ مِنْ وَقْتٍ وَمِنْ أَوَانٍ فَالْأَرْضُ نَشْوَى مِنْ تَرَى نَشْوَانٍ
تُخْتَالُ فِي مُعَوِّفِ الْأَلْوَانِ فِي زَهْرِ كَلْحَدَقِي الرِّوَانِ^(١)
مَنْ قَاعَمَ وَنَاصَعَ وَقَانٍ حَبِيبْتُ مِنْ ذِي فِكْرَةٍ يَقْطَانٍ
رَأَى جُفُونََ زَهْرِ الْأَلْوَانِ فَشَكَّ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ فَانٍ

الأغراض فى شعره

تناول أبو تمام جميع أغراض الشعر من : مدح ، ورثاء ، ووصف ، وغزل ، وحكمة ،
وهجاء ، وزهد ، وعتاب ، ولكنها لم تكن كلها بمثابة واحدة ، فالمدح والثناء أعلى طبقات

(١) يقال برد معوف (كمظلم) إذا كان رقيقاً أو فيه خطوط بيض .

شعره ، وربما كان أشهر الزناء منه بالمديح ، وإن كان في المديح مجالياً بدليل ما حاز من اللها . ونستطيع أن ندلك على حسنة من حسناته ، ومثال من أنثته إجادته اللدح لم يسبق عرضه عليك ، ذلك هو قصيدته التي يمدح بها المعتصم ، وقد فتح عمورية فإنه أعلى فيها من شأن الخليفة ، ونوّه بعمله في إخضاع الكفر وإذلال الشرك ، وقد تناولت القصيدة أغراضاً كثيرة من ذكر عمورية ، وما لها من مناعة ، ووصف لعل النار بها وإظهار للتشفي بما أصابها ، ومدح للخليفة بحسن حياطته للدين ، ومنها قوله :

تدبيرُ معتصمٍ بالله منتقمٍ لله مرتقبٍ في الله مُرتهبٍ
لم يَغْرِ قوماً ولم يَنْهَضْ إلى بَلَدٍ إِلَّا تَقَدَّمَهُ جَيْشٌ مِنَ الرُّعْبِ
لَوْ لَمْ يَقْدِرْ جَحْفَلًا يَوْمَ الْوَعَى لَفَدَا مِنْ نَفْسِهِ وَخَذَهَا فِي جَحْفَلٍ لِحَبِ
خَلِيفَةُ اللَّهِ جَاوَزَى اللَّهُ سَعْيَكَ عَنْ جُرْئُومَةِ الدِّينِ وَالْإِسْلَامِ وَالْحَسْبِ
بَصُرَتْ بِالرَّاحَةِ الْكُبْرَى فَلَمْ تَرَهَا تُنَالُ إِلَّا عَلَى جِسْمٍ مِنَ الْعَصَبِ

وأما رثاؤه فنستطيع أن ندلك على وجه إبداعه فيه وصيرورته أسمى أغراضه وأكثرها جودة ، ذلك أن الزناء جد كله لا يحسن فيه التلاعب بالاستعارات ، ولا الإغماض في الإشارات ، ولا التهادي في التحسين ؛ إذ أن ذلك ينافي اشتغال القلب بالحزن وتأثره بالفجعة ، وأبو تمام إذا سلم من هذه السقطات كان شعره في أرق المنازل ، فهذا في رأينا هو فرق ما بين مديحه ورثائه ، يبيع لنفسه في الأول أن يسرف وأن يشتغل بما يسميه تجويداً أو تقيقاً فيسلم له بعض ويشؤه بعض .

وقد مرّت بك أبيات من رثائه لحمد بن حميد الطوسي ، وأول القصيدة :

كَذَا فَلْيَجْلِ الْخَطْبُ وَلْيَفْدَحِ الْأَمْرُ فَلَيْسَ لِعَيْنٍ لَمْ يَقِضْ مَاؤُهَا عُذْرُ

والدلك له فيه قصيدة يقول عنها صاحب العمدة : إن مطلعها خير مطلع في مرثي المولدين وهو :

أَصَمَّ بِكَ النَّاعِي وَإِنْ كَانَ أَمَمًا وَأَصْبَحَ مَعْنَى الْجُودِ بَعْدَكَ بَلَمًا

ومنها :

فلم أرَ يوماً كان أشبه ساعةً بيومٍ من اليوم الذي فيه ودَّعَا
مَصِيفُ أَفَاضِ الْحَزْنِ فِيهِ جَدَاوِلَا من النِّمْعِ حَتَّى خِلْتُهُ صَارَ مَرَمَا
وَوَاللَّهِ لَا تَقْضِي الْعِیُونَ الَّذِي لَهُ عَلَيْهَا وَلَوْ صَارَتْ مَعَ النَّعْمِ أَدْمَعَا
فَقَى كَانَ شَرِبًا لِلْعُقَاةِ وَمَرَمَا فَأَصْبَحَ لِلْهِنْدِيَّةِ الْبَيْضِ مَرَمَا
فَقَى كَلِمَا ارْتَادَ الشُّجَاعُ مِنَ الرَّدَى مَقَرًّا غَدَاةَ الْمَازِي ارْتَادَ مَصْرَعَا
إِذَا سَاءَ يَوْمٌ فِي الْكَرْيَةِ مَنْظَرَا نَصَلَاهُ عَلِمَا أَنَّ سَيَحْسُنُ مَسْمَعَا
فَإِنْ تَرَمَّ عَنْ غُمٍّ تَدَانَى بِهِ لِلْدَى فَهَانَكَ حَتَّى لَمْ يَجِدْ فِيهِ مَنَزَعَا
فَمَا كُنْتُ إِلَّا السِّيفُ لَاقَى ضَرْبَةً قَطَعَهَا ثُمَّ انْتَهَى فَتَقَطَعَا

وأما الوصف فأظهر ما أطال في وصفه هو الربيع ، فله فيه قصائد أقام فيها وصفه مقام
النسب ، ومنها قصيدته التي يمدح بها المتصم بعد وصف طويل للربيع وأنواره ، وهي
التي مطلعها :

رَقَّتْ حَوَاشِي الدَّهْرِ فَهِيَ تَمَرُّمُرٌ وَغَدَا الثَّرَى فِي حَلِيهِ يَتَكَسَّرُ^(١)
تَزَلَّتْ مُقَدَّمَةُ الْمَصِيفِ حَمِيدَةً وَيَدُ الشِّتَاءِ جَدِيدَةً لَا تُكْفَرُ^(٢)
لَوْلَا الَّذِي غَرَسَ الشِّتَاءَ بِكَفِهِ لَاقَى الْمَصِيفُ هَشَانًا لَا تُثْمِرُ^(٣)

ومنها قوله :

يَا صَاحِبِي تَقْصِّ يَا نَظْرِيكَا تَرَيَا وَجْهَ الْأَرْضِ كَيْفَ تَصَوَّرُ
تَرَيَا نَهَارًا مُشِيسًا قَدْ شَابَهُ زَهْرُ الرُّبَا فَكُنَّا هُوَ مُقَمَّرُ^(٤)
دُنْيَا مَعَاشٍ لَلْفَتَى حَتَّى إِذَا حَلَّ الرَّبِيعُ فَأَتَانَا هِيَ مَنْظَرُ

- (١) تمرمر : تموج يشوج . الثرى التراب . يتكسر : يثني ، والمراد بجلى الثرى نباته .
(٢) مقدمة المصيف : هي ما يسبقه ، وهو الربيع ، وحده يد الشتاء لأنه ندى الأرض حتى نبت النبات .
(٣) الهشام : جمع هشيمة ، وهي الشجرة اليابسة .
(٤) يريد أن خضرة النبات كسرت من ضوء الشمس حتى صار ضوءها هادئاً ضعيفاً كضوء القمر .

أَصَحَّتْ تَصَوُّغُ بَطُونِهَا لظهورها تَوَرَّا تَكَادُ لَهُ الْقُلُوبُ تَنَوَّرُ

ومنها في التخلّص إلى اللدح وقد أبدع ما شاء :

خُلِقَ أَطْلٌ مِنَ الرَّبِيعِ كَأَنَّهُ خُلِقَ الْإِمَامُ وَهَدْيُهُ الْمُتَنَبِّهُ
فِي الْأَرْضِ مِنْ عَدْلِ الْإِمَامِ وَجُودِهِ وَمِنَ النَّبَاتِ الْقَضَّ سُرْجٌ تَزْهَرُ^(١)



وأما الحكمة في شعره فقد كثرت حتى قيل في الموازنة بينه وبين البحترى
والتنبي : أبو تمام والتنبي حكيان ، والشاعر البحترى .

ولكن الذى ينبغى أن نعلمه أن الحكمة ليست بمثابة واحدة عند أبى تمام والتنبي ،
فهى من ناحية الكم قليلة عند أبى تمام غزيرة عند المتنبي ، وهى من ناحية النوع قريبة
بسيطة عند الأول عميقة مركبة عند الثانى ، ومرجع ذلك أن مصدر الحكمة عندهما هو
العلوم المترجمة . وقد كانت أيام أبى تمام فى بدء حياتها عند العرب لم تكن نضجت
ولا شاعت بينهم ، أما فى أيام المتنبي ، فقد كان لطول العهد بها أثر فى تداولها وتواصلها
فى النفوس ، لذلك إذا رأيت أبا تمام يلمّ بها إلماماً ، ويتناولها من أطرافها تجسد المتنبي
يحكيها حكاية الدارس المثبت ، وينقلها نقل الحافظ الواعى حتى لقد قالوا : إنه عمل
على قلحكم أرسطو كلها فى شعره ، فوزعها فيه بالمناسبات التى صحت لها ، لكن حكمة
أبى تمام لم تكن نقلاً ، ولا جكاية لحكمة اليونان أو غيرهم ، وإنما كانت أثر الثقافة
العامة التى استفادها من الاطلاع على علوم هذه الأمم .

وناحية أخرى من الفرق بين حكمة هذين الشاعرين أنك تجد المتنبي يأتى بها فى
الغالب مستقلة بنفسها غنية عما قبلها فى إفادة تصلح للاستشهاد وتستقلّ بالإنشاد .
أما حكمة أبى تمام فهى فى الغالب إنما سميت مرتبطة بالمعنى الذى اتصلت به ووردت

(١) سرج (بالضم) مخفف سرج بضمين جمع سراج ، تزهى (كفتح) تتلأأ .

بمناسبتة ، ولم تمنح من ألفاظ العموم ما يجعلها تستقل بوجودها ، وذلك كله يمثل
بساطتها في نفس قائلها كما يمثل ورودها على لسان الثاني أنها معنى متكامل اختير له لفظ
مستقل ، وجملة القول أن حكمة أبي تمام في الغالب جزء من البيت ، أما حكمة المتنبي فبيت
مستقل ، هذا إلى كون الأولى أقرب إلى الخصوص ، والثانية أظهر في العموم .

ومن أمثلة حكمه قوله :

مالت وقد أعلقت كفى كفها حلاً (وما كلّ الحلال يطيب)

وقوله :

المجد شيمته وفيه فكاكة ستمح (ولا جد لمن لا يتعب)

وقوله :

تعب الخلاق والتوال (ولم يكن بالمسترخ العريض من لم يتعب)

وقوله :

لومرت لانتقت الضلوع على أسي كيف قليل السلم للأحشاء
ولجف نوار القريض (وقلنا يلقى بقاء الغرس بعد الماء)

وقوله :

وضميرة فإذا أصابت فرصة قتلت (كذلك قدرة الضميرة)

وقوله :

ذري وأهوال الزمان أعانها (فأهواله العظمى تكفي رعايتها)

وقوله :

لما أطال ارتجال التذلل قلت له (العزم يثني خطوب الدهر لا الخطب)

وقيل في كلامه تلك الحكم المستقلة مثل قوله :

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

وقوله :

إن الأسود أسود الغاب عنها يوم الكربة في السلوب لا الساب

وقوله :

ومن لم يُسَلِّمَ للنوائب أصبحت خلائقه طُرّاً عليه نوائباً

وقوله :

قد يُنْعِمُ اللهُ بالبلوى وإنَّ عَظُمْتَ وَيَتَلَيَّ اللهُ بَعْضَ القومِ بالنِّعمِ
أما الحكم في كلام المتنبي ، فهي كما وصفنا كثيرة الكم عميقة الفكرة غالبية الاستقلال
بعبارتها وأمثلتها كثيرة لانطيل بذكرها ، فهي منك بمراى ومسمع في كل حين .

وأما الغزل في شعره فلا يدل على طبع ولا يعبر عن وجدان ، فهو في نظرنا غزل
صناعى يجيى به أبو تمام ليقم عمود القصيدة لا يعبر فيه عن لوعة ، ولا يذرف به
دمعة ، وظننا أنه لو كان أبو تمام عاشقاً مدلهماً ومحباً مدقاً ما استطاع بمذهبه الذى
اختاره لنفسه وأسلوبه الذى عكف عليه أن يأتى بحسن في هذا الباب ، لأن الرجل
عميق في معانيه ، غريب في مبادئه ، وليس شيء من ذلك صالحاً في باب الغزل ،
فالغزل يجيده شاعر كالأبي نواس أو أبى العتاهية لما فيها من سهولة وطبع مقارب
ومعان متداولة ، ألم ترى إلى الفرزدق وقد كان فاسقاً فانتكا لم يكن غزلاً لجسادة لفظه
ورجاجة معانيه ؛ فأما جرير وهو معاصره ومعاشره فقد دان له الغزل لما ملك من طبعه
وسهولة لفظه وقرب معانيه ما لم يملك الفرزدق ، فهكذا الشأن في أبى تمام والمتنبي شغلا
بالحكمة والمعنى الفائق ، واللفظ الجزل ، فلم يسلس لهما قياد الغزل لأنهما لا يمكن أن لا يتنهيا .

ومن غزله الحسن في صناعته قوله :

أَرَامَةً كُنْتُ مَأْلِفَ كُلِّ رَجِيمٍ	لو استمتعتِ بالأنسِ المُقيمِ
أَدَارَ البُوسِ حَسَنَكَ التَّصَانِي	إِلَى فَصْرَتِ جَنَاتِ النَّعِيمِ
لَئِنْ أَصْبَحْتَ مَيْدَانَ السَّوَابِي	أَقْدَ أَصْبَحْتَ مَيْدَانَ الهُمُومِ
وَمَا صَرَّمِ الْبَرْحَاءُ أُنًى	شَكَوْتُ فَمَا شَكَوْتُ إِلَى رَجِيمِ
أَظُنُّ الدَّمْعَ فِي خَدَّيْ سَيَبْقَى	رُسُومًا مِنْ بَكَائِي فِي الرُّسُومِ
وَلَيْلٍ بَثَّ أَكَلُوهُ كَأَنِّي	سَلِيمٌ أَوْ سَهْرَتٌ عَلَى سَلِيمِ

وقوله :

ما في وقوفك ساعةً من باسٍ تقضي ذِمَامَ الأَرْبَعِ الأَدْرَاسِ
فلعلَّ عَيْنَكَ أَنْ تُعَيِّنَ بِمَا هُيَا والسمعُ منه خاذلٌ ومُوَاسِ
لا يُسَعِدُ المشتاقَ وَسَنَانُ الهوى يَبْسُ المَدَامِيعِ باردُ الأَنْفَاسِ
إِنَّ المَنَازِلَ سَاوَرَتْهَا فُرُوقَةٌ أَخَلَّتْ من الآرَامِ كُلَّ كِنَاسِ

ومما صحح من غزله قوله :

يا شادنا صَبِغَ من الشَّمْسِ تَهٍ بِالْمَلَأَحَاتِ عَلَى الْإِنْسِ
في كلِّ يومٍ أَنْتَ في صُورَةٍ غَيْرِ الَّتِي كُنْتُ بِهَا أَشْسِ
تَزْدَادُ طَيِّبًا كُلَّ يَوْمٍ كَمَا يَزْدَادُ غُصْنُ الْبَانِ فِي الْقَرْصِ
واللهُ لَوْلَا اللهُ لَا غَيْرُهُ وخوفُ النارِ عَلَى نَفْسِي
صَلَّيْتُ خَمْسًا لَكَ مِنْ هَيِّةٍ وَزِدْتُ ثَلَاثِينَ عَلَى الْخَمْسِ

فانظر إلى روحه الثبيلة في الخلف بالله وتأكيد ذلك بقوله لاغيره ، ثم خوفه على نفسه من النار ، والحب في سبيل حبه يستهين بكل شيء ، ثم انظر إلى مشاركته الكفر في سبيل غزله حين نوى أن يصلي لمحبوبه خمساً أو سبعاً .

وانظر إلى أسلوبه الذي لم يمهّد في غزل قبله ، وهو قوله :

أَزَعَمْتُ أَنْ الطَّبِيَّ يَحْكِي طَرْفَهُ وَالْقُصْنَ حِينَ يَجُولُ فِيهِ مَآؤُهُ
اسْكُتْ فَإِنْ ضِيَائُهُ وَبَهَاؤُهُ وَذَكَؤُهُ وَوَفَاؤُهُ وَحِيَاؤُهُ

وفي لفظ اسكت ما فيه مما يجافي رقة الغزل وعذوبة ألفاظه ، ولين خطابه ، وفي وصف المحبوب بالوفاء مخالفة لما جرى عليه العشاق من اتهامه بالقدر والخلف .

وانظر إلى قوله في قسوة محبوبه :

لَكِنَّمَا أَشْكُو إِلَى حَجَرٍ تَنْبُو لِلْمَاوِلِ عَنْهُ أَوْ أَمْسِي

ويكفي من سوء الأدب في الحب أن يجعل محبوبه حجراً أو أقسى من الحجر .

وبقية أغراض شعره لا نعلق عليها بقول ، إلا أنه في الهجاء كان مُعَلِّباً ، وليس

انهزام الشاعر في هذا الباب إلا دليلاً على سلامة نفسه ، وبعد المهجر من لسانه ، وعدم تسلط الشر والغضب على طبعه ، لذلك يقول ابن رشيق في العمدة : إنه من المغلبين ، وقد هاجى ابن السراج وعُتِبَ فما أتى بشئ .

آثار أبي تمام

لعلّ أبا تمام أول شاعر تناول التأليف ، ولكن خصوصيته في تحصيل شعر العرب جاهلية وإسلاماً هي التي جعلته يخرج لنا ديوان الحماسة الذي رتبته على عشرة أبواب هي : الحماسة ، والمراني ، والأدب ، والتشبيب ، والهجاء ، والإضافات ، والصفات والسير ، والملح ، ومذمة النساء . وقد كثر شرحه ، فشرحه الخطيب التبريزي التوفي سنة ٥٠٢ هـ ، وهو مطبوع أربعة أجزاء كبار ، وهو أكبر شروحه ، وله شروح أخرى للرمزوقي ، وأبي العلاء المعري ، وابن جني ، ومنها نسخ خطية بدار الكتب الملكية .

وقد شرحه أخيراً الأستاذ اللغوي الشيخ سيد بن علي الرصني في كتاب سماه : « أسرار الحماسة » ، وقد رأى أن يغير نظامه ، ويرتب أبوابه ترتيباً آخر .

وقد ترجم ديوان الحماسة إلى الألمانية « فريدريك روكرت » . ولأبي تمام حماسة أخرى تسمى كتاب « الوَحْشِيَّات » ، وهي إحدى الكتب النادرة التي أحضرها أحمد زكي باشا لتطبع بمصر ، ولم يطبع للآن .

وقد ذكروا أن السبب في تأليفه هذين السكتين وثلاثة غيرها في الشعر أيضاً أنه نزل ضيفاً على صاحب له بهمدان اسمه ابن سلمة ، فلما هم بالرحيل كان قد وقع ثلج قطع الطريق على السابلة ، فضمّ أبو تمام وفرح صديقه ، وقال له : « وطن نفسك على أن الثلج لا ينحسر إلا بعد زمان » ، ثم شغلته بجزالة كتبه ، فألف في مدّة بقائه عنده هذه الكتب .

ومن آثاره ديوانه الذي جمعه أبو بكر الصولي المتوفى سنة ٣٣٥ هـ ورتبه على

حروف المعجم ثم جمعه على بن الأصمبأكنى ورتبه على الأنواع ، وله شروح كثيرة ، منها : شرح الصولى ، وشرح التبريزى ، ومن كل منهما نسخة خطية بالمكتبة الملكية .
وهو مطبوع بمصر والشام بشرح لا قيمة له وضبط غير صحيح فى الغالب ، ويحتاج ديوان أبى تمام لخدمة حتى يسهل الانتفاع به .

حياة البحرى

[نسبه] : هو الوليد بن عُبيد الله . ينتهى نسبه إلى بُحتر ، ثم إلى طيى ، ثم إلى قحطان . وهو عربى صميم لأن أمه كما ذكر فى شعره عربية كذلك ، قال :
بنى ناهل مهلاً فإن ابن أختكم له عز مات هزل أراها جد
وقد كان البحرى يفخر بأبائه ، فمن ذلك قوله :

وإذا ما عددت يحيى وعمرأ وأبائنا وعامراً والوليداً
وعبيداً ومُسهرراً وجُدَيْدًا وتَدُولاً ومُحْتَرّاً وعَتُوداً
لم أَدع من مناقب المجد ما يُقْصَع من هم أن يكون مجيداً
ذهبت طيى بسابقة المجد على العالمين بأساً وجوداً

نشأته وتصرفه

ولد بمدينة منبج سنة ٢٠٦ هـ ، وهى بين حلب والقرات ، وكان يضرب على شواطئ القرات كثير من قبائل طيى ، فكان يختلف إليهم ، فنشأ عربى اللهجة كما هو عربى النسب .

ومنبج التى كانت منشأه ، وحلب التى كان يتردد عليها ، والصقع كله الذى كان

(١) وقد استطعنا أخيراً أن نخدم شعر أبى تمام بما أحدثناه من إحياء لكتاب « حبة الأيلام » وتعليق عليه .

مستتراده ومذهبه ، ومراحه ومغذاه ، كل ذلك كان له في نفسه منزلة كبيرة فلم يفتر عن
ترديد ذكر هذه البلاد في شعره بعد أن صار إلى العراق ومدح الخلفاء ونادمهم .
وإنك لتظفر بأسباب تعلقه بموطنه الأول مما رددته في شعره من الحنين إليه ،
ومرجع ذلك إلى حسن الهواء ، وطيب الماء ، وفننة الطبيعة ، وما كان له فيه من
هوى يجذبه إليه إذ عشق عُلوة بنت زُرعة الحَلْبِيَّة ، ولعلها كانت الحبيب الأول ، فإنه
لم يفتر عن ذكرها ، والنسيب بها في قصائده التي مدح بها المتوكل وغيره ، ثم يظهر أنه
كان يعيش بمنجى في عزة من قومه ، وشرف قديم لبيته ، وتلك أسباب لا يتعدّل
الوطن معها شيء .

فأما فتنته بجمال بلاده ، فيدل عليها قوله :

حَنَنْتُ رَكَابِي بِالْعِرَاقِ وَشَاقِي فِي نَاجِرٍ بَرْدُ الشَّامِ وَرَيْفُهَا^(١)

وقوله :

ذَكَرْتُنَا بَرْدَ الشَّامِ وَعَيْشَنَا بَيْنَ التِّقَابِ الْبَيْضِ وَالْهَضْبَاتِ

وأما ما يدل على أن الشام مسكن هواه ، فقوله :

وَقَدْ حَاوَلْتُ أَنْ تَحْدَ الْمَطَايَا إِلَى حَيٍّ عَلَى حَلَبٍ حُلُولٍ^(٢)

وَلَوْ أَنِّي مَلَكَتُ إِلَيْكَ عَزْمِي وَصَلْتُ النَّصَّ فِيهَا بِالذَّمِّيلِ^(٣)

وقوله :

جَبَوْتُ الشَّامَ مُرْتَبِعِي وَأُنْسِي وَعُلُوَّةُ جُلِّي وَهَوَى فُؤَادِي^(٤)

وأما كرم محبته وعراقة مجده ففي قوله :

جَدَى الَّذِي رَفَعَ الْأَذَانَ بِمَنْبَجٍ وَأَقَامَ فِيهَا قَبِيلَةَ الصَّالِاتِ

(١) ناجر : رجب أو صفر وكل شهر من شهور الصيف .

(٢) وخد البعير (كوعد) : أسرع .

(٣) النص : استخراج أقصى ما عند الدابة من السير . الذمیل : السير اللين .

(٤) الحلة : الصديق ، الذكر والأنثى والواحد والجمع .

والحق أن للخيال الشعري والدعوى الكاذبة من الشعراء أثراً في بعض تلك الحقائق التي أحب البحترى أن يلزمنا الاعتراف بها ، فقد أَرَأَا أَنَّهُ كَانَ فِي بِلَادِهِ فِي أَرْغَدٍ عَيْشٍ وَأَكْرَمٍ مَنْزِلَةٍ حَتَّى لَقَدْ جَعَلَ ذَلِكَ تَضَرُّبَ الْمَثَلِ فِي قَوْلِهِ لِأَبِي نَهْشَلٍ مَادِحًا شَاكِرًا :

لَا أَنْسَيْنَ زَمَنًا لَدَيْكَ مُهَذَّبًا وظلال عيش كان عندك سَجَسَجٌ ^(١)
فِي نِعْمَةٍ أَوْطِنْتُهَا فَأَقْتُ فِي أَفْيَئِهَا فَكَأَنِّي فِي مَنْبِجٍ
وَيَقُولُ فِي قَصِيدَتِهِ فِي وَصْفِ إِيوَانَ كَسْرَى :

وَاشْتَرَأْتُ الْعِرَاقَ خُطَّةً عَيْنٍ بعد يبعي الشَّامَ بَيْعَةً وَكَسْرٍ ^(٢)

وليس أحد يعقل أن البحترى كان في منبج في أرفه من عيشه بالعراق ، وقد أقتنى المال الكثير وصار يركب في جملة من عبيده ، واتخذ قهارمة وكتائب ، وخلف لأبنائه ثروة جعلتهم إلى زمن بعيد من الرؤساء والسادة المذكورين . هل يعقل أن يكون شأن البحترى في منبج كما وصف ؟ وقد ذكر أنه كان ينتقل في أسواقها ويمدح باعة الباذنجان والبصل . فهب أن انطباعه على قول الشعر جعله يتحدر من فمه ، ولكن الشرف وسمو المكانة كما يزعم كان جديراً أن يجعل موضوع شعره شيئاً غير مدح الباعة ، وهل يمدحهم إلا من يطمع في شيء من دراهمهم أو مما يبيعونه غالباً ؟ .

وإذا قيس القائب بالشاهد حكمتنا بأن علوة هذه عروس من عرائس الشعر لم يدع البحترى عشقها إلا ليصنع خياله بلون الحقيقة حتى يستطرح سامعوه ، ولعل صبايته بها ، وتحرقه عليها كأنها كصبايته بقلامه نسيم الذي باعه يوماً فاشتراه إبراهيم بن الحسن ابن سهل ، فأكثر البحترى من الأسف عليه ، وإظهار الهمّة ، والحسرة على فقدته

(١) يوم سَجَسَج : لا حر ولا قر .

(٢) وكس الرجل في تجارته كأوكس (مبيعين للجهول ، كوكس (كوعد) : لم يرجع فيها .

حتى رده إليه إشفافاً عليه ، ثم باعه فأعاد السيرة وهكذا ، فجعل من كذب غرامه
بفلامه وسيلة للحصول على المال .



سمع البحتري بشاعر عظيم القدر نابه الشأن أدخل شعراء عصره ، وحرمهم العطاء
طول مدته ، ذلك هو أبو تمام الطائي ، وقد كان يحمص دخلها في جولة من جولاته
التي ذرع بها المملكة الإسلامية شرقاً وغرباً ، فقصده ليعرض عليه شعره في جملة
الشعراء الذين جملوا من أبي تمام حكماً يرجعون إليه كما كان النابغة الذبياني بين أهل
الجاهلية ، فلما سمع أبو تمام من البحتري أقبل عليه من بيت سائر من حضر ، فلما
تفرقوا عنه قال له : أنت أشعر من أنشدني ، فكيف حالك ؟ فشكا إليه الخلة ،
فكتب إلى أهل مرة النعمان^(١) (يصل كتابي هذا على يد الوليد بن عبيد الطائي وهو
على بذذاته^(٢) شاعر فأكرموه) ، وسلمه البطاقة ، وأمره أن يمدحهم ، فأكرموه
بهذه الوصية ، ووظفوا له أربعة آلاف درهم ، فكان ذلك أول مال أصابه البحتري
كما يقول :

وقد ذكر صاحب الأغاني راوى هذا الحديث حديثاً آخر في أول اجتماع كان بين
أبي تمام والبحتري . قال محدثنا عن لسان البحتري : أول ما رأيت أبا تمام أني دخلت
على أبي سعيد محمد بن يوسف ، وقد مدحته بقصيدتي :

أَفَأَقَوَّ صَبَّ مِنْ هَوَى فَأَفِيقًا أَوْ خَانَ عَهْدًا أَوْ أَطَاعَ شَفِيقًا

فسر بها أبو سعيد ، وكان في مجلسه رجل نبيل رفيع المجلس تكاد تمس ركبته ركة

(١) مرة النعمان : بلد بين حلب وحماة . والنعمان الذي أضيفت إليه هو النعمان بن بشير اجتاز بها

فدفن بها ولذا فأضيفت إليه .

(٢) بذ (كلم) بذاعة وبذوذة : سامت حاله .

أبي سعيد ، فقال يافى أما تستحي منى ؟ هذا شعري ، وإنما تتحلله وتنشده بحضرتي
قال أبو سعيد : أحقا ؟ قال : نعم ، ثم اندفع فأنشده أكثر القصيدة حتى شككتني في
نفسى ، فجعلت أحلف له بكل محرقة من الأيمان أن الشعر لى ماسبقنى إليه أحد ، ولا
سمته منه ، ولا انتحلته ، فلم ينفع ذلك شيئا ، فأطرق أبو سعيد ، وفطع^(١) بى حتى
نميت أنى سخط فى الأرض ، فقامت أجرة رجل فها هو إلا أن بلغت الباب حتى خرج
لعلمان فردونى ، فأقبل على الرجل فقال : الشعر لك يابنى ، والله ماقلته قط ، ولا
سمته إلا منك . قال : ثم دعانى (أبو تمام) ، وضمنى إليه ، وعاقبنى ، وأقبل
قرظى ، ولزمته بعد ذلك ، وأخذت عنه ، واقتديت به .

ونحن نميل إلى ترجيح الرواية الأولى ، فإن كل ما أحاط بها يناسب حالة التليذ
مع أستاذة ، والناتش فى الفن مع المنتهى فيه ، فأما أن يكون البحترى قد أنشد
فصرة أبى تمام شعرا عاليا كقصيدته التى يمدح بها أبا سعيد حتى يبلغ من حسد
بى تمام له أن يدعى الشعر لنفسه ، ثم يقال بعد ذلك إن البحترى لزم أبا تمام ،
أخذ عنه ، فذلك مالا يقبله عقل ، ولا يليق بفهم .



لما نبه شأن البحترى فى الشعر وهو بمنهج وما حولها تحركت همته لقصد العراق
أن كل نابغ فى فنه بقصد مقر الخلافة وموطن الأمراء ، والعظماء من الوزراء والقواد ،
يث المال تقيض به الخزان وتنثر منه البدر على المجيدين ، فدخل بغداد وسر من رأى
مدح الكبراء ، فلما عرف بينهم طمع أن يكون له عند الخليفة جاه فالتمس الوسيلة إلى
لك بمدح وزيره الفتح بن خاقان . قال فيه شعرا وطلب الإذن عليه فأقام شهرا
يصل إليه حتى جلس مجلسا عاما فأدخل البحترى عليه فسمع منه وجعل كما يقول

(يقال فطع (كفرح) بالأمر : ضاق به ذرعا ، والمراد هنا أن أبا سعيد ضاق بالبحترى وصار
غير مطيق له لما ظهر له من انتحاله شعر أبى تمام .

البحترى يتسم عند كل بيت جيد ، قال فعلت أنه يعرف الشر وكان ذلك أعجب من جميع ما وصلني به ، وكان أول ما اهتز له قولي :

وَقَدْ قُلْتُ لِلْمُعَلِّي إِلَى الْمَجْدِ طَرَفُهُ دَعِ الْمَجْدَ فَالْفَتْحُ بْنُ خَلْقَانَ شَاغِلُهُ
صَفَتْ مِثْلَ مَا تَصِفُو الْمَدَامُ خِلَالَهُ وَرَقَّتْ كَمَا رَقَّ النِّسِيمُ شِمَائِلُهُ

ثم إنه أمر له بخمسة آلاف درهم وقال له : أمير المؤمنين يخرج لصلاة الفطر ويخطب فاعمل شعراً تنشده إياه إذا رجع . ففعل البحترى ما أمره به الفتح ثم دخل على المتوكل فأنشده :

أَبْرَءَ عَلَى الْأَنْوَاءِ نَائِلُكَ الْقَمَرُ وَبِنْتَ بِفَخْرٍ مَا يُشَاكِلُهُ فَخْصَرُ^(١)
وَأَنْتَ (أَمِينَ اللَّهِ) فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي أَبِي اللَّهِ أَنْ يَسْمُوَ إِلَى قَدْرِهِ قَدْرُ
تَحَسَّنْتَ الدُّنْيَا بَعْدَكَ فَاغْتَدْتَ وَأَافَقَهَا بَيْضٌ وَأَكْنَفَهَا خُضْرُ^(٢)

ومنها في ذكر سيره إلى المصلى وخطبته :

وَسِرْتُ بِمَلِكٍ قَاهِرٍ وَجَلَالَةٍ وَمَا لَكَ زَهْوٍ بَيْنَ دَيْنٍ وَلَا كِبَرٍ
عَلَيْكَ ثِيَابُ الْمَصْطَفَى وَوَقَارُهُ وَأَنْتَ بِهِ أَوْلَى إِذَا حَصْحَصَ الْأَمْرُ^(٣)

فأمر له المتوكل بمشرة آلاف درهم .

وما زال البحترى مختصماً بالفتح حتى صار صاحب شفاعته ، وما زال الفتح يكرمه حتى صيره من جلساء المتوكل .

(١) أبر : زاد ، الأنواء : جمع نوء . وهو سقوط نجم وظهور آخر ، وكانوا يستدلون به على الطر فأطلق وأريد به الطر نفسه تجوزاً . القمر : الكثير . بنت : تميزت .

(٢) المراد بيباض الآفاق واختصار الأكثاف كثرة الخصب . فإن الآفاق تبيض بالسحاب المتراكم والأكثاف تخضر بالزرع النابت .

(٣) حصص : بأن وظهر .

منادمة البحرى للمتوكل

بمساعى الفتح صار البحرى نديماً للمتوكل يحضر مجالسه التى يتبدل فيها خلاصته،
ولعل ما كان فى البحرى من إعجاب بشعره وحركات شاذة فى إنشاده، كلها يثير
الضحك ويبعث على العبث به، لعل ذلك من أسباب قبوله لمنادمة المتوكل إلى جانب
الشعر الذى يحتاج إليه هذه المجالس فى إجازة بيت أو وصف كأس أو رواية خبر
أو غير ذلك :

ذكروا أن البحرى كان من أبفض الناس إنشاداً، كان يتزاور فى مشيته
ويهرز رأسه ومنكبىه ويشير بكفه ويقف عند كل بيت ويقول أحسنت والله، ثم يقبل
على السامعين فيقول ما لكم لا تقولون أحسنت؟ هذا والله ما لا يحسن أحد أن يقوله .
وقد فعل شيئاً من ذلك وهو ينشد للمتوكل قصيدته :

عَنْ أَيْ تَغْرِ تَبْسَمُ وَبَأَى طَرْفٍ تَحْتَكِمُ

حتى بلغ قوله :

قُلْ لِلْخَلِيفَةِ جَفَرِ الْمَتَوَكِّلِ بْنِ الْمُتَعَصِّمِ
لِلرَّتَقَى بْنِ الْجَنْبِ وَالْمُنْعِمِ بْنِ الْمُتَعَصِّمِ

فأغرى به المتوكل أبا العنيس الصيمرى وقال له : أما تسمع يا صيمرى بحيانى إلا هجوته
على هذا الروى، فقال تأمر حمدون أن يكتب ما أقول ثم حضرت بدبهة الصيمرى
فقال قصيدة منها :

وَأَلَّهِ حِلْفَةً صَادِقٍ وَبَقِيرَ أَحَدٍ وَالْحَرَمِ

وَبِحَقِّ جَفَرِ الْإِمَامِ مَرْبِ بْنِ الْإِمَامِ الْمُتَعَصِّمِ

لَأَصْبِرَنَّكَ شُهْرَةً بَيْنَ الْمَسِيلِ إِلَى التَّلَمِ

حَيْثُ الطَّلُولُ بَذَى سَلَمَ حَيْثُ الْأَزَاكَةُ وَالْخَلَمِ^(١)

(١) الخيم (بالتحريك) : موضع . الأراك : موضع . وكذلك السيل والعلم فى البيت قبله .

يا بن الثقيلة والتقييل على قلوب ذوى النعم

ففضب البحرى ، وخرج يعدو ، والمتوكل يضحك ويصفق .

وبلغ من ملابسة البحرى للمتوكل أن أفضى إليه بما كان بينه وبين قبيحة جاريته ، من عتب وأمره أن يعمل شعراً على لسانه ، فقال :

تَعَالَتْ عَنْ وَصْلِ لُغَمَى بَكَ الصَّبِّ وَآثَرَتْ دَارَ الْبَعْدِ مِنْكَ عَلَى الْقَرَبِ
وَحَمَلْتَنِي ذَنْبَ الْمَشِيبِ وَإِنِّهِ لَذَنْبُكَ إِنِ أَنْصَفْتَ فِي الْحُكْمِ لَا ذَنْبِي
وَوَاللَّهِ مَا اخْتَرْتُ الشَّلْوَ عَلَى الْهَوَى وَلَا خُلْتُ عَمَّا تَهْدِينِ مِنَ الْحَبِّ
وَلَا أَزْدَادَ إِلَّا جِدَّةً وَتَمَكَّنَا مَحَلُّكَ مِنْ نَفْسِي وَخَفَلْتُكَ مِنْ قَلْبِي
فَلَا تَجْمَعْنِي هَجْرًا وَعَتَبًا فَلَمْ أَغْذُ جَلِيدًا عَلَى هَجْرٍ الْأَحْبَةِ وَالْمَتَبِّ
فلما بلغت الأبيات رضيت فوصله المتوكل .

وكان للمتوكل غلام اسمه «راح» ، وكان حسن الوجه ، وكان البحرى يحبه والمتوكل يدرك ذلك ، فأمر المتوكل راحاً أن يملأ قدح بلور شراباً ويناوله البحرى ، فلما ناوله بهت البحرى ينظر إليه ، فقال له المتوكل : قل فى راح شعراً ، ولا تصرح باسمه فقال :

حَارَ بِالْوَدِّ قَتَى أُمْسَى رَهِينَا بَكَ مُذْنَفٌ

اسم من أهواه فى شمسرى مقلوب مصحَّف

ودخل البحرى على المتوكل ، وهو جالس ببعض البرك والماء يسقط فيها ، فقال له : قل فى هذا يا بحرئى . قال البحرى : ولم أكن ذا بديهة ، ولكنى اعتزلت جانباً ، فقلت :

ذَاتَ ارْتِجَازٍ بِحَنِينِ الرَّعْدِ مَجْرُورَةُ الذَّلِيلِ صَدُوقُ الْوَعْدِ^(١)
مَسْفُوحَةُ السَّمْعِ لَغِيرِ وَجْسِدِ لَهَا تَسِيمٌ كَنَسِيمِ الْوَرْدِ

(١) الارتجاز (هنا) : صوت الرعد . مجرورة الذليل : كناية عن كونها سحابة طويلة كأن لها ذبلاً تجره . وللرعد يمدق الوعد أن يرقها ليس خلباً ، فعلى إذا أبرقت أمطرت .

وَرَنَّةٌ مِثْلُ زَيْفِرٍ الْأَشَدِّ وَلَمْعُ بَرْقٍ كَسِيْفٍ الْهَنَدِ
جاءت بهار ربيع الصَّبَا من نَجْدٍ فانتشرت مثل انتشار العِقدِ
فراحت الأرضُ بَعِشَ رَغْدٍ من وشى أنوارِ الرُّبَا في بُرْدِ
كأنما غُذِرَتْهَا في الوَهْدِ يَلْعَبْنَ من حَبَابِهَا بِالزَّرْدِ^(١)

فقال المتوكل : انظروا ما ذا في الخزان من ماء الورد العتيق ، فادفعوه إلى البحترى .
قال : فأخذت من ذلك شيئاً كثيراً وبسته بمال :



ويحدث التاريخ أن المتوكل قتل بأيدي الأتراك الذين أغرام ابنه المنتصر حين
رأى أباه يهيم بخلمه من ولاية العهد ، ويفلظ له في القول ، وكان الفتح بمجلسه فتصدى
للدفاع عنه ، فكان نصيبه القتل ، وكان معها البحترى فلم يقتل ، ولكنه وفى لسيده
وفاء عظيماً ، وبكائها بكاء حاراً ، ووصف شناعة قتلها ، وغدر الفادرين بهما ، وصرح
بأن الدافع إلى القتل هو ولى العهد ، ودعا عليه ألا يتمتع بالملك الذى خاض إليه دم
أبيه ، فقال :

أَسْكَانَ وَلِيَّ الْعَهْدِ أَضْمَرَ غَدْرَهُ وَمَنْ تَحَبَّبَ أَنْ وَلِيَ الْعَهْدَ غَادَرَهُ
فَلَا مَلَأَكَ الْبَاقِي ثُرَاتِ الَّذِي مَضَى وَلَا حَمَلَتْ ذَاكَ الدِّعَاءَ مَنَابِرُهُ

بل لقد حرص على القاتل في قوله من هذه القصيدة :

حَرَامٌ عَلَى الرَّاحِ بِعَدْلِكَ أَوْ أَرَى دَمًا يَدُمُ يَجْرَى عَلَى الْأَرْضِ حَاضِرُهُ
وَهَلْ أُرْتَجَى أَنْ يَطْلُبَ الدَّمَ وَاتَرَ يَدَ الدَّهْرِ وَالْمَوْتُورُ بِالدَّمِ وَاتَرُهُ

وهذا وفاء كثير ، وجرأة عظيمة من شاعر يواجه بقوله خليفة بيده موته وحياته .

(١) الوهد : المكان المطش . الحباب : فقنقعيق الماء . الرد : تلك الهبة الفارسية المشهورة
(الطاولة) . والمراد أن الحباب يتنقل على صفحة الماء كما تنقل الرد على رقعته .

ويظهر لى من كثرة تناول الشعراء لذكر هذه الحادثة أن المنتصر أدرك سوء فعله
وشنيع خطئه فأرخصى للناس جبل القول حتى تنفذ زفرائهم فى الشعر فينسى الحادث،
ولولا أنه فعل ذلك لأولع الناس برثاء المتوكل ووزيره وشاعت أقوالهم فيهما وربما
نهض من ينتقم لهما متأثراً بما يصور الشعراء من شناعة الحادث وفظاعته .

البحترى مع المنتصر

ومن بعده من الخلفاء

عاصر البحترى بعد المتوكل خمسة من الخلفاء ، وهم المنتصر ابنه ثم المستعين أخوه ثم
المعتز بن المتوكل ثم المهتدى بن الواثق ثم المعتمد بن المتوكل . ولكنه بعد موت
المتوكل عاد إلى منبج ، وكان يختلف إلى هؤلاء الخلفاء وغيرهم يمدحهم ، وقد استطاع أن
يرضيهم جميعاً وينال جوائزهم بما ركب فيه من طبع الملق ، وبما عرف من هوى كل
خليفة فكان يعمل على رضاه استدراكاً للماله .

دخل على المنتصر من ناحية مدحه بالرعاية لشأن العلويين وقضاء حاجاتهم وكان
المنتصر يحب أن يشتهر بميله إليهم ورد مطالبهم فوقع البحترى على رضا حين
قال فيه :

رَدَدْتَ الظَّالِمَ واسترجعتُ يدك الحقوق لمن قد قهرتُ
وَأَلَّ أبى طالب بمد ما أذيع بسيرهم فابْدَعْ^(١)
وصلتْ شَوَابِكْ أرحامهم وقد أوشك الحبلُ أن يَنْتَبِرَ
فَقَرَّبْتَ من حَظِّهم ما نأى وصَفَيْتَ من شُرِّهم ما كِدَرُ

(١) أذيع بالقي : ذهب به واتهب . ابنمى : تفرق .

وأما المستعين فلم يفتح له أذنه أولاً ثم لما مدحه بعد قتله أُنَاسُ^(١) وكان به شجاعاً أعطاه . والمعتز تقرب إليه بدم المستعين ودعوى أنه غصب الخلافة من أصحابها وكان المعتز يعجبه أن يسمع ذلك في المستعين ولذلك لا تجد قصيدة في مدح المعتز إلا وقد بناها على ثلب المستعين ، ونعته بسوء الأثر في الخلافة ، فمن ذلك قوله من قصيدة أولها :

أما الخيالُ فإنه لم يطرُقِ إلا بقُبْ تَشَوُّفٍ وَتَشَوُّقِ

ومنها في مدحه وذم المستعين :

وَلَقَدْ وَلَّيْتَ فَكُنْتَ خَيْرَ مُجْمَعٍ إِذْ كَانَ مِنْ نَاوَالِكَ شَرَّ مُفَرَّقِ
وَلَقَدْ رَدَدْتَ النَّائِبَاتِ ذَمِيمَةً وَقَسَحْتَ مِنْ كَنَفِ الزَّمَانِ الضَّيِّقِ
وَعَفَوْتَ عَفْوَاً عَمَّ أُمَّةَ أَحْمَدٍ فِي الْغَرْبِ مِنْ أَوْطَانِهِمِ وَالْمَشْرِقِ
وَلَقَدْ رَدَدْتَ عَلَى الْأَنَامِ عَفْوَهُمْ بَهْلَاكِ سُلْطَانِ الرَّكِيكِ الْأَحْمَقِ^(٢)
وَالْقَوْمِ خَرَقَ مَا تُطَلِّبُ رُشْدَهُمْ وَأَدِيرَ أَمْرَهُمْ بَعَزَمَةً أُخْرَقِ^(٣)
كَيْفَ اهْتَدَاءِ الرِّكْبِ فِي ظُلُمَاتِهِمْ وَدَلِيلُهُمْ مُتَحَلِّفٌ لَمْ يَلْخَقْ

وأما المهتدى فقد كان يتشبه بعمر بن عبد العزيز فعلم على رفع المظالم وأبطال الملامى وأقبل على النسك وصوم النهار وقيام الليل فمدحه البحتري بذلك فقال :

أَرَى حَوَازَةَ الْإِسْلَامِ حِينَ وَلَّيْتَهَا تَحَرَّمَ بَاغِيهَا وَحَيْطَ حَرِيمِهَا
تَدَارَكَ تَطْلُومُ الرِّعْيَةِ حَقْمَهُ وَخَلَّى لَهُ وَجْهَ الطَّرِيقِ ظُلُومِهَا

وكذلك تقرب إلى المعتد وإن كانت التقوى ليست من صفاته ولكن يظهر أنه كان يحب أن يذكر بها .

(١) أناس: من الفواد الأتراك أخير لوزارة للمستعين ، وهو لا يعرف الكتابة فكان يقوم بها عنه كاتبه شجاع . وقد استبد أناس بالخلافة حتى قار عليه الفواد فقتل سنة ٣٦٠ هـ .

(٢) يشير إلى قتل أناس .

(٣) خرقى : جمع أخرج وهو الأحق . يريد أنه إذ كان الرئيس أخرج فالقوم مثله وما في قوله : « ما تطلب » مصدرية ظرفية .

ونكتفى من ذكر صلاته بما كان منها بالخلفاء ، فأما من عداهم فهم كثيرون نجد أسماءهم قد صدرت بها القصائد التي قيلت فيهم فأرجع إلى ذلك في ديوانه .
وقد مات البحترى بداء السكتة بمنبح سنة ٣٨٤ هـ ، وقد خلف أبناء منهم أبو الفوت
الذى ذكره في شعره ، وكان من أحفاده أبو عبادة بن يحيى بن الوليد وأخوه عبد الله
وقد كانا رئيسين في زمانهما ومدحهما المتني .

شعر البحترى

ليس ينكر ما للبيئة والوراثة من أثر في النفس ، والبحترى له منها أعظم معين
على الشاعرية والتبريز فيها ، فقد كانت بيئته كما تعلم منبح ، وهي من بلاد الشام وصفت
بالحسن ورقة الهواء وعذوبة الماء ، وإلى جانبها حلب ، وعواصم الشام تجلو مناظرها
العين ، وتشهد الذهن ، وتفسح الخيال ، والشام معروفة منذ قديم بفضلها على شعرائها
وأنها جعلتهم أعذب الشعراء ألقافاً وأبدعهم خيالاً حتى لقد كان صاحب بن عباد
يعجب بأشعارهم ويحرص على حفظها ويستملئ الطائرئين عليه ما يحفظونه منها حتى ملأ
دفترًا ضخمًا فكان لا يفارقه في مجلسه ولا يملأ أحد منه عينه غيره ، وصار ماضيه هذا
الدفر على طرف لسانه وسنان قلمه يحاضر به في مخاطباته ويورده في مراسلاته .

وقد اجتمعت للبحترى هذه البيئة إلى تحدره من أصلاب عربية يعم فيها ويخول
وتمّ له مع ذلك الاختلاف إلى قبائل طيّ الضارين على شواطئ الفرات إلى منبح
فكان له من كل هذه الأسباب شاعرية موروثية ومكتسبة تم بها طبعه ، واتسع ذرعه .
فبحق ما يقول عنه أبو الفرج الأصبهاني : « شاعر فاضل فصيح حسن المذهب نقي
الكلام مطبوع . وكان مشايخنا رحمهم الله يختمون به الشعراء » .

ويعترف البحترى بأنه تلميذ أبي تمام وأنه يخذو مذهبه وينحو نحوه ويراه

إماما ويقدمه على نفسه، وكان إذا سئل عن نفسه وأبي تمام قال : جيّد خير من
جيدى وردى خير من رديته . وقال له يوما أبو العباس المبرد . وقد أنشد شعرا كان
أبو تمام قال في مثل موضوعه : أنت والله أشعر من أبي تمام في هذا الشعر، فقال : كلا
والله إن أبا تمام أكرئيس والأستاذ، والله ما أكلت الخبز إلا به ، فقال له المبرد : لله درك
يا أبا الحسن فإنك تأبى إلا شرفا من جميع نواحيك . وقال بعضهم للبحترى : إن
الناس يزعمون أنك أشعر من أبي تمام فقال والله ما ينفعنى هذا القول ولا يضر
أبا تمام ، والله ما أكلت الخبز إلا به ولوددت أن الأمر كما قالوا ، ولكنى والله تابع
له ، آخذ منه ، لآخذ به ، نسمى يركد عند هوائه وأرضى تنخفض عند سمانه .
والذى يثبت لك أن البحترى تلمذ لأبى تمام تلك الوصية التى حفظها عنه فى
كيفية معالجة الشعر ، ومنها :

فإن أردت النسيب فاجعل اللفظ رقيقا ، والمعنى رشيقا ، وأكثر فيه من بيان
الصباية ، وتوَجّع الكآبة ، وقلق الأشواق ، ولوعة الفراق . وإذا أخذت فى مدح سيد
ذى أباد فأشهر مناقبه وأظهر مناسبه وأبن فعالة وشرف مقامه وتَقاض^(١) المعانى واحذر
المجهول منها، وإياك أن تشين شعرك بالألفاظ . وكن كأنك خياط يقطع الثياب على مقادير
الأجسام . ثم يقول له : وبجملّة الحال أن تعتبر شعرك بما سلف من شعر الماضين
فما استحسنته الملاء فأقصده وما تركوه فاجنبه ترشد إن شاء الله .

وبعد فلننظر هل تأثر التلميذ أستاذه فى طريقته وهل تبعه فى مذهبه ؟ وإذا كان
ذلك حقا فإلى أى غاية انتهى هذا التأثر والاتباع ؟
نصف أن طريقة أبى تمام هى الدقة فى المعانى والإكثار من الاستعارات والإلحاح
فى أنواع البديع والخروج بالجزالة إلى الغرابة ومشاركة المنهجية .

(١) تقاض : طلب ، ومنه قول الفاعل :

إذا ما تقاضى المرء يوم ولاية تقاضاه شيء لا يعمل التقاضيا

فأما البحرى فقد اتبع أستاذه ولكن فى حدود الطبع. وانتجى مذهبه ، ولكن من غير أن يخل بمقتضى السليقة . ومع أنه كان يجلّ أستاذه ، ويتنى لو صار مثله ، فإن طبعه العربى السليم ، وسليقته القطرية البريئة أيا عليه أن يندفع فى تيار أستاذه فىكون مثله فى تعقيد المعانى ، وغرابة الألفاظ ، وشذوذ الاستعارات ، وكثرة التحسين ، بل كان منه إقبال على أنواع البديع السهلة المقبولة من الطبايق والمقابلة ، وهما أكثر ما كان يستعمل من أنواعه ، وقد يأتى بالجناس سهلا ميسورا حسن الموقع .

ففى هذا وحده اتبع أستاذه . فأما الاستعارات التى خرج بها أبو تمام عن مألوف قول العرب ، وأما المعانى العويصة التى تمجد الذهن فى استخراجها ، وأما الإصعاد فى حزن الكلام ، والتكعب لسهله ، فذلك ما لم يستطع البحرى مجاراة أستاذه فيه ، وما يدرينا لعله لإعجابه بأستاذه كان يتكافى فى بعض الأوقات أن يقول مثله فيقول ، ثم إذا عرض كلامه على ذوقه السليم ، وسمعه الناقد نقيا هذا الذى لا يوافق طبعه ، وكان البحرى معروفاً بأنه يلقى من شعره ما يرتاب فيه .

ونستطيع أن نجعلك تَلِسُ شاعرية البحرى لمسا قويا ، وأن تملأ يديك من الحكم عليه والتقدير لمذهبه ، فنقول: إن البحرى وإن كان قد نشأ فى عصر ازدهرت فيه العلوم ، وتعددت المعارف ، وتنافس الناس فى تحصيلها ، وحضور مجالسها وخاضوا فى الجدل فيها ، لقد كان البحرى بمنزل عن هذه الحركة العنيفة؛ فإنه من أهل الشام، وهذه الحركة كانت على أشدها فى العراق ، وبقرب قصور الخلفاء الذين حرّضوا عليها ، وبعثوا فى الناس الاهتمام بها ، فكان من المقول أن تكون هذه الحركة هادئة لينة فى غير بغداد ، وما داناها من الأمصار فهى لذلك كانت هادئة فى منبج ، وفيما حولها من عرب يقيمون فى خيامهم وفيهم كل صفات البداوة إلا عنجهيتها لأنهم محاطون بالريف المتحضر، مقاربون للأمصاّر المتمدينة

لذلك نشأ البحرى ، وكل ماله من ميزة هو سليقته العربية ، وطبيعته الشعرية .

فقال الشعر بما فيه من فطرة لم تعقدها العلوم ، ولم تسدها الفلسفة ، واتخذ من أقوال الشعراء الذين حفظ كلامهم مدد معانيه ، فلم يخرج فيها عما عرف للشعراء السابقين الذين قلّ نصيبهم من العلم قربت معانيهم ، واستقامت طريقتهم . لذلك لا تراهم يعدون البحتري في أحباب المعاني المحترمة ، ولكنهم يذكرونه بلطف الأخذ وحسن الاتباع ، ثم هو من ناحية اللفظ ، والأسلوب جمع بين فضيلتي البداوة والحضارة ، فأما فضيلة البداوة ، ففي صدق التعبير ، وحسن الأداء ، ووضوح الدلالة ، وأما فضيلة الحضارة ، ففي رقة اللفظ ، وسهولة الأسلوب ، وحسن وقع التحسين ، وهذا كل ما يقال في الوصف العام لشعر البحتري .

أغراض الشعر عند البحتري

شعر البحتري كثير ، وديوانه الذي بأيدينا ضخم لا يكاد يدانيه ديوان شاعر ممن سبقه ، وقد تناول جميع أنواع الشعر ، ولكنه لم يكن فيها جميعها سواء ، ويستحيل أن تكون مقدرة شاعر واحدة في جميع فنون الشعر ، ولكن الشاعر المطبوع التام للملكة يجيد في أكثر ما يقول ، وهكذا كان البحتري : أجاد في أكثر الأغراض جادة شهد له بها في كل غرض ، فخلّ من غول النقاد . ونستطيع أن نقول : إنه أجاد في كل غرض ما عدا الهجاء .

فأما مدحه : فإنه فيه ساحر ينث^(١) في المقد ، ويكنى أن نعلم أنه على رثانة نبسه ، وقبح إنشاده وخيلائه ، وتبه بشعره كان الفتح بن خاقان يقول لمن ينقم عليه : ذلك والله لورمانا بالحجارة لكان ذلك مغفورا له في جنب ما يقوله .

وقد علمت من حيلة البحتري أنه كان يدرس طبع الممدوح ، ويعترف هو

(١) الفث : كالفتح وهو أقل من الفل .

حتى يقع قوله بموضع من رضاء ، ويكفي في الدلالة على فضله في باب المدح أن يكون قد حوى هذه الثروة الطائلة التي بقيت في عقبه : ونالوا بها الرياسة والسيادة في قومهم .

ومن مديحه قوله في المتوكل :

خلق الله جعفراً قِيمَ الدنيا سداداً وَقِيمَ الدين رُشْداً
أَكْرَمَ الناسَ شَيْمَةً وَأَتَمَّ النّاسَ خُلُقاً وَأَكْثَرَ النّاسِ رِفْداً
مَلِكٌ حَصَنَتْ عِزَّتُهُ الْمَلِكُ فَأُضْحِكَ لَهُ مُغَانّاً وَرِدّاً^(١)
أَظْهَرَ الْعَدْلَ فَاسْتَنَارَتْ بِهِ الْأَرْضُ وَعَمَّ الْبِلَادَ غَوْرًا وَنَجْدًا
وَحَكَمَ الْقَطْرَ بِلْ أَبْرَ عَلَى الْقَطْرِ بِكَفٍّ عَلَى الْبَرِيَّةِ تَنْدَى
هُوَ بَحْرُ السَّمَاحِ وَالْجُودِ فَازْدَدَ مِنْهُ قَرِيباً تَزْدَدُ مِنَ الْفَقْرِ بَعْدًا
بِأَيْمَالِ الدُّنْيَا عَطَاءً وَبَدَلًا وَبِحَالِ الدُّنْيَا سَنَاءً وَمَجْدًا^(٢)
وَشَبِيهَ النَّبِيِّ خُلُقًا وَخُلُقًا وَنَسِيبَ النَّبِيِّ جَدًّا وَخَدًّا
بِكَ تَسْتَعْتِبُ الْيَالِي وَتَسْتَفْهِدِي عَلَى دَهْرِنَا الْمُسِيءِ فَنُعَذِّي
فَاقْبِ عُمرَ الزَّمَانِ حَتَّى تُؤَدِّي شُكْرَ إِحْسَانِكَ الَّذِي لَا يُؤَدِّي
وَقَالَ يَمْدَحُهُ وَيَذْكُرُ وَفَدَ الرُّومَ :

إِنَّ الرِّعْيَةَ لَمْ تَزَلْ فِي سِيرَةٍ عُمَرِيَّةٍ مُذْ سَامَهَا الْمُتَوَكِّلُ
اللَّهُ أَمَرَ بِالْخُلَافَةِ جَعْفَرًا وَرَأَاهُ نَاصِرَهُ الَّذِي لَا يَخْذُلُ
هُيْ أَفْضَلُ الرَّسَبِ الَّتِي جَعَلَتْ لَهُ دُونَ الْبَرِيَّةِ وَهُوَ مِنْهَا أَفْضَلُ

(١) المائت : اسم مكان من أفاث . الرد : عماد الشيء . يريد أن عزيمته صارت ملجأ للملك وكفها ينيشه ويحميه .

(٢) سناء وردت في الديوان بالباء ، وهي غير مناسبة لل مقام . والسناء : الصرف وهو المناسب .
القال : الفيات .

مَلِكٌ إِذَا عَاذَ الْمَوْتَ بِمَعْنَاهُ
وَعَفَا كَمَا صَفَحَ السَّحَابُ وَرَعْدُهُ
يَتَقَبَّلُ الْمَسْبِيسَ عَمَّ مُحَمَّدٍ
شَرَفٌ خُصِصَتْ بِهِ وَعَجْدٌ بَاذِخٌ
لَا يَبْعُدُكَ الْمَسْمُونُ فَإِنَّهُمْ
حَصَنَتْ بَيْضَتَهُمْ وَخَطَّتْ حَرِيمَهُ
فَادْتَبَتْ بِالْأَسْرَى وَقَدْ غَلِقُوا فَلَا
وَرَأَيْتُ وَفَدَ الرُّومَ بَعْدَ عِنَادِهِمُ
لِحَظْوِكَ أَوَّلَ لِحْفَةٍ فَاسْتَصَفَرُوا
أَحْضَرْتَهُمْ حُجْبًا لَوْ اجْتَلَبْتِ بِهَا
وَرَأَوْكَ وَضَاحَ الْجَبِينِ كَمَا يُرَى
نَظَرُوا إِلَيْكَ فَقَدَّسُوا وَلَوْ أَنَّهُمْ
حَضَرُوا السَّاطِفَ كُلَّامُوا الْقِرَى

غَفَرَ الْإِسَاءَةَ قَادِرًا لَا يَعْجَلُ (١)
قَصِيفٌ وَبَارِقُهُ حَرِيقٌ مُسْعَلٌ (٢)
وَوَصِيَّتُهُ فِيمَا يَقُولُ وَيَفْعَلُ (٣)
مُسْكَنٌ فَوْقَ النُّجُومِ مُؤَنَّلٌ
فِي ظِلِّ مُلْكِكَ أَدْرَكُوا مَا أَمَلُوا
وَحَمَلَتْ مِنْ أَعْيَانِهِمْ مَا اسْتَقَلُّوا
مَنْ يَنْالُ وَلَا فِدَاكَ يَقْبَلُ (٤)
عَرَفُوا فَضَائِكَ الَّتِي لَا تُجَلُّ
مَنْ كَانَ يَعْظُمُ فِيهِمْ وَيُجَبَّلُ
عَصَمُ الْجِبَالِ لَا قِبْلَتَ تَنْزَلُ (٥)
قَرَّ السَّاءُ السَّعْدُ لَيْلَةً يَكْمُلُ
نَطَقُوا الْفَصِيحَ لِكِبْرَتِهِمْ وَهَلَّلُوا (٦)
مَالَتْ بِأَيْدِيهِمْ عَقُولُ ذَهَلُ (٧)

- (١) مَازَبُ : لَجَأٌ إِلَيْهِ . وَمَعْنَى لَا يَعْجَلُ أَيْ لَا يَعْجَلُ بِالْقُوَّةِ .
(٢) صَفَحَ السَّحَابُ : سَقَى النَّاسَ مَاءَهُ . قَصِيفٌ : شَدِيدُ الصَّوْتِ .
(٣) التَّجَبُّلُ : التَّجَبُّعُ . يَقَالُ فَلَانٌ يَتَقَبَّلُ أَبَاهُ : أَيْ يَسِيرُ عَلَى نَهْجِهِ .
(٤) غَلِقَ الرَّهْنُ فِي يَدِ الرَّهْنِ : إِذَا لَمْ يَسْتَطِعِ الرَّاهِنُ دَفْعَ مَا عَلَيْهِ وَفَكَ الرَّهْنُ . الْمَنْ : طَلَّاقُ الْأَسِيرِ مِنْ غَيْرِ فِدْيَةٍ .
(٥) الْعَصَمُ : جَمْعُ أَصْعَمَ ، وَهُوَ مِنَ الطَّيْرِ وَالْوَحْشِ مَا يَلْبِغُ إِلَى أَعَالَى الْجِبَالِ فَلَا يَنْالُ إِلَّا بِالْحِيلَةِ الْقُوَّةِ . فَيَضْرِبُ امْتِلَاقًا بِالْقُدْرَةِ عَلَى اسْتِزَالِهِ مِنْ أَمَاكِنِهِ ، فَيَقَالُ فَلَانٌ يَسْتَنْزِلُ الْعَصَمَ بِكَلَامِهِ : أَيْ أَنَّهُ شَدِيدُ التَّأْثِيرِ .
(٦) الْقُدَيْسُ : تَنْزِيهِ اللَّهِ وَهُوَ فِي اصطلاح النصارى نوع من أنواع عبادتهم . التَّهْلِيلُ : قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ .
(٧) السَّاطِفُ : الْمَائِدَةُ . ذَهَلُ : جَمْعُ ذَاهِلٍ بِمَعْنَى غَافِلٍ .

تَهْوِي أَكْفُهُمْ إِلَى أَفْوَاهِهِمْ فَتَحِيدُ عَنْ قَصْدِ السَّبِيلِ وَتَعْدِلُ
مُتَحَيِّرُونَ قِبَاهَتْ مُتَمَجِّبٌ مِمَّا رَأَى أَوْ نَاطَرٌ مَتَأَمِّلُ
وَيَوِّدُ قَوْمُهُمُ الْأَلَى بَعَثُوا بِهِم لَوْ ضَمَّهْمُ بِالْأَمْسِ ذَاكَ لِلْمَحْفِلِ
قَدْ نَافَسَ الْقَتِيبُ الْحُضُورَ عَلَى الَّذِي شَهِدُوا وَقَدْ حَسَدَ الرَّسُولُ الْمُرْسِلُ
عَجَلَتْ رِفْدُهُمْ فَأَفْضَلُ نَائِلُ حَيُّ الْوَفُودُ بِهِ الْهَنِيءُ الْمُجَعِّلُ^(١)
فَاللَّهُ أَسْأَلُ أَنْ تُعَمَّرَ صَالِحًا فِدْوَامُ عَمْرِكَ خَيْرُ شَيْءٍ يُسَالُ^(٢)



أما الفزك في شعره ، فهو أظهر محاسنه حتى لقد ضرب المثل بفزل البحرى ، ولعلنا إذا التمسنا وجه إبداعه في هذا الباب نجد ما نقوله من أنه نشأ نشأة بدوية صفت فيها السماء ، واتسع الأفق ، وسنحت الظباء ، وتراءت له فتيات الحى في حضورهن الهيف وقدودهن الميادة ، وعيونهن النجل كما رأى في الحضرة التى تنقل فيه علوة الحلبية ، وقد شمع فؤاده حبها ، فلم ينسها بعد العراق ، وهو في عاصمة تذهل مناظرها كل قلب ، وتسلب كل لب . وكان إلى جانب هذه النشأة ما عرفت له من طبع فياض وسهولة تكاد تسيل ، فكان من غزله ما قيد الأسماع ، وخالط النفوس فبكى الناس للوعته ، ورثوا لدائم عبرته ، ومتساعد زفرته . أما هو فقد اشتاق والتاع ، وذكر اللقاء والوداع ، وارتاح لطيف الخيال ، وأنحى باليوم على العذال ، ووصف القدود ، وأسئل الخلدود ، ليس له في المعنى من فضل ، إلا أنه قرب بعيدة وذل رَيْضَه ، ثم صبه في قالبه السحرى من اللفظ الناصع السهل ، مبدعا ما شاء في الصوغ ، محليا بما هداه إليه الطبع ، ويأتى طبعه إلا الإحسان ، والخلو من الشوائب .

(١) الرغد : المطاء . حباه : أعطاه .

(٢) يقال عمره الله (بتنديدالميم) : أى أطال عمره ، لذلك يقال للطويل العمر معمرا (بصيغة اسم المفعول) .

ومن سهولة الغزل عليه وموافقته لطبعه تراه قد أكثر منه والتزمه في بدء قصائده جريا على طريقة العرب في بناء القصيدة على الغزل .

ورقة غزله ، وحسن مذهبه فيه يصعب على المتخبر أن يختار منه لأن الاختيار أثر للمفاضلة ، وليس في غزله فاضل ولا مفضول ، بل كل قطعة منه دمية فنية غنية بحاسنها ، لا تراحمها غيرها في جمالها ، ولا تبرزها بداعتها ، فانظر إليه حضريا في شملة أعراي يتغزل على طريقة السابقين ، فيذكر الآرام ، ورمل عالج ، والنور من تهامة في قوله :

شُغْلَانٍ مِنْ عَدَلٍ وَمِنْ تَقْنِيدٍ وَرَسِيمٍ حُبِّ طَارِفٍ وَتَلِيدٍ^(١)
وَأَمَّا وَآرَامُ الطَّبَّاءِ لَقَدْ نَأَتْ يَهْوَكَ آرَامُ الطَّبَّاءِ الْفَيْسِدِ^(٢)
طَالَعْنَ غَوْرًا مِنْ تِهَامَةٍ وَاعْتَلَى عَنْهُمْ رَمْلًا عَالِجٍ وَزَرُودِ
لَمَّا سَمِعْنَ بِذِي الْأَرَاكِ تَشَابَهَتْ أَعْطَافُ قُضْبَانٍ بِهِ وَقُدُودِ
فِي حُلَّتِي حَبِيرٍ وَرَوْضٍ فَاتَقَى وَشِيَانٍ وَشَيْ رُبَاً وَوَشَى بُرُودِ^(٣)
وَسَفَرْنَ فَاثْمَلَتْ عِيُونَ رَاقِمَا وَزُدَانٍ وَزُدَ جَنَى وَوَزُدَ خُدُودِ
وَضَحِكُنَّ فَاغْتَرَفَ الْأَفَاحِي مِنْ نَدَى غَضٍّ وَتَسْلَسَالِ الرُّضَابِ بُرُودِ^(٤)
تَرَجُّوْا مُقَارَبَةَ الْحَبِيبِ وَدُونَهُ وَخَسِدٌ يُرْسَحُ بِالْمَهَارَى الْقُودِ^(٥)

- (١) الرسيم : الشيء الثابت . يريد أن له أمرن يشغلانه ، وهما اليوم على الحب ، والثاني تاربع ذلك الحب . وعلى هذا يكون عطف تقنيد على عدله من عطف الترادف فهما شيء واحد .
- (٢) الآرام : جمع رزم ، وهو الظبي الخالص البياض . النيد : حج . أغيد أو غيداء ، وهو المسائل العنق الابن الأعطاف . يقسم بحق الأطباء أن الجليات الشبهات بها قد هجرته سد أن علق هوامن بقلبه
- (٣) الحبر : جمع حبرة (كنبية أو شجرة) وهو ضرب من برود اليمن . الوشى : زينة الثوب .
- (٤) الأفاحي : نبت تشبه به الأسنان . الرضاب : الرقيق . البرود : البارد . يقول لما ضحكنا ظهرت أسنانهن كالأقماران وقد امتلأ من الندى فهو يجعل الأسنان كالأقماران والرقيق كالندى
- (٥) الوخد : الإسراع . التبرج : الإيلام . المهاري : جمع مهريه ، وهي الناقة الكريمة نسبت إلى بني مهرة وقد عرفوا بكرم لبهم . القود : جمع أقود أو قوداء ، وهو القلول من الإبل .

ومنى يساعدا الوصال ودهرنا يومان يوم نوى ويوم صدود
وانظر إليه وقد اختار الأوزان القصيرة التي توافق خفة النزل ونشوة الحب ، ثم
هو يتلاعب بالمعاني ، فيطالب المحبوب بالزفة وفاء لنيل العاشق ، ويستحلفه بالوصل بعد
الهجر ، والقرب بعد البعد ، وهو لا شك عند الحب خير ما في الدنيا ، فيقول :

لَمْ لَا تَرِقْ لِنُلِّ عَبْدُكَ وَخُصُوعِهِ فَقِنِي بَوَعْدِكَ
إِنِّي لَأَسْأَلُكَ الْقَلِيلَ وَأَتَّقِي مِنْ سُوءِ رَدِّكَ
وَأَمَّا وَوَصْلِكَ بَعْدَ هَجْرِكَ وَاقْتِرَابِكَ بَعْدَ بُعْدِكَ
لَا لَمْتُ قَسَى فِي هَوَاكَ وَلَا انْحَرَفْتُ لَطُولِ صَدِّكَ
وَلَيْتَنِي أَسَأْتُ كَمَا تُسِيءُ لِمَا وَدِدْتُكَ حَقًّا وَدَّكَ

وانظر إليه ولم يأت بمجديد من معاني النزل . ولكنه يكاد بلفظه الرقيق وأسلوبه
الخلاب يريك كأنه يتغزل بما لم يقله أحد قبله ، وما في شعره لو قششته إلا تشبيه القند
بالقضب والأسنان بالبرد ، وإلا كون المحبوب قد استولى على الحسن ، وتفرّد بالدلال ،
وإن النزع قد ضاق بالحب . فصار يخرج من الحب عسيرا . قال :

خُفِّفْ فِي الذِّى وَعَدْتُ سَيْلًا فَلَمْ يَجِدْ^(١)
وَهُوَ بِالْحُسْنِ مُتَبَدِّلٌ وَبِالدَّلِّ مُنْفَرِدٌ
يَتَّقِنِي عَلَى قَضِيْبٍ وَيَنْفَرُّ عَنِ بَرْدِ
قَدْ تَطَلَّبْتُ نَحْرًا مِنْ هَوَاةٍ فَلَمْ أَجِدْ
ضَاقَ صَدْرِي بِمَا أَجْنَنَ وَقَلْبِي بِمَا وَجَدَ
وَتَقَصَّبَتْ أَنْ شَكُوْتُ جَوَى الْحَبِّ وَالْكَمَدِ
وَاشْتَكَاؤِي هَوَاكَ ذَنْبٌ فَإِنْ تَعَفَّ لَا أَعُدْ

(١) سئل : فعل ما مضى مبني للمجهول من سأل الذي سهل ، فقلبت همزته ألفا فعومل بماملة الأجوف .

ومن غزله في علوة ، قوله من قصيدة يمدح بها المعتز بالله :

خيالٌ يَسْتَرِينِي فِي الْمَنَامِ لَسَكْرَى اللَّحْظِ فَاتِنَةُ التَّوَامِ
لَعَلَّوَةٌ إِنَّهَا شَجَنٌ لِنَفْسِي وَتَبْلُكُلُ لِقَلَسِي الْمُسْتَهَامِ
إِذَا سَفَرْتُ رَأَيْتَ الظُّرْفَ بَحْتًا وَنَارَ الْحَسَنِ سَاطِعَةَ الضَّرَامِ
تَنْظُرُ الْبَرْقَ مُعْتَرِضًا إِذَا مَا جَلَا عَنْ ثَمَرِهَا حُسْنُ ابْتِسَامِ
كَتَوَّرِ الْأَفْغَوَانِ جَلَاءَهُ طَلٌّ وَسَمَطُ اللَّثَرِ فُصِّلَ بِالنِّظَامِ^(١)
سَلَامُ اللَّهِ كُلَّ صَبَاحٍ يَوْمٍ عَلَيْكَ وَمَنْ يُبَلِّغُ لِي سَلَامِي
لَقَدْ غَادَرْتُ فِي قَلْبِي سَقَامًا بِمَا فِي مُقْلَتِكَ مِنَ السَّهَامِ
وَذَكَّرْتِكَ حَسَنُ الْوَرْدِ لَمَّا أَتَى وَلَنِيذُ مَشْرُوبِ اللَّدَامِ
لِثَنُ قُلِّ التَّوَاصِلِ أَوْ تَمَادَى بِنَا الْهِجْرَانُ عَامًا بَعْدَ عَامِ
فَكَمْ مِنْ نَظَرَةٍ لِي مِنْ بَعِيدٍ إِلَيْكَ وَزَوْرَةٍ لَكَ فِي اكْتِنَامِ
أَأْتِخُذُ الْعِرَاقَ هَوًى وَدَارًا وَمِنْ أَهْوَاءِ فِي أَرْضِ الشَّامِ

ومن قوله في غلامه نسيم :

أَنْسِيمُ هَلْ لِلدَّهْرِ وَعْدٌ صَادِقُ فَمَا يُؤْمِسُهُ الْمَحِبُّ الْوَامِقُ
مَالِي فَقَدْ نَكَتَ فِي الْمَنَامِ وَلَمْ يَزَلْ عَوْنُ الْمَشُوقِ إِذَا جَفَاءَ الشَّاقِقُ^(٢)
وَمُنِعْتَ أَنْتَ مِنَ الزِّيَارَةِ رِقْبَةً مِنْهُمْ فَهَلْ مُنِعَ الْخِيَالُ الطَّارِقُ
الْيَوْمَ جَازِي الْهَوَى مَقْدَارُهُ فِي أَهْلِهِ وَعَلِمْتُ أَنِّي عَاشِقُ
فَلْيَهْنِ الْحَسَنَ بْنَ وَهْبٍ أَنَّهُ يَلْقَى أَحِبَّتَهُ وَمَنْ هَارِقُ

ومن قوله فيه أَيْنًا :

(١) السط : البعد . النظام : الخط . ينظم فيه الأوّل ونحوه . التفصيل : نظم العقد والفرق بين

جاءه بأخرى .

(٢) المشوق : الحب . الشاقق : المحبوب .

دَعَا عَثْرِي تَجْرِي عَلَى الْجَوْرِ وَالْقَصْدِ أَطْلُ نَسِيًّا قَارَفَ الْهَجَرَ مِنْ بَعْدِي ^(١)
 خَلَا نَاطِرِي مِنْ طَيْفِهِ بَعْدَ شَخْصِهِ فَيَا عَجِبًا لِلدَّهْرِ فَقْدًا عَلَى فَقْدِ
 خَلِيلٍ هَلْ مِنْ نَظَرَةٍ تُوصِلُ إِلَيْهَا إِلَى وَجْهَاتٍ يَنْتَسِبْنَ إِلَى الْوَرْدِ
 وَقَدْ يَكَادُ الْقَلْبُ يَنْقُذُ دُونَهُ إِذَا أَهْتَزَّ فِي قُرْبٍ مِنَ الْعَيْنِ أَوْ بَعْدُ
 كَفَى حَزْنَا أَنَا عَلَى الْوَصْلِ نَلْتَقِي فُؤَادًا فَتَنْتَبِهَا الْمَيُونُ إِلَى الصَّدِّ ^(٢)
 فَلَوْ تُمَكِّنُ الشَّكْوَى خَلْفَكَ الْبَكَ حَقِيقَةً مَا عِنْدِي وَإِنْ جَلَّ مَا عِنْدِي
 وَذَكَرَ صَاحِبُ الْأَغْنَى أَنَّ نَسِيًّا هَذَا كَانَ غَلَامًا رُومِيًّا لَيْسَ بِمَحْسَنِ الْوَجْهِ ، وَكَانَ
 الْبَحْتَرَى قَدْ جَمَلَهُ أَبَا مِنْ أَبْوَابِ الْخَيْلِ عَلَى النَّاسِ ، فَكَانَ يَبِيعُهُ وَيَتَعَمَدُ أَنْ يَصِيرَهُ إِلَى
 مَلِكٍ بَعْضُ أَهْلِ الْمُرُوءَاتِ ، وَمَنْ يَنْفَقُ عِنْدَهُ الْأَدَبُ ، فَإِذَا حَصَلَ فِي مَلِكِهِ نَسَبٌ بِهِ
 وَتَشَوُّقُهُ ، وَمَدَحُ مَوْلَاهُ حَتَّى يَهْبَهُ لَهُ فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ دَائَهُ حَتَّى مَاتَ نَسِيمٌ فَكَفَى النَّاسَ أَمْرَهُ .



والوصف في شعر البحتري باب بارع الجمال دقيق الصنعة اشتهر به البحتري شهرته
 بالفنزل والمدح حتى قال فيه ابن المعتز : لو لم يكن للبحتري إلا قصيدته في إيوان كسرى
 (فليس للعرب سينية مثلها) وقصيدته في وصف بركة المتوكل ، لكان أشعر الناس .
 ويعده صاحب العمدَة أحد الشعراء الذين أجادوا في جميع الأوصاف ، وإن غلبت على
 أحدهم الإجابة في بعضها كأمرئ القيس ، وأبي نواس ، والبحتري ، وابن الرومي ،
 وابن المعتز ، وكشاجم ، والذي يغلب على البحتري وصف القصور ، وما يحيط بها .

ولا شك أن قصيدته في وصف إيوان كسرى هي عروس شعره عامة ونموذج

(١) الجور: الظلم . القصد : الاعتدال . قارف : دانى وفارب . يقول لصاحبه : اترك دموعي تجري
 بإسراف أو اعتدل فإن نسيتك فقد جفأت .

(٢) الفراق : ما بين الحلاتين من الوقت ، أو هو ما بين فتح يدك وقبضها عند الحب ، وهذا المعنى
 الأخير يناسب المبالغة في قصر مدة التفاتهما . والمراد بالميون عيون الرقباء .

إجاداته فى الوصف خاصة ، وليس العجيب عندى أنه وصف القصر ولكن العجب أنه اتجه اتجاهها لم يتجه غيره من الشعراء فى العناية بدلائل العظمة للأمم السابقة والإشادة بما خلقوه من جهود تنطق بسمو مكاتهم وعلو كبهم . وكثير من الشعراء قد عاشوا بمصر أو مروا بها فسا رأيناهم ذكروا الأهرام ولا عادات القدماء إلا ذكرا لا يدل على فضل تأثيرها وإعجاب بأصحابها .

أما البحترى فقد وفى للفرس أتم وفاء ، ورثى لجدم أحر رثاء . وعاتب الدهر على سوء أثره فيهم وقبح فعله بهم . وفى اعتقادنا أن البحترى فتح للشعراء بابا لم يستطيعوا ولو جه من بعده فظل مهجوراً حتى أشادت للندنية الحديثة بذكر الآثار وأنطقها بعظمة أصحابها ، فكان من الشعراء المظماء المرحومين : محمود سامى البارودى باشا ، وإسماعيل صبرى باشا ، وأحمد شوقى بك ، أن اقتفوا أثر البحترى فى نهجه بعد ألف عام وتنهبوا إلى هذه المنقبة التى لم يخلق الشعر إلا لملئها ، ولم يشرف إلا بمثل موضوعها . وإذا قلت : إن وصف الديار وبكاء أهلها عادة عربية قديمة فاعلم أنه لم يتوسع أحد فيها توسع البحترى فبخرج بحديثها من الغزل وبجرد اللهو إلى جد الحقيقة والوفاء للتاريخ . والعجيب أن تنال سينية البحترى هذه الشهرة ثم لا يكون من الشعراء اتجاه إلى موضوعها وتقليد له فى منحها . ولكن الذى صدم عن ذلك أن موضوعها خالص للحقيقة ليس فيه زلق لرئيس ولا وراءه مطمع فى عطاء . فهذا هو الذى أمات موضوعها فى نظر الشعراء فلم يجرؤ وراء البحترى فى شوطه الذى تفرّد بالسبق فيه . ولقد صدق قول ابن المعتز (ليس للعرب سينية مثلها) وما كان أحراة أن يقول « ليس للعرب قصيدة مثلها » حتى لا يوم قوله أن لنوع القافية أثر فى التفرد بالحسن .

وليس يقل عن السينية فى تحذير العبرة ، ووصف النعم الزائل والفتن للجمال الحائل ، وصفه لقصر المتوكل بعد قتله وما أصابه من تهتيك الستور ، وتشريد الأطلال والجآذر .

أما أوصافه التي لاشجوا فيها ولا رثاء فنها وصفه لبركة التوكل وقصر المعثر
وسنذكر طرفاً من كل ذلك .

فن وصف الإيوان قوله :

لو تراه عَلِمْتَ أَنَّ السَّيَالِي جَعَلَتْ فِيهِ مَأْتَمًا بَعْدَ عُرْسٍ
وهو بُنْيَيْكَ عَنْ عَجَائِبِ قَوْمٍ لَا يُشَابُ الْبَيَانُ فِيهِمْ بَلْبَسٍ
فَإِذَا مَا رَأَيْتَ صُورَةَ أَنْطَا كَيْفَ ارْتَمَتْ بَيْنَ رُومٍ وَفُرْسٍ
وَالْمَنَانِيَا مَوَائِلَ وَأَنُوشِيرَ وَأَنْ يُرْجَى الصَّفُوفُ تَحْتَ الدَّرَفْسِ
فِي أَخْضَرَارٍ مِنَ اللَّبَاسِ عَلَى أَصْفَرٍ يَخْتَالُ فِي صَبِيفَةٍ وَرَسٍ
وَعِرَاكُ الرِّجَالِ يَتَيْنَ يَدَيْهِ فِي خُفُوتٍ مِنْهُمْ وَإِغْمَاضِ جَرَسٍ
مِنْ مُشِيحٍ يُهَوِّي بِعَامِلِ رُفْعٍ وَمُؤَلِّحٍ مِنَ السَّنَانِ يَتَرَسٍ
تَصِفُ الْعَيْنُ أَنَّهُمْ جِدُّ أَحْيَا هَلْهُمْ بَيْنَهُمْ إِشَارَةُ خُرْسٍ
يَقْتَلِي فِيهِمْ أَرْتِيَابِي حَتَّى تَنْقَطِرَ رَأْسُهُمْ يَدَايَ بَلْبَسٍ

ومنها :

وَكَأَنَّ الْإِيوَانَ مِنْ عَجَبِ الصَّنِيعَةِ جَوْبُ فِي جَنْبٍ أَرْعَنَ جَلَسٍ
يُتَقَفَّى مِنَ الْكَاتِبَةِ إِنْ يَبْدُ لَعْنَتِي مُصْبِحٍ أَوْ مُمَسَّى
مُزَجَّجًا بِالْفِرَاقِ عَنْ أَنَسٍ إِلْفٍ عَزَّ أَوْ مُرْهَقًا بِتَطْلُقِ عُرْسٍ
عَاكَسَتْ حُظَّةَ اللَّيَالِي وَبَاتِ السُّسْتَرِي فِيهِ وَهُوَ كَوَكَبٍ نَحْسٍ
فَوْهُ يَبْدَى تَجَلَّدًا وَعَلَيْهِهِ كَلْكَلٌ مِنْ كَلَا كُلِّ الدَّهْرِ مُرْسِي
لَمْ يَعْهْ أَنْ بُرَّ مِنْ بُسْطٍ أَلْدَيْسَبَاجِ وَاسْتُلَّ مِنْ سُتُورِ الدَّمَقْسِ
مُشْتَعِرًا تَعْلُو لَهُ شُرُفَاتُ رُفِعَتْ فِي رَعُوسٍ رَضُوعِي وَقُدْسٍ
لَيْسَ يَذَرَى أَصْنَعُ إِنْسِي لِحْنٍ سَكَنُوهُ أَمْ صُنْعُ جِنِّ لِإِنْسٍ

ومن قوله في وصف قصر المتوكل بعد قتله :

تَقَرَّرَ حُسْنُ الْجَفَرِيِّ وَأُنْسُهُ وَقَوَّضَ بَادِي الْجَفَرِيِّ وَحَاضِرُهُ^(١)
تَحَلَّلَ عَنْهُ سَاكِنُهُ فُجَاءَةً ضَاعَتْ مَسْوَاهُ دُورُهُ وَمَقَارِبُهُ^(٢)
إِذَا نَحْنُ زُرْنَاهُ أَجَدُّ لَنَا الْأَمْسَى وَقَدْ كَانَ قَبْلَ الْيَوْمِ يَبْهَجُ زَائِرُهُ^(٣)
وَلَمْ أُنْسُ وَخْشَ الْقَصْرِ إِذْ رُبِعَ مَرِبُهُ وَإِذْ دُعِرَتْ أَطْلَافُهُ وَجَازِرُهُ^(٤)
وَإِذَا صَبَحَ فِيهِ بِالرَّحِيلِ هُتِّكَتْ عَلَى مَجْلَى أَسْتَارِهِ وَسَرَّارَتُهُ^(٥)
وَوَحْشَتُهُ حَتَّى كَانَ لَمْ يُقِمَّ بِهِ أَنْيْسٌ وَلَمْ تَحْضُنْ لَعِينٍ مَنَاطِرُهُ
كَانَ لَمْ تَبْتَ فِيهِ الْخِلَافَةُ طَلَقَةً بِشَاشَتِهَا وَالْمَلِكُ يَشْرِقُ زَاهِرُهُ
وَلَمْ تَجْمَعْ الدُّنْيَا إِلَيْهِ بَهَاءَهَا وَبَهَجَتِهَا وَالْعَيْشُ غَضَّ مَكَاسِرُهُ^(٦)
فَأَيْنَ الْحِجَابُ الصَّعْبُ حِينَ تَمَنَعَتْ بِبَيْتَتِهِ أَبْوَابُهُ وَمَقَاصِرُهُ
وَأَيْنَ عَمِيدُ النَّاسِ فِي كُلِّ نَوْبَةٍ تَنْوُبُ وَنَاهَى الدَّهْرُ فِينَا وَأَمْرُهُ
ومن وصف بركة المتوكل قوله :

يَا مَنْ رَأَى الْبَرَكَةَ الْحَسَنَاءَ رَوَيْتَهَا وَالْأَنَسَاتِ إِذَا لَاحَتْ مَغَانِبُهَا^(٧)

(١) الجعفرى : قصر المتوكل . قوض : تهدم . والراد بالبادى والحاضر : جميع نواحيه كما يقال طاف فلان الدنيا باديها وحاضرتها : أى جميع نواحيها ، أو كأنه لانساعه كانت فيه نواح أهله وأخرى خالية ، فجعل الأهله حاضرة والحالية بادية .

(٢) كان قصر المتوكل هذا بناحية كثر فيها بناء الناس حول قصر الخليفة فكان كسك للندن له بجانيه مقابر فلما خرب القصر أخليت المدينة فاستوت دورها وقبورها في الخلو من الأحياء .

(٣) أجد : جد أو أحدث . الأسى : الحزن . بهج (تكجل) : فرح . و (كجج) : أفرح .

(٤) الأطلاف : جمع طلاف وهو ولد النضية ساعة يولد . الحاضر : جمع جؤدر وهو ولد الزهرة الوحشية .

(٥) دمر : ريع وأخيف . السرب الجماعة من الانسان أو الحيوان . والراد بوحش القصر نساؤه .

(٦) المراد بهتليك الأستار : لإزالة ما في القصر من فرش وستائر ، وبهتليك السرائر : ظهور نجاك

القصر . والبيت يروى في كل مصادره « أستاره وستاره » ولا معنى لامطف لكونهما بمعنى واحد ، فلا بد أنه محرف عما ذكرنا .

(٧) الفض : الأثرى . المكاسر : جمع مكسر (كجلس) وهو موضع الكسر . والمعنى في كون

البيش غرض المكاسر أنه لين لاشدة فيه .

(٧) الأنسات : جمع آنسة بمعنى مؤنة . اللانى : جمع منى وهو المنزل والسكن .

يَحْسَبُهَا أَنَهَا مِنْ فَضْلِ رَبَّتَيْهَا تُعَدُّ وَاحِدَةً وَالْبَحْرُ ثَانِيَا
 مَا بَالُ دِجَلَةَ كَالْفَيْسَى تَنَافِسُهَا فِي الْحَسَنِ طَوْرًا وَأَطْوَارًا تَبَاهِيهَا^(١)
 أَمَارَاتُ كَالِ الْإِسْلَامِ يَكْلُوْهَا مِنْ أَنْ تُعَابَ وَيَبْقَى لِلْعَدِّ بَيْنَيْهَا^(٢)
 كَأَنَّ جِنَّ سُلَيْمَانَ الَّذِينَ وَلَوْ إِبْدَاعُهَا فَأَدَقُّوا فِي مَعَانِيهَا
 فَلَوْ تَمَرُّ بِهَا بَلْقَيْسُ عَنْ عُرْضٍ قَالَتْ هِيَ الصَّرْحُ تَمْثِيلًا وَتَشْبِيْهَا^(٣)
 تَنْصَبُّ فِيهَا وَفُودُ الْمَاءِ مُعْجَلَةً كَالْخَلِيلِ خَارِجَةً مِنْ حَبْلِ مُجْرِيهَا
 كَأَنَّمَا الْقَضُ الْبَيْضَاءُ سَائِلَةً مِنَ السَّبَائِكِ تَجْرِي فِي تَجَارِيهَا
 إِذَا عَلَّتْهَا الصَّبَا أَبَدَتْ لَهَا حُبُكًا مِثْلَ الْجَوَاشِينِ مَصْقُولًا حَوَاشِيهَا^(٤)
 فَحَاجِبُ الشَّمْسِ أَحْيَانًا يَضَاحُكُهَا وَرَيْقُ النِّيثِ أَحْيَانًا يُبَاكِهَا^(٥)
 إِذَا النُّجُومُ تَرَاءَتْ فِي جَوَانِبِهَا لَيْلًا حَسِبْتَ سَمَاءَ رُكْبَتِ فِيهَا
 لَا يَبْلُغُ السَّمَكَ الْخَصُورُ غَايَتَهَا لُبْعِدٍ مَا بَيْنَ قَاصِيهَا وَدَانِيهَا
 وليس إلى هذه الأمثلة ينتهي الحسن في أوصاف البحري بل إن إجادته في هذا
 الباب لا يشعم منها إلا مراجعة ديوانه ، فهو الكفيل بذلك .

- (١) دجلة : الهر التي تقع عليه بغداد وتستمد منه هذه البركة .
 (٢) كَلَاهُ (كَنَع) : صَاحَهُ وَرَمَاهُ . وَالرَّادُ بِكُلِّ الْإِسْلَامِ الْخَلِيفَةُ الْمُتَوَكِّلُ الْمُدَوَّحُ بِهَذِهِ الْقَصِيدَةِ .
 (٣) بَلْقَيْسُ : مُلْكَةُ سَبَأَ فِي بِلَادِ الْيَمَنِ . الصَّرْحُ : هُوَ فِي الْأَصْلِ الْبِنَاءُ الْعَالِي وَالرَّادُ هُنَا الْقَصْرُ الَّذِي
 بَنَاهُ سَيِّدُنَا سُلَيْمَانُ مَلِكُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ لِبَلْقَيْسَ وَكَانَ مَكْسُورًا بِالزَّجَاجِ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسْبَتْهُ لِحَاجَةٍ وَكَشَفَتْ
 عَنْ سَاقِيهَا فَقَالَ لَهَا إِنَّهُ مَرَحٌ مَعْرَدٌ مِنْ قَوَارِيرَ .
 (٤) الصَّبَا : الرِّيحُ الْمَرْقِيَّةُ . الْحَبْكُ : جَمْعُ حَبَاكَ (كَكِتَابٍ) وَهُوَ التَّجَمُّدُ يَكُونُ فِي الرَّمْلِ أَوْ الشَّعْرِ
 أَوِ الْمَاءِ إِذَا مَرَّتْ عَلَيْهِ الرِّيحُ . الْجَوَاشِينُ : جَمْعُ جَوْشَنَ وَهُوَ الدَّرْعُ . الْحَوَاشِي : جَمْعُ حَاشِيَةٍ
 وَهِيَ طَرَفُ الثَّوبِ .
 (٥) حَاجِبُ الشَّمْسِ : ضَوْؤُهَا . رَيْقُ النِّيثِ : أَوَّلُهُ ، يَقُولُ : مَرَّةً تَعَكَّسَ أَشْعَةُ الشَّمْسِ انْسَاقَظَةً عَلَيْهَا
 فَكَأَنَّمَا مَا ضَاحِكُنْ تَبْدُو أَسْنَانُهَا الْبَيْضَاءُ . وَرَّةٌ يَنْزِلُ عَلَيْهَا الْمَطَرُ فَيُجْتَمِعُ مَآؤُهَا كَأَنَّمَا
 يَبْكِيَانِ مَعًا . وَيَصِحُّ أَنْ يَكُونَ الضَّحْكُ وَالْبُكَاءُ مِنَ الشَّمْسِ وَالْمَطَرِ ، وَلَا يَكُونُ الْفَعْلَانِ « يَضَاحُكَ »
 وَ « يَبَاكِي » دَالِينَ عَلَى الْمَقَاعَلَةِ .



وليس إجمالنا للقول في بقية الأغراض بدليل على عدم فوقه فيها ، بل إننا نكتفي ببعض محاسن الرجل للدلالة على شاعريته المتفردة ، ولا يفوتنا أن نذكر قصيره في الهجاء ، وسوء معانيه ، وقبح ألفاظه فيه ، ولعل هذا هو السبب في تقدمه إلى ابنه أبي الفوث في آخر أيام حياته أن يحرق شعره في الهجاء قائلاً له : « يا بني هذا شيء قلته في وقت فشفيت به غيظي ، وكافأت به قبيحاً فعل بي ، وقد اقضى أربي من ذلك ، وإن بقي روي ، وللناس أعقاب يورثونهم العداوة والمودة ، وأخشى أن يعود عليك من هذا شيء في نفسك ومعاشك ، ولا فائدة لك ولا لي فيه » ، وهذا قول ابنه أبي الفوث ، ولعله اعتذار منه عن قصير أبيه في هذا الباب ، وإلا فقد بقي من هجاء البحتری كثير في ديوانه وكله ليس من شاكلة كلام البحتری في لفظه ومعناه ، بل الإسفاف فيه كثير ، واللفظ الفاحش شائع ، ومن ذلك قوله يهجو على بن يحيى :

وأكثرُ غَشِيَانِ القَابِرِ زَائِرًا عَلِيٌّ بْنُ يَحْيَى جَارَ تِلْكَ الْقَابِرِ
فَالَا يَكُنْ مَيِّتُ الْحَشَاةِ فِي الدِّي يُرَى فَهَوَ مَيِّتُ الْجُودِ مَيِّتُ الْمَاتِرِ
وَلَا فَضْلَ عِنْدَ الْأَرْمَنِ بَعْدَهُ سَوَى أَنَّهُ نُورٌ سَمِينٌ لِحَازِرِ
سَرَقَتْ سِهَامُ السُّلَيمِ وَلَمْ تَكُنْ لَهُمْ يَوْمَ زَحْفِ الشَّرْكِينَ بِحَاضِرِ

آثار البحتری وما قيل فيه

للبحتری ديوانه المشهور الذي جمعه أبو بكر الصولي ورتبه على حروف المعجم كما رتبه على بن حمزة الأصبهاني على الأنواع ، ويظهر أن الطبعة التي بأيدينا (طبعة الجوائب بالآستانة سنة ١٣٠٠ هـ) ليست جمع الصولي ولا الأصبهاني ؛ لأنها غير مرتبة على ترتيبهما ، ولا على ترتيب الزمن ولا جمع فيها كل ما قيل في شخص على حدة ، بل شعر البحتری فيها مهوش أيام تهویش تصعب مراجعته جدًا .

وقد شرحه محمد بن إسحاق الزوزنى المتوفى سنة ٤٦٣ هـ ، وقد ذكر ياقوت الحموى أنه شرح مليء علماً وحشياً فهما (وهذا الشرح لم نره بين ثبوت دار الكتب الملكية ولا يعرف بإحدى المكتبات العامة) . ولأبى العلاء المعرى كتاب « عبث الوليد » ، وهو محفوظ بدار الكتب الملكية ، وليس شرحاً مستوفياً لجميع شعره ، بل إنه قد يذكّر من القصيدة بيتاً أو بيتين . ويعلق عليهما بتصويب أو تحطئة ، فهو أشبه بالنقد منه بالشرح .

وللبحتري غير الديوان ، حاسة كحماسة أبى تمام ولكنه أكثر فيها من الأبواب إذ جعلها أربعة وسبعين ومائة باب ، ولكنها أبواب جزئية كأن يقول « ما قيل فى حل النفس على المكروه » و « ما قيل فى الفتك » و « ما قيل فى مجاملة الأعداء » وهكذا . أما حماسة أبى تمام فأبوابها عامة كما علمت . وقد طبعت حماسة البحتري فى مصر والثام .

وذكروا أن له كتاباً يسمى « معانى الشعر » وهو غير موجود ولا موصوف ما يحتويه . وكان البحتري أحد الشعراء الذين رزقوا السعادة فى شعرهم فقد ألفت الكتب فى نقده وأهمها كتاب « الموازنة بين أبى تمام والبحتري » للحسن بن بشر الأمدى المتوفى سنة ٣٧١ هـ رجح فيه كفة البحتري ، وحل على أبى تمام كثيراً .

سرقات البحتري

وقد عقد الأمدى باباً لسرقات البحتري من الشعراء عامة ومن أبى تمام خاصة وبلغت عندها من أبى تمام ثلاثاً وستين . ولكنك تعلم أن السرقة ليست عيباً إلا إذا أغار الشاعر على المعنى واللفظ فلم يكن له فى المعنى إضافة ولا عن اللفظ غنى ، وقد يكون آخذ المعنى أولى به من صاحبه إذا زاد فيه ومنحه من اللفظ ما جعل له جهلاً جديداً . وقد نظرت فوجدت أن أكثر سرقات البحتري جعلته أولى بالمعنى من صاحبه أفلاترى البحتري أولى من القرزدي فى قوله :

أَعْطَيْتَنِي حَتَّى حَسِبْتُ جَزِيلًا مَا أَعْطَيْتَنِيهِ وَدَيْعَةً لَمْ تَهَبْ
أَخْذَهُ مِنْ قَوْلِ الْقِرْزَقِ :

أَعْطَيْتَنِي الْمَالَ حَتَّى قُلْتُ يُودِعُنِي أَوْ قُلْتُ أُعْطِيتُ مَالًا قَدْ رَأَى لَنَا
كَذَلِكَ هُوَ أَوَّلَى مِنْ أَبِي صَخْرٍ الْمُهْلَى فِي قَوْلِهِ :

وَادِعٌ يَلْبَسُ بِالْهَرَمِ إِذَا جَدَّ فِي أَكْرُومَةٍ قُلْتُ هَزَلٌ
أَخْذَهُ مِنْ قَوْلِ الْمُهْلَى .

أَعْرَى أَسِيدِي تَرَاهُ كَأَنَّهُ إِذَا جَدَّ يُعْطَى مَالُهُ وَهُوَ لَاعِبٌ
وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ :

وَكَأَنَّ فِي جَسَمِي الذِّي فِي نَاطِرِكَ مِنَ السَّقَمِ
هُوَ مِنْ قَوْلِ الْمَنْصُورِ بْنِ فَرَجٍ :

حَلَّ فِي جَسَمِي مَا كَانَ بَعِينِكَ مُقِيمًا
وَمِنْ سَرَاقَاتِهِ مِنْ أَبِي تَمَامٍ قَوْلُهُ :

وَإِذَا اجْتَدَاهُ الْمُجْتَدُونَ فَإِنَّهُ يَهَبُ الْعَلَا فِي سَبِيلِهِ الْمَوْهُوبُ
وَهُوَ مِنْ قَوْلِ أَبِي تَمَامٍ :

تُدْعَى عَطَايَاهُ وَقُرْأُوهُيْ إِنْ شُهِرَتْ وَيَبْتَهُ خَيْرٌ مِنْ بَيْتِ أَبِي تَمَامٍ ، وَقَوْلُهُ :

وَلَنْ تَسْتَبِينَ الدَّهْرَ مَوْضِعَ نَفْسَةٍ إِذَا أَنْتَ لَمْ تُدَلِّلْ عَلَيْهَا بِحَسَدٍ
مِنْ قَوْلِ أَبِي تَمَامٍ :

وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ نَشْرَ فَضِيلَةٍ طُوِيَتْ أُنَاحَ لَهَا لِسَانُ حَسُودٍ

وَفَضَّلَ أَبِي تَمَامٍ فِي سَبْقِهِ فِي الْمَعْنَى ، وَاخْتِرَاعَهُ لَهُ ، وَلَكِنْ بَيْتُ الْبَحْتَرِيِّ حِصْنِ رَصِينٍ
لَوْ لَمْ يَكُنْ لِأَبِي تَمَامٍ فَضْلُ السَّبْقِ . وَقَوْلُهُ :

وَلَوْ أَنَّ مُشْتَقًّا تَكَلَّفَ فَوْقَ مَا فِي وَسْمِهِ لَسَمِيَ إِلَيْكَ اللَّيْزُ

من قول أبي تمام :

تَكَادُ مَعَانِيهِ تَهْسُ عِرَاصُهَا فَتَرَكَبُ مِنْ شَوْقِي إِلَى كُلِّ رَاكِبٍ
وحسن بيت البحترى ظاهر ظهور التكلف في استعارة المشاشة والركوب للعراض .
في قول أبي تمام .

وهذا باب واسع لنقف منه عند هذا الحد .

النقد والموازنة

تناولنا هذا الموضوع في كلامنا عن العصر الأموي ، وذكرنا أن الشعر كان موضوع الحديث عند العرب في جاهليتهم وإسلامهم ، فقدوا له الأسواق في الجاهلية والمجالس في الإسلام ، وكان الخلفاء لا يقربون إلا إذا قدم في الأدب وبصر به .
ولكن العصر الأموي قد انتهى ، ولم يكن البحث في الأدب ، وقد الشعر إلا حديث مائدة ، وسمير مجلس يتناولون الشعر من أطرافه ، فيستحسنون ، أو يعميرون البيت مفردا ، ويتناولون معناه مستقلا ، وإذا عابوا اللفظ فأكثر ما يكون عيبهم له من ناحية وضعه النحوي ، وإذا وزنوا بين شاعرين أدخلوا في الموازنة ما ليس منها كقول الصلتان العبدى في الموازنة بين جرير والفرزدق :

أَرَى الْخَطَفِيَّ بَزَّ الْفَرَزْدَقَ شِمْرَهُ وَلَكِنَّ خَيْرًا مِنْ كُلَيْبٍ مُجَاشِعُ

فأنت تراهم قد جعلوا لشرف النسب ، وفضل القبيلة وجهاً في التفضيل ، وذلك لا دخل له في الحكم على الكلام جودة أو رداءة .

وقد عاب ابن الأثير على أبي عمرو بن العلاء حين سئل عن الأخطل ، فقال : لو أدرك يوما واحداً من الجاهلية ما قدمت عليه أحداً . قال فهذا تفضيل بالأعصار لا بالأشعار ، وفيه ما فيه ١١ ، وقال أيضاً : سئل الأخطل عن أشعر الناس ، فقال

الذى إذا مدح رفع ، وإذا هجا وضع ، فقيل : فمن ذاك ؟ قال الأعشى . قيل : ثم من ؟ قال طرفة . وهذا قول فيه بعض التحقيق إذ ليس كل من رفع بمدحه ووضع بهجائه كان أشعر الناس لأن المعانى الشعرية كثيرة والمدح والهجاء منها . فهذه المرويات دليل على أن النقد على أيام الأمويين لم يكن ناضجاً ، ولا صحيح المبني ، ولا عادلاً في الحكم في جميع أحواله .

أما في العصر العباسي : فقد استمرّ النقد حديث الموائد وسمر المجالس ، وقد أغرم العباسيون به كفرام الأمويين ، لأنهم كما تعلم عرب يحنون إلى العربية ، ورونها شرفهم الذى يفاخرون به ، ثم هم من ناحية أخرى قصدوا بإحياء الآداب خدمة الدين ، فكانت عنايتهم أتم ، واحتفالهم أعظم .

وعلى نسبة اتساع الحضارة اتسع موضوع النقد فشمّل أموراً أدق مما تعرض له السابقون لأن حصافة العباسيين جعلت نقدهم أبعد غوراً ، وأوسع مدخلا ، وأعدل حكماً لم يدخلوا فيه العصبية ، ولا حكموا غير الاجادة ، فإذا كان الأمويون لم ينتقدوا المعنى إلا إذا كان محالاً لا يستقيم في الفهم ، فإن العباسيين انتقدوه حين رأوه مقصراً عن الغاية غير واثق بما يقتضيه مقام المبالغة ، أو تناسب المعانى ، فانظر إلى قول أبي تمام في أحمد بن المعتصم :

إقدامٌ عمرو في سماعة حاتم في جِلِّمٍ أحنف في ذكّاء إياس

كيف انتقده بعض حاضري مجلس الأمير بقوله : الأمير فوق من ذكرت . وقد كان في التشبيه بالبدري الجمال والأسد في الشجاعة وبحاتم في الجود متنع بأن قبل تتطلب للندنية معانى أرقى وأمثلة أعلى .

وانظر إلى قول للتنبى :

وَقَفْتَ وما في الموت شكّ لواقفٍ كأنك في جفن الردى وهو نائم

تمرُّ بك الأبطال كلّمى هزيمةً ووجهك وضّاحٌ وتفرّك باسم

ثم انظر إلى سيف الدولة كيف يتنبه إلى أن تناسب المعاني يستلزم عكس الترتيب يجعل الشعر الثاني من البيت الأول في موضع نظيره من البيت الثاني مبرهنًا على ذلك بأنه إذا وقف والموت لاشك فيه فكان وضاح الجبين باسم الثغر دل بذلك على تنامي شجاعته إذ يضحك في مقام البكاء وبشرق جبينه على حين يشتد العبوس وتكفير الوجوه ، وكذلك إذا كان لم يسلم من ضرر القتال أحد ثم كان المدحوح مصونًا كأنه في جفن أظفحه النوم كان ذلك أدل على إرادة الله له الحفظ وتقديره له السلامة .

ومما يروى في الاستدلال على إبعاد العصبية في الحكم أن البحترى سأل ابنه أبا الفوت عن الفرزدق وجري أيهما أشعر؟ فقال جرير: قال ، وبم ذلك ، قال لأن حوكة شبيه بحوكة قال نكلك أمك وهل في الحكم عصبية ! !



وكان لا تساع الحضارة ، وضعف الملكات أثر في اتساع مجال النقد ، فكثر تعرض الشعراء للوقوع في الخطأ النحوي واللغوي ، وكذلك اضطربت أوزان الشعر العربي في أذهانهم ، فكثر منهم الخروج عليها ، فصار الناقد يتناول منهم بالنقد مالم يكن يتوقع حدوثه من الجاهلي أو الأموي .

ومن الناحية اللفظية لم نجد في القديم من عاب الشعر بفرابة اللفظ لأن الغريب كان في زمانهم مألوفاً ، فأما في العصر العباسي ، فقد أصبح من العيب أن يقول الشاعر مثل كلام امرئ القيس وطبقته بل الفرزدق والأخطل ، ومن على شاكلتها . ولم يكن نظام القصيدة في القديم مجالاً لنقد النقاد ، فإنهم كانوا راضين عما تواضع عليه الجاهليون من البدء بمخاطبة الرسوم . ووصف عفتها ، ثم وصف الناقة والتشبيب بالحبوبة ، ولم نر منهم من ترك هذا النظام ، أو خرج عليه ناقضا له زاريا عليه ، أما في العصر العباسي عصر المدنية حين دخل في العرب عناصر جديدة لا يرون للعرب كبير

فضل ، ولا يعدون احتذاء طريقهم متعبة يحرصون عليها ، بل يعدون من العار أن يخرج بهم التقليد إلى الكذب بوصف النوق وهم لم يركبوها ، ولا عاجلوا أمورها ، وذكر عفاء الرسوم ، ولا رسوم عندهم . ولكن عندهم دور إذا خلت ممن يحبون عمرت بمن لا يحبون . فهذا وأشباهه هو الذي جعل أبا نواس يخرج على نظام القصيدة الذي كان حرماً لا يعتدى عليه ، وقد عرفت ما كان من أبي نواس في هذا المقام .

وقد اتجهت أنظارهم إلى ربط أجزاء القصيدة ، والخروج من بعض إلى بعض بمناسبات لطيفة ، واعتبارات دقيقة ، لما رأوا في طرفة التثقل بين الأغراض من مفاجأة لا يحسن وقعها في النفس ، فأكثروا من التلطف في ذلك ، وكانت لهم فيه آيات من الإبداع رأيت كثيراً من أمثلتها في موضوع (محاسن الشعراء المحدثين) ، وكان السابقون من جاهليين وأمويين لا يعنون بهذا الربط لمكانهم من السذاجة ، وعدم الإحكام ، ولم يكن من تقدمهم من يتجه إلى هذا ، لأن طبع الناقد ، والقائل واحد .

ولما كان من المدنية مادة للخيال ومن علومها ثروة في المعاني جرى على أيدي المحدثين تجديد في كل ذلك فأتوا بما لم يسبقوا إليه . وتناولوا ما لم يخطر للسابقين على بال كما كان لهم في معاني المتقدمين تنوع وإضافات جعلتهم في كثير من الأحيان يستبدون بحسنها ويستولون على الفضل فيها . وكان موضوع المعاني المختصرة والمعاني القديمة أوسع موضوعات النقد ، وجرى المفاضلات بين الشعراء في هذا الباب ، فمن أتى بما لم يسبق إليه أشادوا بهذه الفضيلة فيه ، وكذلك من تناول المعاني القديمة فأضاف إليها وتم تصنها ذكره بمجمل فعله ، ومن كان واثقاً في الذهن قصير الباع فأغار إغارة اللصوص ، وسرق معاني الشعراء بلا لطف ولا حيلة عابوه وهتفوا به . ولقد بلغ من عنايتهم ببحث هذه السرقات أن جعلوها موضوعاً متعدد المسائل في كتبهم التي ألفوها في النقد .

وهذا ضياء الدين بن الأثير صاحب كتاب « المثل السائر » جعل السرقة الشعرية أقساماً

منها : النسخ ، والمسخ ، والسلخ . وجعل لكل فروغاً وضروباً نذكر لك بعضها على سبيل المثال . قال :

أما النسخ فإنه لا يكون إلا في أخذ المعنى واللفظ جميعاً أو أخذ المعنى مع أكثر اللفظ فهو ضربان الأول ، يسمى وقوع الحافر على الحافر كقول امرئ القيس :

وَقُوفاً بها تحي على مطيهم يقولون لا تهلك أسي وتجعل

وقول طرفة :

وَقُوفاً بها تحي على مطيهم يقولون لا تهلك أسي وتجعل

ومن الضرب الثاني قول بعض المتقدمين يمدح معبداً للغي :

أجاد طويسُ والشريحي بعده وما قصباتُ السبق إلا لمعبد

فأخذه أبو تمام وقال :

تحاسنُ أصنافُ الغنين جمة « « « « «

ثم قسم السلخ اثني عشر قسمًا جعل منها أخذ المعنى مجرداً من اللفظ ، وجعل منه قول عروة بن الورد :

وَمَنْ يَكْ مِثْلِي ذَا عِيَالٍ وَمُقْتَرَا
لِيَبْلُغْ عُذْرًا أَوْ يَنَالَ رَغِيْبَةً
وَمَنْ يَكْ مِثْلِي ذَا عِيَالٍ وَمُقْتَرَا
وَمَنْ يَكْ مِثْلِي ذَا عِيَالٍ وَمُقْتَرَا

أخذه أبو تمام فقال :

فَقِي مَاتَ يَبْنَ الضَرْبِ وَالطَّعْنِ مِيْتَةً تَقُومُ مَقَامَ النَّصْرِ إِنْ فَاتَهُ النَّصْرُ

قال فروة بن الورد جعل اجتهاده في طلب الرزق عذراً يقوم مقام النجاح . وأبو تمام جعل الموت في الحرب الذي هو غاية اجتهاد المجتهد في لقاء الأعداء قائماً مقام النصر وكلا المعنيين واحد غير أن اللفظ مختلف .

هذا مثل من أمثلة توسع العباسيين في النقد . ولا نظن أن أحداً يعارض في قولنا : إن بعض علوم العربية لم يكن وضعه في أيام العباسيين إلا نتيجة لتسام ملكة النقد عندهم . فهذا علم العروض لم يدع الخليل إلى وضعه إلا ما رآه من خطأ في أوزان الشعر نذعن

حرص الشعراء لضعف ملكاتهم ، أو تعددونه تعدداً خارجين به على منهاج العربية في أوزان شعرها الموروثة عن القدماء ، وكذلك علم البيان عرفت من تاريخ وضعه أنه كان نتيجة لمناقشة في معنى قوله تعالى «طلعها كأنه رؤوس الشياطين» ، وهذه الأنواع البديعية التي أربت على المائة ألم تكن كلها في كلام القدماء والقرآن الكريم فظلت مستورة حتى كشفها البحث وترديد النظر في الكلام .

وما زال النقد ينمو حتى صار علماً فصلت مسأله ونوعت طرائقه ووضعت له المصطلحات وألفت فيه الكتب ، ونحن ذاكرون لك كيف تدرج التأليف في هذا العلم فنقول :

أول من ألف في النقد محمد بن سلام الجعفي المتوفى سنة ٢٣٢ هـ ، أخرج كتابه المسمى « طبقات الشعراء » قال في مقدمته : وللشعراء صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم . والصناعات منها ما تنفقه العين . ومنها ما تنفقه الأذن ، ومنها ما تنفقه اليد ، ومنها ما ينفقه اللسان . ثم جعل الشعراء قسمين جاهليين وإسلاميين ، وجعل كلا عشر طبقات واختار من كل طبقة أربعة من غولها فجعل من الطبقة الأولى من الجاهليين : امرأ القيس ، والناطقة ، وزهيراً ، والأعشى ، وجعل من الطبقة الأولى من الإسلاميين : جريراً ، والفرزدق ، والراعي ، والأخطل . وتراه في كتابه يعتمد في أحكامه على آراء السابقين ، فيستحسن ما استحسنا ، ويعيب ما عابوا ؛ ثم ارتقى النقد فلم يعد المؤلف يعتمد فيما يرى على أقوال القدماء بل يمحص بنفسه ، ويستحسن ما يراه حسناً ، ويستقبح ما يراه قبيحاً ، لا يعرف فضلاً للتقدم على متأخر إلا بالإجادة وحدها ، وذلك ما فعله ابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ هـ في كتابه « الشعر والشعراء » قال في مقدمته : لم أسلك فيما ذكرته من شعر كل شاعر مختاراً له سبيل من قلد واستحسن باستحسان غيره ، ولا نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه وإلى المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره .

كذلك ألف ابن قتيبة هذا ، كتاب « أدب الكاتب » فأنتجى في مقدمته على الكتاب باللوم وأبان عن جهلهم الفاضح ثم نصح لهم بأمر تحسن بهم ، فما قال :
ويستحسن له (أى الكاتب) أن يزن ألفاظه في كتبه ، فيجعلها على قدر
الكاتب والمكتوب إليه ، وألا يعطى خسيس الناس رفيع الكلام ، ولا رفيع الناس
وضيع الكلام ، فإني رأيت الكتاب قد تركوا تققد هذا من أنفسهم وخطوا فيه ،
فليس يفرقون بين من يكتب إليه « فأريك في هذا » وبين من يكتب إليه
« فإن رأيت كذا » . و « رأيك » إنما يكتب بها إلى الأكفاء والمساوين ، ولا
يجوز أن يكتب بها إلى الرؤساء والأساتذة لأن فيها معنى الأمر ولذلك نصبت ، ولا
يفرقون بين من يكتب إليه « أنا فعلت ذلك » ومن يكتب إليه « ونحن فعلنا ذلك »
و « نحن » لا يكتب بها عن نفسه إلا أوراؤها لأنها كلام الملوك والعظماء . قال الله
عز وجل : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ . وَإِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ »
وعلى هذا الابتداء خطبوا في الجواب ، فقال تعالى حكاية عن حضرة الموت :
« رَبِّ أَرْضِحُونِي ... » .

ولم يكن التأليف إلى هذا الحين قد صريحاً بالمعنى الذى صار إليه فيما بعد حتى
جاء قدامة الكاتب المتوفى سنة ٣١٠ هـ فألف كتابه « نقد الشعر » فبين فيه حدود
الشعر وشروط نظمه من حيث اللفظ والمعنى ولكن كتابه كان مختصراً شأن كل علم
في مبدئه ، وعلى هذا المثال كتابه نقد النثر ، وكتابه مطبوعان في مصر .

ثم جاء حسين بن بشر الأمدى المتوفى سنة ٣٧١ هـ فألف كتاب « الموازنة بين
أبى تمام والبحتري » وقد دل في كتابه على أن ملكة النقد كانت قد تمت عند أهل
عصره فإنه حين تناول الشاعرين لم يترك شيئاً مما يقال في شعرهما إلا أفاض فيه بأجل
بيان فقد بدأ بذكر آراء الناس في الشاعرين بأسلوب جدل وتقاش بين متعصب
لأبى تمام ومتعصب للبحتري ثم قال بعد ذلك « وأنا أبتدى بذكر مساوى هذين

الشاعرين لأختم بذكر محاسنها فأذكر طرفاً من سرقات أبي تمام ، وغلطه ، وساقط شعره ، ومساوئ البحرى فيما أخذه من معانى أوى تمام وغير ذلك من غلط فى بعض معانيه ، ثم أوازن من شعريهما بين قصيدتين إذا اتفقتا فى الوزن والقافية وإعراب القافية ، ثم بين معنى ومعنى ؛ فإن محاسنها تظهر فى تضاعيف ذلك وتنكشف . ثم أذكر ما انفرد به كل واحد منهما من معنى سلكه ولم يسلكه صاحبه وأفرد بأباً لما وقع فى شعريهما من التشبيه ، وبأباً للأمثال أختم بهما الرسالة »

فأنت ترى من هذا التهرس الذى ذكره إسناده أن النقد فى عصره قد اتسع موضوعه ، وشمل كل ما ينبى أن يقال فى الشاعر المنتقد . وقد أبى الأمدى أحسن بلاء فى حديثه عن الشاعرين حتى ليخيل إليك أنه لم يترك لأحدهما بيتاً من ديوانه إلا درسه وحلله وعرضه على محك نقده وأنصفه فيه فعابه حين استحق العيب ، وقرظه حين كان جديراً بالتعريف .

ولنضرب لك مثلاً من نقده لهما فقد عد من خطأ أبى تمام اللعنوى قوله فى على ابن الجهم وقد ودعه :

وَإِذَا فَقَدْتَ أَخَا فَلَمْ تَفْقِدْ لَهُ دُمْعًا وَلَا صَبْرًا نَلَسْتَ بِفَاقِدٍ

قال : وقوله « فلم تفقد له دمعاً ولا صبراً » من أخش الخطأ لأن الصابر لا يكون باكياً والباكى لا يكون صابراً ، فقد نسق بلفظة على لفظة وهما نمتان متضاربان ولا يجوز أن يكونا مجتمعين ، ومعناه أنك إذا فقدت أخاً فأدام البكاء عليك فلست بفاقد ودّه ولا أخوته وهو محصل لك غير مفقود وإن كان غائباً عنك ، وإلى هذا ذهب إلا أنه أفسده بذكر الصبر مع البكاء وذلك خطأ ظاهر ، ولو كان قال فلم تفقد له دمعاً ولا جزءاً أو دمعاً ولا شوقاً ولا قلقاً لكان المعنى مستقيماً . وظننته قال غير هذا ، وأن غلطاً وقع فى كتابة البيت عند النقل حتى رجعت إلى أصل أبى سعيد السكرى وغيره من الأصول القديمة فلم أجده إلا دمعاً ولا صبراً وذلك غفلة منه عجبية . وقد لاح لى معنى أظنه - والله

أعلم - إليه قصد وهو أن يكون أراد إذا فقدت أختاً ولم تفقد له دماً أى يواصل البكاء عليك فلست بفائدة على ما ذكرته أى فقد حصل لك وصار ذخراً من ذخرك وإن غاب عنك وغبت عنه ، وإن لم تفقد له صبراً أى وإن صبر عنك فلست أيضاً بفائدة لأنك لا تعتمد به موجوداً ولا مفقوداً . ولكن ذهب على أبى تمام أن هذا غير جائز لأنه وصف رجلاً واحداً بالوصفين جميعاً وهما متضادان ، ولو كان جعلهما وصفين لرجلين فقال :

وَإِذَا فَقَدْتَ أَخًا لَفَقَدِكَ بِأَكْبَرٍ أَوْ صَابِرًا جَلِيًّا فَلَسْتَ بِفَائِدٍ
أى فلست بفائدة هذا لأنه محصل لك ولست بفائدة هذا لأنه غير ناس مودتك ، لكان المعنى سائماً حسناً واضحاً ، ولو جعله شخصاً واحداً وجعل له أحد الوصفين فقال :
وَإِذَا فَقَدْتَ أَخًا فَأَسْبَلَ دَمْعُهُ أَوْ ظَلَّ مُصْطَبِرًا فَلَسْتَ بِفَائِدٍ
لكان أيضاً سائماً على هذا المذهب أو كان استوى له فى ذلك اللفظ بعينه أن يقول : فلم تفقد له دماً أو صبراً حتى لا يجعل له إلا أحدها لساغ ذلك لكنه نسق بالصبر على الجمع فجعلهما له ففسد المعنى

وعد من الخطأ المعنوى للبحرئى قوله :

هَجَرْتَنَّا يَقْطَى وَكَادَتْ عَلَى عَا دَاتِنَا فِي الصَّدُودِ تَهْجُرُ وَسْنَى
وهذا عندى غلط لأن خيالها يتثل له فى كل أحوالها يقطى كانت أو وسنى وإنما أخذ معنى بيته من قول قيس بن الخطيم :

مَا تَمْنَعُنِي يَقْطَى فَقَدْ تَوْتَيْنَهُ فِي النَّوْمِ غَيْرَ مُصَرِّدٍ مَحْسُوبِ

وما أظن أحد سبق قيساً إلى هذا المعنى فى وصف الخيال وهو حسن جداً ، ولكن فيه أيضاً مقال لمترضى ، وذلك هو الذى أوقع البحرئى فى الغلط لأن قيساً قال : ما تمنى فى اليقظة فقد توتئته فى النوم : أى ما تمنينه فى يقظتى ، فقد توتئته فى حال نومي حتى يكون النوم واليقظة معاً منسوبين إليه إلا أنه يتسع من التأويل لقيس .

ما لا يتسع للبحترى ، لأن قيساً قال فقد تؤتينه فى النوم ، فقد يجوز أن يحمل على أنه أراد ما تمنى يقضى وأنا يقظان فقد تؤتينه فى نومي ، ولا يسوغ مثل هذا فى بيت البحترى لأن البحترى قال : وسنى ولم يقل فى الوسن .

ومن قبيل كتاب الأمدى ما فصله عبد العزيز الجرجاني المتوفى سنة ٣٩٢ هـ فى كتابه «الوساطة بين المتنبي وخصومه» ألفه ردّاً على صاحب بن عباد الذى ألف كتاباً فى مساوى المتنبي ، وتحامل فيه عليه ضغينة لعدم مدح المتنبي له مع عرضه عليه أن يشاطره فى ما له إذا فعل ، ولكن المتنبي بلغ من كبره ألا يمدح إلا الملوك

وقد صدر الجرجاني كتابه بمقدمة طويلة أبان فيها أن المتقدمين من جاهليين وإسلاميين ليس لهم عصمة من الخطأ ، ولإسلامة من العيب كما يعتقد ذلك بعض الذين يرون أن الفضل يتقدم الزمان ، ثم عدّ كثيراً من أغلاط الجاهليين النحوية والمعنوية . وانتهى إلى أن الشعر « علم من علوم العرب يشترك فيه الطبع والروية والذكاء ، ثم تكون اللربة مادة له وقوة لكل واحد من أسبابه ، فمن اجتمعت له هذه الخصال فهو المحسن للبرز ، وبقدر نصيبه منها تكون مرتبته من الإحسان ... » وقد انتصف للمتنبي من عائبه فى قوله :

بَلَيْتُ عَلَى الْأَطْلَالِ إِنْ لَمْ أَقِفْ بِهَا وَوُفَّ شَجِيحٍ ضَاعَ فِي التَّرْبِ خَاتَمُهُ
قال : قالوا أراد التناهى فى إطالة الوقوف فبالغ فى تصغيره ، وكفى عسى هذا الشحيح بالغا ما بلغ من الشج . وواقعاً حيث وقع من البخل أن يقف على طلب خاتمه ، والخاتم أيضاً ليس مما يخفى فى التراب إذا طلب ، ولا يمس وجوده إذا قش ، وقد ذهب المحججون عنه فى الاعتذار له مناهب لا أرضى أكثرها ، وأقرب ما يقال فى الإنصاف ما أقوله إن شاء الله تعالى . أقول : إن التشبيه والتخيل قد يقع تارة بالصورة والصفة ، وأخرى بالحال والطريقة ، فإذا قال الشاعر وهو يريد إطالة وقوفه : إِنْ أَقِفْ وَقُوفَ شَجِيحٍ ضَاعَ خَاتَمُهُ ، لم يرد التسوية بين الوقوفين فى القدر والزمان والصورة ، وإنما يريد

لأقنن وقوفاً زائداً على القدر المعتاد ، وخارجاً عن حد الاعتدال كما أن وقوف الشحيح يزيد على ما يعرف في أمثاله ، وعلى ما جرت به العادة في إخراجه ، وإنما هو كقول الشاعر :

رُبَّ لَيْلٍ أَمَدَّ مِنْ نَفْسِ الْعَا شِقْ طُولًا قَطَعْتُهُ فِي أَنْتِخَابِ

ونحن نعلم أن نفس العاشق بالغاً ما بلغ لا يمتد امتداد أقصر أجزاء الليل ، وأن الساعة الواحدة من ساعاته لا تنقضى إلا عن أنفاس لا تحصى كأنه ما كانت في امتدادها وطولها ، وإنما مراد الشاعر أن الليل زائد في الطول على مقادير الليالي كزيادة نفس العاشق على الأنفاس ، فهذا وجه لا أرى به بأساً في تصحيح المعنى ، وإن كنت أرى ألا يؤخذ الشاعر بهذه الدقائق الفلسفية ما لم يأخذ نفسه بها ، ويتكلف العمل لها ، فيؤخذ حينئذ بحكمه ، ويطلب بما جنى على نفسه .

ثم جاء الثعلبي المتوفى سنة ٤٣٩ هـ ، فأخرج فيما أخرج من كتبه النافعة الجليلة كتاب : « قيمة الدهر في محاسن أهل العصر » ، وأتى فيه بأخبار شعراء القرن الرابع للهجرة ، وقسم الكلام فيه إلى أبواب باعتبار الأقاليم ، فجعل باباً لشعراء الشام تناول فيه فيما تناول المتنبي ، وأباً فراس ، وما كان من أحوال سيف الدولة ، واهتمامه بالأدب ، وعمله على رفع شأنه بعهطاته الكثير ، وباباً آخر لشعراء مصر والغرب ، وثالثاً لشعراء الموصل وهكذا ، وكل الكتاب بيان لتاريخ هؤلاء الشعراء ، أو الكتاب واختيار لمحاسن كلامهم ، وتعليق عليها بالعيب ، أو التكريز ولسكنه لم يحتفل بأحد هؤلاء احتفاله بالمتنبي ، فقد استغرق فيه قدراً كبيراً من أوراق الجزء الأول وهو أضخم أجزاء الكتاب الأربعة .

وهو بوجه عام إذا تناول شاعراً أو كاتباً ذكر نشأته وأثرها في نبوغه وتبع حياته بتفصيل شاف وتناول قوله فيذكر من الشاعر ابتدا آتة وتخلصاته وسرقاته ، وتهكم بما يابه ، وأقر بفضل محاسنه مما يجعل تعريف أهل هذا العصر بشاعر أو كاتب كاملاً شافياً للنفس .

وهذا فهرس ترجمة المتنبي في كتابه « يتيمة الدهر » وهو يدل على مقدار تعمقه
البحث قال :

« الباب الخامس في ذكر أبي الطيب المتنبي - ذكر ابتداء أمره - نبذ من
أخباره - أتمودج لسرقات الشعراء منه - صدر من سرقاته - بعض ما تكرر في شعره
من معانيه - ما ينسب على أبي الطيب من معائب شعره ومقايجه - ومنها المطالع - ومنها إبعاد
الاستعارة والخروج بها عن حدها - ومنها تكرير اللفظ في البيت الواحد - ومنها
الإيضاح عن ضعف العقيدة - ومنها اللفظ بوضع الكلام في غير موضعه - ومنها
امتنال ألفاظ التصوفة والخروج عن طريق الشعر إلى طريق الفلسفة - ومنها
استكراه التخلص وقبح المقاطع ... ومثل ذلك وأكثر منه تفصيلاً ذكره في
أنواع محاسنه » .

ومن نماذج نقده له قوله : فنها قبح المطالع ، وحقه الحسن والمذوبة لفظاً والبراعة
والجودة معنى لأنه أول ما يقرع الأذن ويصافح الذهن ، فإذا كانت حاله على الضد بجه
السمع ، وزجه القلب ، ونبت عنه النفس ، وجرى أمره على ما تقول العوام « أول النَّبِّ
دُرْدِيٌّ »^(١) ولائبي الطيب ابتداء آت ليست لعمرى من أحرار الكلام وغرره بل هي
كما نفاها عليه العائبون مستشفة مستبشرة لا يرفع السمع لها حجابها ، ولا يفتح القلب
بابه . كقوله :

هَذِي بَرَزْتُ لَنَا فَهَجَّتْ رَسِيصًا ثُمَّ انْصَرَفَتْ وَمَا شَقِيَّتْ نَسِيصًا

فإنه لم يرض بمجذف علامة النداء في هذى وهو غير جائز عند النحويين حتى
ذكر الرئيس والنيس فأخذ بطرفي الثقل والبرد وكفوله (أوه بديل من قولتي واه)
وهو برقية القرب أشبه منه بافتتاح كلام في مخاطبة ملك . وكفوله وهو ما تكلف له
اللفظ المعقد والترتيب المتعسف لغير معنى بدع يني شرفه وغرابته بالتعب في استخراج
ولا تقوم فائدة الانتفاع به إزاء التأذى باستماعه وهو :

(١) الذن : راقود البحر . الردى : ما يبق في أسفل الإناء من عكر السائل .

وَفَاؤُكَ كَمَا كَلَرْتَنِي أَشْجَاهُ طَاسِمُهُ بَانَ تُسْعِدَا وَالذَّمْعُ أَشْفَاؤُ سَاجِمُهُ^(١)

وكقوله في افتتاح قصيدة في مدح ملك يريد أن يلقاه بها أول لقية :

كنى بك داء أن ترى الموت شافياً وحسب المنايا أن يَكُنْ أمانيا
وفي الابتداء بذكر الداء ، والمنايا ما فيه من الطيرة التي تنفر منها السوقة فضلا عن
الملوك . . . ، ومن قصائده التي تحير الأفهام ، وتقوت الأوهام ، وتجميع من الحساب
ما يدرك بالارتيماسطيق ، وبالأعداد الموضوعة للموسيقى :

أَحَادُ أُمِّ سُدَّاسٍ فِي أَحَادٍ لُيَيْلَتُنَا الْمُنَوَّطَةُ بِالتَّنَادِي^(٢)

وهذا كلام الحُكْل^(٣) ، ورطانة الزُّط^(٤) ، وما ظنك بممدوح قد تشرع للسباع من
مادحه فصك سمعه بهذه الألفاظ الملقوطة ، والمعاني المنبوذة ، فأى هزة تبقى هناك ، وأى
أريحية تثبت هنا ؟ وقد خطأه في اللفظ ، والمعنى كثير من أهل اللغة ، وأحباب المعاني
حتى احتجج في الاعتذار له ، والنصح عنه إلى كلام لا يستأهله هذا البيت ، ولا يتسع
له هذا الباب .

وقد اتبع أبو العلاء المعري المتوفى سنة ٤٤٩ هـ في النقد أسلوبا طريفاً لم يسبقه
إليه غيره إذ بنى نقده على خيال بارع ، وهو أن الشعراء والنحاة وغيرهم دخلوا الجنة

(١) وفأؤك : مبتدأ خبره كالربيع . وأشجاءه : تفضيل من شجاء الأمر بمعنى أحزنه ، وطاسمه : دارسه
وساجمه : ساكبه . وجملة أشجاءه طاسمه حال من الربيع ، وبأن تسعد متعلق بوفاء . وهذا من
الضرورات التبيحة لأن الاسم لا يخبر عنه إلا بضمائه . والمعنى : يقول لصاحبيه الذين وعداه
بالمساعدة بالبكاء : إن وفاءكما بالمساعدة كهذا الربيع فإن الربيع كلما زاد دروسه كان أدعى إلى
الحزن وكذلك الوفاء كلما ضعف وقلت المساعدة بالبكاء كان أدعى إلى شدة الحزن .

(٢) أحاد : أى أحاد ، لحذف الهزرة ضرورة . وأحاد صيغة تدل على توارد الممدوح على العدد المصوغة
منه وهو مسومع عن العرب إلى الأربعة ، وقاسه المولدون إلى المصرة . الأيلة : تصغير ليلة لتعظيم
التناد : يوم القياة . يقول : هذه الأيلة المتصلة بيوم القياة تجميع ليالى الدهر كلها ، وكل ليلة من
تلك الليالى هل هي ليلة واحدة أو ست ليال في كل ليلة فتكون الأيلة سبع ليال أى أسبوعا .

(٣) الحسكل : مالا يسمع صوته من الدواب .

(٤) جبل من المندود يقيم الآن بالبنجاب .

أو النار بأقوالهم وآرائهم ، ثم جل يصف نعيمهم وعذابهم من أجل ذلك . فن قوله في مخاطبة المارّ بالجنة زهير بن أبي سلمى : بم غفر لك وقد كنت في زمن الفترة والناس مهمل ، لا يحسن منهم العمل ؟ فيقول (زهير) كانت نفسى من الباطل تهوراً فصادفت ملكاً غفوراً ، وكنت مؤمناً بالله العظيم ، ورأيت فيما يرى النائم حبلاً نزل من السماء فن تعلق به من سكان الأرض سلم ففعلت أنه أمر من أمر الله فأوصيت بنى وقلت لهم عند الموت : « إن قام قائم بدعوتكم إلى عبادة الله فأطيعوه » ، ولو أدركت محمداً لكنت أول المؤمنين ، وقلت في اليمية والسفه ضارب بالجران :

فَلَا تَكُنُّنَّ اللَّهَ مَا فِي نَفْسِكُمْ لِيَخْفَى وَتَهْمَا بِكُمْ اللَّهُ يُعْلَمَ
يُؤَخَّرُ فَيُوضَعُ فِي كِتَابٍ فَيَذَرُ لِيَوْمِ الْحِسَابِ أَوْ يُعْجَلُ فَيُنْفَخَ

ويقول عن بشار وهو يعذب في جهنم (. . .) ورجل في أصناف العذاب يعض عينيهِ حتى لا ينظر إلى ما نزل به من النعم فيفتحمها الزبانية بكلايب من نار) وإذا هو بشار بن برد قد أعطى عينين لينظر بهما بعد الكه ، إلى ما نزل به من النكال . فيقول له « يا أبا معاذ لقد أحسنت في مقالك وأسأت في معتقدك ولقد كنت في الدار العاجلة أذكر بعض قولك فأترحم عليك ظناً أن التوبة ستحققك مثل قولك :

إِزْجِعْ إِلَى سَكْنٍ نَعِيشُ بِهِ ذَهَبَ الزَّمَانُ وَأَنْتَ مُنْفَرِدُ
تَرْجُو غَدًا وَغَدٌ كَحَالِيهِ فِي الْحَيِّ لَا يَذَرُونَ مَا تَلِدُ

وقولك :

الْحُرُّ يُلْحَى وَالْعَصَا لِلْعَبْدِ وَلَيْسَ لِلْمُخْلِيفِ مِثْلُ الرَّدِّ

فيقول بشار (يا هذا دعنى من أباطيلك فأنى مشغول عنك) اهـ

وإن رشيق صاحب العمدة وإن لم يكن من أدباء الشرق كان معاصراً للدولة العباسية فقد توفى سنة ٤٥٦ هـ ، ويعد كتابه (العمدة في صناعة الشعر ونقده) من خير كتب النقد لأنه تناول الشعر من جميع نواحيه فقسم الشعراء إلى طبقات

وذكر حد الشعر، وما ينبنى عليه وتكلم في اللفظ والمعنى والصنعة والطبع، وذكر الأوزان الشعرية والقوافي وما خرج به الناس على القديم في هذين، ثم بحث المطالع والمقاطع وأورد أمثلة مختارة من ابتدا آت الشعراء وغيرها مرذولة سقطت بها أشعارهم، ثم تناول علوم البلاغة فتكلم فيها على قدر ما انتهى إليه البحث في أيامه، ثم بحث في المعاني القديمة والحديثة، ثم ذكر ما يترخص به الشاعر، وتناول السرقات الشعرية فأفاض فيها، وقد سمي أنواعها أسماء كثيرة سبقه إليها عبدالعزيز الجرجاني في كتابه «الوساطة» وقد نقل عنه ابن رشيقي معتدا برأيه فقال: قال الجرجاني وهو أصح مذهباً، وأكثر تحقيقاً من كثير ممن نظر في هذا الشأن، ولست تعد من جهابذة الكلام ولا من تقاد الشعر حتى تميز بين أصفائه وأقسامه وتحيط علماً برتبه ومنازله فتفصل بين السرقة والنصب وبين الإغارة والاختلاس وتعرف الإناس من الملاحظة وتفرق بين المشترك الذي لا يجوز ادعاء السرقة فيه. والمبتذل الذي ليس أحد أحق به من الآخر، وبين المختص الذي حازه المبتدئ فملكه واجتبه السابق فاقتطعه، وقد أتى بأمثلة لتلك الأقسام تراها في الجزء الثاني من كتابه.

ولابن رشيقي أيضاً كتاب يسمى «قراضة الذهب» وهو في الحقيقة توسعة لبعض أبواب كتابه «العمدة» ولعله هو الذي أشار إليه حين تكلم في المعاني القديمة والحديثة فقد اشتمل الكتاب على شيء من ذلك مع توسع آخر في موضوع السرقات الشعرية واقتباس الشعراء بعضهم من بعض.

وأخر من ظهر في العصر العباسي ممن كتبوا في النقد هو ضياء الدين بن الأثير المتوفى سنة ٦٣٧ هـ في كتابه «المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر» وقد صدره بمقدمة في علم البيان ومقالتين أولاهما في الصناعة اللفظية من سجع وجناس وغيرها وثانيتها في الصناعة المعنوية وقد تكلم فيها عن التشبيه والاستمارة، وعطف على أنواع البديع المعنوية وتناول موضوع المعاني القديمة والحديثة والسرقات وذكر من أقسامها ما سبق أن أوردنا لك

بعضه في صدر هذا القال وعقد موازنات بين الشعراء ويحسن أن نذكر لك منها موازنة

عقدها بين أبي تمام والتنفي في رثاء من مات صغيراً قال :

فما جاء من ذلك قول أبي تمام في رثاء ولدين صغيرين :

مجدُّ تَأَوَّبَ طارِقاً حتى إذا قُلْنَا أقام الدهرَ أصبح راحلاً^(١)
 نَجْمَانِ شَاءَ اللهُ أَلَا يَظْلُمَا إِلَّا ارْتِدَادَ الطَّرْفِ حَتَّى يَأْتِلَا
 إن الفجعة بالرياض نواضراً لَأَجَلُ منها بالرياض ذوابلاً
 لَمْ يَهِ عَلَى تِلْكَ الشَّوَاهِدِ فِيهِمَا لَوْ أُخْرِتْ حَتَّى تَكُونَ شَمَائِلًا^(٢)
 إن الملال إذا رَأَيْتَ مُمُوهُ أَيْقَنْتَ أَنْ سَيَكُونُ بَدْرًا كَامِلًا
 قل للأبير وإن لَقِيتَ مُوقَرًا مِنْهُ رِيْبِ الحَادِثَاتِ حُلَايِلًا^(٣)
 إن تَرُزَّ فِي طَرَفِ نَهَارٍ وَاحِدٍ رُزْأَيْنِ هَاجَا لُوعَةً وَبَلَابِلًا^(٤)
 فَالْتَقُلْ لَيْسَ مُضَاعَفًا لِمَطْبَةِ إِلَّا إِذَا مَا كَانَ وَهْمًا بَازِلًا^(٥)
 لَا عَرَوْا إِنْ فَتَنَّاكَ مِنْ عَيْدَانَةٍ لَقِيَا حِمَامًا لِلْبَرِيَةِ آسَافِلًا^(٦)
 إِنْ الْأَشْءَاءُ إِذَا أَصَابَ مُشَدَّبٌ مِنْهُ أُنْجَمٌ ذُرًّا وَأَنْتَ أَسَافِلًا^(٧)
 سَمَحَتْ خِلَالَكَ أَنْ يُوَسِّيكَ أَمْرُو أَوْ أَنْ تُذَكَّرَ نَاسِيًا أَوْ غَافِلًا
 إِلَّا مَوَاعِظَ قَادَهَا لَكَ سَمِيحَةٌ إِسْجَاحُ لُبِّكَ سَامِمًا أَوْ قَاتِلًا
 هَلْ تَكَلَّفُ الْأَيْدَى جَهْرًا مُهَيَّئِدٌ إِلَّا إِذَا كَانَ الْحَسَامَ الْقَاصِلًا

(١) تأوب : أتى ليلاً .

(٢) رواية الديوان « أمهت » بدل أخرت .

(٣) الحلال : السيد الشجاع .

(٤) ترز : أصلها ترزاً بمعنى تصاب . فلما سهلت الهجزة جزم الفعل بجدها . البابل : الوسوس .

(٥) الوم : الجمل النول الضخم القوى . البازل : الجمل أو الناقة في سبتها التاسعة ، وذلك أشد ما يكونا من القوة . والذي أنه لا يزداد الجمل إلا للجمل الذي يقوى عليه .

(٦) العيدة : النخلة أطول ما تكون .

(٧) الأشياء : صفار النخل : أعمل : ارتفع . أنت : كثر .

وقال أبو الطيب في مراثية طفل صغير :

فَإِنْ تَكَ فِي قَبْرِ فَإِنَّكَ فِي الْحَشَا
وَمِثْلُكَ لَا يُنْكَى عَلَى قَدَرِ سَنِهِ
أَنْتَ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ رِمَا حُمُّهُمُ
بِمَوْلُودِهِمْ صَحْتُ اللِّسَانِ كَغَيْرِهِ
تُسَلِّمُهُمْ عَلَيْهِمْ عَنْ مُصَايِرِهِمْ
عَزَاءُكَ سَيِّفُ الدَّوْلَةِ الْمُقْتَدَى بِهِ
تَحُوتُ الْمَنَائِمُ عَهْدَهُ فِي سَلِيلِهِ
بِنَفْسِي وَلَيْدٌ عَادَ مِنْ بَعْدِ سَحْلِهِ
بَدَا لَهُ وَعَدُّ السَّحَابَةِ بِالرَّوَى
وَقَدْ مَدَّتْ الْخَيْلُ الْعِتَاقُ عُيُونَهَا
وَرِيعَ لَهُ جَيْشُ الْعَدُوِّ وَمَا مَشَى
فَتَأْمَلُ أَيْهَا النَّظِيرُ إِلَى مَا صَنَعَ هَذَانِ الشَّاعِرَانِ فِي هَذَا الْقَصْدِ الْوَاحِدِ ، وَكَيْفَ هَامَ كُلُّ

- (١) الخيلة : ما ينخيل في الشخص ، والمراد أن المرء إنما يبيك عليه على قدر ما ينخيل فيه من عظمة في مستغله
(٢) الألى : الذين . أراد أنهم من القوم الذين أنفوا البخل بمجودهم فاستعار للبخل مهجة وجعل جودهم بمنزلة رماح تظعن بها مهجة البخل . والاستفهام للتقرير أى أنت من هؤلاء القوم .
(٣) المصاب (بالفهم) : مصدر بمعنى الإصابة . وللمنى أن معالمهم توجب لهم التسلى والصبر على ما يصيبهم أفة من الجزع الذى هو شأن النفوس الصغيرة . واهتمامهم بكسب الثناء يشغلهم عن الاشتغال بغيره
(٤) الفوارس : الركبان ، الرجل : الشاة .
(٥) الروى (بكسر ففتح) : مصدر روى من الماء . الفلة : العطش . يقول : ظهر هذا الوليد ومخايل كرمه وأمدة بالخير كما بعد السحاب بالرى ثم أعرض عنا بموته قبل أن يدركه فبقينا مثل عطش الأرس المجدة إذا أخطأها رى السحاب .
(٦) مد السيون : كناية عن الترقب والرغبة . الركاب : ما توضع فيه الرجل من السرج . أى مات قبل أن يركب الخيل وكانت متشوقة لذلك .

واحد منهما في واد مع اتفاقهما في بعض معانيه . وسأبين لك ما اتفقا فيه ، وما اختلفا ، وأذكر الفاضل من الفضول فأقول : أما الذى اتفقا فيه ، فإن أبا تمام قال : لحنى على ... وأما أبو الطيب . فإنه قال بمولودهم . . . فأبنى بالمعنى الذى أتى به أبو تمام ، وزاد عليه بالصناعة اللفظية ، وهى المطابقة فى قوله صمت اللسان ، ومنطق الفصل ، وقال أبو تمام : نجمان ، وقال أبو الطيب : بداوله . . . فوافق فى المعنى ، وزاد عليه بقوله : وصدوفينا غلة البلد الحل ، لأنه بين قدر حاجتهم إلى وجوده ، واتساعهم بحياته .

وأما ما اختلفا فيه ، فإن أبا الطيب : أشعر فيه من أبى تمام وذلك أن معناه أمتن من معناه ، ومبناه أحكم من مبناه ، وربما أكبر هذا القول جماعة من المقلدين الذين يقفون مع شبهة الزمان وقدمه لا مع فضيلة القول وتقدمه ، وأبو تمام ، وإن كان أشعر عندى من أبى الطيب . فإن أبا الطيب أشعر منه فى هذا الموضع ، وبيان ذلك أنه قد تقدم القول فى اتفاقيه من المعنى ، فأما الذى اختلفا فيه ، فإن أبا الطيب قال : عزاءك سيف الدولة . . . ، وهذا البيت بمفرده خير من بيتى أبى تمام الذين هما : إن ترزى طرفى . . . ، فإن قول أبى الطيب : والشدائد للتصل أكرم لفظا ، ومعنى من قول أبى تمام إن الثقل إنما يضاعف للبازل من المطايا ، وقوله أيضا تخون المنايا . . . أشرف من بيتى أبى تمام الذين هما : لا غرو إن فننان . . . وكذلك قال أبو الطيب البيهقي : ألت من القوم . . . ، وهذا خير من بيتى أبى تمام الذين هما : شمخت خلالك ... وهذه موازنة أخرى عقدها أيضا بين البحرى وأبى الطيب فى وصفهما للأسد قال « . . . واسكن الغرض إنما هو المفاضلة بين البحرى وأبى الطيب فى أوردها من المعانى فى هذا المقصد المشار إليه فما جاء للبحرئى من قصيدته :

وما تنقِمُ الحِصَادُ إِلَّا أَصَالَهَ لَدَيْكَ وَعَزَمًا أَرْجِيحًا مُهْدَبًا^(١)
وقد جرَّوا بالأمس منك عَزِيمَةً فَصَلَّتْ بِهَا السَّيْفُ الحِصَامَ المُجَرَّبَا

(١) الأريحي : الواسع الحلق ، والمراد بالعزم الأريحي العزم المتناول لثنى الأمور .

عَدَاةَ لَقَيْتَ اللَّيْثَ وَاللَّيْثُ مُحْدِثُ
إِذْ شَاءَ غَادَى عَانَةً أَوْ عَدَا عَلَى
شَهِدْتُ لَقَدْ أَنْصَقْتَهُ حِينَ تَنْبَرِي
فَلَمْ أَرْ ضِرْعَيْنِ أَصْدَقَ مِنْكُمْ
هَزِرًا مَشَى يَبْقَى هَزِرًا وَأَغْلَبَا
أَدْلَى يَشْفِي نَمَ هَالَتَهُ صَوْلَةٌ
فَأَحْجَمَ لَمَّا لَمْ يَجِدْ فِيكَ مَطْعَمًا
فَلَمْ يَنْفِهِ أَبْ كَرَّ نَحْوَكَ مُقْبِلًا
سَحَلَتْ عَلَيْهِ السِّيفَ لَاعَزَمُكَ انْتَهَى

يُحَدِّدُ نَابًا لِلْقَاءِ وَخَبْرًا^(١)
عَقَائِلَ سِرْبٍ أَوْ تَقْنَصَ رَزْرَبًا^(٢)
لَهُ مُصْلِتًا عَضْبًا مِنَ الْبَيْضِ مُقْضِبًا
عِرَاكَ إِذَا الْهَيَّابَةُ النَّكْسُ كَذِبًا^(٣)
مِنَ الْقَوْمِ يَفْشَى بِاسِلِ الْقَوْمِ أَغْلَبَا
رَأَى لَهَا أَمْضَى جَسَنًا وَأَشْنَبًا^(٤)
وَأَقْدَمَ لَمَّا لَمْ يَجِدْ عَنْكَ مَهْرَبًا
وَلَمْ يَنْجِهْ أَنْ حَادَ عَنْكَ مُنْكَبًا
وَلَا يَدُكَ ارْتَدَّتْ وَلَا حُدَّهُ نَبَا

وبما جاء لأبي الطيب في قصيدته :

أَمُومَرُ اللَّيْثِ الْهَزْرَبِ بِسَوَاطِرِ
وَرَدُّ إِذَا وَرَدَ الْبَحِيرَةُ شَارِبًا
مُتَخَضِّبٌ بِدَمِ الْفَوَارِسِ لَابِسُ

لَمِنْ أَدَّخَرْتَ الصَّارِمَ الْمُصَوَّلَا^(٥)
وَرَدَ الْفُرَاتِ زَيْبُرُهُ وَالنَّيْلَا^(٦)
فِي غِيْلِهِ عَنِ إِبْدَتِيهِ غِيْلَا^(٧)

(١) حدد الكين : مسحها بحجر أو من لصير فاطمة ، ولعل المراد من تحديد الليث لئلا أنه يحكمه بأسنانه استمدا للفتك به .

(٢) غادى : صادف في وقت الفدوة (أول النهار) . العانة : جماعة الجر الوحشية . الررب : القطيع من بئر الوحش .

(٣) الهياة : الجبان . النكس : الضعيف . كذب : جن يقال حل فلا كذب أى فلا تكلم ولا جبن .

(٤) الشنب (الفتح وتيل يترك وقيل لا) : تحريك الفم والهاج . يقول إن الأسد أعجبه من نفسه ما يأبى به من شغب ولكنه عاد فهاه ما رأى منك .

(٥) عفره : مرغه في التراب . يقول إنك صرعت الأسد بسوطك وهو أشد الحيوان خلقه وأهوله بأسا . فلن خبأت السيف .

(٦) الورد : الذي يضرب لونه إلى الحمرة . والمراد بالبحيرة بحيرة طبرية .

(٧) النيل : الناقة . اللبدة : الشعر المجتمع على كفف الأسد شبه لبدته بالناقة لكتكتها فقال انه إذا كان في الناقة التي هي شجر ملتف فهو في ناقة أخرى من لبدته .

ما قُوبِلَتْ عَيْنَاهُ إِلَّا ظُنُنَا نَحْتِ الدُّجَى نَارَ الْفَرِيقِ حُلُولًا^(١)
 فِي وَحْدَةِ الزُّهْبَانِ إِلَّا أَنَّهُ لَا يَعْرِفُ التَّحْرِيمَ وَالتَّحْلِيلَا
 بَطْلًا الرَّسْمَى مُتَرَفِّقًا مِنْ نَهْدِهِ فَكَأَنَّهُ آسٍ يَجُسُّ عَلَيْهِ^(٢)
 وَيَرُدُّ عَقْرَتَهُ إِلَى يَافُوخِهِ حَقِّي تَصْيِيرَ لِرَأْسِهِ إِكْلِيلًا^(٣)
 قَصَرَتْ خَافَتُهُ الْخَطَا فَكَأَنَّمَا رَكِبَ الْكَيْسِي جَوَادَهُ مَشْكُولًا^(٤)
 أَلْقَى فَرِيستَهُ وَزَجَّجَرَ دُونَهَا وَقُرْبَتَ قُرْبَا خَالَهُ تَغْلِيلًا^(٥)
 تَنْشَاهُ الْقُرْبَانَ فِي إِقْدَامِهِ وَتَحَالَفَا فِي بَذَلِكِ الْمَأْسُورًا^(٦)
 أَسَدٌ يَرَى عُصْوِيهِ فَيْكُ كِلَيْهِمَا مَتْنًا أَزَلَّ وَمَسَاعِيدًا مَقْتُولًا^(٧)
 مَا زَالَ يَجْمَعُ نَفْسَهُ فِي زَوْرِهِ حَقِّي حَسِبْتَ الرِّضَ مِنْهُ الطُّولَا
 وَكَأَنَّمَا غَرَّتُهُ عَيْنٌ فَادَنَى لَا يُبْصِرُ الْخَطْبَ الْجَلِيلَ جَلِيلَا
 أَفْتُ الْكَرِيمِ مِنَ الدَّيْنَةِ تَارِكُ فِي عَيْنِهِ الْمَدَدَ الْكَثِيرَ قَلِيلَا

- (١) الفريق : الجماعة . حلول : جمع حال . وهو الذي ينزل بالمكان ويقم فيه . يقول عيناه تحت ظلام الليل كأنهما نار قوم حالين .
 (٢) هذا البيت من عيون الشعر العربي في دقة التمثيل .
 (٣) الغرة : شعر الفراء ، إذا غضب الأسد ردها إلى يافوخه تفتصب كالإكليل .
 (٤) القصر (هنا) : ضد الطويل . المشكول : المفيد بالشكال ، يقول : إن الخوف منه أوقع الرعب في قلوب الحيل فتجريت وذهلت عن الجري ، حتى كأن الفارس يركبها مقيدة .
 (٥) يشير بالترية إلى البقرة التي ألفت إلى الأسد فهاجه عنها الممدوح . والتغليل : التعرض اطعام الناس من غير دعوة يقول : إن الأسد ألقى فريسته ورأى غاضبا حين رآك تقرب منها متطفلا على طعامه .
 (٦) ويرى فتشابه الحلقان . يقول : إنك والأسد تشابهتا في خلقكما فكلكما كما مقدم ولكن يفرق بينكما أنك كرم بإذلك لما ملكتك بذلك وهو بخيل جريس على طعامه .
 (٧) العضوان : نسرهما في البيت بالثني والسعد ، والمثني جانب الصلب . الأزل : القليل اللحم . يريد أنه يشبه الأسد في قوة هذين العضوين فكان الأسد حين يراهما في المسدوح يرى عضوي همة .

والعائر مَضَاضٌ وليس بمخائفٍ من خَفِيفٍ مَنْ خَافَ مِمَّا قِيلَا
خَذَلْتُهُ قُوَّتُهُ وَقَدْ كَافَحْتُهُ فَاسْتَنْصَرَ التَّسْلِيمَ وَالتَّجَدُّلَا^(١)

وسأحكم بين هاتين القصيدتين ، والذي يشهد به الحق وتفتحه القصيدة أذكركه ، وهو أن معاني أبي الطيب أكثر عدداً وأسد مقصداً ، ألا ترى أن البحترى قد قصر مجموع قصيدته على وصف شجاعة المدوح في تشبيهه بالأسد مرة وتفضيله عليه أخرى ولم يأت بشيء سوى ذلك ، وأما أبو الطيب فإنه أتى بذلك في بيت واحد وهو قوله :

أُمُفَّرُ اللَّيْثِ الْهَزْبَرُ بِسَوْطِهِ لِمَنْ ادَّخَرْتَ الصَّارِمَ الْمَصْقُولَا

ثم إنه تفنن في ذكر الأسد ، فوصف صورته وهيئته ، ووصف أحواله في انفراده في جنسه وفي هيئة مشيه واختياله ، ووصف خلقه بخله مع شجاعته ، وشبه المدوح به في الشجاعة وفضله عليه بالسقاء ، ثم إنه عطف بعد ذلك على ذكر الأنفة والحمية التي بعثت الأسد على قتل نفسه بقاء المدوح ، وأخرج ذلك أحسن مخرج ، وأبرزه في أشرف معنى . وإذا تأمل العارف بهذه الصناعة أبيات الرجلين عرف ببديهة النظر ما أشرت إليه . والبحترى وإن كان أفضل من المتنبي في صوغ الألفاظ وطلاوة السبك ، فالمتنبي أفضل منه في الفوص على المعاني ، وبما يدل على ذلك أنه لم يعرض لما ذكره بشر في أبياته الرائية لعله أن بشرًا قد ملك رقاب تلك المعاني ، واستحوذ عليها ولم يترك لغيره شيئاً بقوله فيها . ولقطة أبي الطيب لم يقع فيما وقع فيه البحترى من الانسحاب على ذيل بشر لأنه قصر عنه تقصيراً كثيراً ، ولما كان الأمر كذلك عدل أبو الطيب عن سلوك هذه الطريق وسلك غيرها فجاء فيما أورد مبرزاً اه .

ونعلم أنه يشير برائية بشر إلى قصيدة بشر بن عوانة المشهور التي أولها :

أَفَاطُمُ لَوْ شَهِدْتِ بَبْطُنِ حَبْتِي وَقَدْ لَاقَى الْهَزْبَرُ أَخَاكَ بِشْرَا

وهي مشهورة فنكتفي بالإشارة إليها .

(١) الاستنصار : طلب النصرة . التجديد : الرى على الجدالة (الأرض) . يقول : لم تساءله قوته على مكافحتك فطلب النصرة عليك بأن استسلم لك ، وهو تهكم

هذه صورة ولعلها ضئيلة لما كان عند العرب من ميل إلى النقد وناذ فيه ، وفي ذلك أبلغ رد على من اتهمهم بالجهل في هذا الباب ، وعدم التعرض لهذا الفن فيما تناولوه من فنونهم .

الرواية والرواة

تنقسم الرواية في تاريخ الأدب العربي قسمين : رواية الحديث ، ورواية الأدب من شعر ولغة وأخبار .

أما رواية الحديث فهي أهم القسمين ، وأحفظها تاريخياً ، وأمدّها زمنًا ، وذلك أنها تعلقت بأصل من أصول الدين ، وهو كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فن أجل هذا عظم شأنها حتى صارت علماً أطلق عليه اسم « رواية الحديث » ، ثم « مصطلح الحديث » .

ومنشأ هذا العلم كان بعد موت رسول الله حين وقعت الأحداث ، فالتسوا لها الحكم في القرآن وكلام النبي . وقد احتاطوا أن يقع الكذب على رسول الله ، فكان أبو بكر لا يقبل خبراً من أحد إلا إذا شهد آخر على سماعه من رسول الله ، وكان عمر شديداً على المكثرين من الرواية ، كما كان عثمان وعائشة يتصفحان الأحاديث ويردان كثيراً منها على أصحابها ، وكان عليّ إذا حدثه محدث استحلقه بالله فإن حلف له صدقه . وعرف كثير من الصحابة بقلّة الرواية: كأي بكر ، والزبير ، وأبي عبيدة ، والعباس ، بل كان بعضهم لا يكاد يروى شيئاً كعبيد بن زيد . أما أكثر الصحابة رواية فهو أبو هريرة صحب رسول الله ثلاث سنين وعاش بعده نحواً من خمسين سنة وكثيراً ما أنكر عليه عمر وعثمان وعليّ وعائشة . ويذكرون في سبب كثرة حديثه أنه كان لفقره يلازم رسول الله للخدمة لا يشتغل عنه بالصفق في الأسواق ، ولا السفر في التجارة ولا الاقطاع في الضياع .

وظل الحديث لا يكتب لخوف اختلاطه بالقرآن ، والناس حديثو عهد بهما ثم لمكان الثقة بالرواية والحرص على كلام رسول الله ، وبقي هذا حتى كانت خلافة عمر ابن عبد العزيز ، وقد كثرت الأحاديث ، واجترأ الناس بالكذب على رسول الله ومال القصاص إلى التهويل ، والزنادقة إلى اللبس للإسلام ، وقل من أهل الحديث من يوثق بأيمانهم ، فاستخار عمر ربه أربعين يوماً حتى خار له في تدوين الحديث فكان ذلك على يد ازهرى أو ابن صبيح أو ابن جريج .

ولكثرة من يقولوا على رسول الله من متعمد ومفتر احتاج أهل الحديث إلى تمحيص الرواية ، فاشتراطوا الإسناد وأوجبوا في الراوى شروطاً من العدالة والضبط وأن يكون معروف الذات ، قنشاً عن ذلك علم الرواية وكان من ألقاب الرواة ثقة أو ضابط ، خير أو مأمون ، شيخ ، صالح الحديث - ويقولون في التجريح : لين الحديث ، متروك الحديث ، وضاع ، دجال .

وكان من رغبتهم في التحري أن شاعت الرحلة من طلاب الحديث إلى جميع الأمصار لأن الصحابة والتابعين كانوا قد اناسحوا في البلاد فكان منهم بالحجاز والكوفة والبصرة والشام ومصر ، ومن هنا أيضاً تعددت طرق الرواية . ما سمى بمد بلم « مصطلح الحديث » .

وقد انصرفت همه العلماء إلى تحصيل حديث رسول الله بأسانيده المختلفة كما درسوا رجال السند دراسة حفظوا فيها أسماءهم وتبينوا صفاتهم وتصفحوا أخلاقهم ، وكان من ذلك علم واسع وكان أغرب ما فيه أن ترى الحدث يحفظ الحديث بمدة روايات تختلف في أشخاص الرواة وفي نص الحديث بفروق دقيقة يؤديونها أتم أداء . وكان منهم العجب المعجب في هذا الباب . وإنما مرجعه إلى أمرين : أولهما امتازت به الأمة العربية من قوة ملكة الحفظ منذ جاهليتها ، وهي ميزة خصها بها الله وليست عامة

في كل البدو . وثانيهما ما كان من رغبة أكيدة انطوت عليها قلوب أهل الوريح من هذه الأمة . وأعان عليها نيات صالحة امتاز بها أوائل الخلفاء من دولة بني العباس . فكان من مجموع ذلك للحديث : رواج ، وجمع ، وضبط ، وتحصيل ، وخدمة من كل النواحي تتقاصر عنها همم كثير من الأمم في أعز شيء لديها . وكان من أمثلة الضبط للأحاديث وحفظ أسانيدها ومتونها ما جرى من امتحان الإمام البخاري في بغداد وقد مر بك حديث ذلك .

وقبله كان ابن عباس رضى الله عنه ، وقد كان صدره خزانة العرب ومرجعهم في التفسير والحديث ، ثم الشعبي الذي كان يقول ما كتبت سواداً في بياض ولا حدثني أحد بحديث قط إلا حفظته وهو الذي أدرك خمسمائة من الصحابة وسمع منهم . وكان الإمام أحمد بن حنبل بعد ذلك يحفظ ألف ألف حديث وأبوزرعة سبعمائة ألف وهو الذي سئل عن رجل حلف بالطلاق أن أبا زرعة يحفظ مائتي ألف حديث هل يحنت ؟ فأجاب : لا .

وقد مر بك من الكلام في علم الحديث ما يعد تيمناً لهذا البحث .

رواية الأدب

من المعروف أن العرب منذ جاهليتها كانت تروى أشعارها وأخبارها وكان لكل شاعر منهم رواية ينقل للناس شعره ويذيعه فيهم . ولما جاء الإسلام واحتاج العرب إلى رواية أخبار الجاهلية ، وأشعار شعرائها وفعلوا ذلك لذكري أيامهم السالفة والعباهة بأعمال آبائهم الأجداد ، ولا احتياجهم إلى الشعر في تفهم القرآن وحديث رسول الله ، نشأت للأدب رواية ولكنها تختلف عن رواية الحديث بأنها لم يشترط فيها الإسناد والعنقة إذ لم يكن الأدب في أول أمره مجالاً للكذب لغلبة الوريح على الناس ، ولأن

مرجع اللغة إلى القياس وهو لا يختلف . فمن أجل ذلك لم يكن لرواية الأدب إسناد . ثم لما جرى على الأدب فيها بعد ، مادعا إلى الاحتياط فيه حدث فيه الإسناد وذلك حين ضعفت اللغة في عرب الأمصار فاحتاج الناس إلى نقلها عن عرب البادية ، ثم حين فسدت النعم فصار التقول سهلاً على مستطيمه ، فكثرت الاصطناع في الشعر ونحله فنشأت إذ ذاك أول طبقة من رواة الأدب أمثال أبي عمرو بن العلاء وحما ، لذلك ترى سند الرواية في الأدب ينقطع إليهم وإلى أهل طبقتهم ولا ترى خبراً أو شمرأ متصل السند إلى جاهلي إلا ما كان من حديث رؤبة بن المجاج الراجز ، فقد سئل عن معنى قول امرئ القيس .

نَطْمُهُمْ سُلْكِي وَتَحْلُوجَةٌ كَرَكْ لَأَمِينٍ عَلَى نَابِلٍ^(١)

فقال حدثني أبي عن أبيه قال حدثني عمي وكانت من بني دارم قالت : سألت امرأ القيس وهو يشرب طلي مع علقمة بن عبيدة مامعنى قولك : كرك لأمين على نابيل ؟ قال : مررت بنابل وصاحبه يناوله فإ رأيت أسرع من ذلك . وحدث حماد قال كان للكيث المتوفى سنة ١٢٦ هـ جدتان أدركتا الجاهلية فكاتنا تصفان له البادية وأمورها وتجبرانه بأخبار الناس فيها فإذا شك في شمر أو خبر عرضه عليهما فتخبرانه عنه ، قال حماد فن هنا كان علمه .

وكررت الرحلة إلى البادية لنقل اللغة ورواية الشعر ونوادير العرب وأقدم من رحل إليها يونس بن حبيب المتوفى سنة ١٨٣ هـ ، وخلف الأحمر المتوفى سنة ١٧٥ هـ ، وأبو عبيدة معمر بن المثنى المتوفى سنة ٢٠٩ هـ وأبو زيد الأنصاري المتوفى سنة ٢١٥ هـ والأصمعي المتوفى سنة ٢١٧ هـ .

ثم جاء بعدهم طبقة النضر بن شميل والكسائي وهو الذي ذكروا أنه أفهد خمس عشرة قينة من الخبر في الكتابة عن العرب غير ما حفظ .

(١) السلكى (بالضم) : الطعنة المستقيمة . التحلوجة : الطعنة ذات العيين وذات العمال . الريش اللوام هو المثلث الذى يجعل فيه بطن ريشة إلى ظهر الأخرى . فالألمان هنا ريشتان ملتصقان . شبه سرعة الطعن بدفع الريش إلى البتال ، وإنما يحتاج إليها لأن الفراء الذى يلزق به الريش إذا برد لم يلزق فيستعمل حلاً .

وما زال العلماء يرحلون إلى البادية في طلب اللغة حتى فسدت لغتها ولانت جلود أهلها .

وكما رحل أهل الأمصار إلى البادية ، كذلك كان يقدم منها أعراب فيتلقاهم الرواة ويتحملون عنهم وقد يأنس بعض هؤلاء بالحضر فيقيمون به طويلاً فيكون مجلسهم حلقة علم يقصد إليها كل راغب في معرفة اللغة ورواية الخبر والشعر ، كذلك كان يتحاكم إليهم العلماء حين يقع بينهم الخلاف ، وكانوا يستدعون إلى قصور الخلفاء والأمراء من أجل ذلك .

وبعض هؤلاء الأعراب لما علم ما تجره الرواية على أصحابها من خير وثروة أبوا إلا أن يبيعوا علمهم للناس فكانت بدوئتهم مورد كسب وباب غنى . وقد عرف من البدو الذين أقاموا في الحضر .

١ - ثور بن زيد ، كان يقد على آل سليمان بن علي ، وعنه أخذ ابن المقفع فصاحته

٢ - أبو مسعل ، حضر إلى بغداد وافداً على الحسن بن سهل .

٣ - أبو صمغ الكلائي » » » » » »

٤ - أبو العميتل ، كان مؤدب ولد عبد الله بن طاهر ، وكان عبد الله لا يسمع من شاعر إلا بعد أن يجيز ذلك أبو العميتل .

٥ - أبو مسعل المقتلي ، وفد على الرشيد ، واتصل بالبرامكة .

٦ - أبو مهدي ، كان صاحب غريب ، وروى عنه البصريون كثيراً .

٧ - القفسي ، رواية بني أسد وصاحب مآثرها أدرك المنصور ، وقد أخذ عنه العلماء مآثر بني أسد وغير هؤلاء كثيرون لا يحصيه عد .

وسنكتفي من تراجم رواة الأدب بترجمة الأصمعي فإنه يمثلهم أصدق تمثيل .

حياة الأصمعي

اسمه عبد الملك بن قُريب . واسم قريب عاصم . وسمى الأصمعي نسبة إلى جده أصمعي . وهو من قيس نشأ في البصرة وقدم بغداد في أيام الرشيد ولما تولى المأمون كان الأصمعي قد عاد إلى البصرة فاستقدمه فاعتذر بالضعف والشيخوخة . فكان المأمون يجمع المشكل من المسائل ويسيرها إليه فيجيب عنها .

وقد امتاز الأصمعي بالحافظة النادرة، وحياته كلها برهان صادق على قوة هذه الحافظة فإنه ما سئل عن شيء إلا كان عارفاً به راوياً للشعر فيه . ولسكننا نذكر حادثة واحدة لعلها أدل دليل على تمام هذه الملكة فيه .

ذكروا أن الحسن بن سهل لما قدم العراق أحب أن يجمع بين جماعة من أهل الأدب فأحضر أبا عبيدة مَعَمَّرَ بن المثنى والأصمعي ونصر بن علي الجهضمي فابتدأ الحسن فنظر في رقاع كانت بين يديه للناس فوقع عليها وكانت خمسين ، ثم أمر فرفعت إلى الخازن ثم أفاضوا في ذكر الحفظ وذكروا جماعة من السلف اشتهروا به فالتفت أبو عبيدة وقال ما الغرض أيها الأمير من ذكر من مضى وها هنا من يقول إنه ما قرأ كتاباً قط فاحتاج إلى أن يعود إليه ولا دخل قلبه شيء وخرج منه ؟ فالتفت الأصمعي وقال إنما يريدني بهذا القول ، والأمر في ذلك على ما حكى وأنا أقرب إليه . قد نظر الأمير في خمسين رقعة وأنا أعيد ما فيها وما وقع به عليها رقعة رقعة . فأحضرت الرقاع فقال الأصمعي سأل صاحب الرقعة الأولى كذا واسمه كذا ووقع له بكذا ثم مر في نيف وأربعين رقعة ، فالتفت إليه نصر الجهضمي وقال : أيها الرجل أبق على نفسك من الدين ، فكف الأصمعي .

وكان الأصمعي يقول أحفظ عشرة آلاف أرجوزة ، وكان الرشيد يسميه بشيطان الشعر .

كذلك امتاز الأصمعي بطلاوة الحديث وحلاوة التعبير ، وهذا هو الذي جعله حبيباً إلى الخلفاء والأمراء حائراً لصلاتهم ، وقد قال عنه الإمام الشافعي : ما عبر أحد عن العرب بأحسن من عبارة الأصمعي ، وسئل أبو نواس عنه وعن أبي عبيدة فقال : أما أبو عبيدة ، فإذا أمكنوه قرأ عليهم أخبار الأولين والآخرين ، وأما الأصمعي فلبل يطر بهم بنغماته .

كذلك كان صادقاً في حديثه مأمون الرواية لكانه من خشية الله وتقاه ، وقد كان الإمام الشافعي يقول : ما رأيت بهذا السكر أصدق من الأصمعي ، وكان الإمام أحمد بن حنبل يثنى عليه ويقول : إنه ثقة .

وكان الأصمعي : صاحب نحو ولفة ، وغريب وأخبار وملح ؛ لذلك فضل خلفاً في علم الشعر لامتياز به معرفة النحو ، والشعر يحتاج إلى ذلك ، وقد شارك الأصمعي في علومه كثيرون مثل أبي زيد الأنصاري ، فقد كان صاحب لفة وغريب ونحو ، بل كان في النحو أكثر من الأصمعي ، ومثل أبي عبيدة فقد كان أعلم من أبي زيد والأصمعي بالأنساب والأيام ، وكان للأصمعي في اللغة يدٌ غراء لا يعرف مثله فيها .

ولكنه مع كل هذا الفضل كان مقصراً في علم العروض ، شرع يتعلمه عن الخليل فلم يتقدم فيه ، فأراد الخليل أن يصرفه عنه ، فقال له يوما : يا أبا سعيد كيف تقطع قول الشاعر ؟ :

إذا لم تستطع شيئاً فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع

فلم الأصمعي أن الخليل تأذى بيمده عن علم العروض ، فلم يعاوده فيه .

وقد أخذ الأصمعي عن عبد الله بن عون ، وشعبة بن الحجاج ، وحامد بن سلمة ، وحامد بن دريد ، والخليل بن أحمد ، وأخذ عن الأصمعي ابن أخيه عبد الرحمن ابن عبد الله ، وأبو عميد القاسم بن سلام ، وأبو حاتم السجستاني . وأبو الفضل الرياشي وأحمد بن محمد اليزيدي ، ونصر بن علي الجهضمي وغيرهم .

نوادير الأصمعي

هي كثيرة امتلأت بها الكتب ، واستفاضت الرواية ، حتى كان الأصمعي أشهر من عرف بذلك بين متعلم وأمّ ، لا يجهل اسمه أحد ، ولا ينفك الناس يروون عنه ماله ، وما ليس له ، وما ذلك إلا من كثرة نوادره ، وشيوع الرواية عنه ، ومن هذه النوادر مامرٌ بك في أبواب متفرقة ، وننقل لك هنا ما لم يسبق وروده .

قال له الرشيد يوما: يا عبد الملك ، أنا ضجر ، وأحب أن أسمع حديثاً أفرج به . فحدثني بشئ ، قال فقلت : لأى الحديث يقصد أمير المؤمنين ؟ فقال : لما شاهدت وسمعت من أعاجيب الناس ، وطرائف أخبارهم ، فقلت يا أمير المؤمنين : كان صاحب لنا من البدو كنت أغشاه ، وأحدث إليهِ ، وقد أتت عليه ست وتسعون سنة أصبح الناس ذهنًا ، وأجودهم أكلا ، وأقوام بدنا ، فغيرت عنه زمانا ، ثم قصدته فوجدته ناحل البدن ، كاسف البال متغير الحال ، فقلت له : ما شأنك ، أأصابك مصيبة ؟ قال : لا . قلت : فرض عراك ؟ قال : لا . قلت : فما سبب هذا الذى أراه بك ؟ فقال : قصدت بعض القرابة فألقيت عندهم جارية قد لاثت رأسها ، وطلت بالورس ما بين قرنهما إلى قدمها ، وعليها قميص ، وقناع مصبوغان ، وفي عنقها طبل توقع عليه وتنشد :

تَحَايَسْنَهَا سِهَامٌ لِّلْعَنَايَا مَرِيَّسَةٌ بِأَنْوَاعِ الْخَطُوبِ
تَرَى رَيْبَ الزَّمَانِ لَهَا سَهْمٌ يَصِيبُ بِنَصْلِهِ مَهْجَ الْقُلُوبِ

فأجبتها :

قِيْنِي شَفَقَتِي فِي مَوْضِعِ الطَّبْلِ نَزَعِي كَأَقْدَاسِ طَبْلِ الْفِيلِ فِي جِيدِكَ الْحَسَنِ
هَبِيْنِي عُدُوًّا أَجُوفًا تَحْتَ سِنِّهِ تَمْتَعُ فِيْمَا بَيْنَ تَحْرُكِ وَالذَّنَنِ
فَلَمَّا سَمِعْتَ الشَّمْرَ مَنَى نَزَعْتَ الطَّبْلَ ، وَرَمْتَ بِهِ فِي وَجْهِهِ ، وَبَادَرْتَ إِلَى الْخَبَاءِ ، فَلَمْ

أزل واقفاً حتى حمت الشمس على مفرق رأسي لا تخرج ، ولا ترجع إلى جوابا . قلت :
إنا لله ، أنا والله معها كما قال الشاعر :

فوالله يا سلمى لطال إقامتي على غير شيء يا سلمى أراقبه

ثم انصرفت سخين العين قرح القلب ، فهذا الذي ترى من التغير من عشقي لها . قال :
فضحك الرشيد حتى استلقى ! وقال : ويحك يا عبد الملك ابن ست وتسعين سنة يعشق ؟
قلت قد كان هذا يا أمير المؤمنين .

حكى أبو العباس البرد قال : دخل الأصمى على الرشيد بعد غيبة كانت منه ،
فقال له يا أصمى : كيف كنت بعدنا ؟ فقال : ما لاقتني أرض بعدك ، فنبسم الرشيد ،
فلما خرج الناس قال : يا أصمى ، ما معنى قولك ما لاقتني أرض ؟ فقال : ما استقرت بي
أرض ، فقال : هذا حسن ، ولكن لا ينبغي أن تكلمني بين يدي الناس إلا بما
أفهمه ، فإذا خلوت فعلمني ؛ فإنه يبيع بالسلطان ألا يكون عالما ، لأنه لا يخلو . إما أن
أسكت أو أجيب ، فإذا سكت يعلم الناس أنني لا أعلم إذا لم أجب ، وإذا أجبت بغير
الجواب يعلم من جوابي أنني لم أفهم ما قلت . . قال الأصمى فعلمني أكثر مما علمته .
وحكى أيضاً قال : مازح الرشيد أم جعفر فقال لها : كيف أصبحت يا أم نهر ؟ فأغتمت
لذلك ولم تفهم معناه ، فأقذنت إلى الأصمى تسأله ، فقال : الجعفر النهر الصغير ، وإنما
ذهب إلى هذا فطابت نفسها .

وقال الأصمى : دخلت أنا وأبو عبيدة على الفضل بن الربيع ، فقال : يا أصمى كم
كتابك في الخيل ؟ قلت : جلد واحد ، قال : فسأل أبا عبيدة ، فقال : خمسون جلداً فأمر
بإحضار الكتائين وإحضار فرس ، فقال لأبي عبيدة : أقرأ كتابك حرفاً حرفاً وضع يدك
على موضع موضع من الفرس ، فقال أبو عبيدة : لست بيطاراً وإنما هذا شيء أخذته
وسمعت من العرب فقال لي قم يا أصمى فضع يدك على موضع موضع من الفرس فوثبت
فأخذت بأذني الفرس ووضعت يدي على ناصيته فجعلت أقول هذا اسمه كذا حتى بلغت
حافره فأمر لي بالفرس فكنت إذا أردت أن أغيظ أبا عبيدة ركبت الفرس وأتيت .

آثار الأصمعي

ذكر ابن النديم في الفهرست نيفاً وأربعين كتاباً ذهب معظمها وقد بقي منها اثنا عشر، وهي :

- ١ - الأسمعيات، وهي مجموع مختارات من الشعر طبعت في لبسك سنة ١٩٠٢ م .
- ٢ - رجز المعاج وهو مخطوط بدار الكتب الملكية بمصر .
- ٣ - كتاب أسماء الوحوش وهو مطبوع .
- ٤ - كتاب الإبل مطبوع في بيروت .
- ٥ - كتاب خلق الإنسان وهو مطبوع مع سابقه في مجموعة واحدة .
- ٦ - كتاب الخليل، وهو مطبوع بفينا .
- ٧ - كتاب الشاء، مطبوع سنة ١٨٩٦ م .
- ٨ - كتاب البارات مطبوع ببيروت في المجموعة السابقة .
- ٩ - كتاب الفرق مطبوع بفينا .
- ١٠ - كتاب النبات والشجر مطبوع ببيروت في المجموعة السابقة .
- ١١ - كتاب النخل والكرم مطبوع ببيروت سنة ١٩٠٢ م .
- ١٢ - كتاب الغريب مخطوط في مكتبة الاسكوريال .

✽

وكانت وفاة الأصمعي سنة ٢١٣ هـ، وقيل سنة ٢١٤ هـ، وقيل ٢١٧ هـ، ولما مات رثاه أبو المتاهية بقوله :

أسفت لقد الأصمعي لقد مضى	حميداً له في كل صالحة سهم
تقتض بشاشات المجالس بعده	وودعنا إذ ودع الأنس والعلم
وقد كان نجم العلم فينا حياته	فلما اهضت أيامه أفل النجم

الغناء والمخنون

عرفت في دراسة العصر الأموي كيف انتقل الغناء عند العرب من السداجة إلى الإتيان بسبب الفرس الذين قدموا مكة أيام الزير لتجديد بنائها ، وكان ماسمعه العرب قد نال إعجابهم فدفع مسجحاً مولى عبد الله بن جعفر إلى تعريبه إلى غير ذلك من حديث طويل .

فدل ذلك على ما عند العرب من ميل إلى الموسيقى وما في نفوسهم من خفة إلى السرور وارتياح إلى التوقيع ، وإن كان ذلك طبيعة في جميع الناس ولكنهم فيها يتفاوتون .

وما لبثوا أن صار الحجاز بقرتيه العظيمتين مكة والمدينة مهرجاناً دائماً الحركة ، بل دوحاً لا تقتر بلابله عن الشدو والترجيع . وقد بلغ من كثرة المغنين به أن كانوا يحجون قوافل في أبهى زينة وأعظم مظهر . لقد كان هذا حال الغناء مع قرب العرب من البداوة و بدمهم عن مستمد هذه الثروة الغنائية ، وهو العراق بلاد الفرس القديمة المدنية المعروفة بعظيم عنايتها بالموسيقى ، فقد كان ملوكها يحتفلون بها ويعقدون لها المجالس ويشيرون المجيدين للغناء . وهذا هو شأن كل أمة أصابت من المدينة حظاً كحظ الفرس في إبان دولتهم ، فما بالك بالعرب وقد استقر ملكهم بالعراق واختاروا بغداد قاعدة لهم ومظهيراً لمدينتهم ، والزمن قد ضمن لهم التحلل من كثير من القيود ، فبعد أن كان الناس في الغناء فريقين : محالين ، ومحرمين ، وراضين ، ومنكرين ، وكان خلفاء الأمويين كذلك فيه بين مثبطين ومشجعين ومستهترين ومناوئين ، نجد أهل بغداد جميعاً يقبلون عليه والخلقاء لا يختلف رأيهم في تشجيعه والعناية به ، كان ذلك والمورد قريب والمدد ميسور والقرائح قد أطلقها من عقالها مافي المدنية من تجديد ونشاط واحتشاث على العمل وعظيم مكافأة عليه . وعلى نسبة تقدم العرب في المدنية ازدادت

عنايتهم بالفناء وحسن أثرهم فيه . ولقد ذكروا أنهم قبل العباسيين لم يكونوا يعلمونه إلا الصفر والسود من الجوارى حتى علمه البرامكة للجوارى البيض الحسان ليزيد جاهلهم في الفناء تأثيراً في النفوس .

عناية الخلفاء بالفناء

على قدر عنايتهم بالشعر كانت عنايتهم بالفناء ، فقد أكرموا وفادة المغنين وأجزلوا لهم العطاء ، وعقدوا المجالس لسماعهم ، والمفاصلة بينهم ، واتخذوهم ندماءهم وسمائمهم ، وما ذلك بغريب ، فإن مجلس السمر لا يحلو بغير غناء ، ولا يطيب بلا توقيع ، وإذا كان في سماع الشعر أرتياح ولذة ، فإنه أقرب إلى الجدة ، وأدخل في باب الوقار ، فأما الذي لا تتم لنة إلا به ، ولا يطيب مجلس إلا على أصوات أوتاره ، ونغمات شداته فذلك هو الفناء .

لذلك رأينا الخلفاء يتخذون من المغنين ندماءهم الذين لا يفارقونهم ، وإذا فارقوهم فعلى موعد قريب حتى إن المغنى إذا عظمت منزلته ، واختص به الخليفة ، ترى حياته قد صارت وفقاً على رغبات الخليفة يستدعيه متى شاء . ولقد كان المغنون مع وفيه ما ينالون من عطاء يملون هذا الإحلاح عليهم من الخلفاء ، فيطلبون أياً ما يضمنون فيها حريتهم ، ويتصرفون فيها في شؤونهم . ولقد تمتى إبراهيم الموصلى على الرشيد أن يهب له يوماً من أيام الأسبوع يفرد فيه بجواريه وإخوانه فلا يفاجئه الخليفة بطلب في ذلك اليوم ، فمنحه الرشيد يوم السبت ، وقال هو يوم أستقبله قال له فيه بما شئت .

ولقد بلغ من غرام الخلفاء بالفناء والمغنين أن ساروا إليهم ، وقصدهم في منازلهم ، وذلك تسكريهم ما سمعنا بمثله في طبقة أخرى غير هؤلاء .

ذكروا أن أحمد بن المرزبان قال : حدثني بعض كتاب السلطان أن هارون

الرشيد هبّ ليلة من نومه فدعا بجمار كان عنده يركبه في القصر ، فركبه وخرج في دراعة ومشى مثلما بعمامة متلخفاً بإزار ، ومشى بين يديه أربعمائة من الخدم ، وكان مسرور الفرغاني جريئاً عليه لمكانة كانت له عنده ، فلما خرج من باب القصر قال له : أين تريد يا أمير المؤمنين الساعة ؟ قال : أردت منزل إبراهيم الموصلي . قال مسرور : فمضى حتى انتهى إلى منزل إبراهيم ، فخرج لقلقه ، وقبل حافر حماره ، وقال يا أمير المؤمنين أفي مثل هذه الساعة تظهر ؟ قال نعم شوق طرقت بي ، ثم نزل فجلس في طرف الإيوان ثم أكل من طعام إبراهيم ، وسمع جواريه حتى طرب وانصرف .

ولقد بلغ من غرامهم أيضاً أن أقبلوا على الفناء محاولونه بأنفسهم ، ويتعلمه أولادهم حتى لقد عقد أبو الفرج الأصفهاني فصلاً في كتابه « الأغاني في بيان من غنى من الخلفاء وأبنائهم » ، ونسبت له أصوات . قال فيه : « فأولهم وأتقنهم صنعة وأشهرهم ذكراً في الفناء إبراهيم بن المهدي ، فإنه كان يحقق فيه تحقيقاً شديداً ، ويتبدل نفسه ، ولا يستتر منه ، ولا يحاشي أحداً ، وكان في أول أمره لا يفعل ذلك إلا من وراء ستار وعلى حال تصون وترفع إلا أن يدعوهُ إليه الرشيد في خلوة والأمين بعده ، فلما أئمنه المأمون تهتك بالفناء وشرب التبذير بمحضرتة ، والخروج من عنده ثملاً ومع الغنين خوفاً منه وإظهاراً له أنه قد خلع ربة الخلافة من عنقه ، وهتك ستره فيها حتى لا يصلح لها ، وكان من أعلم الناس بالنغم والوتر والإيقاعات ، وأطبعمهم في الفناء وأحسنهم صوتاً . وكذلك أخته عليّة بنت المهدي ، وأبو عيسى بن الرشيد ، وعبد الله بن موسى الهادي ، وعبد الله بن محمد الأمين ، وأبو عيسى بن التوكل ، وعبد الله بن المعتز ، ومن الخلفاء أنفسهم من اشتهر بالتلحين وأكثرهم في ذلك : الواثق ، والمعتز ، والمعتد ، والمعتضد »

ولقد ذكر صاحب الأغاني في موضع آخر أن الواثق بالله صنع مائة صوت ما فيها صوت ساقط ، وأنه كان من صنعتة :

هَلْ تَعْلَمِينَ وراءَ الحبِّ منزلةً تُدْنِي إِلَيْكَ فَإِنَّ الْحَبَّ أَقْصَانِي
هذا كتابُ فتى طالتْ بِلَيْتِهِ يقول يا مُشْتَكِي بَنِي وَأَخْرَانِي

وصنعته في قول أبي المتاهية :

أُصْحَتْ قُبُورُهُمْ مِنْ بَعْدِ عِزِّهِمْ تَسْقِي عَلَيْهَا الصَّبَا وَالْحَرْجُفُ السَّمْلُ
لَا يَذْفَعُونَ هَوَامًا عَنْ وُجُوهِهِمْ كَأَنَّهُمْ خَسْبُ الْقَاعِ مُنْجَدِلُ

كما ذكروا من صنعة للمتمد ما أحدثه في قول الفرزدق :

لَيْسَ الشَّفِيعَ الَّذِي يَأْتِيكَ مُؤْتِزَا مِثْلَ الشَّفِيعِ الَّذِي يَأْتِيكَ عُرْيَانَا

ومن صنعة المعتضد ما أحدثه في قول دريد بن الصمة :

يَالْبَيْتَى فِيهَا جَذَعٌ أَخْبُ فِيهَا وَأَضَعُ

ذلك هو شأن خلفاء هذه الدولة وأبناء خلفائها: غرام بالغناء ونشأة فيه. اللهم إلا ما كان من أمر المنصور فإنه كان في شغل شاغل بتدعيم أسس الدولة فلم يكن منه إقبال على نوع من أنواع الملاهي حتى لقد كان يعير آل الزبير بمحبهم للغناء ، والمأمون مثلاً امتنع عن سماع الغناء ، وأمر بمنعه حين عاد من خراسان ، فبقي عشرين شهراً على ذلك حتى صفت له الدولة ، واتسقت الأمور فنزل هذا التشدد ، وصار لا يكفيه أن يسمر عنده إسحاق الموصلي ، وإبراهيم بن المهدي حتى يدعوها إلى الصبوح ، ويقول لها بكراً على قد اشتقنا إلى الصبوح ، وأمر إسحاق أن يعمل له لحناً ، وكذلك أمر إبراهيم ففدوا عليه ، وقد سرق إسحاق لحن إبراهيم في قصة عجيبة طويلة .

ولم يمنع الغناء منعاً باتاً إلا المهتدي العباسي ، فإنه كان يتشبه بعمر بن عبد العزيز ، فلما تولى الخلافة سنة ٢٥٥ هـ ، وكانت الملاهي قد انتشرت في الدولة أمر بمنع الغناء فظل الحال على ذلك مدة خلافته ثم عاد الأمر إلى ما كان عليه قبل .

قديم الغناء وحديثه

في أوائل عهد الدولة العباسية حين فطحت الدولة من روح الغناء ، واتجهت إليه المهتم ، نشأ فيه مذهبان : قديم ، وحديث ، وكان ينصر القديم : إسحاق الموصلي ، ومخارق وعلويه ، وعريب ، وبذل ، وسليم بن سلام ، ومحمد بن الرف ، وزبير بن دحمان ، وأحمد بن يحيى ، ومحمد بن حمزة ، وهؤلاء هم الآخذون بمحاسن الغناء ، وطرائق الصناعة لا يتحللون من قيودها ، ولا يستببحون التغيير فيها . أما المقصرون عن أداء الغناء القديم ، المغيرون له المتعصبون للجديد فهم : إبراهيم بن المهدي ، ومن انضم إليه من إسماعيل بن جامع ، وفليح بن الموراء ، ويحيى السكى ، وعمر بن نابه ، وشارية ، ونزيق ، وبنو حمدون ، وحسين بن محرز ، وغيرهم .

وقد كان السبب في هذا الانقسام والنزاع أن إبراهيم بن المهدي غنى بلحن قديم فأضاع صناعته فرد عليه إسحاق وعاب عليه تغييره فقال : أنا ملك وابن ملك أغنى كما أشتهى وعلى ما ألتذ ، فتخالفا على ذلك وانضم إليه كل من رضى طريقته وربما كان هذا التحيز إلى إبراهيم غير خالص للفن ، إذ كانوا يتقربون بكفالتهم إلى الرشيد فكان قوم إبراهيم أكثر عدداً قبل وزارة جعفر البرمكي ، فلما ولي وجهر البرامكة بتفضيل إسحاق رجع إلى غرضه كثير من المجيدين . ولم يزل للفنون في أهل البيوتات مثل البرامكة وآل هاشم وآل الربيع يتمسكون بالقديم ويحملونه كما يسمعونهم فلم يكن من مفسد له إلا جماعة أولاد العباسيين مثل : إبراهيم ، وأخيه يعقوب ، وأختها علية ، وعبد الله بن المهدي وغيرهم ممن يترفع عن أن يعيد غناؤه بالمسموع والمحفوظ من الأصوات وإن كانوا يوضع جليل من هذه الصناعة .

ولكن الانقسام لم يستمر طويلاً إلا ريثما ثبتت في الألحان قدم القوم

ورسخت ملكاتهم في النعم فكان لهم فيه طابع خاص اجتمع فيه محاسن الماضي والحاضر واختلط فيه القديم بالحديث واستمر للفناء شأن نحو قرنين من الزمان من ابتداء عمر هذه الدولة ثم ابتداء يضمحل تبعاً لاضمحلال أمر الدولة حتى يقول أبو الفرج (على أن الجميع من الصحيح والغير قد انقضى في عصرنا هذا)

وحين كان الفناء منقسماً إلى جديد وقديم كان التعصب لأحدهما على الآخر بالغاً أشده، وطالما عقدت لذلك المناظرات في مجالس الخلفاء يمتحن فيها الفنون كما يمتحن العلماء . ومن ذلك ما رووا أن الرشيد قال يوماً لجعفر بن يحيى البرمكي : قد طال سماعنا هذه الفتنة على اختلاط الأمر فيها فهمم أقاسمك إياها وأخابرك فاقسما المغنين على أن يجعلا بإزاء كل رجل نظيره ، وكان ابن جامع في حيز الرشيد ، وإبراهيم الموصلي في حيز جعفر وحضر الندماء لمحنة المغنين وأمر الرشيد بن جامع فغنى صوتاً أحسن فيه كل الإحسان وطرب الرشيد غاية الطرب فلما قطعه قال الرشيد لإبراهيم هات يا إبراهيم هذا الصوت فغنى فقال لا والله يا أمير المؤمنين ما أعرفه وظهر الانكسار فيه فقال الرشيد لجعفر هذا واحد ثم قال لابن جامع غن يا سماعيل فغنى صوتاً ثانياً أحسن من الأول وأرضى في كل حال . فلما استوفاه قال الرشيد لإبراهيم هاته يا إبراهيم فقال ولا أعرف هذا أيضاً ، فقال هذا ثان وانهى المجلس بانكسار إبراهيم وإجازة ابن جامع والخلع عليه .

تعليم الجوارى

اقتضت المدنية غنى واسماً يتمتع به الخلفاء وأبناءؤهم وجميع رجال الدولة وكل هؤلاء يحرسون على لئسهم ويحبون إظهار نعمة الله عليهم بها في أيامهم إلا اتخاذ السراري والقيان .

وكانت القيان تعد لصناعة الغناء إعداداً تاماً ، فكان يتعلمن القراءة والكتابة ثم يروين الشعر مع ضبطه وفهم معناه وكل ذلك يحتاج إلى مقدمات من النحو والصرف وغيرهما من العلوم .

وكانت الرغبة في الجوارى المتهذبات المتعلقات الجيديات للغناء قد جعلت لهن سوقاً نافقة ، وجعلت كل من في يده واحدة منهن يحرص على تثقيفها حتى يغلي بها الثمن ، فقد كانت الجارية الفحل تباع بمائتي دينار ، فإذا تثقت فربما يبعث بمشرة آلاف . ومن أجل ذلك رأينا إبراهيم الموصلي يتجر بهذه الجوارى ، فيشتريهن غفلاً ، ويقوم بتثقيفهن وتعليمهن الغناء حتى يربح فرق الثمن ، وهو عظيم جداً ، كذلك كان يفعل يزيد بن حوراء ، وقد عقد هو والموصلي شركة يتقاسمان ربحها .

وقد ذكروا أن الرشيد ابتاع جارية بمائة ألف دينار ، وأخرى اشتراها من إبراهيم الموصلي بستة وثلاثين ألفاً ، وطلب محمد الأمين إلى جعفر بن الهادي أن يبيعه جارية له اسمها بذل فابي ، فأمر فأوقروا له قاربه ذهباً فبلغت قيمة ذلك أكثر من ألف ألف دينار !! وهذا غريب ، وإن كان من الأمين ليس غريباً .

وعلى قدر اتساع الفنى ، وكثرة الوجد كانت الجوارى تكثر عند الرجل حتى لقد كان عند الرشيد منهن ألفان فيهن ثلثمائة من المغنيات الضاربات على الآلات ، وقد زار البرامكة في دارهم ، فأخرجوا القيان إلى البستان ، فاصطفن صفين أمامه مثل المساكِر ، وغنين له وضرين بالميدان ، وتقرن على الدفوف حتى طلع إلى مقاصير القصر .

فكل هؤلاء وأولئك يجهجن إلى تعليم وتثقيف مما يدل على أن حركة تعليم البنات كانت قائمة على قسوة لا تقل عن تعليم الذكور عناية واهتماماً ، لذلك نرى من أخبار هؤلاء من أديبات بارعات حاضرات الجواب إرقيقات الشعر ، وكانت دورهن في القصر تشدى الشراء يحضرون لتفذية خيالهم من جمال هؤلاء ويطالبن فيهن ويتسقينهن ، ويروضون قرائعهم بالقول فيهن .

مبلغ إجادة الغناء أيام العباسيين

لا يدلك على جودة الغناء إلا ما ترى من أثره في نفس رجل وقور ذى مهابة ومكانة سامية ، فإذا رأيت الغناء قد أذهله عن نفسه وأنساه مكانه ، فجعل يضرب الأرض برجليه ، أو يزحف إلى الغنى يفديه بنفسه ، أو يكاد يخرج من ثيابه لشدة الطرب ، فإذا ذاك تعلم موقع الغناء من التأثير ، وتدرك مقدار ما بلغ فيه المغنون من الإجادة ، وهكذا كان الحال في غناء هذه الدولة فأخباره حافلة بما كان يأتيه أرزن الخلقاء وأعقلم ، وما كان يزدهف له من ثباتهم ، ويذال من مصبون وقارهم . ذلك وهم يحضرون الناس ، وبرآى ومسمع منهم ، لأنهم كانوا قد أراحوا الستور التي كان يضعها الأمويون بينهم وبين الفنانين إذا جلسوا إليهم .

ولقد قالوا : إن إسحاق الموصلي وضع لحن التخنيث الذي لم يسبقه إليه أحد ، وصنع ألحانا لا يقدر شعبان ممتلي ، ولا سقاء يحمل قرينة على الترنم بها ، وصنع غيرها مما لا يقدر المتكبي أن يترنم به إلا قعد مستوفزا ، ولا القاعد حتى يقوم ، وقد بلغ من إجادة إسحاق أن كان الوائقي يقول عنه ما غناني إسحاق قط إلا ظننت أنه قد زيد في ملكي .

كما نعلم من خبر القارابي : أنه دخل على سيف الدولة ، ومجلسه حافل بالقوم ، فأخرج من خريطة معه عيدانا وركبها ، ثم ضرب بها فأضحك جميع الحاضرين ، ثم فكها وركبها تركيبا آخر ، وضرب بها فأبكاهم جميعا ، فكها وركبها ثالثة ، وضرب بها ، فنام الجميع حتى البواب ، فتركهم وانصرف .

ونحن ننقل إليك خبر مجلس من مجالس الرشيد ، وفيه الغناء ، وما صدر من الرشيد من أعمال وأقوال دالة على الاستحسان لما سمع .

وكان أول من غنى في هذا المجلس إبراهيم الموصلي أبو إسحاق ، فغنى :
 وَقَفْتُ عَلَى رَبِّهِ لَيْتَ نَاقَتِي فَمَا زِلْتُ أَبْكِي عِنْدَهُ وَأَخَاطِبُهُ
 وَأَسْتَبِيهِ حَتَّى كَادَ يَمَّا أَبُتُّهُ تُكَلِّمُنِي أَحْجَارُهُ وَمَلَاعِيَهُ
 فأجاد حتى كان كل من في المجلس يجيبه ، ويردد الصوت معه لحسن غنائه ، فطرب
 الرشيد حتى كان يقوم ويقعد ، ثم أشار مسرور الخادم إلى إسماعيل بن جامع ، وهو
 من المتعصبين على إسحاق ، فغنى بأبيات من قول عمر بن أبي ربيعة :
 كَانَ أَحْوَرَّ مِنْ غِرْلَانِ ذِي بَقَرٍ أَعَارَهَا شَبَابَةُ الْعَيْنَيْنِ وَالْجِدَادَا
 أَجْرَى عَلَى مَوْعِدِهَا فَتَخَلَّفَنِي فَمَا أُمِلَ وَلَا تَوَفَّى لِلْمَوَاعِيدَا
 كَأَنِّي حِينَ أُمِسَى لَا تُكَلِّمُنِي ذُو بَقِيَّةٍ يَبْتَغِي مَا لَيْسَ مَوْجُودَا
 فأجاد إجادة يرتاح إليها أهل الطرب من يحب الخلاعة في الأصوات ، فهو يميل إلى
 ظرف الغناء الكثير النغم والعمل ، كما يميل إلى ظرف المعاشرة والتفنن بخلاعة الملابس .
 ثم أشار إلى إسحاق بن إبراهيم الموصلي ، فأتى بعود له هندي ، فضرب عليه
 نغمات صاح لها القوم أجمعون ، ثم غنى بلحن وضعه معبد في أبيات لأبي صخر
 الهذلي ، وهي :

عَجِبْتُ لِسَعْيِ الدَّهْرِ بِنِي وَبَيْنَهَا فَلَمَّا انْقَضَى مَا بَيْنَنَا سَكَنَ الدَّهْرُ
 فَيَا حُبَّهَا زِدْنِي جَوْيَ كُلِّ لَيْلَةٍ وَيَا سَلَوَةَ الْأَيَّامِ مَوْعِدِكَ الْحَشْرُ
 وَإِنِّي لَتَعْرِوْنِي لَذِكْرَاكِ هِرَّةٌ كَمَا انْتَفَضَ الْمُصْفُورُ بِلِلَّةِ الْقَطْرِ
 هَجَرْتُكَ حَتَّى قِيلَ لَا يَعْرِفُ الْهَوَى وَزُرْتُكَ حَتَّى قِيلَ لَيْسَ لَهُ صَبْرُ

فطرب الرشيد وقال : زدنا يا أبا صفوان من غنائك (وأبو صفوان كنية بلقبه بها
 عند التعجب)

اللا

فرضا



ثم غنى في قول المنخل يشكرى :

وَلَقَدْ دَخَلْتُ عَلَى الْفَتَاةِ الْخَلْدَرِ فِي الْيَوْمِ الْمَطِيرِ
فَدَفَعْتُهَا فَدَافَعَتْ مَشَى الْقَطَاةِ إِلَى الْقَدِيرِ
فَلَمَّسْتُهَا فَتَنَفَّسَتْ كَتَنَفَّسَ الظُّفَى الْبَهِيرِ

فأعاد في الغناء إلى ما وراء الغاية ، وقال الرشيد : وكاد يخرج من ثيابه طربا : « والله . الغناء الذى يلين المريكة ، ويفسح فى الرأى والصدر ، ويحدث فى النفس طربا بلا غناء هذا الرجل » .

ثم أوما الرشيد إلى اللغنيين بأن يحلوا صفوفهم ، ثم فرق فيهم الجوائز بقدر أهليتهم فى الصناعة ، فمن مصيب ألف دينار ، ومن مصيب خمسمائة ، ومن مصيب دون ذلك .

وهذه الإجادة مرجعها إلى سببين أولهما : هذه العطايا الكثيرة التى سالت على أهل هذه الصناعة من كل عالم بقدرهم من خليفة ، وأمير ، ووزير ، وسرى كريم ، وأخبارها مستفيضة لا نطيل بذكرها ، وثانى السببين : أنفراد كل مغن بلحن من الألحان يفتن فيه ، ويصنع فيه الأصوات الحسان حتى يستبد بالحسن فيه كاتفراد معبد بالثقيل ، وابن سرج بالرملى ، وحكم الوادى بالهزج ، وفليح بن أبى العوراء بلحن النواقيس ، واللوصلى بالمأخورى ، ويقال : إنه صنع هذا اللحن ، وكان يغنى به أول أمره فى المواخير .

وكان فيمن يتخلل المغنيين من أجادوا فيما كانوا بسببه حتى استحقوا شهرة لا تقل عن شهرة المغنيين كمصور زلزى الذى كان يضرب على عود من صيدان الشبايط صنعها معارضة لعيدان الفرس ، وكان إذا ضرب عليه يزلزل المجلس بقمعه ، وكبعضهم الزاسر ، وهومن أحسن الناس زمرا بنأى كان إذا زم فيه يتحدث

يريده منع صحة المقاطع والتقسيمات حتى كأنه ينطق بين يديه بلسان آدمي ، وجعفر الطيال ، وكان يحسن التوقيع على الطبل .

التأليف في الغناء

كثر التأليف في الغناء منذ صار صناعة جلييلة الشأن في العصر العباسي وقد كان كما قلنا معتبرا من الآداب الرفيعة ، والفلسفة ولذلك نرى كل عالم جليل قد تناوله بالتأليف كما فعل الخليل بن أحمد في إخراجه كتاب النغم ، وكما فعل إسحاق الموصلي فإنه عمل كتابا جمع فيه أغانيه التي غنى بها ، وعمل آخر جمع فيه أخبارا للفنيين واحدا واحدا ، كذلك ألف جحظة البرمكي في مثل هذا المعرض ، وكذلك ألف حسن ابن موسى النحوي كتابا رتب على حروف المعجم قيل إنه ألفه للمتوكل ، وألف عبيد الله بن عبد الله بن طاهر ، وكان من العلماء الأجلاء « كتاب الآداب الرفيعة » في الغناء والمناديات . ولكن كل هذه الكتب لم يبق منها إلا الخير عنها ، وآخر ما عندنا من آثار القوم في الغناء هو كتاب أبي الفرج ، وقد جمعه من الكتب السابقة بعد أن حذف منها ما يتعلق بقواعد الفن إلا قليلا ، وقد عرفت فيما سبق كل ما يتعلق بهذا الكتاب

مصطلحات الأغاني

سنتكلم في هذه المصطلحات بما جهدنا أن نصل إليه منها ، ولا ندعي النفاذ في هذا المجال ، لأن الغناء علم من الآداب الرفيعة صعب للمثال ، ولقد كانت الموسيقى ، وما تزال تعد فزحا من فروع الفلسفة ، فليست دراستها بالهين بل مثلنا ممن لا يتلطف لها

ولا يكون قد أعد معداته لفهمها ، وهي من بعد النال بحيث لا يتيسر عسيرها إلا لمن جمع العزم لفهم ، وطبَّ ورَفَّق في الاحتيال ، فأما من يريد لها ساعته ، ويحاول هتك سترها لقضاء لباته وتوفية موضوع يبعثه ، فليس شأنه أن يحلو منها بظائل .

على أن أهل هذا الفن تجدهم ، وقد طلبوه للذتهم لا يخفون بإرشاد من استفهمهم بعض مسائله ، أو كأنهم من العناية الذي نالوه في تحصيله يضمنون على السائل حتى لا يرد إلا بعد التَّخْلِ ، ولا يستصني إلا بعد التَّكدير ، فلا تكاد تصل إلى مطلوب إذا سألتهم ولا يكادون يفهمونك من أسرارهم شيئاً ، وإن أقاضوا في بيانهم لأنهم يكررون رموزهم ويرجمون اصطلاحاتهم ، والناس أبعد ما يكونون عن ذلك ، وأحبابنا أرفع من أن يتكلموا بلغة الناس إذا تناولوا التفسير لمزاميرهم .

وقد طال بحث الناس عن المراد بما امتلأ به كتاب الأغاني من مثل قوله التَّحْقِيل الأول ، والتَّحْقِيل الثاني . وقوله مطلق ، وبالخنصر ، أو الوسطى إلى غير ذلك فلم يعرفوا ذلك لطول العهد بهذه المصطلحات حتى عثر على كتاب مخطوط اسمه « نيل السعود في ترجمة الوزير أبي داود » كتب سنة ١٢٣٢ هـ ، وقد ورد فيه بحث بعنوان « العود ومصطلحاته » ، وبما ورد فيه تحت هذا العنوان ما يأتي بصرف .

« اعلم أن الألفاظ الواردة في كتاب الأغاني تتعلق كلها بالمود العربي ، فإذا علمت تركيب هذه الآلة هان عليك فهم ما أشكل من مصطلحاتها ، فهذه الآلة طولها مثل عرضها مرة ونصفاً ، وغورها كنصف عرضها ، وعنتها كنصف طولها ، وتمتد على وجهها أربعة أوتار أغلظها البهم ، بحيث يكون غلظها مثل الثلث الذي يليه مرة وثلاثاً ، والثلث إلى الثلث كذلك ، والثلث إلى الزير كذلك ، وقد ضبطوها بطاقات الحرير ، فقالوا : يجب أن يكون البهم أربعة وستين طاقة ، والثلث : ثمانية وأربعين ، والثلث : ستة وثلاثين ، والزير : سبعة وعشرين . وتجعل رؤوسها في مَلَاوٍ من جهة العنق ، ومن الأخرى تكون كشط فتساوى (حسبها) ، وفي كلام طويل بعد ذلك يقسم كل وتر من جهة

العنق أقسامًا يكون كل قسم منها مجرى لأصبع من الأصابع: السبابة ، والوسطى ،
والخنصر ، والخنصر .

ثم ذكر أن قوانين الغناء لا تخرج عن ثمانية (ولعله يريد بذلك نوع النغمة كما
قول نحن اليوم : سبكا ، وحجاز ، وبياتي . . .) وهذه الثمانية هي :

١ - الثقيل الأول . ٢ - الثقيل الثاني .

٣ - خفيف الثقيل الأول . ٤ - خفيف الثقيل الثاني .

٥ - الرمل (ويسمى ثقيل الرمل) . ٦ - خفيف الرمل .

٧ - خفيف الخفيف . ٨ - المزج .

وكان المؤلف قد أسقط في عده النوع الثالث ، وهو خفيف الثقيل الأول ،
ولسكننا تمنا العدد بما ورد في الأغاني من أن لمبد لحنا من خفيف الثقيل الأول
باطلاق الوتر في مجرى الوسطى في قول عربن أبي ربيعة :

وَدَّعْ لُبَانَةَ قَبْلَ أَنْ تَتَرَحَّلَا وأسأل فِرْنَ قَلِيلَهُ أَنْ تَسْأَلَا

ثم قال : واللحن يسمى مطلقاً إذا لم يكن مقيداً بلفظ يدل على وصفه كأن يقال مثلاً
ثاني ثقيل مطلق ، وقد يذكر بعد اللحن موقع الأصبع التي يبتدأ بها ، فيقال ثاني
ثقيل بالوسطى ، أو الخنصر وهكذا .

ويبقى أن نفهم المراد من كلمة لحن ، ونغمة ، وصوت فنقول : إن اللحن نغمات من
نوع واحد كالثقل الأول : أو الثاني ، أو الرمل ، أو المزج ، تؤلف تأليفاً مناسباً يقبله
ذوق الموسيقى فيكون مجموع هذه النغمات لحناً . وأما النغمة فهي وحدة اللحن .

والصوت هو ما يوقع على اللحن ، من شعر « أو غيره » فيوقع المعنى ، بين نغمات
اللحن ، وحروف الكلام الذي يراد الغناء به حتى يخرجها مخرج هذه الأنغام ، فإذا
استقامت كذلك سميت صوتاً ، فالصوت صورة من صور اللحن . وقد يصاغ من اللحن
ما شئت من الأصوات ، وعمل ذلك يسمى تلحيناً ، فإذا قلت : قال فلان هذه الأبيات
ثم لحنها فغناها أجراها على نظام لحن من الألحان ، وطبعها على غرار .

إسحاق الموصلي

هو أبو محمد إسحاق بن إبراهيم اللوصلي ، وإبراهيم بن ماهان بن ميمون وأصله من فارس .

وسبب تلقب أبيه بالموصلي أنه لما نشأ بالكوفة في ولاء آل خزيمة بن خازم من بني تميم اشتغى الفناء ، وطلب أحبابه ، وصحب الفتيان ، فاشتد ذلك على أخواله بنى عبد الله بن دارم فأذوه ، وبلغوا منه فهرب منهم إلى الموصل فأقام سنة فلما رجع إلى الكوفة قال له إخوانه من الفتيان : مرحبا بالفتى الموصلي فغلب عليه .

نشأ إسحاق في حياطة أبيه ، وكان أبوه قد بلغ منزلة عظيمة بالفناء فأحسن تربيته ، وثقفه بأنواع العلوم ، وورث من أبيه صناعة الفناء فكان آية في كل فن حتى قال عنه أبو الفرج الأصفهاني .

« وموضعه من العلم ، ومكانه من الأدب ، ومحله من الرواية ، وتقدمه في الشعر ، ومنزلته في سائر المحاسن أشهر من أن يدل عليها بوصف . فأما الفناء ، فكان أصغر علومه ، وأدنى ما يوسم به » .

وكان المأمون يقول : لولا ما سبق على ألسنة الناس ، وشهر به عندهم من الفناء ، لوليت الفناء بحضرتي ، فإنه أولى به وأعف وأصدق ، وأكثر ديناً وأمانة من هؤلاء القضاة .

وقد سأل إسحاق المأمون أن يكون دخوله مع أهل العلم والأدب والرواة ، لأمع المنفين ، فإذا أراد الفناء غناه ، فأجابه إلى ذلك ، ثم سأله بعد مدة طويلة الإذن له في الدخول مع الفقهاء ، فأذن له ، قالوا : وكان يدخل ويده في يد قاضى القضاة يحيى ابن أكرم .

وقد قال عنه محمد بن عمران الجرجاني : كان والله إسحاق غرة في زمانه وواحداً في عصره ، علماً ، وضمماً وأدباً، ووقاراً ، وجوداً ورأى ، وصحة مودة ، وكان والله يخرس الناطق إذا نطق ، ويحير السامع إذا تحدث ، لا يعلّ جليسه مجلسه ، ولا تجمّ الآذان حديثه ، ولا تنبو النفس عن مطاويله ، إن حدثك أهلك ، وإن ناظرك أفادك ، وإن غناك أطربك ، وما كانت خصلة من الأدب ، ولا جنس من العلم يتكلم فيه إسحاق ، فيقدم أحد على مساجلته ، أو مناوآته فيه .

وكان إسحاق جيد الشعر . قال أبو الفرج : إنه كان يصنعه وينسبه إلى العرب ، وله شعر ينسبه إلى نفسه . قال الأصمعي : دخلت أنا وإسحاق الموصلي يوماً على الرشيد فرأيناه لقس النفس ، فأنشده إسحاق :

وَأَمْرُهُ بِالْبُخْلِ قُلْتُ لَهَا أَقْصَرِي	فذلِكَ شَيْءٌ مَا إِلَيْهِ سَبِيلُ
أَرَى النَّاسَ خُلَّانَ الْكِرَامِ وَلَا أَرَى	بَحِيلًا لَهُ حَقِّ الْمَمَاتِ خَلِيلُ
وَلِيَّ رَأَيْتُ الْبَخْلَ يُرَى بِأَهْلِهِ	فَأَكْرَمْتُ نَفْسِي أَنْ يُقَالَ بَحِيلُ
وَمِنْ خَيْرِ حَالَاتِ الْفَقَى لَوْ عَلِمْتُهُ	إِذَا نَالَ خَيْرًا أَنْ يَكُونَ يُبِيلُ
فِعَالِي فِعَالُ الْكُثْرَيْنَ تَجَمَّلًا	وَمَالِي كَمَا قَدْ تَقَلَّبَيْنَ قَلِيلُ
وَكَيْفَ أَخَافُ الْفَقْرَ وَأُحْرِمُ الْفَقَى	وَرَأَى أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ جَمِيلُ

قال الرشيد : لا تخف إن شاء الله ، لله در أبيات تأتينا بها ما أشد أصولها ، وأحسن فصولها ، وأقل فضولها ، وأمر له بخمسين ألف درهم ، فقال له إسحاق : وصفك لشعري أحسن منه . فعلام آخذ الجائزة ؟ فضحك الرشيد ، وقال : اجعلوها مائة ألف ، قال الأصمعي : ضلعت يومئذ أن إسحاق أصيد للدرهم مني .

نبوغه في فنه

العجيب من أمره أنه لم يكن حسن الصوت ، فكان يجتمع مع المغنين ، وكلهم أحسن منه صوتاً ، ولم يكن فيه عيب إلا صوته فيطمعون فيه ، ولا يزال بلطفه ، وحذقه ، ومعرفته حتى يقلهم جميعاً ، ويفضلهم ويتقدم عليهم .

وبلغ من حذقه أنه كان يميز الخطأ في الضرب من جارية بين عشرين يضرين جميعاً فيعين موضع الخطأ ، بما لا يقدر أحد أن يهتدى إليه غيره .

حدث أن المأمون دعاه ، وعنده إبراهيم بن المهدي ، وفي مجلسه عشرون جارية يضرين فأمر إسحاق خطأ من واحدة منهن ، وبأن عليه الإنكار ، فقال له المأمون : أسمعتم خطأ ، قال : نعم ، ثم قال لإبراهيم بن المهدي : هل تسمع خطأ ؟ فقال : لا ، وتجادل هو وإبراهيم في هذا الشأن ، فقال إسحاق للمأمون : مر الجوارى اللاتي على اليمين أن يسكن ، فأمرهن بالإمساك ، ثم ضربت الجوارى التي على اليسار وحدهن ومازال يسكت بعضاً ويأمر بعضاً حتى انتهى إلى موضع الخطأ فأمر الجارية المخطئة أن تضرب وحدها فظهر الخطأ جلياً لإبراهيم ، وكان يكابر فيه ، فقال له المأمون : لا تمار إسحاق بعدها ، فإن رجلا عرف الخطأ بين عمارين وتراً وعشرين حلقاً لجدير ألا تماريه . قال : صدقت .

وقد ذكر صاحب الأغاني في بيان فضله أنه هو الذي صحح أجناس الغناء وطرائقه وميزه تمييزاً لم يقدر عليه أحد قبله ، ولا تعلق به أحد بعده ، ولم يكن قديماً مميّزاً على هذا الجنس ، إنما كان يقال : الثقل ، وثقل الثقل ، والخفيف ، وخفيف الخفيف ، وقد جعل إسحاق الثقل الأول أصنافاً فبدأ بإطلاق الوتر في مجرى البنصر ثم تلاه بما كان منه بالبنصر في مجراها ، ثم بما كان بالسبابة في مجرى البنصر ، ثم فعل هذا بما كان بالوسطى على هذه المرتبة ، ثم جعل الثقل الأول صنفين ، ولم يتعلق بفهم ذلك أحد بعده فضلاً من أن يصنفه في كتاب ، وهذا كله فعله إسحاق واستخرجه بتمييزه حتى

أتى على كل مارسمته الأوائل مثل أفليدس ، ومن قبله ومن بعده من أهل العلم بالموسيقى وقد واقفهم بطبعه وذهنه فيا قد أفتوا فيه الدهور من غير أن يقرأ لهم كتابا .

بعض نوادره وألحانه

حدث حماد ابنه أنه حدثه قال : غدت يوما ، وأنا ضجر من ملازمة دار الخلافة والخدمة فيها ، فخرجت ، وركبت بكرة ، وعزمت على أن أطوف الصحراء وأتفرج ، فقلت لنفساني : إن جاء رسول الخليفة أو غيره ، فمرفوه أئى بكرت فى بعض مهماتى ، وأنكم لا تعرفون أين توجهت ، ومضيت فطفت ما بدا لى ، ثم عدت ، وقد حمى النهار فوقفت فى الشارع المعروف بالحرم فى فناء نخيل الظل ، وجناح رحب لأستريح فلم ألبث أن جاء خادم يقود حماراً فارها ، عليه جارية راكبة تحتها منديل ديبقى ، وعليها من اللباس الفاخر ما لا غاية بعده ، ورأيت لها قواما حسناً ، وطرفاً فاتراً ، وشمائل حسنة ، فخرصت عليها أنها مغنية ، فدخلت الدار التى كنت واقفاً عليها ، ثم لم ألبث أن جاء رجلان شابان جيلان فاستأذنا ، فأذن لهما ، فزلا ونزلت معهما ، ودخلت فظننا أن صاحب الدار دعانى ، وظن صاحب الدار أئى معهما ، فجلسنا وأئى بالطعام فأكلنا وبالشراب فوضع ، وخرجت الجارية ، وفى يدها عود فغنت وشربنا ، وقت قومة ، وسأل صاحب الدار الرجلين عنى ، فأخبراه أنهما لا يعرفانى ، فقال : هذا طفيلى ولكنه ظريف فأجلوا عشرته ، وجئت فجلست ، وغنت الجارية فى لحن لى :

ذ كرتك أن مروت بنا أم شادن أمام الطايا تشرب وتسبح

من اللؤلؤات الرمل أدماء حرة شعاع الضحى فى متنها يتوضح

فأدنته أدهاء صالحاً وشربت ثم غنت أصواتاً شتى وغنت فى أضمافا من صنعتى :

الطُّلُولُ الدَّوَّارِسُ فارقَتْها الأوائسُ

أَوْحَشَتْ بَعْدَ أَهْلِها فَهَى قَفَرٍ بَسائِسُ

فكان أمرها فيه أحسن من الأول ثم غنت أصواتاً من القديم والحديث وغنت في أنشائها من صنعتي :

قُلْ لِمَنْ صَدَّ عَيْنِيَا وَنَأَى عَنْكَ سَجَانِيَا
قَدْ بَلَغْتَ الَّذِي أَرَدْتُ وَإِنْ كُنْتُ لَأَعْبِيَا

فكان أصلح ما غنته فاستعدته منها لأصححه لها فأقبل على رجل من الرجلين وقال : ما رأيت طفلياً أصفق وجهاً منك ، لم ترض بالتطفيل حتى اقترحت وهذا غاية المثل : طفيلي مقترح . فأطرت ولم أجه وجعل صاحبه يكفه فلا يكف ، ثم قاموا للصلاة وتأخرت قليلاً فأخذت عود الجارية ثم شددت طبقته وأصلحته إصلاحاً محكماً وعدت إلى موضعي فصليت وعادوا ثم أخذ ذلك الرجل في عربدته على وأنا صامت . ثم أخذت الجارية العود نجسته وأنكرت حاله وقالت : من مسّ عودى ؟ قالوا ما مسه أحد قالت : بلى والله لقد مسه صادق متقدم وشد طبقته وأصلحه إصلاحاً متمكناً من صناعته فقلت : لها : أنا أصلحته ، قالت : فبالله خذه واضرب به ، فأخذته وضربت به مبدأً صحيحاً ظريفاً عجيباً صعباً فيه نقرات محركة ، فما بقي أحد إلا وثب وجلس بين يدي ، ثم قالوا : ياسيدنا ، أنتنى ؟ فقلت : نعم ؛ وأعرفكم نعى أنا إسحاق بن إبراهيم الموصلي والله إني لأتبه على الخليفة إذا كلمني ، وأتم تسمعوني ما أكره منذ اليوم لأنى تملحت معكم ، فوالله لا نطق بحرف ، ولا جلست معكم حتى تخرجوا هذا المربد المقيت القث فقال له صاحبه : من هذا حذرت عليك . فأخذ يعتذر ؛ فقلت : والله لا نطق بحرف ولا جلست معكم حتى يخرج ، فأخذوا بيده فأخرجوه وعادوا ، فبدأت وغنيت الأصوات التي غنتها الجارية من صنعتي ، فقال لي الرجل : هل لك في خصلة ؟ قلت : وما هي ؟ قال : تقيم عندي شهراً والجارية والحمار لك مع ما عليها من حلى ؛ قلت : أفضل فأقت عنده ثلاثين يوماً لا يدرى أحد أين أنا والمأمون يطلبني في كل موضع فلا يعرف لي خبراً فلما كان بعد ثلاثين يوماً أسلم إليّ الجارية والحمار والخادم ، فنجت بذلك منزلي ،

وركبت إلى المأمون من وقتي ، فلما رأيته قال إسحاق : ويحك !! أين تكون ؟ ، فأخبرته بخبري ، فقال : على " بالرجل الساعة . فدللتهم على بيته ، فأحضر فسأله المأمون عن القصة فأخبر ، فقال له : أنت رجل ذو مروءة ، وسبيلك أن تعان عليها ، وأمر له بمائة ألف درهم ، وقال : لاتعاشرن ذلك المريد النذل البتة ، وأمر لي بخمسين ألف درهم ، وقال : أحضرني الجارية فأحضرتها ففتته ، فقال لي : قد جعلت لك نوبة في كل يوم ثلاثاء تفنين مع الجوارى من وراء الستار ، وأمر لها بخمسين ألف درهم .

وحدث حماد عن أبيه قال : خرجنا مع الرشيد يريد الرقة ، فلما صرنا بالموضع الذي يقال له القائم : نزلنا وخرج يتصيد وخرجنا معه فأبعد في طلب الصيد ، ولاح لي دير فقصدته وقد تعبت ، فأشرف على صاحبه ، فقال : هل لك في النزول بنا اليوم ؟ فقلت : إى والله ، وإني إلى ذلك لاحتاج ، فنزل ففتح لي وجلس يحدثني ، وكان شيعياً كبيراً ، وقد أدرك دولة بني أمية ، فجعل يحدثني عن نزل به من القوم ومواليهم وجيوشهم ، وعرض على الطعام فأبجته ، فقدم إلى طعاما من طعام الديارات نظيفاً طيباً فأكلت منه وأتاني بشراب وريحان طرى فشربت منه ، ووكل بي جارية تخدمني راهبة لم أر أحسن منها وجهاً ولا أشكل ، فشربت حتى سكرت ونمت وانتهت عشاء ، فقلت : في ذلك :

بَدَيْتُ الْقَائِمَ الْأَنْصَى غَزَالَ شَاكِدٍ أَخْوَى
بَرَى حَيٍّ لَهُ جَسَدِي وَلَا يَسْلَمُ مَا أَلْقَى
وَأَكْمُ حُبِّ جُهْدِي وَلَا وَاللَّهِ مَا يَحْتَفَى

وركبت فلحقت بالسكر والرشيد قد جلس للشرب فطلبتني فلم أوجد وأخبرت بذلك فغنيت في الأبيات ودخلت إليه فقال لي : أين كنت ويحك ؟ فأخبرته الخبر وغنيت الصوت فطرب وشرب عليه وآخر الرحيل في غد ومضينا إلى الدير ونزل فرأى الشيخ واستنطقه ، ورأى الجارية التي كانت تخدمني بالأمس فدعا بطعام خفيف فأصاب منه ،

ودعا بالشراب ، وأمر الجارية أن تتولى خدمته ففعلت ، وشرب حتى طابت نفسه ، ثم أمر للدير بألف دينار ، وأمر باحتمال خراج له سبع سنين .

سأل المتوكل عن إسحاق الموصلي فعرف أنه قد كفى ، وأنه بمنزلة ببغداد فكتب بإحضاره ، فلما دخل إليه رفعه حتى أجلسه قدام السرير وأعطاه مخدة ، وقال له : بلغنى أن المعتصم دفع إليك مخدة فى أول ما جلست بين يديه وهو خليفة ، وأنه قال : ما يستجلب ما عند حريمك الكرامة ، ثم سأله هل أكل ؟ فقال : نعم ، فأمر أن يسقى ، فلما شرب أقداحاً . قال : هاتوا لأبى محمد عودا لحنى به فاندفع يغنى بصوت (الشعر فيه والغناء له) :

مَا عَلَّةُ الشَّيْخِ عَيْنَاهُ بِأَرْبَعَةٍ تَفَرُّوْرَقَانِ يَدْمَعُ ثُمَّ يَنْسَكِبُ

فما بقى غلام من الغلمان الوقوف إلا رقص طربا وهو لا يعلم بما يفعل فأمر له بمائة ألف درهم . ثم انحدر المتوكل إلى رقة بوصرا وكان يستطيعها لكثرة تغريد الأطييار بها فغنى إسحاق :

أَنَّ هَتَفَتْ وَرَفَاهُ فِي رَوْتِ الصُّحَى عَلَى غُصْنٍ غَضَّ الشَّبَابِ مِنَ الرَّوْدِ
بَكَيتَ كَمَا يَبْكِي الْحَزِينُ صَبَابَةً وَشَوْقًا وَتَابَعْتُ الْحَزِينَ إِلَى تَجْدِ

فضحك المتوكل ، وقال له يا إسحاق : هذه أخت فعلتك بالوائق لما غنيتك بالصالحية :

طَرَبْتُ إِلَى أَصَيْبِيَّةٍ صِغَارٍ وَذَكَرْنِي الْهَوَى قَرِبَ الْمَرَارِ

فكم أعطاك لما أذن لك فى الانصراف ؟ قال : مائة ألف ، فأمر له بمائة ألف درهم وأذن له بالانصراف إلى بغداد فكان هذا آخر العهد به لأن إسحاق توفى بعد ذلك بشهرين .

وفاته

توفي ببغداد في خلافة المتوكل ، وكان يسأل الله ألا ينتليه بالقولنج لما رأى من صعبته على أبيه ، فرأى في المنام كأن قائلا يقول له : قد أجيت دعوتك ولست تموت بالقولنج ولكن بضده ، فأصابه ضرب في شهر رمضان سنة ٢٣٥ هـ ، فكان يتصدق في كل يوم يمكنه أن يصومه بمائة درهم ثم ضعف عن الصوم فمات في نفس الشهر .

لما نعى إلى المتوكل ، وكان ذلك في وسط خلافته اغتمّ وحزن وقال : ذهب صدر عظيم من جمال الملك وبهائه وزينته ، ثم نعى إليه بعمه أحمد بن عيسى (وكان المتوكل يخشاه) فقال تكافأت الحالتان وقام الفتح بوفاة أحمد (وما كنت آمن وبثبه على) مقام الفجيعة بإسحاق ، فالجد لله على ذلك .

ولما مات إسحاق رثاه كثير من الشعراء . ومما قاله فيه محمد بن عمرو الجرجاني :

عَلَى الْجَدِّ الشَّرِيفِ عَوْجًا فَسَلَّمَ بِيَعْدَادَ لَمَّا صَنَّ عَنْهُ عَوَائِدُهُ
وَقَوْلًا لَهُ لَوْ كَانِ لِلْمَوْتِ فِدَايَةٌ فَذَلِكَ مِنَ الْمَوْتِ ، الطَّرِيفُ وَتَالِدُهُ
أَسْحَاقُ لَا تَتَّبِعْهُ وَإِنْ كَانَ قَدْ رَمَى بَكَ الْمَوْتُ وَزِدَا لَيْسَ يَصْدُرُ وَارِدُهُ
إِذَا هَزَلَ اخْضَرَّتْ فَنُونُ حَدِيثِهِ وَرَقَّتْ حَوَاشِيهِ وَطَلَبَتْ مَشَاهِدُهُ
وَإِنْ جَدَّ كَانَ الْقَوْلُ جِدًّا وَأَقْسَمْتَ خَارِجُهُ أَلَّا تَلِينَ مَعَافِدُهُ
فَبَكَ عَلَى ابْنِ الْمَوْصِلِيِّ بَعِيرَةً كَمَا ارْتَفَضَ مِنْ نَظْمِ الْجُمَانِ فَرَائِدُهُ

انتهى والحمد لله ما أردنا به خدمة العلم ، ونفع الطلبة ، خالصاً لوجه الله . ورجاؤنا إليه تعالى أن يكون الجزاء على جهلنا فيه ، النفع به وحسن التقدير من كل من اطلع عليه .

وكان القراغ من إعداده في صبيحة يوم الخميس ٢٥ رمضان المبارك سنة ١٣٥٢ هـ .
الموافق ١١ يناير سنة ١٩٣٤ م ، والحمد لله والصلاة والسلام على رسوله صلى الله عليه
وسلم وعلى آله الأجداد .

محمد مصطفى

تمّ الجزء الثاني

ويليه : الجزء الثالث

وأوله

حياة اللغة في الأندلس

تفسيه

كثير من الخطأ الذي نصحه هنا لا يحتاج إلى الدلالة عليه لوضوحه لكل قارئ، ولكننا إمعاناً في الدقة نبهنا على كل ما وقع في الكتاب من مخالف للصواب، ونكاد نكون موقنين أن القارئ إذا بدأ بإثبات الصواب في موضعه من الكتاب لا يعثر بخطأ بعد ذلك.

الصفحة	السطر	الخطأ	صوابه
١٠	١٧	خَوَازِزِيَّة	خَوَازِزِيَّة
١٢	٨	ولم يقتصروا	ولم يقتصروا
٢٤	٢٠	(وتكسر اللام الثانية)	(تفتح وتكسر...)
٢٥	٩	واخلولنجان والآزديون	واخلولنجان والآزديون
٢٩	٣	فمبي	فمبا
٤٤	٥	والكرجج	والكرج
٤٦	١٧	أحرف	أحرفا
٦١	٢	بهظها	بهظنا
٦٧	٧	لَتَسْأَلَنَّ	لَتَسْأَلَنَّ
٧٢	٦	والاستعانة كما	والاستعانة به كما
٧٣	١٣	ومثلت	ومثلت
٧٦	٩	تلك البلدة	تلك البلدة
٨١	٤	اشترطوا	فاشترطوا
٨٩	١٧	ولا حالوا	ولا حاولوا
٩٨	٥	في ساق	في سياق

الصفحة	السطر	الخطأ	صوابه
١٠٤	٥	يَسْتَوِيكَ	يَسْتَوِيكَ
١٠٥	٩	وَأِنْ بَدَلْ	وَأِنْ بَدَلْ
١١٢	٤	وَاللَّحْمَةُ	وَاللَّحْمَةُ
١١٧	١٠	لَصَدْمِكَ	لَصَدْمِكَ
١١٩	٨	الْمَشَاقَّةُ	الْمَشَاقَّةُ
١٢٠	٨	وَتَسْتَكْمِلُ	وَتَسْتَكْمِلُ
١٢٤	١٦	يَنْتَجِزُهَا	يَنْتَجِزُهَا
١٣٩	٧	وَقَصْرَ	وَقَصْرَ
١٣٩	١٥	وَضَوْءُهُ	وَضَوْءُهُ
١٤٠	٢٠	وَالْقَوَانِينِ	وَالْقَوَانِينِ
١٤٦	٢١	(صَد)	(صَد)
١٥٥	٧	نَهْدَامَ	نَهْدَامَ
١٧١	٤	وَاحْضَرَّ	وَاحْضَرَّ
١٧٢	١٣	أُظْفِنَا	أُظْفِنَا
١٨٧	١٨	الْفَضْلُ مِنَ الرَّبِيعِ	الْفَضْلُ مِنَ الرَّبِيعِ
١٩٤	١٢	يَلْعُونُ	يَلْعُونُ
١٩٥	٢١	وَقَمًّا	وَقَمًّا
١٩٦	٢٠	مَرَّبَ	مَرَّبَ
٢٠٣	١٧	كَكَثِيرِ لَبْنِي	كَكَثِيرِ عِزَّةٍ وَقَيْسِ لَبْنِي
٢١٦	٩	مِنْ مَجْلِسِ	مِنْ مَجْلِسِ
٢٢١	١٦	عَقِبَهُ	عَقِبَهُ

الصفحة	السطر	الخط	صوابه
٢٧٢	٢٤	ويقرأ	ويقرأ
٢٩٨	١٨	الغامرة	الغامرة
٣٠٤	١٣	أغنت	غنت
٣٠٩	٧	المرأة	المرءة
٣٢٢	٧	ومن	من
٣٢٥	٣	ثم قرض	ثم فرض
٣٣٥	١٩	عيون	عيون
٣٣٦	١٨	أذريونة	أذريونة
٣٣٧	٦	عقودها	عقودها
٣٤٤	٢	خزأنه	خزأنه
٣٤٤	١٩	تكن	تكن
٣٥٩	١٢	أسودا	أسودا
٣٦٧	٣	في	في
٣٦٧	٩	وبنيهم	وبنيهم
٣٧٢	٦	لا جزء	لا جزء
٣٩٥	٢	بها	بها
٣٩٨	٤	والطحا	والطحا
٤٠٢	٢	التميرى	التميرى
٤٠٢	١٩	طبقة بن	طبقة ابن
٤٠٣	١٠	وصر دز	وصر دز
٤٠٨	٦	وكانا بشار	وكان بشار

الصفحة	السطر	الخط أ	صوابه
٤١٣	١٣	زنديقا	زنديقا
٤١٣	١٥	كأن	كان
٤٢١	١١	الأولى	الألى
٤٣٣	٦	الأحداث	الأجداث
٤٤٥	١٥	نفوس	نفوس
٤٤٧	١٥	ورايات ... وجنود	ورايات ... وجنود
٤٦٣	١٤	الآزام	الالتزام
٤٦٨	١٣	تحت	تجنت

فهرس

موضوع	صفحة	موضوع	صفحة
الخطابة	٥٠	٣ مقدمة الطبعة الأولى والثانية	
خطباء العصر العباسي	٥٦	٤ العصر العباسي	
نماذج من خطب الخلفاء والولاة	٥٨	قيام الدولة العباسية	
(١) خطبة لأبي العباس السفاح		٧ سياسة الدولة العباسية	
(٢) » له أيضاً	٦٠	٩ نتائج مداخله العرب للعوالي	
(٣) » »	٦٣	١٥ أقسام العصر العباسي	
(٤) » لسليمان بن علي		١٦ المدة الأولى	
(٥) » لأبي جعفر المنصور	٦٤	١٧ المدة الثانية	
(٦) » المهدي	٦٥	١٨ المدة الثالثة	
(٧) » الرشيد	٦٧	٢١ تأثير اللغة الفارسية في اللغة العربية	
(٨) » للمأمون	٧٠	١٣ التعريب	
(٩) » لطاهر بن الحسين	٧١	٢٧ معاني اللغة وأغراضها	
(١٠) » لعبد الله بن طاهر		٢٨ (١) اتساع الخيال	
نموذج من خطب أئمة المساجد	٧٢	٣٠ (٢) المبالغة الشديدة	
خطبة لابن نباتة خطيب حلب		٣٢ (٣) الإكثار من الحكمة والمثل الخ	
نماذج من أقوال الوعاظ	٧٤	٣٨ لغة التخاطب	
الكتابة	٧٨	٤٣ اختلاف العامية في الأقاليم	
كتابة النواوين	٧٩	٤٨ ألفاظ من العامي والولد	

مصحف	الموضوع	مصحف	الموضوع
٨٣	آثار العصر في الكتابة	١٠٥ (٧)	كتاب لابن الزيات
٨٩	اختلاف أساليب الرسائل	١٠٦ (٨)	» » »
	(١) في المدة الأولى	(٩)	» الحسن بن وهب
٩٠	(٢) » » الثانية		في الشكر
٩١	(٣) » » الثالثة	١٠٧ (١٠)	كتاب الجعفر بن محمد بن الأشعث
٩٣	التوقيعات	(١١)	» لعل بن هشام
٩٥	أمثلة التوقيعات	(١٢)	» للعتابي
٩٧	المقامات	١٠٨ (١٣)	» لطاهر بن الحسين
٩٩	الكتابة العلمية		إلى ابنه عبد الله حين ولى
١٠٢	نماذج من كتابة البغاء في المدة الأولى من العصر العباسي		ديار ربيعة
	(١) كتاب للمنصور إلى أبي مسلم ورد أبي مسلم عليه	١١١ (١٤)	كتاب لطاهر بن الحسين
١٠٣	(٢) كتاب ثان من المنصور إليه	(١٥)	» لأحمد بن يوسف
	(٣) كتاب ليحيى إلى الفضل البرمكيين	١١٢ (١٦)	» » » »
١٠٤	(٤) كتاب لطاهر بن الحسين إلى الفضل بن سهل	١١٣ (١٧)	» للأمين [توقيع]
	(٥) وصف الصديق لابن المقفع	(١٨)	» لأحمد بن يوسف
١٠٥	(٦) لابن المقفع يطلب حاجة	(١٩)	» » » »
		١١٤ (٢٠)	» » » »
		(٢١)	» لمرو بن مسعدة
		١١٥ (٢٢)	» » » »
		(٢٣)	» لإبراهيم بن العباس
			الصولى

الموضوع	مصحفة	الموضوع	مصحفة
كتاب للقاضي الفاضل في وصف حمام الرسائل (٢) ١٢٦		كتاب لإبراهيم بن العباس (٢٤) ١١٦	
كتاب للقاضي الفاضل عن لسان صلاح الدين الأيوبي (٣)		نماذج من كتابة البلغاء في المدة الثانية من العصر العباسي	
قطعة من كلام عماد الدين الأصفهاني في كتابه (الفتح القسي ، في الفتح القدسي) ١٢٧ (٤)		كتاب لابن العميد إلى بلكا بن ونداد ١١٧ (١)	
كتاب للقاضي الفاضل في الشوق (٥) ١٢٨		كتاب لابن العميد إلى صديق تزوجت أمه على رغبة ١١٩ (٢)	
كتاب للقاضي الفاضل في الشوق (٦) ١٢٩		كتاب للصاحب بن عباد إلى ابن العميد ١٢١ (٣)	
من المقامة الرابعة والعشرين للحريري (٧) ١٣٠		كتاب للصاحب بن عباد في مصحف أهدي إليه ١٢٢ (٤)	
من المقامة السادسة المراغية للحريري (٨) ١٣١		كتاب لأبي إسحاق الصابي في الاستراحة ١٢٣ (٥)	
من المقامة السادسة عشرة للمغربية للحريري (٩) ١٣٢		كتاب لأبي إسحاق في الاعتذار من تأخر الكتب ١٢٤ (٦)	
من المقامة السابعة عشرة القهقرية للحريري (١٠)		كتاب رجل إلى محمد بن عبد الله ابن طاهر، في الشكر ١٢٥	
مقالة في ذم الحرص للزنجشري (١١) ١٣٤		نماذج من كلام البلغاء في اللة الثالثة من العصر العباسي	
		كتاب للقاضي الفاضل على لسان خطيب عيذاب (١)	

الموضوع	صحيفة	الموضوع	صحيفة
١٤٤ مؤهلات فضله		١٣٤ (١٢) مقالة في حفظ اللسان	
١٤٧ تصرفه وأحواله		للزخشرى	
١٤٩ بين الخوارزمى وبديع الزمان		١٣٥ (١٣) مقالة في الحث على الجد	
١٥٢ ثره وشعره		للزخشرى	
١٥٤ مختار قوله		نماذج من الكتابة العلمية في	
١٥٨ (٢) بديع الزمان الهمداني		العصر العباسى	
نشأته وتصرفه		(١١) قطعة من كتاب الخراج	
١٦٠ نبوغه		لأبى يوسف	
١٦٣ مقاماته		١٣٦ (٢) قطعة من كتاب سيبويه	
١٦٤ أسلوبه		١٣٧ (٣) قطعة من كتاب الحيوان للحافظ	
١٦٥ مختار قوله من رسائله		ب عنوان « القول في الحيات »	
١٧٠ المختار من مقاماته		١٣٨ (٤) قطعة من كتاب الموازنة بين	
١٧٣ » » شعره		أبى تمام والبحترى	
١٧٥ العلوم فى العصر العباسى		١٣٩ (٥) قطعة من كتاب أسرار البلاغة	
١٧٧ أقسام العلوم - العلوم اللسانية -		ب عنوان « فى مواقع التمثيل »	
النحو		١٤٠ (٦) قطعة من كتاب إحياء	
١٨٠ القروق بين مذهبي البصريين		علوم الدين للفزائى	
والكوفيين		(٧) قطعة من كتاب إحصاء	
١٨١ علم اللغة		العلوم للفارابى	
١٨٧ علوم البلاغة		١٤١ تراجم الكتاب	
١٩٢ علم العروض		(١) أبوبكر الخوارزمى - نشأته وتعلمه	

صحيفة	الموضوع	صحيفة	الموضوع
٣٥٩	نماذج من بقية الأغراض	٢٩٠	مدى شهرة الجاحظ
٣٦٩	لفظ الشعر وأسلوبه	٢٩٢	مختارات من كلامه
٣٧٥	أوزان الشعر وقوافيه	٢٩٧	مجالس العلم والمناظرة
٣٨٣	المولودون أو المحدثون	٣٠٠	أمثلة من المناظرات الأدبية
٣٨٥	محاسن المولدين في الشعر	٣٠٦	المناظرات في العقائد
٣٩٣	مساوئ » » »	٣٠٧	القول بخناق القرآن
٣٩٩	أمثلة من ضبط العلوم بالنظم	٣١٠	المدارس في الدولة العباسية
	باب الشرط والجزاء من كتاب	٣١٦	الجامع الأزهر
	« ملححة الإعراب »		
٤٠٠	تعريف الحد (من أرجوزة	٣١٧	الشعر في الدولة العباسية
	ابن سينا في المنطق)		
٤٠١	طبقات الشعراء العباسيين		منزلة الشعر
٤٠٤	بشار بن برد	٣٢٤	شأن الشاعر
٤٠٧	خلقه وخلقه	٣٢٨	معاني الشعر
٤١٢	آراؤه ومعتقداته	٣٢٩	المعاني القديمة
٤١٣	شاعريته	٣٣٤	» الجديدة
٤١٩	الأغراض في شعره	٣٤٠	أغراض الشعر
٤٢٩	الآراء في بشار	٣٤٢	نماذج من أغراض الشعر
٤٣١	حياة أبي العتاهية - نسبه		المدح
٤٣٤	أوصافه ومعتقده	٣٤٨	الهجاء
٤٣٧	علاقته بالخلفاء وغيرهم	٣٥٣	شعر السياسة
٤٤٣	شعره	٣٥٦	الغزل بالمدح

الموضوع	صحيفة	الموضوع	صحيفة
رواية الأدب	٥٣٣	٤٥٤ حياة أبي تمام - نسبه	
حياة الأصمعي	٥٣٦	٤٥٥ نشأته وتصرفه	
نوادير الأصمعي	٥٣٨	٤٥٨ صفاته ومزاياه	
آثار الأصمعي	٥٤٠	٤٦٣ شعره	
القناء والمغنون	٥٤١	٤٧٠ العميوب في شعره	
عناية الخلفاء بالقناء	٥٤٢	٤٧٣ الأغراض في شعره	
قديم القناء وحديثه	٥٤٥	٤٨٠ آثاره	
تعليم الجوارى	٥٤٦	٤٨١ حياة البحترى - نسبه - نشأته	
مبلغ إجادة القناء	٥٤٨	٤٨٧ منادمته للمتوكل	
أيام العباسيين		٤٩٠ البحترى مع المنتصر ومن بعده	
التأليف في القناء	٥٥١	من الخلفاء	
مصطلحات الأغاني		٤٩٢ شعر البحترى	
إسحاق الموصلي	٥٥٤	٤٩٥ أغراض الشعر عنده	
نبوغه في فنه	٥٥٦	٥٠٧ آثار البحترى وما قيل فيه	
بعض نوادره وألحانه	٥٥٧	٥٠٨ سرقاته	
وقاته	٥٦١	٥١٠ النقد والموازنة في العصر العباسي	
		٥٣١ الرواية والرواة	

تعريف

الأدب العربي قديماً وحديثاً

للؤلف

يقع في حجم أخويه : الأول ، والثاني ، وتمثل فيه العناية التي
تمثلت فيهما ، من الضبط وتمام الشرح وتحقيق الرواية .

وهو يصف حياة العربية في الأندلس ، منذ فتحها إلى خروج
المسلمين منها ، كما يلمّ الإمامة مناسبة بحياتها في بلاد المغرب ، ويعمل نبوغ
الناخبين من رجاله .

ويتناول أكثر من نصف الكتاب كلام مفصل عن حياة اللغة
بالمشرق بعد انقضاء الخلافة ببغداد واستقرارها بمصر ، في تصوير
حسن لمصرى المماليك ، والأتراك العثمانيين .

أما المصر الحاضر ، فقد خصه من الكتاب قرابة مائتي صفحة ،
وحوى مادة لم يسبق لكتاب عربي أن حواها في الحكم على هذا العصر ،
ومناحي اللغة فيه .

